شرح الفتوى الحموية الكبرى

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله

من الدرس (١) إلى الدرس (٣)

الشيخ لم يراجع التفريغ

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

أولاً: أسأل الله ﷻ أن يبارك لنا أجمعين في مجلسنا هذا، وأن يَمُنّ علينا فيه بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يَمُنّ علينا بالهداية والسداد، وأن يعيننا على كل خير وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونِعْم الوكيل.

ثم- أيها الإخوة الأكارم!- هذه الرسالة التي بين أيدينا المعروفة بـــ «الفتوى الحموية الكبرى» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، رسالة عظيم نفْعُها، كبيرة فائدتها في بابها «توحيد الأسماء والصفات».

وقد كتبها-رحمه الله تعالى- في جلسة واحدة- كما أخبر بذلك، وكما أخبر بذلك طلابه-، وكانت هذه الجلسة بين الظهر والعصر.

وسبب كتابته رحمه الله لهذه الرسالة: طلب وُجِّه إليه من حماة، المدينة المعروفة في أرض الشام، وأُلِحَّ عليه رحمه الله تعالى في الجواب على السؤال.

وهذا شأن عامة وغالب رسائله-رحمه الله تعالى- تكون مبنية على سؤال وطلب، فيكتب للحاجة- رحمه الله تعالى-.

وكان السؤال الذي وُجِّه إليه هو سؤال عن الصفات، صفات الله تبارك وتعالى، ولاسيما الصفات التي تُعرَف بالخبرية؛ أي: التي لا يدل عليها إلا الخبر، كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، وفيها المُعترَك الأشد، والخصومة الأكبر بين أهل السُّنة رحمهم الله تعالى ومَنْ خالفهم من طوائف أهل الكلام الباطل.

فحرّر رحمه الله تعالى جواب هذا السؤال في قعدة واحدة في هذه الرسالة التي بين أيدينا، وضمَّنها رحمه الله من التحقيقات المتينة والتأصيل والتقعيد، وحُسن البيان والتقرير، ما جعل هذه الرسالة تُعَدُّ مرجعاً أساساً في هذا الباب؛ بل إنها قُرِّرَت من علماء أكابر في بعض الجامعات ككتابٍ لا بد منه لطالب العلم في

المرحلة الجامعية، وهو أحد الكتب التي يسّر الله لنا دراستها في كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية، وكان مُقرراً علينا دراسة ذلك الكتاب في ذلك الوقت.

هو كتاب عظيم، كبير الفائدة، وضمّنه رحمه الله تعالى نقولاً ثمينة وأقوالاً عديدة عن أئمة السلف رحمهم الله تعالى، كما أنه ضمّنه شيئاً من النقول عن بعض العلماء المُعظَّمين عند أهل الكلام إلزاماً لهم بنقل تلك الأقوال.

وتضمنت هذه الرسالة فوائد عظيمة وثمينة، ومهمة جداً لطالب العلم.

يقول رحمه الله تعالى في بيان سبب تأليفه لهذه الرسالة: كنت سُئلت من مدة طويلة، بُعَيْد سنة تسع وستمائة عن الآيات والأحاديث الواردة في صفات الله تعالى، في فُتيا قدمت من حماة- أي: أُرسِلت إليه رحمه الله تعالى من حماة- فأحلت السائل على غيري، فذكر أنهم يريدون الجواب منّي فكتبت الجواب في قعدة بين الظهر والعصر.

وهذا المعنى ذكره أيضاً عدد من تلاميذه وخواص طلابه، ومنهم: ابن القيم رحمه الله تعالى، وابن عبد الهادي، وغيرهما من تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

وتُعرَف هذه الرسالة بـ «الفتوى الحموية الكبرى» تمييزاً لها عن الفتوى الحموية الصغرى، والذي يظهر- والله تعالى أعلم- أن شيخ الإسلام كتب جواب ذلك السؤال مرتين؛ مرة كانت الإجابة مُختصرةً، ثم كتب الإجابة مرة أخرى، وتوسَّع في النقول وجَمْع أقاويل السلف رحمهم الله تعالى فمُيِّزَت هذه الرسالة بـ«الفتوى الحموية الكبرى»، والأخرى التي كتبها جواباً على السؤال نفسه مُختصرةً عُرفت بـ «الفتوى الحموية الصغرى».

وفي قراءتنا لهذه الرسالة لا يتيسر التوسع في شرحها، وبيان مضامينها لأن الوقت الذي نقرأ فيه هذا الكتاب وقت قصير (خمسة أيام) بعد الفجر، فالوقت لا يكفي للتوسع في الشرح، لكن سنقرأ وأُعلِّق تعليقاتٍ يسيرة مُقتضبة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعني وإياكم بهذه القراءة وأن يلهمنا جميعاً التوفيق والسداد، والعون على كل خير.

بسم الله الرحمن الرحيم

سُئِلَ شَيْخُ اَلْإِسْلَامِ أَبُو اَلْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ تَيْمِيَّةَ:

وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَجَرَى بِسَبَبِ هَذَا اَلْجَوَابِ أُمُورٌ وَمِحَنٌ، وَهُذا جَوابٌ عَظِيمُ اَلنَّفْعِ جِدّاً. فَقَالَ اَلسَّائِلُ: مَا قَوْلُكُمْ فِي آيَاتِ اَلصِّفَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ۝١١﴾ [فصلت:١١]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ اَلْآيَاتِ وَأَحَادِيثِ اَلصِّفَاتِ كَقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اَلرَّحْمَنِ»، وَقَوْلِهِ: «يَضَعُ اَلْجَبَّارُ قَدَمَهُ فِي اَلنَّارِ»، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ اَلْأَحَادِيثِ، وَمَا قَالَتْ اَلْعُلَمَاءُ؟ وَابْسُطُوا اَلْقَوْلَ فِي ذَلِكَ مَأْجُورِينَ إِنْ شَاءَ اَللَّهُ تَعَالَى.

فَأَجَابَ:..

هذا هو نص السؤال الذي ورد إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، ومَنْ كتب هذا السؤال هم من أهل حماة؛ ولهذا عُرِفت- كما قدّمت- هذه الرسالة بـ «الحموية».

وكثير من رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تُعرَف في أسماء البلدان التي كُوتِب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في سؤال، أو طلب كتابة في موضع ما، أو تقرير مسألة ما، فكانت كثير من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تُنسَب إلى البلدان التي وردت منها تلك الأسئلة كالتدمرية نسبةً إلى تدمر، والمدنية إلى المدينة، والواسطية إلى واسط، والصفدية، وهذه الرسالة التي بين أيدينا الحموية، وكثير من كتبه رحمه الله تعالى.

ثم إن هذه الرسالة- كما جاء في بعض النُّسخ- كتبه رحمه الله تعالى في سنة ثمان وتسعين وستمائة، كتب رحمه الله تعالى هذه الرسالة وهذا الجواب العظيم النافع.

والسؤال- كما نرى- هو سؤال عن آيات الصفات وأحاديث الصفات، ما القول فيها؟، ما الذي يجب على المسلم أن يعتقده في آيات الصفات، وأحاديث الصفات؟، ما القول الحق الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم في آيات الصفات، وأحاديث الصفات؟.

وذُكِر في السؤال أمثلة على آيات في الصفات.. صفات الله تبارك وتعالى، وأيضاً أحاديث في الصفات، فذُكِر ما يتعلق بالاستواء، وأيضاً ما يتعلق بإثبات الأصابع، وأيضاً ما يتعلق بإثبات القدم لله ﷻ، فهذه بعض الذي ذُكِر، وذُكِر تمثيلاً، ونبّه السائل على ما سوى ذلك مما هو نظير له بقوله: (إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ اَلْأَحَادِيثِ).

وهذه الآيات والأحاديث التي حُددت أو ذُكِرت تحديداً في هذا السؤال كلها تتعلق بالصفات الخبرية.

والصفات الخبرية هي التي لا سبيل إلى العلم بها إلا من خلال الخبر، يقابلها صفات تُسمى أو توصَف بالعقلية، بمعنى: أنه إضافةً إلى دلالة الخبر عليها، فإن العقل يدل عليها؛ مثلاً: العلو، والرحمة، والقدرة، والمشيئة، والحياة، وغيرها؛ هذه صفات عقلية، أي: إضافةً إلى دلالة الخبر عليها يمكن أن يُستدل لها بالعقل.

أما الصفات الخبرية فإنها مُيِّزَت بهذا الاسم باعتبار أنها لا سبيل إلى معرفتها إلا بالخبر فقط، فجاءت آيات وأحاديث مُثبِتة لهذه الصفات لله تبارك وتعالى، فما القول الحق في ذلك؟ طلبوا من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أن يبسط لهم الجواب في ذلك مأجوراً.

وكتب رحمه الله تعالى جواب هذا السؤال في قعدة بين الظهر والعصر في هذه الرسالة التي بين أيدينا.

فَأَجَابَ:

اَلْحَمْدُ للهَّ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ، قَوْلُنَا فِيهَا مَا قَالَهُ اَللهُّ وَرَسُولُهُ ﷺ وَالسَّابِقُونَ اَلْأَوَّلُونَ مِنْ اَلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَمَا قَالَهُ أَئِمَّةُ اَلْهُدَى بَعْدَ هَؤُلَاءِ اَلَّذِينَ أَجْمَعَ اَلْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، وَهَذَا هُوَ اَلْوَاجِبُ عَلَى جَمِيعِ اَلْخَلْقِ فِي هَذَا اَلْبَابِ وَغَيْرِهِ، فَإِنَّ اَللهَّ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ بِالْهُدَى وَدِينِ اَلْحَقِّ لِيُخْرِجَ اَلنَّاسَ مِنْ اَلظُّلُمَاتِ إِلَى اَلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَمِيدِ، وَشَهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ بَعَثَهُ دَاعِياً إِلَيْهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨].

فَمِنْ اَلْمُحَالِ فِي اَلْعَقْلِ وَالدِّينِ أَنْ يَكُونَ اَلسِّرَاجُ اَلْمُنِيرُ اَلَّذِي أَخْرَجَ اَللهُّ بِهِ اَلنَّاسَ مِنْ اَلظُّلُمَاتِ إِلَى اَلنُّورِ، وَأَنْزَلَ مَعَهُ اَلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ اَلنَّاسِ فِيمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ، وَأَمَرَ اَلنَّاسَ أَنْ يَرُدُّوا مَا تَنَازَعُوا فِيهِ مِنْ دِينِهِمْ إِلَى مَا بُعِثَ بِهِ مِنْ اَلْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى اَللهِ وَإِلَى سَبِيلِهِ بِإِذْنِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَكْمَلَ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ دِينَهُمْ وَأَتَمَّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ-مُحَالٌ مَعَ هَذَا وَغَيْرِهِ- أَنْ يَكُونَ قَدْ تَرَكَ بَابَ اَلْإِيمَانِ بِاللهِ وَالْعِلْمِ بِهِ مُلْتَبِساً مُشْتَبِهاً، فَلَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ مَا يَجِبُ للهَّ مِنْ اَلْأَسْمَاءِ اَلْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ اَلْعُلْيَا، وَمَا يَجُوزُ عَلَيْهِ وَمَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ.

بدأ رحمه الله تعالى جواب هذا السؤال في بيان الأصل في هذا الباب، وما يجب على كل مسلم تجاه آيات وأحاديث الصفات أن يقول فيها بما قاله الله وقاله رسوله عليه الصلاة والسلام في ضوء فهْم السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

وهذا الأصل أصل يُتَّبَع في جميع أبواب الدين، ويُسار عليه في جميع مسائل الدين في أصوله وفروعه،

وهذا هو الواجب على كل مسلم.

ولهذا يقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى: ونصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والحديث.

فالقول في ذلك: أن نؤمن بما جاء في كتاب الله، وبما جاء عن رسول الله ﷺ من آيات فيها، وأحاديث فيها صفات لله تبارك وتعالى، ونؤمن بها كما جاءت، ونُمِرُّها كما وردت، ولا نتجاوز الكتاب والسُّنة.

ونكون أيضاً في فهْمنا لهذه الآيات وتَفَقُّهِنا في معانيها سائرين على نَهْج السلف الصالح من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥].

ثم نبّه رحمه الله تعالى أنه من المحال (أَنْ يَكُونَ اَلسِّرَاجُ اَلْمُنِيرُ) صلوات الله وسلامه عليه ترك هذا الأصل العظيم والأساس المتين الذين هو المعرفة بالله دون أن يبيّنه، وترك ذلك لعقول الناس تقول فيه ما شاءت وتخوض فيه كيفما أرادت! هذا من المحال، من المحال أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام ترك الأمة دون أن يبين لهم ما يجب عليهم أن يعرفوه تجاه ربهم من حيث معرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته.

فإذا عُلِم أن ذلك أمر باطل، وأنه مُحال أن يكون النبي ﷺ ترك بيان ذلك فيكون الواجب حينئذٍ أن يلزم المسلم هذا البيان البيّن، والإيضاح الوافي الذي جاء عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

وإذا نظرنا إلى طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان نجد أنهم يتلقون كل ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام من آيات للصفات وأحاديث للصفات يتلقونها بالتسليم والقبول وعدم الاعتراض والانتقاد، وإنما وُجِد التأويل والاعتراض والانتقاد والمخالفة وُجِد فيما بعد، عندما ظهرت الفتن بقرونها وبرزت، وأصبحت التيارات البدعية الكلامية يعترضون وينتقدون على أحاديث الرسول الكريم؛ بل وعلى آيات القرآن الكريم.

فَإِنَّ مَعْرِفَةَ هَذَا أَصْلُ اَلدِّينِ، وَأَسَاسُ اَلْهِدَايَةِ، وَأَفْضَلُ مَا اكْتَسَبَتْهُ اَلْقُلُوبُ، وَحَصَّلَتْهُ اَلنُّفُوسُ، وَأَدْرَكَتْهُ اَلْعُقُولُ، فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ اَلْكِتَابُ، وَذَلِكَ اَلرَّسُولُ وَأَفْضَلُ خَلْقِ الله بَعْدَ اَلنَّبِيِّينَ لَمْ يُحْكِمُوا هَذَا الكتاب اعْتِقَاداً وَقَوْلاً!.

هذا الباب الذي هو معرفة الله بمعرفة أسمائه وصفاته هو أصل الدين، أي: أساسه الذي عليه يُبنَى.

والنبي عليه الصلاة والسلام بيّن الدين كله (أصوله وفروعه)، من المحال أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام بيّن للناس دينهم، كيف يصلون، كيف يتوضئون، كيف يتعاملون، كيف يُزّكون، كيف يصومون، ولا يكون بيّن لهم الأصل والأساس الذي يُبنَى عليه الدين! هذا من المحال، من المحال أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام ترك هذا الأصل دون بيان.

قال رحمه الله:

وَمِنْ اَلْمُحَالِ أَيْضاً أَنْ يَكُونَ اَلنَّبِيُّ ﷺ قَدْ عَلَّمَ أُمَّتَهُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى اَلْخِرَاءَةَ، وَقَالَ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى اَلْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ».

وَقَالَ فِيمَا صَحَّ عَنْهُ أَيْضاً: «مَا بَعَثَ اَللهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ حَقّاً عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ شَرِّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ».

وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: لَقَدْ تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَا مِنْ طَائِرٍ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي اَلسَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لنا مِنْهُ عِلْماً.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ اَلْخَطَّابِ رضي الله عنه: قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ مَقَاماً فَذَكَرَ بَدْءَ اَلْخَلْقِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ اَلْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ وَأَهْلُ اَلنَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ. رَوَاهُ اَلْبُخَارِيُّ.

يقول رحمه الله تعالى: من المحال أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام بيّن التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالأحكام والفروع، ومن ذلكم ما مثّل له بالخراءة- أي: قضاء الحاجة، وآداب قضاء الحاجة-، بيّنه تفصيلاً.

ومَنْ يقرأ في كتب الفقه، أو أحاديث الأحكام يجد أحاديث كثيرة جداً وتفاصيل واسعة كلها تتعلق بقضاء الحاجة، جاء هذا الأمر مُفصلاً عنه صلوات الله وسلامه عليه.

وقد جاء عن سلمان الفارسي رضي الله عنه لما أخذ بعض المشركين واليهود يتهكم ويسخر ويقول: نبيكم علمكم كل شيء، حتى الخراءة، يقولون ذلك على وجه السخرية والتهكم، فقال رضي الله عنه لما قالوا ذلك: أجل! نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو

أن نستنجي برجيع أو بعظم، هذه مفخرة تُعتبَر، هذه مفخرة لأمة الإسلام ومنقبة عظيمة أن النبي عليه الصلاة والسلام بيّن كل شيء.

ووالله إنها نعمة عظمى، ومِنَّة كبرى بهدايات هذا الدين، حتى التفاصيل الدقيقة التي تتعلق بقضاء الحاجة، بماذا ينظف الخارج من السبيلين، وكيف ينظف ذلك، وأي يد يستخدم، وكيف يجلس، وكيف يتوارى عن الأنظار، وكيف يستر عورته، وكيف يتجنب رشاش البول لا يمس بدنه، تفاصيل عظيمة جداً مُبَيَّنَة، من المحال- انتبه لهذه الفائدة!- من المحال أن يكون النبي ﷺ فصّل هذه التفاصيل التي تتعلق بالفروع- مثل آداب قضاء الحاجة- ويترك الأصل الذي هو معرفة الله ﷻ دون أن يُبيّنه، فيقول: هذا من المحال.

وهو عليه الصلاة السلام ترك أمته على البيضاء- أي: الواضحة- (لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا) سواء، من المحال أن يكون تركهم على البيضاء ويكون أصل الدين وأساسه لم يوضحه ولم يُبيّنه لهم عليه الصلاة والسلام.

ومثل ذلك: أثر أبي ذر وعمر، كلها تؤكد هذا المعنى، أن النبي عليه الصلاة والسلام بلَّغ البلاغ المبين، وما ترك خيراً إلا دلَّ الأمة عليه، ولا شرّاً إلا حذَّرها منه.

قال رحمه الله:

مُحَالٌ مَعَ تَعْلِيمِهِمْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ فِيهِ مَنْفَعَةٌ فِي اَلدِّينِ -وَإِنْ دَقَّتْ- أَنْ يَتْرُكَ تَعْلِيمَهُمْ مَا يَقُولُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَيَعْتَقِدُونَهُ بِقُلُوبِهِمْ فِي رَبِّهِمْ وَمَعْبُودِهِمْ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ، اَلَّذِي مَعْرِفَتُهُ غَايَةُ اَلْمَعَارِفِ وَعِبَادَتُهُ أَشْرَفُ اَلْمَقَاصِدِ وَالْوُصُولُ إِلَيْهِ غَايَةُ اَلْمَطَالِبِ، بَلْ هَذَا خُلَاصَةُ اَلدَّعْوَةِ اَلنَّبَوِيَّةِ وَزُبْدَةُ اَلرِّسَالَةِ اَلْإِلَهِيَّةِ، فَكَيْفَ يَتَوَهَّمُ مَنْ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى مُسْكَةٍ مِنْ إِيمَانٍ وَحِكْمَةٍ أَنْ لَا يَكُونَ بَيَانُ هَذَا اَلْبَابِ قَدْ وَقَعَ مِنْ اَلرَّسُولِ ﷺ عَلَى غَايَةِ اَلتَّمَامِ، إِذَا كَانَ قَدْ وَقَعَ ذَلِكَ مِنْهُ فَمِنْ اَلْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ أُمَّتِهِ وَأَفْضَلُ قُرُونِهَا قَصَّرُوا فِي هَذَا اَلْبَابِ، زَائِدِينَ فِيهِ أَوْ نَاقِصِينَ عَنْهُ.

نعم.. يعني أن هذا كله تأكيد لما سبق؛ أن النبي عليه الصلاة والسلام بيّن الدين كله (أصوله، وفروعه) أتمّ بيان وما ترك شيئاً من أبواب الدين إلا وقد بيّنه صلوات الله وسلامه عليه، ومن المحال أن يكون قد ترك أشرف الأمور وأَجَلَّ المقاصد الذي هو معرفة الله ﷻ دون يُبيّنه.

هذه كلها مقدمات يذكرها رحمه الله ويفصل فيها ليؤكد هذه الحقيقة، الحقيقة التي بدأ بها، ألا وهي: أن الواجب علينا في هذا الباب- باب الأسماء والصفات- أن نُسَلِّم لما جاء عن الله وعن رسوله، وأن نتلقى كل

ذلك بالقبول، خلافاً لطرائق المتكلمين الذين تلقوا أحاديث الصفات بالاعتراض والانتقاد والتأويل والتحريف، وغير ذلك.

فشيخ الإسلام يذكر هذه المعاني وهذه التفاصيل ليقرر أن الواجب على المسلم أن يتلقى آيات الصفات وأحاديث الصفات بالقبول والتسليم، من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

قال رحمه الله:

ثُمَّ مِنْ اَلْمُحَالِ أَيْضاً أَنْ تَكُونَ اَلْقُرُونُ اَلْفَاضِلَةُ -اَلْقَرْنُ اَلَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ اَلَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ اَلَّذِينَ يَلُونَهُمْ- كَانُوا غَيْرَ عَالِمِينَ وَغَيْرَ قَائِلِينَ فِي هَذَا اَلْبَابِ بِالْحَقِّ اَلْمُبِينِ، لِأَنَّ ضِدَّ ذَلِكَ إِمَّا عَدَمُ اَلْعِلْمِ وَالْقَوْلِ، وَإِمَّا اِعْتِقَادُ نَقِيضِ اَلْحَقِّ وَقَوْلِ خِلَافِ اَلصِّدْقِ. وَكِلَاهُمَا مُمْتَنِعٌ.

أَمَّا اَلْأَوَّلُ فَلِأَنَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى حَيَاةٍ وَطَلَبٍ لِلْعِلْمِ أَوْ نَهْمَةٍ فِي اَلْعِبَادَةِ يَكُونُ اَلْبَحْثُ عَنْ هَذَا اَلْبَابِ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ وَمَعْرِفَةُ اَلْحَقِّ فِيهِ أَكْبَرُ مَقَاصِدِهِ وَأَعْظَمُ مَطَالِبِهِ، أَعْنِي: بَيَانُ مَا يَنْبَغِي اِعْتِقَادُهُ، لَا مَعْرِفَةُ كَيْفِيَّةِ اَلرَّبِّ وَصِفَاتِهِ، وَلَيْسَتْ اَلنُّفُوسُ اَلصَّحِيحَةُ إِلَى شَيْءٍ أَشْوَقَ مِنْهَا إِلَى مَعْرِفَةِ هَذَا اَلْأَمْرِ.

وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالْفِطْرَةِ الْوَجْدِيَّةِ، فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ مَعَ قِيَامِ هَذَا اَلْمُقْتَضَى -اَلَّذِي هُوَ من أَقْوَى اَلْمُقْتَضَيَاتِ- أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنْهُ مُقْتَضَاهُ فِي أُولَئِكَ اَلسَّادَّةِ فِي مَجْمُوعِ عُصُورِهِمْ، وَهَذَا لاَ يَكَادُ يَقَعُ مِنْ أَبْلَدِ اَلْخَلْقِ، وَأَشَدِّهِمْ إِعْرَاضاً عَنْ الله وَأَعْظَمِهِمْ إِكْبَاباً عَلَى طَلَبِ اَلدُّنْيَا، وَالْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ الله، فَكَيْفَ يَقَعُ مِنْ أُولَئِكَ !.

وَأَمَّا كَوْنُهُمْ كَانُوا مُعْتَقِدِينَ فِيهِ غَيْرَ اَلْحَقِّ أَوْ قَائِلِيهِ فَهَذَا لَا يَعْتَقِدُهُ مُسْلِمٌ وَلَا عَاقِلٌ عَرَفَ حَالَ اَلْقَوْمِ.

نعم.. يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أيضاً إضافةً إلى ما سبق: محال أن يكون الصحابة ومَنْ اتبعهم بإحسان- الذين هم خير القرون- قد شهد لهم النبي عليه الصلاة والسلام بذلك، قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»؛ قرنه: الصحابة، والذين يلونهم: التابعون لهم بإحسان، والذين يلون التابعين: هم أتباع التابعين؛ فهؤلاء شهد لهم النبي عليه الصلاة والسلام بالخيرية، قال: «خير الناس قرني».

والخيرية هنا تتناول خيرية العلم، وخيرية العمل؛

خيرية العلم هو أفقه وأعلم، وأشد الناس بصيرة بكلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ومن حيث العمل أيضاً هم السباقون لكل خير، ويكفي دلالةً على هذه الأفضلية والخيرية قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠]، فهؤلاء الأخيار

الأتقياء البررة، الصـدر الأول، والرعيل الأول من المحال أن يكونوا غير عالمين، وغير قائلين في هذا الباب بالحق، هذا مُحال، لماذا؟

لأن ضـد ذلك إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق، ومَنْ الذي يقول في الصـحب الكرام رضي الله عنهم وأرضـاهم أنهم إما ليســوا عالمين بالحق في هذا الباب، أو أنهم- والعياذ بالله- كانوا على نقيض الحق في هذا الباب؟! هذا من أبطل الباطل، ومن أشد الأقوال فساداً وضلالاً وغيّاً وانحرافاً.

بل الصـحابة كانوا عالمين وقائلين بالحق وداعين إليه رضي الله عنهم وأرضـاهم، وتلك الأقاويل التي جاءت فيما بعد، وأصـبحت تُكتَب في كتب العقائد.. تأويلات.. ولو أنه كذا لكان كذا، وصرْف معاني نصوص الصفات وأحاديث الصفات عن ظاهرها هذه لم يقل بها الصحابة، ولم تُنقَل عن أي واحد منهم.. لماذا؟

انتبه هنا! حتى نعي كلام شيخ الإسلام، الصحابة لم يُنقَل عنهم شيء من ذلك، ولم يقولوا ذلك.

لما نشـأ المتكلمون وظنوا أو اعتقدوا تلك العقائد التي هي تحريف وتأويل وصَرْف للنصـوص عن معانيها ودلالاتها وجدوا أن الصـحابة لما راجعوا المنقول عنهم لم يقولوا بذلك، ولا يُنقَل عنهم شيء من ذلك، فأي شيء قالوا؟؟- سترى نقْد شيخ الإسلام لهم-..

قالوا: إن الصحابة آثروا السكوت.

وبعضـهم قالوا: إن الصـحابة أيضـاً كانوا في شـغل آخر، كان عندهم جهاد، وحرب للمرتدين، وأمور كثيرة، فما كان عندهم وقت!

إذاً هذا الاعتقاد الذي يرى هؤلاء أنه هو الحق الصـحابة إما أنهم ما علموه أو ما قالوا به، أو أنهم قالوا بنقيضـه؛ فلاحظ الانفكاك بين هؤلاء وبين الصـحابة وكيف أن هذا أيضـاً ورَّطهم إلى القول الشـنيع الذي قاله هؤلاء في أصـحاب النبي الكريم رضي الله عنهم وأرضـاهم مما سيأتي نقْد شيء منه عند شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

فإذاً من المحال أن الصـحابة رضي الله عنهم وأرضـاهم لم يكونوا على علم بالحق والهدى، أو أنهم لم يقولوا بذلك، أو أنهم قالوا بنقيض ذلك؛ وكل من ذلكم ممتنع.

بيّن امتناع الأول- الذي هو: عدم العلم والقول بالحق- بقوله رحمه الله: (مَنْ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى حَيَاةٍ وَطَلَبٍ لِلْعِلْمِ أَوْ نَهْمَةٍ فِي الْعِبَادَةِ يَكُونُ الْبَحْثُ عَنْ هَذَا الْبَابِ وَالسُّـؤَالُ عَنْهُ وَمَعْرِفَةُ الْحَقِّ فِيهِ أَكْبَرُ مَقَاصِـدِهِ وَأَعْظَمُ

مَطَالِبِهِ، أَعْنِي: بَيَانَ مَا يَنْبَغِي اِعْتِقَادُهُ، لَا مَعْرِفَةُ كَيْفِيَّةِ اَلرَّبِّ وَصِفَاتِهِ) وكيفية الرب وصفاته هذا باب لم يخض فيه الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم لأنه باب لا يمكن للعقول أن تبلغه مهما أُوتيت وبلغت من الذكاء والفهْم والفطنة، أمر لا يمكن للعقول أن تبلغه أو أن تُدركه، لكن الكلام على المعرفة بالمعاني هذا أمر أدركه الصحابة وعرفوه وفهموا معاني الصفات أتمّ فَهْم، وأسدّه، وأسلمه.

قال: (وَأَمَّا كَوْنُهُمْ كَانُوا مُعْتَقِدِينَ فِيهِ غَيْرَ اَلْحَقِّ أَوْ قَائِلِيهِ فَهَذَا لَا يَعْتَقِدُهُ مُسْلِمٌ وَلَا عَاقِلٌ عَرَفَ حَالَ اَلْقَوْمِ) لا يقول مسلم: إن الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم كانوا معتقدين فيه غير الحق، لكن ماذا قال هؤلاء المتكلمون عندما نظروا في عقائد الصحابة ولم يجدوا عنهم مثل هذه التأويلات التي هم يعتقدونها؟

لجئوا إلى كلام أنشئوه، وتقرير ابتدعوه، وقالوا مقولتهم- التي سيأتي نقْدُها عند شيخ الإسلام ابن تيمية- قالوا: إن مذهب (اَلسَّلَفِ أَسْلَمُ) ومذهب (اَلْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ)؛ الخلف عندهم النظر، والبحث، والتعمق، والتأويل، وكل هذه الأشياء التي هم لم يجدوها عند الصحابة!! فقالوا: مذهب السلف أسلم، بمعنى: أن مذهب السلف كان مجرد قراءة لآيات الصفات، وأحاديث الصفات دون فهْم، بمنزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، بينما الخلف كان مذهبهم أعلم وأحكم!!

سبحان الله!! ما أعظمها من جناية وتعدّي وقول باطل وتَجَنِّي على السلف ولاسيما الصحابة الكرام!!

كيف يقال: إن مذهب المتأخرين الخائضين في صفات الله بالعقول والآراء والمنطقيات، كيف يقال: إن مذهبهم أعلم وأحكم من مذهب الصحابة؟!! ومَنْ هذا الذي يقول: إنه في صفات الله أعلم من أبي بكر، وأعلم من عمر، وأعلم من عثمان، وأعلم من علي؟!

لا يقول ذلك إلا مَنْ سفه نفسه، لا يقول ذلك إلا الضال المنحرف الذي جنى في هذا الباب جنايتين؛

جناية على الصحابة؛ حيث لم يعرف مقامهم، ولا قدرهم في العلم، ولا مكانتهم في الفهْم والدراية بأسماء الله وصفاته.

وجنى على نفسه الجهولة الظلومة؛ بأن جعلها في هذا المقام، ورفعها هذا الرَّفْع، أنه أعلم من الصحابة وأعلم من التابعين!!

وهي كلمة خطيرة جداً قالها أولئك، وسيأتي نقْد لها عند شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى:

ثُمَّ اَلْكَلَامُ عَنْهُمْ فِي هَذَا اَلْبَابِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُمْكِنَ سَطْرُهُ فِي هَذِهِ اَلْفَتْوَى أَوْ أَضْعَافِهَا، يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ طَلَبَهُ وَتَتَبَّعَهُ.

وَلَا يَجُوزُ أَيْضاً أَنْ يَكُونَ اَلْخَالِفُونَ أَعْلَمَ مِنْ اَلسَّالِفِينَ كَمَا يَقُولُهُ بَعْضُ اَلْأَغْبِيَاءِ مِمَّنْ لَمْ يَقْدُرْ قَدْرَ اَلسَّلَفِ، بَلْ وَلَا عَرَفَ اَللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَقِيقَةَ اَلْمَعْرِفَةِ اَلْمَأْمُورِ بِهَا مِنْ أَنَّ طَرِيقَةَ اَلسَّلَفِ أَسْلَمُ وَطَرِيقَةَ اَلْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ اَلْمُبْتَدِعَةَ اَلَّذِينَ يُفَضِّلُونَ طَرِيقَةَ اَلْخَلَفِ عَلَى طَرِيقَةِ اَلسَّلَفِ إِنَّمَا أُتُوا مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّ طَرِيقَةَ اَلسَّلَفِ هِيَ مُجَرَّدُ اَلْإِيمَانِ بِأَلْفَاظِ اَلْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، مِنْ غَيْرِ فِقْهٍ لِذَلِكَ، بِمَنْزِلَةِ اَلْأُمِّيِّينَ اَلَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة:٧٨]، وَأَنَّ طَرِيقَةَ اَلْخَلَفِ هِيَ اِسْتِخْرَاجُ مَعَانِي اَلنُّصُوصِ اَلْمَصْرُوفَةِ عَنْ حَقَائِقِهَا بِأَنْوَاعِ اَلْمَجَازَاتِ وَغَرَائِبِ اَللُّغَاتِ.

فَهَذَا اَلظَّنُّ اَلْفَاسِدُ أَوْجَبَ تِلْكَ اَلْمَقَالَةَ اَلَّتِي مَضْمُونُهَا نَبْذُ اَلْإِسْلَامِ وَرَاءَ اَلظَّهْرِ، وَقَدْ كَذَبُوا عَلَى طَرِيقَةِ اَلسَّلَفِ، وَضَلُّوا فِي تَصْوِيبِ طَرِيقَةِ اَلْخَلَفِ، فَجَمَعُوا بَيْنَ اَلْجَهْلِ بِطَرِيقَةِ اَلسَّلَفِ فِي اَلْكَذِبِ عَلَيْهِمْ، وَبَيْنَ اَلْجَهْلِ وَالضَّلَالِ بِتَصْوِيبِ طَرِيقَةِ اَلْخَلَفِ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ اِعْتِقَادُهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي نَفْسِ اَلْأَمْرِ صِفَةٌ دَلَّتْ عَلَيْهَا هَذِهِ اَلنُّصُوصُ لِلشُّبُهَاتِ اَلْفَاسِدَةِ اَلَّتِي شَارَكُوا فِيهَا إِخْوَانَهُمْ مِنْ اَلْكَافِرِينَ، فَلَمَّا اِعْتَقَدُوا اِنْتِفَاءَ اَلصِّفَاتِ فِي نَفْسِ اَلْأَمْرِ -وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ لَا بُدَّ لِلنُّصُوصِ مِنْ مَعْنًى- بَقَوْا مُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ اَلْإِيمَانِ بِاللَّفْظِ وَتَفْوِيضِ اَلْمَعْنَى - وَهِيَ اَلَّتِي يُسَمُّونَهَا طَرِيقَةَ اَلسَّلَفِ- وَبَيْنَ صَرْفِ اَللَّفْظِ إِلَى مَعَانٍ بِنَوْعِ تَكَلُّفٍ - وَهِيَ اَلَّتِي يُسَمُّونَهَا طَرِيقَةَ اَلْخَلَفِ- فَصَارَ هَذَا اَلْبَاطِلُ مُرَكَّباً مِنْ فَسَادِ اَلْعَقْلِ وَالْكُفْرِ بِالسَّمْعِ، فَإِنَّ اَلنَّفْيَ إِنَّمَا اِعْتَمَدُوا فِيهِ عَلَى أُمُورٍ عَقْلِيَّةٍ ظَنُّوهَا بَيِّنَاتٍ وَهِيَ شُبُهَاتٌ، وَالسَّمْعُ حَرَّفُوا فِيهِ اَلْكَلَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

فَلَمَّا اِنْبَنَى أَمْرُهُمْ عَلَى هَاتَيْنِ اَلْمُقَدِّمَتَيْنِ اَلْكُفْرِيَّتَيْنِ كَانَتْ اَلنَّتِيجَةُ: اِسْتِجْهَالَ السابقين اَلْأَوَّلِينَ، وَاسْتِبْلَاهَهُمْ، وَاعْتِقَادَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً أُمِّيِّينَ، بِمَنْزِلَةِ اَلصَّالِحِينَ مِنْ اَلْعَامَّةِ، لَمْ يَتَبَحَّرُوا فِي حَقَائِقِ اَلْعِلْمِ بِاللهِ، وَلَمْ يَتَفَطَّنُوا لِدَقَائِقِ اَلْعِلْمِ اَلْإِلَهِيِّ، وَأَنَّ اَلْخَلَفَ اَلْفُضَلَاءَ حَازُوا قَصَبَ اَلسَّبْقِ فِي هَذَا كُلِّهِ.

نعم.. هنا بدأ رحمه الله تعالى نقْد هؤلاء في تجهيلهم للسلف وتعظيمهم لعلومهم وتقديمها على علوم السلف، حتى إنهم نطقوا بذلك صراحةً بمقولتهم هذه التي يأتي نقْدها عند شيخ الإسلام وهي: أن مذهب (اَلْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ)؛

فشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى شرع في نقْد هؤلاء بقوله: (لَا يَجُوزُ) (أَنْ يَكُونَ اَلْخَالِفُونَ أَعْلَمَ مِنْ اَلسَّالِفِينَ)، لا يجوز أن يكون الخالفون للخلف أعلم من السالفين- أي: الصحابة ومَنْ اتبعهم بإحسان- ، (كَمَا يَقُولُهُ بَعْضُ اَلْأَغْبِيَاءِ مِمَّنْ لَمْ يَقْدُرْ قَدْرَ اَلسَّلَفِ) لاحظ أن قائل هذه المقالة جمع لنفسه بين وصفين سيئين ذكرهما رحمهم الله؛

الأول: **الغباء**؛ أي غباء أشد وأشنع أن يأتي آتٍ ويقول عن نفسه وجماعته من المتأخرين: إنهم أعلم من السلف، أعلم من الصحابة وأعلم من التابعين؟!!؛ هذا لا يقوله إلا إنسان في منتهى الغباء، وإلا لو كان عنده قليل من العقل- لا يمكن أن يجرؤ إطلاقاً أن يُقَدِّم علمه على علم الصحابة، ولا أن يُقَدِّم فهْمه على فهْم الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم.

الأمر الثاني الذي وقع فيه هؤلاء: أنهم لم يقدروا السلف قدرهم، ولم يعرفوا لهم مكانتهم، مَنْ عرف قدر السلف ومكانتهم وإمامتهم وتقدمهم في العلم والعمل لا يمكن أبداً أن يقول هذه المقالة: إن مذهب الخلف أعلم من مذهب السلف.

يقول: (بَلْ وَلَا عَرَفَ اَللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَقِيقَةَ اَلْمَعْرِفَةِ اَلْمَأْمُورِ بِهَا) يعني: مَنْ يقول هذه المقالة؛ (أَنَّ طَرِيقَةَ اَلسَّلَفِ أَسْلَمُ وَطَرِيقَةَ اَلْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ).

(طَرِيقَةَ اَلسَّلَفِ أَسْلَمُ) يقول هؤلاء: (طَرِيقَةَ اَلسَّلَفِ أَسْلَمُ) باعتبار ماذا؟

باعتبار أن السلف من الصحابة والتابعين كانت عنايتهم بهذا الباب مجرد قراءة لآيات الصفات وأحاديث الصفات، يقرءونها لكن لا يفهمون منها أي شيء، ولم يشتغلوا بفهْم معانيها!!

وهذا فيه عدة تجنيات على السلف:

الأول: أنه كذب عليهم؛ هذا كذب على السلف، الذي يقول: (أن السلف كانوا فقط يقرءون ولا يفهمون ولا يَعُون المعاني) يكذب عليهم ويقول عنهم ما ليسوا عليه من عقيدة وفهْم.

والأمر الثاني: أن قائل هذا القول جاهل بمذهب السلف، غير عالم بقدرهم ومكانتهم وفضلهم وإمامتهم.

والأمر الثالث: أنه مُجَهِّل للسلف، بهذه المقالة جهَّل السلف- أي: رماهم بالجهل-؛ ولهذا سيأتي فيما بعد- في موضع من هذه الرسالة- تلقيب شيخ الإسلام لهؤلاء بـ(أهل التجهيل)، والمراد بتلقيبهم بـ(أهل التجهيل) أي: الذين يُجَهِّلون السلف.

إذاً بهذه المقالة جمعوا بين ثلاث سوءات: الكذب على السلف، والجهل بمذهبهم، وتجهيلهم، عندما قالوا هذه المقالة.

لكن إذا تساءل متسائل: كيف نشأت هذه المقالة التي قالها هؤلاء: (إن مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم)؟ كيف نشأت هذه المقالة الجائرة الآثمة عند هؤلاء؟

يأتيك الجواب..

قال: (فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعَةَ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ طَرِيقَةَ الْخَلَفِ عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ إِنَّمَا أُتُوا مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّ طَرِيقَةَ السَّلَفِ هِيَ مُجَرَّدُ الْإِيمَانِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ)، ما معنى (مُجَرَّدُ الْإِيمَانِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ)؟

يعني أن الصحابة (أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي..) وجميع الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين من أئمة السلف وخيار المؤمنين كان الواحد منهم مثلاً إذا قرأ: (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة)، أو (يضع ربنا قدمه على النار)، أو (ضحك ربنا)، أو (عجب ربنا)، أو غير ذلك من الأحاديث... كانوا يقرءون مجرد قراءة، ولا يدرون ما هي، ولا يعرفون أصلاً فرق بين (ضحك، وعجب، ورضي، واستوى..) كل هذه مجرد قراءة، قراءة مُجردة!!

ولهذا يقول هؤلاء عنهم- لما ظنوا فيهم ذلك- قالوا: طريقتهم أسلم، يعني أنه يقرأ ولا يحاول أن يدخل في الفهم الذي خاض فيه المتأخر ووصل إليه المتأخر، فكانوا يقرءون قراءة مُجرَّدة، فحصَّلوا السلامة، حصلت لهم السلامة، لكن الذين جاءوا بعد دخلوا في التأويل، وإبعاد هذه الآيات وهذه الأحاديث عن ظواهرها، ففازوا بزعمهم بماذا؟ بالعلم والحكمة؛ فكانوا أعلم من السلف وأحكم طريقةً من طريقة السلف!!

إذاً هؤلاء (إِنَّمَا أُتُوا مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّ طَرِيقَةَ السَّلَفِ هِيَ مُجَرَّدُ الْإِيمَانِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، مِنْ غَيْرِ فِقْهٍ لِذَلِكَ، بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة:٧٨]) ما معنى: (﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة:٧٨])؟ أي: إلا مجرد قراءة بدون فهْم!! فجعلوا الصحابة بهذه المنزلة، منزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا مجرد قراءة، يقرءونه قراءة بلا فقه ولا فهْم ولا دراية لشيء من المضامين والمعاني.

واعتقد هؤلاء أن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات، وقفوا فيما بعد هؤلاء المتأخرين على معاني وتأويلات لم يقف عليها الصحابة ولم يقف عليها

التابعين فصرفوا إليها النصوص تحريفاً لها عن معانيها وعن مدلولاتها، فلما وجدوا أنفسهم كذلك وأن هذا لا يوجد شيء منه عند السلف رحمهم الله تعالى اعتقدوا في طريقتهم أنها طريقة أعلم وأحكم من طريقة السلف!!

(فَهَذَا اَلظَّنُّ اَلْفَاسِدُ أَوْجَبَ تِلْكَ اَلْمَقَالَةَ)- أي: قولهم إن (طَرِيقَةَ اَلسَّلَفِ أَسْلَمُ وَطَرِيقَةَ اَلْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ) (اَلَّتِي مَضْمُونهَا نَبْذُ اَلْإِسْلَامِ وَرَاءَ اَلظَّهْرِ) مضمون هذه المقالة: نبْذ الإسلام وراء الظهر، كيف هذا الكلام؟

مضمون هذه المقالة: (أن مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم) مضمونها: (نَبْذُ اَلْإِسْلَامِ وَرَاءَ اَلظَّهْرِ) لأن هذه المقالة تعني عدم الأخذ بما جاء عن السلف، وأن السلف ما كانوا أصلاً يفقهون شيء من معاني أصول الدين، وإنما الذي كان يفقه ذلك ويعرفه وهو الأعلم به، والأحكم والأدرى بذلك الخلف المتأخرون!! إذاً معنى ذلك: أن كل ما جاء عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان كله يُترَك! وإذا كان كذلك فمعنى ذلك أن هذه فيه نبْذ للإسلام (وَرَاءَ اَلظَّهْرِ).

قال: (وَقَدْ كَذَبُوا عَلَى طَرِيقَةِ اَلسَّلَفِ، وَضَلُّوا فِي تَصْوِيبِ طَرِيقَةِ اَلْخَلَفِ، فَجَمَعُوا بَيْنَ اَلْجَهْلِ بِطَرِيقَةِ اَلسَّلَفِ فِي اَلْكَذِبِ عَلَيْهِمْ، وَبَيْنَ اَلْجَهْلِ وَالضَّلَالِ بِتَصْوِيبِ طَرِيقَةِ اَلْخَلَفِ) أي: جمعوا بين سوءتين:

السوءة الأولى: عدْم قدر السلف وعلومهم حق قدرهم.

والسوءة الثانية: إعجابهم بأنفسهم وتعظيمهم لأقوالهم وتقريراتهم، وتقديمها على ما جاء عن السلف رضي الله عنهم وأرضاهم.

أيضاً يبقى الأمر يحتاج إلى بيان كيف وصل هؤلاء إلى مثل هذا التقرير؛ يقول رحمه الله تعالى: (وَسَبَبُ ذَلِكَ اِعْتِقَادُهُمْ) سبب ذلك: يعني كيف نشأت هذه الأباطيل؟ وكيف انبنى بعضها على بعض؟ وكيف تولدت؟

يقول: (وَسَبَبُ ذَلِكَ اِعْتِقَادُهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي نَفْسِ اَلْأَمْرِ صِفَةٌ دَلَّتْ عَلَيْهَا اَلنُّصُوصُ لِلشُّبُهَاتِ اَلْفَاسِدَةِ اَلَّتِي شَارَكُوا فِيهَا إِخْوَانَهُمْ مِنْ اَلْكَافِرِينَ) يعني هؤلاء تقرر عندهم أنه ليس هناك صفة ثابتة لله ﷻ مثل هذه الآن الصفات التي جاءت في آيات الصفات وأحاديث الصفات (الاستواء، الغضب، الرضا، الضحك، العجب، النزول، الأصابع..) إلى غير ذلك، هم يعتقدون أنه ليس في نفس الأمر توجد صفات لله تبارك وتعالى، وأن هذه لا يمكن أن تكون ثابتة لله- لأمور سيأتي أيضاً ذِكْرها ونقْدُها تفصيلاً عند شيخ الإسلام

ابن تيمية رحمه الله-..

(فَلَمَّا اِعْتَقَدُوا اِنْتِفَاءَ اَلصِّفَاتِ فِي نَفْسِ اَلْأَمْرِ -وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ لَا بُدَّ لِلنُّصُوصِ مِنْ مَعْنًى-) يعني إذا يقال لهم: الآن أنتم تعتقدون أن ما في صفات، مثلاً حديث النزول «ينزل ربنا» يقولون: لا. ليس هناك نزول، «ضحك ربنا» ليس هناك ضحك، «رضي الله عنهم» ليس هناك رضا لأن يستلزم من ذلك كذا وكذا.. أمور عقلية بنوا عليها نفي هذه الصفات عن الله ﷻ!

فلما اعتقد هؤلاء في نفس الأمر أنه ليس هناك صفة ثابتة... آيات الصفات وأحاديث الصفات لا بد لها من معنى، فماذا يُصنَع فيها؟

يقول: (-وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ لَا بُدَّ لِلنُّصُوصِ مِنْ مَعْنًى- بَقَوْا مُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ اَلْإِيمَانِ بِاللَّفْظِ وَتَفْوِيضِ اَلْمَعْنَى - وَهِيَ اَلَّتِي يُسَمُّونَهَا طَرِيقَةَ اَلسَّلَفِ) قالوا: إن السلف- رحمهم الله- ما كانوا يفهمون المعاني- وسيأتي في نقولات شيخ الإسلام، وهذا أيضاً باب جميل من التفقه في الآثار المروية عن السلف الدالة على فهْمهم للمعاني، هناك نقول كثيرة عنهم تدل على أنهم فهموا المعنى، يعني مثلاً: عندما نزل قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة: ١]، لما نزلت هذه الآية كما جاء في الصحيح، قالت عائشة: الحمد لله.. أو: تبارك الذي وسع سمْعه الأصوات، قول عائشة (وسِعَ سمْعه الأصوات) هذا يدل على أنها فهمت ثبوت السمع صفة لله أو لا تفهم؟، وأيضاً أن سمْع الله وَسِع الأصوات كلها- أي: يسمع جميع الأصوات ﷻ- فالسلف عنهم نُقُول كثيرة جداً واضح أنهم كانوا يفهمون المعاني.

بل إن ابن القيم رحمه الله في كتابه «الصواعق» رحمه الله قرر أن عناية الصحابة بفهْم المعاني كانت أشد من العناية بحفظ الألفاظ، عناية الصحابة رضي الله عنهم في فهْم المعاني كانت أشد من عنايتهم بالألفاظ.

يقول رحمه الله في «الصواعق»: الصحابة أخذوا عن رسول الله ﷺ ألفاظ القرآن ومعانيه؛ بل كانت عنايتهم بأخْذ المعاني أعظم من عنايتهم بالألفاظ، يأخذون المعاني أولاً ثم يأخذون الألفاظ. هذا نَصُّ كلام ابن القيم رحمه الله تعالى.

يقول رحمه الله: (بَقَوْا مُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ اَلْإِيمَانِ بِاللَّفْظِ وَتَفْوِيضِ اَلْمَعْنَى - وَهِيَ اَلَّتِي يُسَمُّونَهَا طَرِيقَةَ اَلسَّلَفِ- وَبَيْنَ صَرْفِ اَللَّفْظِ إِلَى مَعَانٍ بِنَوْعِ تَكَلُّفٍ - وَهِيَ اَلَّتِي يُسَمُّونَهَا طَرِيقَةَ اَلْخَلَفِ- فَصَارَ هَذَا اَلْبَاطِلُ مُرَكَّباً مِنْ فَسَادِ اَلْعَقْلِ وَالْكُفْرِ بِالسَّمْعِ)؛

(وَالْكُفْرِ بِالسَّــمْعِ)؛ من حيث عدم إيمانهم بمدلولات آيات الصــفات وأحاديث الصــفات، وعدم اعتقادهم ما دلت عليه من معاني.

و(فَسَــادِ اَلْعَقْلِ)؛ من حيث تعظيم هذا العقل، وقبول تلك التأويلات الباطلة التي توصــلوا إليها بعقولهم.

(فَإِنَّ اَلنَّفْيَ إِنَّمَا اِعْتَمَدُوا فِيهِ عَلَى أُمُورٍ عَقْلِيَّةٍ ظَنُّوهَا بَيِّنَاتٍ وَهِيَ شُــبُهَاتٌ، وَالسَّــمْعُ حَرَّفُوا فِيهِ اَلْكَلَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ).

قال: (فَلَمَّا اِنْبَنَى أَمْرُهُمْ عَلَى هَاتَيْنِ اَلْمُقَدِّمَتَيْنِ الْكُفْرِيَّتَيْنِ كَانَتْ اَلنَّتِيجَةُ: اِسْــتِجْهَالَ السـابقين اَلْأَوَّلِينَ، وَاسْتِبْلَاهَهُمْ)؛

استجهالهم: أي اعتبارهم أهل جهل.

واستبلاههم: أي أهل بلاهة، لا يفهمون، ولا يعون، ولا يعقلون.

(وَاعْتِقَادَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً أُمِّيِّينَ، بِمَنْزِلَةِ اَلصَّــالِحِينَ مِنْ اَلْعَامَّةِ، لَمْ يَتَبَحَّرُوا فِي حَقَائِقِ اَلْعَلَمِ بِالله، وَلَمْ يَتَفَطَّنُوا لِدَقَائِقِ اَلْعِلْمِ اَلْإِلَهِيِّ، وَأَنَّ اَلْخَلَفَ اَلْفُضَلَاءَ حَازُوا قَصَبَ اَلسَّبْقِ فِي هَذَا كُلِّهِ)؛ يعني هذا يوضح من خلاله كيف نشــأت تلك المقالة التي قدّم فيها هؤلاء علومهم على علوم الســلف، وفضَّــلوها على علوم السلف فقالوا عنها: إنها أعلم وأحكم.

قال رحمه الله تعالى:

ثُمَّ هَذَا اَلْقَوْلُ إِذَا تَدَبَّرَهُ اَلْإِنْسَانُ وَجَدَهُ فِي غَايَةِ اَلْجَهَالَةِ، بَلْ فِي غَايَةِ اَلضَّلَالَةِ.

كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ اَلْمُتَأَخِّرِينَ -لَاسِيَّمَا وَالْإِشَارَةُ بِالْخَلَفِ إِلَى ضَرْبٍ مِنْ اَلْمُتَكَلِّمِينَ- اَلَّذِينَ كَثُرَ فِي بَابِ اَلدِّينِ اِضْطِرَابُهُمْ، وَغَلُظَ عَنْ مَعْرِفَةِ الله حِجَابُهُمْ، وَأَخْبَرَ اَلْوَاقِفُ عَلَى نِهَايَاتِ إِقْدَامِهِمْ بِمَا اِنْتَهَى إِلَيْهِ مِنْ مَرَامِهِمْ حَيْثُ يَقُولُ:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ اَلْمَعَاهِدَ كُلَّهَا ... وَسَــيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ اَلْمَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِــعاً كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعاً سِــنَّ نَادِمِ

وَأَقَرُّوا عَلَى نُفُوسِهِمْ بِمَا قَالُوهُ مُتَمَثِّلِينَ بِهِ أَوْ مُنْشِئِينَ لَهُ فِيمَا صَنَّفُوهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَقَوْلِ بَعْضِ رُؤَسَائِهِمْ:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ اَلْعُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَــعْيِ اَلْعَالَمِينَ ضَــلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَــةٍ مِنْ جُسُــومِنَا ... وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالْمَنَاهِجَ الْفَلْسَفِيَّةَ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلاً، وَلَا تَرْوِي غَلِيلاً، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ.

أَقْرَأُ فِي الْإِثْبَاتِ:

﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥].

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ۝١٠﴾ [فاطر:١٠]

وَأَقْرَأُ فِي النَّفْيِ:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى:١١].

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه:١١٠].

وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي.

وَيَقُولُ الْآخَرُ مِنْهُمْ: وَلَقَدْ خُضْتُ الْبَحْرَ الْخِضَمَّ، وَتَرَكْتُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَعُلُومَهُمْ، وخُضْتُ فِي الَّذِي نَهَوْنِي عَنْهُ، وَالْآنَ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْنِي رَبِّي بِرَحْمَةٍ مِنْهُ فَالْوَيْلُ لِفُلَانٍ، وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي.

وَيَقُولُ الْآخَرُ مِنْهُمْ: أَكْثَرُ النَّاسِ شَكّاً عِنْدَ الْمَوْتِ أَصْحَابُ الْكَلَامِ.

نعم.. يقول رحمه الله تعالى في هذا الموضع لما ذكر فيما سبق تلك المقالة التي نشأت عند أولئك التي فيها تعظيم لعلوم الخلف، والمراد بالخلف (المتكلمون)، وبيّن فساد تلك المقالة وما فيها من تجَنٍّ على السلف رحمهم الله، انتقل هنا ليبين ما هي حال هؤلاء في العلم، وإلى أي شيء توصلوا بهذا الكلام الذي زعم أربابه أنهم أعلم من السلف وأحكم، فنقل نُقولاً اقتنصها رحمه الله تعالى عن عدد من أكابر المتكلمين يُعلنون فيها صراحةً أنهم لم يصلوا من خلال هذا العلم (علم الكلام) إلا إلى الشك والحيرة والريب والقلق والوحشة في الصدر وعدم الطمأنينة، هذا الذي توصلوا إليه.

ذاك العلم الذي قال أربابه أنهم به صاروا أعلم من السلف وأحكم من السلف أخذ ينقل شيخ الإسلام ابن تيمية نُقول عن أساطين من هؤلاء وكبار من هؤلاء يقررون أنهم فعلاً لم يصلوا إلى علم ولا إلى حكمة؛ بل لم يصلوا إلا إلى الشك، وشهدوا بذلك شهادات سطّروها، بعضهم كتبها نثراً، وبعضهم كتبها شعراً يُعلن فيها صراحةً أنه إطلاقاً لم يصل إلى علم ولا إلى حكمة، فأصبح الآن قولهم انتقض عليهم من أساطينهم، وكبرائهم.

تقولون: إن مذهب الخلف أعلم وأحكم، هاهم الخلف الذين تنادون بأن مذهبهم أعلم وأحكم من السلف يعلنون حيرتهم، واضطرابهم، وشكّهم، وأنهم لم يصلوا من هذه العلوم- التي هي علوم الكلام- إلا إلى الحيرة والشك!

حتى إن بعضهم- وهو الغزالي في «إحياء علوم الدين»- نقَدَ علم الكلام نقْد شديد، ونقل نقْدَه لعلم الكلام شارح الطحاوية ابن أبي العز، نقَدَه نقْداً شديداً، وقال: لو أن هذا الكلام- الذي تسمعونه منيّ في نقْد علم الكلام- لو سمعتوه من مُحَدِّث- يعني لم يشتغل بعلم الكلام- لقلتم: الناس أعداء لما جهلوا، يعني لأن أهل الحديث يجهلون عن الكلام، ولهذا ينتقدونه، لكن خذوا هذا النقْد من شخص بلغ علم الكلام إلى منتهاه، ثم يعلنها مدوية: بأن الوصول إلى طريق الحق من خلال علم الكلام مسدود.

يعني مثلاً الآن أُصَوِّر لكم القضية: لو أن شخص مشى مع طريق يريد مكة مثلاً، ومشى ستمائة كيلو في وعورة وحُفَر، وأذى في الطريق، ثم في النهاية وجد الطريق مُغلق ما يوصل إلى مكة ورجع، ولما وصل إليكم قال: الطريق هذا لا يوصل إلى مكة، بل طريق وعر ومليء بالحُفَر، ومليء بالوحوش، ومليء بكذا ومليء بكذا، وأنا وصلت إلى نهايته وجدته أنه مسدود ورجعت، ما وجدت طريق.

هو صوّر علم الكلام بهذه الصورة؛ قال... يقول: ومَنْ جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي- هذا كله موجود في كتاب «إحياء علوم الدين»- يقول: ومَنْ جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

وأعلن هذا الإعلان الواضح، قال: الطريق إلى الحق مسدود من خلال علم الكلام.

وفي «إحياء علوم الدين» باب عنوانه العقائد برمته مبني على علم الكلام، مبني على هذا العلم الذي قال عنه في «الإحياء» نفسه أنه مسدود، فصار المثل هنا انطبق على حال شخص ذهب مع طريق ظن أنه يوصل إلى مكة، وبعد أن قطع في ذلك الطريق المسافة الطويلة رجع بالعناء والتعب وتبيّن له أنه مسدود، ثم أخذ الناس معه ودخل بهم مع الطريق نفسه، وهذه من البلايا، نسأل الله ﷻ العافية والسلامة.

فالشاهد: أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى هنا ينقل نقولات عديدة عن أكابر هؤلاء المتكلمين أنهم لم يصلوا من خلال هذا العلم إلا إلى الحيرة والشك والاضطراب.

انظر ماذا يقول رحمه الله؛ يقول: (لَاسِيَّمَا وَالْإِشَارَةُ بِالْخَلَفِ إِلَى ضَرْبٍ مِنْ اَلْمُتَكَلِّمِينَ) انتبه! (لَاسِيَّمَا وَالْإِشَارَةُ بِالْخَلَفِ إِلَى ضَرْبٍ مِنْ اَلْمُتَكَلِّمِينَ- اَلَّذِينَ كَثُرَ فِي بَابِ اَلدِّينِ اِضْطِرَابُهُمْ، وَغَلُظَ عَنْ مَعْرِفَةِ الله حِجَابُهُمْ، وَأَخْبَرَ اَلْوَاقِفُ عَلَى نِهَايَاتِ إِقْدَامِهِمْ بِمَا اِنْتَهَى إِلَيْهِ مِنْ مَرَامِهِمْ حَيْثُ يَقُولُ: لعمري) والقائل:

الشهرستاني..

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ اَلْمَعَاهِدَ كُلَّهَا   وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ اَلْمَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعاً كَفَّ حَائِرٍ   عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعاً سِنَّ نَادِمِ

هذا أحد أساطين هؤلاء وهو الشهرستاني يقول: طفت على المعاهد كلها يعني مررت على مدارس علم الكلام مدرسة ومعهداً معهداً، وما رأيت إلا إما شخص حائر واضعاً كفاً على ذقن يعني صفة المحتار، شخص احتار، لا يدري ماذا... يعني بعض المتكلمين يصف نفسه يقول: أأتي باللحاف في الليل وأضع رأسي على الوسادة وأغطي رأسي وأأتي بأدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء المتكلمين، يقول: وأعرضها على بعض، يقول: ويخرج الصبح عليّ وما فهمت شيئاً، ونقل هذا ابن أبي العز رحمه الله في شرح العقيدة الطحاوية.

فهذا الذي يقول: إني لم أجد إلا كف حائر، يعني على ذقن حيرى، أو (قَارِعاً سِنَّ نَادِمِ) يعني رجل ندم. الآن لما قال: (طُفْتُ اَلْمَعَاهِدَ كُلَّهَا) هناك نوع من المعاهد ما مر عليه، وإلا لم يجد في هؤلاء المحتارين، الحائرين، لو مرّ على معاهد من نوع آخر لم يرَ ذلك، ما هي المعاهد؟ ها؟ معاهد السُّنة، لو مر على معهد السُّنة لم يجد هذه الحيرة، لوجد الصدر منشرح، والنفس طيبة، والغبطة، والفرح بما أكرمهم الله ﷻ به من سُنة النبي ﷺ.

وهنا في هذا الموضع أعطيكم واجب، تبحثونه، الصنعاني له معارضة في بيتين جميلين جداً لهذين البيتين للشهرستاني، الصنعاني رحمه الله له معارضة جميلة جداً لهذين البيتين.. للصنعاني نبّه فيها أنه لم يمر بمعاهد السُّنة، وإلا لو مر لم يجد ذلك، فهذه تبحثونها وتأتون بها في لقاء الغد بإذن الله ﷻ.

(وَأَقَرُّوا عَلَى نُفُوسِهِمْ بِمَا قَالُوهُ مُتَمَثِّلِينَ بِهِ أَوْ مُنْشِدِينَ لَهُ فِيمَا صَنَّفُوهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَقَوْلِ بَعْضِ رُؤَسَائِهِمْ)

وهو الرازي، يقول:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ اَلْعُقُولِ عِقَالُ   وَأَكْثَرُ سَعْيِ اَلْعَالَمِينَ ضَلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا   وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا   سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

هذا مَنْ الذي يقوله؟

مَنْ اشـــتغل بعلم الكلام وأقاويل المتكلمين هو الذي يقول مثل هذا الكلام، أما مَنْ أكرمه الله بالعناية بالقرآن والسُّنة وأقاويل السلف وفهْمها لا يندم أبداً على شيء من ذلك، بل لا يزداد بذلك إلا فرحاً وغبطةً ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس:٥٨]، فصاحب الحق لا يزداد إلا فرحاً بذلك، أما هؤلاء فَهُم بهذه الحال.

وانظر ﷺ ما بلغت إليه حالهم؛ حيث يُصوِّرها بقوله:

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَــةٍ مِنْ جُسُــومِنَا وَغَـايَـةُ دُنْـيَـانَـا أَذًى وَوَبَـالُ

وأنه لم يستفد من جمعه طول عمره إلا أن جمع قيل وقال.

هذه الآن الطريقة التي كان عليها انظر كيف يذمها غاية الذم.

ثم يقول بعد ذلك.. الرازي يقول: (لَقَدْ تَأَمَّلْتُ اَلطُّرُقَ اَلْكَلَامِيَّةَ، وَالْمَنَاهِجَ اَلْفَلْسَــفِيَّةَ)، والرجل خبير وضـليع في هذا الباب ومن رؤسـاء المتكلمين، يقول: (لَقَدْ تَأَمَّلْتُ اَلطُّرُقَ اَلْكَلَامِيَّةَ، وَالْمَنَاهِجَ اَلْفَلْسَـفِيَّةَ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلاً، وَلَا تَرْوِي غَلِيلاً)؛

(تَشْفِي عَلِيلاً) أي: مريضاً.

(تَرْوِي غَلِيلاً) أي: عطشاناً.

فهي لا تشفي المريض ولا تروي الظمآن (العطشان).

(وَرَأَيْـتُ أَقْرَبَ اَلطُّرُقِ طَرِيقَـةَ اَلْقُرْآنِ. أَقْرَأُ فِي اَلْإِثْبَـاتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طـه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ۝١٠﴾ [فـاطـر:١٠]. وَأَقْـرَأُ فِي اَلـنَّـفْـيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشـــورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه:١١٠]. وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي) هذا مُجرِّب الآن ويُخبِر بالنتيجة التي توصل إليها.

أيضاً سجلوا عندكم واجب آخر: الرازي صاحب هذه المقالة له كتاب نَقدَه شيخ الإسلام نقْداً مطولاً في كتاب مطبوع، فما هو هذا الكتاب الذي نقد فيه ابن تيمية رحمه الله الرازي بتوســع؟ وبماذا كان يُلَقِّب الرازي في ذلك الكتاب ولماذا؟

يقول رحمه الله تعالى: (وَيَقُولُ اَلْآخَرُ مِنْهُمْ) وهو أبو المعالي الجويني، (لَقَدْ خُضْــتُ اَلْبَحْرَ اَلْخِضَــمَّ) يقصـد علم الكلام، (وَتَرَكْتُ أَهْلَ اَلْإِسْـلَامِ وَعُلُومَهُمْ) يعني تركت أقوال المحدثين وكلام أئمة السـلف،

(وَتَرَكْتُ أَهْلَ اَلْإِسْلَامِ وَعُلُومَهُمْ، وخُضْتُ فِي اَلَّذِي نَهَوْنِي عَنْهُ) السلف نُقلِت عنهم نُقول وسيأتي بعضها نهي عن الخوض في علم الكلام والتحذير منه، ولهذا يقول: (خُضْتُ فِي اَلَّذِي نَهَوْنِي عَنْهُ).

(وَالْآنَ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْنِي رَبِّي بِرَحْمَةٍ مِنْهُ فَالْوَيْلُ لِفُلَانٍ) أي: الويل لابن الجويني.

(وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي) رجع إلى عقيدة أمه.

وكان بعضهم يقول: الفائز مَنْ مات على دين العجائز، يعني عقيدة أمه، يقصد على الفطرة بعيد عن ذلك الكلام والشغب الطويل الذي خاض فيه وأفنى فيه عمره.

(وَيَقُولُ اَلْآخَرُ مِنْهُمْ: أَكْثَرُ اَلنَّاسِ شَكّاً عِنْدَ اَلْمَوْتِ أَصْحَابُ اَلْكَلَامِ) وبئست الخاتمة هذه تصل بصاحبها هذا الموصل أن يكون عند الموت في شك، أي: لا يموت على عقيدة صحيحة وإيمان راسخ بالله؛ بل في شك، لا يدري ماذا يعتقد فيموت على الحيرة والشك عياذاً بالله من ذلك.

نسأل الله ﷻ أن ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

فيما أخذناه بالأمس من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عند نَقْده لقول المتكلمين: إن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم، مرَّ معنا نَقْد قوي لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لهذه الكلمة؛

في بعض طبعات هذا الكتاب- ومنها الطبعة التي بأيديكم- أُقحمت كلمة في أثناء الكلام ليست لشيخ الإسلام-ولا يصح أن تُنسَب له رحمه الله تعالى- وهي:- لعلكم تراجعونها في النسخة التي بأيديكم، وإن كانت هذه العبارة- إذا صدرت من بعض العلماء قد يُعنَى بها معنى صحيحاً- هذه الجملة يُشطَب عليها، ليست من كلام شيخ الإسلام إطلاقاً، ومُحقِّق الحموية لشيخ الإسلام وقف على ثمان أو تسع نسخ خطية للكتاب رجع إليها، لا يوجد في شيء منها هذه الكلمة.

وبداية وجودها: أن أحد مَنْ قرأ إحدى النسخ الخطية لهذا الكتاب علقها على الهامش، فلما طبعها دور النشر ضمّت هذه الكلمة التي في الهامش إلى أصل الكتاب، وجُعلت بين قوسين، أو بين حاصرتين، ثم فيما بعد دخلت في كثير من طبعات الكتاب على أنها من كلام شيخ الإسلام، وهي كلمة أعني قول علماء الكلام: (إن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم) لا تحمل معنى صحيح.

وشيخ الإسلام ابن تيمية نقدها في هذا الموضع نقداً شديداً.

ومَنْ يقرأ الكلام ويقرأ هذه الكلمة في أثنائه يجد أنها مُقحَمة لأنها ما تنسجم مع الكلام أصلاً، ولا تستقيم مع الكلام، الكلام نَقْد قوي جداً، ثم يقول: إن قالها عالم فلها معنى صحيح! لا يستقيم أصلاً مثل هذا الكلام.

فالخلاصة: أن هذه تُشطَب وليست من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، ولا ينبغي أن تُدخَل في كلامه.

وطبْع مثل هذه المتون الأَوْلى: الرجوع فيه إلى النُّسخ المعتمدة، والمُعتَنَى بها والمُحققَة، وإلا يدخل مثل هذه الأخطاء أو التصحيفات التي هي موجودة في كثير من الكتب.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فيقول شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى في ضمن فتواه في «الحموية الكبرى»:

ثُمَّ هَؤُلَاءِ اَلْمُتَكَلِّمُونَ اَلْمُخَالِفُونَ لِلسَّلَفِ إِذَا حُقِّقَ عَلَيْهِمْ اَلْأَمْرُ لَمْ يُوجَدْ عِنْدَهُمْ مِنْ حَقِيقَةِ اَلْعِلْمِ بِالله وَخَالِصِ اَلْمَعْرِفَةِ بِهِ خَبَرٌ.

وَلَمْ يَقِفُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثَرٍ، كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ اَلْمَحْجُوبُونَ اَلْمَنْقُوصُونَ اَلْمَسْبُوقُونَ اَلْحَيَارَى اَلْمُتَهَوِّكُونَ أَعْلَمَ بِالله وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَحْكَمَ فِي بَابِ آيَاتِهِ وَذَاتِهِ مِنْ اَلسَّابِقِينَ اَلْأَوَّلِينَ مِنْ اَلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالَّذِينَ اِتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ مِنْ وَرَثَةِ اَلْأَنْبِيَاءِ وَخُلَفَاءِ اَلرُّسُلِ، وَأَعْلَامِ اَلْهُدَى وَمَصَابِيحِ اَلدُّجَى، اَلَّذِينَ بِهِمْ قَامَ اَلْكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا، وَبِهِمْ نَطَقَ اَلْكِتَابُ وَبِهِ نَطَقُوا، اَلَّذِينَ وَهَبَهُمُ اَللهُ مِنْ اَلْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ مَا بَرَزُوا بِهِ عَلَى سَائِرِ أَتْبَاعِ اَلْأَنْبِيَاءِ، فَضْلاً عَنْ سَائِرِ اَلْأُمَمِ اَلَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ، وَأَحَاطُوا مِنْ حَقَائِقِ اَلْمَعَارِفِ وَبَوَاطِنِ اَلْحَقَائِقِ بِمَا لَوْ جُمِعَتْ حِكْمَةُ غَيْرِهِمْ إِلَيْهَا لَاسْتَحْيَا مَنْ يَطْلُبُ اَلْمُقَابَلَةَ.

ثُمَّ كَيْفَ يَكُونُ خَيْرُ قُرُونِ اَلْأُمَّةِ أَنْقَصَ فِي اَلْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ -لَاسِيَّمَا اَلْعِلْمِ بِالله وَأَحْكَامِ آيَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ- مِنْ هَؤُلَاءِ اَلْأَصَاغِرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ أَمْ كَيْفَ يَكُونُ أَفْرَاخُ اَلْمُتَفَلْسِفَةِ وَأَتْبَاعُ اَلْهِنْدِ وَالْيُونَانِ، وورَثَةُ اَلْمَجُوسِ وَالْمُشْرِكِينَ وَضُلَّالُ اَلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ وَأَشْكَالُهُمْ وَأَشْبَاهُهُمْ، أَعْلَمَ بِالله مِنْ وَرَثَةِ اَلْأَنْبِيَاءِ وَأَهْلِ اَلْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ !.

وَإِنَّمَا قَدَّمْتُ هَذِهِ اَلْمُقَدِّمَةَ لِأَنَّ مَنْ اِسْتَقَرَّتْ هَذِهِ اَلْمُقَدِّمَةُ عِنْدَهُ عَلِمَ طَرِيقَ اَلْهُدَى أَيْنَ هُوَ فِي هَذَا اَلْبَابِ وَغَيْرِهِ، وَعَلِمَ أَنَّ اَلضَّلَالَ وَالتَّهَوُّكَ إِنَّمَا اِسْتَوْلَى عَلَى كَثِيرٍ مِنْ اَلْمُتَأَخِّرِينَ بِنَبْذِهِمْ كِتَابَ الله وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَمَّا بَعَثَ اَللهُ بِهِ مُحَمَّداً ﷺ مِنْ اَلْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، وَتَرْكِهِمْ اَلْبَحْثَ عَنْ طَرِيقِ اَلسَّابِقِينَ وَالتَّابِعِينَ وَالْتِمَاسِهِمْ عِلْمَ مَعْرِفَةِ الله مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفُ اَللهَ بِإِقْرَارِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَلِشَهَادَةِ اَلْأُمَّةِ عَلَى ذَلِكَ، وَبِدَلَالَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَلَيْسَ غَرَضِي وَاحِداً وَإِنَّمَا أَصِفُ نَوْعَ هَؤُلَاءِ، وَنَوْعَ هَؤُلَاءِ.

لا يزال كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ماضياً في نَقْد تلك الكلمة التي قالها عدد من علماء الكلام، ألا وهي قولهم: (إن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم) فمضى رحمه الله في ذِكْر وجوه النقْد والتخطئة لهذه الكلمة، وما فيها من تجنٍّ على السلف الأخيار رضي الله عنهم وأرضاهم.

....

فلما ذكر فيما قرأناه فيما سبق من كلامه رحمه الله تعالى، لمّا ذكر حيْرة المتكلمين ورجوع عدد منهم وصولهم إلى الشك بسبب خوضهم في علم الكلام، وإعلان بعضهم عودته إلى عقيدة أمه أو إلى عقيدة العجائز، لما ذكر باب النقول على سبيل الإشارة قال رحمه الله: (ثُمَّ هَؤُلَاءِ اَلْمُتَكَلِّمُونَ اَلْمُخَالِفُونَ لِلسَّلَفِ إِذَا حُقِّقَ عَلَيْهِمْ اَلْأَمْرُ لَمْ يُوجَدْ عِنْدَهُمْ مِنْ حَقِيقَةِ اَلْعِلْمِ بِاللهِ وَخَالِصِ اَلْمَعْرِفَةِ بِهِ خَبَرٌ)؛

أي: كيف يقال عن أقوام هذا شأنهم: أنهم أعلم بالله وأحكم؟! وهم أصلاً ما عندهم خبر من العلم بالله ﷻ وحقيقة العلم بالله ﷻ، (وَلَمْ يَقِفُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثَرٍ)!!

فمثل هؤلاء (اَلْمَحْجُوبُونَ اَلْمَنْقُوصُونَ) (اَلْحَيَارَى اَلْمُتَهَوِّكُونَ) كيف يقال: إنهم (أَعْلَمَ بِاللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ) من السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان؟!، ولهذا يُبرِز هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية حتى يكون سوء هذه الكلمة ظاهراً.

يقول: كيف يكونون أعلم من (اَلسَّابِقِينَ اَلْأَوَّلِينَ مِنْ اَلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَاَلَّذِينَ اِتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، مِنْ وَرَثَةِ اَلْأَنْبِيَاءِ وَخُلَفَاءِ اَلرُّسُلِ، وَأَعْلَامِ اَلْهُدَى وَمَصَابِيحِ اَلدُّجَى، اَلَّذِينَ بِهِمْ قَامَ اَلْكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا، وَبِهِمْ نَطَقَ اَلْكِتَابُ وَبِهِ نَطَقُوا، اَلَّذِينَ وَهَبَهُمْ اَللهُ مِنَ اَلْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ مَا بَرَزُوا بِهِ عَلَى سَائِرِ أَتْبَاعِ اَلْأَنْبِيَاءِ، فَضْلاً عَنْ سَائِرِ اَلْأُمَمِ اَلَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ، وَأَحَاطُوا مِنْ حَقَائِقِ) المعرفة (وَبَوَاطِنِ اَلْحَقَائِقِ بِمَا لَوْ جُمِعَتْ حِكْمَةُ غَيْرِهِمْ إِلَيْهَا لَاسْتَحْيَا مَنْ يَطْلُبُ اَلْمُقَابَلَةَ)؟، يقول: كيف مَنْ هذا شأنهم في العلم والحكمة والفضل والمكانة والمنزلة كيف يقال أن طريقة المتكلمين أعلم من طريقتهم وأحكم من طريقتهم؟!

ثم قال رحمه الله: (كَيْفَ يَكُونُ خَيْرُ قُرُونِ اَلْأُمَّةِ أَنْقَصَ فِي اَلْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ-لَاسِيَّمَا اَلْعِلْمِ بِاللهِ وَأَحْكَامِ آيَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ- مِنْ هَؤُلَاءِ اَلْأَصَاغِرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ أَمْ كَيْفَ يَكُونُ أَفْرَاخُ اَلْمُتَفَلْسِفَةِ وَأَتْبَاعُ اَلْهِنْدِ وَاَلْيُونَانِ، وَوَرَثَةُ اَلْمَجُوسِ) لأن علوم هؤلاء المتكلمين هي لفيف من هذه العلوم، علوم المجوس، وعلوم اليونان، وعلم الهند (الهنادكة)، ولفيف من العلوم تجمعت عند هؤلاء، ورثوها عنهم، وأخذوا من كل نِحلة من هذه النِّحَل شيئاً من الاعتقاد أو الفِكْر أو الرأي، فكيف يقال: إن هؤلاء أعلم وأحكم من الصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان؟!

يقول رحمه الله: (إِنَّمَا قَدَّمْتُ هَذِهِ اَلْمُقَدِّمَةَ لِأَنَّ مَنْ اِسْتَقَرَّتْ هَذِهِ اَلْمُقَدِّمَةُ عِنْدَهُ عَلِمَ طَرِيقَ اَلْهُدَى أَيْنَ هُوَ فِي

هَذَا اَلْبَابِ) إذاً هذه المقدمة تُعتبَر مهمة جداً في باب الأسماء والصفات؛ لأن مَنْ يدخل في هذا العلم سيجد مدارس كثيرة ومتنوعة، ولن يجد الحق إلا في المدرسة التي هي مدرسة أهل السُّنة والجماعة، لن يجد الحق إلا في هذه المدرسة، لماذا؟

لأن المدارس الأخرى هذا شأنها- كما وصف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأوضح في هذه المقدمة-

.

يقول: علم أين الهدى، وأيضاً (عَلِمَ أَنَّ اَلضَّلَالَ وَالتَّهَوُّكَ إِنَّمَا اِسْتَوْلَى عَلَى كَثِيرٍ مِنْ اَلْمُتَأَخِّرِينَ بِنَبْذِهِمْ) الكتاب (وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَمَّا بَعَثَ اَللهُّ بِهِ مُحَمَّداً ﷺ مِنْ اَلْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى)؛ إذاً هؤلاء لما نبذوا الكتاب وأقبلوا على تلك العلوم التي هي لفيف من تلك النِّحَل صاغوا هذه العقيدة الباطلة التي عظّموها وادّعوا أنها أعلم مما عليه السلف، وأحكم مما عليه السلف.

وهو في الحقيقة لا علم ولا حكمة، ولا عندهم عين ولا أثر من العلم والحكمة، ولكنها تراكمات من أباطيل، نِحَل كثيرة تجمعت عند هؤلاء ظنوها يقينيات وهي جهالات، ظنوها حكمة وهي ضلالة، وزادوا في السوء أن فضّلوها على علوم السلف، وادعوا أنها أعلم وأحكم.

فإذاً هذه المقدمة مهمة جداً، بدأ بها رحمه الله تعالى ليُبين أن الخير إنما هو في ما كان عليه السلف الصالح رحمهم الله ورضي عنهم.

قال رحمه الله تعالى:

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ: فَهَذَا كِتَابُ الله مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، وَسُـنَّةُ رَسُـولِهِ ﷺ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، ثُمَّ عَامَّةُ كَلَامِ اَلصَّـحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، ثُمَّ كَلَامُ سَائِرِ اَلْأَئِمَةِ مَمْلُوءٌ بِمَا هُوَ إِمَّا نَصٌّ وَإِمَّا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ اَللهَّ سُبْحَانَهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَعَلِيٌّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ فَوْقَ اَلْعَرْشِ، وَأَنَّهُ فَوْقَ اَلسَّمَاءِ؛

مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۝١٠﴾ [فاطر:١٠]،

و قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ۝٥٥﴾ [آل عمران:٥٥]،

وقَوْلِهِ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك:١٦]

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ [الملك:١٧]

وقَوْلِهِ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۝١٥٨﴾ [النساء:١٥٨]،

وقَوْلِهِ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ۝٤﴾ [المعارج:٤]،

وقوْلِه: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴿٥﴾ ﴾ [السجدة:٥]،

وقوْلِه: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل:٥٠]،

وقوْلِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في ستة مواضع.

وقوْلِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [طه:٥]،

وقوْلِه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [غافر:٣٦]

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر:٣٧]،

وقوْلِه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت:٤٢]،

وقوْلِه: ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأنعام:١١٤]، إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكَادُ يُحْصَى إِلَّا بِكُلْفَةٍ، وَفِي الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ وَالْحِسَانِ مَا لَا يُحْصَى.

مِثْلُ قِصَّةِ مِعْرَاجِ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى رَبِّهِ، وَنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ عِنْدِ الله وَصُعُودِها إِلَيْهِ، وَقَوْله فِي الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ إِلَى رَبِّهِمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ.

وَفِي الصَّحِيحِ فِي حَدِيثِ الْخَوَارِجِ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ؟! يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحاً وَمَسَاءً».

وَفِي حَدِيثِ الرُّقْيَةِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ: «رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُك، أَمْرُك فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُك فِي السَّمَاءِ، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِك، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ».

قَالَ ﷺ: «إِذَا اشْتَكَى أَحَدٌ مِنْكُمْ، أَوْ اشْتَكَى أَخٌ لَهُ فَلْيَقُلْ رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ». وَذَكَرَهُ.

وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الْأَوْعَالِ: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِك، وَاللهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُد.

وَهَذَا الْحَدِيثُ مَع أَنَّهُ قَدْ رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ كَأَبِي دَاوُد، وَابْنُ مَاجَهْ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمْ، فَهُوَ مَرْوِيٌّ مِنْ طَرِيقَيْنِ مَشْهُورَيْنِ، فَالْقَدْحُ فِي أَحَدِهِمَا لَا يَقْدَحُ فِي الْآخَرِ، وَقَدْ رَوَاهُ إِمَامُ الْأَئِمَّةِ ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي كِتَابِه «التَّوْحِيدِ»، الَّذِي اشْتَرَطَ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَحْتَجُّ فِيهِ إِلَّا بِمَا نَقَلَهُ الْعَدْلُ عَنْ الْعَدْلِ، مَوْصُولاً إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: مَنْ أَنَا؟ قَالَتْ: رَسُولُ الله، قَالَ: أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ».

وَقَوْلُهُ فِي اَلْحَدِيثِ اَلصَّحِيحِ: «إِنَّ اَللهَ لَمَّا خَلَقَ اَلْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ مَوْضُوعٍ عِنْدَهُ فَوْقَ اَلْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ قَبْضِ اَلرُّوحِ: «حَتَّى يُعْرَجَ بِهَا إِلَى اَلسَّمَاءِ اَلَّتِي فِيهَا اَللهُ».

إِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ اَلصَّحِيحَيْنِ.

وَقَوْلُ عَبْدِ الله بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه اَلَّذِي أَنْشَدَهُ اَلنَّبِيَّ ﷺ وَأَقَرَّهُ عَلَيْهِ:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ... وَأَنَّ اَلنَّارَ مَثْوَى اَلْكَافِرِينَا
وَأَنَّ اَلْعَرْشَ فَوْقَ اَلْمَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ اَلْعَرْشِ رَبُّ اَلْعَالَمِينَا

وَقَوْلُ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي اَلصَّلْتِ اَلثَّقَفِيِّ اَلَّذِي أَنْشَدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ هُوَ وَغَيْرُهُ مِنْ شِعْرِهِ فَاسْتَحْسَنَهُ وَقَالَ: آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ.

مَجِّدُوا اَللهَ فَهُوَ لِلْمَجْدِ أَهْلٌ ... رَبُّنَا فِي اَلسَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرَا
بِالْبِنَاءِ اَلْأَعْلَى اَلَّذِي سَبَقَ اَلنَّاسَ ... وَسَوَّى فَوْقَ اَلسَّمَاءِ سَرِيرَا
شَرْجَعاً مَا يَنَالُهُ بَصَرُ اَلْعَيْنِ ... تَرَى دُونَهُ اَلْمَلَائِكَ صُورَا

وَقَوْلُهُ فِي اَلْحَدِيثِ اَلَّذِي فِي اَلسُّنَنِ: «إِنَّ اَللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً».

وَقَوْلُهُ: «يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى اَلسَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ..».

إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اَللهُ، مِمَّا هُوَ مِنْ أَبْلَغِ اَلْمُتَوَاتِرَاتِ اَللَّفْظِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ، اَلَّتِي تُورِثُ عِلْماً يَقِينِيّاً مِنْ أَبْلَغِ اَلْعُلُومِ اَلضَّرُورِيَّةِ أَنَّ اَلرَّسُولَ ﷺ اَلْمُبَلِّغَ عَنْ الله أَلْقَى إِلَى أُمَّتِهِ اَلْمَدْعُوِّينَ أَنَّ اَللهَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ اَلْعَرْشِ وَأَنَّهُ فَوْقَ اَلسَّمَاءِ، كَمَا فَطَرَ اَللهُ على ذلك جَمِيعَ اَلْأُمَمِ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، فِي اَلْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، إِلَّا مَنْ اِجْتَالَتْهُ اَلشَّيَاطِينُ عَنْ فِطْرَتِهِ.

ثُمَّ عَنِ اَلسَّلَفِ فِي ذَلِكَ مِنْ اَلْأَقْوَالِ مَا لَوْ جُمِعَ لَبَلَغَ مِئَاتٍ، أَوْ أُلُوفاً.

بعد تلك المقدمة التي بدأ رحمه الله تعالى بها دخل في موضوع الإجابة على السؤال، فإن السائل أورد بعض آيات الصفات، ومنها: قول الله تعالى: (﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾) وسأل عن القول الحق في ذلك، فدخل الآن في صميم الموضوع، وبدأ يُقرر ويبين المعتقَد الحق في الآيات.. آيات الصفات، ولاسيما ما قد نصَّ عليه السائل في السؤال الذي ورد لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

هنا يتحدث رحمه الله عن صفة العلو لله جل وعلا؛

يقول: (هَذَا كِتَابُ الله مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، ثُمَّ عَامَّةُ كَلَامِ اَلصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، ثُمَّ كَلَامُ سَائِرِ اَلْأَئِمَّةِ مَمْلُوءٌ بِمَا هُوَ إِمَّا نَصٌّ وَإِمَّا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ اَللَّهَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَعَلِيٌّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ فَوْقَ اَلْعَرْشِ، وَأَنَّهُ فَوْقَ اَلسَّمَاءِ)؛

يقول: هذا المعتقَد أدلته لا حصر لها ولا عد، كثيرة جداً في كتاب الله وسُنة نبيّه عليه الصلاة والسلام، والنقول عن السلف في ذلك كثيرة جداً.

وكما أشار في آخر كلامه الذي قرأناه، ليس عدُّ هذه الأدلة بالعشرات ولا بالمئات، لعلنا تنبهنا لكلامه عندما قال: (مَا لَوْ جُمِعَ لَبَلَغَ مِئَاتٍ، أَوْ أُلُوفاً)، ولهذا ابن القيم رحمه الله في «النونية» لمّا تحدَّث عن صفة العلو، وردَّ على المنكرين لها قال:

ويا قومنا والله إنّا لقولنا   ألفاً تدل عليه بل ألفان

لأن الأدلة على العلو بالآلاف.

ثم أخذ رحمه الله يذكر أدلة العلو من الكتاب والسُّنة، وإذا تأملت الأدلة التي ذكرها رحمه الله تعالى تجد أنها أفراد أدلة تضمنت أنواع أدلة على العلو، لأن أفراد الأدلة في الكتاب والسُّنة على العلو ترجع إلى أنواع ذكرها أهل العلم وأوصلها ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «إعلام الموقعين» إلى عشرين نوعاً، ونقلها عنه نصَّاً ابن أبي العز الحنفي رحمه الله تعالى في شرح «العقيدة الطحاوية».

وبالتأمل لهذه الآيات التي ساقها رحمه الله تعالى، يظهر لك أنواع الأدلة الدالة على علو الله ﷻ؛

فمثلاً: **من أنواع الأدلة**: ما جاء في النصوص من صعود الكلم الطيب إلى الله، وأن العمل الصالح يرفعه، والصعود والرفع إنما يكون إلى أعلى؛ فهذا من الأدلة على العلو.

إخبار الله ﷻ برفْع بعض المخلوقات إليه (﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ٥٥﴾ [آل عمران:٥٥]) هذا من الأدلة على العلو لأن الرفْع إنما يكون إلى أعلى.

ما جاء في نصوص عديدة في الكتاب والسُّنة فيها أن الله في السماء، وفي السماء: أي على السماء، لأن (في) بمعنى (على) في هذا الموضع، ففي السماء- أي: على السماء- مثلما قال عليه الصلاة والسلام: «ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء»، ما المراد بقوله: «ارحموا مَنْ في الأرض»؟ أيفهم أحد من ذلك أن المراد مَنْ هو بباطن الأرض بحُكم أن (في) تفيد الظرفية؟

فالمعنى ظاهر: «ارحموا مَنْ في الأرض» (في) بمعنى (على)، وهذا يأتي في النصوص كثيراً، «ارحموا مَنْ في الأرض» أي: مَنْ على الأرض، «يرحمكم مَنْ في السماء» أي: مَنْ على السماء.

فهذه فيها إثبات علو الله ﷻ، وهذا النوع ذكر منه رحمه الله تعالى عدداً من الأدلة.

إخباره بأن الملائكة تعرج إليه، والعروج إنما يكون إلى أعلى، مثل قوله: (﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ ﴿٤﴾﴾ [المعارج:٤])، ومثل قوله: (﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴿٥﴾﴾ [السجدة:٥]).

أيضاً **من أنواع الأدلة**: الإخبار بالفوقية، (﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل:٥٠])، (﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨]).

من أنواع الأدلة: الإخبار باستوائه على العرش، وقد جاء ذلك في القرآن في سبعة مواضع.

والاستواء: هو العلو والارتفاع.

من أنواع الأدلة: القصة التي ذكرها الله عن فرعون في تكذيبه لنبي الله موسى في إخباره لهم بأن الله في السماء، وتأمل الآية في قوله:

(﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [غافر:٣٦]

﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴿٣٧﴾﴾ [غافر:٣٧])

قول فرعون: (﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر:٣٧]) الضمير هنا يعود على مَنْ؟

موسى عليه السلام.

(﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴿٣٧﴾﴾ [غافر:٣٧]) أي: في ماذا؟

فيما أخبر به أن معبوده في السماء، فرام فرعون أن يبني صرحاً لعله يبلغ الأسباب، أسباب السموات ليطلع على إله موسى، فإذاً السياق واضح، أن موسى أخبر فرعون ومَنْ معه أن الله في السماء، وكابر فرعون ورام أن يبني صرحاً ليبلغ الأسباب لِيُظهِر بزعمه كذب موسى فيما ادّعى.

ولهذا العلماء أخذوا من هذه القصة أن مَنْ يُنكِر عُلو الله فهو فرعوني، يعني على طريقة فرعون، ومَنْ يُثبت علو الله فهو مُوسوي ومحمدي وعلى طريقة الأنبياء والمرسلين أجمعين؛ كلهم يثبتون العلو ويُقِرّون به ويؤمنون به.

أيضاً من أنواع الأدلة ما جاء في آيات كثيرة فيها الإخبار بتنزيل الكتاب من الله، والنزول إنما يكون من أعلى.

فقوله: (﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٢])، (﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام:١١٤]) ولها نظائر كثيرة، هذه من أنواع الأدلة على علو الله ﷻ.

ولما ذكر هذه الآيات ذكر بعض الأحاديث في العُلو، قال: (وَفِي ٱلْأَحَادِيثِ ٱلصِّحَاحِ وَالْحِسَانِ مَا لاَ يُحْصَى)، وذكر أحاديث عديدة في هذا الباب منها أحاديث صحيحة، وبعضها أحاديث مُتنازَع فيها، يعني بعض أهل العلم يُضَعِّفها، وبعض أهل العلم يُحسِّنها، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ذكرها وهو يُحسِّن بعضها، ونَصَّ على ذلك في بعض كتبه.

وبعضها ذكر أن لها طُرق يعني قد يقوي بعضها بعضاً، ولكن في الجملة هذه الأحاديث مضمومة إلى غيرها من الأحاديث الواردة في هذا الباب كلها شواهد ودلائل على علو الله ﷻ.

وليس العمدة عنده رحمه الله في هذا الباب تلك الأحاديث الْمُختَلَف فيها، وإنما ذكرها في ضمن غيرها استئناساً بها.

والعمدة في الباب أحاديث كثيرة جداً ثابتة وصحيحة جاءت عن رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

فذكر رحمه الله تعالى أحاديث كثيرة جداً في إثبات علو الله ﷻ، قال: (مِثْلُ قِصَّةِ) المعراج (مِعْرَاجِ) الرسول (إِلَى رَبِّهِ) هذا من الأدلة على العلو، لأن العروج إنما يكون إلى أعلى.

(وَنُزُولِ ٱلْمَلَائِكَةِ مِنْ عِنْدِ الله وَصُعُودِهَا إِلَيْهِ) هذا جاء في أحاديث كثيرة جداً.

وقول الملائكة (ٱلَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَيَعْرُجُ ٱلَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ إِلَى رَبِّهِمْ) العروج إنما يكون إلى أعلى.

قوله عليه الصلاة والسلام: («أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي ٱلسَّمَاءِ؟!»).

(وَفِي حَدِيثِ ٱلرُّقْيَةِ) رقية المريض (: «رَبُّنَا ٱللهُ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاءِ»).

قوله أيضاً: («فَلْيَقُلْ رَبَّنَا ٱللهُ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاءِ»).

(حَدِيثِ ٱلْأَوْعَالِ) فيه: («وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَٱللهُ فَوْقَ») العرش.

فالشاهد: أن هذه كلها أحاديث فيها تنصيص على أنواع من الأدلة الْمُقررة لعلو الله ﷻ على خلْقه.

وهذا الباب اعتنى به أهل العلم، اعتنوا عناية دقيقة جداً بجمْع الأدلة وتنويع الأدلة على العُلو؛ بل أفردوا ذلك في مصنفات، مثل ابن قدامة في كتابه «صفة العلو»، والذهبي في كتابه «العلو»، وأيضاً ابن عبد

الهادي له كتاب في ذلك، وابن القيم رحمه الله في «اجتماع الجيوش» أطال جداً في بسْط الأدلة على عُلو الله تبارك وتعالى على خلْقه.

ختم إيراده لهذه الأحاديث رحمه الله تعالى بقوله: (إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا لاَ يُحْصِيهِ إِلَّا اَللهُ، مِمَّا هُوَ مِنْ أَبْلَغِ اَلْمُتَوَاتِرَاتِ اَللَّفْظِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ، اَلَّتِي تُورِثُ عِلْماً يَقِينِيّاً مِنْ أَبْلَغِ اَلْعُلُومِ اَلضَّرُورِيَّةِ أَنَّ اَلرَّسُولَ ﷺ اَلْمُبَلِّغَ عَنْ الله أَلْقَى إِلَى أُمَّتِهِ اَلْمَدْعُوِّينَ أَنَّ اَللهَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ اَلْعَرْشِ وَأَنَّهُ فَوْقَ اَلسَّمَاءِ، كَمَا فَطَرَ اَللهُ على ذلك جَمِيعَ اَلْأُمَمِ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، فِي اَلْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، إِلَّا مَنْ اِجْتَالَتْهُ اَلشَّيَاطِينُ عَنْ فِطْرَتِهِ)؛ هذه خلاصة يذكرها رحمه الله بعد أن ساق الأدلة، يعني عندما تقرأ هذه الأدلة من الكتاب والسُّنة تصل إلى نتيجة أن نبيّنا عليه الصلاة والسلام أبلغ الأمة بلاغاً واضحاً بيّناً ظاهراً في مقامات كثيرة، وبأنواع عديدة من الأدلة، أبلغهم أن الله ﷻ في السماء، وأخبرهم بذلك.

فهو علم ضروري يقيني مُتلقَّى عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه المُبَلِّغ عن الله تعالى.

ثم أشار رحمه الله إلى أن هذا الأمر أيضاً مركوز في الفِطَر (إِلَّا مَنْ اِجْتَالَتْهُ اَلشَّيَاطِينُ)، ولهذا مَنْ أشار إليهم، في أثناء كلام أهل الجاهلية بعضهم مع جاهليته تجد في شِعره إقراراً بأن الله في السماء، وخطاب الله لهم في القرآن: (﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ١٦﴾ [الملك:١٦]) خاطبهم بشيء يعلمونه.

والرجل الذي لقيه النبي عليه الصلاة والسلام وقال له: «كم إلهاً تعبد؟» الحديث في المسند، قال: سبعة؛ ستة في الأرض وواحد في السماء، يعني الله.

شاعر جاهلي يقول لزوجته، يواسيها:

يا عبل أين من المنية مهرب ... إن كان ربي في السماء قضاها

فالمشركون في جاهليتهم كان عندهم معرفة إلا مَنْ انحرفت فطرته في هذا الباب، والفطرة تنحرف في جوانب وقد تسلم في جوانب، ولهذا تجد مثلاً في بعض الجاهليين شركيات، وخرافات، وضلالات، وتجد مثلاً عنده إيمان بالبعث، أو عنده إيمان بالقدر، مثل الذي مرّ معنا قريباً: (إن كان ربي في السماء قضاها)، هذا شاعر جاهلي مشرك، لكن شعره فيه هذا الإيمان بالقضاء والقدر، وفيه الإيمان بعلو الله ﷻ وفوقيته سبحانه؛ فإذاً هذا أمر مركوز في الفِطَر.

أحكي لكم قصة عجيبة، مرّت عليّ أنا شخصياً، لقيت مرةً رجلاً جاء إلى المدينة، وكان يدرس المرحلة الجامعية في إحدى الجامعات التي تُدَرِّس العقيدة على طريقة المتكلمين، وذكر لي الدولة التي هو منها، وأن

الله أكرمه بالإسلام وكان قبل ذلك نصرانياً، ويقول: عندما هداني الله للإسلام قررت أن أرحل إلى معقل من معاقل تعليم الإسلام، وأتضلع في معرفة الإسلام حتى أرجع داعيةً إليه، بهمة عالية.

فقلت له: ماذا درست في العقيدة؟

ووصلنا إلى الكلام على العُلو، فقلت له: ماذا أخذت في هذه المسألة: (أين الله)؟

قال: درسنا أن الله في كل مكان.

قلت: وماذا من الأدلة التي أخذتها على ذلك؟

قال: أدلة كثيرة، يعني الأستاذ يقصد أنه يأتي بأشياء عقلية

قلت: هل تذكر منها شيء؟

قال: لا. لكن كلام يعني.. كلام عقلي وكلام..

فأخذت أقرأ عليه آيات وأحاديث مثل هذا الذي ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية، أقرأ عليه آيات وأحاديث وأقول له اسمع واسمع، وأقرأ عليه آيات وأحاديث، قلت: هذه الآيات على ماذا تدل؟..قلت: دعك من كلام.. أي كلام لأي أحد، وإنما هذه الآيات وهذه الأحاديث ماذا تفهم منها؟

قال: واضحة، إن الله في السماء، إن الله في العلو.

قلت: هذا القرآن، وهذه السُّنة، وهذه هي العقيدة التي ينبغي أن يكون عليها المسلم.

فقال لي كلمة قاسية في حق مَنْ تعلَّم عليهم.. قال لي: هؤلاء المجرمون لماذا لم يعلموننا الآيات والأحاديث؟ أنا لم أدخل للإسلام إلا لأتعلم دين الله في القرآن والسُّنة، قال: لماذا لم يعلموننا هذه الآيات وهذه الأحاديث؟ وأنا ما أردت إلا الإسلام بكلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، فلماذا لم يعلموننا هذه الآيات والأحاديث؟!

أصل معكم إلى موضع الشاهد من قصتي، ليس هذا موضع الشاهد..

قلت له: قبل أن تُسلم، وأنت على نصرانيتك ماذا كنت تعتقد في هذه المسألة؟ لو قيل لك في ذلك الوقت: أين الله؟، ماذا كنت تعتقد؟

قال: أعتقد أن الله في السماء.

هذا موضع الشاهد؛ قال: كنت أعتقد في نصرانيتي أن الله في السماء.

فهذا أمر مركوز في الفِطَر، حتى إن بعض الأشخاص يذهب إلى بعض البلدان يلتقي بأناس على عقائد

مختلفة، إذا قيل لهم: أين الله؟ قال: في السماء، هذا شيء مركوز في الفِطَر إلا مَنْ دخلت عليه لوثة التجهم، وعقائد المتكلمين هو الذي ينحرف في هذا الباب.

هذا الذي عناه شيخ الإسلام رحمه الله بقوله: (كَمَا فَطَرَ اَللَّهُ على ذلك جَمِيعَ اَلْأُمَمِ)- انتبه لكلامه!- (جَمِيعَ اَلْأُمَمِ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، فِي اَلْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ) هذا أمر في الفِطَر مركوز إلا (مَنْ اِجْتَالَتْهُ اَلشَّيَاطِينُ عَنْ فِطْرَتِهِ).

قال رحمه الله تعالى: (ثُمَّ عِنْ اَلسَّلَفِ فِي ذَلِكَ مِنْ اَلْأَقْوَالِ مَا لَوْ جُمِعَ لَبَلَغَ مِئَاتٍ، أَوْ أُلُوفاً) يعني النقول عنهم في ذلك كثيرة جداً، وأشرت إلى أن ابن القيم رحمه الله، وقبله اللالكائي وابن قدامه في «العلو»، وكذلك الذهبي في «العلو»، وآخرين من أهل العلم جمعوا هذه الآثار والنقول المروية عن السلف رحمهم الله تعالى في هذا الباب.

قال رحمه الله تعالى:

ثُمَّ لَيْسَ فِي كِتَابِ الله وَلَا فِي سُنَّةِ الرسُولِ ﷺ وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ اَلْأُمَّةِ لَا مِنْ اَلصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ، وَلَا عَنْ أَئِمَّةِ اَلدِّينِ- اَلَّذِينَ أَدْرَكُوا زَمَنَ اَلْأَهْوَاءِ وَالِاخْتِلَافِ- حَرْفٌ وَاحِدٌ يُخَالِفُ ذَلِكَ لَا نَصّاً وَلَا ظَاهِراً.

وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ قَطُّ إِنَّ اَللَّهَ لَيْسَ فِي اَلسَّمَاءِ، وَلَا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى اَلْعَرْشِ، وَلَا أَنَّهُ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا أَنَّ جَمِيعَ اَلْأَمْكِنَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَوَاءٌ، وَلَا أَنَّهُ لَا دَاخِلَ اَلْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا مُتَّصِلَ وَلَا مُنْفَصِلَ، وَلَا أَنَّهُ لا تَجُوزُ اَلْإِشَارَةُ اَلْحِسِّيَّةُ إِلَيْهِ بِالْأُصْبُعِ وَنَحْوِهَا، بَلْ قَدْ ثَبَتَ فِي اَلصَّحِيحِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ لَمَّا خَطَبَ خُطْبَتَهُ اَلْعَظِيمَةَ يَوْمَ عَرَفَاتٍ، فِي أَعْظَمِ مَجْمَعٍ حَضَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ، جَعَلَ يَقُولُ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَرْفَعُ أُصْبُعَهُ إِلَى اَلسَّمَاءِ وَيَنْكُبُهَا إِلَيْهِمْ وَيَقُولُ: «اَللَّهُمَّ اِشْهَدْ» غَيْرَ مَرَّةٍ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

فَإِنْ كَانَ اَلْحَقُّ فِيمَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ السَّالِبُونَ اَلنَّافُونَ لِلصِّفَاتِ اَلثَّابِتَةِ فِي كِتَابِ الله وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، مِنْ هَذِهِ اَلْعِبَارَاتِ وَنَحْوِهَا دُونَ مَا يُفْهَمُ مِنْ اَلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِمَّا نَصّاً وَإِمَّا ظَاهِراً، فَكَيْفَ يَجُوزُ عَلَى الله ثُمَّ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ثُمَّ عَلَى خَيْرِ اَلْأُمَّةِ أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ دَائِماً بِمَا هُوَ نَصٌّ أَوْ ظَاهِرٌ فِي خِلَافِ اَلْحَقِّ اَلَّذِي يَجِبُ اِعْتِقَادُهُ وَلَا يَبُوحُونَ بِهِ قَطُّ، وَلَا يَدُلُّونَ عَلَيْهِ لَا نَصّاً وَلَا ظَاهِراً، حَتَّى يَجِيءَ أَنْبَاطُ اَلْفُرْسِ وَالرُّومِ وَفُرُوخُ اَلْيَهُودِ وَالْفَلَاسِفَةِ يُبَيِّنُونَ لِلْأُمَّةِ اَلْعَقِيدَةَ اَلصَّحِيحَةَ اَلَّتِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ، أَوْ كُلِّ فَاضِلٍ أَنْ يَعْتَقِدَهَا!.

لَئِنْ كَانَ مَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ اَلْمُتَكَلِّمُونَ اَلْمُتَكَلِّفُونَ هُوَ اَلِاعْتِقَادُ اَلْوَاجِبُ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أُحِيلُوا فِي مَعْرِفَتِهِ عَلَى

مُجَرَّدِ عُقُولِهِمْ وأن يدفعوا بمقتضى قياس عقولهم مَا دَلَّ عَلَيْهِ اَلْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ نَصّاً أَوْ ظَاهِراً، لَقَدْ كَانَ تَرْكُ اَلنَّاسِ بِلَا كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ أَهْدَى لَهُمْ وَأَنْفعَ عَلَى هَذَا اَلتَّقْدِيرِ، بَلْ كَانَ وُجُودُ اَلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ضَرَراً مَحْضاً فِي أَصْلِ اَلدِّينِ.

فَإِنَّ حَقِيقَةَ اَلْأَمْرِ عَلَى مَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ أَنَّكُمْ يَا مَعْشَرَ اَلْعِبَادِ لَا تَطْلُبُوا مَعْرِفَةَ الله ﷻ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ اَلصِّفَاتِ نَفْياً وَإِثْبَاتاً لَا مِنْ اَلْكِتَابِ وَلَا مِنْ اَلسُّنَّةِ وَلَا مِنْ طَرِيقِ سَلَفِ اَلْأُمَّةِ.

وَلَكِنْ اُنْظُرُوا أَنْتُمْ فَمَا وَجَدْتُمُوهُ مُسْتَحِقّاً لَهُ مِنَ اَلْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فَصِفُوهُ بِهِ-سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُوداً فِي اَلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ- وَمَا لَمْ تَجِدُوهُ مُسْتَحِقّاً لَهُ فِي عُقُولِكُمْ فَلَا تَصِفُوهُ بِهِ!

....

هذا الكلام يذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ليبين من خلاله ما يتضح به استهجان ما يقوله هؤلاء، وأنه كلام سيء ومُستهجَن للغاية.

يقول رحمه الله: ليس في الكتاب ولا في السُّنة (وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ اَلْأُمَّةِ) ولا عن التابعين لهم بإحسان (حَرْفٌ وَاحِدٌ يُخَالِفُ ذَلِكَ)، لا يوجد حرف واحد (لاَ نَصّاً وَلاَ ظَاهِراً) يخالف ذلك، أي: يخالف تقرير وإثبات أن الله ﷻ في العلو.

هذا شيء.

أيضاً (لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ قَطُّ إِنَّ اَللهَ لَيْسَ فِي اَلسَّمَاءِ، وَلَا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى اَلْعَرْشِ، وَلَا أَنَّهُ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا أَنَّ جَمِيعَ اَلْأَمْكِنَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَوَاءٌ، وَلَا أَنَّهُ لاَ دَاخِلَ اَلْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ) لم يقل أحد منهم ذلك، لا يوجد شيء من هذا الكلام، لا في الكتاب ولا في السُّنة، ولا في أقاويل السلف الصالح رضي الله عنهم ورحمهم، لا يوجد إطلاقاً شيء من ذلك.

ولم يقل أحد منهم: (أَنَّهُ لا تَجُوزُ اَلْإِشَارَةُ) (إِلَيْهِ بِالْأُصْبُعِ) لأن هؤلاء لما قرروا عقيدتهم تلك قالوا: إن الله لا يُسأل عنه بـ (أين)، ولا يُشار إليه بأصبع.

حتى إن في بعض كتب المتكلمين يقولون: إن الأصبع التي تشير إلى العلو يجب أن تُقطَع!

ويقول شيخ الإسلام في الحديث الصحيح وهو في صحيح مسلم حديث جابر: في أعظم جمْع حضره للنبي عليه الصلاة والسلام ووقف بين يديه، في أعظم جمْع كان يرفع أصبعه إلى السماء يقول: (يَقُولُ: اَللَّهُمَّ اِشْهَدْ)، يرفع أصبعه إلى السماء، أشار بالأصبع صلوات الله وسلامه عليه، وسأل عن الله بـ (أين) والحديث

في الصحيح، قال: «أين الله؟» قالت: في السماء.

فلا يوجد في الكتاب ولا في السُّنة ولا في أقاويل السلف شيء من عقائد هؤلاء، مثل قولهم: أن الله ليس في السماء، أو قولهم: أنه ليس على العرش، أو أنه بذاته في كل مكان، أو أنه لا يُشار إليه بالأصبع؛ هذه كلها أقاويل لهؤلاء لا يوجد حرف واحد منها لا في الكتاب ولا في السُّنة، ولا في أقوال السلف.

الآن يريد يصل إلى نتيجة، لما ذكر ما جاء في الكتاب والسُّنة وما جاء عند هؤلاء، وأن الذي جاء عند هؤلاء لا يوجد منه أي حرف في الكتاب والسُّنة، كأنه يضع في هذا الموضع تساؤلاً يجيب عليه حتى يبين شناعة هؤلاء، وفساد ما عليه.

....

يقول: فإذا (كَانَ اَلْحَقُّ فِيمَا) قاله (هَؤُلَاءِ السَّالِبُونَ اَلنَّافُونَ لِلصِّفَاتِ) ونحن عرفنا الآن أن الذي قالوه هؤلاء لا يوجد منه حرف واحد في الكتاب ولا في السُّنة، فإذا كان الحق فيما قاله هؤلاء ماذا يتلخص من هذا من نتيجة؟ إذا كان الحق فيما يقوله (هَؤُلَاءِ السَّالِبُونَ اَلنَّافُونَ لِلصِّفَاتِ اَلثَّابِتَةِ فِي كِتَابِ الله وَسُنَّةِ رَسُولِهِ -ﷺ-، مِنْ هَذِهِ اَلْعِبَارَاتِ وَنَحْوِهَا دُونَ مَا يُفْهَمُ مِنْ اَلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِمَّا نَصّاً وَإِمَّا ظَاهِراً) أي: من إثبات العُلو لله، (فَكَيْفَ يَجُوزُ عَلَى الله ثُمَّ عَلَى رَسُولِهِ ثُمَّ عَلَى خَيْرِ) الأمم (أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ دَائِماً بِمَا هُوَ نَصٌّ أَوْ ظَاهِرٌ فِي خِلَافِ اَلْحَقِّ) لو كان القول الحق هو قول هؤلاء يقول: كيف يكون الكتاب والسُّنة خلا من الحق؟ ولم يُذْكَر فيه الحق، بل ذُكِر فيه- على ما يعتقد هؤلاء- ضد الحق وخلافه!!

وإذا كان ما يقوله هؤلاء هو الحق أي الأمرين أنفع للناس؛ مجيء الكتاب والسُّنة إليهم، أو تركهم بدون الكتاب والسُّنة؟ في هذا الباب أي الأمرين أنفع للناس: مجيء الكتاب والسُّنة، أو تركهم بدون الكتاب والسُّنة؟

أصبح مجيء الكتاب والسُّنة على عقيدة هؤلاء عبء على الناس من حيث أنهم يُبعدون هذه الظواهر التي تدل على خلاف الحق، ويصرفونها عن معناها بالتكلفات التي شغلوا بها مساحة كبيرة من كتبهم (كتب علم الكلام)، لا أنه أُخذِت العقيدة من الكتاب والسُّنة، وإنما اشتُغل اشتغال كبير جداً في صرْف هذه النصوص- التي تدل في ظاهرها على إثبات هذه الصفات- صرْفها عن ظاهرها، فأصبح الكتاب والسُّنة- على ما يعتقده هؤلاء- صرّحوا بذلك أو لم يُصرِّحوا- وبعضهم صرَّح بذلك- يشكلان خطر على الناس، وأن الذي يقرأ الكتاب والسُّنة ينبغي أن يحتاط، وأن يعرف قواعد المتكلمين حتى يتخلص من هذه الظواهر

فلا تؤثر عليه في عقيدته.

إذا كان هذا القول هو الحق إذاً تَرْك الناس بدون الكتاب والسُّنة كان أسلم لهم، ولهذا تكون القراءة للكتاب والسُّنة إما قراءة مُجرّدة بدون فهْم، أو بالفهم على قواعد المتكلمين حتى تسلم للإنسان عقيدته.

فانظر ماذا يقول رحمه الله تعالى، يقول: (فَكَيْفَ يَجُوزُ عَلَى اللهِ ثُمَّ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ثُمَّ عَلَى خَيْرِ اَلْأُمَّةِ أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ دَائِماً بِمَا هُوَ نَصٌّ أَوْ ظَاهِرٌ فِي خِلَافِ اَلْحَقِّ اَلَّذِي يَجِبُ اِعْتِقَادُهُ وَلَا يَبُوحُونَ بِهِ قَطُّ) يعني عندما تقرأ القرآن والسُّنة ما تجد فيه إطلاقاً شيء مما يقوله هؤلاء (لاَ نَصّاً وَلَا ظَاهِراً، حَتَّى يَجِيءَ أَنْبَاطُ اَلْفُرْسِ وَالرُّومِ وَفُرُوخُ اَلْيَهُودِ وَالْفَلَاسِفَةِ يُبَيِّنُونَ لِلْأُمَّةِ اَلْعَقِيدَةَ اَلصَّحِيحَةَ اَلَّتِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ، أَوْ كُلِّ فَاضِلٍ أَنْ يَعْتَقِدَهَا!) يعني على هذا الزعم العقيدة لا توجد في الكتاب والسُّنة، وإنما وُجدت عند هؤلاء.

(لَئِنْ كَانَ مَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ اَلْمُتَكَلِّمُونَ اَلْمُتَكَلِّفُونَ هُوَ اَلِاعْتِقَادُ اَلْوَاجِبُ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أُحِيلُوا فِي مَعْرِفَتِهِ إلى مُجَرَّدِ عُقُولِهِمْ، وأن يدفعوا بمقتضى قياس عقولهما دَلَّ عَلَيْهِ اَلْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ نَصّاً أَوْ ظَاهِراً، لَقَدْ كَانَ تَرْكُ اَلنَّاسِ بِلَا كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ أَهْدَى لَهُمْ وَأَنْفَعَ) واضح الكلام هذا؟

(لَكَانَ تَرْكُ اَلنَّاسِ بِلَا كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ أَهْدَى لَهُمْ وَأَنْفَعَ عَلَى هَذَا اَلتَّقْدِيرِ) على هذا التقدير ترْكهم بدون كتاب ولا سُنة أنفع لهم، لماذا أنفع على هذا التقدير؟ لماذا أنفع؟

لأن الكتاب والسُّنة على هذا التقدير يشكلان خطر على العقائد، عقائد الناس، فيحتاج كل واحد يقرأ الكتاب والسُّنة أن يكون عنده أصول المتكلمين حتى يُبعِد هذه النصوص عن ظاهرها فلا يتأثر بتلك العقائد التي يدل عليها الكتاب والسُّنة؛ فكان ترْكهم بدون الكتاب والسُّنة على هذا التقدير أنفع وأهدى لهم.

(بَلْ كَانَ وُجُودُ اَلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ) على هذا التقدير.. ماذا؟ (ضَرَراً مَحْضاً فِي أَصْلِ اَلدِّينِ)..

(بَلْ كَانَ وُجُودُ اَلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ) على هذا التقدير.. تقدير هؤلاء (ضَرَراً مَحْضاً فِي أَصْلِ اَلدِّينِ).

(فَإِنَّ حَقِيقَةَ اَلْأَمْرِ عَلَى مَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ أَنَّكُمْ يَا مَعْشَرَ اَلْعِبَادِ لَا تَطْلُبُوا مَعْرِفَةَ اللهِ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ اَلصِّفَاتِ نَفْياً أَوَ إِثْبَاتاً لَا مِنْ اَلْكِتَابِ وَلَا مِنْ اَلسُّنَّةِ وَلَا مِنْ طَرِيقِ سَلَفِ اَلْأُمَّةِ).

(وَلَكِنْ اُنْظُرُوا أَنْتُمْ فَمَا وَجَدْتُمُوهُ مُسْتَحِقّاً لَهُ مِنْ اَلْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فَصِفُوهُ بِهِ-سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُوداً فِي اَلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ) موجوداً في الكتاب والسُّنة، (وَمَا لَمْ تَجِدُوهُ مُسْتَحِقّاً لَهُ فِي عُقُولِكُمْ فَلَا تَصِفُوهُ بِهِ)؛ إذاً أصبحت العقيدة تُؤخَذ من العقل، ولا يُرجع.. ولا يُعوَّل فيها إلى الكتاب والسُّنة، وإذا رجع الإنسان.. أو قرأ في الكتاب والسُّنة يحاول أن يصرف الآيات التي تصادم ما توصَّل إليه في عقله، فصار العقل هو المُقدّم

وهو المُحكَّم وهو الحاكم على كتاب الله وسُنة نبيّه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال رحمه الله تعالى:

ثُمَّ هُمْ هَاهُنَا فَرِيقَانِ: أَكْثَرُهُمْ يَقُولُونَ: مَا لَمْ تُثْبِتْهُ عُقُولُكُمْ فَانْفُوهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلْ تَوَقَّفُوا فِيهِ، وَمَا نَفَاهُ قِيَاسُ عُقُولِكُمْ- اَلَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ مُضْطَرِبُونَ اِخْتِلَافاً أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ اِخْتِلَافٍ عَلَى وَجْهِ اَلْأَرْضِ- فَانْفُوهُ، وَإِلَيْهِ عِنْدَ اَلتَّنَازُعِ فَارْجِعُوا، فَإِنَّهُ اَلْحَقُّ اَلَّذِي تَعَبَّدْتُكُمْ بِهِ، وَمَا كَانَ مَذْكُوراً فِي اَلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِمَّا يُخَالِفُ قِيَاسَكُمْ هَذَا، أَوْ يُثْبِتُ مَا لَمْ تُدْرِكْهُ عُقُولُكُمْ- عَلَى طَرِيقَةِ أَكْثَرِهِمْ- فَاعْلَمُوا أَنِّي أَمْتَحِنُكُمْ بِتَنْزِيلِهِ لاَ لِتَأْخُذُوا اَلْهُدَى مِنْهُ، لَكِنْ لِتَجْتَهِدُوا فِي تَخْرِيجِهِ عَلَى شَوَاذِّ اَللُّغَةِ، وَوَحْشِيِّ اَلْأَلْفَاظِ، وَغَرَائِبِ اَلْكَلَامِ، وَأَنْ تَسْكُتُوا عَنْهُ مُفَوِّضِينَ عِلْمَهُ إِلَى الله، مَعَ نَفْيِ دَلَالَتِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ اَلصِّفَاتِ، هَذَا حَقِيقَةُ اَلْأَمْرِ عَلَى رَأْيِ هَؤُلَاءِ اَلْمُتَكَلِّمِينَ.

وَهَذَا اَلْكَلَامُ قَدْ رَأَيْتُهُ صَرَّحَ بِمَعْنَاهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ لَازِمٌ لِجَمَاعَتِهِمْ لُزُوماً لاَ مَحِيدَ عَنْهُ، وَمَضْمُونُهُ أَنَّ كِتَابَ الله لَا يُهْتَدَى بِهِ فِي مَعْرِفَةِ الله، وَأَنَّ اَلرَّسُولَ ﷺ مَعْزُولٌ عَنْ اَلتَّعْلِيمِ وَالْإِخْبَارِ بِصِفَاتِ مَنْ أَرْسَلَهُ، وَأَنَّ اَلنَّاسَ عِنْدَ اَلتَّنَازُعِ لَا يَرُدُّونَ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إِلَى الله وَالرَّسُولِ، بَلْ إِلَى مِثْلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي اَلْجَاهِلِيَّةِ، وَإِلَى مِثْلِ مَا يَتَحَاكَمُ إِلَيْهِ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْأَنْبِيَاءِ كَالْبَرَاهِمَةِ، وَالْفَلَاسِفَةِ- وَهُمْ اَلْمُشْرِكُونَ- وَالْمَجُوسُ، وَبَعْضُ اَلصَّابِئِينَ.

وَإِنْ كَانَ هَذَا اَلرَّدُّ لَا يَزِيدُ اَلْأَمْرَ إِلَّا شِدَّةً وَلاَ يَرْتَفِعُ اَلْخِلَافُ بِهِ إِذْ لِكُلِّ فَرِيقٍ طَوَاغِيتُ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَيْهِمْ، وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ، وَمَا أَشْبَهَ حَالَ هَؤُلَاءِ اَلْمُتَكَلِّفِينَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء:٦٠]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء:٦١]

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء:٦٢]

فَإِنَّ هَؤُلَاءِ إِذَا دُعُوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اَللهُ مِنَ اَلْكِتَابِ وَإِلَى اَلرَّسُولِ- وَالدُّعَاءِ إليه بَعْدَ وَفَاتِهِ هُوَ اَلدُّعَاءُ إِلَى سُنَّتِهِ- أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّا قَصَدْنَا اَلْإِحْسَانَ عِلْماً وَعَملاً بِهَذِهِ اَلطَّرِيقِ اَلَّتِي سَلَكْنَاهَا، وَالتَّوْفِيقُ بَيْنَ اَلدَّلَائِلِ اَلْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ.

ثُمَّ عَامَّةُ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا دَلَائِلَ إِنَّمَا تَقَلَّدُوا أَكْثَرَهَا عَنْ طَوَاغِيتِ من طواغيت الْمُشْرِكِينَ أَوْ الصَّابِئِينَ، أَوْ بَعْضِ وَرَثَتِهِمْ الَّذِينَ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ، مِثْلَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، أَوْ عَنْ مَنْ قَالَ كَقَوْلِهِمْ لِتَشَابُهِ قُلُوبِهِمْ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥]..

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة:٢١٣].

وَلَازِمُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ: أَنْ لَا يَكُونَ الْكِتَابُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَلَا بَيَاناً وَلَا شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَلَا نُوراً وَلَا مَرَدّاً عِنْدَ التَّنَازُعِ، لِأَنَّا نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ مَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّفُونَ أَنَّ الْحَقَّ الَّذِي يَجِبُ اعْتِقَادُهُ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، لَا نَصّاً وَلَا ظَاهِراً، وَإِنَّمَا غَايَةُ الْمُتَحَذْلِقِ أَنْ يَسْتَنْتِجَ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ:

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص:٤]..

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥].

وَبِالِاضْطِرَارِ يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ أَنَّ مَنْ دَلَّ الْخَلْقَ عَلَى أَنَّ اللهَ لَيْسَ عَلَى الْعَرْشِ، وَلَا فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥] لَقَدْ أَبْعَدَ النُّجْعَةَ وَهُوَ إِمَّا مُلْغِزٌ أَوْ مُدَلِّسٌ، لَمْ يُخَاطِبْهُمْ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ.

وَلَازِمُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ أَنْ يَكُونَ تَرْكُ النَّاسِ بِلَا رِسَالَةٍ خَيْرًا لَهُمْ فِي أَصْلِ دِينِهِمْ، لِأَنَّ مَرَدَّهُمْ قَبْلَ الرِّسَالَةِ وَبَعْدَهَا وَاحِدٌ، وَإِنَّمَا الرِّسَالَةُ زَادَتْهُمْ عَمًى وَضَلَالاً.

يَا سُبْحَانَ اللهِ! كَيْفَ لَمْ يَقُلْ الرَّسُولُ ﷺ يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ: هَذِهِ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ لَا تَعْتَقِدُوا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، لَكِنْ اعْتَقِدُوا الَّذِي تَقْتَضِيهِ مَقَايِيسُكُمْ، أَوْ اعْتَقِدُوا كَذَا وَكَذَا فَإِنَّهُ الْحَقُّ، وَمَا خَالَفَ ظَاهِرُهُ فَلَا تَعْتَقِدُوا ظَاهِرَهُ، وَانْظُرُوا فِيهَا فَمَا وَافَقَ قِيَاسَ عُقُولِكُمْ فَاعْتَقِدُوهُ، وَمَا لَا فَتَوَقَّفُوا وَانْفُوهُ.

يقول رحمه الله تعالى: (هَاهُنَا فَرِيقَانِ: أَكْثَرُهُمْ يَقُولُونَ: مَا لَمْ تُثْبِتْهُ عُقُولُكُمْ فَانْفُوهُ) أي: كل ما جاء في الكتاب والسُّنة لا يوافق ما توصلتم إليه بعقولكم فانفوه.

والنفي يكون فيما يتعلق بنصوص الكتاب.. نصوص القرآن الكريم بتحريفها عن مدلولها، وحمْلها على

المعاني المُتكلَّفة مثلما عبَّر: على وحشي اللغات ومُستكرَه التأويلات.

والعمدة عند هؤلاء عقولهم، والمُعوَّل عليه هو العقل، لا الكتاب والسُّنة!

ومن المعلوم: أن العقول ليست عقلاً واحداً، بل هي عقول متفاوتة، ولهذا تباين هؤلاء وتضاربت أقوالهم في المعتقد لتباين عقولهم، قد أشرت في اللقاء السابق أن بعضهم يقول: أعرض أدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء، وأُصبح وما عرفت شيئاً ولا علمت شيئاً، يعرض أدلة هؤلاء العقلية وما يقابلها من أدلة الآخرين العقلية ثم يصبح ولم يفهم شيئاً.

فقسم من هؤلاء قالوا: (مَا لَمْ تُثْبِتْهُ عُقُولُكُمْ فَانْفُوهُ).

وقسم آخر يقولون: (مَا لَمْ تُثْبِتْهُ عُقُولُكُمْ) (تَوَقَّفُوا فِيهِ) ما لم تثبته عقولكم فتوقفوا فيه.

يعني القسم الأول مُعطِّلة، والقسم الثاني واقفة، لكن الواقفة في الحقيقة مُعطلة؛ لأن مَنْ يتوقف في إثبات الحق هو مُعطِّل له، يعني شخصاً تأتيه الأدلة الكثيرة على علو الله فيتوقف، يقول: أنا أتوقف في هذه النصوص ولا أُثبِت منها شيئاً، هو في الحقيقة مُعطِّل ومُكَذِّب لما دلت عليه.

ولهذا الإمام أحمد فيما يتعلق بصفة الكلام قال: الواقفة شر من الجهمية.

قال: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلْ تَوَقَّفُوا فِيهِ، وَمَا نَفَاهُ قِيَاسُ عُقُولِكُمْ- اَلَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ مُضْطَرِبُونَ اِخْتِلَافاً أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ اِخْتِلَافٍ عَلَى وَجْهِ اَلْأَرْضِ- فَانْفُوهُ)؛ شيخ الإسلام يعرض الكلام- وليتنا نتنبه لذلك- يعرض الكلام عرضاً يُظهِر فيه ما في قوْل هؤلاء من قُبْح وسوء وتناقض واضطراب، وكيف أنه كلاماً مُستهجَناً ممجوجاً لا يُقبَل، فهو يعرضه بهذه الطريقة حتى يتضح ذلك المعنى الذي أراده رحمه الله تعالى.

يقولون: (مَا نَفَاهُ قِيَاسُ عُقُولِكُمْ) يعني ما توصلتم إليه بقياس عقولكم (فَانْفُوهُ)، (مَا نَفَاهُ قِيَاسُ عُقُولِكُمْ) (فَانْفُوهُ) ووضع بين ذلك كلمة يوضح فيها ما هي هذه العقول التي تنفي ما خالفها من الكتاب والسُّنة، هل هي عقل واحد ولا عقول مختلفة؟، هم يقولون: (مَا نَفَاهُ قِيَاسُ عُقُولِكُمْ) (فَانْفُوهُ) يأتي سؤال هنا (مَا نَفَاهُ قِيَاسُ عُقُولِكُمْ) (فَانْفُوهُ) عقل مَنْ؟ عقل مَنْ هذا الذي ما لم يتفق ما جاء في الكتاب والسُّنة مع قياس عقله يُنفَى، عقل مَنْ؟

إذا كانت العقيدة هي هذه، أن ما نفاه قياس العقل يُنفى، عقل مَنْ هذا الذي يُنفَى به ما دل عليه الكتاب والسُّنة؟

ولهذا انتبه إلى هذه الجملة التي جعلها في أثناء الكلام، قال: (اَلَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ مُضْطَرِبُونَ اِخْتِلَافاً أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ اِخْتِلَافٍ عَلَى وَجْهِ اَلْأَرْضِ) الجملة هي – تأمل!– الجملة: (ومَا نَفَاهُ قِيَاسُ عُقُولِكُمْ) (فَانْفُوهُ) أدخل في أثنائها رحمه الله جملة أخرى يُوضِّح حال تلك العقول، عقول مضطربة، عقول متناقضة، عقول متباينة، فإذا كانوا يقولون ما نفاه قياس عقولكم فانفوه يقال لهم عقل مَنْ؟

أنتم أنفسكم لم تثبتوا على عقل واحد ولا على رأي واحد، فأين يكون الحق؟ وكيف يُهتدَى إلى الحق، وكيف يُعرَف الصواب إذا كانت القاعدة عندكم هي هذه (مَا نَفَاهُ قِيَاسُ عُقُولِكُمْ) (فَانْفُوهُ).

(وَإِلَيْهِ عِنْدَ اَلتَّنَازُعِ فَارْجِعُوا) إليه.. أي: إلى ماذا؟

قياس عقولكم.

(وَإِلَيْهِ) أي: إلى قياس عقولكم (عِنْدَ اَلتَّنَازُعِ فَارْجِعُوا، فَإِنَّهُ اَلْحَقُّ اَلَّذِي تَعَبَّدْتُكُمْ بِهِ) هذا على تقدير هؤلاء وزعمهم، (فَإِنَّهُ اَلْحَقُّ اَلَّذِي تَعَبَّدْتُكُمْ بِهِ، وَمَا كَانَ مَذْكُوراً فِي اَلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِمَّا يُخَالِفُ قِيَاسَكُمْ هَذَا، أَوْ يُثْبِتُ مَا لَمْ تُدْرِكْهُ عُقُولُكُمْ- عَلَى طَرِيقَةِ أَكْثَرِهِمْ- فَاعْلَمُوا أَنِّي أَمْتَحِنُكُمْ بِتَنْزِيلِهِ لاَ لِتَأْخُذُوا اَلْهُدَى مِنْهُ، لَكِنْ لِتَجْتَهِدُوا فِي تَخْرِيجِهِ عَلَى شَوَاذِّ اَللُّغَةِ، وَوَحْشِيِّ اَلْأَلْفَاظِ، وَغَرَائِبِ اَلْكَلَامِ)؛

يعني مثلاً: أنزل الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ۝٥٩﴾ [الفرقان:٥٩] على زعم هؤلاء، لا ليُخبِر العباد بأنه مستوي على العرش على المعنى المعروف المتقرر في اللغة التي خُوطبنا بها في القرآن الكريم، على زعم هؤلاء لم تنزل هذه الآيات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ۝٥٩﴾ [الفرقان:٥٩] للدلالة على استواء الله على عرشه وعلوه عليه، وإنما أُنزلت ليمتحن عقول هؤلاء كيف يستطيعون أن يُبدعوا في البحث عن اللغة، وشواذ اللغات وغريب اللغات ما يُخرِّجون به هذا الكلام عن ظاهره، ويبعدونه عن دلالته، ويصرفونه عن مراده.

ولهذا أبدعوا هم، أبدعوا إبداع عجيب، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] اكتشف القوم أن هناك بيت شعر، قال فيه الشاعر: (قد استوى بشر على العراق) إبداع ما بعده إبداع، وجدوا بيت شعر يقول فيه الشاعر: (قد استوى بشر على العراق) فوصلوا من خلاله أن المراد من الناس أن يفهموا من قوله: (استوى على العرش) أي: استولى على العرش.

وقالوا: وجدنا بيت من الشعر لشاعر قال فيه:

قد استوى بشر على العراق　　من غير سيف ولا دم مهراق

وتعالوا وانظروا إلى البيت بأعينكم، موجود بيت من الشعر يقول فيه الشاعر: (قد استوى بشر على العراق)، هذا واضح جداً- يقولون: أن استوى (استولى)!!

والشاعر الذي قال ذلك شعره لم يكن موجوداً في الصدر الأول، فماذا عن حال الناس الذين قبل مجيء هذا البيت؟ هذا البيت الآن هو المُنقِذ الآن، هو الذي وصلوا من خلاله أن استوى.. ولا يوجد عندهم شاهد غيره، واقرأ عامة كتبهم لا يستشهدون إلا به، ولا يستدلون إلا به، قبل مجيء هذا البيت كيف يعرف الناس أن (استوى: استولى)؟، ما عندهم شواهد.

فسبحان الله! انظر كيف تفكير هؤلاء، وكيف أنهم فعلاً مثل ما يُصوّر شيخ الإسلام، فقط يريدون بأي طريقة أن يصرفوا النص عن مراده، ويبعدوه عن دلالته بأي طريقة كانت، مثل ما عبّر هنا: (تَخْرِيجِهِ عَلَى شَوَاذِّ) اللغات (وَوَحْشِيِّ اَلْأَلْفَاظِ، وَغَرَائِبِ اَلْكَلَامِ).

قال: (وَأَنْ تَسْكُتُوا عَنْهُ مُفَوِّضِينَ عِلْمَهُ إِلَى الله) يعني إن لم تجدوا له تخريج اجتهدوا، هذه الآيات أُنزِلت كي تجتهدوا في صرْفها عن مرادها بأي طريقة، ابحثوا، اجتهدوا في كتب اللغة، في أي مكان، اصرفوها عن مرادها، إن ما وجدتم طريقاً ولا سبيلاً فوضوا معناها، لكن لا تؤمنوا بما دل عليها.

(وَأَنْ تَسْكُتُوا) في بعض النسخ (أو أَنْ تَسْكُتُوا) وهو الأقرب والله أعلم، عندكم (أو)؟

(أو أَنْ تَسْكُتُوا) هو الأقرب..

(أو أَنْ تَسْكُتُوا عَنْهُ مُفَوِّضِينَ عِلْمَهُ إِلَى الله) يعني: إن لم تجدوا طريقاً إلى تحريفه فإذاً تسلكون الطريقة الثانية، أن تسكتوا عن معناه مفوضين علمه إلى الله.

يعني هذا الذي ذكره، انظروا مُقرراً في قول أحد هؤلاء:

وكل نص أوهم التشبيها　　أَوِّله أو فوِّض ورم تنزيها

إما هذا أو هذا، إن وجدت تأويلاً له فأَوِّله، وإن لم تجد ففوِّضه، لكن إياك إياك إياك أن تؤمن بما دل عليه القرآن! أو أن تؤمن بما دلت عليه السُّنة، خطر عليك!

فحاول أن تُأَوِّله وتصرفه عن معناه، إن لم تجد سبيلاً فوِّض معناه إلى الله، لكن لا تؤمن أبداً، إياك أن تؤمن بما دل عليه القرآن، أو ما دلت عليه سُنة النبي عليه السلام.

يقول ابن تيمية رحمه الله: (وَهَذَا اَلْكَلَامُ قَدْ رَأَيْتُهُ صَرَّحَ بِمَعْنَاهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ لَازِمٌ لِجَمَاعَتِهِمْ) (لَا مَحِيدَ عَنْهُ) يعني مَنْ لم يُصَرِّح به.. بهذه الألفاظ هو لازم له، لا محيد لهم عنه.

ومضمون هذا الكلام: (أَنَّ كِتَابَ الله لَا يُهْتَدَى بِهِ فِي مَعْرِفَةِ الله، وَأَنَّ اَلرَّسُولَ ﷺ مَعْزُولٌ عَنْ اَلتَّعْلِيمِ وَالْإِخْبَارِ بِصِفَاتِ مَنْ أَرْسَلَهُ، وَأَنَّ اَلنَّاسَ عِنْدَ اَلتَّنَازُعِ لَا يَرُدُّونَ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إِلَى الله وَالرَّسُولِ، بَلْ إِلَى مِثْلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي اَلْجَاهِلِيَّةِ، وَإِلَى مِثْلِ مَا يَتَحَاكَمُ إِلَيْهِ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْأَنْبِيَاءِ كَالْبَرَاهِمَةِ، وَالْفَلَاسِفَةِ-وَهُمْ اَلْمُشْرِكُونَ وَالْمَجُوسُ، وَبَعْضُ اَلصَّابِئِينَ-).

(وَإِنْ كَانَ هَذَا اَلرَّدُّ لَا يَزِيدُ اَلْأَمْرَ إِلَّا شِدَّةً وَلَا يَرْتَفِعُ اَلْخِلَافُ بِهِ) لماذا؟

يعني الآن الرد ليس للكتاب والسُّنة، وإنما إلى المقاييس، مقاييس العقول، يقول: (هَذَا اَلرَّدُّ لَا يَزِيدُ اَلْأَمْرَ إِلَّا شِدَّةً) ولا يزيد الخلاف إلا كثرةً، وتشتتاً، لماذا؟

قال: (إِذْ لِكُلِّ فَرِيقٍ طَوَاغِيتُ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَيْهِمْ) العقول متفاوتة والآراء متباينة، والأفكار متشتتة، لكل قوم (طَوَاغِيتُ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَيْهِمْ، وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ، وَمَا أَشْبَهَ حَالَ هَؤُلَاءِ اَلْمُتَكَلِّفِينَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠]).

قال: (فَإِنَّ هَؤُلَاءِ إِذَا دُعُوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اَللهُ مِنْ اَلْكِتَابِ وَإِلَى اَلرَّسُولِ- وَالدُّعَاءِ إليه بَعْدَ وَفَاتِهِ هُوَ اَلدُّعَاءُ إِلَى سُنَّتِهِ- أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّا قَصَدْنَا اَلْإِحْسَانَ عِلْماً وَعَمَلاً بِهَذِهِ الطَّرِيقِ اَلَّتِي سَلَكْنَاهَا، وَالتَّوْفِيقُ بَيْنَ اَلدَّلَائِلِ اَلْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ)؛

أردنا بهذا الصنيع الإحسان علماً وعملاً بهذا الطريق التي سلكناها، وأردنا التوفيق بين الأدلة العقلية والنقلية، أردنا الإحسان والإيش؟ والتوفيق، مثل ما قال أولئك الأُول: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء:٦٢]، يتحاكمون إلى الطاغوت ويقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء:٦٢]، وهؤلاء يتحاكمون إلى المقاييس العقلية ويقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء:٦٢]، لا يتحاكمون إلى كتاب الله وسُنة نبيّه عليه الصلاة والسلام.

انتهى الوقت والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الثالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

في الدرس قبل الماضي كنت طلبت من الإخوة مشاركة حول أبيات للصنعاني رحمه الله، عرض فيها أبيات الشهرستاني، فوصلت إجابتان،

أبيات الصنعاني هي قوله:

لعلك أهملت الطواف بمعهد الرسول ومَنْ لاقاه من كل عالم

فما حار مَنْ يُهدَى بهدْي محمد ولست تراه قارعاً سن نادم

وفيما يتعلق بالسؤال الثاني: عن اسم الكتاب الذي للرازي، والذي رد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وأيضاً اسم الكتاب الذي لشيخ الإسلام في الرد على الرازي، وبماذا كان يُلَقِّب الرازي في ذلك الكتاب؛ أيضاً الإجابة وصلت، أن:

اسم كتاب الرازي: «أساس التقديس» أو «تأسيس التقديس».

ورد شيخ الإسلام عليه: عنوانه: «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بِدَعهم الكلامية».

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يُلَقِّب الرازي في هذا الكتاب: بـ «المؤسِّس»؛ لأن كتابه «تأسيس التقديس» فكان يُلقِّبه بالمؤسس.

والأخ صاحب الورقة يقول: في حوالي خمسين موضعاً لقَّبه بهذا اللقب.

وأحياناً يقول: صاحب أساس التقديس، أو صاحب تأسيس التقديس.

وكان من أبرز مؤسسي علم الكلام..

هاتان الإجابتان:

الأولى: للأخ محمد يونس.

والثانية: للأخت أمة الله شمائل.

ولهما من الإخوة المنظمين لهذه الدورة بعض الكتب، أسأل الله ﷻ أن ينفعهم بها.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه «الفتوى الحموية الكبرى»، قال في ضمن فتواه:

ثُمَّ عَامَّةُ هَذِهِ اَلشُّبُهَاتِ اَلَّتِي يُسَمُّونَهَا دَلَائِلَ إِنَّمَا تَقَلَّدُوا أَكْثَرَهَا عَنْ طَوَاغِيتِ من طواغيت اَلْمُشْرِكِينَ أَوْ اَلصَّابِئِينَ، أَوْ بَعْضِ وَرَثَتِهِمْ اَلَّذِينَ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ، مِثْلَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، أَوْ عَنْ مَنْ قَالَ كَقَوْلِهِمْ لِتَشَابُهِ قُلُوبِهِمْ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥]..

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة:٢١٣].

وَلَازِمُ هَذِهِ اَلْمَقَالَةِ: أَنْ لَا يَكُونَ اَلْكِتَابُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَلَا بَيَاناً وَلَا شِفَاءً لِمَا فِي اَلصُّدُورِ وَلَا نُوراً وَلَا مَرَدّاً عِنْدَ اَلتَّنَازُعِ، لِأَنَّا نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ مَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ اَلْمُتَكَلِّفُونَ أَنَّ اَلْحَقَّ اَلَّذِي يَجِبُ اِعْتِقَادُهُ لَمْ يَدُل عَلَيْهِ اَلْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، لَا نَصّاً وَلَا ظَاهِراً، وَإِنَّمَا غَايَةُ اَلْمُتَحَذْلِقِ أَنْ يَسْتَنْتِجَ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ:

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص:٤]..

وقوله: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم:٦٥].

وَبِالِاضْطِرَارِ يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ أَنَّ مَنْ دَلَّ اَلْخَلْقَ عَلَى أَنَّ اَللَّهَ لَيْسَ عَلَى اَلْعَرْشِ، وَلَا فَوْقَ اَلسَّمَاوَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم:٦٥] لَقَدْ أَبْعَدَ اَلنُّجْعَةَ وَهُوَ إِمَّا مُلْغِزٌ أَوْ مُدَلِّسٌ، لَمْ يُخَاطِبْهُمْ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ.

وَلَازِمُ هَذِهِ اَلْمَقَالَةِ أَنْ يَكُونَ تَرْكُ اَلنَّاسِ بِلَا رِسَالَةٍ خَيْراً لَهُمْ فِي أَصْلِ دِينِهِمْ، لِأَنَّ مَرَدَّهُمْ قَبْلَ اَلرِّسَالَةِ وَبَعْدَهَا وَاحِدٌ، وَإِنَّمَا اَلرِّسَالَةُ زَادَتْهُمْ عَمًى وَضَلَالاً.

يَا سُبْحَانَ اللهِ! كَيْفَ لَمْ يَقُلْ اَلرَّسُولُ ﷺ يَوْماً مِنْ اَلدَّهْرِ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ اَلْأُمَّةِ: هَذِهِ اَلْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ لَا تَعْتَقِدُوا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، لَكِنْ اِعْتَقِدُوا اَلَّذِي تَقْتَضِيهِ مَقَايِيسُكُمْ، أَوْ اِعْتَقِدُوا كَذَا وَكَذَا فَإِنَّهُ اَلْحَقُّ، وَمَا خَالَفَ ظَاهِرُهُ فَلَا تَعْتَقِدُوا ظَاهِرَهُ، وَانْظُرُوا فِيهَا فَمَا وَافَقَ قِيَاسَ عُقُولِكُمْ فَاعْتَقِدُوهُ، وَمَا لَا فَتَوَقَّفُوا أَوِ انْفُوهُ.

....

هذا كله يذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في سياق إبطاله للمنهج الذي عليه علماء الكلام في باب الأسماء والصفات.

ومنهج أولئك مبني -كما عرفنا سابقاً- على العقول، وما تتوصل إليه بالمقاييس العقلية، وتلك المقاييس يقررونها بمعزِل عن كتاب الله وسُنة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا كان المطلوب من العباد في دينهم أن يعتمدوا في أصل الاعتقاد على تلك المقاييس العقلية، ولا يُعوِّلوا على الكتاب والسُّنة فإذاً ما فائدة الكتاب والسُّنة؟ وما فائدة نزول الوحيين على الناس إذا كان مطلوب منهم أصالةً أن يُعمِلوا العقول ويُهمِلوا النقول؟!

فمن لازم ذلك ما قرره وذكره رحمه الله أن ترْكهم بدون الكتاب والسُّنة أسلم لهم؛ لأن حسب تقرير هؤلاء أن العمدة: المقاييس العقلية، والنظر للكتاب والسُّنة هو لصرْف هذه الظواهر التي في الكتاب والسُّنة، والتي تخالف مقاييسهم العقلية إلى التأويلات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

هذا معنى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وتأمل كلامه حيث يقول: (وَلَازِمُ هَذِهِ اَلْمَقَالَةِ: أَنْ لَا يَكُونُ اَلْكِتَابُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَلَا بَيَاناً وَلَا شِفَاءً لِمَا فِي اَلصُّدُورِ وَلَا نُوراً وَلَا مَرَدّاً عِنْدَ اَلتَّنَازُعِ، لأَنَّا نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ مَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ اَلْمُتَكَلِّفُونَ أَنَّ اَلْحَقَّ اَلَّذِي يَجِبُ اِعْتِقَادُهُ لَمْ يَدُل عَلَيْهِ اَلْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، لَا نَصّاً وَلَا ظَاهِراً)؛

فإذاً كون الناس لا يُنَزَّل عليهم هذا الوحي أسلم لهم، على هذا التقرير الذي يُقرِّره علماء الكلام.

وكفى بذلك دلالة على شناعة قولهم وفساده.

وإذا احتج مُحتجٌ منهم بالكتاب والسُّنة تجد احتجاجه بتكلُّف وبحمْل للآيات على غير معناها؛ بل حمْل لها على ضد معناها، في القرآن آيات كثيرة تُثبت الصفات، تُثبت الاستواء، تُثبت الرضا، تُثبت الغضب، تُثبت صفات كثيرة لله ﷻ، كل هذه الآيات يشتغلون بتأويلها،

ويقولون: دل على عدم ثبوتها (﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم:٦٥])،

ودل على عدم ثبوتها: (﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ١١﴾ [الشورى:١١])؛

وهذا تَجَنِّي على هذه الآيات في حَملها على غير محملها.

....

(﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم:٦٥])

(﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١])؛

ليست دالة على نفْي الصفات، وإنما دالة- كما قال أهل العلم- على كثرة الصفات، وتَفَرُّد الله ﷻ بالكمال والجلال.

(﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]) لكثرة صفاته التي اختص بها، لا أنها تنفي الصفات عن الله كما يزعم هؤلاء!!

وأصبحوا يفهمون أن تنزيه الله هو تعطيل صفاته، وعدم إثباتها؛ حتى قال قائل في تسبيحه: سبحان المُنَزَّه عن الصفات، لأن هذا هو التسبيح عندهم، وهذا هو التنزيه (تعطيل الله ﷻ عن صفاته).

وإذا قيل لهم: من أين لكم أن الله لم يستوِ، ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يضحك، ولا يعجب، من أين لكم؟

يقولون: قال الله تعالى: (﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]).

وقال تعالى: (﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥])!!

فيجعلون هذا حجة لهم في نفْي الصفات.

والصفات التي جعلوا هذه الآية حجة لهم في نفْيها هي صفات ثابتة بآيات مستفيضة، وكثيرة، وأحاديث عديدة في سُنة النبي عليه الصلاة والسلام، وهذه سوءة أخرى لهؤلاء، وهي ضرْب الكتاب بعضه ببعض، والوصول من ذلك إلى تعطيل ما دل عليه الكتاب من صفات الكمال، ونعوت الجلال الثابتة لله ﷻ.

(غَايَةُ الْمُتَحَذْلِقِ) من هؤلاء (أَنْ يَسْتَنْتِجَ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص:٤]، وقوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥])، والاستفهام هنا بمعنى النفي، أي: لا سمي له.

(وَبِالِاضْطِرَارِ يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ أَنَّ مَنْ دَلَّ الْخَلْقَ عَلَى أَنَّ اللهَ لَيْسَ عَلَى الْعَرْشِ، وَلَا فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥] لَقَدْ أَبْعَدَ النَّجْعَةَ) أو هو (مُلْغِزٌ أَوْ مُدَلِّسٌ).

....

فعلاً لو كان مطلوب من الناس أن يعتقدوا نفْي الصفات المثبتة في القرآن، والمثبتة في السُّنة بقوله: (﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١])) لكان ذلك أشبه بالألغاز، وكان في ذلك أيضاً تدليس.

وكون الناس يسلمون من ذلك أسلم لهم من أن تأتي ظواهر كثيرة جداً تثبت الصفات، ثم يأتي في أثنائها:

(﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ١١﴾ [الشورى:١١])، ويُطلَب منهم تعطيل كل تلك الآيات التي فيها الصفات بقوله: (﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ١١﴾ [الشورى:١١]).

(لَازِمُ هَذِهِ اَلْمَقَالَةِ أَنْ يَكُونَ تَرْكُ اَلنَّاسِ بِلَا رِسَالَةٍ خَيْراً لَهُمْ فِي أَصْلِ دِينِهِمْ) من- أي: من نزول هذه الرسالة التي بهذه الصفة عليهم- (لِأَنَّ مَرَدَّهُمْ قَبْلَ اَلرِّسَالَةِ وَبَعْدَهَا وَاحِدٌ) ما هو مَردهم قبل الرسالة وبعد الرسالة؟

مقاييسهم العقلية، مردهم هو: المقاييس العقلية قبل الرسالة وبعد الرسالة.

(وَإِنَّمَا اَلرِّسَالَةُ زَادَتْهُمْ عَمًى وَضَلَالاً) أخذوا يشتغلون اشتغالاً طويلاً عريضاً كيف يصرفون هذه الآيات التي تدل على خلاف ما توصلت إليه عقولهم، فنظرهم في الآيات ليس نظر احتجاج، واستدلال، واعتماد، وإنما نظرهم في الآيات نظر مَنْ يريد رد ما دلت عليه، وتعطيل ما أثبتته.

حتى قال عنهم شيخ الإسلام رحمه الله في بعض كتبه: الواحد منهم يورد الآية من القرآن إيراد مَنْ قصَد ردّها أصلاً!

أُوَضِّح لكم ذلك بمثال: يعني مثلاً تجده يقرر عقلياً نفْي العلوم، ويعتمد في ذلك على عقله المُجرَّد، واللوازم العقلية.. لأنه لو كان كذا للزم أن يكون كذا.. إلى آخره، كلها دلائل عقلية فاسدة.

ثم يقول: فإن قيل لك: قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه:٥].. هل الآية الآن جاءت في هذا السياق ليستدل بها؟

أبداً! هي جاءت في هذا السياق ليرد المعنى الذي دلت عليه؛ فبعد أن يُقرر العقيدة بمعزل تام عن القرآن والسُّنة يأتي بالآية من أجل أن يرد المعنى الذي دلت عليه..

يقول: فإن قيل لك: قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه:٥] فقل: استوى: (استولى)!!

....

قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ولا دم مهراق

يقول ابن تيمية: (يَا سُبْحَانَ اللهِ! كَيْفَ لَمْ يَقُلْ اَلرَّسُولُ ﷺ يَوْماً مِنَ اَلدَّهْرِ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ اَلْأُمَّةِ: هَذِهِ اَلْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ لَا تَعْتَقِدُوا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ)؛

لو كان قول هؤلاء حق لبيّنه الناصح الأمين عليه الصلاة والسلام، ولو كان قول هؤلاء حق لسبقهم إليه الصحابة والتابعون، أو أنهم يزعمون أن هذا خير ادُّخِر لهم وحُرِم منه الصحابة ومَنْ اتبعهم بإحسان؟! لو كان خيراً لسبقوا إليه الصحابة، لكن الحقيقة أن الذي عليه هؤلاء شر وقى الله الصحابة منه، وعافاهم منه، ونجّاهم منه، وابتلى به هؤلاء المتأخرين.

(يَا سُبْحَانَ الله! كَيْفَ لَمْ يَقُلِ اَلرَّسُولُ ﷺ يَوْماً مِنْ اَلدَّهْرِ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ اَلْأُمَّةِ: هَذِهِ اَلْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ لاَ تَعْتَقِدُوا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، لَكِنْ اِعْتَقِدُوا اَلَّذِي تَقْتَضِيه مَقَايِيسُكُمْ، أَوْ اِعْتَقِدُوا كَذَا وَكَذَا فَإِنَّهُ اَلْحَقُّ، وَمَا خَالَفَ ظَاهِرُهُ فَلَا تَعْتَقِدُوا ظَاهِرَهُ، وَانْظُرُوا فِيهَا فَمَا وَافَقَ قِيَاسَ عُقُولِكُمْ فَاعْتَقِدُوهُ، وَمَا لَا فَتَوَقَّفُوا أو انْفُوهُ)؛

يعني أقل شيء في هذا الباب لو كان قول هؤلاء حق لجاء شيء عن الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه يبين للناس، يقول: في القرآن آيات كثيرة ظاهرها تُثبت أشياء لا تليق بالله، انتبهوا! لا تثبتون شيئاً منه!! هذا الذي صار إليه اعتقاد هؤلاء في آيات القرآن وأحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

وعلى كل حال؛ ينبغي أن نعلم هنا أن شيخ الإسلام- فيما نستمع إليه الآن وفيما مضى وفيما سيأتي من كلامه- كل ذلك يُنوِّع في البيان والإيضاح ليبين فساد مقالة هؤلاء، هذا تنويع في البيان والإيضاح من خلاله يُعرِّي هذه المقالة، ويبين فسادها، ويُظهِر أنها مقالة مُستهجَنة بعيدة عن الحق أتم البُعد.

ولا يزال ماضياً في تنويع البيان لفساد هذه المقالة.

قال رحمه الله:

ثُمَّ اَلرَّسُولُ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ بِأَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ ثَلَاثاً وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَقَدْ عَلِمَ مَا سَيَكُونُ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي تركت فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا، كِتَابَ الله.

وَرُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي صِفَةِ اَلْفِرْقَةِ اَلنَّاجِيَةِ: هُم مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ اَلْيَوْمَ وَأَصْحَابِي.

فَهلا قال: مَنْ تَمَسَّكَ بِظَاهِرِ اَلْقُرْآنِ فِي بَابِ اَلِاعْتِقَادِ فَهُوَ ضَالٌّ وَإِنَّمَا اَلْهُدَى رُجُوعُكُمْ إِلَى مَقَايِيسِ عُقُولِكُمْ، وَمَا يُحْدِثُهُ اَلْمُتَكَلِّمُونَ مِنْكُمْ بَعْدَ اَلْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ نَبَغَ أَصْلُهَا فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ اَلتَّابِعِينَ.

تأمّل هذا أيضاً من التنويع في بيان فساد حال هؤلاء، يقول النبي عليه الصلاة والسلام جاءت عن أحاديث فيها الإخبار بأنه ستوجد فيها بعد فِرَق، يعني أخبر عن أمر سيأتي في المستقبل، وأنه ستنشأ فِرَق في

الأمة، ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فِرْقة.

وجاء عنه أنه قال: «إنه مَنْ يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً»..

تأمل قول شيخ الإسلام هنا!

(فَقَدْ عَلِمَ مَا سَيَكُونُ) أي: أن الله أطلعه وأعلمه بشيء سيكون في المستقبل، وهو أنه سيوجد في الأمة خلاف، ستوجد فِرَق، وستوجد مذاهب، وكل منهم يَدّعي أنه الحق.

وغالب الخلاف في الأصل، في أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته، فلو كان قول هؤلاء حق أن العمدة والمرجع في فهْم الصفات لينجو الإنسان من الزلل والخطأ هو الرجوع إلى المقاييس العقلية لكان مقتضى النُّصح من النبي عليه الصلاة والسلام في هذا المقام- عندما أخبر بأنه ستوجد فِرَق، وستوجد اختلافات- مُقتضى النُّصح أن يقول ماذا؟

إنه مَنْ يعش منكم فَسَيَرَى اختلافاً كثيراً فعليكم بمقاييسكم العقلية، الزموها، ففيها نجاتكم وفيها سلامتكم..

لأن هؤلاء يزعمون أن المقاييس العقلية هي الفيصل، وهي المُحَكَّم، وهي التي يتمحص بها الحق ويظهر بها الصواب.

لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «فعليكم بسُنتي، وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدثات الأمور»..

ويدخل تحت قوله: «وإياكم ومحدثات الأمور» بِدَع الكلاميين هذه، بل إنها تدخل تحت هذا دخولاً أولياً لأنها تُشَكِّل خطورة كبيرة جداً على عقائد الناس، بإبعادهم عن الحق والهُدى، وإيقاع في الضلال والردى.

أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: (إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا) لو كان قول هؤلاء حق وهو أن مَنْ تمسّك بالمقاييس العقلية حصَّل اليقين، وفاز باليقينيات لكان مُقتضى النُّصح لقال ماذا؟

تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بمقاييسكم، لأن هي العمدة عند هؤلاء....

(وَرُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي صِفَةِ اَلْفِرْقَةِ اَلنَّاجِيَةِ: هُم مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ اَلْيَوْمَ وَأَصْحَابِي)، ومن هذا أخذ مالك رحمه الله كلمته المشهورة: ما لم يكن ديناً زمن محمد ﷺ وأصحابه فلن يكون ديناً إلى قيام الساعة.

وعلى قوله هذا: فإن بِدَع المتكلمين تلك- التي يتحدث عنها شيخ الإسلام ابن تيمية- ليست من دين الله إطلاقاً؛ لأنها ليست موجودة عند الصحابة والتابعين، وما لم يكن دين في زمن النبي ﷺ وأصحابه لا يكون ديناً إلى قيام الساعة.

لما ذكر رحمه الله هذه الأحاديث قال- مُلزماً هؤلاء، مُظهراً شناعة قولهم وفساده- (فَهلا قال) أي: النبي ﷺ (مَنْ تَمَسَّكَ بِظَاهِرِ اَلْقُرْآنِ فِي بَابِ اَلِاعْتِقَادِ فَهُوَ ضَالٌّ وَإِنَّمَا اَلْهُدَى رُجُوعُكُمْ إِلَى مَقَايِيسِ عُقُولِكُمْ، وَمَا يُحْدِثُهُ اَلْمُتَكَلِّمُونَ مِنْكُمْ بَعْدَ اَلْقُرُونِ اَلثَّلَاثَةِ) فهذا كله تنويع- كما ذكرتُ لكم- يُظهِر من خلاله.. وإلزامات يُظهِر من خلالها فساد مقالة هؤلاء المتكلمين.

قال رحمه الله:

وَإِنْ كَانَ قَدْ نَبَغَ أَصْلُهَا فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ اَلتَّابِعِينَ.

ثُمَّ أَصْلُ هَذِهِ اَلْمَقَالَةِ- مَقَالَةِ اَلتَّعْطِيلِ لِلصِّفَاتِ- إِنَّمَا هُوَ مَأْخُوذٌ عَنْ تَلَامِذَةِ اَلْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَضُلَّالِ اَلصَّابِئِينَ، فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ حُفِظَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ هَذِهِ اَلْمَقَالَةَ فِي اَلْإِسْلَامِ هُوَ اَلْجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ، وَأَخَذَهَا عَنْهُ اَلْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ، وَأَظْهَرَهَا فَنُسِبَتْ مَقَالَةُ اَلْجَهْمِيَّةِ إِلَيْهِ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّ اَلْجَعْدَ أَخَذَ مَقَالَتَهُ عَنْ أَبَانَ بْنِ سَمْعَانَ، وَأَخَذَهَا أَبَانُ عَنْ طَالُوتَ بْنِ أُخْتِ لَبِيدِ بْنِ اَلْأَعْصَمِ، وَأَخَذَهَا طَالُوتُ مِنْ لَبِيدِ بْنِ اَلْأَعْصَمِ اَلْيَهُودِيِّ اَلسَّاحِرِ اَلَّذِي سَحَرَ اَلنَّبِيَّ ﷺ.

وَكَانَ اَلْجَعْدُ هَذَا فِيمَا قِيلَ مِنْ أَهْلِ حَرَّان وَكَانَ فِيهِمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ اَلصَّابِئَةِ وَالْفَلَاسِفَةِ، بَقَايَا أَهْلِ دِينِ اَلنَّمْرُودِ، وَالْكَنْعَانِيِّينَ اَلَّذِينَ صَنَّفَ بَعْضُ اَلْمُتَأَخِّرِينَ فِي سِحْرِهِمْ، وَاَلنَّمْرُودُ هُوَ: مَلِكُ اَلصَّابِئَةِ اَلْكَنْعَانِيِّينَ اَلْمُشْرِكِينَ، كَمَا أَنَّ كِسْرَى مَلِكُ اَلْفُرْسِ وَالْمَجُوسِ، وَفِرْعَوْن مَلِكُ اَلْقِبْطِ اَلْكُفَّارِ، وَالنَّجَاشِيّ مَلِكُ اَلْحَبَشَةِ اَلنَّصَارَى، فَهُوَ اِسْمُ جِنْسٍ لَا اِسْمُ عَلَمٍ.

كَانَتْ اَلصَّابِئَةُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ إِذْ ذَاكَ عَلَى اَلشِّرْكِ وَعُلَمَاؤُهُمْ اَلْفَلَاسِفَةُ، وَإِنْ كَانَ اَلصَّابِئُ قَدْ لَا يَكُونُ مُشْرِكاً، بَلْ مُؤْمِناً بِالله وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة:٦٢]

وقـال تـعـالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة:٦٩]

لَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ، أَوْ أَكْثَرَهُمْ كَانُوا كُفَّاراً أَوْ مُشْرِكِينَ، كَمَا أَنَّ كَثِيراً مِنْ اَلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بَدَّلُوا وَحَرَّفُوا وَصَارُوا كُفَّاراً أَوْ مُشْرِكِينَ، فَأُولَئِكَ اَلصَّابِئُونَ اَلَّذِينَ كَانُوا إِذْ ذَاكَ- كَانُوا كُفَّاراً مُشْرِكِينَ وَكَانُوا يَعْبُدُونَ اَلْكَوَاكِبَ وَيَبْنُونَ لَهَا اَلْهَيَاكِلَ.

هنا يذكر شيخ الإسلام رحمه الله باختصار نشأة مقالة التعطيل، ويوضح أن نشوء هذه المقالة كان بعد مُضِي الصحابة والتابعين لهم بإحسان في سلامة وعافية من هذه العقائد، ولم يكن لها أي وجود.

وفي أواخر عصر التابعين بدأ يظهر شيء من بدايات هذه المقالات.

وبدأ ظهور هذه المقالة على أيدي أُناس لم يُعرَفوا بإمامة في الدين، وفضل في ذلك، وإنما أُناس مغموسون بضلالة وباطل، وما يبعد أن بعضهم دخل أصالةً في هذا الدين ليُدخِل فيه أشياء من عقائد المجوس، ومذاهب الفلاسفة، وأشياء من هذا القبيل، فما يبعد أن بعضهم دخل أصالةً ليُدخِل مثل هذه الأشياء فيحرف الناس عن دينهم وعن عقائدهم.

يقول: (أَصْلُ هَذِهِ اَلْمَقَالَةِ- مَقَالَةِ اَلتَّعْطِيلِ لِلصِّفَاتِ- إِنَّمَا هُوَ مَأْخُوذٌ من تَلَامِذَةِ اَلْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَضُلَّالِ) الصابئة؛ يعني إذا نظر الناظر، وتأمل المتأمِّل في هذه المقالة لا يجد لها إسناد إطلاقاً يتصل بالصحابة لأن هذا باطل وضلال نجّى الله الصحابة وبرَّأهم منه وعافاهم منه، وحماهم من الوقوع فيه؛ فلا يجد لها إسناداً يتصل بالصحابة، وإنما يجد بالتتبع والنظر أن إسناد هذه المقالة متصل باليهود وبالمجوس.

وذكر الإسناد.

وعندما ترى أمور ديننا تجدها محفوظة بأسانيد واضحة، تُوصَف بعضها بالأسانيد الذهبية، فتربط المسلم بدينه، والإسناد من الدين.

فعندما ينظر في هذه المقالة لا يجد إطلاقاً أي إسناد لها يربطها بالصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم حَمَلة الدين ونَقَلته للأمة.

فهي مقالة منفكة تماماً، منفصلة تماماً عن ما كان عليه الصحب الكرام.

أيضاً بالتتبع: يجد أن الإسناد- إسناد هذه المقالة- يتصل باليهود والصابئة.

وذكر إسناداً لها ذكره جماعة كبيرة من أهل العلم، لمقالة التعطيل، منهم شيخ الإسلام، وابن كثير، وابن

الأثير، وابن القيم،والذهبي، وابن أبي العز، وآخرون من أهل العلم، كُثُر ذكروا هذا الإسناد لمقالة التعطيل.

فإن- يقول:- (أَوَّلَ مَنْ حُفِظَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ هَذِهِ اَلْمَقَالَةَ فِي اَلْإِسْلَامِ هُوَ اَلْجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ، وَأَخَذَهَا عَنْهُ اَلْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ)؛

الجعد بن درهم هو أوّل مَنْ قال: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يُكلِّم موسى تكليماً، وإن ذلك لا يجوز على الله، هو أوّل مَنْ قال ذلك، وقُتِل في ضلالته تلك، لكن أخذها عنه الجهم بن صفوان.

والجهم بن صفوان: هو الذي اشتُهِرت المقالة (مقالة التعطيل) باسمه، فأصبح يقال للمعطلة: (الجهمية)، لا يقال: (الجعدية)، مع أن الجعد شيخ الجهم وعنه أخذ، ما يقال: (الجعدية) يقال: (الجهمية)؛ لأنها عن الجهم اشتُهِرت هذه المقالة (مقالة التعطيل)، فيقال: (الجهمية).

ومَنْ كان مُعطِّلاً للصفات قالوا: فيه تجهم؛ نسبةً إلى الجهم بن صفوان.

فإذاً الجهم بن صفوان أخذ عن الجعد بن درهم، (وَأَظْهَرَهَا فَنُسِبَتْ مَقَالَةُ اَلْجَهْمِيَّةِ إِلَيْهِ).

هذا الجهم قد أخذها من الجعد، فالجعد أخذها ممَّنْ؟

قال: (وَقَدْ قِيلَ إِنَّ اَلْجَعْدَ أَخَذَ مَقَالَتَهُ عَنْ أَبَانَ بْنِ سَمْعَانَ، وَأَخَذَهَا أَبَانُ عَنْ طَالُوتَ بْنِ أُخْتِ لَبِيدِ بْنِ اَلْأَعْصَمِ، وَأَخَذَهَا طَالُوتُ مِنْ لَبِيدِ بْنِ اَلْأَعْصَمِ اَلْيَهُودِيِّ اَلَّذِي سَحَرَ اَلنَّبِيَّ) عليه الصلاة والسلام؛

إذاً أصبح الإسناد، إسناد هذه المقالة: الجهم بن صفوان، عن الجعد بن درهم، عن أبان بن سمعان، عن طالوت، عن لبيد بن الأعصم؛ هذه سلسلة مقالة الجهمية.

وأخذها هذا اليهودي الساحر عن يهود اليمن.

ثم ذكر شيئاً عن الجعد صاحب هذه المقالة، قال: (وَكَانَ اَلْجَعْدُ هَذَا فِيمَا قِيلَ مِنْ أَهْلِ حَرَّانَ) هذه تفيد في معرفة نشأة المقالة (مقالة التعطيل)، وبماذا ترتبط؟ وما هي أصولها؟

فالجعد الذي عنه أخذ الجهم فيما (قِيلَ مِنْ أَهْلِ حَرَّانَ وَكَانَ فِيهِمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ اَلصَّابِئَةِ وَالْفَلَاسِفَةِ، بَقَايَا) (دِينِ اَلنَّمْرُودِ، وَالْكَنْعَانِيِّينَ اَلَّذِينَ صَنَّفَ بَعْضُ اَلْمُتَأَخِّرِينَ فِي سِحْرِهِمْ، وَاَلنَّمْرُودُ هُوَ: مَلِكُ اَلصَّابِئَةِ اَلْكَنْعَانِيِّينَ اَلْمُشْرِكِينَ، كَمَا أَنَّ كِسْرَى مَلِكُ اَلْفُرْسِ) (فِرْعَوْنَ مَلِكُ اَلْقِبْطِ) (النَّجَاشِيّ مَلِكُ اَلْحَبَشَةِ) قال: (فَهُوَ اِسْمُ جِنْسٍ لَا اسْمُ عَلَمٍ)؛

النمرود مثلما يقال: الملك، أو يقال: الرئيس، فهو اسم جنس، فالنمرود ملك الصابئة، ليس اسماً لشخص اسمه النمرود، وإنما الصابئة يُلَقِّبون الملك بالنمرود، والأقباط يلقبونه بـ (فرعون)، والفرس

يلقبونه بـ (كسرى)، (فَهُوَ اِسْمُ جِنْسٍ لَا اِسْمُ عَلَمٍ).

قال رحمه الله:

وَمَذْهَبُ النُّفَاةِ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي اَلرَّبِّ: أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ إِلَّا صِفَاتٌ سَلْبِيَّةٌ، أَوْ إِضَافِيَّةٌ أَوْ مُرَكَّبَةٌ مِنْهُا وَهُمْ اَلَّذِينَ بُعِثَ إِبْرَاهِيمُ اَلْخَلِيلُ إِلَيْهِمْ.

فَيَكُونُ اَلْجَعْدُ أَخذَهَا عَنْ اَلصَّابِئَةِ اَلْفَلَاسِفَةِ.

وَكَذَلِكَ أَبُو نَصْرٍ اَلْفَارَابِيُّ دَخَلَ حَرَّان وَأَخَذَ عَنْ اَلْفَلَاسِفَةِ اَلصَّابِئِينَ تَمَامَ فَلْسَفَتِهِ، وَأَخَذَهَا اَلْجَهْمُ أَيْضاً- فِيمَا ذَكَرَهُ اَلْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ- لَمَّا نَاظَرَ اَلسّمْنِيَّةَ بَعْضَ فَلَاسِفَةِ اَلْهِنْدِ- وَهُمْ اَلَّذِينَ يَجْحَدُونَ مِنْ اَلْعُلُومِ مَا سوى اَلْحِسِّيَّاتِ-.

فَهَذِهِ أَسَانِيدُ جَهْمٍ تَرْجِعُ إِلَى اَلْيَهُودِ وَالصَّابِئِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَالْفَلَاسِفَةِ اَلضَّالِّينَ إِمَّا مِنْ اَلصَّابِئِينَ، وَإِمَّا مِنْ اَلْمُشْرِكِينَ.

ثُمَّ لَمَّا عُرِّبَتْ اَلْكُتُبُ اَلرُّومِيَّةُ فِي حُدُودِ اَلْمِائَةِ اَلثَّانِيَةِ زَادَ اَلْبَلَاءُ مَعَ مَا أَلْقَى اَلشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِ اَلضُّلَّالِ اِبْتِدَاءً، مِنْ جِنْسِ مَا أَلْقَاهُ فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ.

وَلَمَّا كَانَ فِي حُدُودِ اَلْمِائَةِ اَلثَّانِيَةِ اِنْتَشَرَتْ هَذِهِ اَلْمَقَالَةُ اَلَّتِي كَانَ اَلسَّلَفُ يُسَمُّونَهَا مَقَالَةَ اَلْجَهْمِيَّةِ بِسَبَبِ بِشْرِ بْنِ غِيَاثٍ اَلْمِرِّيسِيِّ وَطَبَقَتِهِ، وَكَلَامُ اَلْأَئِمَّةِ مِثْلُ: مَالِكٍ، وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، وَابْنِ اَلْمُبَارَكِ، وَأَبِي يُوسُفَ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ، وَالْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ، وَبِشْرٍ اَلْحَافِي، وَغَيْرِهِمْ، فِي هَؤُلَاءِ كَثِيرٌ، فِي ذَمِّهِمْ وَتَضْلِيلِهِمْ.

وَهَذِهِ اَلتَّأْوِيلَاتُ اَلْمَوْجُودَةُ اَلْيَوْمَ بِأَيْدِي اَلنَّاسِ مِثْلُ أَكْثَرِ اَلتَّأْوِيلَاتِ اَلَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو بَكْرِ بْنُ فُورَكٍ فِي كِتَابِه «اَلتَّأْوِيلَاتِ»، وَذَكَرَهَا أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ اَلرَّازِيُّ فِي كِتَابِهِ اَلَّذِي سَمّاهُ «تَأْسِيسَ اَلتَّقْدِيسِ»، وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهَا فِي كَلَامِ خَلْقٍ غَيْرِ هَؤُلَاءِ مِثْلِ أَبِي عَلِيٍّ اَلْجُبَّائِيِّ، وعبد الجبار بْنِ أَحْمَدَ اَلْهَمْدَانِيِّ، وَأَبِي اَلْحُسَيْنِ اَلْبَصْرِيِّ، وَأَبِي اَلْوَفَاءِ بْنِ عَقِيلٍ، وَأَبِي حَامِدٍ اَلْغَزَالِيِّ، وَغَيْرِهِمْ، هِيَ بِعَيْنِهَا اَلتَّأْوِيلَاتُ اَلَّتِي ذَكَرَهَا بِشْرٌ اَلْمِرِّيسِيُّ اَلَّتِي ذَكَرَهَا فِي كِتَابِهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يُوجَدُ فِي كَلَامِ بَعْضِ هَؤُلَاءِ رَدُّ اَلتَّأْوِيلِ وإبطاله أيضاً وَلَهُمْ كَلَامٌ حَسَنٌ فِي أَشْيَاءَ.

فَإِنَّمَا بَيَّنْتُ أَنَّ عَيْنَ تَأْوِيلَاتِهِمْ هِيَ عَيْنُ تَأْوِيلَاتِ اَلْمِرِيسِيِّ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ كِتَابُ اَلرَّدِّ اَلَّذِي صَنَّفَهُ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ اَلدَّارِمِيُّ أَحَدُ اَلْأَئِمَّةِ اَلْمَشَاهِيرِ فِي زَمَانِ اَلْبُخَارِيِّ، صَنَّفَ كِتَاباً سَمَّاهُ: «رَدُّ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ عَلَى اَلْكَاذِبِ اَلْعَنِيدِ فِيمَا اِفْتَرَى عَلَى اللهِ فِي اَلتَّوْحِيدِ» حَكَى فِيهِ هَذِهِ اَلتَّأْوِيلَاتِ بِأَعْيَانِهَا عَنْ بِشْرٍ اَلْمِرِيسِيِّ بِكَلَامٍ يَقْتَضِي أَنَّ

بِشْر أَقْعَدُ بِهَا، وَأَعْلَمُ بِالْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ مِنْ هَؤُلَاءِ اَلْمُتَأَخِّرِينَ اَلَّذِينَ اِتَّصَلَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَتِهِ، ثُمَّ رَدَّ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ بِكَلَامٍ إِذَا طَالَعَهُ اَلْعَاقِلُ اَلذَّكِيُّ: عَلِمَ حَقِيقَةَ مَا كَانَ عَلَيْهِ اَلسَّلَفُ، وَتَبَيَّنَ لَهُ ظُهُورُ اَلْحُجَّةِ لِطَرِيقِهِمْ، وَضَعْفِ حُجَّةِ مَنْ خَالَفَهُمْ.

ثُمَّ إِذَا رَأَى اَلْأَئِمَّةَ- أَئِمَّةَ اَلْهُدَى- قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى ذَمِّ الْمَرِّيسِيَّةِ وَأَكْثَرُهُمْ كَفَّرُوهُمْ أَوْ ضَلَّلُوهُمْ، وَعَلِمَ أَنَّ هَذَا اَلْقَوْلَ اَلسَّارِيَ فِي هَؤُلَاءِ اَلْمُتَأَخِّرِينَ هُوَ مَذْهَبُ الْمَرِّيسِيَّةِ تَبَيَّنَ اَلْهُدَى لِمَنْ يُرِيدُ اَللهُ هِدَايَتَهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله.

وَالْفَتْوَى لَا تَحْتَمِلُ اَلْبَسْطَ فِي هَذَا اَلْبَابِ، وَإِنَّمَا نُشِيرُ إِشَارَةً إِلَى مَبَادِئِ اَلْأُمُورِ، وَالْعَاقِلُ يَسِيرُ فَيَنْظُرُ.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله بعد أن ذكر نشأة المقالة (مقالة التعطيل) وعلى يد مَنْ نشأت، يبين هنا الأصول التي تقوم عليها هذه المقالة، فهي نشأت على هؤلاء، وأما الأصول التي تقوم عليها هذه المقالة فهي تعطيل صفات الله؛ ولهذا تُعرَف مقالة الجهمية بمقالة التعطيل؛ لأنها قائمة على النفي، والجحد، والتعطيل لصفات الله ﷻ.

فما هو مذهب هؤلاء في الصفات؟

قال: (وَمَذْهَبُ النُّفَاةِ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي اَلرَّبِّ: أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ إِلَّا صِفَاتٌ) السلب، وصفات السلب: أي صفات النفي.

ولهذا في كتبهم: العقيدة نفي، لا إثبات فيها!!

يقول قائلهم- فيما يعتقده-: ليس الله بفوق، ولا تحت، ولا عن يمين العالم، ولا داخله، ولا خارجه، ولا متصلاً به، ولا منفصلاً عنه، وليس بكذا، وليس بكذا... إلى آخره!

ومُحصِّل مَنْ ينظر في ذلك النفي المتواصل المتراكم الذي جعلوه صفة الرب مُحصِّل ذلك وصْف الله بالعدم؛ حتى قيل: إن أبلغ ما يُوصَف به العدم هو هذا الذي ذكروه.. ذكره الجهمية صفة للرب.

وأيضاً قيل: المُعَطِّل يعبد عدماً؛ لأن مَنْ يقول: إن ربه لا فوق العالم، ولا داخله، ولا خارجه.. إلى آخر كلام هؤلاء، هذا العدم، فالمعطل يعبد عدماً.

فإذا مذهبهم في الصفات هو: النفي والتعطيل، (لَيْسَ لَهُ إِلَّا صِفَاتٌ سَلْبِيَّةٌ، أَوْ) صفات (إِضَافِيَّةٌ)؛ والصفات الإضافية: مثل الأُبوَّة، والبُنوَّة، يعني لا تُعقَل إحداهما إلا بالأخرى، أي: لا تُعقَل ماهيته إلا بقياسه على الآخر، فيُسمّى صفةً إضافية.

ويُمثلون لها فيما يتعلق بما يضاف إلى الله.. يقولون: رحيم، ويرحم، والرحمة لا تقوم به؛ بل هي مخلوقة!!

وبهذا تعلم أن الصفة الإضافية ليس معنى ثبوتياً يثبتونه للرب، ليس أمراً ثبوتياً يثبتونه للرب سبحانه؛ بل مُحَصِّله هو نفس مُحصِّل الصفات السلبية، لأن مُحصِّله نفْي الصفات، لا يرحم، لا تقوم به رحمة.

(أَوْ مُرَكَّبٍ مِنْهُمَا) أي: من الأمرين معاً، الصفات السلبية والإضافية.

قال: (وَهُمْ) أي: الصابئة (اَلَّذِينَ بُعِثَ إِبْرَاهِيمُ اَلْخَلِيلُ إِلَيْهِمْ، فَيَكُونُ اَلْجَعْدُ أَخَذَهَا عَنْ اَلصَّابِئَةِ اَلْفَلَاسِفَةِ).

قال: (وَكَذَلِكَ أَبُو نَصْرٍ اَلْفَارَابِيُّ)؛ وأبو نصر الفارابي هو أيضاً من كبار ضُلّال هؤلاء، قال الذهبي عنه: له تصانيف مشهورة مَنْ ابتغى منها الهدى ضل وحار، منها تخرّج ابن سينا، نسأل الله التوفيق، كانوا يلقبونه المعلم الثاني- أي: للفلسفة- مثلما كان يُلَقَّب أرسطو: (المعلم الأول)، وهذا فيه قوة الفارابي في الفلسفة.

ذكر ابن كثير جملة من مقالاته الكفرية الضالة الباطلة في «البداية والنهاية»، وقال- بعد أن ذكرها-: فعليه- إن مات على ذلك- لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين؛ فعليه إن مات على ذلك: يعني تلك العقائد الكفرية الضالة الباطلة، فعليه إن مات على ذلك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وإلى يومنا هذا يُعظَّم هذا الرجل بسبب أيضاً ما حُفِظ عنه أشياء تتعلق بالطب، ونحو ذلك.

(وَكَذَلِكَ أَبُو نَصْرٍ اَلْفَارَابِيُّ دَخَلَ حَرَّان وَأَخَذَ عَنْ اَلْفَلَاسِفَةِ اَلصَّابِئِينَ تَمَامَ فَلْسَفَتِهِ، وَأَخَذَهَا اَلْجَهْمُ أَيْضاً- فِيمَا ذَكَرَهُ اَلْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ- لَمَّا نَاظَرَ اَلسُّمْنِيَّةَ بَعْضَ فَلَاسِفَةِ اَلْهِنْدِ- وَهُمْ اَلَّذِينَ يَجْحَدُونَ مِنْ اَلْعُلُومِ مَا سوى اَلْحِسِّيَّاتِ-) يعني: لا يؤمنون بالغيب، يعني لا يؤمنون إلا بالأشياء المحسوسة المشاهَدة الملموسة، أما الغيبيات فلا يؤمنون بها.

بعد هذه الأشياء التي ذكر، قال: (فَهَذِهِ أَسَانِيدُ جَهْمٍ تَرْجِعُ إِلَى اَلْيَهُودِ وَالصَّابِئِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَالْفَلَاسِفَةِ اَلضَّالِّينَ إِمَّا مِنْ اَلصَّابِئِينَ، وَإِمَّا مِنْ اَلْمُشْرِكِينَ).

قال: (ثُمَّ لَمَّا عُرِّبَتْ اَلْكُتُبُ اَلرُّومِيَّةُ) كتب الروم (فلاسفة الروم) (فِي حُدُودِ اَلْمِائَةِ اَلثَّانِيَةِ) في زمن المأمون، هو أوّل مَنْ سعى وعمل على ترجمة كتب الفلاسفة، فلما تُرجِمت تلك الكتب في حدود المائة الثانية- أي: من الهجرة- (زَادَ اَلْبَلَاءُ مَعَ مَا أَلْقَى اَلشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِ اَلضُّلَّالِ اِبْتِدَاءً، مِنْ جِنْسِ مَا أَلْقَاهُ فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ) فزاد البلاء وعظُم الشر.

فإذاً ترجمة تلك الكتب جلبت شراً عظيماً، وكانت الترجمة في حدود المائة الثانية- كما ذكر شيخ الإسلام-

وكان ذلك في زمن المأمون، فإن هو مَنْ عمل على ترجمة تلك الكتب.

ولهذا قال الصَّفَدي: حدَّثني مَنْ أثق به أن شيخ الإسلام ابن تيمية- روَّح الله روحه- كان يقول: ما أظن أن الله يغفل عن المأمون، ولا بد أن يقابله على ما اعتمده من هذه الأمة، من إدخال هذه العلوم الفلسفية بين أهلها؛ لأن هذه جناية عظيمة وخطيرة على الأمة بإدخال تلك الكتب، وترجمتها وجعْلها بين أيدي الناس، فهذا فيه خطورة عظيمة وبالغة.

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لما رأى في يد عمر قطعة من التوراة قال: «أمتهوكون يا ابن الخطاب؟!»؛ أي تهوِّك أشنع من ترجمة تلك الكتب؟! وأي مجازفة في عقائد الناس أخطر من ترجمة تلك الكتب وجعْلُها بين أيدي الناس؟!

وتلك الكتب القائمة على الفلسفة هي بلا شك تجرف وتحرف؛ لأنها كلام مُحذلَق، مُزوَّق، مُنَمَّق، فاتن، فمَنْ دخل في قراءة تلك الكتب فُتِن بها، ودخلت عليه دواخل كثيرة في عقيدته منها، فكانت جناية عظيمة على الناس في عقائدهم، وإيمانهم، أن تُرجِمَت تلك الكتب ونُقِلَت إلى اللغة العربية، وكان ذلك في حدود المائة الثانية.

قال: (وَلَمَّا كَانَ فِي حُدُودِ اَلْمِائَةِ اَلثَّانِيَةِ اِنْتَشَرَتْ هَذِهِ اَلْمَقَالَةُ اَلَّتِي كَانَ اَلسَّلَفُ يُسَمُّونَهَا مَقَالَةَ اَلْجَهْمِيَّةِ بِسَبَبِ بِشْرِ بْنِ غِيَاثٍ اَلْمِرِّيسِيِّ وَطَبَقَتِهِ).

يقول الذهبي في ترجمة بِشْر، قال: نظر في الكلام فغلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوى، وجرَّد القول بخَلْق القرآن، ودعا إليه، حتى كان عين الجهمية في عصره، وعالمهم فمقته أهل العلم وكفَّره عِدة، ولم يُدرِك جهم بن صفوان، بل تلقَّف مقالته من أتباعه. يعني من أتباع الجهم بن صفوان.

وسماه الذهبي: بِشْر الشر.

قال: (بِسَبَبِ بِشْرِ بْنِ غِيَاثٍ اَلْمِرِّيسِيِّ وَطَبَقَتِهِ، وَكَلَامُ اَلْأَئِمَّةِ مِثْلُ: مَالِكٍ، وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، وَابْنِ اَلْمُبَارَكِ، وَأَبِي يُوسُفَ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ، وَالْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ، وَبِشْرٍ اَلْحَافِي، وَغَيْرِهِمْ، فِي هَؤُلَاءِ كَثِيرٌ، فِي ذَمِّهِمْ وَتَضْلِيلِهِمْ) ويمكن الوقوف على شيء من ذلك في الكتب الموسوعية، الكتب الموسوعية في المأثور عن السلف في باب الاعتقاد، ككتاب «الشريعة» للآجري، و«الإبانة» لابن بطة، و«شرح الاعتقاد» لللالكائي، وغيرها من الكتب التي جاءت حافلة بالنقول الكثيرة للمأثور والمروي عن السلف الصالح رحمهم الله تعالى في الاعتقاد.

قال: (وَهَذِهِ اَلتَّأْوِيلَاتُ اَلْمَوْجُودَةُ اَلْيَوْمَ بِأَيْدِي اَلنَّاسِ مِثْلُ أَكْثَرِ اَلتَّأْوِيلَاتِ اَلَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو بَكْرِ بْنُ فُورَكٍ فِي كِتَابِه «اَلتَّأْوِيلَاتِ»، وَذَكَرَهَا أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ اَلرَّازِيُّ فِي كِتَابِهِ اَلَّذِي سَمَّاهُ «تَأْسِيسَ اَلتَّقْدِيسِ»، وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهَا فِي كَلَامِ خَلْقٍ غَيْرِ هَؤُلَاءِ مِثْلِ أَبِي عَلِيٍّ اَلْجُبَّائِيِّ، وعبد الجبار بْنِ أَحْمَدَ اَلْهَمْدَانِيِّ، وَأَبِي اَلْحُسَيْنِ اَلْبَصْرِيِّ، وَأَبِي اَلْوَفَاءِ بْنِ عَقِيلٍ، وَأَبِي حَامِدٍ اَلْغَزَالِيِّ، وَغَيْرِهِمْ، هِيَ بِعَيْنِهَا) هذا هو الخبر، (هِيَ بِعَيْنِهَا) هذا خبر قوله: (وَهَذِهِ اَلتَّأْوِيلَاتُ اَلْمَوْجُودَةُ اَلْيَوْمَ)؛ خبر هذا المبتدأ قوله: (هِيَ بِعَيْنِهَا اَلتَّأْوِيلَاتُ اَلَّتِي ذَكَرَهَا بِشْرٌ اَلْمَرِّيسِيُّ).

وتنبه لهذا! لما ذكر رحمه الله مؤسسي مقالة التعطيل، ومَنْ تبنّى نشْرها في الزمن المتقدم ذكر أن التأويلات التي جاءت فيما بعد، وكثرت، وسمى بعض مَنْ وُجِدَت في كتبهم التأويلات قال: (هِيَ بِعَيْنِهَا اَلتَّأْوِيلَاتُ) الموجودة عند بشر بن غياث.

وبشر بن غياث تلقّى عن تلامذة الجهم، وإن كان لم يلقَ الجهم، لكنه تلقى عن تلامذة الجهم بن صفوان.

فمَنْ ينظر- يقول ابن تيمية- إلى التأويلات التي وُجِدَت عند المتأخرين يجد أنها بعينها هي التأويلات التي وُجدَت عند بشر، قال: (هِيَ بِعَيْنِهَا اَلتَّأْوِيلَاتُ اَلَّتِي ذَكَرَهَا بِشْرٌ) أي: ابن غياث (اَلْمَرِّيسِيُّ اَلَّتِي ذَكَرَهَا فِي كِتَابِهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يُوجَدُ فِي كَلَامِ بَعْضِ هَؤُلَاءِ رَدُّ اَلتَّأْوِيلِ وإبطاله أيضاً وَلَهُمْ كَلَامٌ حَسَنٌ فِي أَشْيَاءَ)؛ وهذا من إنصاف شيخ الإسلام مع خصومه رحمه الله؛ يقول: هؤلاء يوجد في كتبهم في مواضع رد بعض التأويلات، ويوجد أيضاً أشياء حسنة في أبواب أخرى- مثلاً من الاعتقاد- لهم كلام حسن في أشياء.

لاحظ ما وصفهم به! وتنبه لكلامه الآتي! أن بشر كان أقعد من هؤلاء، ما معنى أقعد؟

أي: أن قاعدته مضطردة.

أما هؤلاء فعندهم تناقض؛ يعني يثبتون أشياء، ويُؤولون أشياء، يقولون بالتأويل وينقضون التأويل! تجده في مواضع يُؤوِّل، في مواضع يذم التأويل.

فبِشر كان أقعد منهم لأنه ماشي على قاعدة واحدة، لأن الباب واحد، فهو مشى فيه على قاعدة واحدة، وبناءً على ذلك ذكر ابن تيمية قاعدته المشهورة: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر.

فبِشْر بن غياث قوله واحد، قاعدته واحدة، بينما هؤلاء تجدهم يُؤولون في مواضع، وفي مواضع يردون التأويل.

(فَإِنَّمَا بَيَّنْتُ أَنَّ عَيْنَ تَأْوِيلَاتِهِمْ هِيَ عَيْنُ تَأْوِيلَاتِ اَلْمِرِيسِيِّ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ كِتَابُ اَلرَّدِّ اَلَّذِي صَنَّفَهُ عُثْمَانُ

بْنُ سَعِيدٍ اَلدَّارِمِيُّ أَحَدُ اَلْأَئِمَّةِ اَلْمُشَاهِيرِ فِي زَمَنِ اَلْبُخَارِيِّ) رحمه الله (صَنَّفَ كِتَاباً سَمَّاهُ: «رَدُّ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ عَلَى اَلْكَذابِ اَلْعَنِيدِ فِيمَا اِفْتَرَى عَلَى اللهِ فِي اَلتَّوْحِيدِ») وهو رد على العنيد الذي هو بشر بن غياث المريسي.

والدارمي رحمه الله خَطَى في هذا الكتاب خطوة قوية جداً في تعرية شُبَه هؤلاء، وبيان فساد تأويلات هؤلاء، وكان من أوائل مَنْ تصدّوا لنقْد تلك التأويلات تفصيلاً، يذكر تأويل للصفات صفة صفة، ثم يناقش التأويلات التي عند القوم.

وذكروا في ترجمته رحمه الله أنه كان يستخرج الإجابات من أهل العلم، يستخرج الإجابات ونقْد ذلك من أهل العلم، ذكروا ذلك في ترجمته، يعني كان يلقى بعض الأئمة الأكابر، ويستنطقهم أو يستخرج منهم أجوبة تلك الشبهات، فاستفاد من ما توصل إليه وحصَّله وكان أيضاً يحرص على أن يسأل أهل العلم، وأكابر أهل العلم في زمانه بما يكشف تنك الشبهات، ويبين فسادها، وضمّن كل ذلك في كتابه النقد على بِشر، نقْد الدارمي على كتاب بشر المريسي.

ويُعتبَر كتابه عمدة ومرجع عظيم في هذا الباب، يُعتبَر عمدة في هذا الباب (باب الرد على تأويلات الجهمية).

(حَكَى فِيهِ هَذِهِ اَلتَّأْوِيلَات بِأَعْيَانِهَا)؛

وللفائدة: تجد شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم في رد تأويلات أولئك المتأخرين ينقلون عن الدارمي ردوده المتينة على بِشْر بن غياث المريسي، ينقلون عن الدارمي، كثيراً ما ينقلون عنه، وهذا مما يؤكد لك ما قاله شيخ الإسلام أن التأويلات التي عند المتأخرين هي بأعيانها تلك التأويلات التي عند المتقدمين.

ولهذا في الرد عليها إن رجعتَ إلى الدارمي كفاك؛ لأن التأويلات التي عند المتأخرين هي بأعيانها التأويلات التي عند المتقدمين.

وفي هذا الباب الدارمي وفّى في إبطال تلك التأويلات.

قال: (حَكَى فِيهِ) أي: في كتابه (هَذِهِ اَلتَّأْوِيلَاتِ بِأَعْيَانِهَا عَنْ بِشْرٍ اَلْمُرِيسِيِّ بِكَلَامٍ يَقْتَضِي أَنَّ اَلْمِرِّيسِيَّ أَقْعَدُ بِهَا) أقعد بها: أي بالتأويلات، من أولئك المتأخرين.. لماذا؟

لأن المتأخرين وُجِد فيهم اضطراب؛ فيُؤوِّل بعضاً، ولا يؤوِّل بعضاً، أو يُؤوِّل في موضع ويرد التأويل في موضع آخر، بينما بِشر كان أقعد منهم: أي: أنه مضى في هذا الباب على قاعدة واحدة.

ولهذا يقولون: أن المعتزلة أقعد من الأشاعرة، لكن مذهب المعتزلة أبطل من مذهب الأشاعرة، لكنه

أقعد، ما معنى أقعد؟

أي: قاعدة واحدة مضوا عليها في الباب أي: على قاعدة واحدة؛ بخلاف مَنْ يُثبِت بعضاً وينفي بعضاً.

قال: ما (يَقْتَضِي أَنَّ اَلْمِرِّيسِيَّ أَقْعَدُ بِهَا، وَأَعْلَمُ بِالْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ مِنْ هَؤُلَاءِ اَلْمُتَأَخِّرِينَ اَلَّذِينَ اِتَّصَلَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَتِهِ) يعني هذه التأويلات إنما وصلت إلى هؤلاء المتأخرين من جهته- أي: بِشر بن غياث المريسي.

(ثُمَّ رَدَّ ذَلِكَ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ بِكَلَامٍ إِذَا طَالَعَهُ اَلْعَاقِلُ اَلذَّكِيُّ: عَلِمَ حَقِيقَةَ مَا كَانَ عَلَيْهِ اَلسَّلَفُ، وَتَبَيَّنَ لَهُ ظُهُورُ اَلْحُجَّةِ لِطَرِيقِهِمْ، وَضَعْفِ حُجَّةِ مَنْ خَالَفَهُمْ)؛ وهذا مدح قوي وثناء قوي من شيخ الإسلام على رد الدارمي على بشر بن غياث، وأن ذلك الرد جاء من القوة بمكان، وأيضاً من فوائده أنه يُجلِّي ويُظهِر قوة ومتانة علوم السلف، وضعف حُجج مَنْ خالفهم.

قال: (ثُمَّ إِذَا رَأَى اَلْأَئِمَّةَ- أَئِمَّةَ اَلْهُدَى-) هذا معطوف على قوله: (إِذَا طَالَعَهُ اَلْعَاقِلُ اَلذَّكِيُّ) يعني كلام الدارمي، (ثُمَّ إِذَا رَأَى اَلْأَئِمَّةَ- أَئِمَّةَ اَلْهُدَى- قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى ذَمِّ اَلْمِرِّيسِيَّةِ) أي: أتباع بشر بن غياث المريسي، وبشر هو مَنْ نقل عنه ابن القيم قاعدة في التعطيل قررها لتلامذته، قال فيها: ليس شيء أبغض إلى أقوالنا من القرآن والحديث، فقابلوا نصوص القرآن بالتحريف، وقابلوا نصوص السُّنة بالتكذيب، وهذه قاعدة مريسية خبيثة، ممروسة بالباطل.

وقابل هذه القاعدة المريسية الخبيثة بقاعدة السلف- أئمة الهدى-؛ حيث يقول الإمام أحمد: نَصِفُ الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والحديث.

فشتّان بين الفريقين..

وما أعظم البون بين الطائفتين؛ الطائفة التي تُعظِّم الكتاب والسُّنة وتبني دينها عليه ولا تتجاوز الكتاب والسُّنة، والطائفة التي ترى أنه ليس شيء أبغض إلى أقوالهم من القرآن والحديث، وأن نصوص القرآن تُقابَل بالتحريف، ونصوص السُّنة تُقابَل بالتكذيب، ولهذا لما تبنوا هذا التكذيب أحدثوا- وهم أوّل مَنْ أحدث ذلك- أن أخبار الآحاد لا يُحتَج بها في الاعتقاد؛ هذه الذي أنشأها المعتزلة، أخبار الآحاد لا يُحتج بها في الاعتقاد، الذي أحدث ذلك هم المعتزلة من أجل التكذيب الذي هو مطلوبهم ومقصودهم.

وكل حديث- وإن كان متواتراً- لا يوافق أهواءهم وعقائدهم يُكذِّبون به بناءً على أو استناداً إلى هذه القاعدة، يقولون: خبر آحاد، ولا يُحتَج به في الاعتقاد، أحاديث كثيرة متواترة رُدَّت عند القوم بهذه القاعدة- قالوا: خبر آحاد!!-، وهم من أجهل الناس بالمتواتر والآحاد، لكنها جعلوها مُتكئاً لهم يردون به ويُكذّبون

به أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

يقول: (ثُمَّ إِذَا رَأَى اَلْأَئِمَّةَ- أَئِمَّةَ اَلْهُدَى- قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى ذَمِّ الْمِرِّيسِيَّةِ وَأَكْثَرُهُمْ كَفَّرُوهُمْ أَوْ ضَلَّلُوهُمْ)، وانظر في هذا كتاب اللالكائي «شرح الاعتقاد»، وذكر نقول عديدة عن أهل العلم بلغت خمسمائة نقل، ولهذا قال..كلها بالأسانيد، ولهذا يقول ابن القيم: ولقد تقلّد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان؛ خمسون في عشر كم؟

خمسمائة. خمسون في عشر خمسمائة، يشير إلى حشد وجمْع اللالكائي رحمه الله في كتابه «شرح الاعتقاد» بنقول كثيرة عن أئمة السلف في ذلك، في تكفير وتضليل هؤلاء.

(وَعَلِمَ أَنَّ هَذَا اَلْقَوْلَ اَلسَّارِيَ فِي هَؤُلَاءِ اَلْمُتَأَخِّرِينَ هُوَ مَذْهَبُ الْمِرِّيسِيَّةِ تَبَيَّنَ اَلْهُدَى لِمَنْ يُرِيدُ اَللهُ هِدَايَتَهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله).

قال: (وَالْفَتْوَى لَا تَحْتَمِلُ اَلْبَسْطَ فِي هَذَا اَلْبَابِ، وَإِنَّمَا نُشِيرُ إِشَارَةً إِلَى مَبَادِئِ اَلْأُمُورِ، وَالْعَاقِلُ يَسِيرُ فَيَنْظُرُ) إلى مبادئ الأمور.. يعني كأنه مع هذا البسط الذي يذكره هنا يعتذر عن عدم البسط، مع أنه رحمه الله بسط شيء من البسط، للنشأة والمؤسسين، والـ كذا، فيعتذر ويقول: الفتوى لا تحتمل البسط في هذا الباب، وإنما نشير إشارة إلى مبادئ الأمور.

وإذا كانت هذه الفتوى التي بلغت بدون الحواشي، والتعليقات التي في بعض الطبعات لهذا الكتاب بلغت في حدود مائتين صفحة كتبها في جلسة- كما عرفنا- جلسة واحدة، وعبارته هذه تدل أن عنده أشياء كثيرة، لكن الفتوى التي ارتأى أن يُقيّدها في هذه الرسالة لا تحتمل بسطاً أكثر من هذا، وأنه إنما يشير (إِشَارَةً إِلَى مَبَادِئِ اَلْأُمُورِ، وَالْعَاقِلُ يَسِيرُ فَيَنْظُرُ).

قوله: (وَالْعَاقِلُ يَسِيرُ فَيَنْظُرُ) هذه تنبه لها! فإن فيها فائدة لك؛ كأنه يقول لك: إن ضبطت هذا الاختصار، وعرفت مبادئ الأمور التي أشار إليها إشارة هنا، وميَّزت وعرفت كيف نشأت هذه التأويلات فإن العاقل يسير وينظر، يعني ما لم يُذْكر هو مثل ما ذُكِر، ما لم يُذْكَر هو نظير ما ذُكِر، فإذا عرفت هذه الإشارات ببدايات الأمور وميّزت الأمر أصبحت الأمور الأخرى واضحةً لك.

ولهذا تُعتبَر هذه الرسالة «الفتوى الحموية» مضمومةً إلى رسالته الأخرى «التدمرية» من أنفع ما يكون لطالب العلم في التأصيل، ولاسيما في مقام الرد لشبهات المتكلمين، وأباطيل المُؤوِّلين.

قال رحمه الله:

وَكَلَامُ اَلسَّلَفِ فِي هَذَا اَلْبَابِ مَوْجُودٌ فِي كُتُبٍ كَثِيرَةٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ نَذْكُرَ هُنَا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُ، مِثْلَ كِتَابِ «اَلسُّنَنِ» لِلَّالَكَائِيِّ، و«اَلْإِبَانَةِ» لِابْنِ بَطَّةَ، و«اَلسُّنَّةِ» لِأَبِي ذَرٍّ الْهَرَوِيِّ، و«اَلْأُصُولِ» لِأَبِي عُمَرَ الطَّلَمَنْكِيِّ، وَكَلَامِ أَبِي عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْبَرّ، و«اَلْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» لِلْبَيْهَقِيِّ، وَقَبْلَ ذَلِكَ «اَلسُّنَّةُ» لِلطَّبَرَانِيِّ، وَلِأَبِي اَلشَّيْخِ اَلْأَصْبَهَانِيِّ وَلِأَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ مَنْدَهْ، وَلِأَبِي أَحْمَدَ اَلْعَسَّالِ اَلْأَصْبَهَانِيِّ، وَقَبْلَ ذَلِكَ «اَلسُّنَّةُ» لِلْخَلَّالِ، و«اَلتَّوْحِيدُ» لِابْنِ خُزَيْمَةَ، وَكَلامُ أَبِي اَلْعَبَّاسِ بْنِ سُرَيْجٍ وَالرَّدُّ عَلَى اَلْجَهْمِيَّةِ لِجَمَاعَةٍ، وَقَبْلَ ذَلِكَ «اَلسُّنَّةُ» لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أَحْمَدَ و«اَلسُّنَّةُ» لِأَبِي بَكْرِ بْنِ اَلْأَثْرَمِ، و«اَلسُّنَّةُ» لِحَنْبَلٍ، وَلِلْمَرْوَذِيِّ، وَلِأَبِي دَاوُدَ اَلسِّجِسْتَانِيِّ، وَلِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، و«اَلسُّنَّةُ» لِأَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي عَاصِمٍ، وَكِتَابُ «اَلرَّدِّ عَلَى اَلْجَهْمِيَّةِ» لِعَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْجُعْفِيِّ شَيْخِ اَلْبُخَارِيِّ، وَكِتَابُ «خَلْقِ أَفْعَالِ اَلْعِبَادِ» لِأَبِي عَبْدِ اللهِ اَلْبُخَارِيِّ، وَكِتَابُ «اَلرَّدِّ عَلَى اَلْجَهْمِيَّةِ» لِعُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ اَلدَّارِمِيِّ، وَكَلَامُ عبد العزيز اَلْمَكِّيِّ صَاحِبِ «اَلْحَيْدَةِ» فِي اَلرَّدِّ عَلَى اَلْجَهْمِيَّةِ، وَكَلَامُ نُعَيْمِ بْنِ حَمَّادٍ اَلْخُزَاعِيِّ، وَكَلَامُ اَلْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ وَيَحْيَى بْنِ يَحْيَى اَلنَّيْسَابُورِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ، وَقَبْلَ هَؤُلَاءِ عَبْدُ الله بْنُ اَلْمُبَارَكِ وَأَمْثَالُهُ، وَأَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ.

وَعِنْدَنَا مِنَ اَلدَّلَائِلِ اَلسَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ مَا لَا يَتَّسِعُ هَذَا اَلْمَوْضِعُ لِذِكْرِهِ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ اَلْمُتَكَلِّمِينَ لَهُمْ شُبُهَاتٌ مَوْجُودَةٌ، لَكِنْ لَا يُمْكِنُ ذِكْرُهَا فِي اَلْفَتْوَى، فَمَنْ نَظَرَ فِيهَا وَأَرَادَ إِبَانَةَ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ اَلشُّبَهِ فَإِنَّهُ يَسِيرٌ.

وَإِذَا كَانَ أَصْلُ هَذِهِ اَلْمَقَالَةِ- مَقَالَةِ اَلتَّعْطِيلِ وَالتَّأْوِيلِ- مَأْخُوذاً عَنْ تَلَامِذَةِ اَلْمُشْرِكِينَ، وَالصَّابِئِينَ، وَالْيَهُودِ، فَكَيْفَ تَطِيبُ نَفْسُ مُؤْمِنٍ بَلْ نَفْسُ عَاقِلٍ أَنْ يَأْخُذَ سُبُلَ هَؤُلَاءِ اَلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، وَيَدَعَ سَبِيلَ اَلَّذِينَ أَنْعَمَ اَللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ اَلنَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

يذكر رحمه الله، أو يحيل هنا إلى ما كتبه أئمة السلف بالإشارة إلى عدد كبير من كتبهم التي ينبغي التي تعظُم عناية طالب العلم بها تفقهاً عليها، ودراسةً لها، وفهماً لمضامينها، فأحال رحمه الله في هذا الباب على كتب أئمة السلف رحمهم الله، وكان شيخ الإسلام ذا عناية دقيقة جداً بهذه الكتب؛ قرأها، وهضمها، واستوعبها، وأعطاه الله حافظة عجيبة جداً.

ويكفيك في هذا: أنه لما تناظر مع بعض المتكلمين في موضوع التأويل، وتحدّاهم أن يأتوا بتأويل واحد عن السلف لآيات الصفات، قال في أثناء ذلك: فإني قد قرأتُ مائة كتاب في التفسير للسلف أو أكثر، ولم

....

أقف في شيء منها على شيء من التأويل.

فرجل قرأ قراءة موسعة جداً مع استظهار واستحضار لكتب أئمة السلف، واعتنى بها رحمه الله عناية دقيقة.

ولهذا كانت علومه، وما بثّه رحمه الله في كتبه هو عصارات وخلاصات وصفو لقول السلف الذي قرأه وهضمه وارتوى منه، ثم بثّه رحمه الله في كتبه.

ولهذا كتبه رحمه الله يحتاج إليها حاجة ماسة جداً كحاجتنا إلى قراءة كتب السلف.

فأحال هنا إلى كتب لأئمة السلف قال: (وَكَلَامُ ٱلسَّلَفِ فِي هَذَا ٱلْبَابِ مَوْجُودٌ فِي كُتُبٍ كَثِيرَةٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُذْكَرَ هُنَا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهاُ) يقول: لا نستطيع أن نحصر كتبهم في هذه الفتوى المختصرة؛ لأن هذه فتوى لسائل أو لبعض السائلين عن أشياء معينة، ولهذا تجده يعتذر اعتذاراً متكرراً عن أن هذه الفتوى لا تحتمل التفصيل.

فسمى عدداً من كتب السلف رحمهم الله، وأكثر هذه الكتب التي سماها من فضل الله ﷻ مطبوعة، أكثرها مطبوعة إلا قليل جداً منها ليس له وجود، مثل كتاب «الأصول» لأبي عمر الطلمنكي، هذا الكتاب لا وجود له، وأكثر هذه الكتب التي ذكرها موجودة.

أيضاً كتاب أبو أحمد العسال ليس له وجود- حسب علمي-.

وأكثر هذه الكتب التي سماها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى موجودة، مطبوعة، متداولة.

قال: (وَأَمْثَالُهُ، وَأَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ) يعني للسلف، هذا فيما أُفرِد، لكن أيضاً إذا نظرت إلى الدواوين الأخرى مثل «الصحاح» و«السنن» وغيرها أيضاً مليئة بذلك، أيضاً إن نظرت في كتب التراجم، يعني «حلية الأولياء»، مثلاً «تاريخ ابن عساكر» مليئة بالنقول والآثار المروية عن السلف الصالح في باب الاعتقاد.

قال: (وَعِنْدَنَا مِنْ ٱلدَّلَائِلِ ٱلسَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ مَا لَا يَتَّسِعُ هَذَا ٱلْمَوْضِعُ لِذِكْرِهِ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ لَهُمْ شُبُهَاتٌ مَوْجُودَةٌ، لَكِنْ لَا يُمْكِنُ ذِكْرُهَا فِي ٱلْفَتْوَى) لأنك إذا تذكرت الفتوى.. ذكروا الآيات- آيات الصفات- وطلبوا أن يُبيَّن القول الحق في ذلك، وما الذي يجب أن يُعتقَد، فبسط رحمه الله ذلك وأشار إشارات إلى المذاهب المخالفة.

أما تتبُّع شبهات أولئك ونقْدها شُبهةً شبهةً فهذا لا تحتمل مثل هذه الفتوى، وإن كان رحمه الله بسط

ذلك النقض والرد للشبهات في كتب أخرى مثل كتابه «نقْض التأسيس»، وكتابه «درء التعارض»، وأيضاً له كتاب مفقود «الأجوبة على الاعتراضات على الحموية» أيضاً فصَّل فيه تفصيلات واسعة في هذا الباب، ويقال: أنه بلغ أربع مجلدات.

قال: (وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ اَلْمُتَكَلِّمِينَ لَهُمْ شُبُهَاتٌ مَوْجُودَةٌ، لَكِنْ لا يُمْكِنُ ذِكْرُهَا فِي اَلْفَتْوَى، فَمَنْ نَظَرَ فِيهَا وَأَرَادَ إِبَانَةَ مَاذَكَرُوهُ مِنْ اَلشُّبَهِ فَإِنَّهُ يَسِيرٌ)؛ وانظر هذه الأريحية وهذا الاستعداد من هذا الإمام رحمه الله للتفنيد والإبطال، يعني يقول: أنه لم يذكرها لأنها لا تحتملها، لكن إن احتاج المقام إلى تفنيدها فالأمر يسير، وما كانت تُكلفه شيئاً رحمه الله، ما كانت تُكلِّفه شيئاً، يغرف من بحر؛

في صفة الكلام لما وشى به خصومه وسُجِن أرسلوا له بعض القضاة أن يحضر للمناظرة فيما يتعلق بصفة الكلام، أرسلوا له أن يحضر للمناظرة فرفض أن يأتي، فأرسلوا له السائل مرة أخرى ليحضر المناظرة قال: أبلغهم أنني لن آتي، ولكن أخبرهم أن كلامهم باطل من وجوه- وهو في السجن-، قال: أخبرهم أن كلامهم باطل من وجوه، الأول، الثاني.. قال: ما أحسن أن أنقل هذا الكلام، أكتبه لي، فكتب له تسعين وجهاً في إبطال الكلام -- ((@ كلمة غير مفهومة- ١٥:١٤:٠١)) --.

والتسعين وجه مطبوعة، محققة في ثلاث مجلدات بعنوان: «التسعينية» لابن تيمية، التسعينية: يعني تسعين وجه.

فلما يقول هنا: (فَإِنَّهُ يَسِيرٌ) شُبهة واحدة تتعلق بالكلام، في جلسة تسعين وجه كتب، فلما يقول يسير، يقول: يسير عن شيء منحه الله ومنَّ عليه به من ضلوع في الفهم، والدراية، وعمق في العلم بكتاب الله وسُنة نبيّه عليه الصلاة والسلام، وأيضاً بصيرة في وجوه النقْد، نقْد الشُّبهة، فالشُّبهة إذا ذُكِرت عنده فنَّدها بيُسر وسهولة، مثلما ذكر: (فَإِنَّهُ يَسِيرٌ) من وجوه كثيرة جداً، من وجوه كثيرة بما فتح الله ﷻ عليه.

وهذا من إمامته رحمه الله.

(وَإِذَا كَانَ أَصْلُ هَذِهِ اَلْمَقَالَةِ-مَقَالَةِ اَلتَّعْطِيلِ وَالتَّأْوِيلِ- مَأْخُوذاً عَنْ تَلَامِذَةِ اَلْمُشْرِكِينَ، وَالصَّابِئِينَ، وَالْيَهُودِ، فَكَيْفَ تَطِيبُ نَفْسُ مُؤْمِنٍ بَلْ نَفْسُ عَاقِلٍ أَنْ يَأْخُذَ سبيل هَؤُلَاءِ)؛ كلمة والله جميلة، وليتنا نضع عندها إشارة، أو خط؛ لأنها والله جميلة جداً، يعني بعد أن بيّن سوءها وكيف نشأت وكيف دخلت على الناس، وكيف أنها لا وجود لها عند الصحابة، ولم يكن أحد منهم يقول بذلك، وأنها إنما نشأت على أيدي هؤلاء، كل هذا بيّنه، فلما بيّن هذا البيان ختم بهذه الكلمة الجميلة قال: (فَكَيْفَ تَطِيبُ نَفْسُ مُؤْمِنٍ بَلْ نَفْسُ

عَاقِلٍ أَنْ يَأْخُذَ سبيل هَؤُلَاءِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، وَيَدَعَ سَبِيلَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ).

ولعل من المناسب أن تُختَم هذه الوصية بالدعاء الذي كان رحمة الله عليه يحث عليه كثيراً، ويعتبره أعظم الدعاء، ما جاء في الفاتحة، فاتحة الكتاب:

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة:٦]

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة:٧]

كتب الله لنا جميعاً الخير والتوفيق والسداد، والعون على كل خير.

والله أعلم..

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه.

شرح الفتوى الحموية الكبرى

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله

من الدرس (٤) إلى الدرس (٧)

الشيخ لم يراجع التفريغ

الدرس الرابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه «الفتوى الحموية الكبرى»:

فَصْلٌ

ثُمَّ اَلْقَوْلُ اَلشَّامِلُ فِي جَمِيعِ هَذَا اَلْبَابِ أَنْ يُوصَفَ اللهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ بِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ اَلسَّابِقُونَ اَلْأَوَّلُونَ لَا يُتَجَاوَزُ اَلْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ.

قَالَ اَلْإِمَامُ أَحْمَدُ-رَضِيَ اَللهُ عَنْهُ-:"لَا يُوصَفُ اللهُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ بِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ لَا يُتَجَاوَزُ اَلْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ".

وَمَذْهَبُ اَلسَّلَفِ أَنَّهُمْ يَصِفُونَ اَللهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ وَنَعْلَمُ أَنَّ مَا وُصِفَ اَللهُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ لُغْزٌ وَلَا أَحَاجِي بَلْ مَعْنَاهُ يُعْرَفُ مِنْ حَيْثُ يُعْرَفُ مَقْصُودُ اَلْمُتَكَلِّمِ بِكَلَامِهِ لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ اَلْمُتَكَلِّمُ أَعْلَمَ اَلْخَلْقِ بِمَا يَقُولُ وَأَفْصَحَ اَلْخَلْقِ فِي بَيَانِ اَلْعِلْمِ وَأَنْصَحَ اَلْخَلْقِ فِي اَلْبَيَانِ وَالتَّعْرِيفِ وَالدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَ ذَلِكَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي نَفْسِهِ اَلْمُقَدَّسَةِ اَلْمَذْكُورَةِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ فَكَمَا يُتَيَقَّنُ أَنَّ اَللهَ سُبْحَانَهُ لَهُ ذَاتٌ حَقِيقِيَّةٌ وَلَهُ أَفْعَالٌ حَقِيقِيَّةٌ فَكَذَلِكَ لَهُ صِفَاتٌ حَقِيقِيَّةٌ وَهُوَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٍ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ وَكُلُّ مَا أَوْجَبَ نَقْصاً أَوْ حُدُوثاً فَإِنَّ اَللهَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ حَقِيقَةً فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْكَمَالِ اَلَّذِي لَا غَايَةَ فَوْقَهُ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ اَلْحُدُوثُ لِامْتِنَاعِ اَلْعَدَمِ عَلَيْهِ وَاسْتِلْزَامُ اَلْحُدُوثِ سَابِقَةُ اَلْعَدَمِ وَلِافْتِقَارِ اَلْمُحْدَثِ إِلَى مُحْدِثٍ وَلِوُجُوبِ وُجُودِهِ بِنَفْسِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَمَذْهَبُ اَلسَّلَفِ بَيْنَ اَلتَّعْطِيلِ وَبَيْنَ اَلتَّمْثِيلِ فَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِ الله بِصِفَاتِ خَلْقِهِ كَمَا لَا يُمَثِّلُونَ ذَاتَهُ بِذَاتِ خَلْقِهِ وَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ فَيُعَطِّلُونَ أَسْمَاءَهُ اَلْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ اَلْعُلَى وَيُحَرِّفُونَ اَلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ الله وَآيَاتِهِ.

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ فَرِيقَيْ اَلتَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ فَهُوَ جَامِعٌ بَيْنَ اَلتَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ.

أَمَّا اَلْمُعَطِّلُونَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا مِنْ أَسْمَاءِ الله وَصِفَاتِهِ إِلَّا مَا هُوَ اَللَّائِقُ بِالْمَخْلُوقِ ثُمَّ شَرَعُوا فِي نَفْيِ تِلْكَ

اَلْمَفْهُومَاتِ فَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَ اَلتَّمْثِيلِ وَالتَّعْطِيلِ؛ مَثَّلُوا أَوَّلاً وَعَطَّلُوا آخِراً وَهَذَا تَشْبِيهٌ وَتَمْثِيلٌ مِنْهُمْ لِلْمَفْهُومِ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ بِالْمَفْهُومِ مِنْ أَسْمَاءِ خَلْقِهِ وَصِفَاتِهِمْ وَتَعْطِيلٌ لِمَا يَسْتَحِقُّهُ هُوَ سُبْحَانَهُ مِنَ اَلْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ اَللَّائِقَةِ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ اَلْقَائِلُ: لَوْ كَانَ اَللهُ فَوْقَ اَلْعَرْشِ لَلَزِمَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَكْبَرَ مِنَ اَلْعَرْشِ أَوْ أَصْغَرَ أَوْ مُسَاوِياً وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ اَلْكَلَامِ فَإِنَّهُ لَمْ يُفْهَمْ مِنْ كَوْنِ اللهِ عَلَى اَلْعَرْشِ إِلَّا مَا يَثْبُتُ لِأَيِّ جِسْمٍ كَانَ عَلَى أَيِّ جِسْمٍ كَانَ وَهَذَا اَللَّازِمُ تَابِعٌ لِهَذَا اَلْمَفْهُومِ أَمَا اِسْتِوَاءٌ يَلِيقُ بِجَلَالِ اللهِ وَيَخْتَصُّ بِهِ فَلَا يَلْزَمُهُ شَيْءٌ مِنَ اَللَّوَازِمِ اَلْبَاطِلَةِ اَلَّتِي يَجِبُ نَفْيُهَا.

وَصَارَ هَذَا مِثْلَ قَوْلِ اَلْمُمَثِّلِ: إِذَا كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعٌ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ جَوْهَراً أَوْ عَرَضاً وَكِلَاهُمَا مُحَالٌ: إِذ لاَ يُعْقَلُ مَوْجُودٌ إِلَّا هَذَانِ أَوْ قَوْلِهِ: إِذَا كَانَ مُسْتَوِياً عَلَى اَلْعَرْشِ فَهُوَ مُمَاثِلٌ لِاسْتِوَاءِ اَلْإِنْسَانِ عَلَى اَلسَّرِيرِ أَوْ اَلْفُلْكِ إِذْ لاَ يُعْلَمُ اَلِاسْتِوَاءُ إِلَّا هَكَذَا فَإِنَّ كِلَيْهِمَا مَثَّلَ وَكِلَيْهِمَا عَطَّلَ حَقِيقَةَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَامْتَازَ اَلْأَوَّلُ بِتَعْطِيلِ كُلِّ مُسَمًّى لِلِاسْتِوَاءِ اَلْحَقِيقِيِّ وَامْتَازَ اَلثَّانِي بِإِثْبَاتِ اِسْتِوَاءٍ هُوَ مِنْ خَصَائِصِ اَلْمَخْلُوقِينَ.

وَالْقَوْلُ اَلْفَصلُ: هُوَ مَا عَلَيْهِ اَلْأُمَّةُ اَلْوَسَطُ مِنْ أَنَّ اَللهَ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ اِسْتِوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَيَخْتَصُّ بِهِ فَكَمَا أَنَّهُ مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُثْبَتَ لِلْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ خَصَائِصُ اَلْأَعْرَاضِ اَلَّتِي كَعِلْمِ اَلْمَخْلُوقِينَ وَقُدْرَتِهِمْ فَكَذَلِكَ هُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ اَلْعَرْشِ وَلَا يُثْبَتُ لِفَوْقِيَّتِهِ خَصَائِصُ فَوْقِيَّةِ اَلْمَخْلُوقِ عَلَى اَلْمَخْلُوقِ وَمَلْزُومَاتِهَا.

وَاعْلَمْ أَنْ لَيْسَ من اَلْعَقْلِ اَلصَّرِيحِ وَلَا فِي اَلنَّقْلِ اَلصَّحِيحِ مَا يُوجِبُ مُخَالَفَةَ اَلطَّرِيقَةِ اَلسَّلَفِيَّةِ أَصْلاً لَكِنَّ هَذَا اَلْمَوْضِعَ لاَ يَتَّسِعُ لِلجَوَابِ عَنْ اَلشُّبُهَاتِ اَلْوَارِدَةِ عَلَى اَلْحَقِّ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ شُبْهَةٌ وَأَحَبَّ حَلَّهَا فَذَلِكَ سَهْلٌ يَسِيرٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

بعد تلك المقدمات التي بدأ رحمه الله تعالى عقد هذا الفصل ليجيب من خلاله تفصيلاً على سؤال السائل عن آيات الصفات، وما الذي يعتقده المسلم فيها، وما القول الجامع الوافي الشامل في تلك الآيات.

فعقد هذا الفصل لبيان ذلك، لقوله رحمه الله في مقدمته: (اَلْقَوْلُ اَلشَّامِلُ فِي جَمِيعِ هَذَا اَلْبَابِ أَنْ يُوصَفَ اَللَّهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ بِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ اَلسَّابِقُونَ اَلْأَوَّلُونَ) كما في الآية الكريمة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وما جاء من قول السابقين، وما نُقِل من قول السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في صفة الرب سبحانه وتعالى له حُكم الرفع؛ لأنه ليس من الأمور التي للاجتهاد فيها مجال؛ ولهذا قال: (وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ اَلسَّابِقُونَ اَلْأَوَّلُونَ لاَ يُتَجَاوَزُ اَلْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ) فباب الصفات باب توقيفي، وما صح من نقل في هذا الباب عن الصحابة موقوفاً، فله حُكم الرفع لأنه ليس مما للرأي فيه مجال.

ونقل رحمه الله تعالى هذا النقل العظيم عن الإمام أحمد إمام أهل السُّنة رحمه الله تعالى؛ حيث قال: (لاَ يُوصَفُ اَللَّهُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ بِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ لَا يُتَجَاوَزُ اَلْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ)؛ وهذا فيه أن باب الصفات توقيفي، يُتوقَّف فيه على الدليل، فلا يقال فيه بشيء إلا إذا دل عليه الدليل من الكتاب والسُّنة.

وعقيدة أهل السُّنة مبنية على هذا، يقولون: نعتقد في صفات الله كذا، أو نثبت لله كذا، لقول الله تعالى كذا، أو لقول رسوله ﷺ كذا، لا يتجاوزون القرآن والحديث.

فهذا هو القول الجامع في هذا الباب: ألا يوصَف الله جل وعلا إلا بما وصف به نفسه أو بما وصفه به رسوله عليه الصلاة والسلام.

ويؤكد لك هذا المعنى الذي قرره رحمه الله تعالى أن تتذكر بين يدي ما قرره رحمه الله **ثلاث مقدمات**:

الأولى: أنه لا أحد أعلم بالله تبارك وتعالى من الله ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠].

والثانية: أن أعلم خلْق الله بالله رسول الله ﷺ، وفي الحديث الصحيح: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»، وهو عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

والمقدمة الثالثة: أن الله سبحانه وتعالى بالنسبة لنا غيب لم نره.

فإذا استحضرت هذه المقدمات الثلاث خلصت إلى هذه النتيجة الثمينة، ألا وهي: أنّا لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ.

وعلى أيضاً ذلك؛ فإن مَنْ وصف الله ﷻ بغير الكتاب والسُّنة، أو بغير ما دل عليه الكتاب والسُّنة فإنه قائل بلا علم، وقافٍ ما ليس له به علم، وهذا أعظم المحرمات..

﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٦٩﴾ [البقرة:١٦٩]

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ ٣٦﴾ [الإسراء:٣٦].

قال: (وَمَذْهَبُ ٱلسَّلَفِ أَنَّهُمْ يَصِفُونَ ٱللَّهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ) وهذه الأمور الأربعة التي نفاها رحمه الله تعالى: (التحريف، والتعطيل، والتكييف، والتمثيل) هذه محاذير خطيرة جداً ووخيمة، يجب على المثبِت للصفات أن يحذر منها أشد الحذر، فتُثبَت الصفات دون أن تُحرَّف ودون أن تُعطَّل، ودون أن تُكيَّف ودون أن تُمَثَّل.

فهي أربعة محاذير يجب على المثبِت لصفات الله تبارك وتعالى أن يحذر منها أشد الحذر (مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ).

والتحريف: هو صرْف اللفظ عن معناه بإعطائه معنى لفظ آخر.

والتعطيل: النفي والجحد، وعدم إثبات الصفة.

والتكييف: هو محاولة معرفة كيفية الصفة، والبحث عنها والسؤال عنها بـ (كيف).

والتمثيل: هو إثبات الصفة لله على وجه مماثل للصفة عند المخلوق.

فالممثل هو الذي يقول: يد كيدي، وسمع كسمعي، وبصر كبصري.

والله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى:١١].

قال: (وَنَعْلَمُ أَنَّ مَا وُصِفَ ٱللَّهُ بِهِ نفسه مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ لُغَزٌ وَلَا أَحَاجِي) وهذه الكلمة مقصودة، وهي في مقام الرد على المُبطِلة، الذين يأتون إلى آيات الصفات أو أحاديث الصفات، ثم يعمل على صرْفها عن ظاهرها إلى معاني بعيدة جداً في اللغة، ولا يوقف عليها إلا بمشقة وعنت وصعوبة.

فلو كان قول هؤلاء المعطِّلة هو الحق لأصبحت الآية معناها مثل ماذا؟

لأصبحت الآية معناها مثل اللغز والأحاجي، لا يُفهَم معناها إلا بتنقيب، وتفتيش، وبحث طويل في كتب اللغة إلى أن وقف أولئك على ذلك المعنى.

لو كان المعنى الذي وقفوا عليه هو فعلاً المراد من هذه الآية لكانت الآية أشبه باللغز، وهذا يتنافى مع وُصِف به القرآن في مواضع كثيرة بأنه كتاب مبين، واضح، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾ [الشعراء:١٩٥].

فإذاً لو كان ما يقوله أولئك المعطِّلة، ويقررونه من تأويلات، لو كانت هي الحق لأصبحت تلك الآيات أشبه ما تكون بماذا؟.. بالألغاز والأحاجي.

قال رحمه الله: (بَلْ مَعْنَاهُ يُعْرَفُ مِنْ حَيْثُ يُعْرَفُ مَقْصُودُ الْمُتَكَلِّمِ بِكَلَامِهِ) وهذه أيضاً كلمة دقيقة جداً في هذا الباب، (مَعْنَاهُ يُعْرَفُ مِنْ حَيْثُ يُعْرَفُ مَقْصُودُ الْمُتَكَلِّمِ بِكَلَامِهِ)، وظاهر الخطاب، أو المراد بالخطاب: هو ما عُلِم من الخطاب من ظاهر مراد المتكلم به، فلما قال سبحانه وتعالى:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ۝٦٤﴾ [المائدة:٦٤]

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۝٦﴾ [الفتح:٦]

﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۝٢٢﴾ [المجادلة:٢٢]

إلى غير ذلك من الآيات المعنى ظاهر وواضح، خوطبنا باللسان العربي المبين، ونحن نعرف المعاني من خلال اللغة..

يعني مثلاً: هناك آيات فيها إثبات العين لله، وآيات فيها إثبات اليد لله، وآيات فيها إثبات الرضا، وآيات فيها إثبات الغضب، وآيات فيها إثبات الاستواء؛ هذه الكلمات المراد بها هو معناها المعروف من لغة العرب، أما الحقيقة فهي تليق بجلال الله وكماله.

لكن لا يمكن مثلاً أن تكون الآية فيها إثبات العين، ويكون المراد مثلاً بكلمة العين الرضا مثلاً، ما يمكن، ما يمكن إطلاقاً.. يعني تكون الآية مثلاً المثبت فيها لفظة العين، ويكون المراد مثلاً الرضا!، أو معنى آخر بعيد جداً لا يمكن أن يوقَف عليه إلا بتنقيب وتفتيش طويل في كتب اللغة؛ (بَلْ مَعْنَاهُ يُعْرَفُ مِنْ حَيْثُ يُعْرَفُ مَقْصُودُ الْمُتَكَلِّمِ بِكَلَامِهِ)، والله جل وعلا خاطبنا بلسان عربي مبين.

يقول: (لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ الْمُتَكَلِّمُ أَعْلَمَ الْخَلْقِ بِمَا يَقُولُ وَأَفْصَحَ الْخَلْقِ فِي بَيَانِ الْعِلْمِ وَأَنْصَحَ الْخَلْقِ فِي الْبَيَانِ وَالتَّعْرِيفِ وَالدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ) هذا فيما يتعلق بالمروي عن النبي عليه الصلاة والسلام، فيما يرويه عن ربه، ويضيفه إلى ربه سبحانه وتعالى، قال عليه الصلاة والسلام: «ينزل الله،

ضحِك ربنا،

حتى يضع عليها قدمه..» إلى غير ذلك..

فهذا المتكلم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه في وصْف الرب سبحانه: هو أعلم الخلق بالله، وأفصح الخلق، وأنصح الخلق؛ ثلاث هي التي ذكر الإسلام في هذا المقام، وهي إلزامات قوية جداً في هذا الباب، ونافعة في تقرير الحق، وردِّ كل باطل، يعني: - خذها فائدة ثمينة هنا-: لا يقول مُبطِل باطلاً يتعلق بالمروي

عن النبي ﷺ أو بمخالفة المروي عن النبي ﷺ، أو بتقرير شيء من البدع، أو نحو ذلك، إلا وتستطيع أن ترد عليه بهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام.

فهي أمور ثلاثة عظيمة جداً، ونافعة في مقام المناظرة والرد على المُعطِّلة، والمبتدعة عموماً.

أُمَثِّل لكم هذا بمثال واضح حتى يستطيع طالب العلم، أو يعرف طالب كيف يستفيد من هذه القاعدة، عندما يقول قائل من أولئك المعطِّلة كلاماً لا أثارة عليه من علم، ولا وجود له في الكتاب والسُّنة، وإنما هو من إنشاء العقول والمقاييس العقلية كما عرفنا ذلك مُسبَقاً، وأن المقاييس العقلية هي المُحكَّمة عندهم، وتريد أن ترد عليه في ضوء هذا التقعيد الذي ذكره؛

تسأله أولاً: تقول: هذا الكلام الذي الآن تقوله أنت، هل علمه الرسول عليه الصلاة والسلام، أو لم يعلمه؟ قل له: أجبني! هل علمه النبي عليه الصلاة والسلام أو لم يعلمه؟

إن قال: لم يعلمه؛

فبطلان ما هو عليه ظاهر؛ لأنه ادّعى لنفسه علماً أعظم من علم الرسول عليه الصلاة والسلام في أعظم الأمور، التي هي صفات الله ﷻ.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن أتقاكم لله، وأعلمكم بالله أنا».

فإذا قال: لم يعلمه؛ قال قولاً شنيعاً عظيماً منادياً على صاحبه بفساد عقله ورأيه، وبطلان ما هو عليه.

فإن قال: بل علمه، إن قال لك: بل علمه، علم ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام، تنتقل معه للنقطة الثانية..

تقول له: علمه! هل كان قادراً على الإفصاح عنه، وبيانه بالمقدرة التي أنتم عليها في هذا البيان لهذا الأمر؟ هل قادراً على الإفصاح عنه وبيانه، أو ليس قادراً على ذلك؟

إن قال: ليس قادراً على الإفصاح، لم يكن قادراً على الإفصاح عن ذلك وبيانه؛ أيضاً.. عاد للباطل الأول بادّعاء أن عنده قُدرة على البيان والإفصاح ما ليس عند الرسول، وكفى بذلك دليلاً على فساد ما هو عليه، وبُطلان ما يعتقد.

فإن قال: بل هو قادر على الإفصاح على بيانه، قال لك: أنا أُقِرّ بأن النبي علم هذا الذي نقوله، وأيضاً قادر على الإفصاح على بيانه، الإفصاح في إيضاحه وبيانه.. تنتقل معه للنقطة الثالثة، وهي: النُّصح؛

فتقول له: علمه النبي ﷺ وقدر على بيانه، هل بيّنه أو لم يبينه؟ عنده علم به وعنده قدرة على بيانه هل بيّنه أم لم يُبينه؟

إن قال: (علمه وقادر على بيانه ولم يبينه) طعن في ماذا؟

طعن في نُصحه.

الأول طعن في العلم، والثاني طعن في القدرة..الإفصاح، والثالث طعن في النُّصح.

فإن قال: (علمه وكان قادراً على بيانه، ومع ذلك لم يبينه)..

تقول له: هذا طعن في نُصح النبي عليه الصلاة والسلام، وهو أنصح الخلق في بيان الحق.

والله يقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨]..

إن قال لك: بل علم، وكان قادراً على الإفصاح والبيان، وكان ناصحاً أيضاً للخلق، أنا هذه الأمور الثلاثة- يقول- أُقِرّ بها، ماذا تقول له؟

ها هي سُنته محفوظة، وأحاديثه مروية بالأسانيد الصحاح الثابتة، أَخْرِج لنا من دواوين السُّنة ما يُثبت أن النبي ﷺ قاله..

وبهذه الخطوات الثلاث العظيمة جداً تستطيع تُبطِل أي باطل، ليس فقط في باب الصفات، يعني مثلاً: بدعة من البدع المُحدَثة وتريد أن تُلزِم هذا الذي يقول بها إلزاماً لا محيد عنه ولا فكاك منه:

تقول له: هذه البدعة التي أنت تفعلها الآن هل كان النبي يعلمها أو لا؟

إن قال: (لم يعلمها) زعم لنفسه من الدين ما لا يعلمه النبي عليه الصلاة والسلام.

فإن قال: (لا. بل كان يعلمها) تنتقل إلى:

الخطوة الثانية: هل كان قادراً على البيان أو ليس قادراً على بيانها؟

فإن قال: (عالمها، وكان قادراً على بيانها) تنتقل:

للثالثة: هل بيّنها أو لا؟

إن قال: (لم يُبينها) طعن في نُصحه عليه الصلاة والسلام.

وإن قال: (بل بيّنها)، قل له: هات من أحاديثه ما يدل على ذلك.

ابن القيم- راجعوا في «الصواعق المرسلة»- مناظرة جميلة جداً بينه وبين أحد النصارى بنفس الطريقة هذه، وبهذا أيضاً تعلم أن هذه الأمور الثلاثة حتى صالحة في رد الأديان الباطلة، ليس فقط فيما يتعلق بالمذاهب، والعقائد الباطلة التي تنتسب للإسلام، بل أيضاً في الأديان الباطلة.

فكانت بينه وبين أحد النصارى مناظرة، وانتهت بانقطاع النصراني، ولم يستطع أن يتكلم، وقال: حدِّثنا في غير هذا، يعني: حدِّثنا في موضوع آخر، لم يستطع أن يتكلم، كله من خلال هذه النقاط الثلاثة.

أقول ذلك تأكيداً على ضبطها، وفهمها، فإنها نافعة لك جداً يا طالب العلم في هذا الباب- أعني: باب الرد على المُبطِلة- أياً كان باطلهم.

ثم قال: (وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَ ذَلِكَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي نَفْسِهِ اَلْمُقَدَّسَةِ اَلْمَذْكُورَةِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ فَكَمَا يُتَيَقَّنُ أَنَّ اَللَّهَ سُبْحَانَهُ لَهُ ذَاتٌ حَقِيقِيَّةٌ وَلَهُ أَفْعَالٌ حَقِيقِيَّةٌ فَكَذَلِكَ لَهُ صِفَاتٌ حَقِيقِيَّةٌ وَهُوَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٍ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ)؛

وهذا الإثبات مُستمَد من الآية الكريمة التي يشير إليها رحمه الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى:١١]، وهذا يتناول تَنَزُّه الله ﷻ عن المشابِه والمثيل لا في الذات، ولا في الصفات، ولا في الأفعال، له ذات لا كالذوات، وله صفات لا كالصفات، وله أفعال ﷻ لا كالأفعال.

(وَكُلُّ مَا أَوْجَبَ نَقْصاً أَوْ حُدُوثاً فَإِنَّ اَللَّهَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ حَقِيقَةً فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْكَمَالِ اَلَّذِي لَا غَايَةَ فَوْقَهُ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ اَلْحُدُوثُ لِامْتِنَاعِ اَلْعَدَمِ عَلَيْهِ وَاسْتِلْزَامُ اَلْحُدُوثِ سَابِقَةُ اَلْعَدَمِ وَلِافْتِقَارِ اَلْمُحْدَثِ إِلَى مُحْدِثٍ وَلِوُجُوبِ وَجُودِهِ بِنَفْسِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى)؛

أحد المعاصرين لابن تيمية كتب رسالة قصيرة في الرد على ابن تيمية في الحموية، وتجنى فيها على شيخ الإسلام، وتكلّف في الرد تكلُّف مَنْ لم يفهم كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، لكنني أردت أن أُشير إلى إحدى النقاط التي ردَّ بها، أو ناقش فيها شيخ الإسلام..

لما جاء إلى هذا الموضع قال- وهو يرد على ابن تيمية، ويناقش ابن تيمية، ويُرِد أقوال لابن تيمية- جاء إلى هذا الموضع ونقل من قوله- من قول ابن تيمية- قال الإمام أحمد..

يقول ذلك الشخص الذي رد، يقول: وقد نقل- يعني: ابن تيمية- نقلاً عظيماً عن الإمام أحمد، نقل نقلاً عظيماً لو أنه اكتفى به لكان كافياً، ثم نقل من (قال الإمام أحمد..) إلى نهاية كلام ابن تيمية هذا، كله كان يظنه من كلام الإمام أحمد، كله كان يظن أنه من كلام الإمام أحمد.

ثم أثنى عليه ثناءً عظيماً، وقال: لو اكتفى بكلام الإمام أحمد لكان خيراً له، وما علم أنه أخذ يمدح كلام ابن تيمية نفسه.

كلام الإمام أحمد سطرين فقط وانتهى، وما عرف ذاك أن كلام الإمام أحمد انتهى، وأخذ ينقل إلى هنا، إلى هذا الموضع وقال: انتهى كلام الإمام أحمد، ولو أن ابن تيمية اكتفى بكلام الإمام أحمد هذا لكان خيراً له، وأخذ يُثني على كلام الإمام أحمد، وهو في الحقيقة كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، فأثنى على كلام مَنْ أراد الرد عليه ثناءً قوياً جداً، وقال: لو اكتفى به لكان خيراً له، وما علم أن هذا الكلام الذي أثنى عليه هو لشيخ الإسلام ابن تيمية، وأبى الله ﷻ إلا أن ينطقه في كتابه بثناء عظيم وتعظيم لكلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

وهذا من عجائب التوفيق الإلهي، والمَنّ الرباني ﷻ، ودفاعه عن أوليائه.

قال: (وَمَذْهَبُ ٱلسَّلَفِ بَيْنَ ٱلتَّعْطِيلِ وَبَيْنَ ٱلتَّمْثِيلِ) أي: وسط بين التعطيل والتمثيل، لأنهم قاعدتهم في الصفات: إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورى:١١].

قال: (فَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِ الله بِصِفَاتِ خَلْقِهِا كَمَا لَا يُمَثِّلُونَ ذَاتَهُ بِذَاتِ خَلْقِهِا وَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُا أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ فَيُعَطِّلُونَ أَسْمَائَهُ ٱلْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ العلياا وَيُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِا وَيُلْحِدُونَ فِي) أسمائه وصفاته، أي: أن مذهب أهل السُّنة مذهب وسط، فيه السلامة من التعطيل، وأيضاً السلامة من التمثيل، فهو إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، وسلّمهم الله ووقاهم من هاتين الآفتين (آفة التعطيل، وآفة التمثيل).

لكن تنبه لهذه الفائدة الثمينة الآتية:

قال: (وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ فَرِيقَيْ ٱلتَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ فَهُوَ جَامِعٌ بَيْنَ ٱلتَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ)؛ يعني صاحب السُّنة وقاه الله وسلّمه من التعطيل والتمثيل، والمُعطِّل- الذي مذهبه مذهب التعطيل- وقع في التعطيل، والتمثيل، والمُمَثِّل أيضاً وقع في التمثيل والتعطيل، وبيّن ذلك رحمه الله تعالى.

أما المُعطِّل فهو ممثل أيضاً، ممثل مرتين، المعطِّل ممثل مرتين؛ مرة قبل التعطيل، ومرة بعد التعطيل.

أما التي قبل التعطيل: فهو التمثيل الذي وقع فيه فبنى عليه تعطيلاً، مثلاً: اليد ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة:٦٤]، يقولون: لا تُثبَت اليد لله، لأنّا لو أثبتنا اليد للزم كذا؛ فهذا تمثيل سابق للتعطيل الذي وقعوا فيه.

ثم ينبني على هذا التعطيل تمثيل؛ لأنها إذا نُفيَت الصفات، إذا نُفيَت صفات الله فإن هذا يقتضي تمثيله، إما بالجمادات أو بالمعدومات أو بالممتنعات حسب نوع التعطيل الذي وقع فيه؛ ولهذا كل تعطيل محفوف بتمثيلين؛ تمثيل قبله وتمثيل بعده، هذا أمر لا انفكاك للمُعطِّل عنه؛ فكل مُعطِّل ممثل.

أيضاً الممثل واقع في التعطيل، وإذا كان المعطِّل ممثل مرتين، فإن الممثل مُعطِّل ثلاث مرات، يعني واقع **في ثلاث أنواع من التعطيل**:

أما الأول: فتعطيل الآيات الكثيرة في القرآن النافية للتمثيل، كقوله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص:٤]..

ونظائرها من الآيات.

وأما التعطيل الثاني: فتعطيل الآيات المُثبِتة للصفات تفصيلاً، الآيات المُثبتة للصفات تفصيلاً فهذه الممثل مُعطِّل لها لأنه لم يثبت المعنى الصحيح الذي دلت عليه الآيات، فهو مُعطِّل لتلك الآيات.

والتعطيل الثالث: أنه مُعطِّل للرب عن صفات كماله، مُعطِّل للرب ﷻ عن صفات كماله.

فالمُمثل مُعطِّل، وكل ممثل معطِّل، وكل مُعطِّل ممثل؛ هذا معنى قوله: (وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ فَرِيقَيْ اَلتَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ فَهُوَ جَامِعٌ بَيْنَ اَلتَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ).

قال: (أَمَّا اَلْمُعَطِّلُونَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا مِنْ أَسْمَاءِ الله وَصِفَاتِهِ إِلَّا مَا هُوَ اَللَّائِقُ بِالْمَخْلُوقِ ثُمَّ شَرَعُوا فِي نَفْيِ تِلْكَ اَلْمَفْهُومَاتِ) هذا هو الذي قلت لكم: التمثيل الذي سبق التعطيل، أنهم لم يفهموا من أسمائه وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق؛ إذاً هذا تمثيل سابق للتعطيل.

ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، (فَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَ اَلتَّمْثِيلِ وَالتَّعْطِيلِ مَثَّلُوا أَوَّلاً وَعَطَّلُوا آخِراً وَهَذَا تَشْبِيهٌ وَتَمْثِيلٌ مِنْهُمْ لِلْمَفْهُومِ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ بِالْمَفْهُومِ مِنْ أَسْمَاءِ خَلْقِهِ وَصِفَاتِهِمْ وَتَعْطِيلٌ لِمَا يَسْتَحِقُّهُ هُوَ سُبْحَانَهُ مِنْ اَلْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ اَللَّائِقَةِ بِالله).

أيضاً يتبع ذا- وهذا وضحه شيخ الإسلام في مواضع من كتبه- يتبع ذلك التعطيل أنهم مَثَّلوا، وهذا لم يُشَر إليه هنا، يتبع ذلك أنهم مَثَّلوا بعد التعطيل، يعني بعد أن عطَّلوا وقعوا في التمثيل؛ إما بالجماد، أو المعدوم، أو الممتنع، حسب نوع التعطيل الذي وقعوا فيه.

قال: (فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ الْقَائِلُ: لَوْ كَانَ اللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ لَلَزِمَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَكْبَرَ مِنْ الْعَرْشِ أَوْ أَصْغَرَ أَوْ مُسَاوِياً وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْكَلَامِ)؛

هذه اللوازم التي يذكرونها- وما أكثرها في كتبهم!- كلها مبنية على لوثة التمثيل التي أُصيب بها هؤلاء، وإذا كان في طب الأبدان عندما يريد الطبيب المتقِن لعمله أن يداوي مريضاً تجده يُجرِي فحوصات كثيرة جداً ليصل إلى ماذا؟

ليصل إلى الجرثومة، أو الأساس، أساس المرض الذي نشأت عنه أنواع من الأمراض في بدن ذلك المريض، فيبحث عنها ويعالجها، هذا المرض الذي عند هؤلاء أساسه ومنبعه ومبدؤه لوثة التشبيه التي قامت في نفوسهم، لولا أن القوم لم يُشبهوا ويمثلوا لما وقعوا في تلك الأمور التي وقعوا فيها، فتلوثت نفوسهم بالتشبيه والتعطيل ولم يفهموا من الآيات والأحاديث إلا أنها دالة على التمثيل والتشبيه، فأرادوا بزعمهم أن يتخلصوا من هذا التشبيه والتمثيل الذي دلت عليه الآيات حسب- ماذا؟- حسب ما قام في نفوسهم لسوء الفهم ولوثة التشبيه التي قامت فيهم، فأرادوا أن يفروا من ذلك فعطّلوا الآيات عن مدلولها، وعطّلوا الرب ﷻ عن صفات كماله.

قال: (وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْكَلَامِ فَإِنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ مِنْ كَوْنِ الله عَلَى الْعَرْشِ إلَّا مَا يَثْبُتُ لِأَيِّ جِسْمٍ كَانَ عَلَى أَيِّ جِسْمٍ كَانَ وَهَذَا اللَّازِمُ تَابِعٌ لِهَذَا الْمَفْهُومِ)؛ إذاً هو يتحدث في فهمه للآيات بناءً على ماذا؟

بناءً على لوثة التشبيه التي سيطرت عليه، يعني لما يتحدث عن الاستواء يتحدث عنه وهو يتخيل الأشياء التي أمامه، مستوي شيء على شيء، يعني مثل مثلاً في القرآن: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ١٣﴾ [الزخرف:١٣] الضمير يعود على ماذا؟ الفلك أو الأنعام؟ أو هما معاً؟

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢﴾ [الزخرف:١٢]

﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ١٣﴾ [الزخرف:١٣]؛

ظهور الفلك والأنعام.

فاستواء الراكب على الفلك أو على الأنعام هو بصعوده، وعلوه، وارتفاعه، وكونه فوق الدابة، أو فوق الفلك؛ هذا هو الاستواء.

فلما تكلم هؤلاء في هذه الصفة قاسوا الله تعالى- وتقدَّس عمّا يقولونه علواً عظيماً- بالاستواء الذي يعرفونه، ويعاينونه ويشاهدونه، فشبهوا الله بخلقه فوجدوا أنهم مضطرين إلى أن يُنزِّهوا الله عن ذلك، فقالوا: الاستواء ليس المراد به العلو والارتفاع، وإنما المراد به كيت وكيت.. من التأويلات التي جاءوا بها.

حتى إنهم خالوا- وهذا موجود في كثير من كتبهم- قالوا: يلزم من استواء الله على العرش حقيقةً أن يكون الله محتاج للعرش، لماذا تقولون هذا؟

قالوا: لأنّا لا نعقل استواء شيء على شيء إلا عن حاجة إلى المستوى عليه، لا نعقل ذلك..

انظر يقولون في كل الأشياء التي تستوي على شيء آخر تكون محتاجة إليه؛ الذي يستوي على الفلك لو غرق الفلك ماذا؟ يغرق، والذي يستوي على دابة لو تسقط الدابة يسقط، فلا نعقل- يقولون-: استواءً إلى عن حاجة.

فلما لم يفهم القوم في صفات الله ﷻ إلا ما يفهمونه من الشاهد الذي يرونه لجئوا حينئذٍ إلى ماذا؟ إلى التعطيل، قالوا: الله مُنزَّه عن الحاجة، لا نثبت الاستواء- يقولون-، الله مُنزَّه عن الحاجة.

من أين لكم أن استواء الله على العرش عن حاجة إلى العرش؟! من أين لكم ذلك؟

لولا أنكم شبهتم الله بخلقه فجاء في نفوسكم، وجال في صدوركم هذا المفهوم، من أين لكم أن استواء الله على العرش عن حاجة للعرش إلا أنكم قستم الله جل وعلا بخلقه، ولله المثل الأعلى ﷻ.

فبناءً على هذا القياس الفاسد.. قد قال السلف: لا يقاس بخلقه، لما وقعوا في هذا القياس الفاسد الباطل لجئوا إلى تعطيل الاستواء.

والله جل وعلا مستو على العرش وغني عن العرش وما دونه؛ ولهذا من جمال جمْع ابن تيمية رحمة الله عليه لآيات الصفات في كتاب «الواسطية» لما جاء بالآيات التي تتعلق بالاستواء أتبعها بآيات فيها غنى الله عن المخلوقات، مثل قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١]؛ فالله ﷻ هو الممسك للعرش وللسموات، ولجميع المخلوقات..

﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرعد:٣٣]

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥] قائم بنفسه، ومُقيم لخلقه، وغني عن خلقه ﷻ.

فالشـاهد؛ أن هؤلاء لما قالوا في.. أو لما فهموا من الصـفات ما لا يُفهَم إلا من صـفة المخلوق بنوا على ذلك تعطيل صفات الرب سبحانه.

هذا معنى قوله: (فَإِنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ مِنْ كَوْنِ الله عَلَى اَلْعَرْشِ إِلَّا مَا يَثْبُتُ لِأَيِّ جِسْـمٍ كَانَ عَلَى أَيِّ جِسْـمٍ كَانَ وَهَذَا اَللَّازِمُ تَابِعٌ لِهَذَا اَلْمَفْهُومِ) هذا اللازم- أي الفاسد الذي يقول: يلزم كذا وكذا تابع لهذا المفهوم.

إذاً لما قالوا: لو كان الله فوق العرش للزم كذا؛ قولهم (للزم كذا) هل هذا اللازم يلزم ما دلت عليه الآية؟

أبداً، وإنما يلزم الفهم الفاسد الذي فهموه، هذا لازم للفهم الفاسـد الذي فهموه هؤلاء، أما الآية لا يلزم... الإلزام هذا لا يرد على الآية، وإنما يرد هذا الإلزام على الفهم الفاسـد الذي فهموه، وهو قياس لله تبارك تعالى بخلقه، والسـلف قديماً حذّروا من هذا القياس أشـد التحذير لما فيه من خطورة وجناية على عقيدة الإنسان، وحَرْفٍ لها عن الحق والهُدى.

فإذاً لما يقول هؤلاء: يلزم من إثبات كذا كذا، عندما يقول هؤلاء: يلزم من إثبات كذا كذا؛ يكون هذا مبني الإلزام على الفهم الفاسد، ولهذا تأمل كلمة شيخ الإسلام!

يقول: (وَهَذَا اَللَّازِمُ) أي: الذي ذكروه (تَابِعٌ لِهَذَا اَلْمَفْهُومِ) أي: الفاسد الذي وقعوا فيه.

حَرِّر العبارة حتى ما... يعني (وَهَذَا اَللَّازِمُ) أي: الذي ذكروه (تَابِعٌ لِهَذَا اَلْمَفْهُومِ) الفاسـد الذي وقعوا فيه.

أما الآية وما دلت عليه من معنى حق فلا يرد عليها هذا اللازم الذي ذكروه.

ولهذا يقول: (أَمَا اِسْـتِوَاءٌ يَلِيقُ بِجَلَالِ الله وَيَخْتَصُّ بِهِ فَلَا يَلْزَمُهُ شَيْءٌ مِنْ اَللَّوَازِمِ اَلْبَاطِلَةِ اَلَّتِي يَجِبُ نَفْيُهَا)..

مرة ثانية، يقول: (أَمَا اِسْـتِوَاءٌ يَلِيقُ بِجَلَالِ الله وَيَخْتَصُّ بِهِ فَلَا يَلْزَمُهُ شَيْءٌ مِنْ اَللَّوَازِمِ اَلْبَاطِلَةِ اَلَّتِي يَجِبُ نَفْيُهَا)؛

إذاً تلك اللوازم الباطلة تلزم تلك المفاهيم الفاسـدة، فصـار القوم سـبحان الله يفهمون فهوماً فاسـدة، ويوردون عليها إيرادات ولوازم فأصـبحوا يخبطون عشـواء، وهم ببُعد ومعزل عن الكتاب والسُّنة وما دلَّ عليه.

ومَنْ أكرمه الله بوضـــوح الأمر له يجد أن فعلاً القوم يخبطون خبط عشـــواء، وهم بعيدون عن الآية، يتكلم بزعمه عن معنى الآية، لكنه بعيد عنها وعن ما دلت عليه، ويورد إيرادات، وينتقد انتقادات، ويذكر لوازم، ويجيب عنها، ويتأول بتأويلات وهو أصـــالةً بعيد عن الآية وعن ما دلت عليه، ولو سَــلِم أولاً من الآفة التي تحدثنا- وهي آفة التمثيل- لَسَــلِم من ذاك الركام الكبير الذي انبنى على اللوثة الأولى التي هي لوثة التشبيه التي قامت في نفسه.

ومثلهم مَثَل الذي يفر من الرمضاء بالنار، يعني.. الرمضاء هي لوثة التشبيه التي قام بها، ثم بدأ يخبط في أمور كثيرة جداً فراراً من التمثيل الذي قام في نفســـه، أما النص فإنه لا يدل إطلاقاً لا من قريب ولا من بعيد على التمثيل.

يقول: (وَصَارَ هَذَا مِثْلَ قَوْلِ الْمُمَثِّلِ: إذَا كَانَ لِلْعَالِمِ صَانِعٌ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ جَوْهَراً أَوْ عَرَضاً وَكِلَاهُمَا مُحَالٌ: إذ لاَ يُعْقَلُ مَوْجُودٌ إلَّا هَذَانِ) يعني: إما جوهر أو عرض؛

الجوهر: ما يقوم بنفسه.

والعرض: ما لا يقوم إلا بِغَيْرِه.

(وَكِلَاهُمَا مُحَالٌ: إذ لاَ يُعْقَلُ مَوْجُودٌ إلَّا هَذَانِ أَوْ قَوْلِهِ: إذَا كَانَ مُسْتَوِياً عَلَى الْعَرْشِ فَهُوَ مُمَاثِلٌ لِاسْتِوَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَى السَّرِيرِ أَوْ الْفُلْكِ إذْ لاَ يُعْلَمُ- أو: لا يَعلم- الِاسْتِوَاءُ إلَّا هَكَذَا)؛ هذا الآن الذي يقوله هؤلاء- ينقله شيخ الإسلام عنهم- (لا يُعقَل الاستواء على العرش إلا كالاستواء.. استواء الإنسان على السرير، على الفلك) مبني على ماذا؟

مبني على أنهم لم يفهموا من الصـــفات المضـــافة إلى الله إلا مثل ما يفهمونه من الصـــفات المضـــافة إلى المخلوقين، ودائماً إذا قرءوا آيات الصفات ينقدح في ذهنهم التشبيه مباشرة، ثم يفكرون بعد ذلك بالتأويل.

أذكر مرة كنت جالس قديم مع رجل من المبتلين بالكلام وعلم الكلام الباطل، وكنا نتحدث في بعض الأمور فقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ ١٠﴾ [الفتح:١٠] هذه جارحة- هكذا فعل- ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ ١٠﴾ [الفتح:١٠] هذه جارحة، يده قدرته، قال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ ١٠﴾ [الفتح:١٠] هذه جارحة، يده: قدرته.

الآن لما كان يقرأ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ ١٠﴾ [الفتح:١٠] ما الذي في ذهنه؟

يده، يمسك يده، يمسكها هكذا ويقول: هذه جارحة، ويمسك بيده، يد نفسه، ثم قال: يده: قدرته؛ إذاً كلمة (يده: قدرته) تأويل اليد بالقدرة مبني على هذا الذي قام في نفسه هو أن اليد هي الجارحة، واليد هي هذه التي نراها ونعقلها، ولا يجوز أن نثبت لله يد كأيدينا، ولم يفهم من الآية إلا هذا، فأَوّلها بالقدرة فراراً من هذا التمثيل.

قلت له فوراً: لماذا تُشَبه الله بخلقه؟

قال: لا. أنا لا أُشَبه..

قلت له: أنت تُشبه الله بخلقه، والله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١]، ويقول: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥]، أنت تقرأ آية فيها صفة الله وتمسك يد نفسك، وبناءً على فهْمك لليد بهذا المعنى الذي هو تشبيه صريح لجأت إلى التأويل لليد بالقدرة.

قلت: أما أهل الحق لما يقرءون هذه الآية- وحاشاهم ثم حاشاهم- لا يخطر ببالهم هذه اليد، وكيف- سبحانه الله!- تخطر بالبال هذه اليد إلا في قلبه مَنْ لم يقدر الله حق قدره؟!..

وتأمل هذا المعنى في قول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧] مَنْ هذا الذي يقرأ اليد المضافة إلى الله في القرآن ولا يفهم منها إلا اليد التي يراها ويشاهدها إلا مَنْ لم يقدر ربه ﷻ حق قدره، سبحانه وتعالى عما يصفون..

﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات:١٨٠]

﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات:١٨١]

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات:١٨١]

فإذاً هذه كلها مبنية على تلوث هؤلاء القوم بتشبيه الله ﷻ بخلقه، (إِذَا كَانَ مُسْتَوِياً عَلَى اَلْعَرْشِ فَهُوَ مُمَاثِلٌ لِاسْتِوَاءِ اَلْإِنْسَانِ عَلَى اَلسَّرِيرِ أَوْ اَلْفُلْكِ إِذْ لاَ يُعْلَمُ اَلِاسْتِوَاءُ إِلَّا هَكَذَا فَإِنَّ كِلاَهُمَا مَثَّلَ وَكِلاَهُمَا عَطَّلَ حَقِيقَةَ مَا وَصَفَ اَللهُ بِهِ نَفْسَهُ)..

(وَامْتَازَ اَلْأَوَّلُ بِتَعْطِيلِ كُلِّ مُسَمَّى لِلِاسْتِوَاءِ اَلْحَقِيقِيِّ وَامْتَازَ اَلثَّانِي بِإِثْبَاتِ اِسْتِوَاءٍ هُوَ مِنْ خَصَائِصِ اَلْمَخْلُوقِينَ)؛ الثاني: الذي مرَّ كلامه قريباً.. (إِذَا كَانَ مُسْتَوِياً عَلَى اَلْعَرْشِ فَهُوَ مُمَاثِلٌ لِاسْتِوَاءِ اَلْإِنْسَانِ عَلَى

اَلسَّرِيرِ) فهذا الثاني امتاز بإثبات استواء هو من خصائص المخلوقين، ثم بزعمه أراد أن يُنزِّه الله تبارك وتعالى عن ذلك.

ثم قال رحمه الله: (وَالْقَوْلُ اَلْفَاصِلُ: هُوَ مَا عَلَيْهِ اَلْأُمَّةُ اَلْوَسَطُ) القول الفاصل: أي في هذا الباب، هو ما عليه الأمة الوسط: أي أهل السُّنة والجماعة..

(مِنْ أَنَّ اَللَّهَ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ اِسْتِوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَيَخْتَصُّ بِهِ فكَمَا أَنَّهُ مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُثْبَتَ لِلْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ خَصَائِصُ اَلْأَعْرَاضِ اَلَّتِي كَعِلْمِ اَلْمَخْلُوقِينَ وَقُدْرَتِهِمْ فَكَذَلِكَ هُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ اَلْعَرْشِ)؛ يعني القول في الاستواء الذي تأوَّله هؤلاء كالقول في العلم، الله العلم ثابت له، ومُختص به، ويليق بجلاله، علم لم يُسبَق بجهل، ولا يلحقه نسيان، وعلم محيط بكل شيء، علم يختص بالله ﷻ.

لو قال قائل: يلزم من إثبات العلم حقيقة لله أن يكون علمه كعلم المخلوق.

أو لو قال قائل: يلزم من إثبات الحياة حقيقة لله للزم من ذلك أن يكون حياته كحياة المخلوق.

ماذا يقول أولئك لو قلت لهم هذا الكلام؟

لو قلت له- إن كان ممَّنْ يُثبت الحياة أو يُثبِت العلم- لو قلت له: لو قيل لك: يلزم من إثبات الحياة حقيقة أن تكون كحياة المخلوق؛ لأنّا لا نعقل حياةً إلا هذه التي نشاهدها، هذا لفظهم الذي بنَصِّه عطّلوا ماذا؟

عطَّلوا الاستواء.

هذا نَصُّ كلامهم الذي عطَّلوا به الاستواء.

فلو قيل له في الحياة التي يُثبتها نفس الكلام الذي قاله في الاستواء، لو قيل له: يلزم من إثبات الحياة حقيقة أن تكون الحياة كحياة المخلوق، لأنّا لا نعقل ولا نُشاهد إلا هذه الحياة، حياة المخلوق، ماذا سيقول؟

سيقول: لا. هذه حياة الله تختص به، وحياة المخلوق تختص به، ولا تقيس حياة المخلوق بحياة الخالق.

قل له الكلام الذي أنت تقوله الآن في الحياة هو الذي نقوله في الاستواء وفي كل الصفات، القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر؛ لأن باب الصفات واحد، باب متماثل القول فيه واحد، فما يقال في صفة يقال في جميع الصفات؛

هذا معنى كلامه رحمه الله تعالى حيث يقول: (وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُثْبَتَ لِلْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ خَصَائِصُ اَلْأَعْرَاضِ اَلَّتِي كَعِلْمِ اَلْمُخْلُوقِينَ وَقُدْرَتِهِمْ)؛ بمعنى أنه لو قال قائل: يلزم من القدرة كيت وكيت من نظائر الإلزامات أو اللوازم التي يذكرونها في الاستواء أو غيره من الصفات فكذلك هو سبحانه فوق العرش ولا يُثْبَت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق وملزوماتها..

يعني كما أنه لا تُثْبَت خصائص علم المخلوق، ولا تُجعَل لازمة لعلم الخالق، فكذلك أيضاً قل في هذا الباب، وهذا يُنبّه فيه شيخ الإسلام على التمحيص في اللازم، لأن فهْم باب اللازم في الصفات أيضاً يستطيع من خلاله تفنيد كل باطل، لأن الصفة لها ثلاث اعتبارات:

اعتبار: من حيث إضافتها إلى الله.

واعتبار: من حيث إضافتها إلى المخلوق.

واعتبار: للصفة من حيث إطلاق الصفة، دون أن تضاف إلى الرب أو تضاف إلى المخلوق.

فهذه ثلاث اعتبارات للصفة، وكل اعتبار من هذه الاعتبارات الثلاثة له لوازمه؛

فمثلاً: نأخذ مثال الاستواء، الاستواء عند الإطلاق، عندما يقال: الاستواء دون أن يضاف إلى الرب، ودون أن يضاف إلى العبد، ما الذي يلزم ذلك؟ الاستواء.. عندما يقال: الاستواء، العلو، النزول، المجيء، ألفاظ هكذا تُطلَق دون أن تضاف إلى الرب أو تضاف إلى العبد، لازم ذلك إثبات المعنى الكلي الذي تتميز به هذه الألفاظ، أنت الآن لما يُقال: الاستواء، الرضا، الغضب، الرحمة، من حيث المعنى الكلي تميز بين مدلولاتها، أم أنها مختلطة عليك ولا تميزها؟ الاستواء، الغضب، الرضا، الرحمة، من حيث ما تدل عليه هذه من معنى، معنى كلي قائم في الأذهان..

عندما قال: الاستواء، الغضب، تدرك فرقاً بينهما، أو لا تدرك؟

إذاً لازم الصفة من حيث الإطلاق: إثبات المعنى الكلي الذي دلت عليه، الذي نعرف فيه التميز بين هذه الألفاظ، بين الاستواء، والرضا، والغضب، وغيرها.

الاعتبار الثاني: اعتبار الصفة من حيث إضافتها إلى الله، الصفة باعتبار إضافتها إلى الله يلزمها الكمال، فما يضاف إلى الله يخصه ويليق بجلاله وكماله وعظمته ﷻ؛

وهنا تأتي قاعدة في اللوازم: أن ما يلزم الصفة باعتبار إضافتها إلى الله سبحانه وتعالى لا يجوز أن يُجعَل لازماً للصفة نفسها باعتبار إضافتها إلى المخلوق، فالاستواء الذي يضاف إلى الله استواء يليق بجلاله

وكماله، وهو استواء عن غير حاجة، ويختص بالله ﷻ، فما يلزم الصفة من حيث إضافتها إلى الله ﷻ من كمال لا يجوز أن يضاف إلى الصفة عندما تضاف إلى المخلوق، الصفة نفسها عندما تضاف إلى المخلوق.

الاعتبار الثالث: اعتبار الصفة من حيث إضافتها إلى المخلوق، استواء المخلوق.. ماذا يلزم استواء المخلوق؟ استواء المخلوق ماذا يلزمه؟ عندما نقول: استوى زيد على الفلك، أو: استوى على الدابة، هذا الاستواء المضاف إلى المخلوق ماذا يلزمه؟

الحاجة، من لوازمه: الحاجة؛ بحيث لو غرقت الفلك لغرق، ولو سقطت الدابة لسقط، هذا لازم للصفة من حيث إضافتها إلى المخلوق.

وما يلزم الصفة باعتبار إضافتها إلى المخلوق لا يجوز إطلاقاً أن يُجعَل لازماً للصفة باعتبار إضافتها إلى الخالق.

مثلاً: لو قال لك قائل: إن استواء الله على العرش حقيقة يلزم منه احتياجه إلى العرش، هذا مبني على ماذا؟

خلط في اللوازم، جاء للازم- لازم الصفة باعتبار إضافتها للمخلوق- وجعله لازماً للصفة باعتبار إضافته إلى الخالق، وهذا هو موضع جناية هؤلاء، والفساد الطويل العريض الذي وقع فيه هؤلاء؛ خلطوا بين اللوازم.

ولهذا تجده يتحدث يقول: يلزم إن أثبتنا كذا: كذا وكذا، هذا الذي يقوله هو لازم للصفة باعتبار إضافتها إلى المخلوق، وليس لازماً للصفة إطلاقاً باعتبار إضافتها إلى الخالق ﷻ.

الكلام فيه دقة لكن أرجو أن يكون واضحاً، ويمكن أن تطالعوا في هذا القواعد التي ضمّنها ابن القيم، أو جمعها ابن القيم في كتابه «بدائع الفوائد» وأفردتها في جزء صغير، فيه عشرين قاعدة، أوردها ابن القيم رحمه الله في كتابه «بدائع الفوائد»، وطُبعت مُفرَدة في جزء صغير، وأيضاً لي عليها شرح صوتي مرتين، وهو محفوظ موجود، فهذه القاعدة مهمة جداً، والتقسيم الذي مر معنا من حيث اعتبارات الصفة الثلاثة مهمة جداً، وبيان ذلك وإيضاحه موجود في كتاب ابن القيم رحمه الله المشار إليه.

انتهى الوقت.

الله أعلم.. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الخامس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه «الفتوى الحموية الكبرى»:

وَاعْلَمْ أَنْ لَيْسَ فِي اَلْعَقْلِ اَلصَّرِيحِ وَلَا فِي اَلنَّقْلِ اَلصَّحِيحِ مَا يُوجِبُ مُخَالَفَةَ اَلطَّرِيقَةِ اَلسَّلَفِيَّةِ أَصْلاً لَكِنَّ هَذَا اَلْمَوْضِعَ لاَ يَتَّسِعُ لِلجَوَابِ عَنْ اَلشُّبُهَاتِ اَلْوَارِدَةِ عَلَى اَلحَقِّ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ شُبْهَةٌ وَأَحَبَّ حَلَّهَا فَذَلِكَ سَهْلٌ يَسِيرٌ.

ثُمَّ اَلْمُخَالِفُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَسَلَفِ اَلْأُمَّةِ -مِنْ اَلْمُتَأَوِّلِينَ لِهَذَا اَلْبَابِ- فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ؛ فَإِنَّ مَنْ يُنْكِرُ اَلرُّؤْيَةَ يَزْعُمُ أَنَّ اَلْعَقْلَ يُحِيلُهَا وَأَنَّهُ مُضْطَرٌّ فِيهَا إِلَى اَلتَّأْوِيلِ وَمَنْ يُحِيلُ أَنَّ لله عِلْماً وَقُدْرَةً وَأَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ غَيْرَ مَخْلُوقٍ وَنَحْوَ ذَلِكَ يَقُولُ: إِنَّ اَلْعَقْلَ أَحَالَ ذَلِكَ واضْطَرَّ إِلَى اَلتَّأْوِيلِ بَلْ مَنْ يُنْكِرُ حَقِيقَةَ حَشْرِ اَلْأَجْسَادِ وَالْأَكْلَ وَالشُّرْبَ اَلْحَقِيقِيَّ فِي اَلْجَنَّةِ يَزْعُمُ أَنَّ اَلْعَقْلَ أَحَالَ ذَلِكَ وَأَنَّهُ مُضْطَرٌّ إِلَى اَلتَّأْوِيلِ وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اَللهَ لَيْسَ فَوْقَ اَلْعَرْشِ: يَزْعُمُ أَنَّ اَلْعَقْلَ أَحَالَ ذَلِكَ وَأَنَّهُ مُضْطَرٌّ إِلَى اَلتَّأْوِيلِ.

وَيَكْفِيك دَلِيلاً عَلَى فَسَادِ قَوْلِ هَؤُلَاءِ أَنْ لَيْسَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ قَاعِدَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ فِيمَا يُحِيلُهُ اَلْعَقْلُ بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ اَلْعَقْلَ جَوَّزَ أَوْ أَوْجَبَ مَا ادَّعِي اَلْآخَرُ وأَنَّ اَلْعَقْلَ أَحَالَهُ.

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي بِأَيِّ عَقْلٍ يُوزَنُ اَلْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَرَضِيَ اَللهُ عَنْ اَلْإِمَامِ مَالِكٍ بْنِ أَنَسٍ رحمه الله تعالى حَيْثُ قَالَ: أَوَكُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا مَا جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِجَدَلِ هَؤُلَاءِ؟!

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

من هذا الموضع يبدأ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مع هؤلاء المتكلمين في نقض ما يدّعونه من أن العقل يُحيل إثبات الصفات التي نفوها، وادّعوا عدم ثبوتها لله تبارك وتعالى.

وبيّن رحمه الله أنهم في هذا (فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) وفي تناقض عظيم، وبعضهم يثبت الشيء وينفي نظيره، ويدّعي في نظيره الذي نفاه أن العقل يمنع ذلك، أو يحيل ذلك، أو يوجب نفي ذلك؛ فبيّن رحمه الله تعالى

اضطرابهم في هذا الباب.

وبيّن أيضـاً أولاً: أن الطريقة السـلفية- طريقة أهل السُّـنة والجماعة- ليس في العقل الصريـح، ولا في النقل الصـحيح ما يوجِب مخالفتها؛ لأنها طريقة واضـحة، ومبنية على الكتاب والسُّـنة، وليسـت تصـادم العقول السليمة، والأفكار أو الآراء السديدة القويمة، فليس في هذه العقيدة ما ينافي هذا أو ذاك.

بينما مَنْ خـالف أهـل السُّــنة والجماعـة فَهُم في هـذا البـاب (فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) كما قـال رحمه الله تعـالى: (اَلْمُخَالِفُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَسَلَفِ اَلْأُمَّةِ-مِنْ اَلْمُتَأَوِّلِينَ لِهَذَا اَلْبَابِ- فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ).

ثم بيّن أمثلة على ذلك، يعني مثلاً: مَنْ يُنكِر الرؤية- أن الله يُرَى ﷻ- مَنْ يُنكِر ذلك يقول: (أَنَّ اَلْعَقْلَ يُحِيلُهَا وَأَنَّهُ مُضْطَرٌّ) في ذلك إلى التأويل.

وكذلك كل مُبطِل ينفي شـيئاً ثابتاً في الكتاب والسُّـنة يدّعي ذلك، ولم يقف هذا عند حد؛ يعني أقوام نفوا الصــفات بحجة أن العقل يحيل ذلك، وأقوام آخرون نفوا المغيبات- نعيم الجنة، وعذاب النار، وتفاصــيل النعيم، إلى غير ذلك- نفوها بحجة أن العقل لا يقبل ذلك، بل وُجِد مَنْ نفى الأعمال التي أُمرنا بها شرعاً، وتُعُبِّدنا بالتقرب إلى الله ﷻ بها، كما هي حال الباطنية القرامطة، وأَوَّلوها إلى رموز، مجرد رموز، مَنْ أتى بتلك الرموز فإنه عندهم قد أتى بالشيء الذي أُمِرَ به في هذه الآيات.

فلما ادّعى هؤلاء هذه الدعوى الفجة العريضة- أن العقل يحيل ذلك- ركبوا مطية التأويل.

ولهذا قيل: إن التأويل مطية كل صـاحب ضـلالة؛ لأن صـاحب الضـلالة عندما تتعارض آيات القرآن، أو أحاديث الرسـول عليه الصـلاة والسـلام مع ما يعتقده أو مع ما توصـل إليه بفكره وعقله يركب مطية التأويل، فيصرـف تلك المعاني أو الدلالات في تلك الآيات المعارضـة لما يعتقده يصرـفها عن ظاهرها راكباً هذه المطية- مطية التأويل-.

ونقل رحمه الله تعالى في هـذا السـياق كلمة عظيمة جداً عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى؛ حيث قال: (أَوَكُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا مَا جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِجَدَلِ هَؤُلَاءِ)؟! لأن الأمور لو كانت تُوزَن بالعقل، فمن المعلوم أن العقول متفاوتة ومتباينة، وليست على عقل رجل واحد؛ بل بينها تفاوت وتباين.

فإذا قيل: إن الأمور تُوزَن بالعقل، يقال: عقل مَنْ هذا الذي تُوزَن به الأمور؟؛ إذ العقول ليسـت على عقل رجل واحد، مثلما قال السـلف قديماً- رواه اللالكائي وغيره- قالوا: لو كانت الأهواء هوى واحداً

لقيل: إنه الحق، ولكنها أهواء، قل مثل ذلك في العقل؛ لو كانت العقول عقلاً واحدا لقيل: إنه الحق؛ لكنها عقول.

فإذا قيل: إن الأمور تُوزَن بالعقل، يقال حينئذٍ: عقل مَنْ هذا الذي تُوزَن به الأمور؟

هناك عقول أفرزت عقيدة التجهم، وأفرزت عقيدة التعطيل، وأفرزت عقائد شتى، فمَنْ هذا الذي عقله تُوزَن به نصوص الكتاب والسُّنة؟.

ولهذا كلمة مالك رحمه الله تعالى كلمة عظيمة في هذا الباب: (أَوَكُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا) الكتاب والسُّنة لجدله؟!

لو كانت القضية قضية جدل بالعقول أصبح الناس في تَنَقُّل في أديانهم وعقائدهم؛ لأن كلما جاءهم رجل أجدل من الآخر انتقلوا إلى ما قرره الآخر بناءً لقوة جدله، وإذا جاءهم رجل آخر أيضاً أكثر وأعمق جدلاً منه انتقلوا معه إلى جدله.

وبهذا يُصبح الناس بسبب ارتباطهم بهذا الجدل الباطل العقيم في تَنَقُّل في أديانهم.

ولما ذمّ السلف قديماً هؤلاء، قالوا: إياكم والتنقل في الدين؛ والتنقل في الدين: ثمرة من ثمار جَعْل الدين عُرضة للخصومات، وقد قال السلف قديماً: مَنْ جعل دينه عُرضة للخصومات أكثر التنقل؛ أي: أكثر التنقل من دين إلى دين، وعقيدة إلى عقيدة، ورأي إلى رأي.. وهكذا..

وهذا معنى قول مالك هنا رحمه الله: (أَوَكُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا) الكتاب والسُّنة لجدله.

ثم بيّن رحمه الله تعالى أن أهل هذه الدعوة الذين هم يزنون الأمور بعقولهم المجردة مخصومون بوجوه كثيرة ذكرها رحمه الله تعالى.

قال رحمه الله:

وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَخْصُومٌ بِمَا خُصِمَ بِهِ اَلْآخَرُ وَهُوَ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: بَيَانُ أَنَّ اَلْعَقْلَ لَا يُحِيلُ ذَلِكَ.

اَلثَّانِي: أَنَّ اَلنُّصُوصَ اَلْوَارِدَةَ لَا تَحْتَمِلُ اَلتَّأْوِيلَ.

اَلثَّالِثُ: أَنَّ عَامَّةَ هَذِهِ اَلْأُمُورِ قَدْ عُلِمَ أَنَّ اَلرَّسُولَ ﷺ جَاءَ بِهَا بِالِاضْطِرَارِ كَمَا عُلِمَ أَنَّهُ جَاءَ بِالصَّلَوَاتِ اَلْخَمْسِ وَصَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ فَالتَّأْوِيلُ اَلَّذِي يُحِيلُهَا عَنْ هَذَا بِمَنْزِلَةِ تَأْوِيلَاتِ اَلْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ فِي اَلْحَجِّ وَالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَسَائِرِ مَا جَاءَتْ بِهِ اَلنُّبُوَّاتُ.

اَلرَّابِعُ: أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ اَلْعقْلَ اَلصَّرِيحَ يُوَافِقُ مَا جَاءَتْ بِهِ اَلنُّصُوصُ، وَإِنْ كَانَ فِي اَلنُّصُوصِ مِنْ اَلتَّفْصِيلِ مَا يَعْجزُ اَلْعَقْلُ عَنْ دَرْكِ تَفْصِيلِهِ، وَإِنَّمَا عَقْلُهُ مُجْملاً إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ اَلْوُجُوهِ، عَلَى أَنَّ اَلْأَسَاطِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَالْفُحُولَ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اَلْعَقْلَ لاَ سَبِيلَ لَهُ إِلَى اَلْيَقِينِ فِي عَامَّةِ اَلْمَطَالِبِ اَلْإِلَهِيَّةِ، وَإِذَا كَانَ هَكَذَا فَالْوَاجِبُ تَلَقِّي عِلْمِ ذَلِكَ مِنْ اَلنُّبُوَّاتِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ.

وَمِنْ اَلْمَعْلُومِ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اَللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ بِالْهُدَى وَدِينِ اَلْحَقِّ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى اَلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِالله شَهِيداً، وَأَنَّهُ بَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِنْ أُمُورِ اَلْإِيمَانِ بِالله وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ.

وَالْإِيمَانُ بِالله وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ يَتَضَمَّنُ اَلْإِيمَانَ بِالْمَبْدَأ وَالْمَعَادِ، وَهُوَ اَلْإِيمَانُ بِالْخَلْقِ وَالْبَعْثِ كَمَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة:٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾ [لقمان:٢٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۝٢٧﴾ [الروم:٢٧].

وَقَدْ بَيَّنَ اَللهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ مِنْ أَمْرِ اَلْإِيمَانِ بِالله وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ مَا هَدَى اَللهُ بِهِ عِبَادَهُ، وَكَشَفَ بِهِ مُرَادَهُ.

وَمَعْلُومٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَعْلَمَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ، وَأَنْصَحُ لِلْأُمَّةِ مِنْ غَيْرِهِ، وَأَفْصَحُ مِنْ غَيْرِه عِبَارَةً وَبَيَاناً، بَلْ هُوَ أَعْلَمُ اَلْخَلْقِ بِذَلِكَ وَأَنْصَحُ اَلْخَلْقِ لِلْأُمَّةِ وَأَفْصَحُهُمْ، وَقَدْ اِجْتَمَعَ فِي حَقِّهِ ﷺ كَمَالُ اَلْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ اَلْمُتَكَلِّمَ وَالْفَاعِلَ إِذَا كَمُلَ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ وَإِرَادَتُهُ: كَمُلَ كَلَامُهُ وَفِعْلُهُ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ اَلنَّقْصُ إِمَّا مِنْ نَقْصِ عِلْمِهِ وَإِمَّا مِنْ عَجْزِهِ عَنْ بَيَانِ عِلْمِهِ، وَإِمَّا لِعَدَمِ إِرَادَتِهِ اَلْبَيَانَ.

وَالرَّسُولُ ﷺ هُوَ اَلْغَايَةُ فِي كَمَالِ اَلْعِلْمِ، وَالْغَايَةُ فِي كَمَالِ إِرَادَةِ اَلْبَلَاغِ اَلْمُبِينِ، وَالْغَايَةُ فِي اَلْقُدْرَةِ عَلَى اَلْبَلَاغِ اَلْمُبِينِ، وَمَعَ وُجودِ اَلْقُدْرَةِ اَلتَّامَّةِ، وَالْإِرَادَةِ اَلْجَازِمَةِ: يَجِبُ وُجُودُ اَلْمُرَادِ، فَعُلِمَ قَطْعاً أَنَّ مَا بَيَّنَهُ مِنْ أَمْرِ اَلْإِيمَانِ بِالله وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ حَصَلَ بِهِ مُرَادُهُ مِنَ اَلْبَيَانِ، وَمَا أَرَادَهُ مِنَ اَلْبَيَانِ هُوَ مُطَابِقٌ لِعِلْمِهِ، وَعِلْمُهُ بِذَلِكَ هُوَ أَكْمَلُ اَلْعُلُومِ، فَكُلُّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ غَيْرَ اَلرَّسُولِ ﷺ أَعْلَمُ بِهَذَا مِنْهُ، أَوْ أَكْمَلُ بَيَاناً مِنْهُ، أو أَحْرَصُ عَلَى هدْيِ اَلْخَلْقِ مِنْهُ، فَهُوَ مِنَ اَلْمُلْحِدِينَ لَا مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ، وَالصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَ اَلسَّلَفِ هُمْ فِي هَذَا اَلْبَابِ عَلَى سَبِيلِ اَلِاسْتِقَامَةِ.

وَأَمَّا اَلْمُنْحَرِفُونَ عَنْ طَرِيقِهِمْ فَهُمْ ثَلَاثُ طَوَائِفَ: أَهْلُ اَلتَّخْيِيلِ، وَأَهْلُ اَلتَّأْوِيلِ، وَأَهْلُ اَلتَّجْهِيلِ.

هنا يذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بعض الوجوه التي بيّن من خلالها أن أولئك الذين يزعمون أن العقل هو الذي تُوزَن به هذه الأمور، وأنهم من خلاله علموا أنَّ- مثلاً- الصفات التي أُضيفت إلى الله في القرآن، أو أضيفت إليه في سُنة النبي عليه الصلاة والسلام يجب نفيها لأن العقل أحالها.

آخرون من الطوائف المنحرفة أتوا إلى نعيم الجنة وعذاب النار ونفوه، كل ما جاء من ذلك مُفصلاً في الكتاب والسُّنة نفوه، قالوا: العقل يحيل ذلك؛ فأصبحت القضية أمور كثيرة متنوعة تُنفَى في الكتاب والسُّنة يدّعي أولئك أن العقل يحيلها.

هنا يلاحظ أمر، من خلاله يتحدث شيخ الإسلام، أن بعض هؤلاء.. يعني مثلاً مَنْ ينفي الصفات ولكنه يُثبت المعاد والنعيم- نعيم الجنة- وعذاب النار.. إلى آخره، عندما يقول مَنْ يُنكِر نعيم الجنة بحجة أن العقل يُحيل ذلك ويتأَوَّله يَرُدّ عليه مَنْ ينفي الصفات بردود هي نفسها صالحة لأن تكون رداً عليه هو في نفيه للصفات.

وتأمل هذا في قول شيخ الإسلام هنا: (وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَخْصُومٌ بِمَا خَصمَ بِهِ اَلْآخَرُ) يعني تجد أنه يتصدى لطائفة أخرى تنفي أشياءً هو يثبتها، ولكنها تنفيها بالعقل فيَرُدّ عليه بردود هي نفسها صالحة لأن تكون ردّاً عليه فيما نفاه بحجة أن العقل يحيل ذلك.

وباب الغيبيات باب واحد، كلها يُؤمَن بها كما جاءت، وتُمَر كما وردت، ولا يُخاض فيها بالعقل المجرد.

قال: (وَهُوَ مِنْ وُجُوهٍ: أَحَدُهَا: بَيَانُ أَنَّ اَلْعَقْلَ لاَ يُحِيلُ ذَلِكَ) أي: كما زعمه هؤلاء، لا يحيل ذلك لا فيما يتعلق مثلاً بالصفات التي ادّعى هؤلاء أن العقل يحيل إثباتها، ولا أيضاً فيما يتعلق بنعيم الجنة، أو عذاب النار، أو غير ذلك.

فدعوى هؤلاء أن العقل يحيل ذلك دعوى غير صحيحة؛ فالنقل لم يأتِ إطلاقاً بما تحيله العقول، النقل لم يأتِ إطلاقاً- ولا في أمر واحد- بما تحيله العقول- يعني: بما يحكم العقل عليه بأنه مستحيل-، فالنقل لم يأتِ بما تحيله العقول، جاءت بمحارات العقول ولم يأتِ بما تحيله العقول- أي: ما تحكم العقول عليه بأنه مستحيل-.

(اَلثَّانِي: أَنَّ اَلنُّصُوصَ اَلْوَارِدَةَ لَا تَحْتَمِلُ اَلتَّأْوِيلَ) سواء تأويلات مُعطِّلة الصفات أو تأويلات الباطنية مُنكِرة نعيم الجنة وعذاب النار، فجميع التأويلات التي عند أهل البدع التي حَرَفوا بها النصوص عن ظواهرها ودلالاتها لا تحتمل تلك النصوص تلك التأويلات؛ بمعنى أنها باطلة، وجناية على النصوص

بصرْفها عن مرادها، وإبعادها عن مدلولها.

الأمر الثالث: (أَنَّ عَامَّةَ هَذِهِ ٱلْأُمُورِ قَدْ عُلِمَ أَنَّ ٱلرَّسُولَ ﷺ جَاءَ بِهَا بِالِاضْطِرَارِ كَمَا عُلِمَ أَنَّهُ جَاءَ بِالصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ وَصَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ فَالتَّأْوِيلُ ٱلَّذِي يُحِيلُهَا عَنْ هَذَا بِمَنْزِلَةِ تَأْوِيلَاتِ ٱلْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ فِي ٱلْحَجِّ وَالصَّوْمِ)؛

يعني الحج بأعماله المعروفة التي يعرفها كل مسلم عند القرامطة الباطنية إنما هو قصْد مشايخهم، الصوم إنما هو عندهم: حِفْظ أسرارهم!.. وهكذا؛ فهذه كلها تأويلات، وكلها صَرْف للنصوص عن ظاهرها.

فالذي يُؤوِّل الصلاة، أو يُؤوِّل الصيام على أن المراد به حِفْظ السر، ويُؤوِّل الحج بأنه قَصْد مشايخهم أو غير ذلك.. والذي يُؤوِّل آيات الصفات بأن المراد بها كيت وكيت مما هو ليس معناها ولا مرادها، كلها يجمعها بأنه تأويل باطل للنصوص وصرْف لها عن ظاهرها.

وإذا ردّ مثلاً المعتزلي على الباطني في تأويله لآيات الأوامر والنواهي ببيان بطلان تأويله يقال له: هذا الذي أنت تقوله له تُبطِل به تأويله لهذه الآيات هو عينه ينطبق على تأويلاتك لآيات الصفات، وبما رددت عليه في آيات الأوامر والنواهي نحن نردّ عليك في آيات الصفات؛ لأنها كلها باب واحد.

(ٱلرَّابِعُ: أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلصَّرِيحَ يُوَافِقُ مَا جَاءَتْ بِهِ ٱلنُّصُوصُ) يعني لا يتعارض، وفي هذا الباب كتب شيخ الإسلام كتابه الكبير «درء تعارض العقل والنقل»..

(أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلصَّرِيحَ يُوَافِقُ مَا جَاءَتْ بِهِ ٱلنُّصُوصُ وَإِنْ كَانَ فِي ٱلنُّصُوصِ مِنَ ٱلتَّفْصِيلِ مَا يَعْجَزُ ٱلْعَقْلُ عَنْ دَرْكِ تَفْصِيلِهِ وَإِنَّمَا عَقْلُهُ مُجْمَلًا) يعني هناك أمور طاقة العقل وقدرته لا تتمكن من إدراك ذلك تفصيلاً، لكنه من حيث الإجمال، والمعنى الإجمالي لذلك يُدركه.

اكتفى رحمه الله بهذه الوجوه الأربعة، قال: (عَلَى أَنَّ ٱلْأَسَاطِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَالْفُحُولَ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ ٱلْعَقْلَ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى ٱلْيَقِينِ فِي عَامَّةِ ٱلْمَطَالِبِ ٱلْإِلَهِيَّةِ) يعني لا سبيل للعقل المجرد أن يصل بالتقريرات العقلية إلى اليقين، وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام أعلنه فحول هؤلاء وأساطينهم وكبارهم.

وكنت نقلتُ لكم مرةً عن الغزالي أنه قال: والطريق إلى الحق من هذا الباب أو من هذا السبيل مسدود..

هذا معنى قول شيخ الإسلام أنه لا يمكن أن يصل إلى اليقين بالعقل المجرد، لا بد من الاعتماد الكامل على كتاب الله وسُنة نبيّه ﷺ.

(وَإِذَا كَانَ هَكَذَا فَالْوَاجِبُ تَلَقِّي عِلْمِ ذَلِكَ مِنَ ٱلنُّبُوَّاتِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ) وهذا الذي يُنال به اليقين؛

اليقين يُنال بالرجوع إلى ما جاء به الأنبياء.

ولو كان الأمر كما يدّعيه هؤلاء: أن اليقين يبلغه الإنسان بالعقل المجرد، إذاً ما الحاجة إلى بعثة الأنبياء؟، إذا كان العقل بنظره وتأمله ومقاييسه يمكن أن يصل إلى اليقين فإذاً ما الحاجة إلى بعثة الأنبياء؟، وإذا كان العقل يمكن أن يكون هو المُعوَّل والعمدة ليُعرَف به الحق والهدى، إذاً ما الفائدة من بعثة الأنبياء؟

وهذا المأخذ والملحظ قررّه أحد السلف بإلزام لهؤلاء، ونقل ذلك التيمي في «الحجة» قال: لازم مذهب هؤلاء، ولازم قول هؤلاء: أن يقول الواحد منهم: أشهد أن عقلي رسول الله!، يقول: هذا من اللوازم التي تلزم هؤلاء، إذا كان عقله هو الذي يبلغ به اليقين دون حاجة إلى الكتاب والسُّنة، وأنه يمكن أن يتوصل إلى اليقين بعقله، ولا يحتاج إن يرجع إلى الكتاب والسُّنة، إذاً من لازم ذلك أن يقول مثل هذا الكلام، وكفى بذلك دلالة على بطلان هذه الدعوى، دعوى أنه يمكن أن يصل الإنسان بالعقل المجرد إلى اليقين دون حاجة إلى الرجوع إلى الكتاب والسُّنة.

قال: (وَمِنْ اَلْمَعْلُومِ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اَللهَّ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ بِالْهُدَى وَدِينِ اَلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى اَلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِالله شَهِيداً وَأَنَّهُ بَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِنْ أُمُورِ اَلْإِيمَانِ بِالله وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ)، وكثيراً ما يأتي الجمع بين هذين الأصلين في النصوص، نصوص الكتاب والسُّنة، كثيراً ما يأتي الجمع بين هذين الأصلين: الإيمان بالله لأنه هو المقصود المعبود، المُلتجَأ إليه ﷻ، واليوم الآخر لأنه دار الثواب والجزاء.

قال: (وَقَدْ بَيَّنَ اَللهَّ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ مِنْ أَمْرِ اَلْإِيمَانِ بِالله وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ مَا هَدَى اَللهَّ بِهِ عِبَادَهُ وَكَشَفَ بِهِ مُرَادَهُ).

قال: (وَمَعْلُومٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ وَأَنْصَحُ لِلْأُمَّةِ مِنْ غَيْرِهِ وَأَفْصَحُ مِنْ غَيْرِهِ عِبَارَةً وَبَيَاناً بَلْ هُوَ أَعْلَمُ اَلْخَلْقِ بِذَلِكَ وَأَنْصَحُ اَلْخَلْقِ لِلْأُمَّةِ وَأَفْصَحُهُمْ وَقَدْ اِجْتَمَعَ فِي حَقِّهِ ﷺ كَمَالُ اَلْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ)؛

اجتمع في حقه كمال العلم؛ فهو أعلم الخلق بالله، كما في الحديث: «إن أتقاكم لله، وأعلمكم بالله أنا» فهو أعلم الخلق بالله.

وأيضاً كمال القدرة، اجتمع فيه عليه الصلاة والسلام كمال القدرة- أي: على الإفصاح والبيان وإيضاح الأمور وتجلية المعاني-.

والأمر الثالث: الإرادة، إرادة النفع وإيصال الخير والحرص على إفادة الناس؛ فكان عليه الصلاة

والسلام الأعلم، والأنصح والأفصح.

ومن (الْمَعْلُومُ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ وَالْفَاعِلَ إِذَا كَمُلَ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ وَإِرَادَتُهُ: كَمُلَ كَلَامُهُ وَفِعْلُهُ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ النَّقْصُ إِمَّا مِنْ نَقْصِ عِلْمِهِ أو مِنْ عَجْزِهِ عَنْ بَيَانِ عِلْمِهِ، وإِمَّا لِعَدَمِ إِرَادَتِهِ الْبَيَانَ)؛

النقص يدخل من نقْص علمه، أو من عجزه عن بيان علمه، وإما لعدم إرادته البيان؛ هذه الثلاث مرت معنا قريباً، وأشرتُ إلى أن هذه الأمور الثلاثة نافعة جداً في رد كل باطل؛ لأن كل مُبطِل لا يسلم- إن استمسك بباطله- من انتقاص لمقام النبي ﷺ في أحد هذه الأمور الثلاثة إن لم يكن فيها كلها، ولا محيد له من ذلك إلا أن يترك باطله؛ لأنه إذا قيل له: هذا الذي تقوله هل علمه النبي عليه الصلاة والسلام؟

إن قال: لم يعلمه؛ فهذا فيه انتقاص لعلم النبي عليه الصلاة والسلام.

إن أقرّ بأنه علمه صلوات الله وسلامه عليه، يُنتقَل معه إلى الأمر الثاني: هل كان قادراً على الإفصاح عنه وبيانه، أو ليس قادراً؟

إن قال: ليس بقادر على الإفصاح عنه وبيانه، كان هذا انتقاصاً له من جهة عجزه عن بيان علمه، عنده علم ولكن عنده عجز في بيانه، هذا طعن آخر.

إن قال: أعوذ بالله أنا لا أقول: إنه لا يعلم، ولا أقول: أنه عاجز عن البيان، يقال له: الأمر الثالث: هل بيّن أو لا؟، هذا الذي تقوله أنه علمه وأنه قادر على بيانه، هل بيّنه أو لم يُبيّنه؟

إن قال: لم يُبينه؛ فهذا فيه طعن في عدم إرادته البيان.

فإن قال: لا.. أنا أقول: إنه علمه وقادر على بيانه وبيّنه، فماذا تقولون له؟

هذه دواوين السُّنة محفوظة، أَرِنا أين بيّن النبي ﷺ ذلك، ائت بشاهد على كلامك من سُنته عليه الصلاة والسلام.

قال: (وَالرَّسُولُ ﷺ هُوَ الْغَايَةُ فِي كَمَالِ الْعِلْمِ، وَالْغَايَةُ فِي كَمَالِ إِرَادَةِ الْبَلَاغِ الْمُبِينِ، وَالْغَايَةُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَلَاغِ الْمُبِينِ، وَمَعَ وُجُودِ الْقُدْرَةِ التَّامَّةِ، وَالْإِرَادَةِ الْجَازِمَةِ: يَجِبُ وُجُودُ الْمُرَادِ، فَعُلِمَ قَطْعاً أَنَّ مَا بَيَّنَهُ مِنْ أَمْرِ الْإِيمَانِ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ حَصَلَ بِهِ مُرَادُهُ مِنْ الْبَيَانِ)؛

وهذا الذي أراد أن يصل إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أن هذا الذي بُيِّن في الكتاب والسُّنة فيما يتعلق بالإيمان بالله وصفاته وأسمائه ﷻ، أو ما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر والتفاصيل المتعلقة بذلك كلها حصل فيها بيان المراد، فلم يبقَ لمتكلِّف مجالاً، ولا لقائل مقالاً، المراد بيّن واضح، كل التكلفات- تكلفات

المتأَوِّلة- كل تكلفات المتأولة لا حاجة إليها إطلاقاً لأن المراد في هذه النصوص بيّن واضح، وخوضهم في تلك التأويلات كله خوض باطل ليس هو خوضاً في بيان المراد، المراد بيِّن واضح مثلما قال شيخ الإسلام، ولكنها خوض في صرْف هذا المراد إلى معاني بعيدة.

(وَمَا أَرَادَهُ مِنْ اَلْبَيَانِ هُوَ مُطَابِقٌ لِعِلْمِهِ، وَعِلْمُهُ بِذَلِكَ هُوَ أَكْمَلُ اَلْعُلُومِ، فَكُلُّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ غَيْرَ اَلرَّسُولِ ﷺ أَعْلَمُ بِهَذَا مِنْهُ، أَوْ أَكْمَلُ بَيَاناً مِنْهُ، أو أَحْرَصُ عَلَى هَدْيِ اَلْخَلْقِ مِنْهُ - أو هُدَى- اَلْخَلْقِ مِنْهُ، فَهُوَ مِنْ اَلْمُلْحِدِينَ لَا مِنْ اَلْمُؤْمِنِينَ، وَالصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَ اَلسَّلَفِ هُمْ فِي هَذَا اَلْبَابِ عَلَى سَبِيلِ اَلِاسْتِقَامَةِ. أَمَّا اَلْمُنْحَرِفُونَ عَنْ طَرِيقِهِمْ فَهُمْ ثَلَاثُ طَوَائِفَ: أَهْلُ اَلتَّخْيِيلِ، وَأَهْلُ اَلتَّأْوِيلِ، وَأَهْلُ اَلتَّجْهِيلِ)

وسيذكر رحمه الله تعالى خلاصة عن كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث.

قال رحمه الله:

فَأَهْلُ اَلتَّخْيِيلِ هُمْ اَلْمُتَفَلْسِفَةُ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ مِنْ مُتَكَلِّمٍ وَمُتَصَوِّفٍ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ مَا ذَكَرَهُ اَلرَّسُولُ ﷺ مِنْ أَمْرِ اَلْإِيمَانِ بِالله وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ إِنَّمَا هُوَ تَخْيِيلٌ لِلْحَقَائِقِ لِيَنْتَفِعَ بِهِ اَلْجُمْهُورُ، لَا أَنَّهُ بَيَّنَ بِهِ اَلْحَقَّ، وَلَا هَدَى بِهِ اَلْخَلْقَ، وَلَا أَوْضَحَ اَلْحَقَائِقَ.

ثُمَّ هُمْ عَلَى قِسْمَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ اَلرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَعْلَمْ اَلْحَقَائِقَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ مِنْ اَلْفَلَاسِفَةِ اَلْإِلَهِيَّةِ مَنْ عَلِمَهَا، وَكَذَلِكَ مِنْ اَلْأَشْخَاصِ اَلَّذِينَ يُسَمُّونَهُمْ أَوْلِيَاءَ مَنْ عَلِمَهَا، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مِنْ اَلْفَلَاسِفَةِ أَوْ اَلْأَوْلِيَاءِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِالله وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ مِنْ اَلْمُرْسَلِينَ، وَهَذِهِ مَقَالَةُ غُلَاةِ اَلْمُلْحِدِينَ مِنْ اَلْفَلَاسِفَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ: بَاطِنِيَّةِ اَلشِّيعَةِ، وَبَاطِنِيَّةِ اَلصُّوفِيَّةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلْ اَلرَّسُولُ عَلِمَهَا لَكِنْ لَمْ يُبَيِّنْهَا، وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ بِمَا يُنَاقِضُهَا وَأَرَادَ مِنْ اَلْخَلْقِ فَهْمَ مَا يُنَاقِضُهَا، لِأَنَّ مَصْلَحَةَ اَلْخَلْقِ فِي هَذِهِ اَلِاعْتِقَادَاتِ اَلَّتِي لَا تُطَابِقُ اَلْحَقَّ.

وَيَقُولُ هَؤُلَاءِ: يَجِبُ عَلَى اَلرَّسُولِ أَنْ يَدْعُوَ اَلنَّاسَ إِلَى اِعْتِقَادِ اَلتَّجْسِيمِ مَعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِلَى اِعْتِقَادِ مَعَادِ اَلْأَبْدَانِ مَعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّ أَهْلَ اَلْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ بَاطِلٌ، لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ دَعْوَةُ اَلْخَلْقِ إِلَّا بِهَذِهِ اَلطَّرِيقَةِ اَلَّتِي تَتَضَمَّنُ اَلْكَذِبَ لِمَصْلَحَةِ اَلْعِبَادِ، فَهَذَا قَوْلُ هَؤُلَاءِ فِي نُصُوصِ اَلْإِيمَانِ بِالله وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ.

وَأَمَّا اَلْأَعْمَالُ فَمِنْهُمْ مَنْ يُقِرُّهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُجْرِيهَا هَذَا اَلْمُجْرَى، وَيَقُولُ: إِنَّمَا يُؤْمَرُ بِهَا بَعْضُ اَلنَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، وَيُؤْمَرُ بِهَا اَلْعَامَّةُ دُونَ اَلْخَاصَّةِ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ اَلْبَاطِنِيَّةِ اَلْمَلَاحِدَةِ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ.

هذه خلاصة ذكرها رحمه الله تعالى عن أهل التخييل من الفلاسفة ومَنْ لفَّ لفّهم وسلك مسلكهم.

ويقال لهم أهل تخييل؛ لأنهم يقررون أن هذا الذي جاء في النصوص لا حقيقة له وإنما تخيلات، كل ما جاءت النصوص مثلاً من آيات الصفات، أو مثلاً نعيم الجنة، أو عذاب النار، أو.. إلى آخره؛ هذه كلها ليست لها وجود ولا حقيقة لها، وإنما الرسل -بزعم هؤلاء المبطلة- كانوا يتخيلون هذه الأشياء، ويذكرونها للعامة حتى يقبلوا دعوة الرسل، ويُصَرِّح بعضهم أن هذا كله كذب من أجل المصلحة-مصلحة الدعوة- فقالوا: في الجنة، والجنة فيها كذا وفيها كذا وفيها كذا، والناس يوم القيامة سيرون الله، وسينعم عليهم.. هذا كله يقولون: ما له وجود أصلاً، ولا حقيقة له، هذه كلها يتخيلها الرسل حتى يُرَغِّبوا الناس- بماذا؟-بدعوتهم.

ولهذا سماهم أهل العلم: أهل التخييل؛ أي: الذين يزعمون أن هذه الأشياء التي جاءت في النصوص كلها تخيلات، حتى تقبل الناس وتُقبِل على ما جاء به الرسل.

وعلى ذلك فعند القوم: الرسل لم يُفصحوا عن الحق، ولم يُبيّنوه، وإنما بيّنوا شيء آخر لا حقيقة له، ذكروا أشياء تتعلق بالرب، وأن له صفات، وصفاته كذا وكذا، وأن عنده جنة وفيها كذا، ونار وفيها..؛ وهذه كلها تخيلها الرسل وعرضوها للناس، ودعوا الناس إلى الاعتقاد بها والإيمان بها، وهي كلها لا حقيقة لها!!

إذاً إذا كانت الرسل لم تُفصِح عن الحق، وجاءوا بهذه الأشياء التي كلها- بزعم هؤلاء- كذب وتخيلات، أين الحق؟

هنا يظهر لك ماذا يريد هؤلاء؛ أن الحق هو عقيدتهم ودينهم، ولا حاجة للناس أن يشتغلوا بهذا الذي بُعثت به الرسل! فانظر إلى الطريقة ما أشنعها في ردّ كل ما جاءت به الرسل، وإذا تقبل أو قَبِل منهم العامي مثل هذا، أي جناية عليه فيما يتعلق بالقرآن والسُّنة، أي مكانة ستكون للقرآن والسُّنة عند العامي الذي قيل له مثل هذا الكلام، أو الجاهل الذي قيل له مثل هذا الكلام؟، أرأيتم شخصاً يقول له المتفلسف مثل هذا الكلام، ويقرأ القرآن، هل للقرآن عنده قيمة؟.. لأنه سيقرأ القرآن وهو في باله أن هذه كلها أشياء تخيلات، ما لها حقيقة ولا لها أصل، فلا يقبل قرآناً ولا يقبل سُنةً، ويرد كل الحق وتكون ديانته، وعقيدته كلها من ما جاء به هؤلاء الفلاسفة أئمة الباطل ودعاة الضلال.

فانظر هذا المكر الكُبّار العظيم، الذي تُنسَف به العقائد، و تُنسَف به الأديان، و تُنسَف به الحقائق، و تُنسَف به الأمور نسفاً، كيف يعني بهذا المكر، وبهذه الفلسفة وهذا الباطل يجنون على النصوص تلك الجنايات.

فهذه مقالة أهل التخييل.

يقول ابن تيمية: (إِنَّمَا هُوَ) يعني ذِكْر الرسول ﷺ من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر (إِنَّمَا هُوَ تَخْيِيلٌ لِلْحَقَائِقِ لِيَنْتَفِعَ بِهِ اَلْجُمْهُورُ) الجمهور يعني المدعون، الآن لما يقول الرسل مثلاً: في جنة، والجنة فيها كذا، والجنة فيها كذا، هذا ينتفع به الجمهور لأنه يُسمى ترغيب لهم، ولما يقال لهم مثلاً: في نار، والنار فيها كذا، والنار فيها كذا، هذا ينتفعون به لأنه ترهيب لهم، فيعملون بالفضائل ويتجنبون الرذائل بموجب هذا الترغيب والترهيب، لكن من حيث الواقع لا يوجد له أي حقيقة، لكن هذا يسمونه كذب من أجل مصلحة الجمهور- قاتلهم الله أنّى يُؤفكون- أي إجرام أكبر من هذا؟! وأي تجَنٍّ أعظم وأشنع من هذا؟!

قال: (إِنَّمَا هُوَ تَخْيِيلٌ لِلْحَقَائِقِ لِيَنْتَفِعَ بِهِ اَلْجُمْهُورُ؛ لاَ أَنَّهُ بَيَّنَ بِهِ اَلْحَقَّ؛ وَلاَ هَدَى بِهِ اَلْخَلْقَ؛ وَلاَ أَوْضَحَ اَلْحَقَائِقَ).

ابن القيم رحمه الله عرَّف أهل التخييل بقوله: هم الذين اعتقدوا أن الرسل لم تُفصِح للخلق بالحقائق؛ إذ ليس في قواهم إدراكها، وإنما خيّلت لهم وأبرزت المعقول في صورة المحسوس.

يقول ابن تيمية: (ثُمَّ هُمْ عَلَى قِسْمَيْنِ) أي: أهل التخييل.

(مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ اَلرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَعْلَمْ اَلْحَقَائِقَ) قسم (مِنْهُمْ يقولون: إِنَّ اَلرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَعْلَمْ اَلْحَقَائِقَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ؛ وَيَقُولُونَ: إِنَّ مِنْ اَلْفَلاَسِفَةِ اَلْإِلَهِيَّةِ مَنْ عَلِمَهَا) علم الحقائق دون أن يكون الرسول قد علمها.

(وَكَذَلِكَ مِنْ اَلْأَشْخَاصِ اَلَّذِينَ يُسَمُّونَهُمْ أَوْلِيَاءَ مَنْ عَلِمَهَا؛ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مِنْ اَلْفَلاَسِفَةِ أَوْ اَلْأَوْلِيَاءِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ مِنْ اَلْمُرْسَلِينَ)؛ ولهذا قالوا في المفاضلة بين الأولياء- بناءً على ذلك- قالوا: مقام النبوة في برزخ فُويق الرسول ودون الولي، مقام النبوة في برزخ فُويق الرسول: يعني أن مقام النبي فوق مقام الرسول، ولكنه دون مقام الولي، مقام النبوة في برزخ فُويق الرسول ودون الولي، لأن فيهم مَنْ يزعم أن الولي يعلم هذه الحقائق ما لا يعلمها الرسول، والفلاسفة يدّعون في أساطينهم ذلك: أنهم يعلمون ما لا يعلمه الرسول..

(وَهَذِهِ مَقَالَةُ غُلاَةِ الملاحدين مِنْ اَلْفَلاَسِفَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ: بَاطِنِيَّةِ اَلشِّيعَةِ؛ وَبَاطِنِيَّةِ اَلصُّوفِيَّةِ)..

هذا قول.. أو أحد القسمين.

القسم الثاني: (مَنْ يَقُولُ: بَلْ اَلرَّسُولُ عَلِمَهَا لَكِنْ لَمْ يُبَيِّنْهَا؛ وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ بِمَا يُنَاقِضُهَا وَأَرَادَ مِنْ اَلْخَلْقِ فَهْمَ مَا يُنَاقِضُهَا) يعني مثلاً: قال: الرحمن على العرش استوى، وأراد أن نفهم أنه لم يستو، وقال: ينزل ربنا إلى

السماء الدنيا، وأراد منّا أن نفهم لم ينزل إلى السماء الدنيا، وقال: إنكم سترون ربكم يوم القيامة، وأراد أن نفهم أننا لن نرى ربنا يوم القيامة.. وهكذا..

أخبر بأشياء وأراد من الخلق أن يفهموا ما يناقضها (لِأَنَّ مَصْلَحَةَ اَلْخَلْقِ فِي هَذِهِ اَلِاعْتِقَادَاتِ اَلَّتِي لَا تُطَابِقُ اَلْحَقَّ) يعني الناس عندما تُذْكَر لهم هذه الأشياء نفوسهم تتحرك للعمل والإقبال، فاقتضت المصلحة ذلك، وإلا فالاعتقاد الحق- بزعم هؤلاء- نفْي الصفات تفصيلاً، لكن الرسل أثبتتها تفصيلاً ولم تُرِد ذلك، يعني لما قالوا: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا، ما ينزل هو أصلاً- بزعمهم-، وإن الله يُرى يوم القيامة، لا يُرى يوم القيامة إطلاقاً- بزعم هؤلاء-، لكن الرسل كانت تُخبِر بذلك حتى تُحرِّك الناس للأعمال والعبادات ونحو ذلك، لكن المطلوب أصالةً: اعتقاد نقيض ذلك.

سبحان الله! الآن لو نظرت في هذا الزعم الذي يزعمه هؤلاء- وهذه خاطرة وردت في ذهني، ولعلها مفيدة- الآن عندما يقول هؤلاء: إن الرسل أخبروا بذلك وأرادوا إثبات نقيضه من أجل المصلحة، وإلا الحق هو إثبات نقيض ما ذكروه، فيقال لهؤلاء: إن كنتم فعلاً تعتقدون ذلك لماذا لم تبقوا الناس على المصلحة التي ترون أن الرسل فعلت ذلك من أجل المصلحة؟!

إذاً أنتم ترون أن الرسل أرادوا بالناس مصلحة وأنتم لا تريدونها للناس، فكشفتم لهم أشياء.. لو كنتم تزعمون هذا الزعم إذاً أُتركوا الناس على المصلحة، ولا تتكلموا في هذا الموضوع، أَبقوا الناس على هذه المصلحة التي أرادها الرسل بِذِكْر هذه الحقائق، ولا تكشفوا أشياء- بزعمكم- أنها خلاف المصلحة، وأن الرسل لم تتكلم بها من أجل مصلحة الناس.

فتبين بذلك بشهادتهم هم على أنفسهم أن الرسل أرادوا مصلحة الناس وهم لم يريدوا مصلحة الناس؛ هذا إنما هو إلزام يبين الثغرات التي توجد عند كل مُبطِل فيما يأتي به من ضلال وباطل.

قال: (وَيَقُولُ هَؤُلَاءِ: يَجِبُ عَلَى اَلرَّسُولِ أَنْ يَدْعُوَ اَلنَّاسَ إِلَى اِعْتِقَادِ اَلتَّجْسِيمِ مَعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ وَإِلَى اِعْتِقَادِ مَعَادِ اَلْأَبْدَانِ مَعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّ أَهْلَ اَلْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ بَاطِلٌ) يجب عليه أن يُخبِر بهذه الأشياء (لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ) يقولون (دَعْوَةُ اَلْخَلْقِ إِلَّا بِهَذِهِ اَلطَّرِيقَةِ)؛ إذاً هذا كله- بزعم هؤلاء- كذب من أجل المصلحة- مصلحة الدعوة-.

(إِلَّا بِهَذِهِ اَلطَّرِيقَةِ اَلَّتِي تَتَضَمَّنُ اَلْكَذِبَ لِمَصْلَحَةِ اَلْعِبَادِ فَهَذَا قَوْلُ هَؤُلَاءِ فِي نُصُوصِ اَلْإِيمَانِ بِالله وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ).

(وَأَمَّا اَلْأَعْمَالُ) يعني: الصلاة والصيام والحج وغير ذلك.. (فَمِنْهُمْ مَنْ يُقِرُّهَا وَمِنْهُمْ مَنْ يُجْرِيهَا هَذَا اَلْمُجْرَى) ما معنى (يجريها هذا المجرى)؟ أنه ليس مطلوب من العباد فعلاً صلاة وصيام وحج، ليست مطلوبة من العباد، وإنما هذه أشياء يذكرها الرسل لتهذيب الناس، وتحصيل المصلحة، وتهذيب الناس ونحو ذلك، لا أنها مطلوبة منهم أو مقصودة بدعوتهم إليها.

(وَأَمَّا اَلْأَعْمَالُ فَمِنْهُمْ مَنْ يُقِرُّهَا وَمِنْهُمْ مَنْ يُجْرِيهَا هَذَا اَلْمُجْرَى وَيَقُولُ: إِنَّمَا يُؤْمَرُ بِهَا بَعْضُ اَلنَّاسِ دُونَ بَعْضٍ وَيُؤْمَرُ بِهَا اَلْعَامَّةُ دُونَ اَلْخَاصَّةِ وَهَذِهِ طَرِيقَةُ اَلْبَاطِنِيَّةِ الْمَلَاحِدَةِ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ)، ومنهم أيضاً مَنْ يجعلها مجرد رموز، لا أنها أعمال جاءت مُفَصّلة في كتاب الله وسُنة نبيّه ﷺ يطلب من العباد أن يقوموا بها.

قال رحمه الله:

وَأَمَّا أَهْلُ اَلتَّأْوِيلِ فَيَقُولُونَ: إِنَّ اَلنُّصُوصَ اَلْوَارِدَةَ فِي اَلصِّفَاتِ لَمْ يَقْصِدْ بِهَا اَلرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَعْتَقِدَ اَلنَّاسُ اَلْبَاطِلَ وَلَكِنْ قَصَدَ بِهَا مَعَانِيَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ تِلْكَ اَلْمَعَانِيَ وَلَا دَلَّهُمْ عَلَيْهَا وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرُوا فَيَعْرِفُوا اَلْحَقَّ بِعُقُولِهِمْ ثُمَّ يَجْتَهِدُوا فِي صَرْفِ تِلْكَ اَلنُّصُوصِ عَنْ مَدْلُولِهَا وَمَقْصُودُهُ اِمْتِحَانُهُمْ وَتَكْلِيفُهُمْ إِتْعَابَ أَذْهَانِهِمْ وَعُقُولِهِمْ فِي أَنْ يَصْرِفُوا كَلَامَهُ عَنْ مَدْلُولِهِ وَمُقْتَضَاهُ وَيَعْرِفُوا اَلْحَقَّ مِنْ غَيْرِ جِهَتِهِ وَهَذَا قَوْلُ اَلْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَالَّذِينَ قَصَدْنَا اَلرَّدَّ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ اَلْفُتْيَا هُمْ هَؤُلَاءِ إِذْ كَانَ نُفُورُ اَلنَّاسِ عَنْ اَلْأَوَّلِينَ مَشْهُوراً بِخِلَافِ هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ تَظَاهَرُوا بِنَصْرِ اَلسُّنَّةِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ وَهُمْ فِي اَلْحَقِيقَةِ لَا لِلْإِسْلَامِ نَصَرُوا وَلَا لِلْفَلَاسِفَةِ كَسَرُوا وَلَكِنَّ أُولَئِكَ اَلْفَلَاسِفَةَ أَلْزَمُوهُمْ فِي نُصُوصِ اَلْمَعَادِ نَظِيرَ مَا ادَّعَوْهُ فِي نُصُوصِ اَلصِّفَاتِ.

فَقَالُوا لهم: نَحْنُ نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ اَلرُّسُلَ جَاءَتْ بِمَعَادِ اَلْأَبْدَانِ وَقَدْ عَلِمْنَا اَلشُّبَهَ اَلْمَانِعَةَ مِنْهُ.

وَأَهْلُ اَلسُّنَّةِ يَقُولُونَ لِهَؤُلَاءِ: وَنَحْنُ نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ اَلرُّسُلَ جَاءَتْ بِإِثْبَاتِ اَلصِّفَاتِ وَنُصُوصُ اَلصِّفَاتِ فِي اَلْكُتُبِ اَلْإِلَهِيَّةِ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ نُصُوصِ اَلْمَعَادِ وَيَقُولُونَ لَهُمْ: مَعْلُومٌ أَنَّ مُشْرِكِي اَلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ كَانُوا يُنْكِرُونَ اَلْمَعَادَ وَقَدْ أَنْكَرُوهُ عَلَى اَلرَّسُولِ وَنَاظَرُوهُ عَلَيْهِ بِخِلَافِ اَلصِّفَاتِ فَإِنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ شَيْئاً مِنْهَا أَحَدٌ مِنَ اَلْعَرَبِ.

فَعُلِمَ أَنَّ إِقْرَارَ اَلْعُقُولِ بِالصِّفَاتِ أَعْظَمُ مِنْ إِقْرَارِهَا بِالْمَعَادِ وَأَنَّ إِنْكَارَ اَلْمَعَادِ أَعْظَمُ مِنْ إِنْكَارِ اَلصِّفَاتِ وَكَيْفَ يَجُوزُ مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ اَلصِّفَاتِ لَيْسَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ وَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ اَلْمَعَادِ هُوَ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ.

وَأَيْضاً: فَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ ﷺ قَدْ ذَمَّ أَهْلَ اَلْكِتَابِ عَلَى مَا حَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اَلتَّوْرَاةَ مَمْلُوءَةٌ مِنْ ذِكْرِ اَلصِّفَاتِ، فَلَوْ كَانَ هَذَا مِمَّا حُرِّفَ وَبُدِّلَ لَكَانَ إِنْكَارُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْلَى، فَكَيْفَ وَكَانُوا إِذَا ذَكَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ اَلصِّفَاتِ يُضْحَكُ تَعَجُّباً مِنْهُمْ وَتَصْدِيقاً؟

وَلَمْ يَعِبْهُمْ قَطُّ بِمَا تَعِيبُ النُّفَاةُ لِأَهْلِ اَلْإِثْبَاتِ، مِثْلُ اَللَّفْظِ اَلتَّجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، بَلْ عَابَهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۝٦٤﴾ [المائدة:٦٤].

وَقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۝١٨١﴾ [آل عمران:١٨١]

وَقَوْلِهِمْ: اِسْتَرَاحَ لَمَّا خَلَقَ اَلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْض فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق:٣٨].

وَالتَّوْرَاةُ مَمْلُوءَةٌ مِنْ اَلصِّفَاتِ اَلْمُطَابِقَةِ لِلصِّفَاتِ اَلْمَذْكُورَةِ فِي اَلْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَلَيْسَ فِيهَا تصريح بِالْمَعَادِ كَمَا فِي اَلْقُرْآنِ.

فَإِذَا جَازَ أَنْ نَتَأَوَّلَ اَلصِّفَاتِ اَلَّتِي اِتَّفَقَ عَلَيْهَا اَلْكِتَابَانِ فَتَأْوِيلُ اَلْمَعَادِ اَلَّذِي اِنْفَرَدَ بِهِ أَحَدُهُمَا أَوْلَى، وَالثَّانِي مِمَّا يُعْلَمُ بِالْإِضْرَارِ مِنْ دِينِ اَلرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ بَاطِلٌ، فَالْأَوَّلُ أَوْلَى بِالْبُطْلَانِ.

هذه خلاصة فيما يتعلق بالقسم الثاني وهم أهل التأويل.

بيّن شيخ الإسلام رحمه الله في مقدمة حديثه عن أهل التأويل وجه الفرق بينهم وبين أهل التخييل، أولئك الذين هم أهل التخييل عندهم تأويلات لا حدّ لها، لكن ما الفرق بين هؤلاء وهؤلاء؟

قال: إن (أَهْلُ اَلتَّأْوِيلِ فَيَقُولُونَ: إِنَّ اَلنُّصُوصَ اَلْوَارِدَةَ فِي اَلصِّفَاتِ لَمْ يَقْصِدْ بِهَا اَلرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَعْتَقِدَ اَلنَّاسُ اَلْبَاطِلَ) لكن هناك عرفنا أنهم جاءوا بهذه الخيالات وطلبوا من الناس أن يعتقدوها من أجل المصلحة، فيقول هنا: لم يقصد بها أن يعتقد الناس الباطل (وَلَكِنْ قَصَدَ بِهَا مَعَانِيَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ تِلْكَ اَلْمَعَانِيَ) لماذا لم يبينها؟

خذ مثالاً: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] لم يقصد - بزعمهم - استوى المعنى المعروف للكلمة في اللغة، أي: استوى أي: علا وارتفع، وإنما قصد معنى آخر اكتُشِف فيما بعد، تقريباً في القرن الثاني اكتُشِف ذلك المعنى، فأراد منهم أن يفهموا منها معنى آخر، لماذا؟

قال: (وَلَكِنْ قَصَدَ بِهَا مَعَانِيَ ولم يُبَيِّنْ لَهُمْ تِلْكَ اَلْمَعَانِيَ، وَلَا دَلَّهُمْ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرُوا فَيَعْرِفُوا اَلْحَقَّ بِعُقُولِهِمْ، ثُمَّ يَجْتَهِدُوا فِي صَرْفِ تِلْكَ اَلنُّصُوصِ عَنْ مَدْلُولِهَا، وَمَقْصُودُهُ اِمْتِحَانُهُمْ وَتَكْلِيفُهُمْ إِتْعَابَ أَذْهَانِهِمْ وَعُقُولِهِمْ فِي أَنْ يَصْرِفُوا كَلَامَهُ عَنْ مَدْلُولِهِ وَمُقْتَضَاهُ) شبهوا الرسالة القائمة على النصح للخلق وبيان الحق

شبهوها بحال رجل يأتي مثلاً إلى طلابه وتلاميذه، ويعطيهم أشياء أشبه بالألغاز حتى يُحرِّك عقولهم وأذهانهم في البحث والتفتيش والتنقيب، وهذا أبعد ما يكون من مراد مَنْ قصَد نفْع الخلق والنصح لهم، وبيان الحق لهم!

ومقام الرسالة أعظم من أن يُقال فيه مثل هذا الكلام وأجَلّ، مقام الرسالة أعظم وأجَلّ من أن يقال فيه هذا الكلام، مقام الرسالة مقام هُدى للناس وبيّنات، ليس مقام ألغاز وأحاجي وتمرين للعقول على مثل ذلك، مقام الرسالة مقام هدى وبيان للحق للناس وإيضاحه لهم.

قال: (وَهَذَا قَوْلُ اَلْمُتَكَلِّمَةِ اَلْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَالَّذِينَ قَصَدْنَا اَلرَّدَّ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ اَلْفُتْيَا) يقول: هذه الفتيا المقصود أصالةً الرد على هؤلاء.

(إِذْ كَانَ نُفُورُ اَلنَّاسِ عَنْ اَلْأَوَّلِينَ) يعني: أهل التخييل (مَشْهُوراً).

(نُفُورُ اَلنَّاسِ عَنْ اَلْأَوَّلِينَ) أي: الفلاسفة أهل التخييل (مَشْهُوراً بِخِلَافِ هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ تَظَاهَرُوا بِنَصْرِ اَلسُّنَّةِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ وَهُمْ فِي اَلْحَقِيقَةِ لَا لِلْإِسْلَامِ نَصَرُوا وَلَا لِلْفَلَاسِفَةِ كَسَرُوا وَلَكِنَّ أُولَئِكَ اَلْفَلَاسِفَةَ أَلْزَمُوهُمْ فِي نُصُوصِ اَلْمَعَادِ نَظِيرَ مَا ادَّعَوْهُ فِي نُصُوصِ اَلصِّفَاتِ، فَقَالُوا لهم: نَحْنُ نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ اَلرُّسُلَ جَاءَتْ بِمَعَادِ اَلْأَبْدَانِ وَقَدْ عَلِمْنَا اَلشُّبَهَ اَلْمَانِعَةَ مِنْهُ) فبناءً عليها- يقولون- نحن أنكرناها، فبناءً عليها نحن أنكرناها، وهذه الشُّبَه التي أنكرنا بها المعاد هي من جنس الشُّبه التي أنكرتم بها الصفات، ولهذا طالبهم الفلاسفة أن يوحدوا المذهب وينكروا الجميع، طالبوهم أن يوحدوا المذهب وينكروا الجميع، لأن الحجة عند هؤلاء هي نفس الحجة: أن العقل يُحيل ذلك- كما مر معنا سابقاً-، فطالبوهم بأن ينفوا الجميع، لأن العقل يحيل ذلك بزعمهم.

فيقولون لهم: أنتم أعملتم هذا الأمر في الصفات فقط، ونحن أعملناه في الصفات والمعاد، والباب واحد، فطالبوهم بأن يشاركوهم في نفْي ذلك كله؛ وهذا وجه قوله عنهم: أنهم لم يكسروا الفلاسفة، بما قرروه لم يكسروا الفلاسفة، بل أعانوا الفلاسفة على ما هم عليه من إنكار لما جاء في كتاب الله وسُنة نبيّه عليه الصلاة والسلام.

قال: (وَأَهْلُ اَلسُّنَّةِ يَقُولُونَ لِهَؤُلَاءِ: وَنَحْنُ نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ اَلرُّسُلَ جَاءَتْ بِإِثْبَاتِ اَلصِّفَاتِ وَنُصُوصُ اَلصِّفَاتِ فِي اَلْكُتُبِ اَلْإِلَهِيَّةِ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ نُصُوصِ اَلْمَعَادِ) لاحظوا هنا ملاحظة: يعني أن المعتزلة صارت يتجاذبهم فئتان: الفلاسفة من جهة.. ماذا تقول لهم؟

تقول لهم: الذي أنتم أنكرتم به الصفات هو نفسه الذي نحن أنكرنا به المعاد، فأخذوا يطالبونهم بماذا؟- انتبهوا معي- أخذوا يطالبونهم بنفْي الجميع.

أهل السُّنة من الجهة الأخرى- وهم أهل النصح للخلق- قالوا لهم: هذا الذي أثبتم به المعاد هو نفسه الذي تُثبَت به الصفات، وطالبوهم بإثبات الجميع.

الفلاسفة من جهة هناك يطالبونهم بنفي الجميع، يقولون لهم: الباب واحد، وهؤلاء أهل السُّنة يطلبون منهم أن يثبتوا الجميع لأن الباب واحد، وهذا الذي يعرضه الآن هنا شيخ الإسلام ابن تيمية.

ذكر أولاً: (اَلْفَلَاسِفَةَ أَلْزَمُوهُمْ فِي نُصُوصِ اَلْمَعَادِ بنَظِيرَ مَا ادَّعُوهُ فِي نُصُوصِ اَلصِّفَاتِ) بمعنى أنهم يريدون منهم أن ينفوا الجميع، ويقولون لهم: الباب واحد، شاركونا في نفْي الجميع لأن الباب واحد.

(وَأَهْلُ اَلسُّنَّةِ يَقُولُونَ لِهَؤُلَاءِ: وَنَحْنُ نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ اَلرُّسُلَ جَاءَتْ بِإِثْبَاتِ اَلصِّفَاتِ وَنُصُوصُ اَلصِّفَاتِ فِي اَلْكُتُبِ اَلْإِلَهِيَّةِ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ نُصُوصِ اَلْمَعَادِ وَيَقُولُونَ لَهُمْ: مَعْلُومٌ أَنَّ مُشْرِكِي اَلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ كَانُوا يُنْكِرُونَ اَلْمَعَادَ وَقَدْ أَنْكَرُوهُ عَلَى اَلرَّسُولِ-ﷺ- وَنَاظَرُوهُ عَلَيْهِ بِخِلَافِ اَلصِّفَاتِ فَإِنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ شَيْئاً مِنْهَا أَحَدٌ مِنْ اَلْعَرَبِ. فَعُلِمَ أَنَّ إِقْرَارَ اَلْعُقُولِ بِالصِّفَاتِ أَعْظَمُ مِنْ إِقْرَارِهَا بِالْمَعَادِ وَأَنَّ إِنْكَارَ اَلْمَعَادِ أَعْظَمُ مِنْ إِنْكَارِ اَلصِّفَاتِ وَكَيْفَ يَجُوزُ مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ اَلصِّفَاتِ لَيْسَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ وَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ اَلْمَعَادِ هُوَ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ) هذه كله يقولون لهم، يقول أهل السُّنة لهؤلاء المعتزلة وغيرهم مطالبين لهم بماذا؟ بإثبات الجميع الصفات والمعاد، لكنهم دخلوا عليهم من جهة أنهم يثبتون المعاد وهو أمر غيبي بنعيمه وتفاصيله، يعني مثلاً: الآن مثلاً الجنة فيها عنب، لو قيل لهم: إن أثبتم عنب الجنة فمعنى ذلك أنه مثل عنب الدنيا، يقولون: لا. تلك أمور مُغيبة، ونعيم الآخرة له مثلاً خصائصه، فيقولون لهم: أيضاً في صفات الله اللوازم التي تذكرونها يلزم من إثبات الصفات لله المماثلة لا يلزم ذلك، فالقول في الصفات مثل القول في نعيم الجنة وغيره من جهة أن هذا كله أمور مُغيَّبة، وجاءت بها النصوص وأنه يجب إمرارها كما جاءت والإيمان بها كما وردت.

(وَأَيْضاً: فَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ ﷺ قَدْ ذَمَّ أَهْلَ اَلْكِتَابِ عَلَى مَا حَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ وَمَعْلُومٌ أَنَّ اَلتَّوْرَاةَ مَمْلُوءَةٌ مِنْ ذِكْرِ اَلصِّفَاتِ) ذمهم على ما حرفوه وبدلوه، و(اَلتَّوْرَاةَ مَمْلُوءَةٌ مِنْ ذِكْرِ اَلصِّفَاتِ فَلَوْ كَانَ هَذَا مِمَّا حُرِّفَ وَبُدِّلَ لَكَانَ إِنْكَارُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْلَى فَكَيْفَ وَكَانُوا إِذَا ذَكَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ-ﷺ- اَلصِّفَاتِ يَضْحَكُ تَعَجُّباً مِنْهُمْ وَتَصْدِيقاً؟!) مثل قصة الحبر في الصحيح لما جاء النبي ﷺ وقال: إن عندنا أن الله يضع السموات على

أصبع، والأرضين على أصبع، والثرى على أصبع فضحك النبي عليه الصلاة والسلام تصديقاً لقوله.

(فَكَيْفَ وَكَانُوا إِذَا ذَكَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ الصِّفَاتِ يَضْحَكُ تَعَجُّباً مِنْهُمْ وَتَصْدِيقاً؟!) أي: لقوله.

تعجباً.. ذكر المُحقق أنها ليست موجودة في بعض النسخ، يعني في (ج) و(ع)، ليست موجودة، والذي جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: تصديقاً لقوله.

فقال: يضحك ﷺ تعجباً منهم وتصديقاً؛ قد يكون التعجب، ذِكْر التعجب هنا إن كان ثابت في النسخة، يعني من معرفتهم بذلك وضبطهم له، فضحك تعجباً منهم وتصديقاً لقوله، ويدّعي المُنكِرة للصفات أن النبي ﷺ ضحك إنكاراً لقوله، وهذا فيه طعن في النبي عليه الصلاة والسلام، أن يُخبَر بين يديه عن الله بما لا يليق به فيضحك، أن يُخبَر بين يديه عن الله ﷻ بما لا يليق بجلاله وكماله فيضحك عليه الصلاة والسلام حتى بدت نواجذه، هذا طعن في النبي عليه الصلاة والسلام، كان إذا انتُهكت حرمات الله لا يقوم لغضبه شيء، فهُم ليقولون: إنه ضحك إنكاراً لقوله!!

وابن مسعود رضي الله عنه الراوي للحديث قال: ضحك تصديقاً لقوله، وهذا هو اللائق بمقام النبي عليه الصلاة والسلام.

قال: (وَلَمْ يَعِيبْهُمْ قَطُّ بِمَا تَعِيبُ النُّفَاةُ لِأَهْلِ الْإِثْبَاتِ مِثْلُ لفظِ التَّجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ بَلْ عَابَهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۝٦٤﴾ [المائدة:٦٤]، وَقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۝١٨١﴾ [آل عمران:١٨١]، وَقَوْلِهِمْ) إن الله (اِسْتَرَاحَ)، قال: (﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق:٣٨]، وَالتَّوْرَاةُ مَمْلُوءَةٌ مِنْ الصِّفَاتِ الْمُطَابِقَةِ لِلصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَلَيْسَ فِيهَا تصريح بِالْمَعَادِ كَمَا فِي الْقُرْآنِ، فَإِذَا جَازَ أَنْ نَتَأَوَّلَ الصِّفَاتِ الَّتِي اِتَّفَقَ عَلَيْهَا الْكِتَابَانِ فَتَأْوِيلُ الْمَعَادِ الَّذِي اِنْفَرَدَ بِهِ أَحَدُهُمَا) وهو القرآن (أَوْلَى وَالثَّانِي مِمَّا يُعْلَمُ بِالْإِضْرَارِ مِنْ دِينِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ بَاطِلٌ فَالْأَوَّلُ أَوْلَى بِالْبُطْلَانِ).

انتهى هنا ما ذكره رحمه الله من الخلاصة التي تتعلق بالقسم الثاني، ثم ذكر بعده القسم الثالث، وهم أهل التجهيل.

نسأل الله ﷻ أن ينفعنا جميعاً بما علّمنا وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا، ونِعْم الوكيل.

الدرس السادس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تقدم قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (وَأَهْلُ اَلسُّنَّةِ يَقُولُونَ لِهَؤُلَاءِ: وَنَحْنُ نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ اَلرُّسُلَ جَاءَتْ بِإِثْبَاتِ اَلصِّفَاتِ وَنُصُوصُ اَلصِّفَاتِ فِي اَلْكُتُبِ اَلْإِلَهِيَّةِ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ نُصُوصِ اَلْمَعَادِ وَيَقُولُونَ لَهُمْ: مَعْلُومٌ أَنَّ مُشْرِكِي اَلْعَرَبِ وَغَيْرَهِمْ كَانُوا يُنْكِرُونَ اَلْمَعَادَ وَقَدْ أَنْكَرُوهُ عَلَى اَلرَّسُولِ ﷺ وَنَاظَرُوهُ عَلَيْهِ بِخِلَافِ اَلصِّفَاتِ فَإِنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ شَيْئاً مِنْهَا أَحَدٌ مِنَ اَلْعَرَبِ. فَعُلِمَ أَنَّ إِقْرَارَ اَلْعُقُولِ بِالصِّفَاتِ أَعْظَمُ مِنْ إِقْرَارِهَا بِالْمَعَادِ وَأَنَّ إِنْكَارَ اَلْمَعَادِ أَعْظَمُ مِنْ إِنْكَارِ اَلصِّفَاتِ وَكَيْفَ يَجُوزُ مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ اَلصِّفَاتِ لَيْسَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ وَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ اَلْمَعَادِ هُوَ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ)؛

أي: كيف يكون هذا قابلاً للتأويل وذاك ليس قابلاً له؟

قوله في هذا الموضع: (وَأَنَّ إِنْكَارَ اَلْمَعَادِ أَعْظَمُ مِنْ إِنْكَارِ اَلصِّفَاتِ)؛ هذه اللفظة فيها شيء من الإشكال بالنظر إلى السياق الذي سيقت فيه؛ ولهذا ذكر غير واحد احتمال أن يكون في هذا الموضع تصحيف أو تقديم وتأخير، أحد هذين الاحتمالين: إما تصحيف بسقْط كلمة أو نحو ذلك، أو حصول تقديم وتأخير؛ وهذا كله يقع في الغالب من قِبَل الناسخ أو نُسّاخ الكتاب.

فاحتمال أن يكون ثمة حرف ساقط في السياق؛ فتكون العبارة: (**وأن إنكار المعاد ليس أعظم من إنكار الصفات**)، فثمة احتمال أن يكون هذا الحرف ساقط.

ووجدتُ طبعةً للفتوى الحموية كانت بتعليق الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى وأُثبِت بزيادة هذا الحرف: (**وأن إنكار المعاد ليس بأعظم من إنكار الصفات**) جاء فيه هذا الكلام بزيادة هذا اللفظ.

ويحتمل أن فيه تقديم وتأخير؛ يعني قُدِّمت كلمة على كلمة، فكان الأصل أن يقال: (وأن إنكار الصفات أعظم من إنكار المعاد).

وقد وجدتُ في «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية رحمه الله في المجلد الخامس، الصفحة ثلاثمائة وتسعة؛(٥/ ٣٠٩) يقول رحمه الله: (بل إنكار صفات الله أعظم إلحاداً في دين الرسل من إنكار معاد الأبدان،

فإن إثبات الصفات لله أخبرت به الرسل أعظم مما أخبرت بمعاد الأبدان)؛ فهذا يستفاد منه احتمال أن يكون في هذا الموضع الذي عندنا في الحموية أن يكون في تقديم وتأخير.

على كل؛ لا يخلو الأمر من أحد هذين الأمرين؛ إما أن تكون العبارة فيها تقديم وتأخير، ويكون الصواب: (وأن إنكار الصفات أعظم من إنكار المعاد)، أو أن يكون منها حرف ساقط فتكون بزيادة (ليس)، (وأن إنكار المعاد ليس أعظم من إنكار الصفات).

مر معنا بعده قول شيخ الإسلام رحمه الله: (وَالتَّوْرَاةُ مَمْلُوءَةٌ مِنْ اَلصِّفَاتِ اَلْمُطَابِقَةِ لِلصِّفَاتِ اَلْمَذْكُورَةِ فِي اَلْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ)؛ التوراة الذي نُزِّل على موسى يقول: (مَمْلُوءَةٌ مِنْ اَلصِّفَاتِ اَلْمُطَابِقَةِ لِلصِّفَاتِ اَلْمَذْكُورَةِ فِي اَلْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ) الصفات: أي صفات الله ﷻ، وليس فيها تصريح بالمعاد كما في القرآن.

هذا الذي ذكره هنا رحمه الله: من أن (التوراة ليس فيها تصريح بالمعاد كما في القرآن) وجدتُه رحمه الله قرره في مواضع من كتبه، وفي بعضها ساق باللفظ مقارباً لما ذكر هنا رحمه الله في الحموية.

قال في «درء التعارض» (٥/ ٣١٠) في المجلد الخامس ثلاثمائة وعشرة: (ولهذا كانت التوراة مملوءة من إثبات صفات الله) وأما ذِكْر المعاد فليس هو فيها كذلك، حتى قيل: إنه ليس فيها ذِكْر المعاد.

وقال في «الجواب الصحيح لِمَنْ بدَّل دين المسيح» في المجلد الثاني صفحة تسعة وسبعين(٢/ ٧٩): (بل التوراة ليس فيها تصريح بذِكْر المعاد، وعامة ما فيها من الوعد والوعيد فهو في الدنيا، كالوعد بالرزق، والنصر، ونحو ذلك، وقد قيل: إن ذلك مذكور في التوراة أيضاً لكن لم يُبسَط كما بُسِط في غير التوراة).

بعد هذا التقديم الذي ذكره رحمه الله بنى عليه نتيجة فقال: (فَإِذَا جَازَ أَنْ نَتَأَوَّلَ اَلصِّفَاتِ اَلَّتِي اِتَّفَقَ عَلَيْهَا اَلْكِتَابَانِ) أي: القرآن والتوراة (فَتَأْوِيلُ اَلْمَعَادِ اَلَّذِي اِنْفَرَدَ بِهِ أَحَدُهُمَا أَوْلَىٰ وَالثَّانِي مِمَّا يُعْلَمُ بِالْاِضْطِرَارِ مِنْ دِينِ اَلرُّسُلِ أَنَّهُ بَاطِلٌ) أي: تأويل المعاد (فَالْأَوَّلُ) الذي هو تأويل الصفات (أَوْلَى بِالْبُطْلَانِ)؛ معنى ذلك: أن الصفات متفق عليها في التوراة والقرآن، مثلما قال رحمه الله: إن (التَّوْرَاةُ مَمْلُوءَةٌ مِنْ اَلصِّفَاتِ اَلْمُطَابِقَةِ لِلصِّفَاتِ) التي في القرآن، فهذا يدل على أن الصفات متفق عليها في التوراة والقرآن، وأن القرآن انفرد بذِكْر المعاد.

وَهُمْ- أي: المتكلمون الذين يناقشهم شيخ الإسلام من المعتزلة وغيرهم- أقروا بعدم جواز تأويل المعاد، وهو مما انفرد به القرآن؛ فيكون من باب أَوْلى الصفات التي اتفق عليها الكتابان ألا تُؤوَّل، إن كان يقولون: إن المعاد لا يصح تأويله، وهو مما انفرد به القرآن، فأَوْلى بذلك ألا تُؤوَّل الصفات التي اتفق عليها

الكتابان.

وذكر رحمه الله فيما سبق ما يفيد ويدل على كثرة ذِكْر الصفات الإلهية في التوراة.

وأيضاً يُنظَر في هذا السياق «منهاج السُّنة» للمصنف، المجلد الثاني مائة وثلاث وخمسين(٢/ ٢٥٣)؛ فقد ذكر سياقاً نظير هذا السياق، ومُقارِب له تماماً، وختمه رحمه الله بقوله: (فإذا كانت نصوص المعاد لا يجوز تحريفها، فهذا بطريق الأَوْلى) فهذا: أي الصفات، باب الصفات (بطريق الأولى).

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

ثم قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

وَأَمَّا اَلصِّنْفُ اَلثَّالِثُ: وَهُمْ أَهْلُ اَلتَّجْهِيلِ فَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ اَلْمُنْتَسِبِينَ إِلَى اَلسُّنَّةِ وَاتِّبَاعِ اَلسَّلَفِ يَقُولُونَ: إِنَّ اَلرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَعَانِيَ مَا أَنْزَلَ اَللهُ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ اَلصِّفَاتِ وَلَا جِبْرِيلُ يَعْرِفُ مَعَانِيَ تِلْكَ اَلْآيَاتِ وَلَا اَلسَّابِقُونَ اَلْأَوَّلُونَ عَرَفُوا ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ فِي أَحَادِيثَ اَلصِّفَاتِ: أَنَّ مَعْنَاهَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اَللهُ مَعَ أَنَّ اَلرَّسُولَ تَكَلَّمَ بِهَذَا اِبْتِدَاءً فَعَلَى قَوْلِهِمْ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ.

وَهَؤُلَاءِ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ اِتَّبَعُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]، فَإِنَّهُ وَقَفَ كَثِيرٌ مِنْ اَلسَّلَفِ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]، وَهُوَ وَقْفٌ صَحِيحٌ لَكِنْ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَعْنَى اَلْكَلَامِ وَتَفْسِيرِهِ وَبَيْنَ اَلتَّأْوِيلِ اَلَّذِي اِنْفَرَدَ اَللهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ وَظَنُّوا أَنَّ اَلتَّأْوِيلَ اَلْمَذْكُورَ فِي كَلَامِ اللهِ هُوَ اَلتَّأْوِيلُ اَلْمَذْكُورُ فِي كَلَامِ اَلْمُتَأَخِّرِينَ وَغَلِطُوا فِي ذَلِكَ.

هنا يذكر رحمه الله تعالى القسم أو الصنف الثالث من أصناف الطوائف تجاه صفات الله تبارك وتعالى؛ حيث ذكر فيما سبق أنهم ثلاث طوائف، المنحرفون عن طريقة السلف ثلاث طوائف: أهل التخييل، وأهل التأويل، وأهل التجهيل.

والمراد بأهل التجهيل: أي الذين يُجَهِّلون السلف- وهم المفوضة: مفوضة معاني الصفات-.

لقَّبهم أهل العلم بـ (أهل التجهيل) لأن في طريقتهم تجهيل للسلف، وتعظيم لعلومهم هم، قد مرت عبارتهم في صدر هذه الرسالة حيث قالوا: إن مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم، أي: أن عندهم من العلم والحكمة ما لم يبلغه السلف؛ فهُم جَهَّلوا السلف- أي: رموا السلف بالجهل-، ولهذا قيل لهم: أهل التجهيل.

والمراد بهذا الصنف: أي المفوضة- مفوضة معاني نصوص الصفات-.

وهؤلاء المفوضة يقولون في آيات الصفات- مثل:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]

﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح: ٦]

﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ [المجادلة: ٢٢]

وإلى غير ذلك..

يقولون: هذه الله أعلم بمرادها.

مثلها تماماً عندهم مثل الحروف المقطعة؛ ولهذا في بعض كتبهم يقولون: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم]، ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة]، ﴿حمٓ ۝١﴾ [غافر] الله أعلم بمرادها؛ فيجعلون ذلك مثل الحروف المقطعة، وأنها لا يُعلَم لها معنى.

ويعني ذلك: أننا خوطبنا بألفاظ ليس لها معنى أصلاً!! فتكون نصوص الصفات مجرد ألفاظ لا معاني لها، ويكون المطلوب تجاه نصوص الصفات أن تُقرأ قراءة مجردة، ولا يفكر أصلاً أن ينظر في معناها لأنه لا معنى لها يُفهَم، فهي ألفاظ مجردة لا تدل على أي معنى، ولا يُدرَى ما مراد الله ﷻ بها، ويكون المطلوب هو مجرد القراءة.

يقول ابن تيمية رحمه الله: (وَأَمَّا اَلصِّنْفُ اَلثَّالِثُ: وَهُمْ أَهْلُ اَلتَّجْهِيلِ فَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ اَلْمُنْتَسِبِينَ إِلَى اَلسُّنَّةِ وَاتِّبَاعِ اَلسَّلَفِ)، وهذه الطريقة- طريقة التفويض- خطيرة جداً وشر على الناس؛ لأن ظاهر هذه الطريقة إيثار السلامة ولكنها في الحقيقة عين العطب، في ظاهرها إيثار السلامة، يقولون: الله أعلم بمرادها، ولا نخوض في معانيها، ولا نعتقد أن لها معنى، وفي الوقت نفسه يعتقدون أن الظاهر المتبادر ليس مُراداً.

يعني مثلاً: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] ظاهر هذا النص: إثبات الاستواء صفةً لله.

المفوِّضة يشاركون المؤوِّلة: أن الظاهر ليس مراداً، ويشاركونهم: أنه مُؤوَّل، له تأويل، ليس الظاهر مُراداً، وله تأويل الله أعلم بتأويله.

والمؤوِّلة خاضوا في التأويل تفصيلاً، وأولئك قالوا: إنه مُؤوَّل لكن الله أعلم بتأويله.

ولهذا ينبغي أن يُعلَم أن المفوِّضة مؤوِّلة؛ وهذه معلومة قد تكون غريبة، المفوضة مؤولة.

ما هو تأويلهم؟

تأويل إجمالي، تأويلهم تأويل إجمالي؛ من ناحية أنهم يعتقدون أن الظاهر ليس مُراداً، وأن لها تأويل، لكن لا يخوضون فيه تفصيلاً كالمؤوِّلة إلا أنهم يعتقدون أن لها تأويلاً.

قال: (يَقُولُونَ: إِنَّ اَلرَّسُـولَ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَعَانِيَ مَا أَنْزَلَ اَللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ اَلصِّفَاتِ ولَا جِبْرِيلُ يَعْرِفُ مَعَانِيَ تِلْكَ اَلْآيَاتِ وَلَا اَلسَّابِقُونَ اَلْأَوَّلُونَ عَرَفُوا ذَلِكَ)؛ ماذا يُسمى هذا؟

تجهيل، هذا يُسمى تجهيل، من أخطر ما يكون، يقولون: إن الرسول ﷺ لا يعرف معاني آيات الصفات، ولا جبريل يعرف معاني آيات الصفات، ولا السابقون الأولون من المهاجرين يعرفون المعاني؛ هذا تجهيل، ولهذا لُقِّبوا بأهل التجهيل.

قال: (وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ فِي أَحَادِيثِ اَلصِّفَاتِ: أَنَّ مَعْنَاهَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اَللَّهُ مَعَ أَنَّ اَلرَّسُولَ ﷺ تَكَلَّمَ بِهَذَا اِبْتِدَاءً فَعَلَى قَوْلِهِمْ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ) أحاديث الصفات معناها لا يعلمه إلا الله، يأخذون ذلك من الآية الآتي ذِكْرها: (﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]) يقولون: المراد بالآية: (﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ [آل عمران:٧]) أي: لا يعلم معناه والمراد به إلا الله، ويوجبون الوقف على (﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]).

ويخلصون من ذلك إلى نتيجة ألا وهي: أن الرسول عليه الصلاة والسلام ومَنْ دونه كلهم لا يعرفون شيء من معاني الصفات؛ لأنه لا يعلم شيء من معانيها إلا الله!

فعلى قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه، حتى أحاديثه عليه الصلاة والسلام القولية عندما يقول مثلاً: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»، وعندما يقول: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة»، وعندما يقول: «ضحك الله، وعجب ربكم...» ونحو هذه الأحاديث.. كلها بزعم هؤلاء يقولها عليه الصلاة والسلام وهو لا يدري ما هي، ولا يدري ماذا يراد بها، وإنما كلام ينقله، والصحابة يحفظونه ولا يدرون ما هو، يحفظونه عنه حِفْظ ولا يدرون ما هو، وينقلونه للتابعين، والتابعين يحفظونه ولا يدرون ما هو!!

فانظروا كيف آل الأمر بهؤلاء في السوء والعياذ بالله!!

ولهذا قول هؤلاء قول خبيث، وهو من أخبث الأقوال وشرها، بينما بعض الناس يظن أنه هو السلامة، يعني الله أعلم، الله أعلم بمراده، لا نعلم له أي معنى والله أعلم بمراده..

لكن انظر إلى مدى السوء والخطورة التي تكتنف هذا المُعتقد، أو هذا التقرير الباطل الذي عليه هؤلاء المفوِّضة.

وهؤلاء يظنون أنهم اتبعوا قول الله: (﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران:٧]) يظنون أنهم متبعون لهذه الآية؛ بمعنى: أن تأويل الصفات- أي: معناها والمراد بها ومدلولها- لا يعلمه إلا الله، لا يعلمه الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يعلمه الرسول الملكي جبريل، جبريل سمعه من الله ونزل به لا يعلم شيئاً منه، ولا يعلمه الرسول البشري، سيد ولد آدم، أعلم الناس بالله، لا يعلمه، وإنما سمعه من جبريل وبلَّغه للأمة وهو لا يدري ما هو- على زعْم هؤلاء-، والصحابة ومَنْ اتبعهم بإحسان من باب أَوْلى على قول هؤلاء!!

فيكون معنى الآية عندهم: (﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران:٧]) أي: لا يعلم معناه إلا الله، ويوجبون الوقف على قوله: (﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران:٧]).

يقول رحمه الله: (فَإِنَّهُ وَقَفَ كَثِيرٌ مِنْ اَلسَّلَفِ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران:٧]، وَهُوَ وَقْفٌ صَحِيحٌ) الوقف على الآية على: (﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران:٧]) هذا وقف صحيح، يعني جاء عن السلف الوقف وجاء عنهم أيضاً الوصل؛ فالوقف صحيح لكن فهْم هؤلاء للوقف فاسد تماماً، فهْمهم للمعنى على الوقف فهْم فاسد، من أفسد ما يكون.

فالوقف- يقول-: (صَحِيحٌ)، لكن هؤلاء- أهل التجهيل المفوِّضة- (لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَعْنَى اَلْكَلَامِ وَتَفْسِيرِهِ وَبَيْنَ اَلتَّأْوِيلِ اَلَّذِي اِنْفَرَدَ اَللهُ بِعِلْمِهِ) هذا الآن مكمن الخلل عند هؤلاء في فهْم الآية، أنهم (لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَعْنَى اَلْكَلَامِ وَتَفْسِيرِهِ وَبَيْنَ اَلتَّأْوِيلِ اَلَّذِي اِنْفَرَدَ اَللهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ).

قراءة الوقف- وهي قراءة صحيحة ثابتة- محمولة على ما انفرد الله بعلمه- وهو الحقيقة- الحقيقة أمْر انفرد الله بعلمه، الحقيقة، والكيفية هذا أمْر اختُصَّ جلّ وعلا وانفرد ﷻ بعلمه.

فعلى قراءة الوقف يُحمَل المراد بالتأويل على الحقيقة والكيفية، (﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ [آل عمران:٧]) أي حقيقته وكيفيته (﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران:٧]) هذا أمر اختص ﷻ بعلمه.

وأما المعنى الآخر: الذي هو التفسير، التفسير وبيان المعنى فهذا الذي تُحمَل عليه قراءة الوصل، (﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران:٧]) أي: الراسخون في العلم يعلمون تأويله بمعنى تفسيره ومعناه؛ ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله- تأويله: أي تفسيره-.

وينبغي أن يُعلم أن لهذا المعنى على القراءتين ارتباط بصدر الآية، الله ﷻ قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ

﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران:٧] هذا الموضع: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران:٧] له ارتباط بالمتشابه، لأن الضمير في قوله: (تأويله) عائد إلى ماذا؟

إلى المتشابه..

فيأتي سؤال هنا: ما المرد بالمتشابه؟

يقال: المتشابه يحتمل أحد معنيين، وينبني عليهما الوقف والوصل، يحتمل أحد معنيين:

يحتمل المتشابه من حيث الحقيقة والكيف والكُنْه، فإذا كان هذا هو المراد فهل يلزم الوقف أو يجوز الوصل؟

يلزم الوقف؛ لأن المتشابه من حيث الكيف والحقيقة هذا لا يعلمه إلا الله فيلزم الوقف.. ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ [آل عمران:٧] أي: حقيقته وكُنْهه إلا الله ﷻ.

ويحتمل أن التشابه من حيث المعنى، والتشابه الذي يكون في بعض الآيات من حيث المعنى ليس تشابهاً مُطلقاً، وإنما هو تشابُه نسبي، ما معنى تشابُه نسبي؟

يعني يكون بالنسبة لبعض الناس مُتشابه وبالنسبة لآخرين ليس متشابهاً؛ تجد مثلاً العامي أو المبتدئ أو القليل في التحصيل العلمي يشتبه عليه المعنى، لكن الراسخ في العلم عنده المعنى واضح لا اشتباه فيه، واضح تماماً.

فقد يكون المراد بالتشابُه من حيث المعنى ويكون تشابُهاً نسبياً وهنا يجوز-ماذا؟- الوصل.

﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران:٧] الراسخون في العلم يعلمون معنى المتشابه، يعني الآيات التي يشتبه معناها نسبياً لبعض الناس.

فتجد مثلاً: طالب العلم يأتي إلى العالم ويقول: يا شيخ! غير واضح لي المعنى هنا!

فيقول له: أبداً المعنى واضح، هذه الآية نظير قول الله تعالى كذا وكذا، أو: هذه الآية يوضحها حديث كذا وكذا.

فيقول طالب العلم: سبحان الله! الآن واضحة، ما كنت أعرف أنا أن هذه الآية ترتبط بكذا.

هذا الرسوخ في العلم.

وطريقة الراسخ في العلم: أنه يَرُدّ المتشابه إلى ماذا؟

إلى المُحكَم، لأن ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[آل عمران:٧]، وأم الشيء أصله الذي إليه يُرجَع، فطريقة الراسخين في العلم يعيدون ما تشابه معناه إلى المُحكَم الذي معناه واضح وظاهر وبيّن..

فـ ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ ﴿٧﴾﴾[آل عمران:٧] أي: ظاهرة، واضحة، بيّنة، وآيات متشابهة: أي في معناها شيء من الخفاء، لكن هذا الخفاء الذي في معناها ليس على كل الناس لأن ليس في القرآن شيء لا يُعلَم أصلاً، ولم يخاطبنا الله ﷻ بكلام لا يُفهَم مطلقاً.

إذاً يقول شيخ الإسلام رحمه الله: (لَكِنْ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَعْنَى اَلْكَلَامِ وَتَفْسِيرِهِ وَبَيْنَ اَلتَّأْوِيلِ اَلَّذِي اِنْفَرَدَ اَللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ) ويكون هؤلاء في هذا الموضع أخطئوا من جهتين-عرفتموهما من خلال العرض السابق-:

الجهة الأولى: إلزامهم بالوقف، وإيجابهم الوقف، مع أن الوقف جائز والوصل جائز ولكل منهما معنى.

والخطأ الثاني: أنهم عندما أوجبوا قراءة الوقف حملوا المعنى المراد حال الوقف محملاً آخراً، ليس هو المراد بالآية في حالة الوقف.

فأخطئوا من هاتين الجهتين.

قال: (لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَعْنَى اَلْكَلَامِ وَتَفْسِيرِهِ وَبَيْنَ اَلتَّأْوِيلِ اَلَّذِي اِنْفَرَدَ اَللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ وَظَنُّوا أَنَّ اَلتَّأْوِيلَ اَلْمَذْكُورَ فِي كَلَامِ اللهِ هُوَ اَلتَّأْوِيلُ اَلْمَذْكُورُ فِي كَلَامِ اَلْمُتَأَخِّرِينَ)؛ ما هو التأويل المذكور في كلام المتأخرين؟

سينطلق شيخ الإسلام من هذا الموضع إلى بيان أن التأويل يُراد به ثلاث معان، ثم يبين كل معنى من هذه المعاني وما المراد به.

قال رحمه الله:

فَإِنَّ اَلتَّأْوِيلَ يُرَادُ بِهِ ثَلَاثُ مَعَانٍ.

فَالتَّأْوِيلُ فِي اِصْطِلَاحِ كَثِيرٍ مِنَ اَلْمُتَأَخِّرِينَ هُوَ: صَرْفُ اَللَّفْظِ عَنْ اَلِاحْتِمَالِ اَلرَّاجِحِ إِلَى اَلِاحْتِمَالِ اَلْمَرْجُوحِ لِدَلِيلٍ يَقْتَرِنُ بِذَلِكَ.

فَلَا يَكُونُ مَعْنَى اَللَّفْظِ اَلْمُوَافِقِ لِدَلَالَةِ ظَاهِرِهِ تَأْوِيلاً عَلَى اِصْطِلَاحِ هَؤُلَاءِ وَظَنُّوا أَنَّ مُرَادَ اللهِ بِلَفْظِ اَلتَّأْوِيلِ ذَلِكَ وَأَنَّ لِلنُّصُوصِ تَأْوِيلاً مُخَالِفاً لِمَدْلُولِهَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ أَوْ يَعْلَمُهُ اَلْمُتَأَوِّلُونَ.

ثُمَّ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: تُجْرَى عَلَى ظَاهِرِهَا فَظَاهِرُهَا مُرَادٌ، مَعَ قَوْلِهِمْ: إِنَّ لَهَا تَأْوِيلاً بِهَذَا اَلْمَعْنَى لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اَللهُ، وَهَذَا تَنَاقُضٌ وَقَعَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ اَلْمُنْتَسِبِينَ إِلَى اَلسُّنَّةِ مِنْ أَصْحَابِ اَلْأَئِمَّةِ اَلْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ.

وَالْمَعْنَى اَلثَّانِي: أَنَّ اَلتَّأْوِيلَ هُوَ تَفْسِيرُ اَلْكَلَامِ سَوَاءٌ وَافَقَ ظَاهِرَهُ أَوْ لَمْ يُوَافِقْهُ وَهَذَا هُوَ اَلتَّأْوِيلُ فِي اِصْطِلَاحِ جُمْهُورِ اَلْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ وَهَذَا اَلتَّأْوِيلُ يَعْلَمُهُ اَلرَّاسِخُونَ فِي اَلْعِلْمِ وَهُوَ مُوَافِقٌ لِوَقْفِ مَنْ وَقَفَ مِنْ اَلسَّلَفِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧] كَمَا نُقِلَ ذلكَ عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ اَلزُّبَيْرِ وَمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ وَابْنِ قُتَيْبَةَ وَغَيْرِهِمْ.

وَكِلَا اَلْقَوْلَيْنِ حَقٌّ بِاعْتِبَارٍ كَمَا قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي مَوَاضِعَ أُخَر، وَلِهَذَا نُقِلَ عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ هَذَا وَهَذَا وَكِلَاهُمَا حَقٌّ.

وَالْمَعْنَى اَلثَّالِثُ: أَنَّ اَلتَّأْوِيلَ: هُوَ اَلْحَقِيقَةُ اَلَّتِي يُؤَولُ الكلام إِلَيْهَا وَإِنْ وَافَقَتْ ظَاهِرَهُ فَتَأْوِيلُ مَا أَخْبَرَ بِهِ فِي اَلْجَنَّةِ مِنْ اَلْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللِّبَاسِ وَالنِّكَاحِ وَقِيَامِ اَلسَّاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ هُوَ اَلْحَقَائِقُ اَلْمَوْجُودَةُ أَنْفُسُهَا لَا مَا يُتَصَوَّرُ مِنْ مَعَانِيهَا فِي اَلْأَذْهَانِ وَيُعَبَّرُ عَنْهُ بِاللِّسَانِ وَهَذَا هُوَ اَلتَّأْوِيلُ فِي لُغَةِ اَلْقُرْآنِ كَمَا قَالَ الله تَعالَى عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء:٥٩].

وَهَذَا اَلتَّأْوِيلُ هُوَ اَلَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اَللهُ.

فَتَأْوِيلُ اَلصِّفَاتِ هُوَ اَلْحَقِيقَةُ اَلَّتِي اِنْفَرَدَ اَللهُ بِعِلْمِهَا وَهُوَ اَلْكَيْفُ اَلْمَجْهُولُ اَلَّذِي قَالَ فِيهِ اَلسَّلَفُ كَمَالِكٍ وَغَيْرِهِ: "اَلِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُول" فَالِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ يَعْلَمُ مَعْنَاهُ وَتَفْسِيرَهُ وَيُتَرْجَمُ بِلُغَةٍ أُخْرَى وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ ذَلِكَ اَلِاسْتِوَاءِ فَهُوَ اَلتَّأْوِيلُ اَلَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اَللهُ تَعَالَى.

هنا يذكر رحمه الله تعالى معاني التأويل الثلاثة:

قال: (فَالتَّأْوِيلُ) وهذا المعنى الأول (فِي اِصْطِلَاحِ كَثِيرٍ مِنْ اَلْمُتَأَخِّرِينَ هُوَ: صَرْفُ اَللَّفْظِ عَنْ اَلِاحْتِمَالِ اَلرَّاجِحِ إِلَى اَلِاحْتِمَالِ اَلْمَرْجُوحِ لِدَلِيلٍ يَقْتَرِنُ بِذَلِكَ) وقد يعبر المتأخرون عن ذلك بقولهم: (صرْف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه) بحيث يُصرَف اللفظ عن الاحتمال الراجح - والاحتمال الراجح: هو المعنى الظاهر المتبادِر من النصّ - إلى الاحتمال المرجوح - أي: إلى معنى مرجوح ليس ظاهراً من الآية، لكن لأدلة أخرى حُمِل عليها هذا المعنى وصُرِف عن ظاهره بناءً على تلك الأدلة الأخرى لدليل يقترب بذلك.

إن كان الدليل – وتنبهوا لذلك! – إن كان الدليل المقترن بذلك الذي صُرِف لأجله هذا النص عن ظاهره إلى ذلك المعنى الآخر هو دليل قرآني، أو دليل من السُّنة النبوية فإن هذا النوع يكون هو داخلاً في النوع الثاني الذي هو التفسير، وبيان المعنى، ودَرَج على ذلك السلف في فهْم كثير من الآيات، يعني بحيث يردون معنى آية إلى معنى آية أخرى يتم استيضاح المعنى ومعرفته من خلالها، وهذا من باب رد المتشابه إلى المُحكَم، فإذا كان القرينة – الدليل الذي يقترن بذلك – دليل من القرآن ودليل من السُّنة، وواضح حمْل الآية عليه فهذا تأويل صحيح، وهو من التفسير الذي هو بيان المعنى الآتي في القسم الثاني.

أما إذا كان القرينة – وهذا هو الموجود عند علماء الكلام – أما إذا كان القرينة تمحلات عقلية، وتكلفات، أقيسة وما إلى ذلك يصرفون بناءً عليها النصوص عن ظاهرها فهذا تكلُّف.

يعني مثلاً يقولون: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه] ليس على ظاهره، لأن لو قلنا – يقولون – أنه على ظاهره للزم من ذلك احتياجه إلى العرش، فيأتون بلوازم عقلية متكلَّفة ما أنزل الله بها من سلطان بموجبها يصرفون النص عن ظاهره، فهذا التأويل باطل، هو في الحقيقة تحريف.

أُعيد مرة ثانية: هذا المعنى أو الاصطلاح للتأويل الذي عند المتأخرين هو صرْف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك؛

إن كان الدليل المقترن آية وحديث حُمِل المعنى عليها لوضوح حَمْله عليها فهو – ماذا؟ – تفسير.

وإن كان الدليل المقترن تكلفات عقلية وأقيسة منطقية وفلسفات ونحو ذلك؛ فهذا يُسمى تحريف، فهذا تحريف ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]، يقولون: (استوى: استولى) (غضب: أي عاقب مثلاً أو أراد أن يعاقب أو نحو ذلك)؛ هذا كله من التحريف للكلم عن مواضعه.

قال رحمه الله: (فَلَا يَكُونُ مَعْنَى اَللَّفْظِ اَلْمُوَافِقِ لِدَلَالَةِ ظَاهِرِهِ تَأْوِيلاً عَلَى اِصْطِلَاحِ هَؤُلَاءِ) لا يعدون المعنى الظاهر المفهوم المتبادَر من النص وأنت تقرأه والذي هو معنى النص لا يعدونه تأويلاً – لماذا؟ – لأن التأويل عندهم ارتبط تماماً بصرْف النص عن ظاهره، والتكلَّف والتمَحُّل في هذا الصرْف للنص عن ظاهره، وظنوا أن مراد الله بلفظ التأويل ذلك.

تأويل الصفات، تلك التكلفات التي يمارسها هؤلاء، ويحملون معاني نصوص الصفات على معاني بعيدة يعتقدون أن هذا هو المراد بالتأويل، ليس فهْم الآية على ظاهرها، وإنما تلك التكلفات التي يقولها هؤلاء.

(وَظَنُّوا أَنَّ مُرَادَ الله بِلَفْظِ اَلتَّأْوِيلِ ذَلِكَ وَأَنَّ لِلنُّصُوصِ تَأْوِيلاً مُخَالِفاً لِمَدْلُولِهَا لاَ يَعْلَمُهُ إِلَّا اَللهُ أَوْ يَعْلَمُهُ اَلْمُتَأَوِّلُونَ) لا يعلمه إلا الله على طريقة مَنْ؟

المفوِّضة.

(أَوْ يَعْلَمُهُ اَلْمُتَأَوِّلُونَ) على طريقة المُؤوِّلة- مؤوِّلة الصفات-.

وكل نص أوهم التشبيها أوَّله أو فوض ورم تنزيهاً

(مُخَالِفاً لِمَدْلُولِهَا لاَ يَعْلَمُهُ إِلَّا اَللهُ أَوْ يَعْلَمُهُ اَلْمُتَأَوِّلُونَ)..

انتبه هنا لفائدة ثمينة!

وهي قوله: (وَأَنَّ لِلنُّصُوصِ تَأْوِيلاً مُخَالِفاً لِمَدْلُولِهَا) لمدلول النصوص (لاَ يَعْلَمُهُ إِلَّا اَللهُ) هذا على قول المفوِّضة، (أَوْ يَعْلَمُهُ اَلْمُتَأَوِّلُونَ) وهذا على قول مَنْ يُؤوِّل؛ تفهم من ذلك أن المفوضة والمؤوِّلة كلاهما يشترك -في ماذا؟- كلاهما يشترك في أن النص مصروف عن ظاهره- هذا واحد-..

اثنين: أن له تأويل خلاف الظاهر، ما هو تأويله أيها المفوِّض؟

لا يعلمه إلا الله.

بينما المؤوِّل يشتغل بتتبع غرائب اللغات ووحشيها ومُستكرَه التأويلات، ويبدأ يحمل الآيات عن ظاهرها.

ويظنون أن هذا الأول للذي هو مسلك التفويض يظنون أنه هو مسلك السلف، ولهذا قالوا عنه: أسلم.

وأن صرْف الآيات عن ظاهرها بتلك التكلفات- وهو مذهب الخلف- وهو الأعلم والأحكم.

قال: (ثُمَّ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلاَءِ يَقُولُونَ: تُجْرَى عَلَى ظَاهِرِهَا فَظَاهِرُهَا مُرَادٌ مَعَ قَوْلِهِمْ: إِنَّ لَهَا تَأْوِيلاً بِهَذَا اَلْمَعْنَى لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اَللهُ وَهَذَا تَنَاقُضٌ) وهذا تناقض بيّن عند هؤلاء الفئة الذين أشار إليهم شيخ الإسلام أنهم يقولون: أنها (تُجْرَى عَلَى ظَاهِرِهَا فَظَاهِرُهَا مُرَادٌ مَعَ قَوْلِهِمْ: إِنَّ لَهَا تَأْوِيلاً بِهَذَا اَلْمَعْنَى لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اَللهُ).

(وَهَذَا تَنَاقُضٌ وَقَعَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ اَلْمُنْتَسِبِينَ إِلَى اَلسُّنَّةِ مِنْ أَصْحَابِ اَلْأَئِمَّةِ اَلْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ)..

هذا ما يتعلق بالمعنى الأول.

المعنى الثاني قال: (أَنَّ اَلتَّأْوِيلَ هُوَ تَفْسِيرُ اَلْكَلَامِ سَوَاءٌ وَافَقَ ظَاهِرَهُ أَوْ لَمْ) ظاهره، ما معنى لم يوافق ظاهره؟

أي حُمِل المعنى- معنى الآية- على احتمال آخر ليس هو الاحتمال الظاهر من النص لوجود قرينة أخرى في القرآن، أو في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام أوجبت حمْل المعنى عليه.

وهذا الذي مر معنا قريباً أن صرْف النصّ عن ظاهره، الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لقرينة تدل عليه، فإذا كانت القرينة صحيحة من القرآن والسُّنة، فهذا تفسير، درج على ذلك السلف وهو التأويل الصحيح، درج على ذلك السلف رحمهم الله.

(وَالْمَعْنَى اَلثَّانِي: أَنَّ اَلتَّأْوِيلَ هُوَ تَفْسِيرُ اَلْكَلَامِ سَوَاءٌ وَافَقَ ظَاهِرَهُ أَوْ لَمْ يُوَافِقْهُ وَهَذَا هُوَ اَلتَّأْوِيلُ فِي اِصْطِلَاحِ جُمْهُورِ اَلْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ)..

والطبري كثيراً ما يُعبّر في تفسيره قال: أهل التأويل، يقصد السلف في فهْمهم للمعاني- معاني الآيات ومدلولاتها-، أو يقول: تأويل الآية كذا- أي: تفسيرها ومعناها-.

(وَهَذَا اَلتَّأْوِيلُ يَعْلَمُهُ اَلرَّاسِخُونَ فِي اَلْعِلْمِ) ومعنى الراسخ في العلم: أي المتمكن فيه تحقيقاً، وتأصيلاً وتدقيقاً وطول باع في العلم، وثباتاً عليه.

قال: (وَهَذَا اَلتَّأْوِيلُ يَعْلَمُهُ اَلرَّاسِخُونَ فِي اَلْعِلْمِ وَهُوَ مُوَافِقٌ لِوَقْفِ مَنْ وَقَفَ مِنْ اَلسَّلَفِ) قوله: (وَقْفِ مَنْ وَقَفَ مِنْ اَلسَّلَفِ) ماذا تشعركم؟

(وَقْفِ مَنْ وَقَفَ مِنْ اَلسَّلَفِ) أي: منهم مَنْ وقف ومنهم مَنْ وصل، وأن هذا حق وهذا حق.

لكن التأويل هنا على المعنى الثاني، التأويل على المعنى الثاني: (وَهُوَ مُوَافِقٌ لِوَقْفِ مَنْ وَقَفَ مِنْ اَلسَّلَفِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧] كَمَا نُقِلَ ذَلِكَ عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ اَلزُّبَيْرِ وَمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ وَابْنِ قُتَيْبَةَ وَغَيْرِهِمْ).

(وَكِلَا اَلْقَوْلَيْنِ حَقٌّ بِاعْتِبَارٍ) ما المراد بالقولين؟

هل المراد بالقولين: المعنيين المتقدِّم ذِكْرهما؟ أو المراد بالقولين: القول بالوقف، والقول بالوصل؟

الثاني هو المراد، المراد بالقولين: أي: قول مَنْ قال بالوقف وقول مَنْ قال بالوصل..

قال: (وَكِلَا اَلْقَوْلَيْنِ حَقٌّ بِاعْتِبَارٍ) القول بالوقف حق، والقول بالوصل حق باعتبار.

القول بالوصل حق باعتبار أن المراد بالتأويل: التفسير؛ الذي هو فهْم المعنى.

وفهْم المعنى يعلمه الراسخون في العلم، فيجوز الوصل لأنهم يفهمون المعنى.

والوقف-قراءة الوقف -باعتبار أن المراد بالتأويل: الحقيقة، ما يؤول إليه، وهو ما سيأتي معنا في المعنى الثالث عند شيخ الإسلام، فهذا لا يعلمه إلا الله، لا يعلمه الراسخون في العلم؛ فتُحمَل عليه قراءة الوقف.

إذاً قراءة الوقف صحيحة، وقراءة الوصل صحيحة لكن هذه باعتبار وهذه باعتبار، لكن مَنْ قرأ قراءة الوقف وحمل الوقف على المعنى الآخر الذي يتعلق بالوصل هل يصح كلامه؟

هذا الذي وضحه شيخ الإسلام سابقاً وذكر أنهم لم يفرِّقوا بين المراد بالتفسير... بالتأويل باعتبار إرادة المعنى وتفسيره، والتأويل باعتبار ما يؤول إليه الكلام.

قال: (وَكِلَا اَلْقَوْلَيْنِ حَقٌّ بِاعْتِبَارٍ كَمَا قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي مَوَاضِعَ أُخَر، وَلِهَذَا نُقِلَ عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ هَذَا وَهَذَا وَكِلَاهُمَا حَقٌّ)؛ (نُقِلَ عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ هَذَا وَهَذَا) أي: الوقف والوصل، هذا وهذا: أي: الوقف والوصل (وَكِلَاهُمَا حَقٌّ).

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلام متين في هذا الباب في رسالته «التدمرية».

قال: (وَالْمَعْنَى اَلثَّالِثُ: أَنَّ اَلتَّأْوِيلَ: هُوَ اَلْحَقِيقَةُ اَلَّتِي يؤولُ الكَلامُ إِلَيْهَا وَإِنْ وَافَقَتْ ظَاهِرَهُ؛ فَتَأْوِيلُ مَا أَخْبَرَ بِهِ فِي اَلْجَنَّةِ مِنْ اَلْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللِّبَاسِ وَالنِّكَاحِ وَقِيَامِ اَلسَّاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ هُوَ اَلْحَقَائِقُ اَلْمَوْجُودَةُ أَنْفُسُهَا لاَ مَا يُتَصَوَّرُ مِنْ مَعَانِيهَا فِي اَلْأَذْهَانِ وَيُعَبَّرُ عَنْهُ بِاللِّسَانِ)؛

يعني الآن لما نأتي إلى نعيم الجنة (العنب، والرمان، والأنهار، والأشجار) وغير ذلك من نعيم الجنة، وفي القرآن قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ [السجدة:١٧]، النبي عليه الصلاة والسلام قال: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وجاء عن ابن عباس أنه قال: ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء.

فإذاً ما هو تأويل النعيم- نعيم الجنة-؟ ما هو تأويله، العنب، الرمان، الأنهار،.. إلى غير ذلك ما هو تأويله على هذا المعنى- الاعتبار الثالث-؟

على الاعتبار الثالث تأويله: (اَلْحَقَائِقُ اَلْمَوْجُودَةُ أَنْفُسُهَا)، ما هي هذه الحقائق التي الموجودة في أنفسها؟ هي التي قال عنها النبي ﷺ: «ما خطر على قلب بشر»، أي: لا يعلمه أحد، الحقيقة لا يعلمها أحد، لكنها المراد بها: أي الحقائق الموجودة أنفسها (لاَ مَا يُتَصَوَّرُ مِنْ مَعَانِيهَا فِي اَلْأَذْهَانِ وَيُعَبَّرُ عَنْهُ بِاللِّسَانِ)؛

إذاً نعيم الجنة- العنب، والرمان، و.. إلىٰ آخره- باعتبار الحقائق ماذا يقال عنه؟

الله أعلم بالحقيقة.

لكن باعتبار المعنىٰ، عندما يقال عنب ورمان وأنهار، هل معانيها مختلطة علينا؟ هل في احتمال أن يكون المراد بالنهر الرمان مثلاً؟

المعاني واضحة، رمان، أنهار، أشجار، المعاني واضحة، لا التباس فيها، المعاني واضحة ظاهرة لكن الحقيقة الله أعلم بها، «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر».

(وَهَذَا هُوَ اَلتَّأْوِيلُ فِي لُغَةِ اَلْقُرْآنِ كَمَا قَالَ الله تَعَالَى عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ [يوسف:١٠٠]) ما معنىٰ قوله: (﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾ [يوسف:١٠٠])؟

هذه الحقيقة التي آلت إليها رؤياي، حقيقتها التي آلت إليها هو هذا.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]) تأويله: أي الحقيقة التي يؤول إليها.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء]).

قال: (وَهَذَا اَلتَّأْوِيلُ هُوَ اَلَّذِي لاَ يَعْلَمُهُ إِلَّا اَللهُ)، المعنىٰ الثالث الذي هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام هذا أمر لا يعلمه إلا الله ﷻ.

قال: (فَتَأْوِيلُ اَلصِّفَاتِ هُوَ اَلْحَقِيقَةُ اَلَّتِي اِنْفَرَدَ اَللهُ بِعِلْمِهَا وَهُوَ اَلْكَيْفُ اَلْمَجْهُولُ اَلَّذِي قَالَ فِيهِ اَلسَّلَفُ كَمَالِكٍ وَغَيْرِهِ: "اَلِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ")؛

قوله: (وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ) في بعض الروايات، والكيف غير معقول، الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول.

(فَالِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ يَعْلَمُ مَعْنَاهُ وَتَفْسِيرَهُ) من حيث المعنىٰ معلوم (وَيُتَرْجَمُ بِلُغَةٍ أُخْرَى) لأنه له معنىٰ واضح، يمكن أن يُفسَّر ويمكن أن يُترجَم أيضاً إلىٰ لغة أخرىٰ بمعنىٰ: علا وارتفع، فيمكن أن يُفسَّر، ويمكن أن يُترجَم إلىٰ اللغة الأخرىٰ.

جاء في بعض النسخ في لـ «التدمرية» زيادة هنا وهو: من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم.

(وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ ذَلِكَ الِاسْتِوَاءِ فَهُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ)؛ إذاً كلمة مالك رحمه الله تُجَلِّي هذا الأمر، وتُقَعِّد هذا المعنىٰ، قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول، إذا أردنا أن ننزل معنىٰ الآية علىٰ ذلك: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] وصلاً ووقفاً؛

على قراءة الوقف: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۝٧﴾ [آل عمران:٧] الكيف مجهول، يجب أن نقف هنا، الكيف مجهول لا يعلمه إلا الله.

وعلى قراءة الوصل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ۝٧﴾ [آل عمران:٧] الاستواء معلوم، والمعاني معلومة، فمعاني الصفات معلومة وكيفيتها مجهولة لا يعلمها إلا الله.

ولهذا قال مالك: الكيف مجهول ولم يقل معدوم؛ لأن الكيف يعلمه الله ﷻ، ولهذا نفْي الكيف عند السلف هو نفْي للتكييف الذي هو العلم، نفْي لعلمنا بالكيف.

قال رحمه الله:

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- مَا ذَكَرَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَغَيْرُهُ فِي تَفْسِيرِهِمْ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا؛ وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ؛ وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ؛ وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ﷻ مَنْ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ).

وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ؛ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ؛ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

وَكَذَلِكَ عِلْمُ السَّاعَةِ وَنَحْوُ ذَلِكَ؛ فَهَذَا مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ؛ وَإِنْ كُنَّا نَفْهَمُ مَعَانِيَ مَا خُوطِبْنَا بِهِ، وَنَفْهَمُ مِنْ الْكَلَامِ مَا قُصِدَ إِفْهَامُنَا إِيَّاهُ كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨] فَأَمَرَ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ لَا بِتَدَبُّرِ بَعْضِهِ.

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ - عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ؛ وَعَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنهم؛ وَغَيْرُهُمَا - أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنْ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يَتَجَاوَزُوهَا حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعاً.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ؛ أَقِفُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ

أَسْأَلُهُ عَنْهَا.

وَقَالَ اَلشَّعْبِيُّ: مَا اِبْتَدَعَ أَحَدٌ بِدْعَةً إِلَّا وَفِي كِتَابِ الله بَيَانُهَا.

وَقَالَ مَسْرُوقٌ: مَا قال أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَعِلْمُهُ فِي اَلْقُرْآنِ وَلَكِنَّ عِلْمَنَا قَصُرَ عَنْهُ.

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ.

أسأل الله ﷻ أن ينفعنا وإياكم بما علمنا وأن يزيدنا علماً وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يمنّ علينا جميعاً بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس السابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه «الفتوى الحموية الكبرى»:

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُ- مَا ذَكَرَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَغَيْرُهُ فِي تَفْسِيرِهِمْ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (تَفْسِيرُ اَلْقُرْآنِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ اَلْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهَا، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ اَلْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الله ﷻ مَنْ اِدَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ).

وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧]، وَقَالَ اَلنَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ الله أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي اَلصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

وَكَذَلِكَ عِلْمُ اَلسَّاعَةِ وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنْ اَلتَّأْوِيلِ اَلَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اَللَّهُ، وَإِنْ كُنَّا نَفْهَمُ مَعَانِيَ مَا خُوطِبْنَا بِهِ، وَنَفْهَمُ مِنْ اَلْكَلَامِ مَا قُصِدَ إِفْهَامُنَا إِيَّاهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨] فَأَمَرَ بِتَدَبُّرِ اَلْقُرْآنِ كُلِّهِ لَا بِتَدَبُّرِ بَعْضِهِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد..

فهذا الأثر وما يأتي بعده من آثار عن السلف ساقها رحمه الله تعالى لها تعلُّق بالكلام الذي سبق.

والسياق هنا في الرد على مَنْ يقول: إن باب الصفات - صفات الله تبارك وتعالى-، وما جاء فيه من آيات في كتاب الله ﷻ، وأحاديث في سُنة النبي صلوات الله وسلامه عليه؛ كله مما لا يُعقَل له معنى، ولا يُفهَم له

مدلول، وإنما هي ألفاظ تُقرَأ قراءة تعبُّد دون أن يخاض في شيء من معانيها لأن ليس لها معنى يُعقَل أو يُفهَم؛ وهذه الطريقة طريقة قوم وصفهم رحمه الله تعالى - فيما سبق - بـ(أهل التجهيل) وهم المفوِّضة الذين يقولون: بتفويض معاني الصفات بمعنى أن نصوص الصفات ليس لها معنى يُعقَل، وليس لها مدلول يُفهَم.

ووُصِفوا بأنهم أهل تجهيل لأنهم جهَّلوا السلف عندما ادَّعوا أن هذه الطريقة طريقة السلف، فجهّلوا السلف في أعظم باب وهو باب الأسماء والصفات.

وقد نقل رحمه الله تعالى هذا الأثر المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (تَفْسِيرُ ٱلْقُرْآنِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ)؛

الأول: (تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ ٱلْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا)؛ وهذا يتعلق بالمفردات - مفردات الكلمات العربية -؛ فهذا تعرفه العرب من كلامها، عندما تقرأ مثلاً كلمة (شمس)، كلمة (قمر)، (أرض، سماء، نجوم، شجر..) إلى آخر ذلك؛ هذه المفردات تعرفها العرب من كلامها، وهذا تفسيره بما يُعرَف من مدلول لتلك المفردات في اللسان العربي.

والنوع الثاني: أو الوجه الثاني: (تَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ) بمعنى أنه لا بد من معرفته، لا يُعذَر أحد بجهالته، وهو ما يتعلق بفرائض الدين وواجبات الإسلام، مثل: إقام الصلاة، إيتاء الزكاة، صوم رمضان، تجنُّب الآثام والحرام، البُعد عن الكبائر؛ هذه أمور لا بد من تعلمها، أما الفرائض لتُفعَل، وأما الكبائر لتُجتَنَب وليحذر العبد من الوقوع فيها.

فمعنى قوله: (لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ) أي: لا بد من تعلُّمها.

وليس معنى (أنه لا يُعذَر) أن بعض التفاصيل التي تتعلق بذلك إن قصُر الفهم أو العلم أو التحصيل لها أنه يُؤَثَّم بذلك، لكن المراد أن هذه أمور لا بد من تعلُّمها، ولا بد من العناية بها، وهي الأمور التي تتعلق بواجبات الشريعة وفراض الدين.

والوجه الثالث: (تَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ ٱلْعُلَمَاءُ) وهذا ما يتعلق بالأمور التي تحتاج إلى فقه، تحتاج إلى استنباط من تفاصيل الشريعة وتفاصيل الأحكام، وأيضاً الحِكم - حِكَم الشريعة - إلى غير ذلك..، فهذه الأمور أمور يعلمها العلماء، وغيرهم لا يعلمها؛ بل مَنْ مكَّن الله سبحانه وتعالى له في العلم وأعطاه الرسوخ فيه يُدرِك هذه التفاصيل ويفهمها فهماً لا يُدركه غيره ممَّنْ لم يُحصِّل تحصيله ولم يصل إلى علمه.

والوجه الرابع من هذه الوجه: (تَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الله ﷻ) أي: اختص الله ﷻ بعلمه، وهذا يفيد أن

من تفسير القرآن ما لا يعلمه إلا الله، قال: (وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الله ﷻ) فهذا فيه أن من تفسير القرآن ما لا يعلمه إلا الله، ولا يعلمه العلماء، العلماء الراسخون لا يعلمونه.

وقد قال الله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران:٧]، وتقدم كلام لشيخ الإسلام رحمه الله تعالى عن هذه الآية، وأيضاً الاختلاف في الوقف والوصل في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧]؛ لأنه إن أُريد بالمتشابه في قوله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]؛ إذا أُريد بالمتشابه: الحقيقة، والكيفية؛ فهذا أمر لا يعلمه إلا الله ﷻ، اختص الله ﷻ بعلمه.

سيأتي شيء من الأمثلة على ذلك..

أما إذا كان المراد: المعنى والمدلول؛ فالكلام كلام يُفْهَم، وإن- مثلاً- قصر بالإنسان علمه عن الفهم فالراسخون في العلم يفهمونه بما آتاهم الله ﷻ من علم؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه: أنا من الراسخين في العلم الذين يعملون تأوله.

ولهذا قراءة الوصل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[آل عمران:٧] يُراد بالمتشابه فيها أي: من حيث المعنى.

والتشابه في القرآن من حيث المعنى ليس تشابهاً مُطلقاً، وإنما هو تشابه نسبي، بمعنى: أنه يشتبه على قوم، ولا يشتبه على آخرين؛ يشتبه على مَنْ لا علم عنده، ولا يشتبه على مَنْ رسخت قدمه في العلم.

قال: (وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الله ﷻ مَنْ اِدَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ) أي: هذا النوع من التفسير- الذي اختص الله ﷻ بعلمه- إذا ادّعى مُدَّعٍ أن عنده هذا العلم فهو كاذب؛ لأن هذا علم اختص الله ﷻ به كما في قراءة الوقف: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران:٧] أي: اختص الله ﷻ بعلمه وهو التشابه الذي يتعلق بالحقيقة، والكيفية، والكُنْه،

ذكر مثالاً على ذلك رحمه الله، قال: (وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة])، نعيم الجنة ذُكِر في القرآن، ذُكِرَت الأنهار، ذُكِرت الأشجار، وذُكِرت الثمار، وذُكِر الفواكه، وذُكِر الحور، وذُكِرَت هذه التفاصيل في القرآن الكريم، ومعانيها أيضاً معلومة، عندما مثلاً نقرأ (رمان، وعنب) نعرف الفرق بين الرمان والعنب من حيث المعنى.

عندما مثلاً نقرأ (أنهار، وأشجار) من حيث المعنى نُدرِك الفرق بين الأنهار والأشجار، لكن من حيث الحقيقة، وكيف هذا النعيم قال: (﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾[السجدة:١٧]) نفى الله ﷻ علم النفوس بحقيقة ذلك النعيم، أما المعنى من حيث المعاني هذه الألفاظ: العنب معروف، والرمان معروف، والأنهار معروفة، والأشجار معروفة.. إلى آخره، لكن حقيقة ذلك النعيم قال: (﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾[السجدة:١٧]).

فإذاً ثمة علم يتعلق بنعيم الجنة منفي وهو: الحقيقة، حقيقة وكيفية ذلك النعيم.

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء؛ بمعنى: أن الحقائق مختلفة.

ومثل هذه الآية قول النبي ﷺ في الحديث: («يَقُولُ الله أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»)؛ وهذا فيه أن حقيقة النعيم الذي أعدّه الله ﷻ لأهل الإيمان في الجنة هذا شأنهم كما وصف الله في هذا الحديث القدسي: («مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»).

وإذا كان هذا فيما يتعلق بنعيم الجنة فكيف بنعوت الرب وأوصافه العظيمة ﷻ؟

قال: (وَكَذَلِكَ عِلْمُ السَّاعَةِ وَنَحْوُ ذَلِكَ)؛ هذه أمور كلها جاء ذِكْرها في القرآن، ونعرف أن الساعة تقوم وأن لها يوم تقوم فيه، لكن كيف يكون ذلك؟ وما هي الحقيقة التي تتعلق بتفاصيل ذلك؟؛ هذا أمر اختص الله ﷻ بعلمه.

قال: (فَهَذَا مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الله) تقدمت معنا الآية: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾[آل عمران:٧] على قراءة الوقف، وقراءة الوصل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[آل عمران:٧] هذه القراءة راجعة للتشابه من حيث المعنى، وأما قراءة الوقف فإنها راجعة للتشابه من حيث الحقيقة والكيفية، وهذا أمر لا يعلمه إلا الله ﷻ، قال: (فَهَذَا مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الله).

(وَإِنْ كُنَّا نَفْهَمُ مَعَانِيَ مَا خُوطِبْنَا بِهِ) انتبه! (وَإِنْ كُنَّا نَفْهَمُ مَعَانِيَ مَا خُوطِبْنَا بِهِ)؛ الآن- مثلما مثّلت قبل قليل- نعيم الجنة (عنب، ورمان، وأشجار، وأنهار.. إلى آخره) المعاني معروفة أو ليست معروفة؟ عندما نقرأ (رمان، وعنب) ألا نعرف معنى هذا ومعنى هذا؟

المعنى معروف، أنهار وأشجار... لا يخطر بالبال أن الأنهار مثلاً قد تكون هي الأشجار مثلاً! الأنهار أنهار، والأشجار أشجار، المعاني معروفة، لكن الحقيقة لا يعلمها إلا الله، فهذا من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله (وَإِنْ كُنَّا نَفْهَمُ مَعَانِيَ مَا خُوطِبْنَا بِهِ).

(وَنَفْهَمُ مِنَ الْكَلَامِ مَا قُصِدَ إِفْهَامُنَا إِيَّاهُ) إذاً ما يتعلق بالكيفية لم يُقصَد إفهامنا إياه، أمر اختص الله ﷻ ولم يُقصَد بإنزال القرآن إفهامنا إياه، أمر استأثر الله ﷻ بعلمه.

(كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]) أورد هاتين الآيتين دليلاً على أنّا نفهم معاني ما خوطبنا به، وأن ما خوطبنا به كلام مفهوم المعنى، أورد رحمه الله هاتين الآيتين استدلالاً على أن ما خوطبنا به في كلام ربنا مفهوم المعنى.

والأصل في التنزيل لكلام الله ﷻ أن يُفهَم المعنى، فهو كلام عربي مبين، واضح- أي: المعنى والدلالة- ؛ ولذا أُمِرنا بتدبره، لو كان لا يُفهَم معناه هل يُؤمَر بتدبر ما لا يُفهَم معناه؟!

فهذه الآيات التي فيها الأمر بتَدَبُّر القرآن دليل على أن القرآن مفهوم المعنى، ومعانيه مفهومة.

قال: (فَأَمَرَ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ لاَ بِتَدَبُّرِ بَعْضِهِ) انتبه لهذا الكلام!

(لاَ بِتَدَبُّرِ بَعْضِهِ)؛ يعني لم يُستثنَ.. عندما أُمِر مثلاً بتدبر القرآن لم يُستثنَ شيء من الذي في القرآن على ما يزعم أهل التعطيل، لم يُستثن شيء، لما قال: (﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد:٢٤]) لم يُستَثن مثلاً آيات الصفات، التي يدعي أولئك أنها ليس لها معنى يُعقَل.

فالله أمرنا بتدبر القرآن، والصفات هي أشرف ما في القرآن وأعظمه، ولهذا كانت سورة (قل هو الله أحد) تعدل القرآن لأنها أُخلِصَت في بيان صفة الرب ﷻ، وآية الكرسي أعظم آية في القرآن لأنها- أيضاً- أُخلِصَت لتوحيد الرب بنوعيه (العلمي والعملي) فكيف يقال في أشرف شيء في القرآن: أنه لا يشمله قوله: (﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد:٢٤])، وقوله: (﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]).

إذاً قوله جل وعلا: (﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد:٢٤]) محال أن يكون ذلك فيما لا يُفهَم معناه، كلام لا يُفهَم معناه ويقال: (﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد:٢٤]) هذا محال أن يكون كذلك؛ فأَمْر الله لنا بتدبُّر القرآن دليل على أن القرآن كله مفهوم المعنى.

قد يكون في بعضه ما هو متشابه في المعنى لكن ليس تشابهاً مُطلقاً وإنما هو تشابه نسبي، يخفى معناه على كثير من الناس، لكنه لا يخفى على الراسخين في العلم، كما مرّ معنا قول ابن عباس رضي الله عنهما: أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله.

قال رحمه الله تعالى:

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ - عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُمَا - أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنْ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يَتَجَاوَزُوهَا حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعاً.

قال: (وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ) وهو من الأئمة القراء، علماء الكوفة، وممَّنْ عُني بالقرآن، عرضه على عثمان، وعلى ابن مسعود، وعلى غيرهما.

يقول: (حَدَّثنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ - عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُمَا) تلقى القرآن وتعلم القرآن على الصحابة الكرام، فلننظر كيف كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعلمون الناس القرآن، وما هي طريقة الصحابة رضي الله عنهم في تعليم القرآن.

تلك المجالس التي كان يجلسها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ليعلموا الناس القرآن كيف كانت؟ ولنقارنها أيضاً بطريقتنا، ولننظر كيف حالنا مع حالهم، وشأننا مع شأنهم..

قال: (حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ - عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُمَا - أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنْ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يَتَجَاوَزُوهَا حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ) لماذا؟

لأن الذي اشتمل عليه القرآن جانبان (علمي وعملي)، والتوحيد- كما نعلم أيضاً- جانبان (علمي وعملي)؛ العلمي: الأسماء والصفات، والعملي: العبادة- عبادة الله وإخلاص الدين له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فيقول: لا نتجاوز العشر الآيات حتى نتعلم ما فيها من العلم، ونتعلم أيضاً ما فيها من العمل، ثم بعد ذلك ننتقل إلى عشر آيات أخرى.

(قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعاً) وهذا فيه أن تَعَلُّم معاني القرآن الكريم ومدلولات القرآن الكريم هو المقصود بإنزال حروف القرآن، وأن تعلُّم هذه المعاني وفقه مدلول هذه الألفاظ هو الذي لأجله أُنزِل كلام الله سبحانه وتعالى؛ بل إن كل خطاب ينطق به صاحبه نُطقاً أو يكتبه خطاً مقصوده ماذا؟

مثلما مثَّل العلماء رحمهم الله: عندما يقف الإنسان على كتاب في الطب أو في أي علم من العلوم: هل هذا الكتاب الذي خُطَّ في الطب مقصوده النظر في الحروف؟

ما من كتاب يُكتَب إلى والمقصود المعاني التي فيه، ولا يمكن أن ينتفع بكتاب ما لم يفهم معانيه؛ ولهذا تجد الإنسان الذي يريد أن يختص في فن من الفنون يسأل أهل الخبرة والدراية فيه عن معاني هذه الألفاظ.

فكل خطاب إنما يُقصَــد به فهْم معانيه، فكيف يقال: إن كلام الله ﷻ أُنزِل حروفاً، ولاسـيما فيما يتعلق بصفات الرب ﷻ حروفاً لم يُقصَد فِقْه معانيها، أو فهْم دلالاتها؟!

وهذا هو مراد سوْق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى لهذا الأثر: أن السلف رحمهم الله تعالى كانوا يتعلمون القرآن من الصحابة رضي الله عنهم ويفقهون المعاني، عندما يمر بالآيات مثلاً التي في الصفات.. متى يتجاوزها؟

عندما يمر بآيات الصـفات: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد] يُتقِن حِفْظها، ولا يتجاوزها بإتقان الحفظ؛ بل يُتقِن أيضاً الفهم لمعاني هذه الأسماء، لأنه قال: تعلمنا العلم، وإذا كانت آيات فيها عمل- أمْر بعمل- أيضاً نتعلم العمل ثم نتجاوز إلى غيرها.

إذاً السلف لما تعلموا القرآن من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم تعلموا العلم والعمل، مثلما قال هنا: (فَتَعَلَّمْنَا اَلْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعاً).

قال رحمه الله تعالى:

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَرَضْتُ اَلْمُصْحَفَ عَلَى اِبْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِا أَقِفُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ أَسْأَلُهُ عَنْهَا.

مجاهد رحمه الله تعالى إمام في التفسير حتى قال الثوري رحمه الله تعالى: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبُك به.

والأئمة رحمهم الله اعتمدوا تفسير الإمام الشافعي والإمام أحمد والبخاري وغيرهم من أئمة الإسلام، اعتمدوا تفسير مجاهد لما له من مكانة عظيمة، وانظر مكانة تفسيره من خلال هذه المقولة له قال: (عَرَضْتُ اَلْمُصْحَفَ عَلَى اِبْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ) أي: آية آية، عرضه على ابن عباس آيةً آية، (أَقِفُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ أَسْأَلُهُ عَنْهَا) ما مراده بقوله: (أَسْأَلُهُ عَنْهَا)؟

أي: معناها، ما المراد بها.. كل آية.

هل تجاوز مجاهد آيات الصفات؟ على زعم أولئك أنها لا يُفهَم لها معنى؟!

قال: (أَقِفُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ أَسْأَلُهُ عَنْهَا)، بما في ذلك آيات الصفات، يقف عند تلك الآيات ويسأل ابن عباس عن معناها.

(أَقِفُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ أَسْأَلُهُ عَنْهَا)؛ فهذا يفيد أن القرآن الذي أُمِرنا بتدبُّره معقول، مفهوم المعنى، معلوم الدلالة، بما في ذلك آيات الصفات؛ خلاف ما يدّعيه أولئك أنها ليست مفهومة وليس لها معنى معلوم.

قال رحمه الله تعالى:

وَقَالَ اَلشَّعْبِيُّ: مَا اِبْتَدَعَ أَحَدٌ بِدْعَةً إِلَّا وَفِي كِتَابِ الله بَيَانُهَا.

(وَقَالَ اَلشَّعْبِيُّ) رحمه الله وهو من علماء التابعين: (مَا اِبْتَدَعَ أَحَدٌ بِدْعَةً إِلَّا وَفِي كِتَابِ الله بَيَانُهَا) أي: في كلام الله بيان بطلان تلك البدعة وزيْفُها؛ لأن القرآن جاء بإحقاق الحق وإبطال الباطل، والرد على المُبطِلة؛ وهذا يفيدنا أن نصوص القرآن معقولة المعنى، لو كانت حروفاً ليس لها معاني لم يتحقق هذا الأمر الذي أشار إليه أن ما من بدعة إلا وفي القرآن إبطالها أو ردُّها.

ومن المعلوم أن أَخْذ دلالات القرآن على إبطال البدع أمْر يرجع إلى فهْم معاني القرآن؛ ولهذا تجد العلماء في كتب التفسير يقول: وفي هذه الآية ردٌّ على المعتزلة، فيها ردٌّ على المرجئة، فيها ردٌّ على كذا.. من طوائف الضلال، والقارئ العادي لا يعرف ما فيها من دلالات على إبطال تلك البِدَع، لكن العالم الراسخ الذي فهم المعنى وفهم بِدَع أولئك من جهة أخرى يُدرِك أن هذه الآية ترد على البدعة الفلانية عند الطائفة الفلانية.

شاهد القول: أن كلمة الشعبي هذا رحمه الله دليل على أن كلمات القرآن وألفاظه مفهومة المعاني.

قال رحمه الله تعالى:

وَقَالَ مَسْرُوقٌ مَا قال أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَعِلْمُهُ فِي اَلْقُرْآنِ وَلَكِنَّ عِلْمَنَا قَصُرَ عَنْهُ. وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ.

قال: (وَقَالَ مَسْرُوقٌ) رحمه الله تعالى: (مَا قال أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَعِلْمُهُ فِي اَلْقُرْآنِ) فالقرآن فيه تبيان لكل شيء، لكن من معاني القرآن ما لا يُدرَك إلا بالاستنباط والفقْه للمعاني وإدراك ومعرفة الدلالات، وهذا أمْر خصَّ الله ﷻ به أهل العلم.

فيقول مسروق: (مَا قال أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَعِلْمُهُ فِي اَلْقُرْآنِ) لأن القرآن فيه تبيان لكل شيء.

قال: (وَلَكِنَّ عِلْمَنَا قَصُرَ عَنْهُ)، قوله: (وَلَكِنَّ عِلْمَنَا قَصُرَ عَنْهُ) لو كان القرآن لا يُفهَم معناه كما يدّعي أولئك ما معنى كلام مسروق إذاً (وَلَكِنَّ عِلْمَنَا قَصُرَ عَنْهُ)؟!.. لأنه يتحدث عن المعنى ويُثبِت أن القرآن له معاني لكن علمنا قصُر عن إدراك هذه المعاني.

فهذا كله مثلما قال شيخ الإسلام: باب واسع في المنقول والمروي عن السلف رحمهم الله تعالى في أن القرآن مفهوم المعاني، جميع آياته معروفة واضحة، أو بيّنة الدلالة، عربي مبين، واضح بيّن، لكن منه آيات

مشتبهة من حيث المعنى، لا يعلم معناها إلا مَنْ رسخت أقدامهم في العلم.

قال رحمه الله تعالى:

وَالْمَقْصُودُ هُنَا اَلتَّنْبِيهُ عَلَى أُصُولِ اَلْمَقَالَاتِ اَلْفَاسِدَةِ اَلَّتِي أَوْجَبَتْ اَلضَّلَالَ فِي بَابِ اَلْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ اَلرَّسُولُ ﷺ وَأَنَّ مَنْ جَعَلَ اَلرَّسُولَ غَيْرَ عَالِمٍ بِمَعَانِي اَلْقُرْآنِ اَلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْهِ وَلَا جِبْرِيلُ جَعَلَهُ غَيْرَ عَالِمٍ بِالسَّمْعِيَّاتِ لَمْ يَجْعَلْ اَلْقُرْآنَ هُدًى وَلَا بَيَاناً لِلنَّاسِ.

ثُمَّ هَؤُلَاءِ يُنْكِرُونَ اَلْعَقْلِيَّاتِ فِي هَذَا اَلْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ فَلَا يَجْعَلُونَ عِنْدَ اَلرَّسُولِ ﷺ وَأُمَّتِهِ فِي بَابِ مَعْرِفَةِ اللهِ ﷻ لَا عُلُوماً عَقْلِيَّةً وَلَا سَمْعِيَّةً وَهُمْ قَدْ شَارَكُوا فِي هَذَا اَلْمَلَاحِدَةَ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَهُمْ مُخْطِئُونَ فِيمَا نَسَبُوهُ إِلَى اَلرَّسُولِ ﷺ وَإِلَى اَلسَّلَفِ مِنَ اَلْجَهْلِ كَمَا أَخْطَأَ فِي ذَلِكَ أَهْلُ اَلتَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلَاتِ اَلْفَاسِدَةِ وَسَائِرُ أَصْنَافِ اَلْمَلَاحِدَةِ.

يقول رحمه الله: (وَالْمَقْصُودُ هُنَا) أي: في هذا السياق وهذا التقرير (اَلتَّنْبِيهُ عَلَى أُصُولِ اَلْمَقَالَاتِ اَلْفَاسِدَةِ)؛ وهذا منزع عظيم جداً في إبطال باطل المبتدعة بدل أن يُشتغَل بالتفاصيل التي آلت إليها وأفضت إليها أصولهم الباطلة، يُنظَر في الأصول التي قامت عليها بدع هؤلاء، فيُنقَض بناؤهم من أصله، ويُهدَم من أساسه، وكل ما بُني على باطل فهو باطل؛ فالنظر يكون للأصول- أصول هذه المقالات- هو يبين فساد تلك المقالات، وببيان فساد تلك الأصول يتبين فساد ما قام وبُني عليها.

قال: (وَالْمَقْصُودُ هُنَا اَلتَّنْبِيهُ عَلَى أُصُولِ اَلْمَقَالَاتِ اَلْفَاسِدَةِ اَلَّتِي أَوْجَبَتْ اَلضَّلَالَ فِي بَابِ اَلْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ اَلرَّسُولُ ﷺ) أي: في باب التوحيد العلمي؛ لأن التوحيد نوعان: **توحيد علمي، وتوحيد عملي**.

قال: (وَأَنَّ مَنْ جَعَلَ اَلرَّسُولَ غَيْرَ عَالِمٍ بِمَعَانِي اَلْقُرْآنِ اَلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْهِ وَلَا جِبْرِيلُ جَعَلَهُ غَيْرَ عَالِمٍ بِالسَّمْعِيَّاتِ لَمْ يَجْعَلْ اَلْقُرْآنَ هُدًى وَلَا بَيَاناً لِلنَّاسِ)؛ هؤلاء الذين يشير إليهم بقوله: (أَنَّ مَنْ جَعَلَ اَلرَّسُولَ غَيْرَ عَالِمٍ بِمَعَانِي اَلْقُرْآنِ اَلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْهِ وَلَا جِبْرِيلُ جَعَلَهُ غَيْرَ عَالِمٍ بِالسَّمْعِيَّاتِ) هؤلاء هم المفوِّضة، وسبق رحمه الله أن عدَّهم صنفاً.. قال فيما سبق: (وَأَمَّا اَلصِّنْفُ اَلثَّالِثُ: وَهُمْ أَهْلُ اَلتَّجْهِيلِ فَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ اَلْمُنْتَسِبِينَ إِلَى اَلسُّنَّةِ وَأَتْبَاعِ اَلسَّلَفِ وَيَقُولُونَ: إِنَّ اَلرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَعَانِيَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ اَلصِّفَاتِ وَلَا جِبْرِيلُ يَعْرِفُ مَعَانِيَ تِلْكَ اَلْآيَاتِ وَلَا اَلسَّابِقُونَ اَلْأَوَّلُونَ عَرَفُوا ذَلِكَ)، فهؤلاء يقال عنهم (أهل التجهيل) لماذا؟

لأن قولهم هذا فيه تجهيل للسلف، رمْي لهم بالجهل، أي رمْي بالجهل أعظم من رمْي السلف بعدم

العلم بمعاني الصفات الذي هو أشرف شيء في القرآن، وأعظم شيء في القرآن؟!!، فهؤلاء جهَّلوا السلف- أي: رموهم بالجهل-، ولهذا سُمي هؤلاء (أهل التجهيل)؛ لأنهم جهَّلوا السلف في أشرف باب وأعظم باب في القرآن.

هنا يذكر رحمه الله تعالى لوازم مختصرة وخلاصة جيدة فيما يلزم على قول هؤلاء أهل التجهيل من لوازم فاسدة، وذكر خلاصة جداً مفيدة في اللوازم التي تلزم هذا المذهب الفاسد..

فمن هذه اللوازم: ما ذكره بقوله: (لَمْ يَجْعَلْ اَلْقُرْآنَ هُدًى وَلَا بَيَاناً لِلنَّاسِ) إذا كان يقول: أن النبي ﷺ وجبريل ومن باب أولى الصحابة ومَنْ اتبعهم بإحسان يجهلون معاني صفات الله ﷻ، ويجهلون معاني القرآن المُنَزَّل، فمن لازم ذلك أن الله لم يجعل القرآن هُدى ولا بياناً للناس، لأن الهدى والبيان راجع إلى فهْم المعاني، وفهْم الدلالات، فإذا كان النبي ﷺ والصحابة لا يفهمون المعاني، فمعنى ذلك أن القرآن لم يجعله الله هدى ولا بياناً للناس.

والله وصف القرآن بأنه تبيان لكل شيء، وأنه لسان عربي مبين واضح بيّن، ووصفه بأوصاف من هذا القبيل كثيرة في القرآن... ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وصفه بصفات كثيرة..

على قول هؤلاء أن هذا ليس حق، إذا كان النبي ﷺ والصحابة ومَنْ اتبعهم بإحسان من سلف الأمة لا يفهمون معاني المُنَزَّل، وإنما حظهم من القرآن هو إقامة الحروف، أما فهْم المعاني ليس عندهم منه شيء فهذا فيه من اللوازم أن الله لم يجعل القرآن هدى ولا بياناً للناس.

من اللوازم التي تلزم هؤلاء: ما أشار إليه بقوله: (ثُمَّ هَؤُلَاءِ يُنْكِرُونَ اَلْعَقْلِيَّاتِ فِي هَذَا اَلْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ فَلَا يَجْعَلُونَ عِنْدَ اَلرَّسُولِ ﷺ وَأُمَّتِهِ فِي بَابِ مَعْرِفَةِ الله ﷻ لاَ عُلُوماً عَقْلِيَّةً وَلَا سَمْعِيَّةً) إضافة إنكارهم إلى فهْم المعاني أيضاً عطَّلوا العقل، وادّعوا في السلف أنهم لا يعقلون شيئاً من معاني أسماء الرب وصفاته ﷻ، وهذا أيضاً تجهيل للسلف في باب العقل مثلما أنهم جهَّلوهم في باب السمع، فجعلوهم لا علوم عندهم عقلية ولا أيضاً علوم عندهم سمعية، فرموهم بالجهل من هذين الجانبين.

ولهذا يقولون: إن مذهب السلف- والشيخ بدأ الرسالة بإبطاله- يقولون: مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم؛ لأن بزعمهم أن السلف عطّلوا عقولهم، وإنما اشتغلوا مثلاً بالصلاة والجهاد ومثل هذه الأمور، أما الفهم فعطّلوا عقولهم بزعم هؤلاء الآثِم الباطل.

قال: (وَهُمْ قَدْ شَارَكُوا فِي هَذَا اَلْمَلَاحِدَةَ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ)، ومن الوجوه التي شارك فيها هؤلاء الملاحدة: الملاحدة وصفهم فيما سبق أنهم أهل التخييل، وأن الرسل خاطبوا الأقوام بألفاظ ليس لها حقيقة، يعني لما قالوا: الجنة، والنار، وكذا.. الحقيقة أنه لا يوجد جنة ولا نار- بزعم الملاحدة- ولكن هذه أشياء خاطب الرسل بها أقوامهم من أجل أن يُؤَثِّروا عليهم في العمل والأخلاق والآداب، فذكروا الجنة، تخيلوا الخيال فقط، وأن هذه أمور ليس لها حقيقة..

فهؤلاء شاركوا أهل التخييل أن هذه النصوص التي تتعلق بالصفات.. أي: القول فيها عندهم شبيه بما يدّعيه أولئك الملاحدة في مقالتهم: أن باب المعاد، والجنة، والنار، كلها ليست لها حقيقة، أيضاً هؤلاء يزعمون أن هذه الأسماء والصفات التي ذُكِرت في القرآن كلها ليس لها حقيقة بزعمهم.

قال: (وَهُمْ مُخْطِئُونَ فِيمَا نَسَبُوهُ إِلَى اَلرَّسُولِ ﷺ وَإِلَى اَلسَّلَفِ مِنْ اَلْجَهْلِ) وهذا أيضاً من اللوازم الفاسدة التي تلزم مقالة هؤلاء: رمْي السلف بالجهل، ولهذا يقال لهم: أهل التجهيل؛ لأنهم جهَّلوا السلف، وقد جمعوا بين ثلاث آفات هؤلاء المفوِّضة: جهَّلوا السلف، وجَهِلوا مذهب السلف، وكذبوا على السلف؛ هذه الأمور الثلاثة كلها اجتمعت في المفوِّضة؛

جهَّلوا السلف: أي رموهم بالجهل في أشرف باب.

وجَهِلوا مذهب السلف: عندما ادّعوا أن مذهب السلف: قراءة النصوص قراءة مجردة دون فهْم للمعاني، فهذا جهل لمذهب السلف.

وكذبوا على السلف: عندما ادّعوا أنهم مفوِّضة لمعاني نصوص الصفات.

فهم جهَّلوا السلف، وجَهِلوا مذهبهم، وكذبوا عليهم في الوقت نفسه.

قال: (وَهُمْ مُخْطِئُونَ فِيمَا نَسَبُوهُ إِلَى اَلرَّسُولِ ﷺ وَإِلَى اَلسَّلَفِ مِنْ اَلْجَهْلِ كَمَا أَخْطَأَ فِي ذَلِكَ أَهْلُ اَلتَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلَاتِ اَلْفَاسِدَةِ) الذين هم.. الصنف الذي تقدّم عند شيخ الإسلام بوصفهم أهل التأويل، فهم شاركوهم في ذلك، قال: (كَمَا أَخْطَأَ فِي ذَلِكَ أَهْلُ اَلتَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلَاتِ اَلْفَاسِدَةِ وَسَائِرُ أَصْنَافِ اَلْمَلَاحِدَةِ)؛ وكل هؤلاء أخطئوا في حق السلف لأنهم في الحقيقة جَهِلوا مذهب السلف وكذبوا أيضاً على السلف واشتركوا جميعاً في هذا الأمر (الجهل بمذهب السلف، والكذب على السلف، وادّعاء في مذهب السلف ما لم يكن عليه سلف الأمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم).

ثم اقتضى المقام أن يسوق رحمه الله ويطيل من ذِكْر النقول عن أهل العلم في إثبات الصفات وإمرارها كما جاءت، والإيمان بها كما وردت بما يتضمن الرد على المفوِّضة من جهة، والمؤوِّلة أيضاً من جهة، وبدأ رحمه الله يسوق عباراتهم وألفاظهم في هذا الباب.

ونكتفي بهذا القدر.

ونسأل الله الكريم أن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، إنه سميع قريب مجيب.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

.. جزاكم الله خيراً ..

شرح الفتوى الحموية الكبرى

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله

من الدرس (٨) إلى الدرس (١١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

الدرس الثامن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وَنَحْنُ نَذْكُرُ مِنْ أَلْفَاظِ اَلسَّلَفِ بِأَعْيَانِهَا وَأَلْفَاظِ مَنْ نَقَلَ مَذْهَبَهُمْ بِحَسَبِ مَا يَحْتَمِلُهُ هَذَا اَلْمَوْضِعُ مَا يُعْلَمُ بِهِ مَذْهَبُهُمْ.

رَوَى أَبُو بَكْرٍ اَلْبَيْهَقِيُّ فِي اَلْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ اَلْأَوْزَاعِيِّ قَالَ: (كُنَّا وَالتَّابِعُونَ مُتَوَافِرُونَ نَقُولُ: إنَّ اَللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ فَوْقَ عَرْشِهِ وَنُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَتْ بِهِ اَلسُّنَّةُ مِنْ صِفَاتِهِ).

فَقَدْ حَكَى اَلْأَوْزَاعِيُّ- وَهُوَ أَحَدُ اَلْأَئِمَّةِ اَلْأَرْبَعَةِ فِي عَصْرِ تَابِعِي اَلتَّابِعِينَ اَلَّذِينَ هُمْ: مَالِكٌ إمَامُ أَهْلِ اَلْحِجَازِ وَالْأَوْزَاعِيُّ إمَامُ أَهْلِ اَلشَّامِ وَاللَّيْثُ إمَامُ أَهْلِ مِصْرَ وَالثَّوْرِيُّ إمَامُ أَهْلِ اَلْعِرَاقِ حَكَى شُهْرَةَ اَلْقَوْلِ فِي زَمَنِ اَلتَّابِعِينَ بِالْإِيمَانِ بِأَنَّ اَللَّهَ فَوْقَ اَلْعَرْشِ وَبِصِفَاتِهِ اَلسَّمْعِيَّةِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

فهذا الموضع وما بعده في هذه «الفتوى الحموية» لشيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى من أنفس ما في هذا الكتاب المبارك؛ لأن شيخ الإسلام حشد وجمع في هذا الموضع نقولات مفيدة عظيمة عن أئمة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى في تقرير الاعتقاد، وبيان موقفهم وطريقتهم ومنهجهم في صفات الله تبارك وتعالى، وأنهم جميعاً على جادة واحدة، وطريقة واحدة يُمِرُّون الصفات كما جاءت، ويؤمنون بها كما وردت، ولا يخوضون فيها لا بتحريف، ولا بتعطيل، ولا بتكييف، ولا تمثيل؛ بل يؤمنون بما جاء في كتاب الله وسُنّة رسوله صلوات الله وسلامه عليه من الصفات إيماناً بها كما وردت، وإقراراً بها كما جاءت بلا تكييف ولا تمثيل.

وهو نهجهم أجمعين، لا خلاف بينهم في ذلـك، اتفقـت كلمتهم عليـه، وتوافرت أقوالهم في تقريره وإثباته.

....

وشـيخ الإسـلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ذكر أنه يسـوق ألفاظ السـلف بأعيانها، أي: يأتي بألفاظها كما هي منقولة عنهم من مصـادرها كما قال: (وَأَلْفَاظِ مَنْ نَقَلَ مَذْهَبَهُمْ) أي: أنه ينقل مذهب السـلف وأقوال السـلف من مصادرها- وهي الكتب التي عُنيت بنقل أقوال السلف مسوقة إليهم بالأسانيد-.

وأشـار-رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى إلى أنه لن يتوسـع في الجمع واسـتقصـاء الأقوال، وإنما بحسـب (مَا يَحْتَمِلُهُ هَذَا الْمَوْضِعُ مَا يُعْلَمُ بِهِ مَذْهَبُهُمْ)؛ فأشار إلى أنه سيختصر وفي الوقت نفسه أن هذا الاختصار لن يكون مُخِلّاً، بل سيكون اختصاراً يتحقق به المراد.. وهو العلم بمذهب السلف، وأنهم جميعاً على وتيرة واحدة، وعلى جادة واحدة، قولهم واحد لا اختلاف فيه، بخلاف أهل الباطل؛ الذين هم في قول مختلف.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (رَوَى أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ: (كُنَّا وَالتَّابِعُونَ مُتَوَافِرُونَ نَقُولُ: إنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ فَوْقَ عَرْشِهِ وَنُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنْ صِفَاتِهِ)) هذا النقل نَقْل عظيم جداً عن هذا الإمام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى من أئمة السلف، وهو يحكي قوْل التابعين.

ولهذا ليس هذا القول مجرد ذِكْر قول للأوزاعي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنما هو حكاية لقول التابعين، ولهذا فإن الإمام ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أورد هذا الأثر في كتابه «اجتماع الجيوش الإسـلامية» مرتين؛ مرة أورده حكاية لقول التابعين، ومرةً أورده ذِكْراً لقول الأوزاعي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

فهذا الأثر ليس مجرد نقْل لقول الأوزاعي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإنما هو حكاية لقول التابعين.

وإذا كان التابعون قد توافرت أقوالهم وكلمتهم في إثبات اسـتواء الله على العرش، وعُلّوه على مخلوقاته وإثبات الصفات لله جل وعلا، وتضـافرت كلمتهم على ذلك فهذا دليل على أن هذا هو المُتَلَقَّى عمَّن قبلهم وهم الصحابة.

فالتابعون أخذوا عن الصـحابة، وإذا كان التابعون اجتمعت كلمتهم على ذلك فإذاً هذا هو الذي أخذوه عن الصـحابة مجتمعة كلمتهم عليه؛ إذ التابعون أهل تَلَقٍّ عن الصـحابة، أدى إليهم أصـحاب النبي ﷺ ما سمعوه من رسول الله ﷺ فأخذوه بإتقان وضبطوا ما سمعوا منهم وأحسنوا فهْمه، ثم بلّغوه للأمة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠].

قال: (كُنَّا وَالتَّابِعُونَ مُتَوَافِرُونَ) ومعنى قوله: (متوافرون): أي قولنا واحد، توافرت كلمتنا- أي: اجتمعت واتفقت على ذلك-.

....

(نَقُولُ: إِنَّ اَللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ فَوْقَ عَرْشِهِ وَنُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَتْ بِهِ اَلسُّنَّةُ مِنْ صِفَاتِهِ)؛

أولاً: صرَّح بالفوقية- فوقية الله ﷻ على العرش-، وأنه مُستوٍ على عرشه المجيد استواءً يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه كما قال الله جل وعلا: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [يونس:٣]، وقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ۩﴾ [النحل:٥٠].

فبدأ بإثبات الفوقية ثم عمَّم في جميع الصفات بقوله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (وَنُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَتْ بِهِ اَلسُّنَّةُ مِنْ صِفَاتِهِ) وخصَّ الفوقية- فوقية الله ﷻ- وهي من جملة الصفات الداخلة في قوله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَنُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَتْ بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ) لأن مقولة الأوزاعي هذه إنما كانت بعد ظهور مقالة الجهم بن صفوان التي قامت على إنكار الصفات ومنها (عُلو الله) حيث جحد علو الله على عرشه وجحد صفات الله تبارك وتعالى فقال ذلك إظهاراً لعقيدة السلف وإظهاراً لإنكار مقالة الجهمية التي فيها إنكار العرش وإنكار استواء الله تبارك وتعالى عليه ليعرف الناس بهذا الإظهار أن مقالة السلف بخلاف مقالة هؤلاء، وأن مقالة هؤلاء الجهمية مقالة حادثة باطلة لا تَمُت إلى دين الإسلام بِصِلة.

وهذا الموقف الذي كان من الأوزاعي ونُظرائه من أئمة السلف هو الموقف الذي ينبغي أن يكون عند ظهور البدع، فإن الواجب على أئمة الحق وأعلام الهدى أن يُظهروا المقالة الحق ويقرروها، ويُبيّنوا شواهدها وأدلتها حتى يُعلَم أن هذا هو الحق وأن ما خالفه فهو الضلال والباطل.

ثم بيّن رحمه الله مكانة صاحب هذا القول الإمام الأوزاعي، قال: (فَقَدْ حَكَى اَلْأَوْزَاعِيُّ- وَهُوَ أَحَدُ اَلْأَئِمَّةِ اَلْأَرْبَعَةِ فِي عَصْرِ تَابِعِي اَلتَّابِعِينَ اَلَّذِينَ هُمْ: مَالِكٌ إِمَامُ أَهْلِ اَلْحِجَازِ وَالْأَوْزَاعِيُّ إِمَامُ أَهْلِ اَلشَّامِ وَاللَّيْثُ إِمَامُ أَهْلِ مِصْرَ وَالثَّوْرِيُّ إِمَامُ أَهْلِ اَلْعِرَاقِ حَكَى شُهْرَةَ اَلْقَوْلِ فِي زَمَنِ اَلتَّابِعِينَ بِالْإِيمَانِ بِأَنَّ اَللَّهَ فَوْقَ اَلْعَرْشِ وَبِصِفَاتِهِ اَلسَّمْعِيَّةِ) والصفات السمعية- ويقال لها أيضاً: الصفات الخبرية- أي: التي جاءت عن طريق السمْع، عن طريق الخبر كتاب الله وسُنّة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه، فقوله: نؤمن بفوقية الله على العرش هذا من الصفات السمعية الخبرية، ونؤمن بصفاته- أي: التي وردت في كتابه وسُنة نبيّه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه-.

وإذا كان هذا الإمام من طبقة أتباع التابعين فإن هذا يعني أن علمه تلقاه عن التابعين، ولهذا قال: (كُنَّا) يقصد: أتباع التابعين الذين تلقَّوا عن التابعين، (وَالتَّابِعُونَ مُتَوَافِرُونَ) على ذلك، (كُنَّا) أي: أتباع التابعين، ....

مَنْ تلقّوا العقيدة، والإيمان، والسُّنة عن التابعين، والتابعون كنّا متوافرون على هذا، فهذا حكاية توافر مقالة التابعين وأتباع التابعين.

طبقته التي هي أتباع التابعين، والطبقة التي قبلها وهي طبقة التابعين كلهم متوافرون على هذه الكلمة، وإسناد هذا الأثر ثابت عن الأوزاعي، ولهذا رأينا شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: بإسناد صحيح، وصحح إسناده وجوّده غير واحد من الأئمة، فهذا في الحقيقة يُعَدّ هذا الأثر- ولهذا أيضاً صدَّر شيخ الإسلام بهذه الآثار- يُعَدّ هذا الأثر من أقوى ما يكون في تقرير مقالة السلف في الصفات، وأن هذا قولهم، التابعون وأتباع التابعون هذه كلمتهم.

ولهذا يُعدُّ هذا الأثر مزعجاً جداً لأهل البدع، حتى إن بعضهم حاول في التشكيك فيه، وبعضهم حاول في حتى الطعن في إسناده، والتقليل من قيمته مثلما صنع ابن جماعة في كتابه «إيضاح الدليل» حاول أن يُشكك في إسناد هذا الأثر، وحاول أن يُقَلّل من مكانة هذا الأثر ومنزلته، وهذه المحاولة من هؤلاء لِكوْن هذا الأثر من أقوى ما يكون في تقرير مقولة السلف، وأن هذه مقالة التابعين، وهذه أيضاً مقالة أتباع التابعين، وكلهم متوافرون على ذلك، والذي عند التابعين مُتَلقّى من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ والذي عند الصحابة مُتلقّى من النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فهذا هو دين الإسلام، فما كان خلاف ذلك مما قاله الجهم أو غيره من المقالات فهذه كلها مقالات ما أنزل الله بها من سلطان ولا تَمُتُّ لدين الإسلام بِصِلة.

قال: (وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ اَلْخَلَّالُ فِي كِتَابِهِ «اَلسُّنَّةِ») وكتاب السُّنة للخلال كتاب مطبوع، وهو يُعَدّ من الكتب المهمة في باب الاعتقاد من حيث موسوعية الكتاب وشموله للنقول الكثيرة عن أئمة السلف في أبواب الاعتقاد المتنوعة مثله مثل «شرح الاعتقاد» للالكائي والشريعة للآجري، والإبانة لابن بطة، وأيضاً هذا الكتاب كتاب «السُّنة» للخلال، هذه الكتب تُعَد موسوعات حافلة في جمْع أقوال السلف في أبواب الاعتقاد المتنوعة.

قال: (وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ اَلْخَلَّالُ فِي "كِتَابِ اَلسُّـنَّةِ" عَنْ اَلْأَوْزَاعِيِّ قَالَ: "سُـئِلَ مَكْحُولٌ وَالزُّهْرِيُّ عَنْ تَفْسِيرِ اَلْأَحَادِيثِ") والمراد بالأحاديث أي: الأحاديث التي جاءت مشتملة على صفات الله، كيف تُفَسَّر؟ ما هو تفسيرها؟

قال: (سُئِلَ) (عَنْ تَفْسِيرِ اَلْأَحَادِيثِ فَقَالَ: أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ").

(وَرَوَى أَيْضاً) أي: أبو بكر الخلال

عَنْ اَلْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: "سَأَلْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ وَسُفْيَانَ اَلثَّوْرِيَّ وَاللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ وَالْأَوْزَاعِيَّ عَنْ اَلْأَخْبَارِ اَلَّتِي جَاءَتْ فِي اَلصِّفَاتِ فَقَالُوا: أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَالُوا: أَمِرَّهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ".

هذه مقولة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وقاعدتهم في صفات الله سبحانه وتعالى أنها تُمَرّ كما جاءت بلا كيف (أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ) بلا كيف؛ هذه قاعدتهم.

وهذه الكلمة ينبغي أن تُفهَم لأن مَنْ يرد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية ربما ساقوا هذه الكلمة سوْقاً يقررون منه مذهبهم التفويض، فيحرفون هذه الكلمة عن مدلولها الحق إلى المعنى أو الاعتقاد الباطل للذي هم عليه، والذي هو تفويض المعاني- معاني الصفات-.

فقولهم: (أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ) أي: أنها تُقرَأ- حسب فهْمهم- تُقرَأ قراءة دون أن يُفهَم لها معنى، وما هذا أراد السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى بقولهم (أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ).

ولهذا المقام يحتاج إلى فهْم مُراد السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى بقولهم: (أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ).

يقول رحمه الله في شرح كلامهم هذا:

فَقَوْلُهُمْ -رَضِيَ الله عَنْهُمْ- "أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ" رَدٌّ عَلَى اَلْمُعَطِّلَةِ وَقَوْلُهُمْ "بِلَا كَيْفٍ" رَدٌّ عَلَى اَلْمُمَثِّلَةِ.

نظير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]؛

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى:١١] رد على الممثلة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] رد على المعطلة.

فإذاً قولهم: (أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ) فيه ردٌّ على المُعطِّلة.. من أي جهة فيه رد على المعطلة؟

قال: (كَمَا جَاءَتْ).. قالوا: (كَمَا جَاءَتْ)، والسؤال هنا هل جاءت هذه الألفاظ - ألفاظ الصفات - جاءت مُحمَّلة بالمعاني أو جاءت مُجرّدة من المعاني؟ كيف جاءت؟ هل جاءت مُحمَّلة بالمعاني أو جاءت مُجرّدة من المعاني، ألفاظاً لا معنى لها؟

الجواب: أنها جاءت مُحمّلة بالمعاني، فإمرارها كما جاءت إنما يكون بإثبات معانيها التي جاءت مُحمَّلةً بها، فهذا وجه كوْن قول هؤلاء: (أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ) فيه ردٌّ على المعطلة.

وقوله: (بِلَا كَيْفٍ) فيه (رَدٌّ عَلَى اَلْمُمَثِّلَةِ) لأن كل مُمثل مُكيف؛ مَنْ مَثَّل - تعالى الله عمّا يقولون - صفات الله أو شيء منها بصفات المخلوقين فقد كيَّف الصفة وجعلها ككيفية صفة المخلوق.

قال:

وَالزُّهْرِيُّ وَمَكْحُولٌ هُمَا أَعْلَمُ اَلتَّابِعِينَ فِي زَمَانِهِمْ وَالْأَرْبَعَةُ اَلْبَاقُونَ هُمْ أَئِمَّةُ اَلدُّنْيَا فِي عَصْرِ تَابِعِي اَلتَّابِعِينَ.

وهذا يُبين فيه مكانة هؤلاء الأئمة الأعلام الذين نقل عنهم هذه المقولة (أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ) بلا كيف.

ثم يقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَإِنَّمَا قَالَ اَلْأَوْزَاعِيُّ) أي: كلامه المتقدم: (كُنَّا وَالتَّابِعُونَ مُتَوَافِرُونَ...) إلى آخره..

قال: وَإِنَّمَا قَالَ اَلْأَوْزَاعِيُّ هَذَا بَعْدَ ظُهُورِ أَمْرِ جَهْمٍ اَلْمُنْكِرِ لِكَوْنِ الله فَوْقَ عَرْشِهِ وَالنَّافِي لِصِفَاتِهِ لِيَعْرِفَ اَلنَّاسُ أَنَّ مَذْهَبَ اَلسَّلَفِ كَانَ خِلَافَ ذَلِكَ.

وهذا كما قدّمتُ يُستفاد منه فائدة أنه إذا ظهرت مقالة لأهل البدع ينبغي على أهل الحق أن يُظهروا مقالتهم ويُبيّنوا قولهم بالدليل من كتاب الله حتى يُعلَم الحق، ويُعلَم أيضاً أنّ ما خالفه فهو الباطل.

قال: وَمِنْ طَبَقَتِهِمْ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ وَحَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ وَأَمْثَالُهُمَا.

هنا انتهى تقرير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى لبيانه معنى قول السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ (أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ) بلا كيف.

سيأتي مزيد تقرير لهذا المعنى، ومزيد توضيح له.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

رَوَى أَبُو اَلْقَاسِمِ اَلأزجِّيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ إِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ مَنْ يَدْفَعُ أَحَادِيثَ اَلصِّفَاتِ يَقُولُ: قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: "سَنَّ رَسُولُ الله ﷺ وَوُلَاةُ اَلْأَمْرِ بَعْدَهُ سُنَناً، اَلْأَخْذُ بِهَا تَصْدِيقٌ لِكِتَابِ الله وَاسْتِكْمَالٌ لِطَاعَةِ الله وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ الله لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ الله تَغْيِيرُهَا وَلَا اَلنَّظَرُ فِي شَيْءٍ خَالَفَهَا مَنْ اِهْتَدَى بِهَا فَهُوَ مُهْتَدٍ وَمَنْ اِسْتَنْصَرَ بِهَا فَهُوَ مَنْصُورٌ وَمَنْ خَالَفَهَا وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ اَلْمُؤْمِنِينَ وَلَّاهُ الله مَا تَوَلَّى وَأَصْلَاهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً".

وَرَوَى اَلْخَلَّالُ بِإِسْنَادٍ كُلُّهُمْ أَئِمَّةٌ ثِقَاتٌ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ: "سُئِلَ رَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] كيف استوى؟، قَالَ: "اَلِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَمِنْ الله اَلرِّسَالَةُ وَعَلَى اَلرَّسُولِ اَلْبَلَاغُ اَلْمُبِينُ وَعَلَيْنَا اَلتَّصْدِيقُ".

وَهَذَا اَلْكَلَامُ مَرْوِيٌّ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ تِلْمِيذِ رَبِيعَةَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ.

مِنْهَا: مَا رَوَاهُ أَبُو اَلشَّيْخِ اَلْأَصْبَهَانِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ اَلْبَيْهَقِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى قَالَ: كُنَّا عِنْدَ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] كَيْفَ اِسْتَوَى فَأَطْرَقَ مَالِكٌ بِرَأْسِهِ حَتَّى عَلَاهُ اَلرُّحَضَاءُ ثُمَّ قَالَ: اَلِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعاً فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُخْرَجَ. انتهى كلامه.

فَقَوْلُ رَبِيعَةَ وَمَالِكٍ: "اَلِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ" مُوَافِقٌ لِقَوْلِ اَلْبَاقِينَ: "أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ" فَإِنَّمَا نَفَوْا عِلْمَ اَلْكَيْفِيَّةِ وَلَمْ يَنْفُوا حَقِيقَةَ اَلصِّفَةِ.

وَلَوْ كَانَ اَلْقَوْمُ قَدْ آمَنُوا بِاللَّفْظِ اَلْمُجَرَّدِ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ لِمَعْنَاهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِالله لَمَا قَالُوا: "اَلِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ" وَلَمَا قَالُوا: "أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ"؛ فَإِنَّ اَلِاسْتِوَاءَ حِينَئِذٍ لَا يَكُونُ مَعْلُوماً بَلْ مَجْهُولاً بِمَنْزِلَةِ حُرُوفِ اَلْمُعْجَمِ.

وَأَيْضاً فَإِنَّهُ لَا يُحْتَاجُ إِلَى نَفْيِ عِلْمِ اَلْكَيْفِيَّةِ إِذَا لَمْ يُفْهَمْ مِنَ اَللَّفْظِ مَعْنىً؛ وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَى نَفْيِ عِلْمِ اَلْكَيْفِيَّةِ إِذَا أُثْبِتَتْ اَلصِّفَاتُ.

وَأَيْضاً: فَإِنَّ مَنْ يَنْفِي اَلصِّفَاتِ اَلْخَبَرِيَّةَ؛ أَوْ اَلصِّفَاتِ مُطْلَقاً لاَ يَحْتَاجُ أَنْ يَقُولَ: بِلَا كَيْفٍ؛ فَمَنْ قَالَ: إِنَّ اَللهَّ ﷻ لَيْسَ عَلَى اَلْعَرْشِ؛ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَقُولَ: بِلَا كَيْفٍ؛ فَلَوْ كَانَ مِنْ مَذْهَبِ اَلسَّلَفِ نَفْيُ اَلصِّفَاتِ فِي نَفْسِ اَلْأَمْرِ لَمَا قَالُوا: بِلَا كَيْفٍ.

وَأَيْضاً: فَقَوْلُهُمْ: أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ يَقْتَضِي إِبْقَاءَ دَلَالَتِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهَا جَاءَتْ أَلْفَاظاً دَالَّةً عَلَى مَعَانٍ؛ فَلَوْ كَانَتْ دَلَالَتُهَا مُنْتَفِيَةً لَكَانَ اَلْوَاجِبُ أَنْ يُقَالَ: أَمِرُّوا أَلْفَاظَهَا مَعَ اِعْتِقَادِ أَنَّ اَلْمَفْهُومَ مِنْهَا غَيْرُ مُرَادٍ؛ أَوْ أَمِرُّوا أَلْفَاظَهَا مَعَ اِعْتِقَادِ أَنَّ اَللهَّ لاَ يُوصَفُ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ حَقِيقَةً؛ وَحِينَئِذٍ فَلَا تَكُونُ قَدْ أُمِرَّتْ كَمَا جَاءَتْ؛ وَلَا يُقَالُ حِينَئِذٍ بِلَا كَيْفٍ؛ إِذْ نَفْيُ اَلْكَيْفِيَّةِ عَمَّا لَيْسَ بِثَابِتٍ لَغْوٌ مِنَ اَلْقَوْلِ.

قال رحمه الله تعالى: (رَوَى أَبُو اَلْقَاسِمِ اَلأَزَجِّيُّ) بفتح الهمزة وفتح الزاي..

(بِإِسْنَادِهِ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ إِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ مَنْ يَدْفَعُ أَحَادِيثَ اَلصِّفَاتِ) يدفعها: أي يُنكرها ويردها ولا يقبلها...

(يَقُولُ: قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: "سَنَّ رَسُولُ الله ﷺ وَوُلَاةُ اَلْأَمْرِ بَعْدَهُ) أي: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وقد قال النبي ﷺ: «عليكم بسُنتي وسُنة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها» (سُنَناً اَلْأَخْذُ بِهَا تَصْدِيقٌ لِكِتَابِ الله؛ وَاسْتِكْمَالٌ لِطَاعَةِ الله؛ وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ الله؛ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ الله تَغْيِيرُهَا وَلَا اَلنَّظَرُ فِي شَيْءٍ خَالَفَهَا؛ مَنْ اِهْتَدَى بِهَا فَهُوَ مُهْتَدٍ؛ وَمَنْ اِسْتَنْصَرَ بِهَا فَهُوَ مَنْصُورٌ؛ وَمَنْ خَالَفَهَا وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ اَلْمُؤْمِنِينَ؛ وَلَّاهُ الله مَا تَوَلَّى وَأَصْلَاهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً").

أي كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء]

ونَقْل مالك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا الأثر عن عمر بن عبد العزيز فيه أيضاً توضيح للجادة التي عليها أئمة السلف وهي أن عقيدتهم تلقي بالقبول والتسليم والإذعان والإيمان لما جاء عن النبي ﷺ وما نقله الصحابة الكرام ولا يخوضون في أمور الدين بالعقول المجردة أو الآراء المجردة، وإنما دينهم قائم على التلقي عن كتاب الله وسُنة نبيّه ﷺ، ومَنْ خالف ذلك فهو مُتبع لغير سبيل المؤمنين.

قال: (وَرَوَى اَلْخَلَّالُ بِإِسْنَادٍ كُلِّهُمْ أَئِمَّةٌ ثِقَاتٌ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ: "سُئِلَ رَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] كيف استوى؟، قَالَ: "اَلِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَمِنْ الله اَلرِّسَالَةُ وَعَلَى اَلرَّسُولِ اَلْبَلَاغُ اَلْمُبِينُ وَعَلَيْنَا اَلتَّصْدِيقُ")؛

سُئل: (كيف استوى) وهذا السؤال باطل، (كيف استوى) هذا سؤال باطل لأن صفات الله سبحانه وتعالى لا يقال فيها (كيف)، كما أن أفعاله لا يقال فيها (لِمَ) لا يُسأل عن ما يفعل، فلا يقال في أفعاله (لِمَ)، ولا يقال أيضاً في صفاته: (كيف)؛ لأن الكيف مجهول غير معقول، الله ﷻ أخبرنا بالصفات ولم يُخبرنا بكيفية صفاته، فلا نخوض في شيء لا علم لنا به، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء:٣٦].

فأجاب ربيعة- وهو شيخ مالك- عن هذا السؤال بقوله: (اَلِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ) أي: معناه معلوم، استوى: أي علا وارتفع، (وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ) أي: الكيف مجهول، لا نعلمه، لأن الله أخبرنا أنه استوى ولم يخبرنا كيف استوى، (وَمِنْ الله اَلرِّسَالَةُ وَعَلَى اَلرَّسُولِ اَلْبَلَاغُ) (وَعَلَيْنَا اَلتَّصْدِيقُ) الواجب علينا أن نصدق بما جاء عن الله، مُبَلَّغاً لنا بواسطة رسول الله ﷺ، الواجب أن نتلقّى ذلك بالتصديق والتسليم.

قال: (وَهَذَا اَلْكَلَامُ مَرْوِيٌّ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ تِلْمِيذِ رَبِيعَةَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ)، وقد يكون جواب مالك مُتَلَقَّى عن شيخه ربيعة لأنه ثابت أيضاً عن شيخه، فقد يكون جواب مالك مُتلَقَّى عن شيخه أو يكون اتفاق، قال ذلك اتفاقاً في ضوء المنهج الذي تلقوه عن أئمة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ فأجاب بجواب نظير جواب شيخه، وقد يكون سمع هذا الجواب من شيخه فلمّا سُئل أجاب بما أجاب به شيخه، لكن هذه الكلمة اشتُهِرت عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وفي الغالب تُعزَى إلى مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

يقول شيخ الإسلام: رُويت (مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ) أي: من وجوه كثيرة.

وقد تتبعت هذه الوجوه في رسالة مطبوعة بعنوان الأثر المشهور عن الإمام مالك في الاستواء دراسة تحليلية، فتتبعت هذه الطرق من مصادرها ونقلت أيضاً كلام أهل العلم عليها من حيث الأسانيد، وأيضاً ألفاظ هذه الكلمة المروية عن الإمام مالك، وأيضاً جمعت نظير هذه الكلمة مما نُقِل عن أئمة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، وأيضاً اعتنيت بذِكْر الأدلة لكل واحدة من هذه الكلمات (الاستواء غير مجهول، الكيف غير معقول، الإيمان به واجب، السؤال عنه بدعة) كل كلمة من هذه الكلمات.. وهي تُعتبَر كل كلمة قاعدة

وأصل في هذا الباب، فكل كلمة من هذه الكلمات جمعت لها ما تيسر من الأدلة عليها والشواهد من كتاب الله وسُنة نبيّه ﷺ.

ثم أتبعت ذلك باستخلاص الفوائد المستفادة من كل كلمة من هذه الكلمات؛ ماذا يُستفاد من قوله: (الاستواء غير مجهول)، وماذا يُستفاد من قوله: (الكيف غير معقول)، وماذا يُستفاد من قوله: (الإيمان به واجب)، وماذا يُستفاد من قوله: (والسؤال عنه بدعة)؟.. فكل كلمة من هذه الكلمات استخلصتُ منها الفوائد الكثيرة بالتتبع لكلام أئمة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى.

ومن باب الحُفْز فقط أكشف لكم سراً حول هذا الكتاب من باب الحفز والمعونة لطلاب العلم، هذا الكتاب لا أذكر السنة تحديداً، لكنني بدأتُ به من أول شيء في هذا الكتاب في واحد رمضان، لا أذكر السنة الآن، وانتهيت منه كاملاً في تسعة عشر رمضان، وكنتُ أجلس عليه من بعد الفجر إلى أذان الظهر جلسة متواصلة مع كتب السلف وجمْعها، فالتاسع رمضان كان جاهزاً للطباعة، في التاسع عشر من رمضان كان جاهزاً للطباعة، وذكرتُ ذلك قصْداً لأن طالب العلم يحتاج إلى أشياء يقف عليها حتى ينشط أكثر ويجتهد في حِفْظ وقته أكثر ليستفيد ويفيد.

قال: (مِنْهَا: مَا رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى قَالَ: كُنَّا عِنْدَ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] كَيْفَ اسْتَوَى فَأَطْرَقَ مَالِكٌ بِرَأْسِهِ حَتَّى عَلَاهُ الرُّحَضَاءُ) أي: أخذ يتصبب عرقاً.

(ثُمَّ قَالَ: الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ وَمَا أَرَاكَ إلَّا مُبْتَدِعاً فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُخْرَجَ) وكل كلمة من هذه الكلمات في الكتاب المشار إليه تتبعتها وأيضاً استخلصتُ ما فيها من فوائد في تقرير منهج السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى.

والوقوف مع مضامين هذا الأثر قد يأخذ وقتاً لكنني أُحيل على الكتاب المشار إليه فلعل فيه إن شاء الله فائدة حول هذا الأثر.

قال: (فَقَوْلُ رَبِيعَةَ وَمَالِكٍ: "الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ" مُوَافِقٌ لِقَوْلِ الْبَاقِينَ: "أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ") لأن (أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ) هذا يوافق (الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ)، وقولهم: (بِلَا كَيْفٍ) يوافق (وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ)، فإنما نفوا علم الكيفية ولم ينفوا حقيقة الصفة، نفوا عِلْم الكيفية، (الْكَيْفُ

غَيْرُ مَعْقُولٍ) هذا نفْي للعلم بالكيفية، أما حقيقة الصفة فإنهم أثبتوها بقولهم: (اَلِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ) أي: معناه معروف معلوم في اللغة وهو العلو والارتفاع.

يقول: (وَلَوْ كَانَ اَلْقَوْمُ قَدْ آمَنُوا بِاللَّفْظِ اَلْمُجَرَّدِ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ لِمَعْنَاهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِالله لَمَا قَالُوا: "اَلِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ" وَلَمَا قَالُوا: " أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ"؛ فَإِنَّ اَلِاسْتِوَاءَ حِينَئِذٍ لَا يَكُونُ مَعْلُوماً بَلْ مَجْهُولاً بِمَنْزِلَةِ حُرُوفِ اَلْمُعْجَمِ).

(وَأَيْضاً فَإِنَّهُ لَا يُحْتَاجُ إِلَى نَفْيِ عِلْمِ اَلْكَيْفِيَّةِ إِذَا لَمْ يُفْهَمْ مِنَ اَللَّفْظِ مَعْنًى وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَى نَفْيِ عِلْمِ اَلْكَيْفِيَّةِ إِذَا أُثْبِتَتْ اَلصِّفَاتُ) هنا شيخ الإسلام يرد على مَنْ استدلوا بهذه المقالة على التفويض، المفوِّضة يقولون: أن السلف هذا قولهم في الصفات (أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ) أي: يفوضون معناها لله، ولا يثبتون منها معنى، فشيخ الإسلام يرد عليهم من خلال هذه المقالة من عدة وجوه:

الوجه الأول من هذه الوجوه: في قوله: (وَلَوْ كَانَ اَلْقَوْمُ قَدْ آمَنُوا بِاللَّفْظِ اَلْمُجَرَّدِ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ لِمَعْنَاهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِالله لَمَا قَالُوا: "اَلِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ" وَلَمَا قَالُوا: " أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ"؛ فَإِنَّ اَلِاسْتِوَاءَ حِينَئِذٍ لَا يَكُونُ مَعْلُوماً بَلْ مَجْهُولاً بِمَنْزِلَةِ حُرُوفِ اَلْمُعْجَمِ)، وهم ماذا قالوا؟

قالوا: (اَلِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ).

أما على مقالة المفوضة: فالاستواء مجهول المعنى..

هذه واحدة..

الثانية: قال: (وَأَيْضاً فَإِنَّهُ لَا يُحْتَاجُ إِلَى نَفْيِ عِلْمِ اَلْكَيْفِيَّةِ إِذَا لَمْ يُفْهَمْ مِنَ اَللَّفْظِ مَعْنًى وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَى نَفْيِ عِلْمِ اَلْكَيْفِيَّةِ إِذَا أُثْبِتَتْ اَلصِّفَاتُ) الذي لا يُثبِت الصفات ما الحاجة إلى أن يقول: (بلا كيف)، وهو أصلاً لا يُثبِت صفة... فهذا الوجه الثاني في الرد عليهم.

الوجه الثالث: قال: (فَإِنَّ مَنْ يَنْفِي اَلصِّفَاتِ اَلْخَبَرِيَّةَ أَوْ اَلصِّفَاتِ مُطْلَقاً لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَقُولَ: بِلَا كَيْفٍ فَمَنْ قَالَ: إِنَّ اَللَّهَ ﷻ لَيْسَ عَلَى اَلْعَرْشِ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَقُولَ: بِلَا كَيْفٍ فَلَوْ كَانَ مِنْ مَذْهَبِ اَلسَّلَفِ نَفْيُ اَلصِّفَاتِ فِي نَفْسِ اَلْأَمْرِ لَمَا قَالُوا: بِلَا كَيْفٍ).

(وَأَيْضاً) **وهذا وجه آخر** (فَقَوْلُهُمْ: أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ يَقْتَضِي إِبْقَاءَ دَلَالَتِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فَإِنَّهَا جَاءَتْ أَلْفَاظاً دَالَّةً عَلَى مَعَانٍ)

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]

﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح:٦]

﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ [المجادلة:٢٢]..

إلى غير ذلك.. هذه ألفاظ جاءت مشتملة على معاني، مثلما عبّر قال: (جَاءَتْ أَلْفَاظاً دَالَّةً عَلَى مَعَانٍ) فإمرارها كما جاءت كيف يكون؟... بإثبات المعنى الذي جاءت مشتملة عليه.

(فَإِنَّهَا جَاءَتْ أَلْفَاظاً دَالَّةً عَلَى مَعَانٍ؛ فَلَوْ كَانَتْ دَلَالَتُهَا مُنْتَفِيَةً لَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يُقَالَ: أَمِرُّوا أَلْفَاظَهَا مَعَ اعْتِقَادِ أَنَّ الْمَفْهُومَ مِنْهَا غَيْرُ مُرَادٍ؛ أَوْ أَمِرُّوا أَلْفَاظَهَا مَعَ اعْتِقَادِ أَنَّ اللَّهَ لا يُوصَفُ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ حَقِيقَةً؛ وَحِينَئِذٍ فَلَا تَكُونُ قَدْ أُمِرَّتْ كَمَا جَاءَتْ؛ وَلَا يُقَالُ حِينَئِذٍ بِلَا كَيْفٍ؛ إذْ نَفْيُ الْكَيْفِيَّةِ عَمَّا لَيْسَ بِثَابِتٍ لَغْوٌ مِنْ الْقَوْلِ)؛

خلاصة القول: أن هذه الكلمة (أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ) فيها ردٌّ لمذهب المفوضة من جهة أنهم قالوا.. أن السلف قالوا: (أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ) وهي جاءت مُحَمَّلة بالمعاني، فإمرارها كما جاءت لا يكون إلا بإثبات المعاني التي اشتملت عليها، ومن جهة قولهم (بِلَا كَيْفٍ) لأن مَنْ ينفي الصفات لا يحتاج إلى أن ينفي الكيفية.

ثم مضى - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في نقْل مزيد من النقول لأئمة السلف رحمهم الله تعالى في تقرير مذهبهم في صفات الله تبارك وتعالى.

ونكتفي بهذا القدر.

ونسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونِعْم الوكيل.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وَرَوَى اَلْأَثْرَمُ فِي اَلسُّنَّةِ، وَأَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ بَطَّةَ فِي اَلْإِبَانَةِ، وَأَبُو عُمَرَ الطَّلَمَنْكِيُّ وَغَيْرُهُمْ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ الْمَاجِشُونِ- وَهُوَ أَحَدُ أَئِمَّةِ اَلْمَدِينَةِ اَلثَّلَاثَةِ اَلَّذِينَ هُمْ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَابْنُ الْمَاجِشُونِ، وَابْنُ أَبِي ذِئْبٍ- وَقَدْ سُئِلَ فِيمَا جحدَتْ بِهِ اَلْجَهْمِيَّةُ: "أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ فَهِمْتُ مَا سَأَلْتَ عَنْهُ فِيمَا تَتَايعَتْ اَلْجَهْمِيَّةُ وَمَنْ خَالَفَهَا فِي صِفَةِ اَلرَّبِّ اَلْعَظِيمِ، اَلَّذِي فَاقَتْ عَظَمَتُهُ اَلْوَصْفَ وَالتَّقْدِيرَ وَكَّلَتْ اَلْأَلْسُنُ عَنْ تَفْسِيرِ صِفَتِهِ، وَانْحَصَرَتْ اَلْعُقُولُ دُونَ مَعْرِفَةِ قدره، رَدَّتْ عَظَمَتُهُ اَلْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً فَرَجَعَتْ خَاسِئَةً وَهِيَ حَسِيرَةٌ، وَإِنَّمَا أُمِرُوا بِالنَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ فِيمَا خلقَ بِالتَّقْدِيرِ، وَإِنَّمَا يُقَالُ "كَيْفَ" لِمَنْ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ كَانَ، فَأَمَّا اَلَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ وَلَمْ يَزَلْ، وَلَيْسَ لَهُ مِثْلٌ، فَإِنَّهُ لا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إِلَّا هُوَ، وَكَيْفَ يُعْرَفُ قَدْرُ مَنْ لَمْ يَبْدَأْ، وَمَنْ لَمْ يَمُتْ، وَلَا يَبْلَى وَكَيْفَ يَكُونُ لِصِفَةِ شَيْءٍ مِنْهُ حَدٌّ أَوْ مُنْتَهًى، يَعْرِفُهُ عَارِفٌ أَوْ يَحُدُّ قَدْرَهُ وَاصِفٌ عَلَى أَنَّهُ اَلْحَقُّ اَلْمُبِينُ لَا حَقَّ أَحَقَّ مِنْهُ، وَلَا شَيْءَ أَبْيَنَ مِنْهُ. اَلدَّلِيلُ عَلَى عَجْزِ اَلْعُقُولِ فِي تَحْقِيقِ صِفَتِهِ عَجْزُهَا عَنْ تَحْقِيقِ صِفَةِ أَصْغَرِ خَلْقِهِ، لَا تَكَادُ تَرَاهُ صِغَراً يَحُولُ وَيَزُولُ، وَلَا يُرَى لَهُ سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ، لِمَا يَتَقَلَّبُ بِهِ وَيَحْتَالُ مِنْ عَقْلِهِ أَعْضَلُ بِكَ وَأَخْفَى عَلَيْكَ مِمَّا ظَهَرَ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ اَلْخَالِقِينَ وَخَالِقُهُمْ وَسَيِّدُ اَلسَّادَاتِ، وَرَبُّهُمْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ⑪﴾ [الشورى].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين..

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً.

اللهم أصلِح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد..

هذا أثر عظيم جداً نقله شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عن الإمام (عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ الْمَاجِشُونِ- وَهُوَ أَحَدُ أَئِمَّةِ الْمَدِينَةِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ هُمْ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَابْنُ الْمَاجِشُونِ وَابْنُ أَبِي ذِئْبٍ)، وكانوا من أعيان أهل العلم في زمانهم، ولهم مكانتهم في العلم، والفقه، والفتوى، حتى إنه ذُكِر أنه نودي في المدينة بأمر المنصور: (لا يُفتي الناس إلى مالك وابن الماجشون) مما يدل على المكانة التي كانت لهم في العلم والفقه والبصيرة بدين الله تبارك وتعالى.

وهذا الأثر ساقه رحمه الله تعالى عن هذا الإمام عندما سُئل عمّا جحدت به الجهمية.

والجهمية: فرقة ضالة مُبطِلة، نشأت مُعطِّلة لصفات الله ﷻ، جاحدةً لنعوت جلاله وصفات كمال ﷻ، وهي مقالة تلقاها الجهم عن شخص قبله يقال له: الجعد بن درهم، لكنها اشتُهرت عن الجهم، ولهذا نُسبَت إليه.

والمقالات الباطلة في الغالب تُنسَب إلى مَنْ أنشأوها- وكفى ذلك دليلاً على بطلانها- لأن من أمارات وعلامات فساد المُعتقَد أن يُعلَم أنه نشأ على أيدي بعض الناس، اخترعه بعض الناس، لأن العقيدة وحي مُنَزَّل من رب العالمين، ليست شيئاً اخترعها الناس، وابتكروه بعقولهم.

ولهذا.. **العقائد عموماً التي بين الناس على قسمين:**

عقائد نازلة بوحي من الله: وهي الحق.

وعائقد نابتة: نبتت في الأرض، الناس اخترعوها، وتكلفوا إنشاءها.

فكل عقيدة نابتة باطلة، وإنما العقيدة الحقة هي التي نزلت من الله.

ولهذا من طرائق الأنبياء في رد عقائد الناس النابتة التي نشأت في الأرض: ردّهم عليهم بقولهم: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [النجم:٢٣] وهذه حُجة تجدها تكررت في القرآن في مواضع.. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [النجم:٢٣].

فالعقيدة لا تكون صحيحة إلا إذا نزل بها سلطان، وحي، وحُجة، كلام من الله ﷻ، أما التي تنشأ في الأرض ويخترعها الناس فهذه كلها باطلة، فكفى دليلاً على بطلان عقيدة ما أن تكون اختُرعت ونشأت في الأرض، فهذه عقيدة الجهمية، ثم فيما بعد مَنْ تأثّر بهم.

هي عقيدة أنشأها هؤلاء، تلقاها الجهم عن شيخه الجعد بن درهم، وعمل على نشرها فاشتُهرت منسوبة إليه، ولهذا كل مَنْ كان على هذه العقيدة يقال له: (جهمي) نسبةً إلى هذا الرجل، والعقيدة يقال لها: (الجهمية) أيضاً نسبة إلى هذا الرجل.

فسُئل ابن الماجشون رحمه الله تعالى عما جحدت به الجهمية -أي: ما تكلمت به الجهمية من جَحْدٍ لصفات الله-.

وجعلوا ما جاء في النصوص كله لا معنى له، ولا حقيقة له، ولا مدلول له، ولهذا يُنقَل عن ابن الماجشون نفسه رحمه الله تعالى أنه نظر في ما عليه الجهمية من سلْب للصفات وجحد لها وتعطيل فقال: هذا الكلام هدْمٌ بلا بناء، وصفة بلا معنى؛ لأنه كله كلام قائمٌ على الجحد والتعطيل لصفات الرب تبارك وتعالى، فكلامهم كله هدْم بلا بناء، وكلامهم كله صفة بلا معنى؛ لأن حقيقة قولهم جحْد للصفات وتشبيه للرب العظيم بالعدم، لأنهم عطّلوه من الصفات حتى قيل: (إن مَنْ أراد أن يصف العدم لا يجد أحسن مما جعله الجهمية وصفاً للرب) من تعطيلهم لصفات الله وجحْدهم لها.

فقال رحمه الله تعالى: (أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ فَهِمْتُ مَا سَأَلْتَ عَنْهُ فِيمَا تَتَايعَتْ اَلْجَهْمِيَّةُ وَمَنْ خَالَفَهَا) وفي نسخة: (ومَنْ خلفها) ولعله أوْلى (فِي صِفَةِ اَلرَّبِّ اَلْعَظِيمِ اَلَّذِي فَاقَتْ عَظَمَتُهُ اَلْوَصْفَ وَالتَّقْدِيرَ) أي: سألت عن هذا الأمر الذي تتايعت عليه الجهمية.

والتتايُع: الوقوع في الشر من غير فِكْر، ومن غير روية، ومن غير أناة.

فهذا الذي تتايعت- أي: ركبته الجهمية ومَنْ لَفَّ لَفَّهم، وسار سيرهم، وركبوا هذا المركب- مركب الشر، والضلال، والباطل بدون روية وبدون فِكْر..

(ومَنْ خلفها) أي: مَنْ جاء بعدهم مُتأثِّراً بهم، قائلاً بقولهم، سالكاً مسلكهم..(فِي صِفَةِ اَلرَّبِّ) أي: تسأل عن قولهم في صفة الرب.

وقول الجهمية في صفة الرب هو: التعطيل، مثلما وصف رحمه الله: هدْم بلا بناء، ووصْف بلا معنى.

(فِي صِفَةِ اَلرَّبِّ اَلْعَظِيمِ اَلَّذِي فَاقَتْ عَظَمَتُهُ اَلْوَصْفَ وَالتَّقْدِيرَ) أي: أن عظمة الله وكمال صفاته وعظمة نعوته ﷻ فاقت الوصف، لأن كل ما يُقَدِّره أو يصل إليه الذهن تقديراً أنه وصْفٌ لله ﷻ، فالله أعظم من ذلك، فهو ﷻ أعظم وأكبر وأجَلّ من كل ما يخطر في بال الإنسان أو يدور في خياله، وكل ما يدور في بال الإنسان يظنه وصْفاً لله فالله أعظم من ذلك وأَجَلّ ﷻ؛ هذا معنى قوله: (فَاقَتْ عَظَمَتُهُ اَلْوَصْفَ وَالتَّقْدِيرَ)..

يعني كل ما يُقَدِّر الإنسان في ذهنه وصْفاً لله فالله أعظم من ذلك، فاقت عظمته ذلك، فلا يبلغ كُنْه صفاته الواصفون، ولا يبلغ قدْر عظمته المتفكرون، هذا أمر لا تبلغه العقول، فكل ما يخطر في العقل من الكمال فالله أعظم ﷻ وأَجَلّ.

(وَكَلَّتْ اَلْأَلْسُنُ عَنْ تَفْسِيرِ صِفَتِهِ) أي: أن ألسن العباد مهما أُوتيت من البيان والمعاني وجودة الألفاظ.. إلى غير ذلك.. لا يمكن أن تصل إلى تفسير صفته.

والمراد بـ(تفسير الصفة): أي حقيقة الصفة وكُنهها، لا يمكن للألسن مهما أُوتيت من البيان والمعاني.. لا يمكن أن تصل إلى تفسير صفته- أي: كُنْه صفة الله ﷻ-.

(وَانْحَصَرَتْ اَلْعُقُولُ دُونَ مَعْرِفَةِ قُدْرَتِهِ): (وَانْحَصَرَتْ اَلْعُقُولُ) أي: أن العقول يضيق الأمر بها بحيث كل عقل لا يمكن أن يصل إلى معرفة قدْر الله ﷻ لأن كل ما يبلغه العقل من أمر يظنه هو قدْر الله، فقدْر الله أعظم وأَجَلّ، فقدر الله ﷻ أعظم وأَجَلّ..

ودائماً في هذا المقام أقول: يكفي في ذلك قوْل المسلم: (الله أكبر)؛ فهذه الكلمة كافية في بيان عجْز العقول وضعفها عن ذلك، لأن الله أكبر من كل شيء، الله جل وعلا أكبر من كل شيء، ومن ذلكم أكبر مما يخطر في بالك، تظنه وصفاً لله أو قدراً لله، فالله أكبر ﷻ من كل شيء.

وقد قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعدي بن حاتم: «يا عدي! ما يُفِرُّك؟» أي: من هذا الدين، «أَيُفِرُّك أن يقال: (الله أكبر)؟ وهل شيء أكبر من الله؟» فالله ﷻ الكبير المتعال الذي لا أكبر منه ﷻ.

ومما يندرج في معنى (الله أكبر): أي كل ما يخطر في بال الإنسان، يظنه قدراً أو وصفاً لله فالله أكبر وأعظم من ذلك.

(رَدَّتْ عَظَمَتُهُ اَلْعُقُولَ)- و(العقول) مفعول (ردَّت)-(فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً فَرَجَعَتْ خَاسِئَةً وَهِيَ حَسِيرَةٌ) فعظمة الله ﷻ وكماله جل وعلا وجلاله ردَّت العقول؛ لأن العقول كلما تحاول أن تقتحم هذا الأمر لتعرف عظمة الله ﷻ وقدْره ترجع- كما قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- (خَاسِئَةً وَهِيَ حَسِيرَةٌ)، لأن هذا أمر لا مجال للعقل أن يُدركه، لأن العقل له حد محدود مثلما أن سمْع الإنسان له حدّ، ومثلما أن بصر الإنسان له حدّ.

أرأيتم مثلاً لو شخصاً تَكَلَّف أن يعرف الأمور التي وراء حدّ بصره، وأخذ ينظر ويُجِدّ البصر، وبصره له حدّ معين، لكن يريد أن يرى ما وراء حدّ بصره، لو أن شخصاً رفع بصره إلى السماء ويريد أن ينظر ما يتجاوز حدّ البصر.. إلى أي نهاية يصل؟

أو شخص يريد أن يُجِدّ السمْع حتى يسمع الأصوات التي في أقصى الدنيا، الإنسان عاجز، عاجز في هذا.. فكيف بأن يُقْحِم عقله في المغيبات؟ كيف أن يُقحِم عقله في عظمة الرب ﷻ وهو عاجز- كما سيأتي عند المصنف- عند إدراك أصغر المخلوقات.

يقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَإِنَّمَا أُمِرُوا بِالنَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ فِيمَا خَلَقَ بِالتَّقْدِيرِ) هذا الذي دُعي إليه العباد أن يتفكروا في مخلوقات الله، لا أن يتفكروا في ذات الله ﷻ، التفكُّر في المخلوقات ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران:١٩١]

فدُعوا إلى التفكر في هذه المخلوقات..

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية]

يتفكر في هذه المخلوقات الدالة على عظمة مَنْ خلقها ﷻ.

قال: (وَإِنَّمَا يُقَالُ "كَيْفَ" لِمَنْ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ كَانَ) هذا الذي يُسأل عنه بمثل هذا السؤال (لِمَنْ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ كَانَ) يعني هذا المخلوق، أما الرب ﷻ فإنه السؤال عنه بـ(كيف) سؤال باطل، ومرَّ معنا قول الإمام مالك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ) (وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ) هذا سؤال باطل مُحرّم، ومَنْ سأل هذا السؤال وحاول أن يعرف جولبه إنما يبحث عن أمر لا مجال له أن يصل إليه، ولا قدرة له أن يعرفه، فهذا سؤال باطل مُحرَّم.

قال: (وَإِنَّمَا يُقَالُ "كَيْفَ" لِمَنْ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ كَانَ، فَأَمَّا الَّذِي لَا يَحُولُ) ﷻ (وَلَا يَزُولُ) أي: هو دائم وباقي جل وعلا، (وَلَمْ يَزَلْ، وَلَيْسَ لَهُ مِثْلٌ، فَإِنَّهُ لا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إِلَّا هُوَ، وَكَيْفَ يُعْرَفُ قَدْرُ مَنْ لَمْ يَبْدَأْ وَمَنْ لَمْ يَمُتْ)، ومعنى (لَمْ يَبْدَأْ) أي: الأول، الذي ليس قبله شيء، الذي ليس لأوليته بداية، وليس لآخريته نهاية، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد].

(وَلَا يَبْلَى) أي: له البقاء الدائم، الأبدي.

(وَكَيْفَ يَكُونُ لِصِفَةِ شَيْءٍ مِنْهُ حَدٌّ أَوْ مُنْتَهًى يَعْرِفُهُ عَارِفٌ أَوْ يَحُدُّ قَدْرَهُ وَاصِفٌ) تُقرَأ الجملة هكذا تامة: (وَكَيْفَ يَكُونُ لِصِفَةِ شَيْءٍ مِنْهُ حَدٌّ أَوْ مُنْتَهًى يَعْرِفُهُ عَارِفٌ أَوْ يَحُدُّ قَدْرَهُ وَاصِفٌ)؛ بمعنى أن صفات الله ﷻ لها حدّ- أي لها كيفية- يعلمها هو- كما تقدم- مثلما قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامه السابق: (لا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إِلَّا هُوَ).

فالمنفي هو: التكييف؛ أن يعرف عارف أو يحد أحد قدْره ﷻ، فالله أعظم وأجلّ من ذلك..

(عَلَى أَنَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ لَا حَقَّ أَحَقَّ مِنْهُ) كما قال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ۝٦﴾ [الحج:٦]، وفي دعاء النبي ﷺ: «اللهم أنت الحق».. «اللهم لك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولُك الحق»، (وَلَا شَيْءَ أَبْيَنَ مِنْهُ).

(الدَّلِيلُ عَلَى عَجْزِ الْعُقُولِ) هذا دليل لما سبق، إن العقول لو أرادت أن تعرف عظمته لرجعت خاسئة، وهذا دليل على عَجْزها، يقول: (الدَّلِيلُ عَلَى عَجْزِ الْعُقُولِ عَنْ تَحْقِيقِ صِفَتِهِ) أي: بلوغ كُنه صفته وإدراك كُنْه صفته: (عَجْزُهَا عَنْ تَحْقِيقِ صِفَةِ أَصْغَرِ خَلْقِهِ) يعني مثل الذرة، والنملة، والحشرات الصغيرة، العقول عاجزة عن أن تُدرِك هذه الكائنات والمخلوقات الصغيرة، عاجزة عن ذلك..

يقول: (عَجْزُهَا عَنْ تَحْقِيقِ صِفَةِ أَصْغَرِ خَلْقِهِا لاَ تَكَادُ تَرَاهُ صِغَراً) هذا المخلوق لا تكاد تراه من صِغَره، (صِغَراً يَحُولُ وَيَزُولُ) يتحرك ويتنقل، ويأتي بأموره بإتقان، هداه الله ﷻ الذي أعطى كل شيء خلْقه ثم هدى.

(تَرَاهُ صِغَراً يَحُولُ وَيَزُولُا وَلَا يُرَى لَهُ سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ) ومع ذلك يتحرك بدقة ويعمل بدقة، وعمل مُتقَن، وأمور مُرتبة ودقيقة حتى إن بعض الناس يذكر أنه تعلم بعض المعاني من بعض هذه المخلوقات يعني بعضهم يقول: تعلم الصبر من النملة، كيف أنها تحمل كِسرة الخبز، أو قطعة الطعام وتصعد ثم تسقط، وتحملها أخرى، وتصعد ثم تسقط، وتحملها أخرى، وتسقط، وتحمل... إلى أن تصل بعد ذلك إلى بُغيتها ومقصودها.

(لَا يُرَى لَهُ سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ) انظر لكلامه!

يقول: (لِمَا يَتَقَلَّبُ بِهِ وَيَحْتَالُ مِنْ عَقْلِهِ) أي: هذا الكائن الصغير (لِمَا يَتَقَلَّبُ بِهِ وَيَحْتَالُ مِنْ عَقْلِهِ أَعْضَلُ بِكَ) أي: أعصى عليك، وأشد عليك، ولأنت أعجز أن تُدركه، (أَعْضَلُ بِكَ وَأَخْفَى عَلَيْكَ مِمَّا ظَهَرَ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ) الآن أنت قد تتفكر في مثل هذه الكائنات، تقول: أنا ما أرى له سمع، ولكنه أُحِس أنه

يتجنب الأصوات مثلاً، أو تقول: لا أرى له بصر، وأراه يمشي في طريقه بدون انحراف، وتتعجب من ذلك...

يقول: هذا الذي تتعجب منه ما خفي عليك من عقله-أي: ما أودع الله ﷻ فيه من هداية لحاجاته وأموره-.. مثلاً: النملة، النملة من هداياتها: في الصيف تخزن طعام الشتاء، وتدخره، وإذا كانت أدخلت في جُحرها حبوباً ونزل الماء تخشى أن ينبت- تنبت هذه الحبوب- فتُخرِجها وتشطرها، وتجلها تجف في خارج الجحر، تتعرض للشمس، ثم تعيدها إلى جُحرها مرة ثانية.

وعالم الحيوانات اقرأ فيه لما كتبه ابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السعادة، وشفاء العليل» أمر عجب من هدايات الله ﷻ لهذه المخلوقات.

فيقول: (لِمَا يَتَقَلَّبُ بِهِ وَيَحْتَالُ مِنْ عَقْلِهِ أَعْضَلُ بِكَ وَأَخْفَى عَلَيْكَ مِمَّا ظَهَرَ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ وَخَالِقُهُمْ وَسَيِّدُ السَّادَاتِ وَرَبُّهُمْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى])؛ فالتفكر في مثل هذه المخلوقات يهديك إلى عظمة الخالق، عظمة مَنْ خلقها، فتخرج من هذا التفكر بتكبير الله، وتسبيحه، وتعظيمه قائلاً: (تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ).

قال: (﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]) وهذه الآية جمعت ما يقوم عليه الاعتقاد في أسماء الله وصفاته ﷻ، وأن ذلك قائم على الإثبات بلا تمثيل، والتنزيه بلا تعطيل، على حد قوله سبحانه: (﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]).

قال رحمه الله تعالى:

اِعْرِفْ-رَحِمَكَ اللهُ- غِنَاكَ عَنْ تَكَلُّفِ صِفَةِ مَا لَمْ يَصِفْ الرَّبُّ مِنْ نَفْسِهِ بِعَجْزِكَ عَنْ مَعْرِفَةِ قَدْرِ مَا وُصِفَ مِنْهَا إِذَا لَمْ تَعْرِفْ قَدْرَ مَا وَصَفَ فَمَا تَكَلُّفُكَ عِلْمَ مَا لَمْ يَصِفْ هَلْ تَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ طَاعَتِهِ أَوْ تَنْزَجِرُ بِهِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ مَعْصِيَتِهِ.

هذا كلام جميل جداً في بيان فساد عقيدة هؤلاء المتكلفين ببيان ما تُفضي إليه من ضلال وضياع وبُعد عن الإيمان وطاعة الله ﷻ، حتى إن بعض أهل العلم وصف هؤلاء بأنهم قُطّاع طريق- أي: طريق الناس في عبادة الله- لأن اشتغال الإنسان بهذه الصفات- صفات الله- تعطيلاً وجحداً من العواقب الوخيمة التي تترتب عليه: انحرافه في باب العبادة والسلوك والأخلاق؛ وهذا من شؤم المعتقد الفاسد.

ولهذا يقول: (اِعْرِفْ -رَحِمَكَ اَللهُ- غِنَاكَ عَنْ تَكَلُّفِ صِفَةِ مَا لَمْ يَصِفْ اَلرَّبُّ مِنْ نَفْسِهِ بِعَجْزِك عَنْ مَعْرِفَةِ قَدْرِ مَا وَصَفَ مِنْهَا)- (مَا وَصَفَ مِنْهَا) أي: الصفات التي ذكرها الله ﷻ في كتابه، وذكرها رسوله عليه الصلاة والسلام في سُنته أنت عاجز عن أن تُدرِك كيفيتها، فهذا العجز عن إدراك كيفية هذا الذي وصفه الله في كتابه من باب أَوْلى أن تكون أعجز عن إدراك ما لم يصف، والله ﷻ لم يذكر في كتابه كل أسمائه، لم يذكر كل أسمائه المشتملة على صفاته ونعوته منها ما استأثر الله بعلمه، فالعبد عاجز عن إدراك ما وُصِف وذُكِر فكيف بما لم يُذْكَر، لا شك أن أمر العبد في ذلك أعجز.

(إِذَا لَمْ تَعْرِفْ قَدْرَ مَا وَصَفَ فَمَا تَكَلُّفُكَ عِلْمَ مَا لَمْ يَصِفْ) إذا كنت عاجز عن أن تُدرِك كيفية الصفات التي وصفها، فلماذا تُقحِم نفسك في علم ما لم يصف، فَتَكلُّف علم ما لم يصف.

ثم يقول: (هَلْ تَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ طَاعَتِهِ أَوْ تَنْزَجِرُ بِهِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ مَعْصِيَتِهِ) هل خوضك في هذا الباب أمر يفضي بك إلى عناية بعبادة الله، وانزجار عن معاصي الله ﷻ؟

لا والله..

ولهذا الجهمية ومَنْ سار سَيْرهم عقيدتهم الباطلة لم تسقهم إلى عناية بالعبادة، ولم تسقهم إلى بُعْد عن المنكرات، وعظائم الذنوب؛ بل جعلتهم يوغرون في الضلال والفجور والمعاصي.

ومَنْ يقرأ أخبار هؤلاء يجد من ذلك عجباً في بُعدهم عن العبادة وإعراضهم عن الطاعة، ووقوعهم الضلال وهذا كله من شؤم الاعتقاد.

قال: (هَلْ تَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ طَاعَتِهِ أَوْ تَنْزَجِرُ بِهِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ مَعْصِيَتِهِ)؛ وهذا معناه أن هذا الخوض الباطل في صفات الله ﷻ لا يُفضِي بالإنسان إلا إلى الضياع والانحراف عن عبادة الله ﷻ وطاعته؛ بل ويوقعه في ارتكاب الآثام والمُحرَّمات.

قال رحمه الله تعالى:

فَأَمَّا الَّذِي جَحَدَ مَا وَصَفَ الرَّبُّ مِنْ نَفْسِهِ تَعَمُّقاً وَتَكَلُّفاً فَقَدْ ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام:٧١] فَصَارَ يَسْتَدِلُّ بِزَعْمِهِ عَلَى جَحْدِ مَا وَصَفَ الرَّبُّ وَسَمَّى مِنْ نَفْسِهِ بِأَنْ قَالَ: لَا بُدَّ إِن كَانَ لَهُ كَذَا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ كَذَا فَعَمِيَ عَنْ الْبَيِّنِ بِالْخَفِيِّ وَجَحَدَ مَا سَمَّى الرَّبُّ مِنْ نَفْسِهِ بِصَمْتِ الرَّبِّ عَمَّا لَمْ يُسَمِّ مِنْهَا فَلَمْ يَزَلْ يُمْلِي لَهُ الشَّيْطَانُ حَتَّى جَحَدَ قَوْلَ الرَّبِّ -عَزَّ وَجَلَّ-:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة]

فَقَالَ: لَا يَرَاهُ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَجَحَدَ - وَاللهِ - أَفْضَلَ كَرَامَةِ اللهِ الَّتِي أَكْرَمَ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ وَنَظْرَتَهُ إِيَّاهُمْ: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر].

وَقَدْ قَضَى أَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فَهُمْ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ يَنْضُرُونَ.

قال رحمه الله: (فَأَمَّا الَّذِي جَحَدَ مَا وَصَفَ الرَّبُّ مِنْ نَفْسِهِ تَعَمُّقاً وَتَكَلُّفاً) أي: هؤلاء الجهمية الذين جحدوا صفات الرب تبارك وتعالى، وتكلَّفوا جحْدها بفلسفات عقلية ومقدمات منطقية، وأمور تكلفوها بعقولهم ووصلوا من خلالها إلى جحْد صفات الرب ﷻ والتكذيب بها.

يقول هؤلاء: الحقيقة أنهم استهوتهم الشياطين في الأرض حيران- أي: استمالتهم، وجاذبتهم إلى هذا الركام من الباطل والضلال- فأصبح مآل أمرهم باستهواء الشياطين الحيرة والشك والاضطراب.

(فَصَارَ يَسْتَدِلُّ بِزَعْمِهِ عَلَى جَحْدِ مَا وَصَفَ الرَّبُّ وَسَمَّى مِنْ نَفْسِهِ بِأَنْ قَالَ)- يعني: انظر الدليل الذي يقوم عليه مُعتقد الجهمية-: (: لَا بُدَّ إِن كَانَ لَهُ كَذَا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ كَذَا)، هذا دليل الجهمية، هذا ملخص دليل الجهمية في عامة ما يجحدون من صفات الرب، هذا دليلهم..

انظر الفرقان بين ما يقوم عليه معتقد الجهمية، وبين ما تقوم عليه عقيدة أهل السُّنة!

أهل السُّنة يقولون: نؤمن بكذا لقول الله تعالى كذا، ونؤمن بكذا لقول رسول الله ﷺ كذا؛ هذه عقيدتهم: قال الله، قال رسوله، مثلما قال الإمام أحمد رحمه الله: (نَصِف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والحديث).

والأوزاعي رحمه الله يقول: (ندور مع السُّنة حيث دارت) أي: نفياً وإثباتاً، ما ثبت بالكتاب والسُّنة أثبتناه وما نُفي في الكتاب والسُّنة نفيناه، لا نتجاوز كتاب الله وسُنة نبيّه.

أما هؤلاء أعرضوا عن الكتاب والسُّنة تماماً، وأعملوا عقولهم القاصرة، والدليل عندهم هو هذا في كل ما ينكرون من صفات الله، (لَا بُدَّ إن كَانَ لَهُ كَذَا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ كَذَا)؛ فهذا هو خلاصة دليلهم، (لَا بُدَّ إن كَانَ لَهُ كَذَا) يعني مثلاً: لا بد إن كان مستوياً على العرش حقيقة أن يكون محتاج إلى العرش، النتيجة ما هي عندهم؟

لم يستوِ على العرش..

قوله تعالى:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ [الفرقان:٥٩]

أدلة العلو، أدلة الفوقية بالآلاف..

يا قومنا والله إنّ لقولنا ألفاً تدل عليه؛ بل ألفان

كل هذه لا يعبئون بها ولا يرفعون بها رأساً، لو كان مستوٍ على العرش حقيقة... لا بد إن كان مستوياً على العرش حقيقة أن يكون محتاجاً إلى العرش، إذاً- النتيجة- جحْد استوائه على العرش.

وهؤلاء بهذه المقدمات خلطوا بين اللوازم، الأمر لا بد أن يُعرَف، خلطوا بين ما يلزم صفة المخلوق، وبين ما يلزم صفة الخالق؛ لأن صفة الخالق يلزمها الكمال، وصفة المخلوق يلزمها النقص، فمثلاً الاستواء عندما قالوا: يلزم من الاستواء على العرش أن يكون محتاجاً العرش، هذا اللازم في حق مَنْ؟- في حق المخلوق، المخلوق إذا استوى على شيء يكون محتاجاً إليه، لأنه إن سقَط سقط هذا فوقه، فهو محتاج إليه.. ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣] أي: الفلك والأنعام، ومَنْ كان مستوياً على الفلك إذا غرقت الفلك ماذا يكون شأنه؟، ومَنْ كان على البعير، إذا سقط البعير ماذا يكون شأن مَنْ فوقه؟.. محتاج إليه، هذا لازم وصْف المخلوق، لكن القوم جعلوا لازم وصْف المخلوق لازماً لوصْف الخالق، فبناءً على ذلك جحدوا صفة الخالق، فَهُم شبّهوا أولاً فعطّلوا ثانياً.

فإذاً الذي تقوم عليه عقيدة الجهمية هي هذه الكلمة (لَا بُدَّ إن كَانَ لَهُ كَذَا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ كَذَا)؛ هذا خلاصة دليل الجهمية.

(فَعَمِيَ عَنْ اَلْبَيِّنِ بِالْخَفِيِّ) عَمي عن البيّن، البيّن هذا: كلام الله، وحيه، تنزيله، آيات، كلام الرب العظيم بيّن واضح في بيان أوصافه.. في بيان نعوته ﷻ، بيّن واضح، عموا عن البيّن واشتغلوا بالخفي، وبالتكلُّف والتعمق.

(فَعَمِيَ عَنْ اَلْبَيِّنِ بِالْخَفِيِّ وَجَحَدَ مَا سَمَّى اَلرَّبُّ مِنْ نَفْسِهِ بِصَمْتِ اَلرَّبِّ عَمَّا لَمْ يُسَمِّ مِنْهَا) ومعنى (بصمته)أي: سكوته، وسكت عن أشياء مثلما قال عليه الصلاة والسلام: «أو استأثرت به في علم الغيب عندك».

(فَلَمْ يَزَلْ يُمْلِي لَهُ اَلشَّيْطَانُ حَتَّى جَحَدَ قَوْلَ اَلرَّبِّ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة]) جحد.. بلغ به الأمر وتمادى به الشيطان حتى جحَد قول الله ﷻ: (﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة]) من النضرة- وهو البهاء، والحسن والجمال-، (﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]) قال الحسن: حُقّ لها أن تنضر- أي: أن تكون ناضرة حسنة بهية وهي تنظر إلى الله ﷻ-، وهذا أكمل نعيم يناله أهل الجنة.

نسأل الله الكريم من فضله..

(فَقَالَ: لَا يَرَاهُ أَحَدٌ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ) وهذه مقولة الجهمية، الجهمية من عقائدهم: أن الله لا يُرى يوم القيامة (لَا يَرَاهُ أَحَدٌ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ فَجَحَدَ - وَاللهِ - أَفْضَلَ كَرَامَةِ اللهِ)؛ (جَحَدَ) أي: الجهمي، ومَنْ اعتقد هذه العقيدة (أَفْضَلَ كَرَامَةِ اللهِ اَلَّتِي أَكْرَمَ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ).

وفي صحيح مسلم عن نبيّنا ﷺ أنه قال: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنة قال الله تعالى: هل تريدون شيئاً أزيدكم؟، فيقولون: ألم تُبيّض وجوهنا، ألم تُنَجِّنا من النار؟، ألم تُدخلنا الجنة؟، قال: فيُكشَف الحجاب، فينظرون إلى الله ﷻ فما أُعطوا شيئاً أَحبَّ إليهم من النظر إلى الله» هذه أعظم كرامة، فجحد هؤلاء أعظم كرامة، وأعظم مِنّة يمنّ بها الله ﷻ على أوليائه وأصفيائه.

ولهذا قال بعض الأئمة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، قال: مَنْ كان جاحداً للرؤية فحري أن يُحرَم منها يوم القيامة، حرِي من أن يُحرَم منها يوم القيامة.

ومن لطيف ما يُذْكَر في هذا: أحد الشباب يذكر لي عن نفسه، يقول: كنّا في بلده، في مجلس وفيه رجل على هذه العقيدة، يقول: وأخذ يتحدث في المجلس بإنكار الرؤية، يقول: قلت: أنت لا تؤمن برؤية الله؟، قال: نعم، قلت: إذاً يا إخوان- المجلس يقول: في أعداد جالسين- قلت: يا إخوان أنا أريد الآن أرفع يدي، وأدعو الله، وأريد أن تُأمّنوا، وقلت: له أَمِّن معنا، وأريد أن أدعو الله ﷻ: أن يحرمه من رؤيته، أَمِّنوا يا إخوان،

قال: لا.. لا تدعو، قلت: أنت أصلاً لا تؤمن بالرؤية، أنت أصلاً لا تؤمن بهذا، هذا شيء أنت لا تؤمن به، فدعنا ندعو أن يحرمك الله من هذا، يقول: فأبى، أبى أن أدعو بذلك، وهو يقرر ويعتقد أن الله لا يُرَى، قلت: دعنا الآن كلنا ندعو الله أن يحرمك من هذا الذي أنت تجحده، ولا تناله...ورفعت يدي، قلت: يلا يا إخوان ندعو، فأصرّ عليّ ألا أدعو، يقول: فكانت هذه كافية لِمَنْ عنده من العوام بإدراك فساد هذه العقيدة، لأن لو كانت عقيدة فعلاً ما ضرّه.

مثلاً: عقيدة المؤمن في الجنة، وفي النار، وغير ذا لك من العقائد.. الدعاء بها هي مُنيته وبُغيته، وعقيدة الإنسان هي مُنية الإنسان وبُغيته.

فالشاهد: أن بلغ بهم الأمر إلى جحْد هذه الكرامة العظيمة والمِنّة الجليلة التي هي مِنّة الله على أوليائه يوم القيامة من النظر إلى وجهه، وفي الدعاء المأثور: «اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مُضرة، ولا فتنة مُضلة».

(مِنْ اَلنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ وَنَظَرَتَهُ إِيَّاهُمْ: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر] وَقَدْ قَضَى أَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ) أي: يبقون في الجنة أبد الآباد مُخلّدين فيها، (فَهُمْ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ يَنْضُرُونَ) يعني: يتمتعون بالنظر إلى الله ﷻ في أعظم كرامة، وأجَلِّ عطية ومِنّة.

ونكتفي بهذا، ونسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين إنه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونِعْم الوكيل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس العاشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى» نقلاً عن عبد العزيز بن الماجشون:

إِلَى أَنْ قَالَ: وَإِنَّمَا جَحَدَ رُؤْيَةَ الله يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ اَلضَّالَّةِ اَلْمُضِلَّةِ لِأَنَّهُ قَدْ عَرَفَ أنه إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ رَأَوْا مِنْهُ مَا كَانُوا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ مُؤْمِنِينَ وَكَانَ لَهُ جَاحِداً.

وَقَالَ اَلْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اَلشَّمْسِ ليس دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا. قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اَلْقَمَرِ لَيْلَةَ اَلْبَدْرِ ليس دُونَهُ سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا. قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد..

لا يزال الكلام منقولاً عن ابن الماجشون رحمه الله تعالى، وقول شيخ الإسلام رحمه الله هنا: (إِلَى أَنْ قَالَ) فيه تنبيه إلى اختصار شيء من الكلام.

قال: (وَإِنَّمَا جَحَدَ رُؤْيَةَ الله يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ) أي: الجهمي.. (اَلْقِيَامَةِ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ اَلضَّالَّةِ اَلْمُضِلَّةِ) تقدَّم ذِكْره لها في طريقتهم في جحد الصفات، ونفْيها، وأنه يلزم من كذا أن يكون كذا، هذه الحجة الضالة المضلة التي جحد بها هؤلاء صفات الله تبارك وتعالى، من أجل تأكيد إقامة هذه الحجة الباطلة جحدوا رؤية الله سبحانه وتعالى.. لماذا؟.

قال: (لِأَنَّهُ قَدْ عَرَفَ) أي: الجهمي.. (إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ رَأَوْا مِنْهُ مَا كَانُوا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ مُؤْمِنِينَ) أي: أهل الحق، الذين آمنوا بصفات الله التي جاءت في كتابه، وسُنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وأنهم يوم القيامة إذا رأوه جل وعلا ومَنَّ عليهم بالرؤية رأوا (مَا كَانُوا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ مُؤْمِنِينَ) أي: من صفاته ﷻ، رأوا وجهه العظيم جل جلاله.

وفي الحديث والدعاء المأثور: «اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضرّاء مضرة، ولا فتنة مُضلة».

فالمؤمنون يرون ما كانوا به مؤمنين- أي: من صفات الرب سبحانه وتعالى- (وَكَانَ) أي: الجهمي، (لَهُ جَاحِداً).. (وَكَانَ لَهُ جَاحِداً)..

فإذاً إنكار الرؤية من إنكار الصفات، إنكار رؤية الله ﷻ يوم القيامة هو من إنكار الصفات، نتيجة من نتائج إنكار هؤلاء لصفات الرب ﷻ، وثمرة من ثمار جحْدهم لها.

ثم أخذ يذكر الدليل من السُّنة على الرؤية، قال: (وَقَالَ اَلْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا؟) أي: هل يرى أهل الإيمان ربهم ﷻ يوم القيامة؟..

(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اَلشَّمْسِ ليس دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا) لا نضار، إذا كانت الشمس في وسط الظهيرة وليس في السماء سحاب هل تضارون في رؤيتكم للشمس؟ بمعنى عند رؤيتها هل يحتاج منكم إلى اجتماع وتقارب شأن رؤية الناس في الأمور الضيقة المحدودة؟ أو أن الرؤية مُهيأة للجميع بكل وضوح؟ («هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اَلشَّمْسِ ليس دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا).

(قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اَلْقَمَرِ لَيْلَةَ اَلْبَدْرِ) أي: ليلة التمام (اَلْبَدْرِ ليس دُونَهُ سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا. قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ»)، ومعنى قوله: («فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ») أي: كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس في وَضَح الظهيرة.

والتشبيه هنا في قوله: (كَذَلِكَ) تشبيه للرؤية بالرؤية، وليس المرئي بالمرئي؛ أي: كما أنكم ترون الشمس حقيقةً دون تضار، وترون القمر حقيقةً دون تضار فإنكم كذلك سترون ربكم حقيقة بأبصاركم.

وهذا الحديث صريح في إثبات الرؤية.

وقد ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام في الرؤية أحاديث عديدة بلغت حدّ التواتر، فهي متواترة عن النبي الكريم صلوا ت الله وسلامه عليه، ومن أهل العلم مَنْ أفردها أحاديث الرؤية بالتصنيف كالدارقطني رحمه الله في كتابه المطبوع «الرؤية» أي: رؤية الله ﷻ، وساق عليها الدلائل والشواهد.

وقد دلّ القرآن على ذلك في مثل قوله:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]

وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين].

وغير ذلك مما جاء في القرآن الكريم دالاً على الرؤية وثبوتها.

فأهل السُّـنة يثبتون الرؤية وأنها حق، وأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة كما دلّ على ذلك كتاب الله وسُـنة نبيّه ﷺ، بل إن هذه الرؤية من أشرف مطالبهم وأَجَلّ مواهبهم التي يرجون الله ﷻ أن يُنيلهم هذه الرؤية، وأن يَمُنَّ عليهم بها.

ومن دعواتهم ما صحَّ به الحديث عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة».

أما الجهمية ومَنْ سار سيْرهم فإنهم يجحدون رؤية الله، ولا يؤمنون بها، ولا يثبتونها، وهي- كما قدّمت- من نتاج جحْدهم لصفات الرب ﷻ.

قال رحمه الله تعالى:

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَمْتَلِئُ اَلنَّارُ حَتَّى يَضَعَ اَلْجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ فَتَقُولُ قَطْ قَطْ وَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ».

قال: (وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَمْتَلِئُ اَلنَّارُ حَتَّى يَضَعَ اَلْجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ..) لا تمتلئ النار ورب العالمين وعدها بأن يملأها ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود]، فالله ﷻ وعدها أن يملأها، ثم إنها يوم القيامة لا يزال يُلقَى فيها من أهلها وتقول: «هل من مزيد» ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق] فيُلقى فيها وهي تطلب الزيادة، ولا يزال يُلقَى فيها وهي تطلب الزيادة.

وجاء في هذا الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال: (لَا تَمْتَلِئُ اَلنَّارُ حَتَّى يَضَعَ اَلْجَبَّارُ فِيهَا) وفي رواية: «عليها» (قَدَمَهُ).. «حتى يضع الجبار عليها قدمه»؛ وهذا فيه إثبات القدم صفة لله، وفي بعض الروايات:

«رجله» والرجل والقدم شيء واحد؛ ففيه إثبات القدم صفة لله ﷻ، والقول في القدم كالقول في سائر الصفات: تُمَرُّ كما جاءت، ويُؤمَن بها كما وردت على الوجه اللائق بالرب ﷻ.

وكما أن له ذات لا تُشبه الذوات فله قدم لا تُشبه الأقدام، وله وجه لا يُشبه الوجوه، وله سمْع لا يُشبه الأسماع، وله بصر لا يُشبه الأبصار، على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ⑪﴾[الشورى].

الجهمية لا يُسلِّمون ذلك، ولا يؤمنون به، ويجحدونه، منهم مَنْ يلجأ إلى إنكار هذه الأحاديث وعدم إثباتها، ومنهم مَنْ يلجأ إلى تأويلها وتحريفها عن معناها، مثل قوله: أن المراد بالقدم ما يُقَدَّم في سابق علم الله أن يُلقى في النار.

وقالوا: في الرواية الأخرى «رجله» أن المراد بـ (الرجل): الجماعة من الناس.

والحديث يَرَدّ، لفظ الحديث يَرَدّ عليهم، يَرَدّ هذا التأويل لأنه قال: «لا تمتلئ حتى يضع..».. لأنه قال: لا يزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد.. ولا تمتلئ حتى يضع الجبار.

لو كان شيء يُلقَى فيها لما قال: (يضع الجبار عليها قدمه) لقال: (لألقى فيها قدمه)، لو كان شيئاً يُلقى في النار.

ثم الإضافة في قوله: «قدمه» هذه إضافة وصْف، أضاف القدم ﷻ إلى نفسه، وهذه إضافة وَصْف، أضاف القدم إلى نفسه فهذه صفته ﷻ، وهذا من كمال عظمته أن النار لا تزال تطلب الزيادة ولا تمتلئ بأي شيء يُلقى فيها، مهما أُلقي فيها تطلب الزيادة، لا يملؤها شيء، «حتى يضع الجبار عليها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض»؛ تجتمع أطرافها فتمتلئ بما فيها، ليس بما يُلقَى فيها، لأن ما يُلقى فيها إلا وتطلب الزيادة، فتمتلئ بانزواء بعضها إلى بعض وانضمام بعضها إلى بعض فتقول حينئذٍ: (قَطْ قَطْ) أي: حسبي حسبي: يكفيني يكفيني: أي: امتلأت..

فالامتلاء بانزواء بعضها إلى بعض كما قال عليه الصلاة والسلام: (فَتَقُولُ قَطْ قَطْ وَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ) ينزوي: أي ينضم بعضها إلى بعض.

الشاهد من هذا الحديث: إثبات القدم صفةً لله ﷻ.

قال رحمه الله تعالى:

وَقَالَ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-: «لَقَدْ ضَحِكَ الله مِمَّا فَعَلْتَ بِضَيْفِك اَلْبَارِحَةَ».

وَقَالَ فِيمَا بَلَغَنَا: إِنَّ اَللهَّ لَيَضْحَكُ مِنْ أَزَلِّكُمْ وقُنُوطِكُمْ وَسُرْعَةِ إِجَابَتِكُمْ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ اَلْعَرَبِ: إِنَّ رَبَّنَا لَيَضْحَكُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: لَا نَعْدِمُ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْراً.

قال: (وَقَالَ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ) والمعروف أن هذا في قصة أبي طلحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع ضيفه.

قال: (لَقَدْ ضَحِكَ الله مِمَّا فَعَلْتَ بِضَيْفِك اَلْبَارِحَةَ) أي: حُسْن صنيعه مع ضيفه في إكرامه له، قال: (لَقَدْ ضَحِكَ الله مِمَّا فَعَلْتَ بِضَيْفِك اَلْبَارِحَةَ)؛ وهذا فيه إثبات الضحك صفةً لله ﷻ، وهو من صفاته الفعلية، ويُثبَت هذا الوصف كما جاء، ويُمَرّ كما وَرَد، ويُنَزَّه الرب ﷻ عن مشابهة المخلوقين، وما يلزم على صفة الضحك التي للمخلوق من لوازم ليست بلازمة في صفة الضحك للرب ﷻ؛ لأن ما يلزم- هذه قاعدة مهمة في هذا الباب- ما يلزم الصفة باعتبار إضافتها إلى الله لا يكون لازماً للصفة باعتبار إضافتها للمخلوق.

وأيضاً العكس؛ ما يلزم الصفة باعتبار إضافتها للمخلوق لا يكون لازماً للصفة باعتبار إضافتها إلى الله ﷻ؛ فإن ما يُضاف إلىٰ الله يليق بجلاله، وكماله ﷻ، وما يضاف إلىٰ المخلوق يليق بنقْصِه وضعْفه وعجْزه.

قال: (وَقَالَ فِيمَا بَلَغَنَا: إِنَّ اَللهَّ لَيَضْحَكُ مِنْ أَزَلِّكُمْ) أي: ما أنتم فيه من شدة وضائقة بسبب تأخُّر نزول الأمطار، (وَقُنُوطِكُمْ) أي: يأسكم من نزول المطر، (وَسُرْعَةِ إِجَابَتِكُمْ) يعني مع أن الفرج قريب، مثل ما جاء في بعض الروايات: «وقُرب غِيَره»: أي تغييره للأحوال، وأن تغيُّر الأحوال قريب، وأنتم أصابكم القنوط فيضحك الرب ﷻ (مِنْ أَزَلِّكُمْ) أي: ما أنتم فيه من شدة، (وَقُنُوطِكُمْ) أي: ما أنتم فيه من يأس بسبب تأخُّر الأمطار، والفرج قريب، داني منكم، تغييره للحال قريب، والناس في كرب وشدة وشيء من اليأس بسبب تأخُّر الأمطار والفرج آتيهم عن قريب؛ فيقول: يضحك الرب ﷻ من ذلك (مِنْ أَزَلِّكُمْ وَقُنُوطِكُمْ وَسُرْعَةِ إِجَابَتِكُمْ).

(فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ اَلْعَرَبِ: إِنَّ رَبَّنَا لَيَضْحَكُ) لما سمع النبي ﷺ يُخبِر بهذا الوصف، قال: (إِنَّ رَبَّنَا لَيَضْحَكُ؟) (قَالَ: نَعَمْ قَالَ: لَا نَعْدَمُ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ)؛ وهذا يفيدنا أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فهموا معاني

الصفات، لما قال: (يضحك ربنا) فهموا المعنى، وأنه ضحك يليق بالرب ﷻ، ومعنى الضحك لغةً معروف، فهموا المعنى.

ولهذا ذكر اللازم (لا عدمنا الخير من رب يضحك)؛ وهذا إيمان باللازم الناشئ عن الفهم للمعنى، قول هذا الصحابي: (لا عدمنا الخير من رب يضحك) هذا إيمان باللازم، لازم هذا الوصف الناشئ عن فهْمهم للوصف، وإيمانهم به، وعدم ترددهم في تقبُّله، قال: (لا عدمنا الخير من رب يضحك).

الصحابة قالوا: (لا عدمنا الخير من رب يضحك)، لكن الجهمي عندما يسمع هذا الحديث أي شيء يقول؟.. انظروا الفرق الشاسع، الجهمي عندما يسمع هذا الحديث ماذا يقول؟ (يضحك ربنا)؟

الصحابة قالوا: لا عدمنا الخير من رب يضحك، والجهمي عندما يسمع هذا الحديث أي شيء يقول؟ يضحك، وينفي، ويقول: يلزم من إثباته كذا، ويلزم كذا... إلى آخر كلامهم الذي جحدوا به صفات الرب ﷻ.

قال رحمه الله تعالى: (فِي أَشْبَاهٍ لِهَذَا مِمَّا لَمْ نُحْصِهِ) أي أن ما ذُكِر من الأحاديث مجرد إشارة إلى بعض الأمثلة، وإلا الأحاديث التي في هذا الباب كثيرة جداً.

قال رحمه الله تعالى:

وَقَالَ الله تَعَالَى:

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى:].

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩﴾ [طه].

وَقَالَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر].

هذه جملة من الآيات من كتاب الله ﷻ فيها إثبات الصفات:

الأولى: قول الله ﷻ: (﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى]) وفيها: إثبات السمْع لله ﷻ، وهو سمْع وسع المسموعات وأحاط بها، وبصير يرى جميع المبصرات، يرى كل شيء ﷻ، ولا يغيب عن بصره

شيء، ولا يفوته سمْعه تبارك وتعالى شيء ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد].

وقوله: (﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨])، وكذلك قوله: (﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه]) فيه إثبات العين صفة لله ﷻ، وقد جاءت السُّنة مُصَرِّحة بأن لله ﷻ عينين تليقان بجلاله وكماله وعظمته سبحانه، وذلك في قول نبينا ﷺ: «إن الدجال أعور، وإن ربكم ليس بأعور»..

والعَوَر في لغة العرب: هو وجود عينين إحداهما طافية، فهذا يقال له أعور.

فقول نبينا عليه الصلاة والسلام: «وإن ربكم ليس بأعور»: أي له عينان كاملتان ﷻ، تليقان بجلاله وكماله وعظمته.

ولا يتنافى ثبوت العينين مُصرحاً بهما في السُّنة مع ذِكْرهما بالإفراد أو الجمع؛ فقوله في الآية الكريمة: (﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]) وقوله في التي تليها: (﴿عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه]) بالإفراد.. هذا لا ينافي لأنه يصح في اللغة أن يُعبَّر عن المثنى بالمفرد، ويُعبّر عنه بالجمع، يصح أن يُعبّر عن المثنى بالمفرد، وأن يُعبّر عنه بالجمع، يصح أن تقول لغةً: رأيته بعيني، وسمعته بأذني، وأنت تقصد بعيني، وأذني، الأمر واسع في اللغة في هذا الباب، فهذا فيه إثبات العينين صفةً لله جل وعلا تليقان بجلاله.

وقوله: (﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر]) أيضاً فيه إثبات اليدين لله ﷺ وصفان يليقان بجلاله وكماله وعظمته سبحانه.

قال رحمه الله تعالى:

فَوَالله مَا دَهَّمْ عَلَى عِظَمِ مَا وَصَفَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَا تُحِيطُ بِهِ قَبْضَتُهُ إِلَّا صِغَرُ نَظِيرِهَا مِنْهُمْ عِنْدَهُمْ إِنَّ ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَى فِي رَوْعِهِمْ وَخَلَقَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ قُلُوبَهُمْ فَمَا وَصَفَ الله مِنْ نَفْسِهِ فَسَمَّاهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ سَمَّيْنَاهُ كَمَا أَسْمَاهُ وَلَمْ نَتَكَلَّفْ مِنْهُ صِفَةَ مَا سِوَاهُ -لَا هَذَا وَلَا هَذَا- لَا نَجْحَدُ مَا وَصَفَ وَلَا نَتَكَلَّفُ مَعْرِفَةَ مَا لَمْ يَصِفْ.

يقول: (فَوَالله مَا دَهَّمْ عَلَى عِظَمِ مَا وَصَفَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَا تُحِيطُ بِهِ قَبْضَتُهُ إِلَّا صِغَرُ نَظِيرِهَا مِنْهُمْ عِنْدَهُمْ)

الآن عندما يتأمل المرء في هذه الآيات الكريمة، وهو ينطلق في حديثه هنا منها وهي قوله: (﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]) مَنْ الذي يقرأ هذه الآية

ويُحسِن تأمُّلها وفهْمها، ثم يخطر في باله أنه يلزم من إثبات يد حقيقية لله أن تكون كيد المخلوق، إلا مَنْ فسد عقله، وتلوث بالشبهات الباطلة، وإلا مَنْ هذا الذي يخطر بباله وهو يقرأ مثل هذه الآية الكريمة: (﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[الزمر:٦٧]) ثم يقول: يلزم من إثبات اليد حقيقة لله أن تكون يده كأيدينا؟!!

فهذا من انحراف القلب وتلوثه بالشبهات، وإلا القلب السليم لا يمكن أن يخطر بباله، لا يمكن أن يخطر بباله هذا الظن، أو هذا التوهم الباطل؛ لأن هذا وصْف يليق بالله وبعظمة الله، فيَدُ الله ﷻ ليست كالأيدي، يد حقيقية ليست كالأيدي، تليق بجلال الله.

ومما يبين هذه العظمة مثل الآية الكريمة هذه: (﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[الزمر])، فيقول: (فَوَاللهِ مَا دَهَّمْ عَلَى عِظَمِ مَا وَصَفَ مِنْ نَفْسِهِا وَمَا تُحِيطُ بِهِ قَبْضَتُهُ إِلَّا صِغَرُ نَظِيرِهَا مِنْهُمْ عِنْدَهُمْ) أي: يد المخلوق.

(إِنَّ ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَى فِي رَوْعِهِمْ) أي: قلوبهم، الروع هنا: القلب، (وَخَلَقَ عَلَى مَعْرِفتِهِ قُلُوبَهُمْ) أي: هذا الذي مَنّ الله ﷻ عليهم به، ووفقهم لإثباته والإقرار به (فَمَا وَصَفَ اللهُ مِنْ نَفْسِهِ فَسَمَّاهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ سَمَّيْنَاهُ كَمَا) سمّاه (وَلَمْ نَتَكَلَّفْ مِنْهُ صِفَةَ مَا سِوَاهُ) وهذه قاعدة في الباب: أي أن نهج أهل السُّنة رحمهم الله في هذا الباب يدور مع الكتاب والسُّنة، مثلما قال الإمام الأوزاعي: (ندور مع الكتاب والسّنة حيث دارا) أي: نفياً وإثباتاً، فما ثبت في الكتاب والسُّنة أثبتناه وما نُفيا فيهما نفيناه.

قال: (لَا هَذَا وَلَا هَذَا) ثم فسّر المراد: (لَا نَجْحَدُ مَا وَصَفَ وَلَا نَتَكَلَّفُ مَعْرِفَةَ مَا لَمْ يَصِفْ)، الشيء الذي أثبته الله لنفسه، وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله عليه الصلاة والسلام لا نجحده؛ بل نثبته لله كما أثبته لنفسه، وكما أثبته له رسوله ﷺ.

(وَلَا نَتَكَلَّفُ مَعْرِفَةَ مَا لَمْ يَصِفْ) لأن تكلُّف معرفة ما لم يصف قُفُوٌ من العبد لما ليس له به علم، وقول على الله بلا علم، والله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[الإسراء]، ويقول جل وعلا: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[البقرة].

قال رحمه الله تعالى:

اِعْلَمْ رَحِمَكَ اَللهُ-أَنَّ اَلْعِصْمَةَ فِي اَلدِّينِ أَنْ تَنْتَهِيَ فِي اَلدِّينِ حَيْثُ اِنْتُهِيَ بِكَ وَلَا تُجَاوِزْ مَا حُدَّ لَكَ فَإِنَّ مِنْ قِوَامِ اَلدِّينِ مَعْرِفَةُ اَلْمَعْرُوفِ وَإِنْكَارُ اَلْمُنْكَرِ فَمَا بُسِطَتْ عَلَيْهِ اَلْمَعْرِفَةُ وَسَكَنَتْ إِلَيْهِ اَلْأَفْئِدَةُ وَذُكِرَ أَصْلُهُ فِي اَلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَوَارَثَ عِلْمَهُ اَلْأُمَّةُ فَلَا تَخَافَنَّ فِي ذِكْرِهِ وَصِفَتِهِ مِنْ رَبِّكَ مَا وَصَفَهُ مِنْ نَفْسِهِ عَيْباً وَلَا تَكَلَّفَنَّ لِمَا وُصِفَ لَكَ مِنْ ذَلِكَ قَدْراً.

وَمَا أَنْكَرَتْهُ نَفْسُكَ وَلَمْ تَجِدْ ذِكْرَهُ فِي كِتَابِ رَبِّكَ وَلَا فِي اَلْحَدِيثِ عَنْ نَبِيِّكَ-مِنْ ذِكْرِ رَبِّكَ- فَلَا تَتَكَلَّفَنَّ عِلْمَهُ بِعَقْلِكَ وَلَا تَصِفُهُ بِلِسَانِكَ وَاصْمُتْ عَنْهُ كَمَا صَمَتَ اَلرَّبُّ عَنْهُ مِنْ نَفْسِهِ فَإِنَّ تَكَلُّفَكَ مَعْرِفَةَ مَا لَمْ يَصِفْ مِنْ نَفْسِهِ كَإِنْكَارِكَ مَا وَصَفَ مِنْهَا فَكَمَا أَعْظَمْتَ مَا جَحَدَ اَلْجَاحِدُونَ مِمَّا وَصَفَ مِنْ نَفْسِهِ فَكَذَلِكَ أَعْظِمْ تَكَلُّفَ مَا وَصَفَ اَلْوَاصِفُونَ مِمَّا لَمْ يَصِفْ مِنْهَا.

هو في هذا الكلام يكرر المعنى السابق من باب التأكيد والتنويع في العبارة في تقرير الحق ورد الباطل، فيبين هنا رحمه الله تعالى: (أَنَّ اَلْعِصْمَةَ فِي اَلدِّينِ) أي: سلامة المرء في دينه من الضلال والباطل والانحراف (أَنْ تَنْتَهِيَ فِي اَلدِّينِ حَيْثُ اِنْتُهِيَ بِكَ) ومعنى ذلك: أن تقف على ما جاء في الكتاب والسُّنة ولا تتجاوز.

وباب الأسماء والصفات باب توقيفي؛ لا يجوز للإنسان أن يتجاوز فيه ما جاء في كتاب الله وسُنة نبيّه، ولهذا قال الإمام أحمد كما أشرت سابقاً: (نَصِف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والحديث).

قال: (أَنْ تَنْتَهِيَ فِي اَلدِّينِ حَيْثُ اِنْتُهِيَ بِكَ وَلَا تُجَاوِزْ مَا حُدَّ لَكَ)؛ قوله: (وَلَا تُجَاوِزْ مَا حُدَّ لَكَ) هذا نظير قول الإمام أحمد: (لا نتجاوز القرآن والحديث).

(فَإِنَّ مِنْ قِوَامِ اَلدِّينِ)- أي: استقامة الدين وسلامته، وقيامه- (مَعْرِفَةُ اَلْمَعْرُوفِ وَإِنْكَارُ اَلْمُنْكَرِ)...

(فَإِنَّ مِنْ قِوَامِ اَلدِّينِ مَعْرِفَةُ اَلْمَعْرُوفِ وَإِنْكَارُ اَلْمُنْكَرِ) ثم بيّن ذلك.. قال: (فَمَا بُسِطَتْ عَلَيْهِ اَلْمَعْرِفَةُ وَسَكَنَتْ إِلَيْهِ اَلْأَفْئِدَةُ وَذُكِرَ أَصْلُهُ فِي اَلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَوَارَثَ عِلْمَهُ اَلْأُمَّةُ فَلَا تَخَافَنَّ فِي ذِكْرِهِ وَصِفَتِهِ مِنْ رَبِّكَ مَا وَصَفَهُ مِنْ نَفْسِهِ عَيْباً) لا تخاف عيباً من ذلك، هذا حق وهذا ثابت، وهو ثابت في كتاب الله وسُنة نبيّه ﷺ، فأي عيب وأي لائمة في إثبات ما أثبته الله ﷻ، أو أثبته رسوله عليه الصلاة والسلام؟..

(وَلَا تَكَلَّفَنَّ لِمَا وُصِفَ لَكَ مِنْ ذَلِكَ قَدْراً) أي: اكتفِ بإثبات ما ثبت، ولا تخوض في تكييف هذا الذي ثبت، (لَا تَكَلَّفَنَّ لِمَا وُصِفَ لَكَ مِنْ ذَلِكَ قَدْراً) أي: لا تبحث عن كيفية ما وُصِف لك مثلما مرّ منا (أمروها كما جاءت بلا كيف، الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول).

قال: (وَمَا أَنْكَرَتْهُ نَفْسُكَ وَلَمْ تَجِدْ ذِكْرَهُ فِي كِتَابِ رَبِّكَ وَلَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ نَبِيِّكَ ﷺ-مِنْ ذِكْرِ رَبِّكَ) أي: بصفاته.. (فَلَا تَتَكَلَّفَنَّ عِلْمَهُ بِعَقْلِك) أي: ما لم يَرِد في كتاب الله وسُنة نبيّه لا تُدخِل عقلك في طلب صفات لله لم يأتِ لها ذِكْر لا في كتابه ولا في سُنّة نبيّه ﷺ.

(وَلَا تَصِفُهُ بِلِسَانِكَ) أي: بوصف لم يَرِد في الكتاب والسُّنة، ومعنى قوله: (وَلَا تَصِفُهُ بِلِسَانِكَ) أي: مُتكلِّفاً إنشاء ذلك، واختراعه من قِبَل نفسك، (وَلَا تَصِفُهُ بِلِسَانِكَ وَاصْمُتْ عَنْهُ كَمَا صَمَتَ الرَّبُّ عَنْهُ مِنْ نَفْسِهِ) أي: كما سكت الرب عن بيانه للخلق وسكت عن أشياء كما جاء في الحديث.

(فَإِنَّ تَكَلُّفَك مَعْرِفَةَ مَا لَمْ يَصِفْ مِنْ نَفْسِهِ كَإِنْكَارِك مَا وَصَفَ مِنْهَا) إنكار الثابت مثله إثبات ما لم يَرِد، كل ذلك قول على الله بلا علم، إنكار الثابت أو إثبات ما لم يَرِد؛ هذا كله قول على الله بلا علم، والقاعدة في الصفات: إثباتها.. إثبات بلا تكييف، وتنزيه بلا تعطيل..

والخطأ في الصفات راجع إلى هذين الأمرين؛ إما نفْي الثابت أو إثبات ما لم يَرِد، أو كذلك إثبات ما نُفي في الكتاب والسُّنة.

(كَمَا أَعْظَمْتَ مَا جَحَدَ الْجَاحِدُونَ مِمَّا وَصَفَ مِنْ نَفْسِهِ) أي: اعتبرت ذلك عظيماً وخطيراً (فَكَذَلِكَ أَعْظِمْ تَكَلُّفَ مَا وَصَفَ الْوَاصِفُونَ مِمَّا لَمْ يَصِفْ مِنْهَا) فهذا باطل وهذا باطل.

وهو هنا يرد على طائفتين انحرفتا في هذا الباب؛ طائفة المعطِّلة وطائفة المُشَبِّهة، المعطلة الذين جحدوا الثابت، والمشبهة الذين تكلفوا إثبات ما لم يثبت.

قال رحمه الله تعالى:

فَقَدْ-وَالله- عَزَّ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ الْمَعْرُوفَ وَبِمَعْرِفَتِهِمْ يُعْرَفُ وَيُنْكِرُونَ الْمُنْكَرَ وَبِإِنْكَارِهِمْ يُنْكَرُ يَسْمَعُونَ مَا وَصَفَ الله بِهِ نَفْسَهُ مِنْ هَذَا فِي كِتَابِهِ وَمَا يَبْلُغُهُمْ مِثْلُهُ مِنْ نَبِيِّهِ فَمَا مَرِضَ مِنْ ذِكْرِ هَذَا وَتَسْمِيَتِهِ قَلْبُ مُسْلِمٍ وَلَا تَكَلَّفَ صِفَةَ قَدْرِه وَلَا تَسْمِيَةَ غَيْرِهِ مِنْ الرَّبِّ مُؤْمِنٌ.

وَمَا ذُكِرَ عَنْ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ سَمَّاهُ مِنْ صِفَةِ رَبِّهِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَا سَمَّى وَمَا وَصَفَ الرَّبُّ مِنْ نَفْسِهِ.

قال: (فَقَدْ-وَالله- عَزَّ الْمُسْلِمُونَ) ومعنى (عَزَّ الْمُسْلِمُونَ) أي: قَلّ..

(فَقَدْ-وَاللهِ- عَزَّ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ الْمَعْرُوفَ وَبِمَعْرِفَتِهِمْ يُعْرَفُ، وَيُنْكِرُونَ الْمُنْكَرَ وَبِإِنْكَارِهِمْ يُنْكَرَ) يحلف هذا الحلف: أن المسلمين عَزُّوا -أي: قَلّوا- وهو في القرن الثاني رحمه الله تعالى..

قال: (وَاللهِ- عَزَّ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ الْمَعْرُوفَ وَبِمَعْرِفَتِهِمْ يُعْرَفُ، وَيُنْكِرُونَ الْمُنْكَرَ وَبِإِنْكَارِهِمْ يُنْكَرَ) يقول: قَلَّ هذا النوع من الناس.

(يَسْمَعُونَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ هَذَا فِي كِتَابِهِ، وَمَا يَبْلُغُهُمْ مِثْلُهُ عَنْ نَبِيِّهِ، فَمَا مَرِضَ مِنْ ذِكْرِ هَذَا وَتَسْمِيَتِهِ قَلْبُ مُسْلِمٍ) أي: أن هذا الإثبات لصفات الله ﷻ ليس مرضاً للقلوب، وليس آفةً تتضرر به القلوب؛ بل هو من أعظم النِّعم والمِنن.. أن يُوفَّق العبد لإثبات صفات الله ﷻ الثابتة في الكتاب والسُّنة، فإثباتها لا يضر القلوب؛ بل يزيدها إيماناً وخيراً وصلةً بالله ﷻ، ومَنْ كان بالله أعرف كان منه أخوف ولعبادته أَطْلَب.

(وَلَا تَكَلَّفَ صِفَةَ قِدْرِه وَلَا تَسْمِيَةَ غَيْرِهِ مِنَ الرَّبِّ مُؤْمِنٌ) أي: أن تَكَلُّف- العبارة هكذا عندك؟ (أي نعم يا شيخ)- (وَلَا تَكَلَّفَ صِفَةَ قِدْرِه وَلَا تَسْمِيَةَ غَيْرِهِ مِنَ الرَّبِّ مُؤْمِنٌ) أي: أن تَكَلُّف قدر الصفة- أي: كيفية الصفة- وتكلُّف تسمية أسماء لله وصفات لله لم تثبت في الكتاب هذه لا يتكلفها مؤمن، لأن المؤمن وقّاف؛ يُثبت ما ثبت وينفي ما نُفي ولا يتجاوز القرآن والحديث.

(وَمَا ذُكِرَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ سَمَّاهُ مِنْ صِفَةِ رَبِّهِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَا سَمَّى وَمَا وَصَفَ الرَّبُّ مِنْ نَفْسِهِ) وهذا أيضاً أصل في هذا الباب: أن الصفات الثابتة في السُّنة القول فيها كالقول في الصفات الثابتة في القرآن، لماذا؟

لأن السُّنة وحي، والرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم].

قال رحمه الله تعالى:

وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ-الْوَاقِفُونَ حَيْثُ انْتَهَى عِلْمُهُمْ، الْوَاصِفُونَ لِرَبِّهِمْ بِمَا وَصَفَ مِنْ نَفْسِهِ، التَّارِكُونَ لِمَا تَرَكَ مِنْ ذِكْرِهَا- لَا يُنْكِرُونَ صِفَةَ مَا سَمَّى مِنْهَا جَحْداً، وَلَا يَتَكَلَّفُونَ وَصْفَهُ بِمَا لَمْ يُسَمِّ تَعَمُّقاً، لِأَنَّ الْحَقَّ تَرْكُ مَا تَرَكَ وَتَسْمِيَةُ مَا سَمَّى، ومَنْ ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء] وهب الله لنا ولكم حُكماً وألحقنا بالصالحين. انتهى كلامه.

وَهَذَا كُلُّهُ كَلَامُ اِبْنِ الْمَاجِشُونَ الإمام فَتَدَبَّرْهُ وَانْظُرْ كَيْفَ أَثْبَتَ اَلصِّفَاتِ وَنَفَى عِلْمَ اَلْكَيْفِيَّةِ مُوَافقةً لِغَيْرِهِ مِنْ اَلْأَئِمَّةِ وَكَيْفَ أَنْكَرَ عَلَى مَنْ نَفَى اَلصِّفَاتِ بِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِهَا كَذَا وَكَذَا كَمَا تَقُولُهُ اَلْجَهْمِيَّةُ: أَنَّهُ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ جِسْماً أَوْ عَرَضاً فَيَكُونُ مُحْدَثاً.

قال رحمه الله تعالى في خاتمة كلامه: (وَالرَّاسِخُونَ فِي اَلْعِلْمِ) أي: الذين مَنَّ الله عليهم برسوخ أقدامهم في العلم وتمكّنهم فيه، (اَلْوَاقِفُونَ حَيْثُ اِنْتَهَى عِلْمُهُمْ) أي: ما حصَّلوه من علم الشريعة من كتاب ربهم وسُنة نبيّهم ﷺ يقفون حيث انتهى علمهم.

(اَلْوَاصِفُونَ لِرَبِّهِمْ بِمَا وَصَفَ مِنْ نَفْسِهِا اَلتَّارِكُونَ لِمَا تَرَكَ مِنْ ذِكْرِهَا) وهذه طريقة أهل الرسوخ في العلم: يقفون حيث انتهى العلم الذي تلقوه من الكتاب والسُّنة، لا يتجاوزون القرآن والحديث، فيصفون ما وصف الرب من نفسه، ويتركون لما ترك من ذِكْرها؛ فيثبتون ما ثبت ولا يخوضون في طلب علم ما لم يثبت.

(لَا يُنْكِرُونَ صِفَةَ مَا سَمَّى مِنْهَا جَحْداً وَلَا يَتَكَلَّفُونَ وَصْفَهُ بِمَا لَمْ يُسَمِّ تَعَمُّقاً) هذا باطل وهذا باطل، جحْد ما ثبت باطل، والتعمق في إثبات ما لم يَرِد أيضاً باطل..

(لِأَنَّ اَلْحَقَّ)- هذه قاعدة عظيمة، ثمينة جداً- (اَلْحَقَّ تَرْكُ مَا تَرَكَ وَتَسْمِيَةُ مَا سَمَّى) هذه قاعدة عظيمة جداً في هذا الباب، مثل قول الأوزاعي رحمه الله: (ندور مع السُّنة حيث دار) أي نفياً وإثباتاً، فما ثبت بالكتاب والسُّنة أثبتناه وما نُفي في الكتاب والسُّنة نفيناه، لا نتجاوز كتاب الله وسُنة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا هو سبيل أهل الرسوخ، أهل العلم، أهل البصيرة بدين الله، ولهذا ختم بقوله: ومَنْ (﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥]) أي: غير طريقتهم في الاعتقاد والعبادة؛ هذا المراد بـ (السبيل) أي: طريقة المؤمنين في عقيدتهم، وفي عبادتهم، وهي هذه التي كان عليها الصحابة ومَنْ اتبعهم بإحسان، فمَنْ يتبع غير هذا السبيل قال: (﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء:١١٥]) أي: نتركه وما اختار لنفسه، خُذلاناً من الله ﷻ له، (﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾ [النساء:١١٥]) أي: نعاقبه يوم القيامة بدخول جهنم (﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء]).

ثم ختم بهذه الدعوة (وهب الله لنا ولكم حُكماً وألحقنا بالصالحين) جزاه الله خيراً على هذه الدعوة العظيمة، قال: (وهب الله لنا ولكم حُكماً) وهذه مُقتبسة من دعوة الخليل عليه السلام: (﴿ رَبِّ هَبۡ لِي

﴿حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء]) ومعنى حُكماً: أي علماً كثيراً، (﴿هَبْ لِى حُكْمًا﴾ [الشعراء:٨٣]) أي: هب لي علماً كثيراً أعرف به الحلال والحرام، أعرف به حدود الله ﷻ، وأحكم به، وأقضي به، وأعمل به، هذا معنى قوله: (﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ [الشعراء:٨٣]).

(﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء]) أي: من عبادك وأصفيائك ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء].

انتهى بهذا كلامه رحمه الله تعالى، قال شيخ الإسلام في استخلاص الفائدة من هذا الكلام، والحث على حُسن الاستفادة منه، قال: (وَهَذَا كُلُّهُ كَلَامُ اِبْنِ الْمَاجِشُونَ الإمام فَتَدَبَّرْهُ) أي: تأمل في هذا الكلام وأحسِن الاستفادة منه.

(وَانْظُرْ كَيْفَ أَثْبَتَ اَلصِّفَاتِ وَنَفَى عِلْمَ اَلْكَيْفِيَّةِ)؛ وإثباته للصفات في هذا الكلام الذي مرَّ معنا، ونفْيه لعلم الكيفية جاء بتنويع في العبارة، وتنويع في أساليب الكلام تقريراً للحق وإيضاحاً له وتبياناً له، ورداً للباطل وإنكاراً على مقالة الجهمية الآثمة الباطلة.

ومرّ معنا أنه رحمه الله تعالى كتب ذلك بناءً على سؤال قُدِّم له عمّا تتابعت له الجهمية ومَنْ سار سيرهم من أهل الباطل، فكتب هذا الكلام وبسط رحمه الله تعالى هذا القول في إثبات الصفات ونفْي علم الكيفية (مُوَافقة لِغَيْرِهِ مِنْ اَلْأَئِمَّةِ) أي: أئمة السلف رحمهم الله أجمعين.

يقول: (وَكَيْفَ) أي: وانظر كيف (أَنْكَرَ عَلَى مَنْ نَفَى اَلصِّفَاتِ بِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِهَا كَذَا وَكَذَا كَمَا تَقُولُهُ اَلْجَهْمِيَّةُ) أنكر عليهم ذلك، أي: في هذه القاعدة، لأن مرّ معنا عند كلام ابن الماجشون رحمه الله تعالى على الجهمية قوله: (فَصَارَ يَسْتَدِلُّ بِزَعْمِهِ عَلَى جَحْدِ مَا وَصَفَ اَلرَّبُّ وَسَمَّى مِنْ نَفْسِهِ بِأَنْ قَالَ: لَا بُدَّ إن كَانَ لَهُ كَذَا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ كَذَا) فيُنبه شيخ الإسلام على ذلك، وأن هذا هو الأصل أو الطريقة في الاستدلال التي قام عليها مذهب الجهمية.

قال: (وَكَيْفَ) انظر (كَيْفَ أَنْكَرَ عَلَى مَنْ نَفَى اَلصِّفَاتِ بِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِهَا كَذَا وَكَذَا كَمَا تَقُولُهُ اَلْجَهْمِيَّةُ) مثَّل ابن تيمية مثال على ذلك، مثال يوضح كلام ابن الماجشون السابق: (أَنَّهُ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ جِسْماً أَوْ عَرَضاً فَيَكُونُ مُحْدَثاً)، بناءً على هذه الكلمة (يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ جِسْماً أَوْ عَرَضاً فَيَكُونُ مُحْدَثاً) بناءً على هذه الكلمة.. هذا اللازم الذي ذكروه جحدوا جميع صفات الله الذاتية والفعلية؛

فــ(يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ جِسْماً) جحدوا جميع الصفات الذاتية (اليد، والقدم، والوجه، والسمع، والبصر) وجميع الصفات.

أو أن يكون (عَرَضاً) نفوا فيها أو بناء تحتها جميع صفات الأفعال: (الاستواء، والنزول، والمجيء، والرضا، والغضب،.. وغير ذلك من الصفات، والضحك مر معنا قريباً) كل ذلك منفي تحت هذا، (أَنَّهُ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ جِسْماً أَوْ عَرَضاً فَيَكُونُ مُحْدَثاً).

وبهذا ينتهي ما يتعلق بهذا الأثر المروي عن ابن الماجشون وهذا التعليق من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عليه.

ونكتفي بهذا القدر، ونسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبيّنا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الحادي عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وَفِي كِتَابِ "اَلْفِقْهُ اَلْأَكْبَرُ" اَلْمَشْهُورُ عِنْدَ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ اَلَّذِي رَوَوْهُ بِالْإِسْنَادِ عَنْ أَبِي مُطِيعٍ "اَلْحَكَمِ بْنِ عَبْدِ الله اَلْبَلْخِيِّ" قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا حَنِيفَةَ عَنْ اَلْفِقْهِ اَلْأَكْبَرِ فَقَالَ: لَا تُكَفِّرَنَّ أَحداً بِذَنْبٍ، وَلَا تَنْفِ أَحداً بِهِ مِنْ اَلْإِيمَانِ، وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنْ اَلْمُنْكَرِ، وَتَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَا تَتَبَرَّأْ مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ وَلَا تُوَالِي أَحداً دُونَ أَحَدٍ، وَأَنْ تَرُدَّ أَمْرَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

يواصل شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى النقل عن أهل العلم في تقرير المعتقد الذي عليه أهل السُّنة والجماعة في صفات الرب تبارك وتعالى، وأنهم يُمِرُّونها كما جاءت، ويؤمنون بها كما وردت، ولا يخوضون فيها بتكييف أو تمثيل، ولا بتحريف أو تعطيل.

وهذا نقْل أورده -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن الإمام أبي حنيفة -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه (اَلْمَشْهُورُ عِنْدَ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ) كتاب «الفقه الأكبر»، قال: (اَلَّذِي رَوَوْهُ بِالْإِسْنَادِ عَنْ أَبِي مُطِيعٍ "اَلْحَكَمِ بْنِ عَبْدِ الله اَلْبَلْخِيِّ") وشيخ الإسلام ابن تيمية يشير بهذه الشهرة إلى صحة نسبة هذا الكتاب إلى أبي حنيفة، ومن أهل العلم مَنْ يُشكك في نسبة الكتاب إليه، لكن الكتاب اشتُهِر بين الأحناف خاصةً وتناقلوه وتداولوه ورووه عن أبي حنيفة -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وكثُرت أيضاً الشروحات له.

فهذه الشهرة تفيد صحة نسبته إليه، أو على أقل تقدير أنه من إملاءاته وتقريراته، وكتبها عنه بعض تلاميذه، فإما أن يكون ألَّفه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو يكون تقريرات قالها في مجالسه وكتبها عنه بعض تلاميذه.

(قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا حَنِيفَةَ عَنْ اَلْفِقْهِ اَلْأَكْبَرِ) وهذا فيه أن من المتقرر قديماً أن الفقه فقهان: أكبر، وأصغر، وكل منهما داخل تحت قول النبي ﷺ: «مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

و«الفقه الأكبر» أَوْلَى من حيث المكانة والمنزلة؛ لأنه الأساس الذي يقوم عليه دين الله تبارك وتعالى، وهو: الاعتقاد، والتوحيد، وأصول الدين، وهذا هو المراد بالفقه الأكبر، يُراد بالفقه الأكبر ما يتعلق بالعقيدة والتوحيد، وأصول الدين التي عليها يقوم، ويُراد بالفقه الأصغر: الأحكام العملية وتفاصيل العبادات.

فيقول: سألته عن الفقه الأكبر فقال: (لَا تُكَفِّرَنَّ أَحَداً بِذَنْبٍ)، وفي كتاب «الفقه الأكبر» زيادة، قال: (لا تُكَفِّرَنَّ أحداً من أهل القبلة بذنب) وهذا القيد مهم، ومع حذفه فإن هو المراد، (لَا تُكَفِّرَنَّ أَحَداً بِذَنْبٍ) أي: أحداً من أهل القبلة، والمراد بـ(ذنب) أي: دون الشرك، والكفر بالله؛ لأن ذنب الشِّرك ناقل من الملة ومُخرِج من الإسلام، فإذا كان الذنب كُفراً أو شركاً أكبر، ناقل من الملة، فإن مَنْ اقترفه يكفر ويخرج من الملة.

فإذاً قوله: (لَا تُكَفِّرَنَّ أَحَدًا) أي: من أهل القبلة- بهذا القيد-.

وقوله: (بِذَنْبٍ) أي: دون الشرك والكفر بالله ﷻ.

(وَلَا تَنْفِ أَحَداً بِهِ) أي: الذنب (مِنْ اَلْإِيمَانِ)... (وَلَا تَنْفِ أَحَداً بِهِ مِنْ اَلْإِيمَانِ)؛ ونفْي الإيمان قد يُراد به أصل الإيمان، وقد يراد به كمال الإيمان الواجب.

وجاءت الشريعة بنفْي الإيمان عن مَنْ اقترف الكبائر أو ترك بعض الواجبات مثل: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، ومثل: «لا إيمان لِمَنْ لا أمانة له»، ومثل: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».. إلى غير ذلك من النصوص الواردة في السُّنة والتي فيها نفْي الإيمان.

ويكون النفي يراد به نفْي كمال الإيمان الواجب، فهنا قول: (وَلَا تَنْفِ أَحَداً بِهِ مِنْ اَلْإِيمَانِ) يُراد به إخراجه من الإيمان، أما نفْي كمال الواجب في ضوء ما دلّت عليه الأدلة والنصوص فإن مقترف الكبيرة مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أو مؤمن ناقص الإيمان.

قال: (وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنْ اَلْمُنْكَرِ) أي: كونك لا تُكفِّر هؤلاء لا يعني أنك تتركهم؛ بل تقوم بالواجب الذي هو الدعوة والنصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعمل على إصلاح الناس وهدايتهم..

(وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ وَتَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ) وهذا فيه أصل من أصول الإيمان وهو الإيمان بالقدر، وأن الأمور كلها بقضاء الله ﷻ وقدره، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فالأمر كله بتدبير الرب ﷻ وقضائه وقدره.

(وَلَا تَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ وَلَا تُوَالِي أَحَداً دُونَ أَحَدٍ) أي: منهم، من الصحابة؛ فحذَّر من التبري من الصحابة، أو أحداً من الصحابة، والصحابة كلهم عدول، وجميعهم يُوالون ويُحبُّون، وتُعرَف لهم مكانتهم وقدرهم ومنزلتهم، ولا يكون الولاء لبعضهم دون بعض، مثل طريقة الرافضة؛ يزعمون زعماً أنهم يوالون أهل البيت ويعادون مَنْ سواهم، وضدهم الناصبة، فالولاء يكون لجميع الصحابة، والمحبة لجميع الصحابة، ونفْي الغل لجميع الصحابة ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]، فلا يتبرأ من أحد منهم؛ بل كلهم لهم في القلوب المحبة ومعرفة القدر والفضل والسابقة بالخير، ولا أيضاً يكون الولاء لبعض دون بعض؛ بل جميعهم يوالون ويُحبُّون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

(وَأَنْ تَرُدَّ أَمْرَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ إِلَى الله ﷻ) ولعل المراد هنا- والله تعالى أعلم- في التفضيل، أيهما أفضل.. وهذا فيه التوقف، فيه التوقف في هذه المسألة- مسألة التفضيل-، لكن كلمة أهل السُّنة استقرت على أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، أفضلهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعن الصحابة أجمعين.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: اَلْفِقْهُ اَلْأَكْبَرُ فِي اَلدِّينِ خَيْرٌ مِنْ اَلْفِقْهِ فِي اَلْعِلْمِ وَلَأَنْ يَفْقَهَ اَلرَّجُلُ كَيْفَ يَعْبُدُ رَبَّهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَجْمَعَ اَلْعِلْمَ اَلْكَثِيرَ.

(قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: اَلْفِقْهُ اَلْأَكْبَرُ فِي اَلدِّينِ خَيْرٌ مِنْ اَلْفِقْهِ فِي اَلْعِلْمِ) أي: فقه الاعتقاد والتوحيد وأصول الدين التي عليها يُبنى دين الله ﷻ وعليها يُقام (خَيْرٌ مِنْ اَلْفِقْهِ فِي اَلْعِلْمِ)، وهذا فيه التنبيه، ومرّ معنا نظير ذلك: التنبيه على تعلُّم الإيمان، والبدء به قبل الخوض في تفاصيل الأحكام وتفاصيل الشرائع؛ لأن الإيمان هو الأساس الذي عليه يُبنَى دين الله تبارك وتعالى.

فالفقه الأكبر الذي هو أصول الدين وأسس الدين التي عليها يقوم دين الله تبارك وتعالى (خَيْرٌ)- وخير هنا أفعل تفضيل- (مِنَ الْفِقْهِ فِي الْعِلْمِ) أي: في تفاصيل العلم، وتفاصيل الأحكام، وهذا فيه تأكيد ما سبق: أن الفقه فقهان: أكبر وأصغر؛ والأكبر: هو الاعتقاد، والأصغر: هو تفاصيل الأحكام، والأكبر خير من الأصغر- أي: أعلى مكانةً وأعظم درجة-، وكيف لا وهو الأساس الذي يُبنَى عليه دين الله تبارك وتعالى، وأعمال العباد مهما كثُرت لا تنفعه إلا إذا كانت قائمةً على أساس صحيح من أصول الإيمان والقواعد- قواعد الدين التي عليها يقوم-.

(وَلَأَنْ يَفْقَهَ الرَّجُلُ كَيْفَ يَعْبُدُ رَبَّهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَجْمَعَ الْعِلْمَ الْكَثِيرَ) أن يعلم كيف يعبد ربه ويعرف الأساس الذي يُبنَى عليه دين الله، وأن عبادة الله بالتوحيد والإخلاص وحُسْن الاتباع للرسول ﷺ، يعرف كيف يعبد ربه ثم يباشر العبادة مُخلصاً لله ﷻ، مُحسناً التقرُّب إليه جل وعلا (خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَجْمَعَ الْعِلْمَ الْكَثِيرَ) لأن مقصود العلم: العمل، فإذا انشغل الإنسان عن الأصول والأسس التي يقوم عليها دين الله وأخذ يجمع العلم الكثير فهذا لا شك أنه مُفَرِّطٌ في الأصل الذي يُبنَى عليه دين الله، ومُفَرِّطٌ في العمل الذي هو ثمرة العلم.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

قَالَ أَبُو مُطِيعٍ: قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَفْضَلِ الْفِقْهِ قَالَ: تَعَلُّمُ الرَّجُلِ الْإِيمَانَ وَالشَّرَائِعَ وَالسُّنَنَ وَالْحُدُودَ وَاخْتِلَافَ الْأَئِمَّةِ وَذَكَرَ مَسَائِلَ الْإِيمَانِ ثُمَّ ذَكَرَ مَسَائِلَ الْقَدَرِ وَالرَّدَّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ بِكَلَامٍ حَسَنٍ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ.

ثُمَّ قَالَ: قُلْتُ: فَمَا تَقُولُ فِيمَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ فَيَتْبَعُهُ عَلَى ذَلِكَ أُنَاسٌ فَيَخْرُجُ عَلَى الْجَمَاعَةِ هَلْ تَرَى ذَلِكَ؟ قَالَ: لَا قُلْتُ: وَلِمَ؟ وَقَدْ أَمَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَهُوَ فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ؟ قَالَ: كَذَلِكَ.. وَلَكِنْ مَا يُفْسِدُونَ أَكْثَرُ مِمَّا يُصْلِحُونَ مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ وَاسْتِحْلَالِ الْحَرَامِ.

قَالَ: وَذَكَرَ الْكَلَامَ فِي قِتَالِ الْخَوَارِجِ وَالْبُغَاةِ إلَى أَنْ قَالَ: قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ عَمَّنْ قَالَ: لَا أَعْرِفُ رَبِّي فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ فَقَدْ كَفَرَ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ.

قُلْتُ: فَإِنْ قَالَ إنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى وَلَكِنَّهُ يَقُولُ لَا أَدْرِي الْعَرْشُ فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ قَالَ: هُوَ كَافِرٌ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ فِي السَّمَاءِ لِأَنَّهُ تَعَالَى فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ وَأَنَّهُ يُدْعَى مِنْ أَعْلَى لَا مِنْ أَسْفَلَ- وَفِي لَفْظٍ-

سَأَلْتُ أَبَا حَنِيفَةَ عَمَّنْ يَقُولُ لَا أَعْرِفُ رَبِّي فِي اَلسَّمَاءِ أَمْ فِي اَلْأَرْضِ؛ قَالَ: قَدْ كَفَرَ؛ لِأَنَّ اَللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ؛ قَالَ: فَإِنَّهُ يَقُولُ: عَلَى اَلْعَرْشِ اِسْتَوَى وَلَكِنْ لَا يَدْرِي أَلْعَرْشُ فِي اَلْأَرْضِ أَوْ فِي اَلسَّمَاءِ؛ قَالَ: إِذَا أَنْكَرَ أَنَّهُ فِي اَلسَّمَاءِ فَقَدْ كَفَرَ.

فَفِي هَذَا اَلْكَلَامِ اَلْمَشْهُورِ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ عِنْدَ أَصْحَابِهِ أَنَّهُ كَفَّرَ اَلْوَاقِفَ اَلَّذِي يَقُولُ: لَا أَعْرِفُ رَبِّي فِي اَلسَّمَاءِ أَمْ فِي اَلْأَرْضِ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ اَلْجَاحِدُ اَلنَّافِي اَلَّذِي يَقُولُ: لَيْسَ فِي اَلسَّمَاءِ أَوْ لَيْسَ فِي اَلْأَرْضِ وَلَا فِي اَلسَّمَاءِ؟ وَاحْتَجَّ عَلَى كُفْرِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] قال: وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ.

وَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] يُبَيِّنُ أَنَّ اَللَّهَ فَوْقَ اَلسَّمَاوَاتِ؛ فَوْقَ اَلْعَرْشِ؛ وَأَنَّ اَلِاسْتِوَاءَ عَلَى اَلْعَرْشِ دَلَّ عَلَى أَنَّ اَللَّهَ نَفْسَهُ فَوْقَ اَلْعَرْشِ؛ ثُمَّ أَرْدَفَ ذَلِكَ بِتَكْفِيرِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ عَلَى اَلْعَرْشِ اِسْتَوَى؛ وَلَكِنْ تَوَقَّفَ فِي كَوْنِ اَلْعَرْشِ فِي اَلسَّمَاءِ أَمْ فِي اَلْأَرْضِ؛ قَالَ: لِأَنَّهُ أَنْكَرَ أَنَّهُ فِي اَلسَّمَاءِ لِأَنَّ اَللَّهَ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ؛ وَأَنَّهُ يُدْعَى مِنْ أَعْلَى لَا مِنْ أَسْفَلَ؛ وَهَذَا تَصْرِيحٌ مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ بِتَكْفِيرِ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ اللهُ فِي اَلسَّمَاءِ وَاحْتَجَّ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ اَللَّهَ تَعَالَى فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ وَأَنَّهُ يُدْعَى مِنْ أَعْلَى لَا مِنْ أَسْفَلَ وَكُلٌّ مِنْ هَاتَيْنِ اَلْحُجَّتَيْنِ فِطْرِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ؛ فَإِنَّ اَلْقُلُوبَ مَفْطُورَةٌ عَلَى اَلْإِقْرَارِ بِأَنَّ اَللَّهَ فِي اَلْعُلُوِّ؛ وَعَلَى أَنَّهُ يُدْعَى مِنْ أَعْلَى لَا مِنْ أَسْفَلَ؛ وَقَدْ جَاءَ اَللَّفْظُ الآخر صَرِيحاً عَنْهُ بِذَلِكَ فَقَالَ: إِذَا أَنْكَرَ أَنَّهُ فِي اَلسَّمَاءِ فَقَدْ كَفَرَ.

وَرَوَى هَذَا اَللَّفْظَ عَنْهُ بِالْإِسْنَادِ شَيْخُ اَلْإِسْلَامِ أَبُو إِسْمَاعِيلَ اَلْأَنْصَارِيُّ الْهَرَوِيُّ بِإِسْنَادِهِ فِي كِتَابِ "اَلْفَارُوقِ".

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (قَالَ أَبُو مُطِيعٍ: قُلْتُ) أي: لأبي حنيفة (أَخْبِرْنِي عَنْ أَفْضَلِ الْفِقْهِ قَالَ: تَعَلُّمُ اَلرَّجُلِ اَلْإِيمَانَ؛ وَالشَّرَائِعَ وَالسُّنَنَ؛ وَالْحُدُودَ؛ وَاخْتِلَافَ اَلْأَئِمَّةِ؛ وَذَكَرَ مَسَائِلَ اَلْإِيمَانِ؛ ثُمَّ ذَكَرَ مَسَائِلَ اَلْقَدَرِ؛ وَالرَّدَّ عَلَى اَلْقَدَرِيَّةِ بِكَلَامٍ حَسَنٍ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ) هذا يفيدنا ما أشرتُ إليه سابقاً: أن هذا الكتاب في الغالب إملاءات، إملاءات كُتبت عن أبي حنيفة لا أنه ألَّفَه، وإنما هو إملاءات كُتِبَت عنه، مثل: سؤالات تُطرَح عليه ويُقيِّد أجوبته عليها تلاميذه، ثم جُمعت في هذا الكتاب الذي سُمي بالفقه الأكبر.

قال: (ثُمَّ قَالَ: قُلْتُ: فَمَا تَقُولُ فِيمَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ فَيَتْبَعُهُ عَلَى ذَلِكَ أُنَاسٌ فَيَخْرُجُ عَلَى اَلْجَمَاعَةِ هَلْ تَرَى ذَلِكَ؟ قَالَ: لَا) أي: هذه الطريقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليست طريقة شرعية، وهي مخالفة لشرع الله ﷻ، أن يفتات الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ولي الأمر، ويخرج على

جماعة المسلمين؛ هذا ليس من شرع الله ﷻ، بل هذا مزْج للحق بالباطل والهدى بالضلال، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مطلوب في ضوء ضوابط الشريعة وقيودها المعلومة، أما أن يُجعَل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غرضاً للخروج على ولي الأمر والافتيات عليه، وشَقّ العصا؛ فهذا باطل وليس من دين الله تبارك وتعالى.

ولهذا قال لما سأله: الرجل (يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنْ اَلْمُنْكَرِ فَيَتَّبِعُهُ عَلَى ذَلِكَ أُنَاسٌ) انظر إلى قوله: (فَيَتَّبِعُهُ عَلَى ذَلِكَ أُنَاسٌ) أي: يكون له حاشية وأتباع وأعداد، (فَيَتَّبِعُهُ عَلَى ذَلِكَ أُنَاسٌ)، فلما يكثُر الأتباع يستغل هذه الكثرة (فَيَخْرُجُ عَلَى اَلْجَمَاعَةِ هَلْ تَرَى ذَلِكَ؟ قَالَ: لَا؛ قُلْتُ: وَلِمَ؟) يعني: مثل كأنه يقول: أليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر مطلوب شرعاً؟ لِمَ؟

قال: (وَلِمَ؟ وَقَدْ أَمَرَ الله وَرَسُولُهُ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ اَلْمُنْكَرِ) وهم فريضة الإسلام.. (وَهُوَ فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ؟) يعني لِمَ تنه عن ذلك؟..

(قَالَ: كَذَلِكَ) يعني هو فريضة، وأَمَرَ الله به، وأَمَرَ به رسوله ﷺ، (وَلَكِنْ مَا يُفْسِدُونَ أَكْثَرُ مِمَّا يُصْلِحُونَ مِنْ سَفْكِ اَلدِّمَاءِ وَاسْتِحْلَالِ اَلْحَرَامِ) أي: ما يحصل على يد هؤلاء في طريقتهم هذه عندما يخرجون على ولي الأمر، ويخرجون على جماعة المسلمين، ما يحصل على يديهم من الفساد أعظم من الخير الذي هم يعملون على إصلاحه.

فمثلاً: إذا وُجِد بعض المنكرات من زنا أو سرقة أو شُرْب خمر أو غير ذلك من المنكرات، ثم وُجِد جماعة غضبوا غضبة دينية على هذه المنكرات وأرادوا معالجة الوضع في المجتمع وفي البلد فرأوا أن إنكار المنكر يكون بالطريقة التي أشار إليها، يخرجون على ولي الأمر ويقومون هم بمباشرة الإنكار بالأيدي، ومثلاً بالسلاح، ونحو ذلك بغرض المعالجة- معالجة الأمر-.

ما يحصل على يد هؤلاء، من يفعلون هذه الطريقة من الفساد والشر وإراقة الدماء وانتشار الفوضى واختلال الأمن.. وغير ذلك من المفاسد أعظم من الإصلاح الذي هم بزعمهم يريدون الوصول إليه.

ومن قواعد الشريعة: أن درء المفاسد مُقَدَّم على جلْب المصالح، وهذه مفسدة بيّنة، وهذا خلل بيّن؛ فيه الإخلال بالأمن، فيه إضرار بالمجتمع، فيه شيوع الفوضى، فيه أيضاً تسلُّط المجرمين، عدم استقرار الناس وأمنهم في عباداتهم وطَلَبِهم للعلم، ومصالحهم المتنوعة، فيحصل مفاسد لا حدَّ لها ولا حصْر.

ولهذا قال: (كَذَلِكَ) يعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مأمور به شرعاً؛ (لَكِنْ مَا يُفْسِدُونَ أَكْثَرُ مِمَّا يُصْلِحُونَ مِنْ سَفْكِ اَلدِّمَاءِ وَاسْتِحْلَالِ اَلْحَرَامِ).

(قَالَ: وَذَكَرَ اَلْكَلَامَ فِي قِتَالِ اَلْخَوَارِجِ وَالْبُغَاةِ إِلَى أَنْ قَالَ: قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ عَمَّنْ قَالَ: لَا أَعْرِفُ رَبِّي فِي اَلسَّمَاءِ أَمْ فِي اَلْأَرْضِ فَقَدْ كَفَرَ؛ لِأَنَّ اَللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ) هذا وهو موضع الشاهد من سياق هذا الأثر عن أبي حنيفة -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذا الموضع، ففيه إثبات الصفات، وفيه إثبات عُلو الله، واستوائه على العرش استواء يليق بجلاله، وأن عرش الرحمن هو سقف المخلوقات وأعلاها، وأن الله ﷻ مستو عليه استواء يليق بجلاله وكماله، وأن العرش فوق السموات؛ فهذا كله تقرير لهذا المعتقد.

قال: قلت له: مَنْ قال: (لَا أَعْرِفُ رَبِّي فِي اَلسَّمَاءِ أَمْ فِي اَلْأَرْضِ) ماذا تقول فيه؟، قال: كفر؛ لأن البراهين والدلائل على كون الله ﷻ في السماء وأنه عَلِيٌّ على خلقه، وأنه فوق مخلوقاته، وهو القاهر فوق عباده، الدلائل على ذلك كثيرة، مثلما قال ابن القيم وهو يتحدث عن أدلة العُلو:

يا قومنا والله إنّ لقولنا ألفاً تدل عليه؛ بل ألفان

يعني يقصد أن الأدلة على عُلو الله بالآلاف، ودلَّ على عُلو الله الكتاب، والسُّنة، والإجماع، والفطرة، والعقل، وسيأتي تقرير الدليل - دليل الفطرة ودليل العقل - على عُلو الله ﷻ؛ فهذه كلها اجتمعت، فمَنْ جحد ذلك فقد كفر.

ومَنْ قال: (لَا أَعْرِفُ رَبِّي فِي اَلسَّمَاءِ أَمْ فِي اَلْأَرْضِ فَقَدْ كَفَرَ) لماذا؟

لأن هذا شاك في أصل مُتقرر في كتاب الله، وسُنة نبيّه، وأجمع عليه أهل العلم، ودلَّت عليه الفطرة، ودلّ عليه العقل، والشك كفر.

قال: (لِأَنَّ اَللَّهَ يَقُولُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ) (لِأَنَّ اَللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]) أي: كيف يشك والله يقول: (﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ)؟.

(قُلْتُ: فَإِنْ قَالَ إِنَّهُ عَلَى اَلْعَرْشِ اِسْتَوَى؛ وَلَكِنَّهُ يَقُولُ لَا أَدْرِي أَلْعَرْشُ فِي اَلسَّمَاءِ أَمْ فِي اَلْأَرْضِ قَالَ: هُوَ كَافِرٌ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ فِي اَلسَّمَاءِ) والله جل وعلا يقول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، في حديث الجارية قال: «أين الله؟ قالت: في السماء، قال: اعتقها فإنها مؤمنة»؛ والنصوص في هذا المعنى كثيرة.

قال: (هُوَ كَافِرٌ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ فِي السَّمَاءِ لِأَنَّهُ تَعَالَى فِي أَعَلَى عِلِّيِّينَ وَأَنَّهُ يُدْعَى مِنْ أَعْلَى لَا مِنْ أَسْفَلَ)

أي: التوجه إليه بالدعاء تَوَجُّه إلى العُلو إيماناً من الداعي بعُلو ربه؛ ولهذا إذا أراد أن يدعو رفع يديه، ورفع اليدين في الدعاء هذا فيه إيمان بعُلو الله، وقلبه أيضاً وهو يدعو متجه إلى العُلو إيماناً بعُلو ربه ﷻ.

لكن مَنْ يقول- تعالى الله عن ما يقول- لأن مَنْ لا يؤمن بعُلو الله ليس أمامه إلا إحدى عقيدتين لا ثالث لهما، مَنْ لا يؤمن بعُلو الله إما أن يقول: إن الله في كل مكان- تعالى الله عن ما يقولون-، أو يقول: إن الله لا فوق ولا تحت، ولا داخل العالم، ولا خارجه؛ للذي هو العدم- والعياذ بالله-؛ فليس أمامه إلا هاتين العقيدتين.

وعلى ضوء هاتين العقيدتين؛ ما معنى رفْع اليدين بالدعاء؟ إذا كان في كل مكان مثلاً ما معنى رفْع اليدين؟! إذا كان عقيدته أن الله في كل مكان ما معنى رفْع يديه إلى العُلو؟! وإذا كان عقيدته الأخرى لا فوق ولا تحت إلى آخره.. أيضاً ما معنى رفْع اليدين ومَنْ يدعوه وصْفه عنده وصْف العدم؟!

فقال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَنَّهُ يُدْعَى مِنْ أَعْلَى لَا مِنْ أَسْفَلَ- وَفِي لَفْظٍ- سَأَلْتُ أَبَا حَنِيفَةَ عَمَّنْ يَقُولُ لَا أَعْرِفُ رَبِّي فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ قَالَ: قَدْ كَفَرَ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ قَالَ: فَإِنَّهُ يَقُولُ: عَلَى الْعَرْشِ اِسْتَوَى وَلَكِنْ لَا يَدْرِي الْعَرْشُ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاءِ قَالَ: إِذَا أَنْكَرَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ فَقَدْ كَفَرَ).

وجاء أيضاً في لفظ آخر أن أبا حنيفة قال: لأن الله يُدعَى من أعلى لا من أسفل لأن السفل يتنافى مع الربوبية والألوهية، ويكون هذا النقل جمع فيه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أقسام التوحيد الثلاثة، جمع فيه أقسام التوحيد الثلاثة: الأسماء والصفات بإثبات العُلو، والربوبية بقوله يتنافى مع الربوبية، والألوهية بقوله يتنافى مع الألوهية.

لما نقل شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا النقل عن أبي حنيفة شرع في توضيح وبيان ما يُستفاد من هذا النقل، قال: (فَفِي هَذَا الْكَلَامِ الْمَشْهُورِ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ عِنْدَ أَصْحَابِهِ أَنَّهُ كَفَّرَ الْوَاقِفَ) الواقف مَنْ هو؟

هو الذي مر كلامه قبل قليل- يقول: (لا أدري)، أو: (لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض).

(كَفَّرَ الْوَاقِفَ الَّذِي يَقُولُ: لَا أَعْرِفُ رَبِّي فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ فَكَيْفَ يَكُونُ الْجَاحِدُ النَّافِي) كيف يكون الجاحد النافي: يعني الذي يجزم بنفْي عُلو الله ﷻ؟! إذا كان المتوقف اللي يقول: (لا أدري في السماء أم في الأرض) يُكفِّره -رَحِمَهُ ٱللَّهُ (فَكَيْفَ يَكُونُ الْجَاحِدُ النَّافِي الَّذِي يَقُولُ: لَيْسَ فِي السَّمَاءِ أَوْ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ

وَلَا فِي اَلسَّمَاءِ؟ وَاحْتَجَّ عَلَى كُفْرِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] قال: وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ)؛

العبارة المتقدمة كذا في جميع النُّسَخ؟ (فَكَيْفَ يَكُونُ اَلْجَاحِدُ اَلنَّافِي اَلَّذِي يَقُولُ: لَيْسَ فِي اَلسَّمَاءِ أَوْ لَيْسَ فِي اَلْأَرْضِ وَلَا فِي اَلسَّمَاءِ) كذا؟..

(وَاحْتَجَّ عَلَى كُفْرِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] قال: وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ).

(وَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] يُبَيِّنُ أَنَّ اَللَّهَ فَوْقَ اَلسَّمَاوَاتِ، فَوْقَ اَلْعَرْشِ، وَأَنَّ اَلِاسْتِوَاءَ عَلَى اَلْعَرْشِ دَلَّ عَلَى أَنَّ اَللَّهَ نَفْسَهُ فَوْقَ اَلْعَرْشِ، ثُمَّ أَرْدَفَ ذَلِكَ بِتَكْفِيرِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ عَلَى اَلْعَرْشِ اِسْتَوَى، وَلَكِنْ تَوَقَّفَ فِي كَوْنِ اَلْعَرْشِ فِي اَلسَّمَاءِ أَمْ فِي اَلْأَرْضِ، قَالَ: لِأَنَّهُ أَنْكَرَ أَنَّهُ فِي اَلسَّمَاءِ لِأَنَّ اَللَّهَ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وَأَنَّهُ يُدْعَى مِنْ أَعْلَى لَا مِنْ أَسْفَلَ، وَهَذَا تَصْرِيحٌ مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ بِتَكْفِيرِ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ اللهُ فِي اَلسَّمَاءِ وَاحْتَجَّ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ اَللَّهَ تَعَالَى فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ وَأَنَّهُ يُدْعَى مِنْ أَعْلَى لَا مِنْ أَسْفَلَ)..

قال: (وَكُلٌّ مِنْ هَاتَيْنِ اَلْحُجَّتَيْنِ فِطْرِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ)؛ الحجتين:

الأولى: أنه في أعلى عليين.

والثانية: أنه يُدعَى من أعلى لا من أسفل.

فهاتان الحجتان كل منهما فطرية عقلية، معنى فطرية: أي دلّت عليها الفطرة، وهُدِي إليها الناس بفطرتهم، وعقلية: أي دلّ عليها العقل، وذلك أن عُلو الله سبحانه كما أنه قد دلّ عليه الكتاب والسُّنة والإجماع أيضاً دلَّ عليه العقل، ودلَّت عليه الفطرة، والمراد هنا: العُلو.

أما الاستواء فهو من الصفات الخبرية التي إنما تُعلَم بالخبر، أما العُلو- عُلو الله ﷻ- فهو صفة عقلية أي دلّ عليها العقل، ودلّت عليه الفطرة إضافة إلى دلالة الكتاب والسُّنة والإجماع عليها.

بيّن رحمه الله ذلك بقوله: (فَإِنَّ اَلْقُلُوبَ مَفْطُورَةٌ عَلَى اَلْإِقْرَارِ بِأَنَّ اَللَّهَ فِي اَلْعُلُوِّ، وَعَلَى) أن الله (يُدْعَى مِنْ أَعْلَى لَا مِنْ أَسْفَلَ)؛ وهذا تقرير للحُجتين: (اَلْقُلُوبَ مَفْطُورَةٌ عَلَى اَلْإِقْرَارِ بِأَنَّ اَللَّهَ فِي اَلْعُلُوِّ) فهذه حُجة فِطرية- أي: دلت الفطرة على ذلك-، وحُجة أيضاً عقلية قال: وعلى أن الله (يُدْعَى مِنْ أَعْلَى لَا مِنْ أَسْفَلَ)؛ فكونه يُدعَى من أعلى لا من أسفل، وكونه في أعلى عليين، كل من هاتين الحُجتين عقلية فطرية.

قال: (وَقَدْ جَاءَ اَللَّفْظُ الآخر صَرِيحاً عَنْهُ بِذَلِك فَقَالَ: إِذَا أَنْكَرَ أَنَّهُ فِي اَلسَّمَاءِ فَقَدْ كَفَرَ).

قال: (وَرَوَى هَذَا اَللَّفْظَ عَنْهُ بِالْإِسْنَادِ شَيْخُ اَلْإِسْلَامِ أَبُو إِسْمَاعِيلَ اَلْأَنْصَارِيُّ الْهَرَوِيُّ بِإِسْنَادِهِ فِي كِتَابِه «اَلْفَارُوقِ»).

ونكتفي بهذا القدر.

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنه تبارك وتعالى غفور رحيم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

برنامج
دراسة متون
العقيدة
(المستوى الثالث)
@mton_aqeda3

شرح الفتوى الحموية الكبرى

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله

من الدرس (١٢) إلى الدرس (١٥)

الشيخ لم يراجع التفريغ

الدرس الثاني عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وَرَوَى هُوَ أَيْضاً وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّ هِشَامَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ الرَّازِيَّ- صَاحِبَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ قَاضِيَ الرَّيِّ- حَبَسَ رَجُلاً فِي التَّجَهُّمِ فَتَابَ فَجِيءَ بِهِ إِلَى هِشَامٍ لِيُطْلِقَهُ فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ عَلَى التَّوْبَةِ فَامْتَحَنَهُ هِشَامٌ فَقَالَ: أَتَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَلَى عَرْشِهِ وَلَا أَدْرِي مَا بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ. فَقَالَ: "رُدُّوهُ إِلَى الْحَبْسِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتُبْ".

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى وآله وأصحابه أجمعين.

اللهم إنّا نسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً مُتقبلاً، والتوفيق لما تحبه وترضاه من سديد الأقوال وصالح الأعمال يا رب العالمين.

أما بعد..

قال رحمه الله تعالى: (وَرَوَى هُوَ أَيْضاً) أي: أبو إسماعيل الهروي في كتاب «الفاروق» له، (وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّ هِشَامَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ الرَّازِيَّ- صَاحِبَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ قَاضِيَ الرَّيِّ)؛ محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، وهشام بن عبيد الله قاضي الري صاحب محمد بن الحسن وهذا النقل عن هشام، أنه (حَبَسَ رَجُلاً فِي التَّجَهُّمِ)؛ والمعنى: أنه حبسه في اتباعه لمقالة الجهمية الباطلة- مقالة التعطيل، تعطيل صفات الله تبارك وتعالى وجحدها- (فَتَابَ) أي: بعد أن مكث مدة في السجن (فَجِيءَ بِهِ إِلَى هِشَامٍ لِيُطْلِقَهُ) أي: أُخبِر أنه تاب، وجيء به ليُطلِقه، (فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ عَلَى التَّوْبَةِ) وهذا فيه أن التوبة نعمة يُحمَد الله تبارك وتعالى عليها، وإذا اتفق أن رأى شخص شخصاً آخراً اهتدى: يحمد الله ﷻ على مِنّته عليه بالتوبة.

(فَامْتَحَنَهُ هِشَامٌ) أي: للتحقق من تركه لبدعة التجهم وضلالة الجهمية.

(فَقَالَ: أَتَشْهَدُ أَنَّ اَللهَّ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ؟ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ اَللهَّ عَلَى عَرْشِهِ وَلَا أَدْرِي مَا بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ. فَقَالَ: "رَدُّوهُ إِلَى اَلْحَبْسِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتُبْ")؛ هذه الكلمة- كلمة (بَائِنٌ)- بعد وجود مقالة الجهمية وبعد وجود أيضاً التأويلات الباطلة بحمْل الاستواء الوارد في النصوص على معنى الاستيلاء، وجحْد ما يدل عليه هذا اللفظ من معنى مع إبقاء اللفظ وإثباته، يقول: (أنا أؤمن بأن الرحمن على العرش استوى) لكن المدلول لا يثبته، الذي هو عُلو الله ﷻ، فبعد وجود هذه المقالة جاءت هذه اللفظة عند أئمة السلف- وهي مُجمَع عليها بينهم، وقد حكى الإجماع غير واحد- جاءت هذه اللفظة تمحيصاً للمعتقد- معتقد أهل السُّنة- لأن كلمة (بَائِنٌ) تُمَحِّص المعتقد وتُبين الفرقان بين أهل السُّنة ومَنْ سواهم؛ لأن كلمة (بَائِنٌ) تعني أن الله ﷻ مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه، وأنه ﷻ ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ولا في مخلوقاته شيء من ذاته- هذا معنى (بَائِنٌ)، وهذا معنى البينونة-

فـ (بَائِنٌ): أي: ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، هو جل وعلا فوق عرشه المجيد، مستوٍ استواءً يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه.

فكلمة (بَائِنٌ) تُمَحِّص المعتقد فيما يتعلق بالاستواء والعُلو، مثلما أن كلمة (غير مخلوق) أيضاً تُمَحِّص المعتقد، القرآن كلام الله غير مخلوق، كلمة (غير مخلوق) هذه جاء بها السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى تمحيصاً للمعتقد، وتمييزاً له عن مقالة أهل الضلال والباطل، فباتت هذه الكلمة جزءاً من المعتقد، لا بد من تمحيصاً للمعتقد وتمييزاً له.

لأنه وُجِد مَنْ يقول مثلاً: (الرحمن على العرش استوى.. أنا أؤمن بذلك) لكن لا يؤمن بحقيقة الاستواء، فكلمة (بَائِنٌ) هي التي تكشف الأمر.

أيضاً مثله: (القرآن كلام الله)، يقول: (أنا أؤمن أن القرآن كلام الله) لكن كلمة (غير مخلوق) هذه التي تكشف المعتقد وتُجَلِّيه.

ولهذا؛ هذا الرجل قال: أنا (أَشْهَدُ أَنَّ اَللهَّ عَلَى عَرْشِهِ وَلَا أَدْرِي مَا بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ)؛ إذاً عند قوله الآن: (وَلَا أَدْرِي مَا بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ) هذه تدل على ماذا؟

أن مقالة التجهم لازالت عالقة به، وأن المعتقد- معتقد أهل السُّنة والجماعة- لم يتمحص عنده؛ ولهذا قال: (رَدُّوهُ إِلَى اَلْحَبْسِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتُبْ)؛ لأن هذه الكلمة التي تُمَحِّص الاعتقاد قال عنها: (لا أدري ما هي) (لَا أَدْرِي مَا بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ)؛ فلا يتمحص معتقد الإنسان إلا بإثبات البينونة، لا يتمحص معتقد الإنسان في

إثبات الاستواء والعُلو لله إلا بإثبات البينونة، كما أنه أيضاً لا يتمحص المعتقد في ما يتعلق بالقرآن وأنه كلام الله إلا بإثبات أنه غير مخلوق...

فلو قال قائل: (أنا أؤمن بأن القرآن كلام الله، لكن ما أدري غير مخلوق) لو قال ذلك يكون بقوله لهذه الكلمة لم يتمحص له أو عنده المعتقد في هذا الباب العظيم.

وهذا أيضاً يبين لنا متانة العقيدة عن أئمة أهل السُّنة وعِظَم عنايتهم بها، وتوفيق الله ﷻ لهم بحُسْن تقريرها بما يُميزها عن غيرها من مقالات أهل الضلال ومقالات أهل الباطل.

قال رحمه الله تعالى:

وَرَوَى أَيْضاً عَنْ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ اَلرَّازِيِّ أَنَّهُ قَالَ:"إِنَّ اَللهَّ عَلَى اَلْعَرْشِ بَائِنٌ مِنْ اَلْخَلْقِ وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً لَا يَشُكُّ فِي هَذِهِ اَلْمَقَالَةِ إِلَّا جَهْمِيٌّ رَدِيءٌ ضِلِّيلٌ وَهَالِكٌ مُرْتَابٌ يَمْزُجُ اَللهَّ بِخَلْقِهِ وَيَخْلِطُ مِنْهُ اَلذَّاتَ بِالْأَقْذَارِ وَالْأَنْتَانِ".

قال: (وَرَوَى) أي: أبو إسماعيل الهروي (عَنْ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ اَلرَّازِيِّ أَنَّهُ قَالَ:"إِنَّ اَللهَّ عَلَى اَلْعَرْشِ بَائِنٌ مِنْ اَلْخَلْقِ)، ونلاحظ أن كلمة (بَائِنٌ) جزء من المعتقد تتكرر في ألفاظ السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، وكلمات تقريراً للمعتقد الحق وإبطالاً لما سواه وما خالفه.

(وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً)؛ إثبات الاستواء لله على العرش المجيد استواءً يليق بجلاله، وإثبات أنه ﷻ بعلمه مُطّلِع على العباد، لا يخفى عليه منهم خافية، فجمع -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بين الاستواء والعلم؛ الاستواء: أن الله بذاته فوق عرشه بائن من خلقه، وعلمه ﷻ مع العباد مُطّلع عليهم، لا تخفى عليه ﷻ خافية، علمه في كل مكان، مطلع على العباد، يراهم، يسمع أقوالهم، يعلم بأحوالهم، لا تخفى عليه ﷻ منهم خافية.

وهذا الجمع بين الاستواء والعلم له نظائر في القرآن في مواضع؛ منها: قول الله ﷻ في سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد:٤] إلى آخر الآية.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (لَا يَشُكُّ فِي هَذِهِ اَلْمَقَالَةِ إِلَّا جَهْمِيٌّ) أي: إلا مُتبع لمقالة الجهمية، (رَدِيءٌ) أي: في مذهبه وعقيدته، (ضِلِّيلٌ) على وزن (فِعّيل) وهي لا تُطلَق إلا على مَنْ كان كثير الفِعل، ومُداوِماً عليه

فيقال: ضـليل مثلاً، ويقال: سِـكِّير، ويقال: خِمِّير، ونحو ذلك، لِمَنْ كثُرَ منه الفعل وكَثُرَت المداومة عليه فإنه يوصف بهذا الوصف على وزن فِعِّيل، (ضِلِّيلٌ): أي كثير الضلال، ومستمر على الضلال.

(وَهَالِكٌ مُرْتَابٌ): هالك: أي وقع في الهلكة بشؤم عقيدته، مرتاب: أي في المعتقد، ليس صاحب يقين كما هو الحال عند أهل الحق.

(وَهَالِكٌ مُرْتَابٌ يَمْزُجُ اَللَّهَ بِخَلْقِهِ وَيَخْلِطُ مِنْهُ اَلذَّاتَ بِالْأَقْذَارِ وَالْأَنْتَانِ)؛ وهذا تنبيه على قُبْح وشـناعة عقيدة مَنْ يجحد عُلو الله، ويقول: إن الله في كل مكان- تعالى الله عمّا يقولون-؛ فهذه مقالة باطلة ويترتب عليها من الفساد والقبح والشناعة ما ذكره -رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَرَوَى أَيْضـاً عَنْ اِبْنِ اَلْمَدِينِيِّ لَمَّا سُـئِلَ مَا قَوْلُ أَهْلِ اَلْجَمَاعَةِ قَالَ:"يُؤْمِنُونَ بِالرُّؤْيَةِ وَالْكَلَامِ وَأَنَّ اَللَّهَ فَوْقَ اَلسَّـمَاوَاتِ عَلَى اَلْعَرْشِ اِسْـتَوَى فَسُـئِلَ عَنْ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧]، فَقَالَ: اِقْرَأْ مَا قَبْلَهَا ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المجادلة:٧].

قال رحمه الله تعالى: (وَرَوَى أَيْضـاً عَنْ اِبْنِ اَلْمَدِينِيِّ) علي بن المديني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ.. قال: (لَمَّا سُـئِلَ مَا قَوْلُ أَهْلِ اَلْجَمَاعَةِ) أي: ما قول أهل السُّـنة والجماعة- أي: في المعتقد- فقال: (يُؤْمِنُونَ بِالرُّؤْيَةِ وَالْكَلَامِ وَأَنَّ اَللَّهَ فَوْقَ اَلسَّمَاوَاتِ) فذكر من عقيدتهم هذه الأمور: الرؤية، والكلام، والاستواء..

مع أن عقيدة أهل السُّنة تتناول أمور أخرى كثيرة سواء في الصفات أو غيرها، لكن في مثل الإجابات المختصرة يُذْكَر ما كثُرت فيه المخالفة من أهل البدع والضـلال، فيُذْكَر هذا.. يُقتَصَر على ذِكْره.. هذا من جهة، ما كثُرت فيه المخالفة من أهل البدع، وأيضاً من جهة أخرى أن ذِكْر البعض يدل على الباقي لأن باب الصفات واحد، فهذه أمثلة، يعني إثبات الرؤية والكلام والفوقية فالقول في باقي الصفات كالقول في هذه المذكورات، لأن باب الصفات واحد.

قال: (يُؤْمِنُونَ بِالرُّؤْيَةِ) أي: أن الله ﷻ يراه أهل الإيمان يوم القيامة، رؤية حقيقة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة].. «إنكم سترون ربكم يوم القيامة».

(وَالْكَلَامِ) أي: يثبتون الكلام صفة لله، وأن الله ﷻ يتكلم متى شاء بما شاء ﷻ، وأن القرآن والتوراة والإنجيل والكتب المُنَزَّلة عموماً كلها كلام الله ﷻ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦].

قال: (وَأَنَّ اَللهَّ فَوْقَ اَلسَّمَاوَاتِ عَلَى اَلْعَرْشِ اِسْتَوَى)؛ هذا فيه إثبات استواء الله تبارك وتعالى على عرشه المجيد استـواءً يليق بجلاله وكماله، ومعنى اسـتوى: أي علا وارتفع، اسـتوى على العرش: أي علا وارتفع على عرشه المجيد استواءً وعلواً وارتفاعاً يليق بجلاله وكماله ﷻ.

(فَسُـئِلَ) أي: ابن المـديني.. عن قولـه: (﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة:٧]) فسُـئل: يعني قيل لـه: كيف يكون الجمع بين إثبات الاستواء على العرش استواءً حقيقياً يليق بجلاله وإثبات المعية– أنه معهم أينما كانوا–؟ فماذا يقال في هذا وهو معهم أينما كانوا؟... ومعلوم أن أهل الضـــلال انتزعوا (﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧]) من وســط الكلام وجردوها عن ما قبلها وعن ما بعدها، وأثبتوا منها أن هذه معية ذاتية، وأن الله بذلته مع مخلوقاته ممتزجاً مختلطاً بهم– تعالى الله عمّا يقولون، وسـبحان الله عمّا يصـفون، وتنزّه وتقدّس عن كلام المبطلين جل في علاه–..

هذا لما ذكر –رَحِمَهُ ٱللَّهُ الاســتواء سُــئل عن المعية (﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧]) أي: كيف يكون الجمع بين الاستواء وإثبات المعية؟

فانظر كلامه –رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكلام الســلف قليل عظيم البركة وافي في البيان، قال: (اِقْرَأْ مَا قَبْلَهَا) هذا هو جوابه، قال: (اِقْرَأْ مَا قَبْلَهَا)..

ما قبلها هو قوله: (﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المجادلة:٧])، ما مراده بقوله: (اِقْرَأْ مَا قَبْلَهَا)؟

أي: أن المعية في اللغة مطلق المصـاحبة وهي في كل موضـع بحسـبه، فتختلف من موضـع إلى موضـع بحسب السياق الذي وردت فيه.

انظر ثلاثة أمثلة أذكرها لك الآن:

- عندما يقول القائل: (الحليب مع الماء) هذه واحدة.
- وعندما يقول آخر: (سافرنا والقمر معنا).
- وعندما يقول قائل: (فلان مع زوجته) يقصـد في عصــمته، قد يكون هو هنا في المدينة وهي في بلد آخر، يقول: (فلان مع زوجته) يعني هي في عصمته.

المعية في هذه الأمثلة الثلاثة معناها واحد؟

لا.. مختلف..

إذاً لا بد في فهْم معنى المعية في كل موضع من ماذا؟

من النظر إلى السياق الذي وردت فيه حتى تُفهَم، ما تُجرّد من سياقها؛ بل يُنظَر في السياق الذي وردت حتى تُفهَم المعينة، ولهذا قال له هنا: (اِقْرَأْ مَا قَبْلَهَا).

الإمام أحمد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الرد على الجهمية» لما أوردوا هذه الآية قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بدأ الله الآية بالعلم وختمها بالعلم، ما معنى ذلك؟

أن المعية: العلم.

ولهذا حكى غير واحد من أهل العلم؛ منهم: ابن كثير، والذهبي، وأبو عمر الطلمنكي، وابن عبد البر، وجماعة آخرين من العلماء حكوا الإجماع- إجماع السلف- على أن المعية هنا (العلم)، (﴿مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة:٧]) أي: بعلمه ﷻ، من أين أخذوا ذلك؟ من السياق.. قال: بدأ الخبر بالعلم وختمه بالعلم.

وهنا ابن المديني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (اِقْرَأْ مَا قَبْلَهَا) أي: قوله: (﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [المجادلة:٧])، إذا قرأت الآية بتمامها تجد أن قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة:٧] جاء في أثناء إثبات العلم، تأمل!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة] فبدأها بالعلم وختمها بالعلم فقوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة:٧] أي: بعلمه.

مثلها تماماً آية الحديد، بل إن آية الحديد أصرح؛ لأن آية الحديد؛ أولاً: أُثبِت الاستواء في صدر الآية، في صدر الآية أُثبت الاستواء ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الحديد:٤]؛ هذا الآن الاستواء أُثبِت لله ﷻ، ثم ذُكِر بعده علم الله، وأنه في كل مكان مُطّلع على العباد، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد:٤] يعني مع استوائه على العرش المجيد هو مع عباده بعلمه، مُطَّلع عليهم، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد:٤] ختم الخبر أيضاً بالعلم مثلما بدأه بالعلم، وصدّر الآية بالاستواء.

ولهذا قال بعض السلف: الله على عرشه- مثلما يأتي قريباً بعض النقول- وهو معهم بعلمه في كل مكان، في كل مكان بعلمه- أي: مُطَّلِع على العباد، لا تخفى عليه ﷻ منهم خافية-.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَرَوَى أَيْضاً عَنْ أَبِي عِيسَى اَلتِّرْمِذِيِّ قَالَ: "هُوَ عَلَى اَلْعَرْشِ كَمَا وَصَفَ فِي كِتَابِهِ، وعِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ".

قال: (وَرَوَى أَيْضاً عَنْ أَبِي عِيسَى اَلتِّرْمِذِيِّ) -رَحِمَهُ ٱللَّهُ (قَالَ: هُوَ عَلَى اَلْعَرْشِ كَمَا وَصَفَ فِي كِتَابِهِ) أي: في أكثر من آية، عدتها سبع آيات في القرآن الكريم، كلها فيها إثبات استواء الله على العرش، (وعِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ) أي: أنه ﷻ مُطَّلِع على العباد، وعلى كل شيء قدير، ولا يُعجزه ﷻ شيء، وبصير بالعباد، يسمع أقوالهم ويرى أفعالهم، ولا تخفى عليه ﷻ منهم خافية.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَرَوَى عَنْ أَبِي زُرْعَةَ اَلرَّازِيِّ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] فَقَالَ: "تَفْسِيرُهُ كَمَا تَقْرَأُ، هُوَ عَلَى اَلْعَرْشِ وَعِلْمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، مَنْ قَالَ غَيْرَ هَذَا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله".

قال: (وَرَوَى عَنْ أَبِي زُرْعَةَ اَلرَّازِيِّ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] فَقَالَ: "تَفْسِيرُهُ كَمَا تَقْرَأُ) كلام جميل، قال: (تَفْسِيرُهُ كَمَا تَقْرَأُ) (﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] فَقَالَ: "تَفْسِيرُهُ كَمَا تَقْرَأُ هُوَ عَلَى اَلْعَرْشِ)؛ استوى بمعنى: علا، ولهذا قال: (هُوَ عَلَى اَلْعَرْشِ) أي: معنى استوى على العرش أي: علا عليه وارتفع، فالاستواء هو العُلو والارتفاع، هو (كَمَا تَقْرَأُ هُوَ عَلَى اَلْعَرْشِ)؛ فالاستواء عند السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ العلو والارتفاع، علواً وارتفاعاً يليق بجلال الرب، وكماله وعظمته ﷻ.

(وَعِلْمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ) أي: أنه مُطَّلع -مع استوائه على العرش، وبينونيته على الخلق- هو معهم بعلمه، مُطَّلِع عليهم، لا تخفى عليه ﷻ منهم خافية، (مَنْ قَالَ غَيْرَ هَذَا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَرَوَى أَبُو اَلْقَاسِمِ اللاَّلَكَائِيُّ -صَاحِبُ أَبِي حَامِدٍ الْإِسْفَرَايِينِيِّ- فِي "أُصُولِ اَلسُّنَّةِ" بِإِسْنَادِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ اَلْحَسَنِ -صَاحِبِ أَبِي حَنِيفَةَ- قَالَ: "اِتَّفَقَ اَلْفُقَهَاءُ كُلُّهُمْ مِنَ اَلْمَشْرِقِ إِلَى اَلْمَغْرِبِ عَلَى اَلْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ اَلَّتِي جَاءَ بِهَا اَلثِّقَاتُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي صِفَةِ اَلرَّبِّ ﷻ: مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ وَلَا وَصْفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ فَمَنْ فَسَّرَ اَلْيَوْمَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ خَرَجَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ اَلنَّبِيُّ ﷺ وَفَارَقَ اَلْجَمَاعَةَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَصِفُوا وَلَمْ يُفَسِّرُوا، وَلَكِنْ أَفْتَوْا بِمَا فِي اَلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ثُمَّ سَكَتُوا، فَمَنْ قَالَ بِقَوْلِ جَهْمٍ فَقَدْ فَارَقَ اَلْجَمَاعَةَ، فَإِنَّهُ قد وَصَفَهُ بِصِفَةِ لَا شَيْءَ".

-مُحَمَّدُ بْنُ اَلْحَسَنِ أَخَذَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَطَبَقَتِهِمَا مِنَ اَلْعُلَمَاءِ- وَقَدْ حَكَى عَلَى هَذَا اَلْإِجْمَاعَ وَأَخْبَرَ أَنَّ اَلْجَهْمِيَّةَ تَصِفُهُ بِالْأُمُورِ اَلسَّلْبِيَّةِ غَالِباً أَوْ دَائِماً.

وَقَوْلُهُ: "مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ" أَرَادَ بِهِ تَفْسِيرَ اَلْجَهْمِيَّةِ اَلْمُعَطِّلَةِ اَلَّذِينَ اِبْتَدَعُوا تَفْسِيرَ اَلصِّفَاتِ بِخِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ اَلصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ مِنَ اَلْإِثْبَاتِ".

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (وَرَوَى أَبُو اَلْقَاسِمِ اللاَّلِكَائِيُّ -صَاحِبُ أَبِي حَامِدٍ الْإِسْفَرَايِينِيِّ-) أي في كتابه، (رَوَى أَبُو اَلْقَاسِمِ اللاَّلِكَائِيُّ) أي: هذا الأثر.. في كتابه «شرح الاعتقاد»، و«شرح الاعتقاد» للالكائي مطبوع في أربع مجلدات وهو من الكتب النفيسة في جمْع معتقد السلف ونقْل المرويات بالأسانيد عنهم، ويُعتبَر من الكتب الموسوعة في باب الاعتقاد، وحشْد وجمْع والنقول عن أئمة السلف في ذلك، مثل «الشريعة» للآجري، و«الإبانة» لابن بطة، و«السُنة» للخلال، هذه الكتب تُعتبَر من الكتب الموسوعية الجامعة للنقول الكثيرة عن السلف في أبواب الاعتقاد المتنوعة.

لعلي أذكر لطيفة حول هذا الكتاب: لما كنّا طلاباً في المرحلة الجامعية، كان إذ ذاك لم يوجد من الكتاب إلا نصفه، نصفه الأول فقط، وباقي الكتاب غير موجود مفقود، وكتاب من أنفس الكتب في نقوله، وأذكر كان شيخنا حمّاد الأنصاري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كثير البحث عن هذا الكتاب والتتبع، حتى ذُكِر أنه يوجد نسخة كاملة للكتاب محفوظة في إحدى الدول الأوربية، كانت قبل ذلك تحت سيطرة الشيوعية ثم زال ذلك، وأصبح من المتيسر، فحُصِل على الكتاب، ووُجِد كاملاً ثم طُبع بتمامه، هو كتاب من أنفس الكتب.

وسبحان الله رأيت النسخة الخطية الأصل في موضعها، وكنت أتعجب، الأصل ليس صورة، الأصل القديم الذي خُطَّ قبل أكثر من سبعمائة سنة لم يوجد إلا هناك، وإذا خرج الإنسان من المكتبة التي محفوظ فيها هذا الكتب، كل مَنْ حوله كفار إلا قِلَّة مثلاً، ولله سبحانه وتعالى الأمر من قبل ومن بعد.

قال: (وَرَوَى أَبُو اَلْقَاسِمِ اللاَّلِكَائِيُّ -صَاحِبُ أَبِي حَامِدٍ الْإِسْفَرَايِينِيِّ- فِي "أُصُولِ اَلسُّنَّةِ" بِإِسْنَادِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ اَلْحَسَنِ- صَاحِبِ أَبِي حَنِيفَةَ- قَالَ:"اِتَّفَقَ اَلْفُقَهَاءُ كُلُّهُمْ مِنَ اَلْمَشْرِقِ إِلَى اَلْمَغْرِبِ عَلَى اَلْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ اَلَّتِي جَاءَ بِهَا اَلثِّقَاتُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي صِفَةِ اَلرَّبِّ ﷻ) وهذا حكاية إجماع من هذا الإمام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ على إثبات الصفات، خلاف طريقة الجهمية، إثبات أهل السُّنة والجماعة للصفات، وإمرارهم لها كما جاءت، وإيمانهم بها كما وردت، خلاف طريقة الجهمية الذين يُحرِّفون الكلم عن مواضعه، ويجحدون صفات الله ﷻ الثابتة في كتابه وسُنة نبيّه عليه الصلاة والسلام.

قال: (مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ وَلَا وَصْفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ) أي: أهل السُّنة اتفقوا على إثبات الصفات، والإقرار بها، وإمرارها كما جاءت (مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ وَلَا وَصْفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ) هذه كلمات ثلاث.. السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في حذر منها.

(مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ) أي: التفسيرات المبتدعة، المُحدَثة التي أحدثها الجهمية التي هي تحريف للكلم عن مواضعه، وصرْف للكلمة عن المراد بها والمقصود، فهذه تحريفات للكلم.

(مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ) أي: من غير التفسيرات الباطلة التي أحدثها أهل التجهم والضلال.

(وَلَا وَصْفٍ) أي: من غير تكييف للصفة، وبحْث عن كيفية صفات الله تبارك وتعالى، ومرَّ معنا قول الإمام مالك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والكيف غير معقول، وفي رواية: والكيف مجهول.

قال: (وَلَا تَشْبِيهٍ) أي: ولا تشبيه لشيء من صفات الله ﷻ بصفات المخلوقين.

وهذا نظير قول السلف في إثباتهم للصفات من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

قال: (فَمَنْ فَسَّرَ الْيَوْمَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ خَرَجَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ).

(فَإِنَّهُمْ لَمْ يَصِفُوا) أي: لم يُكيّفوا، (وَلَمْ يُفَسِّرُوا) أي: التفسيرات المُحدَثة المبتدعة، (وَلَكِنْ أَفْتَوْا بِمَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ثُمَّ سَكَتُوا) خذ مثال على طريقتهم مرَّ معك قبل قليل:

الإمام أبو زرعة الرازي قال له قائل: قول الله تعالى: (﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]) سُئل عن تفسير: (﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]) ماذا قال؟

(تَفْسِيرُهُ كَمَا تَقْرَأُ هُوَ عَلَى الْعَرْشِ) فهذه جادة السلف، إمرارها كما جاءت، والإيمان بها كما وردت، أما الجهمي إذا جاءته هذه الآية: (﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]) ماذا يقول؟ هل يثبت الاستواء؟

بعض الجهمية قال- لما أوردت له هذه الآية قال:- الاستواء في اللغة له خمسة عشر معنى، فأيها المراد؟

انظر الفرق بين جواب هذا الجهمي، وجواب أهل السُّنة والجماعة، مع أن استوى ليس له معنى إلا العلو والارتفاع، استوى على العرش: علا وارتفع، أما الأمور الأخرى تلك تأويلات وصرْف للكلم عن معناه، مثل قوله: استوى بمعنى استولى!، لما قيل لهم: أَثبتوا أن استوى معناه استولى في اللغة، هاتوا الدليل، لم يجدوا ما يستشهدوا به إلا بيتاً لشاعر نصراني، بيتاً يتيماً وحيداً لشاعر نصراني (قد استوى بشر على العراق)!!

قال: (فَإِنَّهُمْ لَمْ يَصِفُوا وَلَمْ يُفَسِّرُوا وَلَكِنْ أَفْتَوْا بِمَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ثُمَّ سَكَتُوا فَمَنْ قَالَ بِقَوْلِ جَهْمٍ فَقَدْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَإِنَّهُ وَصَفَهُ بِصِفَةِ لَا شَيْءَ) لأن عقيدة الجهمية هي تعطيل لصفات الله ﷻ؛ لأن عقيدتهم النفي

(لا فوق، ولا تحت، ولا عن يمين العالم، ولا داخله، ولا ولا.. إلى آخره)؛ هذه عقيدة الجهمية- نفي-، ولهذا قال بعض أهل العلم: مَنْ أراد أن يصف العدم بصفة بليغة لن يجد أبلغ من وَصْف الجهمية لربهم، لن يجد وصفاً للعدم أبلغ من وصْف الجهمية لربهم؛ لأن في كتب الجهمية عندما يصفون الرب يقول: (لا فوق، ولا تحت، ولا داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصلاً به، ولا مبايناً له، ولا ولا.. إلى آخره)، ولهذا قال: (فَإِنَّهُ قد وَصَفَهُ بِصِفَةِ لَا شَيْءَ).

قال شيخ الإسلام: (-مُحَمَّدُ بْنُ اَلْحَسَنِ أَخَذَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَطَبَقَتِهِمَا مِنْ اَلْعُلَمَاءِ- وَقَدْ حَكَى عَلَى هَذَا اَلْإِجْمَاعَ وَأَخْبَرَ أَنَّ اَلْجَهْمِيَّةَ تَصِفُهُ بِالْأُمُورِ اَلسَّلْبِيَّةِ غَالِباً أَوْ دَائِماً) ومعنى السلبية: أي النفي والتعطيل، وعدم الإثبات.

قال: (وَقَوْلُهُ: "مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ" أَرَادَ بِهِ تَفْسِيرَ اَلْجَهْمِيَّةِ اَلَّذِينَ اِبْتَدَعُوا تَفْسِيرَ اَلصِّفَاتِ بِخِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ اَلصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ مِنْ اَلْإِثْبَاتِ) فالذي نفاه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ) أي: التفسيرات المُحدَثة المبتدعة التي هي تحريف للكلم عن مواضعه، وصَرْف للآيات والنصوص عن مدلولها والمراد بها.

ونسأل الله الكريم أن ينفعنا جميعاً بما علمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنه تبارك وتعالى غفور رحيم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثالث عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وَرَوَى اَلْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُ بِأَسَانِيدَ صَحِيحَةٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ اَلْقَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ:"هَذِهِ اَلْأَحَادِيثُ اَلَّتِي يَقُولُ فِيهَا: ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ، وأَنَّ جَهَنَّمَ لَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ ربك قَدَمَهُ فِيهَا، وَالْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ اَلْقَدَمَيْنِ، وَهَذِهِ اَلْأَحَادِيثُ فِي اَلرُّؤْيَةِ هِيَ عِنْدَنَا حَقٌّ حَمَلَهَا اَلثِّقَاتُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ غَيْرَ أَنَّا إِذَا سُئِلْنَا عَنْ تَفْسِيرِهَا لَا نُفَسِّرُهَا وَمَا أَدْرَكْنَا أَحَداً يُفَسِّرُهَا ".

أَبُو عُبَيْدٍ أَحَدُ اَلْأَئِمَّةِ اَلْأَرْبَعَةِ اَلَّذِينَ هُمْ: "اَلشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ وَأَبُو عُبَيْدٍ وَلَهُ مِنَ اَلْمَعْرِفَةِ بِالْفِقْهِ وَاللُّغَةِ وَالتَّأْوِيلِ مَا هُوَ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ وَقَدْ كَانَ فِي اَلزَّمَانِ اَلَّذِي ظَهَرَتْ فِيهِ اَلْفِتَنُ وَالْأَهْوَاءُ وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَا أَدْرَكَ أَحَداً مِنَ اَلْعُلَمَاءِ يُفَسِّرُهَا -أَيْ تَفْسِيرَ اَلْجَهْمِيَّةِ-.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد..

فهذا أثر نقله شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في جملة ما ينقله عن أئمة السلف في إثبات الصفات والرد على المعطِّلة، نقله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن الإمام الجليل أبي عبيد القاسم بن سلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

وذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عقب نقْله لهذا الأثر مكانة هذا الإمام في العلم والفقه والتأويل، وقال: إن مكانة هذا الإمام أشهر من أن تُوصَف، وذكر أنه أيضاً كان في الزمان الذي ظهرت فيه الأهواء، وكلماته واضحة في إثبات الصفات والرد على أهل التعطيل.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا: ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ، وأَنَّ جَهَنَّمَ لَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ ربك قَدَمَهُ فِيهَا، وَالْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ) الحديث الأول فيه إثبات الضحك صفةً لله ﷻ وهو من صفاته الفعلية، وما يلزم من ضحك المخلوق من لوازم فهو مختص بصفة المخلوق، والله جل وعزّ لا يُقاس بشيء من صفاته بأحد من خلْقه، وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١]، وما يضاف إلى الله ﷻ من الصفات فهو يخصه ويليق بجلاله وكماله، وما يضاف إلى المخلوقين من الصفات فهو يخصهم ويليق بضعفهم ونقْصهم.

فالضحك يُثبَت لله، ومَنْ نفى الضحك عن الله ﷻ فقد أبطل لجحده ما دلَّت عليه النصوص، ومَنْ جعل ضحكه كضحك المخلوق فقد أبطل لأنه شَبّه، وكل من التعطيل والتشبيه باطل، والحق قوام بين ذلك؛ إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١].

والحديث الثاني: («وأَنَّ جَهَنَّمَ لَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ ربك قَدَمَهُ فِيهَا») وفي رواية: «عليها»، وأنها تنزوي، ينزوي بعضها لبعض فتقول: «قط قط» أي: حسبي حسبي، وهذا فيه إثبات القدم صفةً لله تبارك وتعالى تليق بجلاله وكماله سبحانه، والقدم من صفاته جل وعزّ الذاتية.

قال: (وَالْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ) وهذا الأثر مروي بالأسانيد الصحيحة عن الصحابيين (ابن عباس وأبي موسى) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وعن الصحابة أجمعين.

قال: (الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ)، وقد قال الله سبحانه في شأن الكرسي في الآية التي عُرِفَت بالكرسي.. قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وفي هذا الأثر- أثر ابن عباس وأبي موسى.. وله حُكم الرفع لأن هذا مما لا يقال بالرأي- أخبر أنه موضع القدمين.

وفيه إثبات القدمين لله سبحانه وتعالى، وصْف ذاتي يليق بجلال الرب وكماله وعظمته.

قال: (وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ فِي الرُّؤْيَةِ هِيَ عِنْدَنَا حَقٌّ حَمَلَهَا الثِّقَاتُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ) أي: أن الله ﷻ يراه المؤمنون يوم القيامة، قد جاء في ذلك أحاديث عديدة عن الرسول الكريم ﷺ، وصفها هذا الإمام بقوله: (حَمَلَهَا الثِّقَاتُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ) تنبيهاً على ثبوتها عن النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من طرق وعن غير واحد من الصحابة.

(غَيْرَ أَنَّا إِذَا سُئِلْنَا عَنْ تَفْسِيرِهَا لَا نُفَسِّرُهَا وَمَا أَدْرَكْنَا أَحَداً يُفَسِّرُهَا) وكلامه هذا نظير كلام محمد بن الحسن المتقدم من غير تفسير، وقد قال شيخ الإسلام عقب كلام محمد بن حسن المتقدم- أي: قال: (أَرَادَ بِهِ تَفْسِيرَ اَلْجَهْمِيَّةِ اَلْمُعَطِّلَةِ اَلَّذِينَ اِبْتَدَعُوا تَفْسِيرَ اَلصِّفَاتِ بِخِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ اَلصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ مِنَ اَلْإِثْبَاتِ) فقول أبي عبيد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إِذَا سُئِلْنَا) عنها (لَا نُفَسِّرُهَا)، المراد بالتفسير هنا: أي: التفسيرات الباطلة، تفسيرات أهل التجهم والتعطيل والجحد لصفات الله تبارك وتعالى.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية عقب قول أبي عبيد هذا: (وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَا أَدْرَكَ أَحَداً مِنَ اَلْعُلَمَاءِ يُفَسِّرُهَا-أَيْ تَفْسِيرَ اَلْجَهْمِيَّةِ-) أما تفسيرها بمعناها ومدلولها الحق الواضح المفهوم منها في ضوء دلالة اللغة فهذا مضت عليه الجادة، وهذه الألفاظ- ألفاظ الصفات والنصوص التي جاءت في الصفات- كما تقدم عند شيخ الإسلام جاءت مُحمَّلة بالمعاني، فإثباتها أو إمرارها كما جاءت إنما يكون بإثبات المعاني التي دلت عليها، أما التفسير الباطل فهو تفسيرات الجهمية القائمة على التحريف والتعطيل والجحد لصفات الله ﷻ.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَرَوَى اللاَّلَكَائِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ اَلْمُبَارَكِ أَنَّ رَجُلاً قَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي أَكْرَهُ اَلصِّفَةَ- عَنى صِفَةَ اَلرَّبِّ- فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الله بْنُ اَلْمُبَارَكِ: "أَنَا أَشَدُّ اَلنَّاسِ كَرَاهَةً لِذَلِكَ وَلَكِنْ إِذَا نَطَقَ اَلْكِتَابُ بِشَيْءٍ قُلْنَا بِهِ وَإِذَا جَاءَتْ اَلْآثَارُ بِشَيْءٍ جَسَرْنَا عَلَيْهِ" وَنَحْوُ هَذَا.

أَرَادَ اِبْنُ اَلْمُبَارَكِ: أَنَّا نَكْرَهُ أَنْ نَبْتَدِئَ بِوَصْفِ الله مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِنَا حَتَّى يَجِيءَ بِهِ اَلْكِتَابُ وَالْآثَارُ.

هذا أثر عظيم جداً نقله شيخ الإسلام عن هذا الإمام الجليل عبد الله بن المبارك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن رجلاً وعند اللالكائي سماه: أفلح بن محمد، قال له: أبا عبد الرحمن (إِنِّي أَكْرَهُ اَلصِّفَةَ- عَنى صِفَةَ اَلرَّبِّ-) عنى: أي قصد، (أَكْرَهُ اَلصِّفَةَ- عَنى صِفَةَ اَلرَّبِّ-) مراده بقوله: (أَكْرَهُ اَلصِّفَةَ): أكره أن أتكلم في صفات الله ﷻ هكذا من عند نفسي، أن أتجرأ على مقام الرب العظيم ﷻ إما مُثبتاً أو نافياً بدون أن أكون مُستنداً في ذلك على كتاب الله أو سُنة نبيّه عليه الصلاة والسلام.

ولهذا قال شيخ الإسلام في تفسيره: (أَرَادَ اِبْنُ اَلْمُبَارَكِ: أَنَّا نَكْرَهُ أَنْ نَبْتَدِئَ بِوَصْفِ الله مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِنَا حَتَّى يَجِيءَ بِهِ اَلْكِتَابُ وَالْآثَارُ)؛ وهذا يبين لكم مقام هؤلاء الأئمة- أئمة السلف-، والعلماء الأولين وتعظيمهم لله ﷻ، ها هو يقول: أنا لا أجرؤ، كيف أستطيع أن أجرؤ أن أتكلم في شيء في وصف الله ﷻ من

قِبَل نفسي؟، ولا أجسر على ذلك، لولا أنّي رأيت آيات في القرآن وأحاديث عن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي لا ينطق عن الهوى لما جسرت أن أتكلم في حق الله بشيء..

فهذا يدل على أن المقام- مقام الصفات- ليس المقام الهيّن، والخطأ في أسماء الرب سبحانه أو صفاته جل وعلا ليس كالخطأ في أي اسم أو أي صفة، الأمر ليس بالهيّن، ولهذا ينبغي على الإنسان أن يُلزم نفسه إلزاماً تاماً بالنصوص، مثلما قال الأوزاعي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ندور مع الكتاب والسُّنة حيث دارا) أي: إثباتاً ونفياً.

الإمام أحمد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ مرّت معنا كلمته، قال: (نَصِف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والحديث).

فقال: (يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي أَكْرَهُ اَلصِّفَةَ- عَنى) أي: قصد (صِفَةَ اَلرَّبِّ) ومراده بـ (أَكْرَهُ) أي: أكره الخوض في باب الصفات والتكلم عن صفات الرب هكذا ابتداءً من قِبَل نفسي.

(فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الله بْنُ اَلْمُبَارَكِ: "أَنَا أَشَدُّ اَلنَّاسِ كَرَاهَةً لِذَلِكَ وَلَكِنْ إِذَا نَطَقَ اَلْكِتَابُ بِشَيْءٍ قُلْنَا بِهِ، وَإِذَا جَاءَتْ اَلْآثَارُ بِشَيْءٍ جَسَرْنَا عَلَيْهِ" وَنَحْوُ هَذَا) أي: أنّا لا نطق بشيء من الصفات ولا نجسر على أن نتكلم بشيء من صفات الله تبارك وتعالى إلا إذا ثبت.

ولهذا ترى عقيدة أهل السُّنة والجماعة- واقرأها في عامة كتبهم- يقولون: نعتقد كذا لقول الله تعالى كذا، ونعتقد كذا لقول رسول الله ﷺ كذا. انتهت عقيدتهم؛ هذه عقيدة أهل السُّنة: قال الله، قال رسوله، لا يجسر أيٌّ منهم أن يتكلم في شيء من صفات الله ﷻ دون أن يكون عنده الدليل والمستند من كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَرَوَى عَبْدُ الله بْنُ أَحْمَدَ وَغَيْرُهُ بِأَسَانِيدَ صِحَاحٍ عَنْ اِبْنِ اَلْمُبَارَكِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا نَعْرِفُ رَبَّنَا؟ قَالَ: "بِأَنَّهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا نَقُولُ كَمَا تَقُولُ اَلْجَهْمِيَّةُ: أَنَّهُ هَهُنَا فِي اَلْأَرْضِ، وَهَكَذَا قَالَ اَلْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ.

قال: (وَرَوَى عَبْدُ الله بْنُ أَحْمَدَ وَغَيْرُهُ بِأَسَانِيدَ صِحَاحٍ عَنْ اِبْنِ اَلْمُبَارَكِ) قوله: (بِأَسَانِيدَ صِحَاحٍ) يعني يُنبّه أنه يُروَى عن ابن المبارك من طرق عديدة كلها صحيحة، ولهذا قال ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في

«اجتماع الجيوش» ذكر هذا الأثر وقال: (صحَّ عنه صِحة قريبة من التواتر)؛ (صحة قريبة من التواتر) إشارة إلى كثرة الطرق لهذا الأثر بالأسانيد الصحيحة عن هذا الإمام عبد الله بن المبارك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

(أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا نَعْرِفُ رَبَّنَا؟ قَالَ: بِأَنَّهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ) نعرف ربنا بصفاته جل وعلا، بِمَ نعرف ربنا؟ الجواب: بصفاته، صفاته العظيمة، وأنه ﷻ عَلِيٌّ على خلقه، مُستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله وعظمته ﷻ، وأنه (بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ) وعرفنا معنى (بَائِنٌ) وعرفنا معنى (البينونة) وأن المراد بها أن الله ﷻ فوق العرش المجيد، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ولا في مخلوقاته شيء من ذاته.

قال: (وَلَا نَقُولُ كَمَا تَقُولُ ٱلْجَهْمِيَّةُ) أي: أتباع الجهم (أَنَّهُ هَهُنَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهَكَذَا قَالَ ٱلْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ)، ومَنْ لا يُثبِت عُلو الله ﷻ على عرشه المجيد، ليس أمامه إلا إحدى عقيدتين:

إما أن يقول كما يقول هؤلاء- تعالى الله عمّا يقول- أنه في كل مكان، ومن ذلك (هَهُنَا فِي ٱلْأَرْضِ) كما يقول هؤلاء.

أو أنه ينفي: لا فوق، ولا تحت، ولا داخل العالم ولا خارجه.

فليس أمامه إلا إحدى هاتين العقيدتين، وكل منهما أشد من الأخرى في البطلان والضلال.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَرَوَى بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ حَرْبٍ- ٱلْإِمَامِ- سَمِعْتُ حَمَّادَ بْنَ زَيْدٍ وَذَكَرَ هَؤُلَاءِ ٱلْجَهْمِيَّةَ فَقَالَ: "إِنَّمَا يُحَاوِلُونَ أَنْ يَقُولُوا: لَيْسَ فِي ٱلسَّمَاءِ شَيْءٌ".

وهذا أثر نقله عن حمّاد بن زيد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وقد ذكر الجهمية وحاصل عقيدتهم، فقال: (إِنَّمَا يُحَاوِلُونَ أَنْ يَقُولُوا: لَيْسَ فِي ٱلسَّمَاءِ شَيْءٌ) أي: ليس فوق العرش إله يُعبَد ولا رب يُصلَّى له ويُسجَد؛ هذا حاصل قولهم؛ لأن حاصل التعطيل: جحْد المعبود ﷻ، فهذا حاصل قول الجهمية.

ونُقِل عن بعض أئمة السلف- ولعله هو نفسه حماد بن زيد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- نُقِل عنه أنه ضرب مثلاً يكشف عن حال هؤلاء، قال: مَثَلَ هؤلاء الجهمية مَثَل رجل قال: في دارنا نخلة، قيل: لها جذع؟، قال: لا، لها أصل؟ قال: لا، لها فروع؟ قال: لا، ذكروا له جميع صفات النخلة فنفاها، فقيل له: ما في داركم نخلة.. فقال: هذا مَثَل الجهمية؛ قالوا: لنا رب، ولما قيل: ما صفته؟.. وإذا بالصفات التي يذكرونها كلها صفة للعدم؛ لا فوق، ولا تحت، ولا داخل العالم، ولا خارجه.. إلى آخره.

ولهذا قال السلف رَحِمَهُمُاللَّهُ: المُعطِّل يعبد عدماً، لأن هذا الذي يقولونه حاصله الجحد، وهذا معنى قول حماد بن زيد هنا -رَحِمَهُاللَّهُ تعالى: (إِنَّمَا يُحَاوِلُونَ أَنْ يَقُولُوا لَيْسَ فِي اَلسَّمَاءِ شَيْءٌ) أي: ليس فوق العرش إله يُعبَد ولا رب يُصلَّى له ويُسجَد.

قال -رَحِمَهُاللَّهُ تعالى:

وروى ابن أبي حاتم في كتاب الرد على الجهمية، عن سعيد بن عامر الضبعي- إمام أهل البصرة علماً وديناً- من شيوخ أحمد، أنه ذُكِر عنده الجهمية فقال: هم شر قولاً من اليهود والنصارى، وقد اجتمع اليهود والنصارى وأهل الأديان مع المسلمين، على أن الله على العرش، وقالوا: هم ليس عليه شيء.

وهذا الإمام (سعيد بن عامر الضبعي- إمام أهل البصرة) -رَحِمَهُاللَّهُ (علماً وديناً) وهو من شيوخ الإمام أحمد -رَحِمَهُاللَّهُ (ذُكِر عنده الجهمية فقال: هم شر قولاً من اليهود والنصارى) أي: في هذا الباب ما يتعلق بعُلو الله ﷻ (شر قولاً من اليهود والنصارى وقد اجتمع اليهود والنصارى وأهل الأديان مع المسلمين، على أن الله على العرش، وقالوا: هم) أي: هؤلاء الجهمية (ليس عليه شيء).

وأذكر بهذه المناسبة- مناسبة هذا الأثر- أنني قبل ما يقرب من عشرين سنة لقيت شاباً كان نصرانياً، ومَنَّ الله عليه بالإسلام، حدثني هو بقصته، فيقول: لمّا مَنّ الله عليّ بالإسلام عرضت أن أتضلع في علم الشريعة، وعلوم الإسلام، فأُرشِد إلى إحدى المؤسسات العلمية القائمة على علم الكلام، وقيل له: إن هذا المكان من أحسن الأمكنة اللي تتعلم فيه، فالتحق بتلك المؤسسة وأخذ يتعلم، والتقيتُ به وهو طالب في تلك المؤسسة، ودار بيني وبينه حوار؛ فسألته عن: ماذا يدرس في الصفات؟ فذكر أشياء ومن ضمنها هذه العقيدة التي حذَّر منها السلف، أن الله لا فوق ولا تحت ولا عن يمين، قلتُ: وما هي الأدلة التي قيلت لك في ذلك؟، فقال: ما أذكر، لكن أدلة قوية عقلية ساقها الأستاذ في القاعة، قلت له: إذاً أنت تبحث عن الإسلام وتعرف مكانة القرآن ومكانة السُّنة، أريد فقط تسمع إلى كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ فأخذتُ أذكر له الآيات والأحاديث الدالة على العُلو- عُلو الله-، وسردتُ له ما يسّر الله ﷻ من ذلك ففَهِمَ الرجل، فَهِم وعرف، وقال لي: لماذا كتم هؤلاء عنّا، وأنا ما أردت إلا أن أتعلم دين الله في كتابه وسُنة نبيّه عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ؟!

شاهد القول- القصة لها..- لكن شاهد القول: أنني سألته: قلت له: قبل إسلامك إذا قيل لك: أين الله فماذا تقول؟

قال: في السماء.

قلت له: إذا قيل لك: أين الله ماذا تقول؟

قال: في السماء.

وهذه الفطرة التي فطر الله ﷻ عباده عليها.

فهذا شاهد لقوله: إنهم شر من اليهود والنصارى.. أي: في هذا الباب شر منهم؛ لأن هؤلاء يثبتون ذلك، وأما الجهمية فإن عقيدتهم: لا فوق، ولا تحت، ولا عن يمين العالم، ولا عن شماله.. إلى آخره.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ خُزَيْمَةَ - إِمَامُ ٱلْأَئِمَّةِ -: "مَنْ لَمْ يَقُلْ: إِنَّ ٱللهَ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ وَجَبَ أن يُسْتَتَابَ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى مَزْبَلَةٍ لِئَلَّا يَتَأَذَّى بِنَتَنِ رِيحِهِ أَهْلُ ٱلْقِبْلَةِ وَلَا أَهْلُ ٱلذِّمَّةِ" وَذَكَرَهُ عَنْهُ ٱلْحَاكِمُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وهذا الأثر عن الإمام (مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ خُزَيْمَةَ - إِمَامُ ٱلْأَئِمَّةِ -) صاحب كتاب التوحيد وكتاب عظيم مطبوع، وقال فيه: (مَنْ لَمْ يَقُلْ: إِنَّ ٱللهَ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ وَجَبَ أن يُسْتَتَابَ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ) أي: أن جاحد هذه العقيدة بجحده لها فإن هذا الجحد كفر بالله ﷻ، فيُستتاب من هذه المقالة، أي: يستتيبه ولي الأمر، ويُعمَل على تأديبه وزجْره عن ذلك، فإن تاب وإلا قُتِل.

قال - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الله بْنُ أَحْمَدَ عَنْ عَبَّادِ بْنِ ٱلْعَوَّامِ ٱلْوَاسِطِيِّ - إِمَامِ أَهْلِ وَاسِطٍ - مِنْ طَبَقَةِ شُيُوخِ ٱلشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ - قَالَ: "كَلَّمْتُ بِشْرَ ٱلْمَرِّيسِيَّ وَأَصْحَابَ بِشْرٍ فَرَأَيْتُ آخِرَ كَلَامِهِمْ يَنْتَهِي أَنْ يَقُولُوا: لَيْسَ فِي ٱلسَّمَاءِ شَيْءٌ".

ثم أورد - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذا الأثر عن (عَبَّادِ بْنِ ٱلْعَوَّامِ ٱلْوَاسِطِيِّ - إِمَامِ أَهْلِ وَاسِطٍ - مِنْ طَبَقَةِ شُيُوخِ ٱلشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ - قَالَ: "كَلَّمْتُ بِشْرَ ٱلْمَرِّيسِيَّ وَأَصْحَابَ بِشْرٍ فَرَأَيْتُ آخِرَ كَلَامِهِمْ يَنْتَهِي أَنْ يَقُولُوا: لَيْسَ فِي ٱلسَّمَاءِ شَيْءٌ) وهذا نظير ما تقدم عن حمّاد بن زيد - رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إِنَّمَا يُحَاوِلُونَ أَنْ يَقُولُوا لَيْسَ فِي ٱلسَّمَاءِ شَيْءٌ)، أي: أن هذا حاصل مقالة هؤلاء، التعطيل الذي تقوم عليه عقيدتهم والنفي الذي تقوم عليه عقيدتهم - ليس بكذا وليس بكذا - حاصله ومنتهاه (أَنْ يَقُولُوا: لَيْسَ فِي ٱلسَّمَاءِ شَيْءٌ).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ- اَلْإِمَامِ اَلْمَشْهُورِ- أَنَّهُ قَالَ: "لَيْسَ فِي أَصْحَابِ اَلْأَهْوَاءِ شَرٌّ مِنْ أَصْحَابِ جَهْمٍ يَدُورُونَ عَلَى أَنْ يَقُولُوا لَيْسَ فِي اَلسَّمَاءِ شَيْءٌ أَرَى وَاللهِ أَنْ لَا يُنَاكَحُوا وَلَا يُوَرَّثُوا".

هذا أيضاً نظير ما قبله في بيان حاصل مقالة الجهمية وما تدور عليه مقالتهم، وأن المقالة تدور (عَلَى أَنْ يَقُولُوا لَيْسَ فِي اَلسَّمَاءِ شَيْءٌ).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَرَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي كِتَابِ اَلرَّدِّ عَلَى اَلْجَهْمِيَّةِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ قَالَ: أَصْحَابُ جَهْمٍ يُرِيدُونَ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ الله لَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى وَيُرِيدُونَ أَنْ يَقُولُوا: لَيْسَ فِي اَلسَّمَاءِ شَيْءٌ وَأَنَّ اَللهَ لَيْسَ عَلَى اَلْعَرْشِ أَرَى أَنْ يُسْتَتَابُوا فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا.

وهذا الأثر عن عبد الرحمن بن مهدي رواه ابن أبي حاتم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الرد على الجهمية» وهو نظير ما قبله في بيان حاصل مقالة الجهمية وما تدور عليه مقالتهم.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَعَنْ اَلْأَصْمَعِيِّ قَالَ: "قَدِمَتْ اِمْرَأَةُ جَهْمٍ فَنَزَلَتْ اَلدَّبَّاغِينَ فَقَالَ رَجُلٌ عِنْدَهَا: الله عَلَى عَرْشِهِ فَقَالَتْ: مَحْدُودٌ عَلَى مَحْدُودٍ وَقَالَ اَلْأَصْمَعِيُّ: كَافِرَةٌ بِهَذِهِ اَلْمَقَالَةِ".

(وَعَنْ اَلْأَصْمَعِيِّ قَالَ: "قَدِمَتْ اِمْرَأَةُ جَهْمٍ فَنَزَلَتْ اَلدَّبَّاغِينَ) الدباغين: محلة، (فَقَالَ رَجُلٌ عِنْدَهَا: الله عَلَى) العرش، (فَقَالَتْ: مَحْدُودٌ عَلَى مَحْدُودٍ) أرادت بمقولتها هذه نفي الاستواء، وجحْد أن الله ﷻ مستوٍ على عرشه..

وهذه المقالة من هذه المرأة- امرأة الجهم- تكشف لنا سبب توغُّل هؤلاء الجهمية الضُّلَّال في التعطيل، وأن أساس ذلك هو وقوعهم في التشبيه، وفهْمهم للصفات- صفات الله تبارك وتعالى- بفهْم قاسوا فيه الله ﷻ على خلقه، ولهذا قالت: (مَحْدُودٌ عَلَى مَحْدُودٍ) وبناءً على ذلك جحدت استواء الله ﷻ على عرشه المجيد.

ومعنى ذلك في فهْمها أن إثبات الاستواء لله على العرش يلزم منه أن يكون محدوداً، يلزم منه أن يكون الله محدوداً، فبناءً على هذه اللوازم الباطلة القائمة على التشبيه وقياس الله تبارك وتعالى بخلقه جحد هؤلاء صفات الله ﷻ.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَعَنْ عَاصِـــمِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَاصِـــمٍ- شَـيْخِ أَحْمَدَ وَالْبُخَارِيِّ وَطَبَقَتِهِمَا-قَالَ: "نَاظَرْتُ جَهْمِياً فَتبَيَّنَ مِنْ كَلَامِهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَنَّ فِي اَلسَّمَاءِ رَبًّا".

وهذا أيضـاً أثر نقله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن (عَاصِـمِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَاصِـمٍ- شَـيْخِ أَحْمَدَ وَالْبُخَارِيِّ وَطَبَقَتِهِمَا- قَالَ: "نَاظَرْتُ جهماً) وفي بعض النُّسـخ (جَهْمِياً)، (فَتبَيَّنَ مِنْ كَلَامِهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَنَّ فِي اَلسَّـماءِ رَبًّا)، وتكرر مثل هذا النقل عن غير واحد من أئمة السـلف في بيان أن هذا هو حاصـل مقالة الجهمية، وأنها تدور على ذلك: أنه ليس في السماء شيء، أنه لا يؤمن بأن في السماء رباً، أنه ليس فوق العرش المجيد رب يُعبَد، ولا إله يُصلَّى له ويُسجَد، فهي مقالة حاصلها التعطيل والجحد تدور على ذلك، وهذه هي مقالة هؤلاء: جحْد أن الله ﷻ فوق سماواته، بائن من عرشه، مستوٍ على عرشه المجيد استواء يليق بجلاله، كل ذلك يُجحَد، وأيضاً تُجحَد صفات الله ﷻ، فهذه حاصل مقالة الجهمية.

وفي ضمن ذلك يُنبّه السلف على أن جحْد هذه الصفات أيضاً قطْع لطريق العبادة- عبادة الله ﷻ-، إذا جُحِد أن الله في السـماء إلى أين يتوجه العباد، وكيف.. وإلى أين يكون لجوؤهم؟، معلوم مَنْ يُثبِت عُلو الله يلجأ إليه، ويمد يدي الضراعة إليه، ويتجه بقلبه إليه في عُلوه ﷻ يرجوه، ويُقبِل عليه بقلبه دعاءً ورجاءً.

أما على مقالة الجهمية فهذا فيه قطْع أيضاً لطريق العبادة والإقبال على الله ﷻ بالطاعة.

ونسأل الله ﷻ لنا أجمعين التوفيق والسداد والعون على كل خير، وأن يَمُنّ علينا بالعلم النافع والعمل الصـالح، وأن يهدينا إليه صراطاً مسـتقيماً، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشـايخنا، وللمسـلمين والمسـلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزَكِّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللهم إنّا نسأل الهُدى والتُّقى والعفاف والغِنى.

اللهم متعنا بأسماعنا، وأبصـارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوراث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنـا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصـيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تُسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الرابع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وَرَوَى اَلْإِمَامُ أَحْمَدُ قال حد ثَنَا سُرَيْجُ بْنُ اَلنُّعْمَانِ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الله بْنَ نَافِعٍ اَلصَّائِغَ قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ يَقُولُ: "الله فِي اَلسَّمَاءِ وَعِلْمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ لَا يَخْلُو مِنْ عِلْمِهِ مَكَانٌ".

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد..

هذا أثر ساقه شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: (الله فِي اَلسَّمَاءِ وَعِلْمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ لَا يَخْلُو مِنْ عِلْمِهِ مَكَانٌ) فيه جمع بين إثبات العلو- علو الله ﷻ- واستوائه على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله، وإثبات إحاطة علم الله ﷻ بكل شيء، وأنه أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً؛ وهذا معنى قوله: (وَعِلْمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ لَا يَخْلُو مِنْ عِلْمِهِ مَكَانٌ) بمعنى أنه جل وعلا أحاط علماً بكل شيء، لا يغيب عن علمه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

وهذا الجمع بين الاستواء والعلم له نظائر في القرآن الكريم، في مواضع عديدة منه، مثل: آية الحديد، قول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد].

ومثل أيضاً: آية الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد:٢] ثم بعدها بآيات قال: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرعد:٨].

وهذا له نظائر عديدة؛ بل جُلّ الآيات- وهي سبع- التي فيها الاستواء ذُكِر بعدها إثبات العلم، مثل آية طه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] ذُكِر بعدها العلم ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه:٧]..

....

فهذا الجمع بين الاستواء والعلم جاء في مواضع من كتاب الله ﷻ، فالله جل وعلا مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله وعظمته ﷻ، وعلمه في كل مكان مُطلِّع على العباد لا تخفى عليه جل وعلا خافية في الأرض ولا في السماء.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَقَالَ ٱلشَّافِعِيُّ: "خِلَافَةُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ حَقٌّ قَضَاهَا الله فِي سَمَائِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ قُلُوبَ عِبَادِهِ.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (خِلَافَةُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ حَقٌّ قَضَاهَا الله فِي سَمَائِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ قُلُوبَ عِبَادِهِ) قضاها: أي قدّرها؛ لأن القضاء يُطلَق تارة ويُراد به القضاء الكوني القدري ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢]..

وتارةً يُطلَق ويراد به القضاء الشرعي الديني ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣].

فقول الشافعي: (حَقٌّ قَضَاهَا الله) أي: قدَّرها، فالقضاء هنا أراد به القضاء الكوني القدري، (قَضَاهَا الله فِي سَمَائِهِ) وهذا موضع الشاهد من نقْل هذا الأثر: إثبات أن الله ﷻ في السماء.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَفِي ٱلصَّحِيحِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَتْ زَيْنَبُ تَفْتَخِرُ عَلَى أَزْوَاجِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: "زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي الله مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ"[١] وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّافِعِيِّ.

لّما نقل قول الشافعي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقل عقبه هذا الأثر عن زينب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا زوج النبي ﷺ في افتخارها على أزواج النبي ﷺ تقول: (زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي الله مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ) الشافعي قال: (خِلَافَةُ أَبِي بَكْرٍ حَقٌّ قَضَاهَا الله فِي سَمَائِهِ)، وقد قالت رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا (زَوَّجَنِي الله مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ) أي: كتب وقدّر وقضى زواج النبي ﷺ من فوق سبع سموات؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام: (وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّافِعِيِّ)؛ ففيه إيمان العبد بعُلو الله، وأنه ﷻ فوق عرشه المجيد يدبر أمر مخلوقاته عطاءً ومنعاً، خفضاً ورفعاً، قبضاً وبسطاً، عزّاً وذلاً، حياةً وموتاً، يُدبر ذلك كيف يشاء.

وهو جل وعلا مستوٍ على عرشه استواء يليق بجلاله وكماله وعظمته ﷻ.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وَقِصَّةُ أَبِي يُوسُفَ -صَاحِبِ أَبِي حَنِيفَةَ- مَشْهُورَةٌ فِي اِسْتِتَابَةِ بِشْرٍ اَلْمِرِّيسِيِّ حَتَّى هَرَبَ مِنْهُ لَمَّا أَنْكَرَ اَلصِّفَاتِ وَأَظْهَرَ قَوْلَ جَهْمٍ قَدْ ذَكَرَهَا اِبْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ.

وهذه القصة أشار إليها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: قصة الإمام (أَبِي يُوسُفَ - صَاحِبِ أَبِي حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- مَشْهُورَةٌ فِي اِسْتِتَابَةِ بِشْرٍ اَلْمِرِّيسِيِّ) بشر بن غياث المريسي من رؤوس المعتزلة وكبار أهل الاعتزال، فطلبه، كان هو واثنان معه في تقرير هذه المقالة فنُقِل ذلك لأبي يوسف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، فطلبه من أجل التأديب والزجر عن ذلك فهرب منه أبو يوسف واستُدعي صاحباه وجرى عليهما من التأديب ما جرى لهذه المقالة الباطلة.

الشاهد: إنكار أبو يوسف القاضي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مقالة هؤلاء في إنكار الصفات، وإظهارهم لقول الجهم، وعمله على تأديبهم، ومنْعهم من هذه المقالة الباطلة.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين- الإمام المشهور من أئمة المالكية في كتابه الذي صنفه في «أصول السنة» قال فيه:

باب الإيمان بالعرش

قال: "ومن قول أهل السُّنة: إن الله ﷻ خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق، ثم استوى عليه كيف شاء كما أخبر عن نفسه في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:٤]، فسبحان مَنْ بعد وقرب بعلمه فسمع النجوى.

وذكر حديث «أبي رزين العقيلي؛ قلت: يا رسول الله! أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال: في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء» قال محمد: العماء السحاب الكثيف المطبق - فيما ذكره الخليل - وذكر آثاراً أُخر.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين- الإمام المشهور من أئمة المالكية في كتابه الذي صنفه في «أصول السُّنة») وهذا الكتاب مطبوع، وهو كتاب نفيس لهذا الإمام المالكي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في تقرير عقيدة أهل السُّنة والجماعة، ونقل منه شيخ الإسلام هنا نقولات عديدة، (قال فيه:

باب الإيمان بالعرش، قال: "ومن قول أهل السُّنة: إن الله ﷻ خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق، ثم استوى عليه كيف شاء)؛

(اختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق) أي: أن الله ﷻ اختص العرش بأنه سقف المخلوقات وأعلاها وأعظمها وأكبرها، فهو العرش العظيم المجيد الكبير، واختصه بالعلو على جميع المخلوقات.

(ثم استوى عليه كيف شاء) أي: بعد خلْقه ﷻ للعرش استوى عليه تبارك وتعالى كيف شاء: أي استواء يليق بجلال الرب، وكماله وعظمته ﷻ (كما أخبر عن نفسه في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٤]).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (فسبحان مَنْ بعد وقرب بعلمه)؛ مَنْ بعُد: أي أراد بذلك أنه بذاته عَلِيٌّ على عرشه المجيد، و(وقرب بعلمه) تقدم معنا في قول مالك: علمه في كل مكان، مُطَّلع على العباد، لا تخفى عليه ﷻ منهم خافية.

(وقرب بعلمه فسمع النجوى)؛ وهنا قوله: (فسمع) هذه تفسير لقوله: (وقرب بعلمه فسمع النجوى) أي: يسمع تناجي الاثنين مُخافتةً ومَنْ كان منهما قريب لا يسمع، والله ﷻ يسمع كلامهم من فوق سبع سموات، ولمّا نزل قول الله سبحانه: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: ١] الآية.. قالت أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا سبحان مَنْ وسع سمعه الأصوات.

قال: (وذكر حديث «أبي رزين العقيلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قلت: يا رسول الله! أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟) مراد العقيلي.. عرفنا أن ربنا فوق السموات، عَلِيٌّ بذاته ﷻ فوق مخلوقاته، فقبل أن يخلق السموات والأرض أين كان؟، قال النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: («في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء» قال محمد) أي: ابن أبي زمنين: (العماء السحاب الكثيف المطبق - فيما ذكره الخليل -) أي: الخليل بن أحمد الفراهيدي إمام اللغة المعروف، وهذا قول ذكره أهل العلم في معنى العماء، ونقل الترمذي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بعد روايته لهذا الأثر في جامعه عن يزيد بن هارون أنه قال: العماء- أي: ليس معه شيء- مثلما جاء مُفسَّراً في الحديث: (ما تحته هواء وما فوقه هواء) أي: كان الله ولم يكن شيء معه.

قال: (ثم خلق عرشه على الماء) واستوى عليه تبارك وتعالى استواءً يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وذكر آثاراً أُخر. ثم قال: -

باب الإيمان بالكرسي

قال محمد بن عبد الله: "ومن قول أهل السُّنة أن الكرسي بين يدي العرش وأنه موضع القدمين، ثم ذكر حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي فيه التجلي يوم الجمعة في الآخرة، وفيه: «فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه، ثم يحف بالكرسي منابر من ذهب مكللة بالجواهر؛ ثم يجيء النبيون فيجلسون عليها».

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (ثم قال: **باب الإيمان بالكرسي**) والكرسي مخلوق عظيم من مخلوقات الله ﷻ بين يدي العرش الذي هو- كما تقدم- أعلى المخلوقات، ويأتي الرواية عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن الكرسي موضع القدمين، فهو بين يدي العرش كالمرقاة إليه- كما سيأتي-.

والكرسي وصفه الله ﷻ، أو ذكر عظمته الله جل وعلا بقوله في آية الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقد جاء في الحديث: أن مَثَل السموات والأرض بالنسبة إلى الكرسي كحلقة من حديد أُلقيت في فلاة، فالكرسي مخلوق عظيم من مخلوقات الله ﷻ العظيمة.

ومن عقيدة أهل السُّنة: الإيمان بالكرسي دون تأويل لهذا اللفظ؛ بل يُثبَت ويُؤمَن بوجود هذا الكرسي الذي عظمته ذُكرَت في آية عُرفَت باسم الكرسي في كتاب الله، وهي أعظم آية في كتاب الله ﷻ.

قال: (ومن قول أهل السُّنة أن الكرسي بين يدي العرش وأنه موضع القدمين) وهذا جاء فيه أثر عن ابن عباس يأتي ذِكْر المصنف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى له.

(ثم ذكر حديث أنس الذي فيه التجلي) التجلي: أي ظهور الله ﷻ لعباده وكَشْف الحجاب ورؤية العباد لله ﷻ بأبصارهم حقيقة، مثلما جاء في صحيح مسلم عن نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنه قال: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنة يقول الله تعالى: هل تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة؟ ألم تُنَجِّنا من النار؟» قال: «فيُكشَف الحجاب، فينظرون إليه، فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى الله ﷻ» نسأل الله الكريم من فضله.

قال: (ثم ذكر حديث أنس الذي فيه التجلي يوم الجمعة في الآخرة، وفيه: «فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه، ثم يحف بالكرسي..) أي: يحيط بالكرسي (منابر من ذهب مكللة) أي: مُحاطة ومُزينة

بالجواهر، (ثم يجيء النبيون فيجلسون عليها)؛ وهذا الحديث صححه جماعة من أهل العلم؛ منهم: الذهبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وشيخ الإسلام ابن تيمية، والضياء المقدسي، وابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كما في «مختصر الصواعق»، وذكر أنه حديث عظيم الشأن، وأنه قُرة عيْن لأهل الإيمان، وشجى في حلوق أهل التعطيل.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وذكر ما ذكره يحيى بن سالم - صاحب التفسير المشهور - قال: حدثني المعلى بن هلال عن عمار الدهني، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: إن الكرسي الذي وسع السموات والأرض لموضع القدمين؛ ولا يعلم قدر العرش إلا الذي خلقه.

قال.. وأورد هذا الأثر عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وورد أيضاً نحوه عن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: (إن الكرسي الذي وسع السموات والأرض لموضع) (اللام) للتأكيد (لموضع القدمين؛ ولا يعلم قدر العرش إلا الذي خلقه)؛ وهذا تنبيه من ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ إلى هذه العظمة- عظمة الكرسي، ثم العرش الذي هو أعظم من ذلك-؛ إذاً ماذا تكون السموات؟ وماذا تكون هذه الأرض التي نمشي عليها؟!

إذا نظرت وتأملت هذه النسب في العظمة والكِبَر بين هذه المخلوقات تجد أن هذه الأرض التي نمشي عليها نسبةً إلى العرش المجيد ما هي إلا ذرة صغيرة نسبةً إلى العرش المجيد، فكيف بالرب العظيم نفسه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ جل في علاه؟!

ولهذا قال بعض أهل العلم: إن ذِكْر عظمة الكرسي في آية الكرسي ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ [البقرة:٢٥٥] هذا بيان لعظمة الكرسي، بيان لعظمة هذا المخلوق وكِبَره، وأنه وسع السموات والأرض، ذِكْر هذه العظمة قالوا: هذه توطئة وتمهيد بين يدي ذِكْر عظمة الخالق؛ لأنه قال: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥] فذِكْر عظمة الكرسي توطئة بين يدي عظمة الخالق، لأنك إذا تأملت في عظمة هذه المخلوقات هداك هذا التأمُّل إلى عظمة مَنْ خلقها، إذا كانت هذه المخلوقات بهذه العظمة فكيف بمَنْ خلقها سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؟!..

وهذا مما يُحرِّك في قلب المرء تكبير الخالق العظيم جل في علاه، وأنه لا أكبر منه، وتحقيق لمعنى قولك: الله أكبر في هذه الكلمة التي هي من أحب الكلمات إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وقد قال النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعدي بن حاتم في دعوته للإسلام: «ما يُفِرُّك؟ أيُفِرُّك أن يقال: الله أكبر؟ وهل شيء أكبر من الله؟!».

مما يقوي ذلك أن تتأمل في عظمة هذه المخلوقات، فإذا تأملت في عظمة هذه المخلوقات هداك هذا التأمل إلى معرفة عظمة مَنْ خلقها وأوجدها ﷻ.

قال: الكرسي الذي وسع السموات موضع القدمين؛ وهذا القول من ابن عباس له عند أهل العلم حُكم الرفع؛ لأنه ليس مما يقال بالرأي أو بالاجتهاد، هذا من الكلام عن الأمور الغيبية، فحُكمه حُكم الرفع أي: إلى النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وذكر حديث أسد بن موسى، قال: حد ثنا حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماءين خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه.

قال: (وذكر) أي: الإمام ابن أبي زمنين (حديث أسد بن موسى، قال: حد ثنا حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه)؛ هذا ذكره عقب أثر ابن عباس المتقدم، ولاسيما وقد قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (ولا يعلم قدر العرش إلا الذي خلقه) قلت: إن في هذا تنبيه على عظمة هذه المخلوقات، والتأمل في عظمتها يهدي لعظمة مَنْ خلقها، وتعظيم مَنْ خلقها ﷻ.

فتأمل هذا الأثر عن ابن مسعود، عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: (ما بين السماء الدنيا) أي: المسافة التي (بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام)، (وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام) المسافة بين كل سماء وسماء خمسمائة عام، (وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش)، وفي القرآن: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود:٧]..

ومرّ معنا أيضاً فيما تقدم في حديث أبي رزين في سؤاله للنبي صلوات الله وسلامه وبركاته عليه قال: (ثم خلق عرشه على الماء).

فهذا التأمل في هذه المسافات كله مما يهدي العبد تدرجاً بمعرفة عظمة هذه المخلوقات مما يهدي العبد إلى الإيمان بعظمة الخالق وتعظيم الخالق ﷻ.

قال في هذا الأثر- أثر ابن مسعود- قال: (وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام) في بعض مصادر هذا الأثر زيادة فيها توضيح، وإزالة إشكال، قال: (وبين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام، والكرسي فوق الماء، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش)؛ وهذا يتناسب مع ما مرّ معنا أن الكرسي موضع القدمين، وهو بين يدي العرش كالمرقاة إليه، وقال: (وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام، والكرسي فوق الماء، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش)، وهذه الزيادة في الأسماء والصفات للبيهقي وأوردها الذهبي في العلو، وأوردها ابن القيم أيضاً في اجتماع الجيوش.

قال: (وهو يعلم ما أنتم عليه) وهذا فيه- كما تقدم- الجمع بين العلو والعلم الذي أحاط بكل شيء.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثم قال:

باب الإيمان بالحجب

قال: ومن قول أهل السنة: أن الله بائن من خلقه يحتجب عنهم بالحجب فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف:٥] وذكر آثاراً في الحجب.

ذكر هذا -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى (**باب الإيمان بالحجب**) في إبطال قول الجهمية: (أن الله في كل مكان) تعالى الله ﷻ عمّا يقولون.

قال: (ومن قول أهل السنة: أن الله بائن من خلقه) وعرفنا أن المراد بالبينونة: أي أنه ﷻ ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته سبحانه وتعالى.

(يحتجب عنهم بالحجب) مثلما جاء في الصحيح: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

قال: (تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف:٥] وذكر آثاراً في الحجب).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثم قال في **باب الإيمان بالنزول** قال: ومن قول أهل السُّنة: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا ويؤمنون بذلك من غير أن يحدوا فيه حداً وذكر الحديث من طريق مالك وغيره.

إلى أن قال: وأخبرنا وهب عن ابن وضاح عن زهير بن عباد. قال: مَنْ أدركت من المشايخ مالك، وسفيان الثوري، وفضيل بن عياض، وعيسى بن المبارك، ووكيع؛ كانوا يقولون: النزول حق، قال ابن وضاح: سألت يوسف بن عدي عن النزول قال: نعم أؤمن به، ولا أَحُدُّ فيه حداً وسألت عنه ابن معين فقال: أُقِرُّ به ولا أحد فيه حداً.

قال محمد: وهذا الحديث يبين أن الله ﷻ على عرشه في السماء دون الأرض، وهو أيضاً بَيِّنٌ في كتاب الله، وفي ما غير حديث عن رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ [فاطر:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:١٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾ [النساء:١٥٨].

وذكر من طريق مالك قول النبي ﷺ للجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «مَنْ أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «فأعتقها فإنها مؤمنة».

قال: والأحاديث مثل هذا كثيرة جداً، فسبحان من علمه بما في السماء كعلمه بما في الأرض لا إله إلا هو العلي العظيم.

هذه البقية لكلام الإمام ابن أبي زمنين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤجل الكلام عليها إلى لقاء الغد بإذن الله ﷻ.

ونسأل الله أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كلها، وألا يكلنا إلى أن أنفسنا طرفة عين، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنه تبارك وتعالى غفور رحيم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الخامس عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

ثم قال في **باب الإيمان بالنزول** قال: ومن قول أهل السُّنة: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا ويؤمنون بذلك من غير أن يحدوا فيه حداً وذكر الحديث من طريق مالك وغيره.

إلى أن قال: وأخبرنا وهب عن ابن وضاح عن زهير بن عباد. قال: مَنْ أدركتُ من المشايخ مالك، وسفيان الثوري، وفضيل بن عياض، وعيسى بن المبارك، ووكيع؛ كانوا يقولون: النزول حق، قال ابن وضاح: سألت يوسف بن عدي عن النزول قال: نعم أؤمن به، ولا أَحُدُّ فيه حداً وسألت عنه ابن معين فقال: أُقِرُّ به ولا أَحُدُّ فيه حداً.

قال محمد: وهذا الحديث يبين أن الله ﷻ على عرشه في السماء دون الأرض، وهو أيضاً بَيِّنٌ في كتاب الله، وفي ما غير حديث عن رسول الله ﷺ قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨]، وقال تعالى: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨].

وذكر من طريق مالك قول النبي ﷺ للجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «مَنْ أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «فأعتقها فإنها مؤمنة».

قال: والأحاديث مثل هذا كثيرة جداً، فسبحان مَنْ عِلْمه بما في السماء كعِلمه بما في الأرض لا إله إلا هو العلي العظيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم إنّا نسـألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأصلِح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد..

لا يزال الكلام موصولاً بنقْل قول الإمام محمد بن أبي زمنين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى من كتابه «أصول السُّنة».

(**قال في باب الإيمان بالنزول**: ومن قول أهل السُّـنة: أن الله ينزل إلى السـماء الدنيا ويؤمنون بذلك من غير أن يحدوا فيه حداً وذكر الحديث من طريق مالك وغيره) ذكر الحديث: أي حديث النزول، هو حديث متواتر، رواه عن النبي ﷺ ما يقرب من ثلاثين صحابياً، ذكرهم، وذكر أحاديثهم الإمام ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه «الصـواعق»، وقد نَصَّ غير واحد من أهل العلم على تواتر هذا الحديث عن رسـول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذا الحديث- حديث النزول-: «ينزل ربنا إلى سـماء الدنيا في ثلث الليل الآخر كل ليلة، فيقول: مَنْ يسألني فأعطيه، مَنْ يستغفرني فأغفر له، مَنْ يدعوني فأستجيب له».

وهذا النزول الذي ذكره النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو نزول أَضَـافَهُ إلى الله، قال: «ينزل ربنا»؛ فلا يحل لأحد يؤمن بأن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا ينطق عن الهوى أن يجعل هذا النزول نزولاً لغير الله كالملك أو الرحمة أو غير ذلك، فإن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- وهو أعلم خلْق الله بالله- أخبر بأن الذي ينزل هو الله، وأنه ﷻ يقول في نزوله: «مَنْ يسألني، مَنْ يدعوني، مَنْ يستغفرني» وهذا لا يقوله إلا الله ﷻ.

فالنزول حق لا ريب فيه لثبوته في الحديث الصـحيح المتواتر عن رسـول الله صـلوات الله وسـلامه وبركاته عليه.

ويُثْبَت النزول دون تعطيل ودون تمثيل، لا يجوز نفْي هذه الصـفة وجحْدها، ولا يجوز أيضـاً تمثيل هذا النزول بنزول المخلوقين، فمَنْ نفى هذه الصفة فقد أبطل، ومَنْ قال: (نزول الله كنزولنا) فقد أبطل، والحق: بإثبات النزول على الوجه اللائق بالله ﷻ دون تعطيل أو تمثيل، ودون تحريف أو تكييف.

وقد مرت معنا قاعدة أهل السُّنة والجماعة في هذا الباب: أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف.

وقول ابن أبي زمنين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويؤمنون بذلك من غير أن يحدوا فيه حداً) فهذا فيه نفْي التكييف؛ لأن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أخبرنا أن الله ينزل ولم يُخبرنا كيف ينزل، فنُثبت النزول ونُكفّ عن ما لم يخبرنا به

صلوات الله وسلامه عليه، وهذا معنى قوله: (من غير أن يحدوا فيه حداً) أي: لا يُقحِم عقله القاصر ليحدد كيفية لذلك النزول.

فالنزول حق وكيفيته مجهولة، النزول حق وكيفية النزول مجهولة، أُخْبرنا في النصوص بأن الله ينزل، فنؤمن بأنه ينزل، ولم نُخبَر كيف ينزل فنكف عمّا لم نُخبَر به، ومَنْ لم يكف عن ذلك فهو قافٍ لما ليس له به علم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ٣٦﴾ [الإسراء].

قال: (إلى أن قال: وأخبرنا وهب عن ابن وضاح عن زهير بن عباد. قال: مَنْ أدركتُ من المشايخ مالك، وسفيان الثوري، وفضيل بن عياض، وعيسى) وهو ابن يونس السبيعي، (وابن المبارك، ووكيع) بن الجراح (كانوا يقولون: النزول حق) حق لثبوته في الحديث المتواتر عن رسول الله ﷺ، وحق: أي نزول حقيقي يليق بجلال الرب وكماله وعظمته ﷻ، فهذا فيه أن أئمة السلف مضت كلمتهم على إثبات النزول نظير إثباتهم لجميع صفات الله الثابتة في كتابه وسُنة نبيّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

(قال ابن وضاح: سألت يوسف بن عدي عن النزول قال: نعم أؤمن به، ولا أَحُدُّ فيه حداً وسألت عنه ابن معين فقال: أُقِرُّ به ولا أحد فيه حداً) ومعنى قوله: (أؤمن به، ولا أَحُدُّ فيه حداً)، و(أُقِرُّ به ولا أحد فيه حداً) نظير قولهم: (أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف)؛ (أُقِرُّ به) أي: أُثبته وأؤمن به كما ورد، أُثبته كما جاء، ولا أُكيِّف، لا أخوض في تحديد كيفية هذا النزول، فكيفيته مجهولة، لم تُبيَّن في النصوص، إذا قال القائل: (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا) فقل: نعم. ينزل، كما أخبر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإن قال: كيف ينزل؟، قل: لا أدري، أخبرنا النبي ﷺ أنه ينزل، ولم يخبرنا كيف ينزل، وما لم نُخبَر به لا نخوض فيه،بل نَكُفّ عنه، كما كفَّ عنه السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى.

والسلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يعدُّون السؤال عن كيفية الصفات بدعة مُحدَثة، كما قال الإمام مالك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والسؤال عنه بدعة) فلا يجوز لأحد أن يبحث أو يخوض في كيفية صفات الباري ﷻ.

(قال محمد) أي: ابن أبي زمنين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا الحديث) أي حديث النزول (يبين أن الله ﷻ على عرشه في السماء دون الأرض) مُنبِّهاً بذلك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى إلى أن حديث النزول يُعَدُّ نوعاً من أنواع الأدلة على العُلو؛ لأن العُلو- عُلو الله سبحانه وتعالى- قد دلّت عليه أنواع من الأدلة، من هذه الأدلة: إخبار

النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن الله ﷻ ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة، والنزول المعقول لدى جميع الأمم ولدى جميع الناس إنما يكون من عُلو، فإخبار النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن الله ينزل هذا أحد الأدلة على عُلو الله ﷻ.

والأدلة على العلو أنواع، والإمام ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في آخر كتابه «إعلام الموقعين» جمع أنواع الأدلة- أنواع الأدلة على علو الله-، وما ذكره ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «إعلام الموقعين» نقله بتمامه ابن أبي العز -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في شرحه للعقيدة الطحاوية، فالعلو دل عليه أنواع من الأدلة.

وابن أبي زمنين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما أشار إلى أن النزول أحد أنواع الأدلة على عُلو الله تبارك وتعالى، بهذه المناسبة أخذ يسوق بعض الأنواع- بعض أنواع الأدلة- على عُلو الله ﷻ.

قال: (وهو أيضاً بَيِّنٌ في كتاب الله، وفي ما غير حديث عن رسول الله ﷺ)؛ قوله: (وهو بَيِّنٌ في كتاب الله، وفي ما غير حديث عن رسول الله) أي: العُلو، عُلو الله على عرشه وفوقيته على خلْقه ﷻ، يقول: هذا بيّن، والأدلة عليه كثيرة ومتنوعة.

ومن أنواع الأدلة على عُلو الله قال: (قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة:٥]) هذا نوع من أنواع الأدلة، يعرج إليه: أي إلى الله، والعروج يكون إلى أعلى، فإذاً من أنواع الأدلة على عُلو الله ﷻ: إخبار الله جل وعلا في القرآن بعروج بعض المخلوقات إليه، والعروج لا يكون إلا إلى أعلى.

النوع الأول- حتى نمشي مع ترتيب الكتاب- النوع الأول: إخبار النبي ﷺ بأن الله ينزل، والنزول لا يكون إلا من أعلى، هذا نوع من أنواع الأدلة.

النوع الثاني من أنواع الأدلة: إخبار الله ﷻ بعروج بعض المخلوقات إليه، (﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة:٥]).

النوع الثالث من أنواع الأدلة: قوله: (﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾ [الملك]) وهذا نوع ثالث من أنواع الأدلة: إخبار الله ﷻ عن نفسه بأنه في السماء، والمراد بالسماء: أي العلو، وإذا أُريد بالسماء المبنية فإن (في) بمعنى (على) أي: على السماء.

النوع الرابع من أنواع الأدلة: قوله: (﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠])، والصعود إنما يكون إلى أعلى.

النوع الخامس من أنواع الأدلة: في قوله: (﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨]) إخباره جل وعلا بفوقيته على خلْقه.

والسادس: قوله: (﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥]) وقوله: (﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]) والرفع إنما يكون إلى أعلى، (﴿إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨].) أي: إلى الله ﷻ.

ثم ذكر حديث الجارية (أين الله؟)، قول النبي ﷺ لها: («أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «مَنْ أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «فأعتقها فإنها مؤمنة») هذا امتحان لمعرفة الإيمان- إيمان تلك الجارية- من أجل تُعتَق، فَوُجِّه لها في هذا الامتحان سؤالان: (أين الله؟ مَنْ أنا؟)، ومعنى ذلك أن هذين السؤالين مُمحصيْن في معرفة الإيمان، قال: (أين الله؟ مَنْ أنا؟)؛ سؤال عن المُرسِل جل في علاه، وسؤال عن المُرسَل صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا أيضاً السؤال يدل على أهمية هذه المسألة في باب الاعتقاد (أين الله؟) لأن هذا امتحان من أجل أن تُعتَق، امتحان لمعرفة إيمانها، واقتُصِر في هذا الامتحان على هذين السؤالين، (أين الله؟ ومَنْ أنا؟)، قالت في جواب سؤاله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ («أين الله؟» قالت: في السماء)، وفي جواب سؤاله: («مَنْ أنا؟» قالت: أنت رسول الله) ﷺ، على إِثْر ذلك قال: («أعتقها فإنها مؤمنة») أي: إنها أجابت جواباً مُسَدَّداً على هذين السؤالين.

الشاهد من الحديث: قولها: (في السماء) والمراد (في السماء) إن كانت (في) على بابها فالمراد بالسماء: العُلو، وإن كان المراد بالسماء المبنية فـ(في) بمعنى (على) ويأتي في اللغة استعمال (في) بمعنى (على) كثيراً.

(قال: والأحاديث مثل هذا كثيرة جداً) الأحاديث مثل هذا- أي: التي فيها إثبات أن الله في السماء مثل قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء»، «ألا تأمنوني وأنا أمين مَنْ في السماء»؛ الأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

قال: (فسبحان مَنْ علمه بما في السماء كعلمه بما في الأرض لا إله إلا هو العلي العظيم)وهذا تنبيه من المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى إلى أن معرفة الصفات يفيد العبد التعظيم لله ﷻ، والتنزيه له عمّا لا يليق بجلاله وكماله ﷻ، كما أنه يفيد توحيده في العبادة، وإخلاص الدين له جل في عُلاه.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وقال قبل ذلك: باب في "الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه" قال: واعلم بأن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبياؤه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به تعالى عن نفسه علماً، والعجز عن ما لم يدع إليه إيماناً، وأنهم إنما ينتهون من وصْفه بصفاته وأسمائه إلى حيث انتهى في كتابه وعلى لسان نبيّه.

وقد قال الله تعالى- وهو أصدق القائلين - ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]،

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩]،

وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]،

وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩]، وقال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]،

وقال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩]،

وقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]،

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:٦٧]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]،

وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]،

وقال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]،

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]

ومثل هذا في القرآن كثير..

فهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض كما أخبر عن نفسه، وله وجه ونفس وغير ذلك مما وصف به نفسه، ويسمع ويرى ويتكلم، الأول ولا شيء قبله، والآخر الباقي إلى غير نهاية ولا شيء بعده، والظاهر العالي فوق كل شيء والباطن بطن علمه بخلقه فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم.

وذكر أحاديث الصفات، ثم قال: فهذه صفات ربنا التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها نبيّه وليس في شيء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، لم تره العيون فتحده كيف هو؟ ولكن رأته القلوب في حقائق الإيمان. انتهى كلامه.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (وقال قبل ذلك) أي: ابن أبي زمنين (باب في "الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه") هذا باب عقده -رَحِمَهُ ٱللَّهُ لذِكْر مُعتقَد أهل السُّنة والجماعة في أسماء الله وصفاته، وبيّن -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن جادتهم في هذا الباب إمرار هذه الصفات كما جاءت، والإيمان بها كما وردت.

قال مُلَخِّصاً عقيدتهم في ذلك: (واعلم بأن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبياؤه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به تعالى عن نفسه علماً، والعجز عن ما لم يدع إليه إيماناً، وأنهم إنما ينتهون من وصْفه بصفاته وأسمائه إلى حيث انتهى في كتابه وعلى لسان نبيّه) ﷺ؛ هذه جادة أهل السُّنة، وهذا تقرير مهم جداً ومتين في بيان ما عليه أهل السُّنة والجماعة، يرون الجهل بما لم يُخبِر به ﷻ عن نفسه علماً، ومراده بقوله: (الجهل بما لم يخبر به عن نفسه) أي: لا يخوض في ذلك، ولا يُقحِم عقله في ذلك، الجهل بذلك علم، منْع الإنسان نفسه عن الدخول في ما لم يخبر به الله ﷻ عن نفسه، هذا دليل على علم الإنسان وفقهه.

أما مَنْ يُقحِم عقله، ويحاول أن يعرف أشياء لم يأتِ بها كتاب الله، ولم تأتِ بها سُنة نبيّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فالحقيقة أنه جاهل، وهذا ضرْب من ضروب الجهل، أما مَنْ يكُفّ نفسه عن ما لم يُخبِر به الله عن نفسه ولم يُخبِر به عن رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فكَفُّه لنفسه عن ذلك هذا من العلم، ومن الفقه، ومَنْ يُقحِم نفسه.. إقحامه لنفسه في هذا الباب دليل على جهله، لأن هذا ضرب من ضروب الجهل، قال: (يرون الجهل بما لم يخبر به تعالى عن نفسه علماً).

(والعجز عن ما لم يدع إليه إيماناً)؛ اعترافك بعجزك (عن ما لم يدع إليه) أي: يدعُ عباده إلى الإيمان به إيمان، لأن أمور الإيمان هي ما دُعينا إلى الإيمان به، أما أمور الغيب مما لم نُطلَع عليه، ولم نقف على كنهه، ولا على كيفيته، مَنْ هذا الذي يتمكن بعقله القاصر أن يعرف ذلك أو يستكشف ذلك؟

فإقحام العقل في هذه الأمور هذا من الجهل،وإدراك الإنسان أن عقله عاجز عن ذلك وكَفّه لنفسه إقراراً بعجزه هذا من الإيمان، هذا من الإيمان: أن يكف الإنسان عن ما لم يُدعَ إليه في كتاب الله ولا سُنة نبيّه ﷺ، فهذا الكفّ يُعدُّ إيماناً.

قال: (وأنهم إنما ينتهون من وصْفه بصفاته وأسمائه إلى حيث انتهى في كتابه وعلى لسان نبيّه) ﷺ؛ بمعنى إنهم لا يتجاوزون الكتاب والحديث، يدورون مع الكتاب والسُّنة حيث دارا، ينتهون إلى حيث انتهى الكتاب والسُّنة، ولهذا اقرأ عامة كتبهم في صفات الله يقولون: نَصِف الله تعالى بكذا لقول الله تعالى كذا، ونَصِف الله تعالى بكذا لقول رسول الله ﷺ كذا وينتهون، لا يوجد عندهم (بما أن، ولأن) هذه كلها عند الفلاسفة والمناطقة وعلماء الكلام، أما أهل السُّنة دينهم قال الله، قال رسوله صلوات الله وسلامه عليه، هذا دين أهل السُّنة.

ومَرَّ معنا في هذا الكتاب نَقْل لشيخ الإسلام ابن تيمية وفيه أن مدار عقيدة أهل الكلام وأهل الباطل في تقرير المعتقد، وأصلهم في ذلك على هذه العقليات (بما أنه كذا إذاً يكون كذا) عن مَنْ النقل؟ مَر معنا نقْل لشيخ الإسلام عن مَنْ نقَله، ذكر فيه أن هذا هو أصل وأكّد على ذلك شيخ الإسلام عقب ذِكْره للنقل، عن مَنْ نقل شيخ الإسلام ابن تيمية؟

عن ابن الماجشون؟ ماذا قال؟

في كلام ابن الماجشون قال: (فَصَارَ يَسْتَدِلُّ بِزَعْمِهِ عَلَى جَحْدِ مَا وَصَفَ الرَّبُّ وَسَمَّى مِنْ نَفْسِهِ بِأَنْ قَالَ: لَا بُدَّ إن كَانَ لَهُ كَذَا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ كَذَا فَعَمِيَ عَنْ الْبَيِّنِ بِالْخَفِيِّ)؛ هذا كلام ابن الماجشون، ولما انتهى شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى من نقْل كلامه بتمامه، قال: (وَهَذَا كُلُّهُ كَلَامُ ابْنِ الْمَاجِشُونَ الإمام فَتَدَبَّرْهُ وَانْظُرْ كَيْفَ أَثْبَتَ الصِّفَاتِ وَنَفَى عِلْمَ الْكَيْفِيَّةِ مُوَافِقاً لِغَيْرِهِ مِنْ الْأَئِمَّةِ وَكَيْفَ أَنْكَرَ عَلَى مَنْ نَفَى الصِّفَاتِ بِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ إثْبَاتِهَا كَذَا وَكَذَا كَمَا تَقُولُهُ الْجَهْمِيَّةُ: أَنَّهُ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ جِسْماً أَوْ عَرَضاً فَيَكُونُ مُحْدَثاً)..

فهذا الكلام يوضح لكم الفرقان بين أهل السُّنة في طريقتهم في تقرير الاعتقاد، وأهل التجهم وطريقتهم في تقرير الاعتقاد، أما أهل السُّنة فإنهم يثبتون الاعتقاد استناداً إلى الدليل، يقولون: نعتقد كذا لقول الله تعالى كذا، ونعتقد كذا لقول الرسول ﷺ كذا، وينتهون إلى حيث انتهى إليه الله في كتابه وما جاء عن نبيّه الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أما مَنْ سواهم فإنهم دليلهم وطريقتهم في الاستدلال اللوازم العقلية.

ثم ساق ابن أبي زمنين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من الآيات في تقرير الصفات..

قال: (وقد قال الله تعالى- وهو أصدق القائلين - ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩])؛ هاتان الآيتان أوردهما لبيان صحة

الإخبار عن الله ﷻ بأنه شيء، وقد مرَّ معنا في كلام غير واحد من أئمة السلف أن محصل كلام الجهمية وقولهم يدور على أنه ليس فوق العرش شيء، ووصْف الجهمية لله ﷻ هو مُحصِّله العدم وأنه لا شيء، فهذه الآية فيها الإخبار بأنه ﷻ شيء، وصحة الإخبار عنه بذلك، لا أن الشيء اسم من أسمائه أو صفة من صفاته، وإنما هذا من باب الإخبار يُخبَر عنه مثل الإخبار عنه ﷻ بأنه موجود مثلما جاء في الحديث: «لا شخص أغير من الله» فهذه كلها من باب الإخبار عن الله ﷻ، وباب الإخبار أوسع من باب الأسماء والصفات.

وقوله تعالى: (﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]) وهذه الآية ساقها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى لإثبات النفس صفةً لله كما استفاد من تلخيصه فيما بعد قوله: (فهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض كما أخبر عن نفسه، وله وجه ونفس وغير ذلك) وهذا ذهب إليه بعض أهل العلم، يعني أخذوا من هذه الآية: (﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]) ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة:١١٦]؛ أخذ بعض أهل العلم من ذلك أن النفس صفةً لله، لكن الصحيح أن المراد بالنفس أي: الله، هو ﷻ الموصوف بالصفات، لا أن النفس صفة مثل السمع والبصر والعلم ونحو ذلك، وإنما المراد بنفسه أي هو جل وعلا، (﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]) أي: يحذركم منه هو جل وعلا بأسمائه وصفاته ﷻ، أما عدّ النفس صفة أخْذاً من هذه الآيات فهذا خطأ- كما نبّه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- والصحيح أن المراد بـ(نفسه) أي الله ذاته هو جل وعلا الموصوف بالصفات ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المراد فيها- أي هذه الآيات بلفظ النفس- عند جمهور العلماء الله نفسه التي هي ذاته المتصفة بصفاته) ليس المراد ذاتاً منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة للذات، وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات كما يظن طائفة أنها الذات المجردة عن الصفات وكلا القولين خطأ.

قال: وقول الله تعالى: (﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩]) ولعل سوقه لهذه الآية لإثبات هذه الصفات الفعلية (﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾ [الحجر:٢٩]) والمراد الخلق، والصنع، (﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩]) أما الروح- الروح المضافة إلى الله ﷻ- فليست إضافتها إضافة وصْف، وإنما إضافتها إلى الله ﷻ إضافة الخلْق، ومثل هذه الإضافة تقتضي التشريف والتكريم، مثل: بيت الله، وأمة الله، وعباد الله، وناقة الله.. ونحو ذلك من الإضافات، فهي إضافة خلْق..

فقوله: (﴿رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩]) هذه ليست صفة لله ﷻ، وإنما الروح هنا من جملة الأرواح التي خلقها الله ﷻ، لكن أضاف هذه الروح جل وعلا لنفسه تشريفاً وتعليةً لقدرها.

قال: (﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩]) وهذا فيه- كما سبق وتقدم- إثبات العين صفةً لله ﷻ، وهما عينان تليقان بالله جل وعلا، وفي اللغة يصح الإخبار عن المثنى بالجمع، كما يصح أيضاً الإخبار عنه بالمفرد.

وقوله: (﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:٦٧]) هذا فيه إثبات اليدين لله ﷻ على الوجه اللائق بجلاله وكماله.

وقوله: (﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]) في إثبات المعية، وإثبات السمع، وإثبات أنه ﷻ بصير يرى جل وعلا جميع المخلوقات.

وقول الله تعالى: (﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]) إثبات الكلام صفةً لله ﷻ، وأنه يتكلم متى شاء بما شاء، وأنه ﷻ كلّم موسى تكليماً بكلام سمعه موسى من الله ﷻ.

وقوله: (﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [النور:٣٥]) في إثبات النور، وهو اسم من أسماء الله، والنور صفة من صفاته ﷻ.

وقال الله تعالى: (﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]) وهذا القدر صُدِّرت به آية الكرسي- أعظم آية في كتاب الله ﷻ- وفيه إثبات الحي القيوم اسمان لله؛ أما الحي: فدال على صفات الله تبارك وتعالى الذاتية، والقيوم: دال على صفاته تبارك وتعالى الفعلية.

وقوله: (﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ﴾ [الحديد:٣]) هذه ثلاثة أسماء دالة على إحاطة الله ﷻ زماناً ومكاناً؛ فهو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن للذي دونه شيء كما جاء تفسير الآية بذلك عن النبي ﷺ في مناجاته لله ﷻ عندما يأوي لفراشه لينام صلوات الله وسلامه عليه.

قال: (ومثل هذا في القرآن كثير) أي: الآيات التي فيها إثبات الصفات لله جل وعلا.

قال: (فهو تبارك وتعالى) وهذا تلخيص لما تقدّم في هذه النصوص، (فهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض كما أخبر عن نفسه، وله وجه) كما تقدم في الآية: (﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]) هذه فيها إثبات الوجه صفةً لله.

(وله وجه ونفس) وتقدم ما يتعلق بالنفس.

(وغير ذلك مما وصف به نفسه، ويسمع ويرى ويتكلم، الأول ولا شيء قبله، والآخر الباقي إلى غير نهاية ولا شيء بعده، والظاهر العالي فوق كل شيء، والباطن بطن علمه بخلقه فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم).

قال: (وذكر أحاديث الصفات) أي: ساق جملةً من الأحاديث في إثبات الصفات لله ﷻ.

(ثم قال: فهذه صفات ربنا التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها نبيّه ﷺ وليس في شيء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير) بعد أن ساقها بيّن أن التحديد- أي: محاولة معرفة الكيفية وتحديد الكيفية وأن تُحَدَّ بحَدٍّ ليس فيه شيء من النصوص ما يدل على هذا التحديد والتكييف، فالخوض فيه باطل، ولا يجوز لأحد أن يبحث في كيفية الله، أو تحديد هذه الصفات، بمعنى معرفة كيفيتها.

(ولا تشبيه) لأنها أُثبتت لله على وجه يليق بالله، وما أُضيف إلى الله ﷻ فهو يخصه ويليق بجلاله وكماله وعظمته ﷻ.

(ولا تقدير) أي: لا مجال للعقول أن تُقدّر حداً أو كيفية لهذه الصفات.

(﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]) إثبات للصفات لله ﷻ في قوله: (﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١])، وتنزيه لله عن مماثلة المخلوقات في قوله: (﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١])؛ وعلى هذا يقوم اعتقاد أهل السُّنة في هذا الباب: إثبات بلا تكييف، وتنزيه بلا تعطيل.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لم تره العيون فتحده كيف هو؟ ولكن رأته القلوب في حقائق الإيمان)؛

(لم تره العيون فتحده كيف هو) هذه توضح لنا ما سبق من قوله وقول أئمة السلف: (لا نحدُّ فيه حداً) من غير تحديد، (وليس في شيء منها تحديد)، المراد بذلك: لا تحده بمعرفة الكيفية (فتحده كيف هو).

(لم تره العيون فتحده كيف هو) مُنَبِّهاً أن تحديد الكيفية لا يكون إلا بالرؤية، وتحديد كيفية أي شيء من الأشـياء له ثلاثة طرق- هذا أحدها-؛ إما أن يراه فيعرف كيفيته، أو يرى مثيله – المماثل له- فيحدد كيفيته برؤية مثيله، أو يأتيه خبر صادق بالكيفية؛ وهذه الطرق الثلاثة كلها منتفية في صفات الله.

قال المصـنف: (لم تره العيون فتحده) هذا الطريق الأول.. (لم تره العيون فتحده كيف هو) هذا الطريق الأول منتفي.

الطريق الثاني: معرفة المثيل؛ تقدم قول الله تعالى: (﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشـورى:١١])، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص].

والطريق الثالث: الخبر الصادق؛ لم يأتِ في النصوص- نصوص الكتاب والسُّنة- تحديد للكيفية، وإنما جاء فيها إخبار بالصفات ولم يُخبَر بكيفيتها، ولهذا إثبات أهل السُّنة للصفات إثبات وجود، وأنها صفات حقيقية ثابتة لله ﷻ، لا إثبات تحديد، لا يحدونها بحدّ أو يُكيّفونها بكيفية، فالله ﷻ لا مثيل له، ولا مجال للخوض- خوض العقول- في تكييف صـفاتهم،بل هي أعجز من ذلك، وإذا كانت عقول الناس عاجزة عن تحديد كيفية صفات المخلوقات.

ومرّ أن نبّه المصنف على عجْز العقول بذِكْر النملة الصغيرة، وكيف أن الإنسان عندما يتأمل يعجز عن أن يُدرِك حقائق في هذه النملة الصـغيرة، وهي مخلوق صـغير جداً من مخلوقات الله ﷻ، فكيف يُقحِم عقله بمعرفة كيفية خالق الخلق ﷻ.

أحد السـلف لقي شـاباً يخوض في التكييف، فقال: دعنا نظر في كيفية مخلوق من المخلوقات، إن عرفنا انتقلنا لما بعده، وإن لم نعرف وعجزنا فنحن عن كيفية صـفات مَنْ خلَق أعجز، ثم ذكر له الآية الكريمة: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ [فاطر:١]، قال: أخبرني عن أحد الملائكة له ثلاثة أجنحة، أين جناحه الثالث وكيف يطير به؟، ففتح فمه ولم يعرف جواباً، وقال: أعلن توبة ذلك الغلام.

فإذا كان الإنسـان عاجز عن إدراك كيفية المخلوقات، فلا أن يكون عاجزاً عن إدراك كيفية صـفات مَنْ خلقها من باب أَوْلى.

قال: (لم تره العيون فتحده كيف هو؟ ولكن رأته القلوب في حقائق الإيمان) رأته القلوب في حقائق الإيمان: أي بما قام في قلوبها من إيمان بالله وبصـفاته، ومعرفة بعظمته وجلاله وذوق حلاوة الإيمان وطعمه،

فرأته القلوب في حقائق الإيمان: أي: بما ملأها الله ﷻ بها من إيمان بالله، وإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العظيمة، ثم ما يُثمره هذا الإيمان من عمل وحب لله وإقبال على طاعته ﷻ.

قال: (انتهى كلامه) أي: ابن أبي زمنين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

ونكتفي بهذا القدر.

ونسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا إلى طرفة عين وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

شرح الفتوى الحموية الكبرى
لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

لفضيلة الشيخ
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله

من الدرس (١٦) إلى الدرس (١٩)

الشيخ لم يراجع التفريغ

الدرس السادس عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه «الفتوى الحموية الكبرى»:

وكلام الأئمة في هذا الباب أطول وأكثر من أن تسع هذه الفُتيا عُشره، وكذلك كلام الناقلين لمذهبهم.

مثل ما ذكره أبو سليمان الخطابي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في رسالته المشهورة في «الغُنية عن الكلام وأهله» قال: "فأما ما سألت عنه من الصفات وما جاء منها في الكتاب والسُّنة فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفْي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف وإنما القصد في السلوك: الطريقة المستقيمة بين الأمرين، ودين الله تعالى بين الغالي فيه والمقصر عنه.

والأصل في هذا: أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يُحتذى في ذلك حذوه وأمثاله، فإذا كان معلوماً أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف؛ فإذا قلنا يد وسمع وبصر وما أشبهها فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه؛ ولسنا نقول: إن معنى اليد القوة أو النعمة، ولا معنى السمع والبصر العلم، ولا نقول إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إنما وجب إثبات الصفات؛ لأن التوقيف ورد بها؛ ووجب نفي التشبيه عنه لأن الله ليس كمثله شيء؛ وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات". انتهى، هذا كله كلام الخطابي.

وهكذا قاله أبو بكر الخطيب الحافظ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في رسالة له أخبر فيها أن مذهب السلف على ذلك.

وهذا الكلام الذي ذكره الخطابي قد نقل نحواً منه من العلماء ما لا يُحصَى مثل أبي بكر الإسماعيلي، والإمام يحيى بن عمار السجزي، شيخ شيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري الهروي ، ومثل أبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام، وأبي عمر بن عبد البر النمري إمام المغرب وغيرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأصلِح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد..

آخر ما مر معنا من النقول ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن كتاب «أصول السُّنة» لمحمد بن أبي زمنين، وقال عقب كلامه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكلام الأئمة في هذا الباب أطول وأكثر من أن تسع هذه الفُتيا عُشره، وكذلك كلام الناقلين لمذهبهم)؛ وهذا فيه أن تقرير شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى لمذهب السلف في هذه الفُتيا كان أولاً بنقْل أقوال السلف المتقدمين، ثم بنقل مَنْ حكى ونقل مذهبهم من المتأخرين ممَّنْ قرروا المنهج أو الطريقة التي عليها السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى من خلال وقوفهم على الآثار المروية عنهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، على أن بعض مَنْ حكى مذهب السلف جملةً عند دخوله في التفاصيل وقع في بعض المخالفات لمنهج السلف بسبب التأثُّر بشيء من علم الكلام، وهذا حصل لعدد ليس بالقليل، وربما يأتي إشارة إلى شيء من المثال على ذلك.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذِكْر كلام الناقلين لمذهب السلف: (مثل ما ذكره أبو سليمان الخطابي)، وأبو سليمان الخطابي مشهور بشروحاته الكثيرة على كتب السُّنة مثل شرحه لصحيح البخاري وشرحه لسنن أبي داود وغيرها من الشروحات التي اشتُهِر بها وعُرِف بها.

قال (في رسالته المشهورة في «الغُنية عن الكلام وأهله» قال: "فأما ما سألت عنه من الصفات وما جاء منها في الكتاب والسُّنة فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفْي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف)؛ هذه خلاصة جيدة ودقيقة في تقرير مذهب السلف، وأن طريقتهم وجادتهم في صفات الله ﷻ أنهم يُمرُّونها كما جاءت ويؤمنون بها كما وردت من غير تكييف ولا تمثيل، بنفْي الكيفية والتشبيه عنها.

والكيفية: هو البحث عن كُنْه الصفة، وعرفنا أن كُنه الصفة لا سبيل إلى علم العبد به؛ لأن النصوص إنما جاءت بالإخبار عن صفات الله، وليس فيها ذِكْر للكيفية، فالكيفية مجهولة وغير معقولة، والسؤال عنها بدعة، قد بدَّع السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى مَنْ يبحث عن الكيفية- كيفية صفات الله تبارك وتعالى-.

وذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن مَنْ انحرفوا عن الجادة- جادة أهل السُّنة- في باب الصفات نَحَوْا منحيين؛

الأول: ما أشار إليه بقوله: (نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله)؛ نفاها: أي الصفات، قوم: أي من المعطلة، فأبطلوا ما أثبته الله: أي لنفسه تبارك وتعالى من صفات الكمال ونعوت الجلال.

قابل هؤلاء القسم الآخر، وهم مَنْ أشار إليهم بقوله: (وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف)؛ حققها قوم: أي بالغوا في الإثبات، بالغوا في إثباتها حتى وصلوا إلى ضرب من التشبيه، وجعلوا الصفة المضافة إلى ﷻ نظير ما يُعهَد في المخلوق، ونظير ما يُرَى في المخلوق فوقعوا في ضرب من التشبيه والتكييف.

(وإنما القصد) أي: التوسط والاعتدال في ذلك.

(وإنما القصد في السلوك: الطريقة المستقيمة بين الأمرين)؛ القصد والتوسط والاعتدال قوام بين التفريط والإفراط، والغلو والجفاء، الطريقة المستقيمة بين الأمرين.

(ودين الله تعالى بين الغالي فيه والمقصر عنه)؛ الغالي: المتجاوز الحدود بالزيادة، والمقصر: هو المُنقِص من الحق، والحق: قوام بين الغلو والجفاء، والزيادة والتقصير، كما أنشد أبو سليمان الخطابي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «العُزلة» قال:

ولا تغلو في شيء من الأمر واقتصد   كلا طرفي قصْد الأمور ذميم

فالغلو ذميم، والجفاء ذميم، والحق قوام بذلك، بالتوسط والاعتدال دون غُلو أو جفاء، ودون إفراط أو تفريط.

وخير الأمور أوساطها   لا تفريطها ولا إفراطها

قال: (**والأصل في هذا**: أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات يُحتذى في ذلك حذوه وأمثاله) هكذا في النُّسَخ؟

(يُحتذى في ذلك حذوه وأمثاله)؛ هذه قاعدة عظيمة جداً، ولاسيما في الرد على المعطِّل لصفات الله ﷻ، شيخ الإسلام قرر هذه القاعدة في مواطن كثيرة من كتبه، واستعملها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في الرد على المعطلة، فـ(الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يُحتذى في ذلك حذوه وأمثاله) أو: (ومثاله)؛ أي: يُسار فيه على نحو ما يُقال في الذات، القول في الصفات كالقول في الذات، هذا معنى قوله: (الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات) أي: ما يُقال في الذات أيضاً يقال في الصفات؛ فمثلاً: لو قال قائل: إن أثبتنا اليد حقيقةً لله ﷻ للزم من ذلك أن تكون يده كَيَد المخلوقات، يقال له: أَتُثبِت ذلك؟ أَتُثبِت لله ذاتاً؟

يقول: نعم، أُثْبِت ذاتاً.

يقال له: هل تقول في هذه الذات أنها كالذوات؟

فيقول: لا. ذات تخصه ليس كالذوات.

فيقال له: القول في الصفات فرع عن القول في الذات يُحتذَى فيه حذوه، كما أنك تثبت ذاتاً لا كالذوات فأَثبِت أيضاً صفات لا كالصفات؛ لأن الباب واحد والقول في ذلك واحد.

(فإذا كان معلوماً أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف)؛ إثبات الصفات هو إيمان بها، وإقرار بثبوتها لله ﷻ على الوجه اللائق بكماله وجلاله وعظمته ﷻ، وليس إثبات تكييف أو تحديد لها؛ لأن مثلما مرّ معنا في قول السلف: (لا نَحُدُّ فيها حداً)، ومرّ معنا أيضاً في قول السلف: (بلا تكييف)، ومرَّ معنا قول مالك: (والكيف غير معقول)؛ فإثبات السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى إثبات للصفات وأنها حق وأنها ثابتة لله ﷻ، وأنها على ظاهرها، وتُمَرُّ كما جاءت، يُؤمَن بها كما وردت، لكن لا يَحدُّون فيها حداً، ولا يخوضون فيها بتكييف؛ لأن الكيف غير معقول.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإذا قلنا يد وسمع وبصر وما أشبهها) أي: من صفات الله ﷻ (فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه).

(ولسنا نقول: إن معنى اليد القوة أو النعمة)؛ وهذا فيه رد على الذين يُؤولون الصفات، ويحملون معاني ألفاظ نصوص الصفات على معاني أخرى ليست مُرادة، تأويلاً لها، وصرْفاً لها عن ظاهرها.

قال: (ولسنا نقول: إن معنى اليد القوة أو النعمة)؛ بل نقول: اليد يد حقيقية تليق بجلال الله وكماله وعظمته ﷻ.

(ولا معنى السمع) أي: ولا نقول: معنى السمع (والبصر: العلم)؛ مَنْ يُنكِر السمع والبصر من المعتزلة وأضرابهم يؤولونه بالعلم، سَمِع وأبصر، يُبصِر.. كل ذلك يُحمَل عندهم على معنى العلم، أي: عَلِم؛ فلا يثبتون سمعاً، ولا يُثبتون بصراً، وإنما يُحمَل كل ما جاء من ذلك في النصوص عندهم على العلم.

(ولا نقول: إنها جوارح) أي: هذه الصفات المضافة إلى الله ﷻ لا نقول إنها جوارح، وهذه الكلمة ليس لها.. أو ليست مُستعملة في تقرير السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى في هذا الباب، وهي من الكلمات المُجملَة التي جاء بها، أو جاءت عند علماء الكلام، وكثير منهم يستعملها لتعطيل الصفات، وعندهم أن إثبات اليد،

وإثبات القدم والسمْع وغير ذلك من صفات الله تبارك وتعالى يلزم منه أن تكون جوارح فيقصدون بنفْي الجوارح نفْي هذه الصفات لله ﷻ.

(ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل)؛ أي: لا نشبهها بأيدي المخلوقين، وعبارة السلف في ذلك أوفى وأدق من هذه العبارة (من غير تشبيه) أي: من غير تشبيه بصفات المخلوقين، بل هي صفات ثابتة لله ﷻ على الوجه اللائق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه.

(ونقول: إنما وجب إثبات الصفات؛ لأن التوقيف ورد بها) لماذا نقول بوجوب إثبات الصفات؟

لأن التوقيف- المراد بالتوقيف: الكتاب والسُّنة- وَرَد بها.

وهذا معنى أيضاً قول أهل العلم أن باب الصفات توقيفي- أي: توقف فيه على ما جاء في الكتاب والسُّنة- فالتوقيف جاء بها، أي: ما يجب الوقوف عنده وهو كتاب الله وسُنة نبيّه عليه الصلاة والسلام جاء بإثبات هذه الصفات.

ومرت معنا عبارة الإمام أحمد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (نَصِف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والحديث).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ووجب نفْي التشبيه عنه) أي: عن الله في صفاته (لأن الله ليس كمثله شيء) كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١]، وكما قال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، وكما قال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[الإخلاص].

(وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات. هذا كله كلام الخطابي) أي: في كتابه «الغنية» المتقدم ذِكْره.

وهذا التقرير فيه- كما هو واضح- تقرير لعقيدة أهل السُّنة والجماعة، وأنهم يُمرِّون نصوص الصفات كما جاءت، ويؤمنون بها كما وردت، وأيضاً رد على المبطلة بقسميهم (المعطلة والمشبهة)، فقال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك، وأيضاً رد على المؤولة، ورد أيضاً على المُكيِّفة، فرد على المناهج المخالفة بأنواعها في باب صفات الله تبارك وتعالى في هذه الكلمة المختصرة.

وفي التطبيق العملي في كتبه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى وقع في شيء من التأويلات لبعض النصوص فيما حذّر منه هنا بقوله: (ولسنا نقول: إن معنى اليد القوة أو النعمة، ولا معنى السمع والبصر) وقع في شيء من كتبه بعض التأويلات، وعلى هذا النهج أيضاً، أو مثل هذا الأمر حصل عند عدد من الشُّراح ممَّنْ لهم عناية

بالحديث وعلم الحديث، وعندهم في باب الاعتقاد تأثُّر بشيء من علم الكلام، فالخطابي كذلك؛ يعني تقريره لمنهج السلف من خلال ما اطّلع عليه من تقريراتهم والآثار المنقولة عنهم واضح كما رأينا، لكن في التطبيق العملي وقع عنده في بعض المواضع تأويل لشيء من صفات الله ﷻ.

قال: (وهكذا قاله أبو بكر الخطيب الحافظ في رسالة له أخبر فيها أن مذهب السلف على ذلك)؛ هذا الذي يشير إليه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- كلام الخطيب البغدادي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أورده الذهبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه «العلو» وأيضاً في كتابه «تذكرة الحفّاظ» أن أبا بكر الخطيب البغدادي قال: (أما الكلام في الصفات فأما ما رُوي منها في السّنن الصحاح فمذهب السلف: إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها، فقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم من المثبتين، فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف) ذكر كلاماً نحو كلام الخطابي.

قال: (وهذا الكلام الذي ذكره الخطابي قد نقل نحواً منه من العلماء ما لا يُحصَى- مثل أبي بكر الإسماعيلي، والإمام يحيى بن عمار السجزي، شيخ شيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري الهروي ، ومثل أبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام، وأبي عمر بن عبد البر إمام المغرب وغيرهم).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال أبو نعيم الأصبهاني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى صاحب «الحلية» في عقيدة له في أولها: "طريقتنا طريقة المتبعين للكتاب والسُّنة وإجماع الأمة؛ قال: فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في العرش واستواء الله يقولون بها، ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه، وأن الله بائن من خلقه والخلق بائنون منه، لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم وهو مستو على عرشه في سمائه دون أرضه وخلقه".

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه «محجة الواثقين ومدرجة الوامقين» تأليفه: "وأجمعوا أن الله فوق سماواته عال على عرشه، مستو عليه، لا مستولٍ عليه كما تقول الجهمية إنه بكل مكان؛ خلافاً لما نزل في كتابه:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [الملك]

﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر:١٠]

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه]

له العرش المستوي عليه والكرسي الذي وسع السموات والأرض وهو قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وكرسيه جسم، والسموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي كحلقة في أرض فلاة؛ وليس كرسيه علمه كما قالت الجهمية؛ بل يوضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه؛ كما قاله النبي ﷺ وأنه – تعالى وتقدس – يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده والملائكة صفا صفا؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر]، وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده فيغفر لمن يشاء من مذنبي الموحدين ويعذب من يشاء كما قال تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران:١٢٩] انتهى.

هذا نقْل أورده شيخ الإسلام ابن تيمية –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن أبي نعيم الأصبهاني صاحب «الحلية» أي: صاحب كتاب «حلية الأولياء» وهو كتاب مشهور ومعروف.

قال: (قال أبو نعيم الأصبهاني صاحب «الحلية» في عقيدة له في أولها: "طريقتنا طريقة المتبعين للكتاب والسُّنة وإجماع الأمة) قبل أن يُقرر العقيدة قرر المصدر الذي تُتلقّى منه، والذي يتميز به أهل السّنة والجماعة عن غيرهم، وأن طريقة أهل السُّنة قائمة على التلقي من كتاب الله وسُنة نبيّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وما أجمع عليه سلف الأمة.

قال: (فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في العرش واستواء الله يقولون بها)، معنى (يقولون بها): أي: يمرونها كما جاءت، ويؤمنون بها كما وردت (من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه، وأن الله بائن من خلقه، والخلق بائنون منه، لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم وهو مستوٍ على عرشه في سمائه دون أرضه وخلقه)؛ وهذا كله تقرير للبينونة، ولا يثبت الاستواء لله ﷻ حقيقة إلا مَنْ يثبت البينونة– أن الله ﷻ بائن– ووضح معنى بائن، (بائن من خلقه والخلق بائنون منه) أي: ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته– تعالى وتقدّس– بل هو مستوٍ على عرشه المجيد، عَلِيٌّ على خلْقه ﷻ.

قال: (وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه «محجة الواثقين ومدرجة الوامقين»): (وأجمعوا أن الله فوق سماواته عال على عرشه، مستو عليه، لا مستولٍ عليه كما تقول الجهمية إنه بكل مكان)؛ لأن أهل الباطل حملوا آيات الاستواء على معنى الاستيلاء، وجعلوا معنى قوله: (استوى على العرش): استولى على العرش!! وهذا تأويل باطل، وتحريف للكلم عن مواضعه، وجحْد لصفة الله ﷻ التي أثبتها لنفسه.

ولما أنكر هؤلاء استواء الله ﷻ على عرشه صاروا إلى هذه العقيدة الباطلة- أن الله تبارك وتعالى في كل مكان- تعالى الله عمّا يقولون، وسبحان الله عمّا يصفون، وهذه العقيدة مثلما قرر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ مخالفة لكتاب الله ووحيه وتنزيله، ولهذا قال: (خلافاً لما نزل في كتابه:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه])؛ هذه كلها- ومرّ معنا نظائر- أنواع من الأدلة على علو الله ﷻ على عرشه، وعُلوه على مخلوقاته ﷻ وأنه بائن منهم، وفيها ردّ على هذه المقالة الباطلة- مقالة أهل التجهم- أن الله سبحانه وتعالى في كل مكان.

(له العرش المستوي عليه والكرسي الذي وسع السموات والأرض وهو قوله: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وكرسيه جسم) مُراده: أنه مخلوق عظيم، ليس معناه العلم كما قاله بعضهم متأولاً معنى الكرسي إلى العلم؛ بل هو مخلوق عظيم وهو بين يدي العرش- وهو موضع القدمين كما تقدم بذلكم الأثر عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا وعن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

قال: (والسموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي كحلقة في أرض فلاة) أي: في مفازة، في صحراء، وقد جاء في الحديث- حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنه سأل النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الكرسي فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة».

قال: (وليس كرسيه علمه كما قالت الجهمية)؛ لأن هذا تأويل وصرْف لهذا اللفظ عن ظاهره ومدلوله، فالكرسي مخلوق عظيم من مخلوقات الله ﷻ، وهو أكبر من السموات والأرض، ونسبة السموات والأرض إليه كحلقة أُلقيت في فلاة، وهو أصغر من العرش، ونسبته إلى العرش كحلقة أُلقيت في فلاة- كما قال نبيّنا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة».

قال: (بل يوضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه؛ كما قاله النبي ﷺ وأنه - تعالى وتقدس - يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده والملائكة صفاً صفاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۝٢٢﴾ [الفجر])؛ وهذا مجيء حقيقي، يجيء الله ﷻ بنفسه للفصل بين العباد، والقول في هذا المجيء هو كالقول في سائر صفات الله الفعلية الثابتة في كتابه أو سُنة نبيّه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: (وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصـــل القضـــاء بين عباده فيغفر لمن يشـــاء من مذنبي الموحدين ويعذب من يشـــاء كما قال تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران:١٢٩]) أي: أن ذلك راجع لمشيئته ﷻ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

ونسأل الله ﷻ أن يفقهنا في الدين، وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا إلى طرفة عين وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس السابع عشر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني- شيخ الصوفية في حدود المائة الرابعة في بلاده- قال: أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السُّنة وموعظة من الحكمة؛ وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين قال فيها: "وأن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، والاستواء معقول، والكيف فيه مجهول. وأنه ﷻ بائن من خلقه والخلق منه بائنون؛ بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة؛ لأنه المنفرد البائن من خلقه، الواحد الغني عن الخلق، وأن الله ﷻ سميع بصير عليم خبير يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكاً وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء: «فيقول: هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر»، ونزول الرب إلى السماء بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل. فمَنْ أنكر النزول أو تأوّل فهو مبتدع ضال وسائر الصفوة من العارفين على هذا".

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأصلِح لنا شأننا كلها ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني- شيخ الصوفية في حدود المائة الرابعة في بلاده-) وذكر كلامه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وهذا النقل الذي أورده -رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضاً أورده في كتاب «الاستقامة»، وأورده أيضاً في كتاب «درء التعارض»، وأيضاً أورده ابن القيم في «اجتماع الجيوش»، والذهبي في كتابه «العلو»، وكان هذا من أعيان القرن الرابع الهجري، وكان التصوف إذ ذاك يغلب على أهله الزهد والعبادة والذِّكْر مع سلامة في المعتقد من حيث التوحيد العلمي والمعرفة بالله ﷻ

في الجملة، ووقعوا في شيء من الخلل أو الأخطاء في ناحية التعبد والأذكار وصفة الأذكار وما يتعلق بذلك من أمور، لكن في الغالب توحيد الأسماء والصفات وفي الجملة جادتهم فيهم جادة أهل السُّنة والجماعة، ومَنْ

يطالع كتب هؤلاء ومصنفاتهم في مثل ذلك الوقت الأول والزمان الأول يجد أن الغالب عليها في هذا الباب- باب الأسماء والصفات- السلامة.

وشيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما يورد هذه النقول إنما يوردها لبيان أن هذا التوحيد هو المتقرر عند المسلمين من الزمان الأول بكافة فئاتهم، حتى مَنْ وقع في شيء مثلاً من التصوف أو شيء من هذه الأمور فإن جادته في ذلك جادة أهل السُّنة والجماعة.

وأيضاً ينبغي التنبه إلى أن ما يورده -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى من نقول متنوعة- سيأتي كثير منها- لا يلزم منه رضا شيخ الإسلام بالنقل بتمامه وجميع ألفاظه، وإنما المراد والغرض تقرير الموافقة لعقيدة أهل السُّنة والجماعة في علو الله واستوائه على عرشه وإثبات الصفات له ﷻ ولو من حيث الجملة ردّاً على الجهمية وأضرابهم في عقيدتهم الباطلة، سواءً فيما يتعلق بجحد العلو أو غيره من الصفات، فيورد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى الكثير والكثير من النقول في تقرير ذلك، وقد تتضمن بعض هذه النقول شيئاً مما يحتاج إلى أن يُنبّه عليه، لكن المقام ليس مقام ذلك، وإنما مقام إيراد نقول لهذا الأمر، أو لهذا الغرض المعين.

ولهذا نبّه شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ على طريقته هذه أنه ينقل- فيما قصده -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- نقولات قد لا يرضى طريقة مَنْ نقل عنه، ولا يُقِرُّه على ما هو عليه، لكن لمّا كان في نقْله سلامة، أو نوع سلامة في هذا الباب الذي يقرره -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فإنه ينقل ذلك ويبين ما فيه من ردٍّ على معتقد الجهمية وضلالتهم وباطلهم.

وهذا النقل عن معمر الأصبهاني أورده بتمامه التيمي في كتابه «الحجة» في المجلد الأول بدءاً من صفحة مائتين وواحد وثلاثين إلى مائتين وأربع وأربعين، ساقه بتمامه.

وقال معمر الأصبهاني في آخره.. في خاتمة رسالته هذه التي نقل عنها شيخ الإسلام: (ونحن بحمد الله من المقتدين بهم- أي السلف- المنتحلين لمذهبهم، القائلين بفضلهم، جمع الله بيننا وبينهم في الدارين، فالسُّنة طريقتنا وأهل الأثر أئمتنا، فأحيانا الله عليها وأماتنا عليها برحمته إنه قريب مجيب).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (قال) أي: معمر، (أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السُّنة وموعظة من الحكمة؛ وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين) هذا تبيان لما قصده -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذه الرسالة، ولم يخصها في باب الأسماء والصفات، وإنما تناول فيها ما يتعلق بالأسماء والصفات، وأيضاً بقية أمور المعتقد كما يُعلَم بمطالعة الرسالة بتمامها في المصدر الذي أحلتُ إليه.

وأشرتُ إلى أن أهل التصوف في الزمن الأول في المعتقد وفي باب الأسماء والصفات في الجملة على عقيدة أهل السُّنة والجماعة، ومَنْ يطالع هذا النقل وكذلك الكتب الأخرى- ولاسيما كتاب «التعرف لمذهب أهل التصوف» وما أورده فيه من نقولات في باب الأسماء والصفات- يجد أن هؤلاء المتقدمين في الجملة كانوا على عقيدة أهل السُّنة والجماعة في أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته.

(قال فيها) هذا إشارةً إلى أنه اختصر من هذه الرسالة -رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(وأن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، والاستواء معقول، والكيف فيه مجهول)؛هذا تقرير للعقيدة في أسماء الله وصفاته، وفيها إثبات استواء الله تبارك وتعالى على عرشه المجيد بلا كيف، أي: أنه مستوٍ استواءً حقيقياً بلا كيف نعلمه، المراد بـــ(نفْي الكيف): نفْي التكييف، أما استواء الله ﷻ له كيفية، ورب العرش أعلم بها، لكن النفي هنا نفْي لعلمنا بها.

(ولا تشبيه ولا تأويل، والاستواء معقول) والمراد بقوله: (معقول) أي: معلوم المعنى، معروف الدلالة، فالاستواء معناه العلو والارتفاع، فالاستواء معقول: أي معناه: معلوم.

(والكيف فيه مجهول) وهذا نفْي للعلم بالكيفية، لا نفْي لوجودها، لو كان المراد نفْي وجود الكيفية لقال: والكيف معدوم، لكن قال: (والكيف فيه مجهول) أي: لا نعلمه.

(وأنه ﷻ بائن من خلقه والخلق منه بائنون)؛ وكلمة (بائن) كما قدمت باتت جزءاً من المعتقد لا بد منه، لا يتمحص معتقد المرء إلا بهذه الكلمة (بائن من خلقه)، ومعنى (بائن): أي ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته.

يوضح ذلك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة)؛ هذه الكلمات أراد بها الرد على الجهمية القائلين بأن الله في كل مكان- تعالى الله عمّا يقولون، وسبحان الله عمّا يصفون-.

قال: (لأنه المنفرد البائن من) الخلق، وفي بعض النسخ (لأنه الفرد)؛ وهذا كله من باب الإخبار لا من باب الأسماء، فالمنفرد أو الفرد هذا ليس من أسماء الله تبارك وتعالى، وإنما يُخبَر عنه به، كما يدل عليه اسمه الأحد، واسمه الواحد، واسمه الوتر جل وعلا، كل هذه الأسماء تدل على التفرد.

(البائن من خلقه، الواحد الغني عن الخلق) وهذا تنبيه مهم جداً، وأيضاً فيه ردّ على منكري الاستواء؛ لأن مَنْ يُنكِر الاستواء يقول: إن إثباته يلزم منه احتياج الله للعرش كما يقولون: كما هو معلوم في استواء المخلوق، لا يستوي على شيء إلا عن حاجة، والاستواء لا يكون إلا عن حاجة.

فقوله: (الواحد الغني عن الخلق) فيه ردّ على هؤلاء الذين أنكروا الاستواء بهذا اللازم الذي هو لازم في صفة المخلوق، وليس لازماً في صفة الخالق جل في علاه.

وكأنه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن الله ﷻ مستوٍ على العرش استواءً حقيقياً يليق بجلاله وكماله مع غناه عن العرش وما دونه، فالاستواء حق، وغنى الله ﷻ عن العرش وما دونه حق.

وأما اللازم الذي يريده أهل الضلال أنه يلزم من الاستواء أن يكون محتاجاً لما هو مستو عليه يقال: هذا إنما هو في وصْف المخلوق ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾[الزخرف:١٣] أي: الفلك والأنعام؛ هذا عن حاجة، فإذا غرقت الفلك غرق مَنْ عليها، وإذا سقطت الدابة سقط مَنْ عليها، هذا استواء المخلوق، أما الله ﷻ فإنه استواءه عن غِنى لا عن حاجة، بخلاف استواء المخلوق فإنه عن حاجة لا عن غِنى.

ومَنْ جعل اللازم في وصْف المخلوق لازماً في وصْف الخالق تبارك وتعالى فقد شبّه وأبطل ووقع في الضلال، وفارق قول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١]، وقول الله سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[مريم:٦٥]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾[الإخلاص]، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[النحل:٧٤].

قال: (وأن الله ﷻ سميع بصير عليم خبير يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكاً وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء)؛ هذه جملة من الأسماء والصفات، ساقها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مثبتاً لها على جادة أهل السُّنة والجماعة وطريقتهم؛ ففيها إثبات السمع، والبصر، والعلم، والخبرة، والكلام، والرضا، والسخط، والضحك، والعَجَب، والتجلي، وغير ذلك من صفات الله ﷻ.

وختم ذلك بإثبات النزول وأشار إلى الحديث الثابت: أن الله ﷻ ينزل سماء الدنيا في ثلث الليل الآخر: («فيقول: هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر»).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونزول الرب إلى السماء بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل)؛ أي: نثبت النزول حقيقة، فإذا قيل: كيف ينزل؟، قيل: كيفية النزول مجهولة، أما النزول ثابت، النزول ثابت وحق، ينزل تبارك وتعالى كيف يشاء نزولاً نجهل حقيقته، نجهل كيفيته، ويعلمها هو ﷻ، أخبرنا أنه ينزل ولم يخبرنا كيف ينزل.

(بلا كيف ولا تشبيه)؛ (ولا تشبيه) أي: لا يُشبّه نزول الله بنزول المخلوق، لا يقال: نزول كنزولنا، مَنْ قال ذلك فقد شبّه، والتشبيه كفر بالله ﷻ، والمُشَبِّه يعبد صنماً، لا يجوز أن يشبه شيء من صفات الله بشيء من صفات المخلوقين، والله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١].

(ولا تأويل)؛ أي: لا يُصرَف شيء من النصوص - نصوص الصفات- عن معناها الحق إلى معاني أخرى، هذا تحريف للكلم عن مواضعه، وهو من طريقة اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه.

قال: (فمَنْ أنكر النزول) أي: جحده ولم يثبته.

(أو تأوّل) والمتأول مُنكِر، لأن كل مُحرِّف مُعطِّل.

(أو تأوّل فهو مبتدع ضال وسائر الصفوة من العارفين على هذا)، (سائر الصفوة من العارفين على هذا) أي: على هذا المعتقَد، وهذا فيه إشارة إلى أن مَنْ كانوا على التصوف في الزمن الأول، في الجملة عقيدتهم في باب الأسماء والصفات على وفْق عقيدة أهل السُّنة والجماعة، واشتغالهم في الزهد والتعبد وأعمال القلوب والأحوال ونحو ذلك، مع وقوعٍ في أشياء من الخطأ والمخالفة في بعض ذلك، أو في كثير منه عند بعضهم، لكن باب الأسماء والصفات في الجملة مضوا فيه على جادة أهل السُّنة.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وقال الشيخ الإمام أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال في «كتاب السُّنة»: حد ثنا أبو بكر الأثرم، قال: حدثنا إبراهيم بن الحارث يعني العبادي، قال: حدثنا الليث بن يحيى قال: سمعت إبراهيم بن الأشعث - قال أبو بكر وهو صاحب الفضيل - قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: ليس لنا أن نتوهم في الله كيف هو؟ لأن الله تعالى وصف نفسه فأبلغ فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[الإخلاص]، فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه.

وكل هذا النزول والضحك وهذه المباهاة وهذا الاطلاع؛ كما يشاء أن ينزل وكما يشاء أن يباهي وكما يشاء أن يضحك وكما يشاء أن يطلع، فليس لنا أن نتوهم كيف وكيف؟، فإذا قال الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه، فقل: بل أومن برب يفعل ما يشاء.

ونقل هذا عن الفضيل جماعة منهم البخاري في «خلْق أفعال العباد»، ونقله شيخ الإسلام بإسناده في كتابه «الفاروق» فقال: حدثني يحيى بن عمار: قال: حدثنا أبي، قال: حد ثنا يوسف بن يعقوب، قال: حد ثنا حرمي بن علي البخاري، وهانئ بن النضر عن الفضيل.

ثم أورد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذا النقل عن الفضيل بن عياض الإمام المعروف- من أئمة التابعين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- وساقه إليه بإسناد أبي بكر الخلال في كتابه «السُّنة».

قال الفضيل بن عياض: (ليس لنا) معاشر أهل السُّنة، أهل الحق، أهل الإيمان.. (ليس لنا أن نتوهم في الله كيف هو؟)؛ أي: لا يجوز أن يُعمِل المرء فِكْرَه القاصر وعقله الضعيف في معرفة كيفية الصفات، إذا قرأت مثلاً: (ينزل ربنا) لا تُعمِل عقلك في البحث عن كيفية هذا النزول؛ لأن هذا مجهول، مهما أعملت العقل، ومهما أتعبته لن تصل إلى معرفة، أخبرنا نبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن ربنا ينزل فنؤمن بذلك ولا نُقحِم عقلنا القاصر في كيفية النزول.

والتعبير بقوله: (نتوهم في الله) تعبير دقيق جداً، وفيه إضافةً إلى النهي عن ذلك إخبار أن إشغال المرء نفسه بذلك إنما هو إشغال لنفسه بشيء من التوهم الذي لا طائلة من رواءه، مثلما نقل الذهبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن الفيلسوف أبي حيّان التوحيدي، أنه قال- يذم قوماً آخرين من الفلاسفة- قال: أناس مضوا تحت التوهم، يظنون أن الحق معهم ولكن الحق وراءهم؛ علق عليه الذهبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ لّما نقله في السِّيَر قال: (وأنت حامل لوائهم) أي: هؤلاء الذين مضوا تحت التوهم.

فالاشتغال بهذه الأمور هو اشتغال بأوهام، وأرباب ذلك كلهم ماضون تحت التوهم، لا يصل إلى عقيدة حقَّة، ولا إلى إيمان صحيح، ولا إلى معرفة صحيحة بالله ﷻ، وإنما يمضي في أوهام ليس من ورائها طائل؛ ولهذا لا يجوز أن يتوهم في الله كيف هو، ومهما يُقَدِّر الإنسان في ذهنه، وعقله القاصر من وصْف يظنه هو الكمال والجمال والجلال والعظمة فالله أعظم من ذلك وأَجَلّ، كما نقول في الكلمة التي هي من أحب الكلام إلى الله: (الله أكبر)؛ أي: من كل شيء، حتى مما يخطر في بالك أو يدور في خيالك، أو يتوهمه

الإنسان أنه هو الوصف- هو وصْف الله تبارك وتعالى-، فالله أعظم وأكبر وأَجَلّ مما يخطر في البال أو يدور في الخيال ﷻ.

قال: (ليس لنا أن نتوهم في الله كيف هو؟) لماذا؟.. قال: (لأن الله تعالى وصف نفسه فأبلغ فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]، فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه)، وهو يُنبِّه بذلك أن حدَّك في هذا الباب- باب التعظيم والإيمان بالله ﷻ- أن تقف عند النصوص، ولا تتجاوزها بأوهام أو تخرصات أو ظنون، بل تقتصر على النص، وتكتفي به.

(فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه) ولن يكون أبلغ من ذلك، فما حاجة العقول القاصرة أن تُقحَم في هذا الباب، ولم يكن لإدخالها في هذا الباب إلا ضياع أهلها وضلالهم، فلا أبلغ من ما وصف الله ﷻ به نفسه؛ فيجب على المرء أن يتلقى كل ما وصف الله به نفسه في كتابه، وكل ما وصفه به رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي لا ينطق عن الهوى بالقبول والتسليم، ولا يزيد على ذلك، يؤمن بما جاء في الكتاب والسُّنة من صفات الله ولا يتجاوز القرآن والحديث.

(وكل هذا النزول والضحك وهذه المباهاة وهذا الاطلاع)؛ المباهاة: أي مباهاة الله ﷻ الملائكة بعباده، كما في الحديث الوارد في يوم عرفة: «وإنه ليباهي بهم ملائكته»؛ فهذه المباهاة، وكذلك الاطلاع: مثلما جاء في ما يتعلق بأهل بدر: «لعل الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم قد غفرتُ لكم»؛ هذا الاطلاع وهذه المباهاة.

(كما يشاء أن ينزل) هذا عائد على قوله: (النزول).

(وكما يشاء أن يباهي وكما يشاء أن يضحك وكما يشاء أن يطلع، فليس لنا أن نتوهم كيف وكيف؟)؛ كل هذه الأشياء نثبتها، المباهاة، الاطلاع، الضحك، النزول.. إلى غير ذلك من صفات الله ﷻ نثبتها، ولا نتوهم كيف هو، لا نتوهم في عقولنا كيف يضحك، أو كيف ينزل، أو كيف يباهي، أو كيف يطلع، أو كيف يجيء، أو كيف يعجب، أو كيف يرضى، أو كيف يسخط، ليس لنا أن نُقحِم عقولنا القاصرة في كيف هو.. كما قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فليس لنا أن نتوهم كيف وكيف؟)؛ أي: لا يجوز في أيٍّ من صفات الله ﷻ التوهم والمحاولة لمعرفة الكيفية.

(فإذا قال الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه)؛ وهذه من طرائق الجهمية في إنكار الصفات.. يأتون بألفاظ غير واردة على وجه الشناعة ويردّون بها الوارد، فإذا قال: (أنا أكفر برب يزول عن مكانه) يريد بذلك إنكار النزول وإنكار المجيء، إنكار الإتيان.. إلى غير ذلك من صفات الله ﷻ، فيقول: (فإذا قال الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه، فقل) أي: أنت يا صاحب الحق: (بل أؤمن برب يفعل ما يشاء).

كل ما ورد فعلاً لله ﷻ أخبر عنه ﷻ عن نفسه به في كتابه، أو أخبر عنه به رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإني أومن به، وأن الله ﷻ يفعل ما يشاء جل في علاه.

قال: (ونقل هذا عن الفضيل) بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ (جماعة منهم البخاري في «خلْق أفعال العباد»، ونقله شيخ الإسلام) الهروي (بإسناده في كتابه «الفاروق» فقال: حدثني يحيى بن عمار)؛ وأبو إسماعيل الهروي له كتاب «الفاروق»، وله كتاب أيضاً «منازل السائرين» الذي شرحه ابن القيم في «المدارج»، وأبو إسماعيل الهروي معروف بما عنده من تصوف، فكتابه «الفاروق» مثلما تقدّم في الجملة هؤلاء جادتهم جادة أهل السُّنة في باب الصفات، لكن في باب السلوك والعمل والأحوال والأذكار ونحو ذلك عندهم في شيء منها وعند بعضهم في كثير منها شيء من الخلل، ولهذا ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «مدارج السالكين» أحياناً يعتذر له، وأحياناً يلتمس له المخارج في كلامه، وأحياناً يأتي بكلام لا مجال لالتماس شيء فيه، ولهذا تجد ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مثل ذلك يقول: أبو إسماعيل الهروي حبيب إلينا، ولكن الحق أحب إلينا منه. وهذا الذي ينبغي على الإنسان إذا كان هناك شخص مُعظّم عنده وله مكانة في قلبه.. نعم محبته باقية لكن الحق أحب إلى الإنسان من الأشخاص أو الرجال أو نحو ذلك، فلا يجعله كونه يحب شخصاً أو يعظمه أو له مكانة في قلبه أن يوافقه على أخطائه أو زلاته.

قال: (ونقله شيخ الإسلام بإسناده في كتابه «الفاروق» فقال: حدثني يحيى بن عمار) حدثني أبي، (حدثنا يوسف بن يعقوب، قال: حد ثنا حرمي بن علي البخاري، وهانئ بن النضر ـ عن الفضيل) أي: وساق الأثر المتقدم، وهو قوله: (إذا قال الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه، فقل: بل أومن برب يفعل ما يشاء).

ثم بعد ذلك نقل نقلاً مطولاً عن عمرو بن المكي في كتابه الذي سماه «التعرف بأحوال العباد والمتعبدين»، ويؤجل الكلام عليه إلى اللقاء في الغد بإذن الله سبحانه.

ونسأل الله الكريم أن ينفعنا وإياكم أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليُّها ومولاها، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبيّنا محمد، وآله وصحبه.

الدرس الثامن عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وقال عمرو بن عثمان المكي في كتابه الذي سماه «التعرف بأحوال العُبّاد والمتعبدين» قال: ما يجيء به الشيطان للتائبين، وذكر أنه يوقعهم في القنوط ثم في الغرور وطول الأمل ثم في التوحيد.

فقال: «من أعظم ما يوسوس في التوحيد بالتشكيك، أو في صفات الرب بالتمثيل والتشبيه أو بالجحد لها والتعطيل، فقال بعد ذِكْر حديث الوسوسة: - واعلم- رحمك الله تعالى- أن كل ما توهمه قلبك، أو سنح في مجاري فكرك، أو خطر في معارضات قلبك من حُسْن أو بهاء أو ضياء أو إشراق أو جمال أو شبح ماثل أو شخص متمثل: فالله تعالى بغير ذلك؛ بل هو تعالى أعظم وأَجَلّ وأكبر، ألا تسمع إلى قوله: ﴿لَيۡسَ

كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، وقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص]؛ أي لا شبيه، ولا نظير، ولا مساوٍ، ولا مثل..

أولم تعلم أنه تعالى لما تجلّى للجبل تدكدك لعِظَم هيبته؟ وشامخ سلطانه؟، فكما لا يتجلى لشيء إلا اندك: كذلك لا توهمه أحد إلا هلك.

فَرُدَّ بما بين الله في كتابه من نفيه عن نفسه التشبيه والمثل والنظير والكفؤ.

فإن اعتصمت به وامتنعت منه أتاك من قِبَل التعطيل لصفات الرب – تبارك وتعالى وتقدس – في كتابه وسُنّة رسوله محمد ﷺ فقال لك: إذا كان موصوفاً بكذا أو وصفته أوجب لك التشبيه فأكذبه؛ لأنه اللعين إنما يريد أن يستزلك ويغويك ويدخلك في صفات الملحدين الزائغين الجاحدين لصفة الرب تعالى.

فاعلم – رحمك الله تعالى – أن الله واحد – تعالى – لا كالآحاد، فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد – إلى أن قال –: خَلُصت له الأسماء السنية فكانت واقعة في قديم الأزل بصدق الحقائق، لم يستحدث تعالى صفة كان منها خلياً أو اسماً كان منه برياً تبارك وتعالى؛ فكان هادياً سيهدي، وخالقاً سيخلق، ورازقاً سيرزق، وغافراً سيغفر، وفاعلاً سيفعل، لم يحدث له الاستواء إلا وقد كان في صفة أنه سيكون ذلك الفعل، فهو يسمى به في جملة فِعْله كذلك..

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر]؛ بمعنى أنه سيجيء؛ فلم يستحدث الاسم بالمجيء، وتَخَلُّف الفعل لوقت المجيء، فهو جاء سيجيء، ويكون المجيء منه موجوداً بصفة لا تُلاحقه الكيفية ولا التشبيه؛ لأن ذلك فعل الربوبية فتحسر العقول، وتنقطع النفس عند إرادة الدخول في تحصيل كيفية المعبود فلا تذهب في أحد الجانبين؛ لا مُعطِّلاً، ولا مُشبِّهاً، وارض لله بما رضي به لنفسه، وَقِفْ عند خبره لنفسه مُسَلِّماً مُستسلِماً مُصدقاً؛ بلا مباحثة التنفير ولا مناسبة التنقير.

إلى أن قال: "فهو تبارك وتعالى القائل: أنا الله، لا الشجرة، الجائي قبل أن يكون جائياً لا أَمْرُه، المتجلي لأوليائه في الميعاد؛ فتبيض به وجوههم، وتفلج به على الجاحدين حُجتهم، المستوي على عرشه بعظمة جلاله فوق كل مكان – تبارك وتعالى – الذي كلم موسى تكليماً، وأراه من آياته، فسمع موسى كلام الله لأنه قرَّبه نَجياً، تقدس أن يكون كلامه مخلوقاً أو مُحدثاً أو مربوباً، والوارث لخلقه، السميع لأصواتهم، الناظر بعينه إلى أجسادهم، يداه مبسوطتان، وهما غير نعمته، خلق آدم ونفخ فيه من روحه، وهو أَمْرُه تعالى وتقدس أن يحل بجسم، أو يُمازَج بجسم، أو يُلاصَق به – تعالى عن ذلك علواً كبيراً – الشائي له المشيئة،

العالِم له العلم، الباسط يديه بالرحمة، النازل كل ليلة إلى سماء الدنيا ليتقرب إليه خلقه بالعبادة، وليرغبوا إليه بالوسيلة، القريب في قُربه من حبل الوريد، البعيد في عُلّوه من كل مكان بعيد، ولا يُشَبّه بالناس.

إلى أن قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر] تعالى وتقدس أن يكون في الأرض كما هو في السماء جلَّ عن ذلك علواً كبيراً".

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً وعبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأَصلِح لنا شأننا كله.

أما بعد..

هذا نقْل أورده شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في جملة ما يورده من نقول تُقرر عقيدة أهل السُّنة والجماعة في باب الصفات- صفات الرب جلَّ وعلا- والرد على المعطِّلة من الجهمية ومَنْ نحا نحوهم.

وسبق أن نبهت أن ما ينقله شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى من نقولات، ولاسيما عن مَنْ عُرِف بشيء مثلاً من التصوف أو غير ذلك، لا يعني ذلك قبوله أو تأييده لكل ما نقله عنه، وإنما الغرض من النقل: إثبات هذا الأمر في الجملة، وأن كل هؤلاء مخالفون لما عليه الجهمية من تعطيل وإبطال لصفات الله تبارك وتعالى.

وقد يكون في بعض هذه النقول أشياء ليست من الدقة في تقرير ما عليه أهل السُّنة والجماعة، ولا يُنبّه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى على ذلك؛ لأنه ليس المقام مقام تبيين لما في هذه النقول، وإنما الغرض من ذلك: ذِكْر ما فيها من دلالة- ولو في الجملة- على ما عليه أهل السُّنة والجماعة من إثبات الصفات والرد على المُعطِّلة من الجهمية وأضرابهم.

وصاحب هذا النقْل وهو عمرو بن عثمان المكي صاحب كتاب «التعرف بأحوال العُبّاد والمتعبدين» أثنى عليه شيخ الإسلام في بعض المواضع من كتبه، وذكر أنه من الشيوخ المشهورين المعروفين بالتدين، وأيضاً المعروفين بإثبات الصفات لله تبارك وتعالى، المُنكرين على الجهمية والحلولية، وأشار إلى هذا

-رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في بعض المواضع من كتبه عند نقْله عنه، ولا سيما من هذا الكتاب الذي سماه «التعرف بأحوال العُبّاد والمتعبدين».

(قال: ما يجيء به الشيطان للتائبين) كأن هذا فصل عقَدَه في هذا الكتاب، أو باب عقَدَه في هذا الكتاب لِذِكْر حبائل الشيطان، أو وسائل الشيطان في إغواء الإنسان، وحرْفه عن المعتقد الحق من خلال وسائل أو طرق يدخل عليها عدو الله على الإنسان فيحرفه عن العقيدة الصحيحة.

قال: (وذكر أنه يوقعهم في القنوط) أي: من رحمة الله ﷻ.

(ثم في الغرور وطول الأمل ثم في التوحيد) قوله: (ثم في التوحيد) أي: ثم في الخلل في باب التوحيد، فيتدرج معهم عبر خطوات، والله يقول: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [النور:٢١] إلى أن يصل في آخر المطاف ونهايته إلى حرْف هؤلاء في باب التوحيد الذي هو أعظم الأبواب وأجلُّها.

قال: (من أعظم ما يوسوس في التوحيد بالتشكيك، أو في صفات الرب بالتمثيل والتشبيه أو بالجحد لها والتعطيل)؛ هذه ثلاثة أشياء:

الأول: التشكيك، أي: في الله ﷻ، التشكيك في الله ﷻ، ولهذا يأتي أنه أشار أو ذكر حديث الوسوسة، ولعله يشير -رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ما في المسند وغيره من حديث أبي هريرة قال النبي ﷺ: «إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: هذا الله، أو يقول: مَنْ خلق السماء؟، فيقول: الله، فيقول: مَنْ خلق الأرض؟، فيقول: الله، فيقول: مَنْ خلق الله؟»؛ فيدخل على الإنسان في الوسوسة، فقال: إذا قال له ذلك فليقل: آمنت بالله ورسله.

فهذا عدو الله حظه من الإنسان هذه الوسوسة، ونُهِي العبد أن يسترسل مع وساوس الشيطان، وأُمِر أن يتعوذ بالله تبارك وتعالى من وساوسه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [الناس].

فهو إما أن (يوسوس في التوحيد بالتشكيك، أو في صفات الرب بالتمثيل والتشبيه) أي: أن تُقاس بصفات الخلق، وأن يُمثَّل في صفاته ﷻ بصفات خلقه، والله تعالى يقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فيأتي إلى هؤلاء ويقول لهم ليس هناك يداً أو سمعاً أو بصراً إلا هذا الذي ترونه في الشاهد، ما هناك شيء آخر، فيجعلهم يدخلون في تشبيه الله- تعالى الله عمّا يقولون بخلقه-.

أو يدخل عليهم بالجحد والتعطيل كما هي عقيدة الجهمية، جحد صفات الله تبارك وتعالى وتعطيلها- أي: عدم إثباتها لله سبحانه وتعالى-.

قال: (واعلم- رحمك الله- أن كل ما توهمه قلبك، أو سنح في مجاري فكرك، أو خطر في معارضات قلبك من حُسْن أو بهاء أو ضياء أو إشراق أو جمال أو شبح ماثل أو شخص متمثل: فالله تعالى بغير ذلك؛ بل هو تعالى أعظم وأَجَلّ وأكبر)؛ وهذا فيه ردٌّ على الممثلة والمُكيِّفة، ردٌّ على مَنْ يمثل صفات الله سبحانه بصفات المخلوقين، وردٌّ على مَنْ يحاول أن يُقَدِّر في ذهنه كيفية لصفات الله تبارك وتعالى.

قد مرَّ معنا قول مالك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والاستواء غير معقول) أي: لا يمكن للعقول أن تبلغ كيفية هذا الاستواء الذي اتصف به الرب سبحانه وتعالى.

فيقول عمرو المكي: كل ما يخطر في بالك من جمال، أو حُسْن، أو بهاء، أو ضياء، أو نور، ويُقَدِّر الذهن أن هذا هو وصْف الرب فالله بخلاف ذلك- أي: أعظم من ذلك-، بخلاف ذلك، أو (بغير ذلك)- كما عبّر- أي: أعظم، قال: (بل هو تعالى أعظم وأَجَلّ وأكبر)؛ أعظم وأجلّ وأكبر من كل ما يدور في الخيال ويجول في النفس مما يظنه الظان أنه وصْف الله سبحانه وتعالى، فالله أكبر من ذلك وأعظم وأجَلّ سبحانه وتعالى.

(ألا تسمع إلى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص]) وكذلك: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] والاستفهام بمعنى النفي- أي: لا سمي له جل وعلا-.

قال: (﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص] أي لا شبيه، ولا نظير، ولا مساوي، ولا مثل)؛ وهذه ألفاظ متقاربة، فالله عز وجل لا كفؤ له، ولا مثل له، ولا نظير له، ولا مساوي له جلَّ وعلا.

(أولم تعلم أنه تعالى لما تجلّى للجبل تدكدك لعِظَم هيبته؟ وشامخ سلطانه؟)؛ هذا ساقه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق ردّه على أهل التمثيل، يقول: أين عقول هؤلاء؟! عندما يقيسون صفة الله بصفة المخلوق؟!

يقول: خذ مثالاً واحداً، عندما تجلى الله للجبل ماذا حصل للجبل؟

تدكدك هذا الجبل العظيم، الصلب، المتماسك، تدكدك: أي تهدّم، تهدّم لعِظَم هيبته وشامخ سلطانه، فكيف يقاس مَنْ هذا بعض شأنه سبحانه وتعالى بوصْف المخلوق؟!

(فكما لا يتجلى لشيء إلا اندك) كما لا يتجلى ﷻ لشيء إلا اندك.. (كذلك لا توهمه أحد إلا هلك)، بما أنه سبحانه بهذه العظمة، وهذا الشأن جل وعلا، إذا تجلى للجبل لندك: فكذلك لا يدخل أحد بعقله في تكييف صفة من صفاته ﷻ إلا هلك؛ لأن ذلك من أعظم القول على الله ﷻ بلا علم، (إلا هلك).

(فَرُدَّ بما بين الله في كتابه من نفيه عن نفسه التشبيه والمثل والنظير والكفؤ)؛ أي: هذا سبب الهلاك، الذي حصل لهذا أنه ردَّ ما جاء نفْيه في كتاب الله ﷻ من نفْي التشبيه، ونفْي المثل، ونفْي النظير، ونفْي الكفؤ بإقحامه لعقله في محاولة لتكييف صفات الله ﷻ أو قياس لله ﷻ بما يراه في الشاهد من وصْف للمخلوق.

يقول: (فإن اعتصمت به وامتنعت منه)؛ إن اعتصمت به: أي بالله، وامتنعت منه: أي من هذا الوساوس الذي تعلق بالتشبيه.. جاء الشيطان من طريق آخر، إذا لم يتمكن من إدخال الإنسان في التشبيه جاءه من طريق آخر ومسلك آخر، قال: (أتاك من قِبَل التعطيل)؛ يعني إن لم يتمكن من إدخال الإنسان في التشبيه أتاه من جهة التعطيل، وهذا يبين لنا أن الشيطان همّه هلاك الإنسان ولا يبالي في أي المسلكين هلك، المهم أن يهلك الإنسان، سواءً أن يكون هلاكه فيه تشبيه أو أن يكون هلاكه في جحد وتعطيل.

قال: (أتاك من قِبَل التعطيل لصفات الرب – تبارك وتعالى وتقدس – في كتابه وسُنّة رسوله محمد ﷺ فقال لك)؛ هذا الآن يذكر فيه مدخل الشيطان على الإنسان في التعطيل – تعطيل الصفات –..

(فقال لك: إذا كان موصوفاً بكذا أو وصفته) أي: بكذا.. (أوجب لك التشبيه)؛ فهذا مدخل من مداخل الشيطان، يأتي للإنسان ويقول: إن أثبت الصفات لله حقيقةً لزم من ذلك أن يكون الله كذا وكذا، وهذا الذي اتكأ عليه المعطِّلة في نفْي الصفات، باللوازم العقلية، كما مرّ معنا في كلمة ابن الماجشون، وأشار شيخ الإسلام أن هذا طريق هؤلاء في التعطيل، يذكرون اللوازم العقلية – يلزم من إثبات كذا كذا وكذا، ثم يجحدون صفة الرب ﷻ.. قال: (أوجب لك التشبيه).

(فأكذِبْه) أي: في دعواه – أنه يلزم من ذلك التشبيه – أكذبه: أي أكذِب عدو الله في ذلك، ليس بلازم لأن أهل الحق يثبتون صفات الله ﷻ لله جل وعلا على الوجه اللائق به ﷻ.

قال: (لأنه اللعين إنما يريد أن يستزلك) أكذبه لأنه يريد أن يستزلك وأن (ويغويك)، وأن (يدخلك في صفات الملحدين الزائغين الجاحدين) لصفات الرب تبارك وتعالى.

ثم قال – رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فاعلم – رحمك الله تعالى – أن الله واحد – تعالى – لا كالآحاد، فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) وعليه؛ فصفاته ﷻ كلها تليق به وبجلاله وكماله، ومُختصٌّ جل وعلا بالكمال

جل وعلا، لا يُشبه خلْقه، لا مثيل له في شيء من صفاته سبحانه، تفرد بالكمال جل وعلا، (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) أي: لا نظير له، ولا مثيل ﷻ.

(إلى أن قال -: خلصت له الأسماء السنية) كما قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وهذا فيه الخلوص والاختصاص ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٨]؛ هذا كله يفيد ما أشار إليه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ من اختصاص الله، وخلوص الأسماء لله ﷻ فلا شريك له.

(خلصت له الأسماء السنية) من السناء، وهو الضياء والكمال.

(كانت واقعة في قديم الأزل بصدق الحقائق، لم يستحدث تعالى صفة كان منها خلياً أو اسماً كان منه برياً تبارك وتعالى)؛ هذا إنما يكون في المخلوق، المخلوق قد لا يكون صانعاً فيتعلم الصناعة فيقال عنه صانعاً، قد لا يكون متعلماً فيتعلم العلم فيقال: عالم، قد لا يكون خلوقاً فيتأدب ويتعلم الأخلاق ويتحلى بها فيكون خلوقاً، فيكتسب أوصافه وألقابه من عمله، فهذا شأن المخلوق، أما الله ﷻ (لم يستحدث تعالى صفة كان منها خلياً أو اسماً كان منه برياً) ثم اتصف به بعد، أو تسمى به بعد، معنى ذلك: أنه لم يزل سميعاً، بصيراً، عليماً، حكيماً، لم يزل رحيماً، لم يزل متصفاً بصفات الكمال، لم يحدث له صفة بعد أن لم يكن، أو: لم يحدث له اسم بعد أن لم يكن، أو لم يحدث له اسم بعد أن لم يكن متسمياً به (، لم يستحدث تعالى صفة كان منها خلياً أو اسماً كان منه برياً تبارك وتعالى).

(فكان هادياً سيهدي، وخالقاً سيخلق، ورازقاً سيرزق، وغافراً سيغفر، وفاعلاً سيفعل) هذه الكلمات تحتمل معنى صحيح يوافق ما عليه المعتقد عند أهل السُّنة والجماعة، وتحتمل معنى غير صحيح لأن أهل التعطيل: مَنْ يثبتون الأسماء بدون المعاني والحقائق، يجعلون هذه الأسماء ليست دالة على صفة ثابتة لله، لم يزل ولا يزال متصفاً بها ﷻ، بل يجعلونه مُعطَّلاً عن الفعل ﷻ، وينفون عنه جلّ وعلا ما دلّ عليه كتابه، ودلّت عليه سُنة نبيّه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه من أنه لم يزل ولا يزال متصفاً بالكمال والجلال ﷻ والخلق والرزق، والإنعام، والرحمة، والإكرام، وغير ذلك من الصفات.

قال: (فكان هادياً سيهدي، وخالقاً سيخلق) يحتمل- كما أشرت- معنى غير صحيح، (خالقاً سيخلق) أي: أن هذا الاسم لله باعتبار أنه سيخلق، لا باعتبار أنه لم يزل خالقاً، وإنما باعتبار أنه سيخلق، وهذا ما يعبرون عنه بأنه خالق بالقوة، لا بالفعل، خالق بالقوة: أي باعتبار أنه سيخلق، رازق بالقوة: أي باعتبار أنه سيرزق، وهذا المعنى غير صحيح، والحق: أن الله ﷻ لم يزل خالقاً، لم يزل رازقاً، لم يزل مُنعماً ﷻ.

قال: (لم يحدث له الاستواء إلا وقد كان في صفة أنه سيكون ذلك الفعل، فهو يسمى به في جملة فِعْله كذلك قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر] بمعنى أنه سيجيء؛ فلم يستحدث الاسم بالمجيء، وتَخَلُّف الفعل لوقت المجيء، فهو جاء سيجيء، ويكون المجيء منه موجوداً بصفة لا تُلاحقه الكيفية ولا التشبيه) الأَوْلى أن يقال- كما هو كلام أهل السُّنة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى- أنه لم يزل فاعلاً، يفعل ما يشاء متى شاء ﷻ من النزول، أو الإتيان، أو المجيء، أو غير ذلك من أوصاف الرب ﷻ الفعلية، لم يزل فاعلاً يفعل تبارك وتعالى ما شاء متى شاء جلّ وعلا.

قال: (لأن ذلك فعل الربوبية فتحسر العقول، وتنقطع النفس عند إرادة الدخول في تحصيل كيفية المعبود)؛ هذا عود منه إلى ما سبق تقريره: أن العقول أعجز من أن تصل إلى كيفية الرب ﷻ، وكل مَنْ أقحم عقله في هذه المحاولة هلك؛ لأنه لا سبيل إلى ذلك، الكيف غير معقول، ففِعْل الربوبية تحسر العقول- أي: تعجز، ولا يمكن أن تنال شيء من ذلك- (فتحسر العقول، وتنقطع النفس عند إرادة الدخول في تحصيل كيفية المعبود).

(فلا تذهب في أحد الجانبين) أي: كُن وسطاً، لا تذهب في أحد الجانبين بمعنى كُن وسطاً، (لا مُعطِّلاً، ولا مُشبِّهاً) الحق وسط بين التعطيل والتشبيه، والوسطية: هي إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، على حد قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، (فلا تذهب في أحد الجانبين؛ لا مُعطِّلاً، ولا مُشبِّهاً) وهذان الجانبان هما اللذان مرّ كلام المصنف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو ابن مكي: أن الشيطان يتجاذب الإنسان إلى أحدهما، لا تكن في التعطيل ولا في التشبيه..

(وارض لله بما رضي به لنفسه، وَقِفْ عند خبره لنفسه مُسَلِّماً مُستسلِماً مُصدقاً؛ بلا مباحثة التنفير ولا مناسبة التنقير)؛ قِفْ عند خبر الله: أي على قدم التسليم، فمن الله ﷻ الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم، فقِفْ على قدم التسليم مُسلماً، مُصدِّقاً، مؤمناً، مُقِراً بما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسوله عليه الصلاة والسلام، وإياك أن تعترض أو تنتقض أو تقول: لِمَ؟، أو تخوض في شيء من صفات الله بـــ(كيف) أو نحو ذلك مما يتنافى مع التسليم الذي يجب أن يكون عليه المسلم تجاه خبر الله وخبر رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

(بلا مباحثة التنفير) أي: لا تخُض في هذه النصوص- نصوص الصفات- بمباحثةٍ تؤدي إلى التنفير- أي: التفرق، والانحراف عن الحق والهدى-، (ولا مناسبة التنقير) وهو: التفتيش، والمراد بـــ(التنقير) هنا: التفتيش عن أمور لا مازال للعقل أن يدركها، ولا أن يحصلها كما سبق تنبيهه على ذلك.

(إلى أن قال: "فهو تبارك وتعالى القائل: أنا الله، لا الشجرة) يشير -رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الرد على المعطِّلة الذين يجحدون اتصاف الله ﷻ بصفة الكلام، ويقولون عن الخطاب الذي سمعه موسى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه]، يقولون: هذا الكلام خلقه الله في الشجرة، والشجرة هي التي تكلمت بذلك، ومعنى ذلك: أن الشجرة هي التي تقول وتدعو موسى هذه الدعوة: إنني أنا الله، وأن هذا القول سمعه موسى من الشجرة، وأنها هي التي تكلمت، والله خلق ذلك فيها، كل ذلك قالوه جحداً لوصْف الرب واتصافه بالكلام.

وكلما فرّوا من شيء وقعوا في شر منه؛ لّما قالوا: إن الشجرة هي التي قالت ذلك، إذا كانوا يقولون: إن الشجرة هي التي قالت ذلك فمعنى ذلك أنهم رضوا أن الشجرة نِد لله، تقول: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه]، فيقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرد عليهم: إن الله الذي قال: (أنا الله، لا الشجرة) كما قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤].

(الجائي قبل أن يكون جائياً لا أَمْرُه) تقدم أن الأَوْلَى أن يوصَف ﷻ بأنه لم يزل ولا يزال فعالاً لما يريد، يفعل ﷻ ما يشاء، قد مرّ معنا النقل عن الفضيل إذا قال لك الجهمي: أنا لا أؤمن برب يزول أو يحول من مكانه، فقل: إني أومن برب يفعل ما يشاء.

(لا أَمْرُه) وهذا فيه رد على المعطلة الذين يؤولون المجيء بمجيء الأمر، يقولون: وجاء ربك- أي: أمر ربك- جحداً منهم لهذه الصفة، قال: (لا أَمْرُه) فالكلام متصل.. (الجائي قبل أن يكون جائياً لا أَمْرُه) أي: لا أمره كما يقوله المؤولة.

(المتجلي لأوليائه في الميعاد) أي: الذي وعدهم ﷻ به، أنه ﷻ يتجلى لعباده فيرونه بأبصارهم حقيقةً.

(فتبيض به وجوههم) كما قال الله ﷻ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة].

(وتفلج به على الجاحدين حُجتهم) أي: يُغلَبون، ويظهر للجميع خسران هؤلاء العظيم، (وتفلج به على الجاحدين حُجتهم).

(المستوي على عرشه بعظمة جلاله فوق كل مكان - تبارك وتعالى-) قوله: (فوق كل مكان) المراد: أن العلو- علو الله ﷻ- فوق جميع المخلوقات، هذا هو المراد، أما الاستواء فهو على العرش، الاستواء على العرش كما قال الله ﷻ: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، ليس الاستواء على كل مكان، وإنما الاستواء على العرش، لكن المراد علو الله ﷻ وبينونته من الخلق، وأنه عَليٌّ عليهم، مستوٍ على عرشه المجيد استواءً يليق بجلاله وكماله ﷻ.

ويبقى كما قدمت النقل مع تقريره لمعتقد أهل السُّنة والجماعة في الجملة يبقى في الألفاظ، أو في بعض الألفاظ شيء من عدم الدقة في التقرير والبيان.

قال: (الذي كلم موسى تكليماً) كما قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤].

(وأراه من آياته) أي: أرى موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من آياته الكبرى.

(فسمع موسى كلام الله) أي: من الله، بلا واسطة.

(لأنه قرَّبه نَجياً، تقدس أن يكون كلامه مخلوقاً أو مُحدثاً أو مربوباً) على خلاف ما يقوله الجهمية من أن كلام الله ﷻ مخلوق- تعالى الله عمّا يقولون-.

(والوارث لخلقه) كما قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [مريم:٤٠]، فجميعهم يفنون ويهلكون إلا هو ﷻ يرث الأرض ومَنْ عليها.

(السميع لأصواتهم، الناظر بعينه إلى أجسادهم) لإثبات السمع وإثبات البصر.

(يداه مبسوطتان) ينفق كيف يشاء كما جاء بذلكم الحديث.

(وهما غير نعمته) هذا فيه رد على أهل التأويل الذين يقولون: المراد باليد: النعمة، ﴿يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] أي: نعمته! ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ [آل عمران:٢٦] أي: النعمة والفضل، ويجحدون ثبوت اليد صفةً لله، فيرد عليهم بقوله: (وهما غير نعمته) أي: هما صفتان حقيقيتان تليقان بالرب ﷻ.

(خلق آدم ونفخ فيه من روحه، وهو أَمْرُه تعالى وتقدس أن يحل بجسم، أو يُمازَج بجسم، أو يُلاصَق به- تعالى عن ذلك علواً كبيراً-) خلق آدم ونفخ فيه من روحه: المراد بالروح هنا الأرواح المخلوقة، وأضافها ﷻ إليه إضافة خلْق، وهذه الإضافة تقتضي التشريف، فهي روح من الأرواح المخلوقة بأمر الله ﷻ، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس].

قال: (تعالى وتقدس أن يحل بجسـم)؛ وهذا فيه رد على مَنْ جعل الروح صفة لله ﷻ، كما هو قول النصارى ومَنْ تأثّر بهم، فالروح جملة من المخلوقات وأضافها ﷻ إلى نفسه إضافة تشريف، مثل: بيت الله، وناقة الله، وأَمَة الله، وعبد الله، مثل ذلك أيضاً: روح الله، في قوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة:٩]، ولهذا قال: (تعالى وتقدس أن يحل بجسم، أو يُمازَج بجسم، أو يُلاصَق به- تعالى عن ذلك)؛ وهذا فيه الرد على الحلولية وإن كان التعبير ثَمَّ ما هو أَوْلَى منه، لكن المراد بكلامي هنا في الجملة: الرد على الحلولية من الجهمية وغيرهم ممَّنْ يقولون: إن الله- تعالى عمّا يقولون- حالٌّ في المخلوقات.

(الشائي له المشيئة، العالم له العلم، الباسط يديه بالرحمة، النازل كل ليلة إلى سماء الدنيا ليتقرب إليه خلقه بالعبادة، وليرغبوا إليه بالوسيلة) أي: كما في الحديث: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة فيقول: مَنْ يسألني فأُعطيه، مَنْ يدعوني فأستجيب له، مَنْ يستغفرني فأغفر له».

(القريب في قُربه من حبل الوريد، البعيد في عُلّوه من كل مكان بعيد، ولا يُشَبّه بالناس) أي: كما قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وقوله: (القريب في قُربه من حبل الوريد) جاء في الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق].

والقرب هنا على الصحيح من قول أهل العلم في معنى الآية: قرب الملائكة، كما يبينه ما بعده.. ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

(إلى أن قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ [فاطر:١٠]، القائل: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك]) وهاتان الآيتان ساقهما لما فيهما من إثبات العلو، وعرفنا أن علو الله دل عليه أنواع من الأدلة، فمن أنواع الأدلة صعود الكلم الطيب إليه، ومن أنواع الأدلة: إخباره عن نفسه تبارك وتعالى أنه في السماء.

(تعالى وتقدس أن يكون في الأرض كما هو في السماء جلَّ عن ذلك علواً كبيراً)؛ وهذا فيه الرد على الحلولية، أو مَنْ يقول: إن الله في كل مكان، تعالى الله عمّا يقولون، وسبحانه عمّا يصفون..

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات]

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبيّنا محمد، وآله وصحبه.

الدرس التاسع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول أبو العباس شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وغفر له وللشارح والسامعين وجميع المسلمين، قال في كتابه «الفتوى الحموية الكبرى»:

وقال الإمام أبو عبد الله الحارث بن إسماعيل بن أسد المحاسبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه المسمى «فهم القرآن» قال في كلامه على الناسخ والمنسوخ:

وأن النسخ لا يجوز في الأخبار قال: لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وأسمائه وصفاته يجوز أن يُنسخ منها شيء..

إلى أن قال: وكذلك لا يجوز إذا أخبر أن صفاته حسنة عُليا أن يُخبر بعد ذلك أنها دنية سُفلى؛ فيصف نفسه بأنه جاهل ببعض الغيب بعد أن أخبر أنه عالم بالغيب، وأنه لا يُبصر ما قد كان، ولا يسمع الأصوات، ولا قُدرة له، ولا يتكلم، ولا الكلام كان منه، وأنه تحت الأرض لا على العرش جل وعلا عن ذلك.

فإذا عرفت ذلك واستيقنته: علمت ما يجوز عليه النَّسخ وما لا يجوز، فإن تلوت آية في ظاهر تلاوتها تحسب أنها ناسخة لبعض أخباره كقوله عن فرعون: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ ﴾ [يونس:٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١]، وقال: قد تأول قوم: أن الله عنى أن ينجيه ببدنه من النار إذ قد آمن عند الغرق، وقالوا: إنما ذكر الله قوم فرعون يدخلون النار دونه وقال: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨]، وقال: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:٤٥]، ولم يقل بفرعون.

وقال: وهكذا الكذب على الله؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات]، كذلك قوله تعالى: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [العنكبوت:٣]، فأقر التلاوة على استئناف العلم من الله.. عز وجل عن أن يستأنف علماً بشيء؛ لأنه من ليس له علم بما يريد أن يصنعه لم يقدر عليه أن يصنعه – نجده ضرورة – قال: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك]، قال: وإنما قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ﴾ [محمد:٣١] إنما يريد حتى نراه فيكون معلوماً موجوداً؛ لأنه لا جائز أن يكون يعلم الشيء معدوماً من قبل أن يكون، ويعلمه موجوداً كان قد كان؛ فيعلم في وقت واحد معدوماً موجوداً وإن لم يكن وهذا المحال.

وذكر كلاماً في هذا في الإرادة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم إنّا نسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً مُتقبلاً، نسألك التوفيق لما تحب وترضى من سديد الأقوال وصالح الأعمال يا ذا الجلال والإكرام.

أما بعد..

هذا نقْل مُطوَّل نقله شيخ الإسلام ابن تيمية –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن أبي عبد الله الحارث المحاسبي نقلاً عن كتابه «فهْم القرآن»، وهذا الكتاب– «فهْم القرآن» كتبه المحاسبي تنبيهاً على كثير من الفهوم الخاطئة التي وُجدت في كتاب الله ﷻ، فهو في الأصل كتاب ردّ، كتاب يَرُدُّ فيه على كثير من الفهوم الخاطئة التي وُجدَت في كتاب الله ﷻ تحريفاً للنصوص أو فهْماً لها على غير وجهها وعلى غير بابها؛ ولهذا ترى في عباراته ما يغلب عليها جانب النقاش والرد، فهو ليس كتاب تقرير، وإنما كتاب مناقشة وردود.

وجزء من هذه الردود ولاسيما في الموضع الذي نقله شيخ الإسلام ابن تيمية مناقشات تتعلق بعلم الكلام، ومناقشة مثلاً الجهمية والمعتزلة وأيضاً الحلولية، وبعض الطوائف المنحرفة، كذلك أهل وحدة الوجود... إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة التي في هذا الباب، فيغلب على الكتاب هذا الجانب– جانب المناقشة–.

إضافةً إلى أن أبا عبد الله المحاسبي دخل في شيء من علم الكلام، وذمّه السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى على ذلك، وتأثر بشيء من كلام ابن كُلَّاب، والإمام أحمد هجره لأجل ذلك، وقيل: إنه تاب فيما بعد، ولهذا يوجد في كلامه- حتى الذي نقله شيخ الإسلام هنا- يوجد في كلامه أشياء ليست على الجادة- جادة أهل السُّنة والجماعة-.

وسبق أن قدّمت أن شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ينقل هذه النقول عن أصناف العلماء قصداً منه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في جمْع النقول في تقرير المعتقد- معتقد أهل السُّنة في الصفات- من حيث الجملة، وأيضاً فيما يتعلق بمسألة العُلو وإثبات العُلو لله؛ ولهذا سيأتي في آخر هذا النقل المُطوَّل عن المحاسبي تقريره لعُلو الله وإثباته لعُلو الله ﷻ بأنواع من الأدلة ساقها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مُثبتاً من خلاله عُلو الله ﷻ على خلقه.

وأيضاً يَرُدّ في الوقت نفسه على مَنْ يقول بخلاف ذلك من حلولية الجهمية وغيرهم من أهل الباطل والضلال- كما سيأتي معنا-.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال في كلامه على الناسخ والمنسوخ: وأن النسخ لا يجوز في الأخبار)؛ الأخبار- كما ذكر- لا يدخلها النسخ، وكلام الله ﷻ فيه أخبار وفيه أوامر ونواهي، والنسخ إنما يدخل في الأوامر والنواهي، يأمر سبحانه بأمر جل وعلا، ثم يأتي من كلامه ﷻ ما هو ناسخ له، أو ينهى عن شيء ثم يأتي من كلامه ما هو ناسخ له، فالأوامر والنواهي- الذي هو الإنشاء والطلب- هذه يدخلها النسخ. ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ [البقرة:١٠٦]، فهذا إنما هو في الأوامر والنواهي.

أما الأخبار فإنه لا يدخلها النسخ، ومن ذلكم العقائد؛ ولهذا العقيدة ليس فيها نسخ، وعقيدة الأنبياء من أولهم إلى آخرهم واحدة، لا يأتي نبي ينسخ عقيدة النبي للذي قبله، العقيدة واحدة لا يدخلها نسخ، وإنما الذي يدخله نسخ الأحكام والأوامر والنواهي، أما العقيدة لا نسخ فيها، مثل: الإيمان بالله، وأسمائه، وصفاته ﷻ، مثل الإيمان بالملائكة وأوصافهم، مثل: الإيمان بالأنبياء، الإيمان بالكتب، الإيمان باليوم الآخر.

يعني أُمَثِّل بمثال: مثلاً عدد أبواب الجنة ثمانية- ثمانية أبواب- فإذا أخبر نبي بأن هذا هو عدد أبواب الجنة هل يأتي ما ينسخ ذلك؟، أو مثلاً: من الملائكة جبريل، هل يأتي مَا ينسخ ذلك، ويقال: إنه ليس من الملائكة ملك اسمه جبريل؟.. هذه الأخبار لا يدخلها نسخ إطلاقاً، أمور العقائد وأمور الإيمان لا يدخلها نسخ؛ ولهذا قال النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «نحن الأنبياء أبناء علات، ديننا واحد، وأمهاتنا شتى» إشارة إلى اختلاف الشرائع والأحكام بين نبي وآخر، أما العقائد واحدة لا يدخل عليها نسْخ، لا في عقيدة النبي

الواحد ولا أيضاً بين نبي ونبي، فلا يدخلها نسْخ إطلاقاً وإنما الذي يدخله النسخ الأحكام والأوامر؛ فيقول: (أن النسخ لا يجوز في الأخبار).

ثم يبين ذلك، يقول: (لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وأسمائه وصفاته يجوز أن يُنسخ منها شيء) لماذا؟

لأن هذه كلها من هذا الباب- باب الإخبار- وباب الإخبار لا يدخلها نسخ، أسماء الله ﷻ، صفاته جل وعلا، ذِكْر عظمته وجلاله وكماله كل هذه الأمور ليست مما يدخله النسْخ.

(إلى أن قال: وكذلك لا يجوز إذا أخبر أن صفاته حسنة عُليا أن يُخبر بعد ذلك أنها دنية سُفلى؛ فيصف نفسه بأنه جاهل ببعض الغيب بعد أن أخبر أنه عالم بالغيب، وأنه لا يُبصر ما قد كان، ولا يسمع الأصوات، ولا قُدرة له، ولا يتكلم، ولا الكلام كان منه، وأنه تحت الأرض لا على العرش جل وعلا عن ذلك)؛ هذه أمثلة ساقها لبيان أن العقائد لا يدخلها نسْخ، والأمر أوضح من أن يُؤتَى بمثل هذه الأمثلة، بل المقام لا يليق أن يُؤتَى به بمثل هذه الأمثلة؛ إذ الأمر واضح وهذه الأمثلة التي ذكرها مثل قوله: (إذا أخبر أن صفاته حسنة عُليا أن يُخبر بعد ذلك أنها دنية سُفلى) هذا لا يليق ولا يصح حتى أن يُمَثَّل به لوضوح الأمر وبيانه وجلائه.

ولعل هذا مما أنكره عليه بعض السلف- ومنهم الإمام أحمد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- تَوَغُّله في الكلام، في المناقشات الكلامية يتوسع مثل هذا التوسع، ويذكر مثل هذه الألفاظ التي إما أن تكون ألفاظاً خاطئة، أو ألفاظاً لا حاجة إلى التعبير بها؛ إذ المقام أوضح، لكن مَنْ يدخل في علم الكلام يتوسع في العبارة توسُّعاً ممجوجاً ليس بمقبول، ومقام الله ﷻ أَجَلّ وأعظم ﷻ.

فباب الأسماء والصفات لا يدخله نسْخ، بمعنى: أنه لا يُثبَت لله اسم ثم يُنسَخ بعد ذلك، أو يُثبَت لله صفة ويُنسَخ بعد ذلك، هذا لا يكون، والعقيدة واحدة لدى الأنبياء لا تتغير ولا تتبدل، لا في عقيدة النبي الواحد ولا أيضاً بين نبي وآخر.

أما مثل هذه الأمثلة فعدم الإتيان بها هو الذي ينبغي؛ لأن الأمر واضح ولا يحتاج أن يُمَثَّل له بهذه الأمثلة.

قال: (فإذا عرفت ذلك واستيقنته: علمت ما يجوز عليه النَّسخ وما لا يجوز) ما يجوز عليه النسخ: هو باب الأحكام، والأوامر والنواهي، وما لا يجوز عليه النسخ: باب العقائد والأخبار.

(فإن تلوت آية في ظاهر تلاوتها تحسب أنها ناسخة لبعض أخباره كقوله عن فرعون: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ ﴾ [يونس:٩٠]) الآية.. وقوله: (﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [محمد:٣١]) فرعون أخبر الله ﷻ أنه أهلكه على كفره، أنه أهلكه ﷻ على كفره، فإذا قرأ مثلاً قارئ هذه الآية: (﴿ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ ﴾ [يونس:٩٠]) فهل هذا ناسخ لما أخبر الله عنه أنه مات وأهلكه على كفره؟ وأن الله ﷻ أذاقه نكال الآخرة والأولى، ومات على الكفر بالله ﷻ؟ هل هذا ناسخ لذلك؟

فيقول: إذا قرأت آية وحسبت أنها ناسخة لها، فتنبه! هذا المقام ليس فيه نسخ، لكن انظر إلى المعنى، وانظر إلى الفهم- فهْم القرآن، فهْم مدلول القرآن- فإن باب العقائد وباب الإخبار لا يدخله نسْخ.

أيضاً مثلها: (﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [محمد:٣١]) قوله: (حتى نعلم) ليست ناسخة للآيات التي فيها الإخبار عن الله ﷻ بأنه أحاط بكل شيء علماً، وأنه علم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنه ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [سبأ:٣] آيات كثيرة جداً، أنه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴾ [طه:٩٨]، و ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴾ [الجن:٢٨]، وأنه لا تخفى عليه خافية، فهذه الآية ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [محمد:٣١] ليست ناسخة لهذه الآيات، ليست ناسخة لها، لكن العلم المذكور هنا هو علم مخصوص يأتي بيانه فيما ذكره المحاسبي.

(قال: قد تأول قوم: أن الله عنى أن ينجيه ببدنه من النار)؛ وهذا من الفهوم الفاسدة التي يُنَبَّه على ما فيها من خطأ في كتابه هذا «فهْم القرآن»، قول الله ﷻ: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ [يونس:٩٢] قال بعض الضُّلّال من غلاة المتصوفة: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي: من النار، بينما المراد بالآية: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أن البحر الذي أغرقه الله فيه يلفظه، ويخرج خارج البحر، لا تأكله حيوانات البحر، وإنما يلفظه البحر، لماذا؟

ليكون لِمَنْ خلفه آية وعبرة وعِظَة.

فقالوا في قوله: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي: من النار! ويعتبرون أن هذا من الأمور الناسخة للآيات التي فيها إهلاك فرعون على الكفر.

(قال: قد تأول قوم: أن الله عنى أن ينجيه ببدنه من النار إذ قد آمن عند الغرق) ﴿قَالَ ءَامَنتُ ﴾ [يونس:٩٠]، قالوا: (إذ قد آمن عند الغرق)، هل هذا الإيمان الذي عند الغرق مُعتبَر؟

فرق بين الإيمان الذي هو إيمان بالغيب، والإيمان الذي هو إيمان الشهادة والمشاهدة والمعاينة؛ فالإيمان بالغيب هو المقبول، أما الإيمان الذي يكون عن مشاهدة ومعاينة للموت هذا لا يقبله الله..

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨] هذا لا يقبل الله توبته، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «تُقبَل توبة أحدكم ما لم يُغرغر»، فإذا حصلت المعاينة- معاينة الموت- وأعلن الإنسان إيمانه وتوبته فهذا إيمان مشاهدة؛ مشاهدة ملائكة الموت الذين جاءوا لانتزاع روحه وقبْض روحه لا يقبل الله إيمانه لأن هذا إيمان مُشاهدة، والإيمان الذي يُقبَل إنما هو إيمان الغيب كما قال الله ﷻ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ۝٣﴾ [البقرة] أما الذي يؤمن بالمشاهدة هذا لا يُقبل منه إيمانه.

فهذا الإيمان (﴿ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ﴾ [يونس:٩٠]) هذا الإيمان غير مقبول، هذا إيمان غير مقبول، ولا يكون بهذا قد آمن، لم يؤمن فرعون، ويقال عنه: إنه مات على كفره بالله، أما كلمة (﴿ءَامَنتُ﴾ [يونس:٩٠]) هذه ليست مقبولة، وليست إيماناً؛ لأنه ليس هذا هو الإيمان الذي طلبه أو أمر الله به، أو دعا عباده إليه، الإيمان الذي دعا الله إليه هو إيمان الغيب ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣]، أما هذه المعاينة للموت وأدركه الغرق فأعلن الإيمان فهذا إيمان غير مُعتبَر، وجوده كعدمه، كأنه لم يقل آمنت، وجوده كعدمه؛ ففرعون مات على الكفر بالله ﷻ.

قال: (قد تأول قوم: أن الله عنى أن ينجيه ببدنه من النار إذ قد آمن عند الغرق) قولهم: (إذ قد آمن عند الغرق) استناداً إلى (﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ [يونس:٩٠]) وهذا ليس إيمان كما قدمت.

(وقالوا: إنما ذكر الله قوم فرعون يدخلون النار دونه) انظروا المغالطات عند هؤلاء، كلها مغالطات من أجل إثبات إيمان فرعون، كلها مغالطات وفهوم وتحريف لكلام الله ﷻ من أجل إثبات إيمان فرعون.

قالوا: إن الله ذكر قومه (دخلون النار دونه وقال: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨]، وقال: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٥]، ولم يقل بفرعون) وهذه كلها من المغالطات والتحريف للكلم عن مواضعه على طريقة اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه.

(وقال: وهكذا الكذب على الله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾) أي: فرعون.. (﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾ [النازعات]) وهذا من أوضح ما يكون على أن فرعون مات على الكفر بالله ﷻ.

قال: (وكذلك قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [العنكبوت:٣]) هذه تتعلق بالموضع الآخر (﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١]) قال: (وكذلك قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٣]) قال: (فأقر التلاوة على استئناف العلم من الله ﷻ عن أن يستأنف علماً بشيء)؛ في كتابه «فهْم القرآن» بدل كلمة (فأقر) فظاهر التلاوة.. والعبارة أَوْلَى، فظاهر التلاوة.. مثلما قال فيما سبق: (فإن تلوت آية في ظاهر تلاوتها)، فهنا قال: فظاهر التلاوة على استئناف العلم من الله، ظاهر التلاوة على استئناف العلم من الله؛ يعني: حتى نعلم ظاهر هذه التلاوة أن هذا علم مُستأنف، معنى مستأنف: أي لم يكن معلوماً من قبل، هذا معنى مُستأنف؛ فظاهر التلاوة على استئناف العلم من الله..

ثم قال: (عز وجل عن أن يستأنف علماً بشيء) تنزّه الله عن ذلك، أن يستأنف علماً بشيء- أي: لم يكن يعلمه من قبل-.

إذاً قوله ﷻ في هذه الآية: (﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ [العنكبوت:٣]) وقوله في الآية الأولى: (﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد:٣١]) ولها نظائر كثيرة في القرآن، هل فهْم هذه الآية هو هذا الظاهر- أنه الاستئناف- استئناف لعلم لم يكن يعلمه ﷻ؟! حاشا وكلا، تنزه الله وتقدس عن ذلك؛ قال: (عز وجل عن أن يستأنف علماً بشيء).

قال: (لأنه من ليس له علم بما يريد أن يصنعه لم يقدر عليه أن يصنعه - نجده ضرورة-) يعني هذا من ضرورات وبدائه العقول أن مَنْ لا علم له بشيء يريد أن يصنعه لم يقدر على أن يصنعه.

(قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك])؛ هذه الآية ونظائرها فيها أن الله لا يستأنف علم شيء لم يكن يعلمه.

إذاً ما معنى هذه الآيات: (﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد:٣١]، ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت:٣]، (﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد:٣١]) ما معنى هذه الآيات؟

(قال: وإنما قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد:٣١] إنما يريد حتى نراه) وبهذا يُعلَم أن الآيات التي فيها إثبات العلم لله ﷻ **على نوعين**:

النوع الأول: إثبات العلم الأزلي المحيط، الشامل، الواسع، الذي وسع كل شيء وأحاط بكل شيء، يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنه أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً.

والنوع الثاني: آيات فيها إثبات العلم بالشيء موجوداً بعد خلْق الله ﷻ له، وهذا العلم هو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، كُفر الكافر الذي يُعاقَب عليه الكافر هو ما يعلمه الله منه بعد فعله له ووقوعه من

الكافر ومباشرته لأعمال الكفر، فليســت العقوبة على ما علمه الله منه أزلاً، وإنما على ما علمه واقعاً في حياة الكافر؛ ولهذا قال: (قال: وإنما قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد:٣١] إنما يريد حتى نراه)، وهذا التفسير الذي ذكره منقول عن ابن عباس وعن غيره من السلف: (حتى نعلم: حتى نراه)؛ المراد: حتى نراه أي: نعلمه موجوداً، حتى نعلمه: أي موجوداً واقعاً يراه ﷻ، فهذا هو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب.

إذاً هذه الآية: (﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد:٣١]) ليســت ناســخة للآيات التي فيها إحاطة علم الله ﷻ بكل شيء، وإنما العلم الذي هنا هو علم مخصــوص بمعنى أن قول: (﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد:٣١]) أي: نراه واقعاً، نراه موجوداً وهذا هو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، أن يُظهِر ﷻ الشيــء الذي أحاط به علمه في الأزل أن يُظهِره فيكون شيئاً موجوداً واقعاً، ثم يترتب عليه ثواب الله أو عقابه.

قال: (إنما يريد حتى نراه فيكون معلوماً موجوداً) لاحظ كلمة (موجوداً) حتى يكون معلوماً موجوداً.. قبل ذلك كان معلوماً لله ﷻ، أحاط بكل شيء علماً، يعلم ما كان وما سيكون لكنه ليس موجوداً، لم يوجد بعد، فالمراد: حتى نعلم أي: نعلمه موجوداً، ثم هذا العلم بالشيــء موجوداً هو الذي يترتب عليه ثواب الله أو عقابه ﷻ للعامل.

قال: (لأنه لا جائز أن يكون يعلم الشيــء معدوماً من قبل أن يكون، ويعلمه موجوداً كان قد كان؛ فيعلم في وقت واحد معدوماً موجوداً وإن لم يكن وهذا من المحال) لأن المحال الجمع بين النقيضــين، المحال هو الجمع بين النقيضين؛ فمحال أن يعلم الشيء موجوداً ومعدوماً في الوقت نفسه، هذا من المحال لأنه جمْع بين النقيضين، وتنزّه الرب ﷻ وتقدس عن ذلك.

ثم قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

إلى أن قال: وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥] ليس معناه أن يُحدِث له سمعاً، ولا تَكَلّف لسـمْع ما كان من قولهم، وقد ذهب قوم من أهل السُّنة أن لله اسـتماعاً حادثاً في ذاته، فذهبوا إلى أن ما يُعقَل من الخلق أنه يحدث منهم عِلْم سـمْع لما كان من قول؛ لأن المخلوق إذا سـمع حدث له عقْد فَهْم عما أدركته أذنه من الصوت.

وكذلك قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة:١٠٥] لا يسـتحدث بصرـاً مُحدَثاً في ذاته، وإنما يُحدِث الشيء فيراه مُكوناً كما لم يزل يعلم قبل كونه.

هذا كله- كما قدمت- من التكلف والدخول في العبارات التي هي من عبارات المتكلمين، وفيها من الوعورة ما فيها، والأمر في وضوحه وبيانه أوضح وأظهر من الإغراق في مثل هذه العبارات التي أغنى الله ﷻ عباده عنها وعن تكلفها في فهْم كلامه ﷻ، وكلام رسوله ﷺ.

والمتكلمون ما أصابوا فيه الحق وعرّوا الطريق إليه، وما لم يصيبوا فيه الحق جمعوا بين الوعورة والبُعد عن الحق، هذا عامة ما عند المتكلمين المتكلفين من تقريرات.

قال: (إلى أن قال: وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥])؛ هذه الآية معناها واضح وظاهر، وفيها إثبات هذه المعية، وأن الله ﷻ- وهو مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه- يسمع جميع الأصوات ﷻ، ويعلم بجميع الحركات والسكنات، لا تخفى عليه ﷻ خافية.

قال: (﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥] ليس معناه) يقول: (أن يَحْدُثَ له سمعاً) ليس معنى (﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥]) ليس معنى هذه الآية (أن يَحْدُثَ له سمعاً) يعني الكلام هنا نظير قوله فيما سبق: (﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد:٣١]) ليس معنى الآية هنا أنه يحدث له سمعاً، لم يكن متصفاً به ﷻ من قبل.

(ولا تَكَلّف لسمْع ما كان من قولهم) أيضاً ليس معنى قوله: (﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥]) أن هذا فيه تكلُّف مثلما يحصل من المخلوق عندما يريد أن يسمع ولاسيما الأصوات التي تكون بعيدة عنه، أو الأصوات المتداخلة يحتاج إلى تكلُّف حتى يسمع جيداً، فيقول: مقام الله أعز من ذلك- من أن يتكلف- فهو يسمع جميع الأصوات على تفنن الحاجات واختلاف اللغات، ولو قام الناس من أَوَّلهم إلى آخرهم، الإنس والجن من زمن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، لو قاموا أجمعين في صعيد واحد وفي لحظة واحدة، وكلهم دعوه في تلك اللحظة كلٌّ بلغته، وكُلٌّ يذكر حاجته، وكُلٌّ يطلب مسألته لسمعهم تبارك وتعالى أجمعين دون أن يختلط عليه صوت بصوت ولا لغة بلغة، ولا حاجة بحاجة كما قالت عائشة ﵂ لما نزل قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١] قالت: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات.

وفي الحديث القدسي يقول الله: «يا عبادي! لو أن أَوَّلكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك من مُلكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا غُمِس في البحر».

قال: (وقد ذهب قوم من أهل السُّنة أن لله استماعاً حادثاً في ذاته، فذهبوا إلى أن ما يُعقَل من الخلق أنه يحدث منهم عِلْم سمْع لما كان من قول) هكذا هنا، وفي كتابه «فهْم القرآن»: (إلا أن ما يُعقَل من الخلق أنه يحدث منهم عِلّة سمْع لما كان من قول)؛ (لأن المخلوق إذا سمع حدث له عقْد) وفي «فهْم القرآن»: (حدث له عقل)، (فَهِم عما أدركته أذنه من الصوت وكذلك قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة:١٠٥] لا يستحدث بصراً مُحْدَثاً في ذاته، وإنما يحدث الشيء فيراه مُكوناً كما لم يزل يعلم قبل كونه)؛ مراده بهذا الكلام، وما فيه أيضاً- كما قدمت- من وعورة: أن قوله: (﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ [التوبة:١٠٥])، وقوله: (﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥]) لا يلزم من هذه الآيات أنه لم يكن عالماً بذلك ومحيطاً علماً بذلك ﷻ؛ بل إن الرؤية هنا لما يراه مُكوَّناً موجوداً، عرفنا أن العلم نوعان: **علم أزلي**: محيط بكل شيء،

وعلم بالشيء موجود، وظاهر سياق المحاسبي هنا: أنه يسوي بين العلم وبين الرؤية والسمع، وهذا غلط، ظاهره أنه يسوي بين العلم وبين الرؤية والسمع، العلم مثلما تقدم علم أزلي، والنوع الآخر من العلم الذي دلّ عليه (﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد:٣١]) علم بالشيء موجوداً- كما تقدم- حتى نراه.

أما السمع والبصر فتعلُّقه آخر، تعلقه بالشيء المبصَر أو بالشيء المسموع، بالشيء المُبصَر وقت وجوده، والشيء المسموع، ليس القول فيه كالقول في العلم، فهنا يظهر- والله أعلم- خلط، وجاء ما يتعلق بـــــ.. تعلُّق السمع والبصر نظير تعلُّق العلم، مع أن الأمر مختلف كما سبق بيان ذلك.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إلى أن قال: "وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، وقال لعيسى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وذكر الآلهة: أن لو كان آلهة لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً إلى طلبه حيث هو فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى].. قال أبو عبد الله: فلن يُنسخ ذلك لهذا أبداً.

هذه الآيات كلها آيات فيها إثبات العلو – علو الله ﷻ–، وذكر آيات فيها تَنَوُّع الأدلة على إثبات علو الله، فمثلاً منها: إثبات الفوقية هذا نوع، وإثبات الاستواء هذا نوع، إثبات إن الله في السماء هذا نوع، إثبات أنه يصعد إليه الكلم الطيب هذا أيضاً نوع، إثبات أنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه– العروج هذا نوع–، تعرج الملائكة، الرفع–رفْع بعض المخلوقات إليه– (﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥] ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾ [النساء:١٥٨]) هذا نوع، (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٢٠٦]) هذا نوع من الأدلة على علو الله، إذا كان على قول مَنْ يقول: (في كل مكان) ما معنى عند ربك؟!، إذا كان على قول مَنْ يقول: (إن الله في كل مكان) ما معنى قوله: عند ربك؟! ما معنى هذا الاختصاص؟! (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٢٠٦])، (﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١]) ما معنى ذلك؟!؛ فهذا نوع من أنواع الأدلة.

كذلك قوله: (﴿لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ [الإسراء: ٤٢]) العرش الذي هو سقف المخلوقات وأعلاها، (﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ [الإسراء: ٤٢]) أي: المستوي على العرش ﷻ.

وقوله: (﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى]) هذا نوع، الأعلى اسم من أسماء الله، والعلي، والمتعال؛ هذه أسماء لله جلّ وعلا، دالة على عُلوه ذاتاً وقدراً وقهراً ﷻ.

فهذه أنواع للأدلة على العلو.

يقول المحاسبي: (فلن يُنسخ ذلك لهذا أبداً) لن يُنسَخ هذه عقائد وإخبارات عن الله ﷻ بعُلوّه، هذا لا يُنسَخ أبداً، فإذا جاءت آية في القرآن وفَهِمَ منها الإنسان خلاف ذلك هل يعدها ناسخة لآيات العلو؟ أو يتهم عقله وفهْمَه وسوء فهْمه لكتاب الله؟

فيذكر الآن أشياء أساء بعض الناس الفهم فيها، وظنوا أنها ناسخة لمثل هذه الآيات المثبتة لعُلو الله ﷻ.

قال:

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]

مَنْ يقولون: (الله في كل مكان) كثيراً ما يوردون هذه الآية: (﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤])، ومئات الآيات والأحاديث التي تثبت عُلو الله ﷻ كلها لا يلتفتون إليها، ويأخذون هذه الآية (﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]) ويفهمونها فَهْماً خاطئاً، يفهمونها فَهْماً مناقضاً لهذه الآيات، بينما هذه الآية معناها واضح وظاهر لِمَنْ يفهم كلام الله، قال: (﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]) الإله في اللغة: المعبود، هذا معناه، (﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]) أي: معبود في السماء تعبده الملائكة، ومعبود في الأرض يعبده ﷻ مَنْ شاء ومَنْ وفّقهم ﷻ من عباده ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، هذا معنى قوله: (﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]) أي: معبود في السماء ومعبود في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

أيضاً هذه الآية: (﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]) يستدلون بها على أن الله في كل مكان، مع أن الآية نفسها رَدٌّ عليهم كما سيأتي بيان ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣].

أيضاً هذه الآية يستدلون بها على أن الله في كل مكان (﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]) مع أن أيضاً معناها واضح، سواءً وصلنا أوّل الآية بقوله: (﴿يَعْلَمُ﴾ [الأنعام:٣]) أو لم نَصِل، فقوله: (﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الأنعام:٣]) بعدم الوصل مثل الآية التي قبل: (﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤])، (﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الأنعام:٣]) أي: المعبود في السموات والمعبود في الأرض، ثم جاء كلاماً آخر أُثبِت فيه علْم الله بكل شيء: (﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]) في السموات والأرض بعلمه واطلاعه، وأنه ﷻ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فليست هذه الآية بمعارِضة للآيات الكثيرة المُثبِتة لعُلو الله ﷻ على خلقه.

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧]، فليس هذا بناسخ لهذا ولا هذا ضد لذلك. (﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]) يأخذون هذه الآية (﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]) ويثبتون منها أن الله – تعالى عمّا يقولون – في كل مكان، ويُعطِّلون الآيات الكثيرة بالمئات التي تُثبت عُلو الله ﷻ على عرشه المجيد، وفوقيته سبحانه وتعالى.

فيقول –رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فليس هذا بناسخ لهذا) ما معنى: (ليس هذا بناسخ لهذا)؟

يعني هذه الآيات التي فَهِمَ منها أقوام فهْماً خاطئاً أنها تدل على أن الله في كل مكان ليست بناسخة للآيات التي تثبت عُلو الله، وقد ساقها قبل قليل، أو ساق جملة منها قبل قليل، فهي ليست ناسخة لها.

(فليس هذا بناسخ لهذا ولا هذا ضد لذلك) كلام جميل جداً، (فليس هذا بناسخ لهذا ولا هذا ضد لذالك) هذا ليس فيه تضاد، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

إذاً الخلل في فهوم هؤلاء، وضرْبهم للنصوص بعضها ببعض، فالخلل في فهومهم لا في كتاب الله تعالى وتنزّه أن يكون فيه تضارب أو تعارض أو تناقض.

قال –رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أن هذه الآيات ليس معناها أن الله أراد الكون بذاته، فيكون في أسفل الأشياء، أو يتنقل فيها لاستفالها، ويتبعض فيها على أقدارها، ويزول عنها عند فنائها جل وعز عن ذلك..

وقد نزع بذلك بعض أهل الضلال؛ فزعموا أن الله تعالى في كل شيء بنفسه كائناً كما هو على العرش; ولا فرق بين ذلك عندهم، ثم أحالوا في النفي بين تثبيت ما يجوز عليه في قولهم ما نفوه؛ لأن كل مَنْ يثبت شيئاً في المعنى ثم نفاه بالقول لم يُغنِ عنه نفْيه بلسانه واحتجوا بهذه الآيات أن الله تعالى في كل شيء بنفسه...(واحتجوا بهذه الآيات) أي: آيات المعية ومثل قوله: (﴿ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام:٣])، ومثل قوله: (﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤])

واحتجوا بهذه الآيات أن الله تعالى في كل شيء بنفسه كائناً، ثم نفوا معنى ما أثبتوا فقالوا: لا كالشيء في الشيء. يعني لمّا أثبتوا وأُورِدَت عليهم لوزام – ما يلزم أن يكون في الأخلية والأماكن القذرة وكذا وكذا– لما أُورِد عليهم قالوا: لا يكون (لا كالشيء في الشيء) يعني: لا يكون كالشيء المخلوق في الشيء المخلوق، وهذا تناقض، يعني بعد أن أثبتوا أنه في كل مكان، ليس في مكان دون مكان، وأُورِدَت عليهم تلك اللوازم

التي تُظهر شناعة عقيدتهم وفساد مذهبهم وبطلانه قالوا هذه الكلمة: (لا كالشيء في الشيء) يعني: لا كالشيء المخلوق في الشيء المخلوق، وهذا تناقض بيّن، والتناقض من أمارات فساد المذهب وبطلانه.

قال أبو عبد الله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ [محمد:٣١]، وقوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ [التوبة:١٠٥]، وقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥] فإنما معناه: حتى يكون الموجود، فيعلمه موجوداً، ويسمعه مسموعاً، ويبصره مُبصَراً لا على استحداث علم ولا سمع ولا بصر.

هذا مضى الكلام عنه قريباً.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ﴾ [الإسراء:١٦] إذا جاء وقت كون المراد فيه.

وإن قوله: ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٨]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك:١٦]، وقوله: ﴿إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء:٤٢]، فهذا وغيره مثل قوله: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٤]، وقوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر:١٠].. هذا منقطع يوجب أنه فوق العرش فوق الأشياء كلها مُنزَّه عن الدخول في خلقه، لا يخفى عليه منهم خافية؛ لأنه أبان في هذه الآيات أن ذاته بنفسه فوق عباده؛ لأنه قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] يعني فوق العرش والعرش فوق السماء؛ لأن مَنْ قد كان فوق كل شيء على السماء في السماء، وقد قال مثل ذلك قال: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التوبة:٢] يعني على الأرض؛ لا يريد الدخول في جوفها..

وكذلك قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١] يعني فوقها عليها.

وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] ثم فَصَلَ فقال: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك:١٦] ولم يَصِل، فلم يكن لذلك معنى - إذ فَصَل بقوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] ثم استأنف التخويف بالخسف - إلا أنه على عرشه فوق السماء.

وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة:٥]، وقال: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٤] فبيّن عروج الأمر وعروج الملائكة، ثم وصف وقت صعودها بالارتفاع صاعدة إليه فقال: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج:٤] فقال: (صعودها إليه)، وفصله من قوله: (إليه) كقول القائل: أصعد إلى فلان في ليلة أو يوم، وذلك أنه في العلو وإن صعودك إليه في يوم فإذا صعدوا إلى

العرش فقد صعدوا إلى الله ﷻ وإن كانوا لم يروه ولم يساووه في الارتفاع في علوه فإنهم صعدوا من الأرض وعرجوا بالأمر إلى العلو قال الله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء:١٥٨] ولم يقل: عنده.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ٣٧﴾ [غافر] ثم استأنف الكلام فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر:٣٧] فيما قال لي إن إلهه فوق السموات. فبيّن الله سبحانه أن فرعون ظن بموسى أنه كاذب فيما قال: وعمد لطلبه حيث قاله مع الظن بموسى أنه كاذب ولو أن موسى قال: إنه في كل مكان بذاته لطلبه في بيته أو بدنه أو حشه، فتعالى الله عن ذلك ولم يُجهد نفسه ببيان الصرح.

هذه الآيات تقدم ذِكْره لها لكنه أعاد ذِكْرها مرة أخرى مُبيِّناً وجه دلالتها على العلو، ومُوضحاً معانيها، والكلام الذي ذكره في توضيح معاني هذه الآيات الدالة على أنواع العُلو واضحة، سواءً آيات الاستواء أو الآيات التي فيها العروج ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، وبيّن أن في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] بمعنى على السماء، وذكر لذلك نظائر، مثل: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١] أي: على جذوع النخل، هذا له نظائر، في السماء: أي: على السماء..

«ارحموا مَنْ في الأرض» ما المراد بها؟ هل هي خاصة بما في باطن الأرض من ديدان وحشرات لا تشمل مَنْ يمشي على ظهرها؟ «ارحموا مَنْ في الأرض» لو قائل: (في) تفيد الظرفية، الحديث لا يتناول كل مَنْ يمشي فوق الأرض، فقط الذي يُرحَم مَنْ هو بباطن الأرض لأن (في) تفيد الظرفية، هل يُعتبَر هذا فهْمه فهْماً صحيحاً، يقول: (في) تفيد الظرفية، والنبي ﷺ قال: «ارحموا مَنْ في الأرض» لا تشمل رحمة مَنْ فوق الأرض، لأن الحديث «ارحموا مَنْ في الأرض» ما أحد يقول ذلك، «ارحموا مَنْ في الأرض» (في) بمعنى (على)، «مَنْ في الأرض» أي: على الأرض، «يرحمكم مَنْ في السماء» أَوّل الحديث يوضح آخره، «يرحمكم مَنْ في السماء» أي: يرحمكم مَنْ على السماء، فـ (في) بمعنى (على).

وهكذا الآيات التي ذكر كلها قرر أو بيّن من خلالها وضوح دلالتها على عُلو الله ﷻ.

ثم رجع للآيات التي يظنونها معارضة لآيات العُلو، وأخذ يُبين ما تدل عليه.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-:

قال أبو عبد الله: وأما الآية التي يزعمون أنها قد وصلها - ولم يقطعها كما قطع الكلام الذي أراد به أنه على عرشه - فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المجادلة:٧] فأخبر بالعلم، ثم أخبر أنه مع كل مناج، ثم ختم الآية بالعلم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]؛ فبدأ بالعلم وختم بالعلم: فبيّن أنه أراد أنه يَعلَمهم حيث كانوا، لا يخفون عليه، ولا يخفى عليه مناجاتهم، ولو اجتمع القوم في أسفل وناظر إليهم في العلو، فقال: إني لم أزل أراكم وأعلم مناجاتكم لكان صادقاً - ولله المثل الأعلى أن يُشبه الخلق - فإن أبوا إلا ظاهر التلاوة وقالوا: هذا منكم دعوى خرجوا عن قولهم في ظاهر التلاوة؛ لأن مَنْ هو مع الاثنين أو أكثر؛ هو معهم لا فيهم، ومَنْ كان مع الشيء فقد خلا منه جسمه وهذا خروج من قولهم.

هذا الآن آية من الآيات التي يدّعون أنها تدل على أن الله في كل مكان، ويعارضون بها آيات العلو، يعتبرونها ناسخة لها مثل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة] فَهُم أخذوا وسط الآية.. ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧] وقالوا: المراد أنه هو بذاته في كل مكان، وجعلوا هذه الآية معارضة للآيات الكثيرة التي تقرر علو الله ﷻ على عرشه المجيد.

فيقول في الرد عليهم: إن الله بدأ بالعلم وختم بالعلم، و(مع) في لغة العرب تفيد مُطلَق المصاحبة وهي في كل موضع بحسبه، ألست تقول: سافرنا والقمر معنا؟ والقمر في السماء وأنت في الأرض!!؛ فـ(في) المعية هي مطلق المصاحبة، وهي في كل موضع بحسبه..

يقول القائل: فلان مع زوجته، أي: في عصمته لم يطلقها ويكون هو في بلد وهي في بلد آخر، فـ(مع) تفيد مطلق المصاحبة لكنها في كل موضع بحسبه.

إذاً قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧] كيف نفهم الآية؟ هل يمكن أن نفهمها بتجريدها عن السياق واللحاق؟

لا بد أن تُضم إلى ما قبله وما بعده حتى تُفهَم، ولهذا قال: بدأ الخبر بالعلم وختمه بالعلم، يعني بدأ الآية بالعلم وختم الآية بالعلم، فأفاد أن المعية المراد بها ماذا؟ العلم، فمعنى ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾

....

[المجادلة: ٧] أي: بعلمه ﷻ، فالمعية هنا المراد بها: العلم، من أين أخذنا ذلك؟.. من السياق نفسه؛ لأن الخبر بُدِئ بالعلم وخُتِم بالعلم.

وهذا الذي قاله المحاسبي قاله أهل العلم من قبله، الإمام أحمد وغيره قالوا: بدأ- في ردهم على الجهمية- قالوا: بدأ الخبر بالعلم وختمه بالعلم.

ولهذا بإجماع السلف قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] أي: بعلمه، بإجماع السلف- أي: بعلمه-، وحكى الإجماع غير واحد من أهل العلم، وهذا هو الذي دل عليه سياق الآية، وسباقها ولحاقها.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]؛ لأن ما قرب من الشيء ليس هو في الشيء، ففي ظاهر التلاوة على دعواهم أنه ليس في حبل الوريد.

أيضاً هذا رد عليهم في فهْمهم الآية: (﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]) يستدلون بها على أن في كل مكان، فيقول: ليست فيها دلالة.

طبعاً الآية.. من أهل العلم مَنْ قال: (﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ [ق:١٦]) أي: الله أقرب، والمراد بالقرب هنا: القرب العام، مثل المعية العامة، لكن الذي حققه شيخ الإسلام أن القرب لا يكون إلا خاصاً، وأن المراد بقوله: (﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]) أي: بملائكتنا بدلالة قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق:١٧] فيكون نظير: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة] أي: قرأه جبريل، مثل قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ [الجاثية:٢٩] أي: تستنسخ الملائكة، يضيف إلى نفسه سبحانه ما تفعله ملائكته بأمره جل وعلا.

ويقول أيضاً في الرد عليهم: (ففي ظاهر التلاوة على دعواهم) دعواهم ماذا؟

أن قوله: (﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]) أنه في كل مكان؛ هذه دعواهم، فيكون ظاهر التلاوة على دعواهم أنه ليس في حبل الوريد، هم يقولون: في كل مكان، ومن هذه الأمكنة حبل الوريد، فيقول: ظاهر التلاوة أنه ليس في حبل الوريد.. أقرب، (﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]) ما قال: في حبل الوريد، فظاهر التلاوة أيضاً رد عليهم في فهْمهم أن الله- تعالى عمّا يقولون- في كل مكان.

فلو قال قائل: (الله في كل مكان) والدليل: (﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]) يقال له: لم يقل: في حبل الوريد حتى تقول: في كل مكان، الآية ظاهرها التي تستدل بها ليس فيها دليل لك، بل هي دليل عليك.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤] لم يقل: في السماء ثم قطع -كما قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦] ثم قطع فقال: ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ [الملك:١٦]- فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤] إله أهل السماء وإله أهل الأرض.

(إله أهل السماء وإله أهل الأرض) أي: معبود مَنْ في السماء، ومعبود مَنْ في الأرض، هذا معناها.

وذلك موجود في "اللغة" تقول: فلان أمير في خراسان، وأمير في بلخ، وأمير في سمرقند؛ وإنما هو في موضع واحد، ويخفى عليه ما وراءه فكيف العالي فوق الأشياء لا يخفى عليه شيء من الأشياء يدبره، فهو إله فيهما إذ كان مدبراً لهما، وهو على عرشه فوق كل شيء تعالى عن الأشباه والأمثال.

الواضح أن قوله: (﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]) على معناها فيما تدل عليه اللغة وهو أن الإله هو المعبود، (﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]) أي: معبود مَنْ في السماء، ومعبود مَنْ في الأرض، تعبده الملائكة في السماء، ويعبده أيضاً في الأرض مَنْ وفّقهم الله ﷻ، ويسّر لهم عبادته.

انتهى ما نقله شيخ الإسلام -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عن أبي عبد الله الحارث المحاسبي، وأعتذر اليوم عن الإطالة من أجل أن نُكمِل النقل بتمامه، وأسأل الله ﷻ أن يوفقنا للعلم النافع، والعمل الصالح.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

برنامج
دراسة متون
العقيدة
(المستوى الثالث)
@mton_aqeda3

شرح الفتوى الحموية الكبرى

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله

من الدرس (٢٠) إلى الدرس (٢٣)

الشيخ لم يراجع التفريغ

الدرس العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات» قال في آخر خطبته:

فاتفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيد الله ﷻ ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه قولاً واحداً، وشرعاً ظاهراً، وهم الذين نقلوا عن رسول الله ﷺ ذلك حتى قال: «عليكم بسنتي» وذكر الحديث، وحديث: «لعن الله مَنْ أحدث حدثاً أو آوى مُحدِثاً»، وقال: فكانت كلمة الصحابة على اتفاق من غير اختلاف - وهم الذين أُمِرْنا بالأخذ عنهم إذ لم يختلفوا- بحمد الله تعالى- في أحكام التوحيد وأصول الدين من "الأسماء والصفات" كما اختلفوا في الفروع، ولو كان منهم في ذلك اختلاف لنُقِل إلينا كما نُقِلَ سائر الاختلاف - فاستقر صحة ذلك عن خاصتهم وعامتهم حتى أدوا إلى التابعين لهم بإحسان، فاستقر صحة ذلك عند العلماء المعروفين حتى نقلوا ذلك قرناً بعد قرن؛ لأن الاختلاف كان في الأصل عندهم كفر ولله المنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

فهذا نقْل آخر ينقله شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في جملة ما ينقل عن المتقدمين باختلاف أنواعهم من عهد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين لهم بإحسان فيما ينقلوه عن أئمة السلف من الصحابة والتابعين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

وهذا النقْل عن أبي عبد الله محمد بن خفيف، وهذا كان من العلماء وكان أيضاً له كتب كثيرة حتى إنه قيل في ترجمته: إنه كتب من الكتب ما لم يُصنِّف أحد مثله من كثرة ما كتب، وعُمِّر حتى جاوز عمره المائة،

وكان كثير العبادة، وأيضاً عنده شيء من التصوف، لكنه في باب الأسماء والصفات- وهذا أمر أشرنا إليه- أن كثير من هؤلاء كانوا في الجملة على جادة أهل السُّنة والجماعة وطريقتهم، ونقْل شيخ الإسلام عنهم هنا لا يلزم منه إقرار كل ما يُنقَل عنهم في جميع أبواب الدين.

وهذا النقل نقْل عن كتابه «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات» (قال في آخر خطبته: فاتفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيد الله ﷻ ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه قولاً واحداً، وشرعاً ظاهراً، وهم الذين نقلوا عن رسول الله ﷺ ذلك حتى قال: «عليكم بسُنتي») «وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدثات الأمور، فإن كل مُحدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»، وأورد أيضاً حديث («لعن الله مَنْ أحدث حدثاً أو آوى مُحدِثاً»).

(قال: فكانت كلمة الصحابة على اتفاق من غير اختلاف)؛ وهذه فائدة ثمينة، الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلمتهم واحدة، ليس بينهم اختلاف في أسماء الله وصفاته، وفي العقيدة عموماً، وإنما إن وُجِد من الاختلاف فإنما هو في الفروع والأحكام وتفاصيل الشرائع، أما أصول الاعتقاد ليس بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خلاف في شيء منها، اتفقوا من غير اختلاف.

(وهم الذين أُمِرْنا بالأخذ عنهم إذ لم يختلفوا- بحمد الله- في أحكام التوحيد وأصول الدين من "الأسماء والصفات" كما اختلفوا في الفروع) أي: أن الخلاف الذي وُجِد بين الصحابة هو خلاف في الفروع وتفاصيل أحكام الشريعة، أما أصول الدين وأصول الاعتقاد فكلمتهم فيه واحدة من غير اختلاف.

(ولو كان منهم في ذلك اختلاف لنُقِل إلينا كما نُقِلَ سائر الاختلاف) الدليل على ذلك أن كلمة الصحابة واحدة في الاعتقاد وأنهم لم يختلفوا هو: أنه لو كان بينهم اختلاف لنُقِل مثلما نُقِل الاختلاف الذي بينهم في الأحكام، تجد مثلاً: الأحكام يُنقَل الخلاف الذي بين الصحابة، وأمور الاعتقاد لا تجد شيء يُنقَل عن الصحابة يشير إلى خلاف بينهم في أمور العقيدة؛ مما يدل على ما ذكره المصنف، أو ما ذكره المنقول عنه: ابن خفيف؛ وهو: أن أمور الاعتقاد الأمر فيها مُتَّفَق عليه بين الصحابة لا خلاف بينهم في ذلك.

قال: (فاستقر صحة ذلك عن خاصتهم وعامتهم) استقر أمْر ذلك- أي: أمر الاتفاق في أمور الاعتقاد وعدم الاختلاف- استقر أمْر (ذلك عن خاصتهم وعامتهم) أي: عن الصحابة عموماً، وعن الصحابة المشهورين المعروفين المُكثِرين من النقل، المعروفين مثلاً بالفقه والتفقه أو نحو ذلك عن خاصة الصحابة،

ومن أعظم مَنْ يدخل في خاصة الصحابة: الأربعة الراشدين كما قال عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ: «عليكم بسُنتي، وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها».

(حتى أدوا إلى التابعين لهم بإحسان) ولسان حال الصحابة يقول: هذا ما أدى إلينا رسول الله ﷺ ونحن نؤديه لكم كما سمعناه منه، وننقله لكم كما جاءنا؛ فكان لهم رَضِيَ‌ٱللَّهُ‌عَنْهُمْ وأرضاهم النصيب الأوفر والحظ الأكمل من قول النبي ﷺ: «نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فحفظها فأداها كما سمعها».

قال: (فاستقر صحة ذلك عند العلماء المعروفين حتى نقلوا ذلك قرناً بعد قرن)؛ وهذا من نعمة الله ﷻ بحفظ هذا الدين؛ حيث قيّض الله له ﷻ حَمَلَةً عُدولاً، ونَقَلة ثِقات، كل قرن ينقله للقرن الذي بعده بأمانة ووفاء.

قال: (لأن الاختلاف كان في الأصل عندهم كفر ولله المنة) أي: على ما قيّضه ويَسَّره من حِفْظ لهذا الدين، وتوفيق لهؤلاء الصفوة الأخيار في نقْل هذا الدين قرناً بعد قرن.

نظير قوله في أن الصحابة ليس بينهم أي خلاف في أمور الاعتقاد- أمور الأسماء والصفات- يقول ابن القيم- كما في كتابه «إعلام الموقعين»-: وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين، وأكمل الأُمة إيماناً، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال؛ بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسُّنة كلمة واحدة من أوّلهم إلى آخرهم.

قال -رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ تعالى:

ثم إني قائل - وبالله أقول -: إنه لما أحدثوا في أحكام التوحيد وذِكْر الأسماء والصفات على خلاف منهج المتقدمين من الصحابة والتابعين، فخاض في ذلك مَنْ لم يُعرَفوا بعلم الآثار، ولم يعقلوا قولهم بذِكْر الأخبار، وصار مُعَوَّلهم على أحكام هواجس النفوس المستخرجة من سوء الطوية، وما وافق على مخالفة السُّنة، والتعلق منهم بآيات لم يسعدهم فيها، فتأولوا على أهوائهم، وصححوا بذلك مذاهبهم: احتجت إلى الكشف عن صفة المتقدمين ومأخذ المؤمنين ومنهاج الأولين؛ خوفاً من الوقوع في جملة أقاويلهم التي حذّر رسول الله ﷺ أُمّته، ومنع المستجيبين له حتى حذرهم.

ثم ذكر أبو عبد الله خروج النبي ﷺ وهم يتنازعون في القدر وغضبه وحديث: «لا أُلْفِيَن أحدكم متكئاً على أريكته»، وحديث: «ستفترق أُمّتي على ثلاث وسبعين فرقة»، وأن الناجية ما كان عليه هو وأصحابه؛ ثم قال: فلزم الأُمة قاطبة معرفة ما كان عليه الصحابة ولم يكن الوصول إليه إلا من جهة التابعين لهم

بإحسان المعروفين بنقْل الأخبار ممَّن لا يقبل المذاهب المحدثَة، فيتصل ذلك قرناً بعد قرن ممَّنْ عُرِفوا بالعدالة والأمانة الحافظين على الأُمّة ما لهم وما عليهم من إثبات السنة.

هذا كلام عظيم جداً أوضح -رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى من خلاله سبب تأليفه لكتابه الذي سماه «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات».

قال -رَحِمَهُٱللَّهُ: (لما أحدثوا في أحكام التوحيد وذِكْر الأسماء والصفات على خلاف منهج المتقدمين من الصحابة والتابعين، فخاض في ذلك مَنْ لم يُعرَفوا بعلم الآثار، ولم يعقلوا قولهم بذِكْر الأخبار) أي: لمّا وُجِد أناس خاضوا في أمور العقيدة وأصول الديانة من غير أن يبنوا ذلك على الكتاب والسُّنة والمنقول عن النبي ﷺ ، وذلك أنهم (لم يُعرَفوا بعلم الآثار) يعني لم يُعرَف منهم عناية بعلم الآثار- الآثار المروية عن النبي ﷺ، وعن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وأرضاهم- لم يُعرَف لهم عناية بذلك، (ولم يعقلوا قولهم بذِكْر الأخبار) ومعنى (لم يعقلوا قولهم) أي: لم يُقيّدوه ويجعلوا له عِقالاً- قيداً- بحيث لا يتكلم الإنسان إلا بدليل، ولا يقول إلا بمستند من كتاب الله وسُنة نبيّه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

(ولم يعقلوا قولهم بذِكْر الأخبار، وصار مُعَوَّلهم) أي: مُعتَمدهم ومستندهم (على أحكام هواجس النفوس المستخرجة من سوء الطوية) وهذه كلمة عظيمة-والله- في بيان كيف تنبت العقيدة الباطلة، وذلك أن العقائد التي بين الناس على قسمين: عقائد نازلة، وعقائد نابتة، لا تخرج عن.. العقائد التي بين الناس عن هذين القسمين؛

عقائد نازلة: أي نزل فيها وحي من الله، ويُعرَف صاحب هذه العقيدة بأنه إذا قال قولاً في الاعتقاد ذكر دليله، إما من الكتاب أو من السُّنة: نعتقد كذا لقول الله تعالى كذا، ونعتقد كذا لقول رسول الله ﷺ كذا، فهذه أمارة أهل العقائد أو العقيدة النازلة- أي: التي نزل بها وحي-.

والنوع الثاني من العقائد الموجودة بين الناس تُوصَف بأنها عقائد نابتة: ومعنى نابتة: أي نبتت في الأرض، ونشأت في الأرض، وأحدثها الناس.

وقد كانت من طريقة الأنبياء في إبطال ما لدى الناس من عقائد نبتت عندهم وأحدثوها: بإخبارهم أن تلك العقائد ما أنزل الله بها من سلطان، كقول يوسف عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ٤٠﴾ [يوسف].

وما جاء في سورة النجم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم]

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم]..

ولهذا يمكن أن يقال: كل عقيدة نابتة فهي باطلة، كل عقيدة نابتة.. كل عقيدة نبتت ونشأت في الأرض لم ينزل بها وحي من الله عندما يقررها صاحبها لا يستند على دليل من الكتاب والسُّنة فهي باطلة، وما أكثر العقائد الباطلة التي بين الناس! التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان، فكل عقيدة لم ينزل بها سلطان- أي: حُجة، السلطان: هو الحُجة- لم ينزل بها سلطان فهي باطلة، ولا يصح من العقائد- عقائد الناس- إلا ما نزل به سلطان- أي: وحي من الله ﷻ-.

انظر كلامه العجيب!

يقول: (وصار مُعَوَّلهم) أي: في هذه العقائد التي نبتت بينهم ونشأت، (صار مُعَوَّلهم على أحكام هواجس النفوس) هواجس النفوس: أي الخطرات، خطرات القلوب وما يجول في النفوس من آراء أو أفكار أو غير ذلك، وكثير من ذلك وساوس من الشيطان.

(هواجس النفوس المستخرجة من سوء الطوية) وهذا أيضاً تنبيه له أهميته؛ لأن سلامة الطوية- أي: القلب- بالاعتماد على الله وصِدْق اللجوء إليه، والاهتداء بهداه، والإلحاح عليه ﷻ بالدعاء صِدْقاً، (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، عالم الغيب والشهادة، فاطر السموات والأرض، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي مَنْ تشاء إلى صراط مستقيم)، سلامة الطوية في النُّصح والصدق، والتحري، عدم اتباع الأهواء- أهواء النفوس- تكون به بإذن الله تبارك وتعالى السلامة والوقوف على الحق والهُدى، فهؤلاء اعتمدوا على (هواجس النفوس المستخرجة من سوء الطوية، وما وافق على مخالفة السُّنة).

قال: (والتعلق منهم بآيات لم يسعدهم فيها) أي: لم يسعدهم التوفيق وحُسْن الفهم لكلام الله ﷻ (فيها) أي: تلك الآيات التي تكلموا في معانيها (فتأولوا على أهوائهم)، وهؤلاء مشكلتهم من جهة أن الواحد منهم يعتقد أولاً ثم يستدل، يعتقد أولاً من خلال تصوره العقلي، من خلال آرائه، من خلال منطقياته، من خلال فِكْره، أو ذوقه، أو غير ذلك من الأمور، ثم يستدل، فماذا يكون عندما يريد أن يستدل؟.. تجده يلوي النصوص ويعمل على تطويع النصوص لتكون دليلاً على هذا الاعتقاد الذي توصل إليه قبل.

والأصل: أن يأتي الإنسان إلى الوحي، وأن يُقبِل على الوحي مستمداً مباشرة منه المعتقد.

قال: (فتأولوا على أهوائهم، وصححوا بذلك مذاهبهم)؛ (وصححوا بذلك مذاهبهم) أي: الباطلة القائمة على ما استُخرِج من النفوس وأهوائها، وحاولوا تطويع النصوص وتأويل النصوص لتكون دليلاً لتلك الأهواء وتلك الآراء من أجل أن يُصححوا بذلك مذاهبهم.

يقول: لما كان الأمر بهذه الصفة (احتجت إلى الكشف عن صفة المتقدمين ومأخذ المؤمنين منهاج الأولين) وهذا يوضح لنا سبب تأليفه ومقصوده من هذا الكتاب، وأنه لما وُجِدت هذه الاختلافات أراد أن يُبرِز للناس عقيدة السلف الصالح رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ.. لماذا؟..

قال: (خوفاً من الوقوع في جملة أقاويلهم التي حذّر رسول الله ﷺ أُمّته، ومنع المستجيبين له حتى حذرهم)؛ هذا هو سبب تأليفه: الخوف على الناس من جملة تلك الأقاويل الباطلة القائمة على الفكر القاصر وهواجس النفوس وخطرات الصدور.

وإذا أحدهم شيئاً من النصوص فإنما يذكره ليُطوِّع النص ليكون دليلاً على رأيه أو ما توصل إليه من مذهب بفكره وعقله.

(ثم ذكر أبو عبد الله) محمد بن خفيف (خروج النبي ﷺ وهم يتنازعون في القدر) وأغضبه، كما في الحديث- حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ في ذِكْر خروج النبي ﷺ على أصحابه وهم يتخاصمون في القدر، فخرج عليهم عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ كأنما فُقِئ في وجهه حب الرمان، وهذا إنما يكون من شدة الغضب، ونبيّنا عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ إنما يغضب ويشتد غضبه إذا انتُهِكَت حُرمات الله وهو كما وصفت عائشة: كان لا يغضب، وإذا انتُهِكَت حُرمات الله لم يقم لغضبه شيء صلوات الله وسلامه عليه، فقال لهم: «بهذا أُمِرتم ولهذا خُلقتم، تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلكم»، فحذَّر عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ من ذلك.

ولهذا جاء عنه في الحديث الآخر: «إذا ذُكِر القدر فأمسكوا» والمراد: إذا ذُكِر القدر بالحديث عنه بالرأي والعقل والهواجس- هواجس الصدور- هذا لا يجوز أن يخوض المرء في أمور القدر، القدر سر الله ﷻ، لا يجوز للإنسان أن يدخل بفكره أو هواجسه أو عقله في أمور القدر بهذه الطريقة، وهذا معنى قوله: «إذا ذُكِر القدر فأمسكوا».

لكن إذا ذُكِر القدر استناداً إلى الأدلة بحيث يتكلم العالم عن مسائل القدر مسألة مسألة بالدليل، هذا يُمسَك عنه؟ هل يتناوله قول النبي ﷺ: «إذا ذُكِر القدر فأمسكوا»؟

لا يتناوله، وإنما المراد بالخوض فيه بالباطل أو بالأسئلة الاعتراضية على الله والله يقول: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء:٢٣]، أو بالدخول في مسائل القدر بالرأي المجرد والفكر القاصر والهواجس -هواجس النفوس- التي لا يتولد عنها إلا العقائد الباطلة.

ثم أورد حديث النبي ﷺ أنه قال: « لا أُلْفِيَن » أي: لا أجدنّ (أحدكم متكئاً على أريكته) والأريكة: هو ما يجلس عليه الإنسان ويتكئ عليه من فراش أو نحوه.

قال: («لا أُلْفِيَن أحدكم متكئاً على أريكته) «يأتيه الأمر من أمري -مما أمرتُ به أو نهيت- فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»، وقد وُجِد طائفة سموا أنفسهم بالقرآنيين، وقالوا: نحن لا نقبل إلا الذي جاء في القرآن فقط، وما سوى ذلك لا نقبله، وردّوا أحاديث النبي ﷺ جُملةً وتفصيلاً.

والحقيقة: أن هؤلاء لا تصح نسبتهم للقرآن، ليسوا من أهل القرآن، هؤلاء ليسوا من أهل القرآن، هؤلاء من أبعد الناس عن القرآن؛ لأنهم لو كانوا من أهل القرآن لما ردّوا سُنة النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أين العمل بالقرآن، وفي القرآن آيات كثيرة فيها الأمر بطاعة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مقرونة بطاعة الله؟! أين العمل بالقرآن والله يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥]؟! أين العمل بالقرآن والله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]؟! أين العمل بالقرآن والله يقول: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب:٣٤] -أي: السُّنة-؟!.. والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

فهؤلاء أهل ضلال وليسوا من أهل القرآن الذين هم أهل الله ﷻ وخاصته.

وأورد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث: (ستفترق) هذه الأُمة («ستفترق أُمّتي على ثلاث وسبعين فرقة»)، وأن الناجية ما كان عليه هو وأصحابه)؛ لأن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فِرْقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فِرْقة، وستفترق أُمتي على ثلاث وسبعين فِرقة»، وهذا الافتراق في الأهواء، كُلٌّ منهم اتبع هواه، ولو اعتصموا بحبل الله ﷻ لسلموا من هذا الافتراق.

ولهذا؛ فإن الأهواء أعظم أسباب الافتراق -افتراق الأُمة-، قال: «وستفترق هذه الأُمة على ثلاث وسبعين فِرقة كلها في النار»؛

وقوله: «كلها في النار» هذا وعيد، شأنه شأن نصوص الوعيد الأخرى، والمراد بقوله: «أُمتي» أي: أُمة الإجابة، أي: مَنْ استجابوا لي، فلا يدخل في ذلك مَنْ كان كافراً بالله ﷻ، وإنما يدخل في ذلك مَنْ وقعوا في شيء من الأهواء، ولا يكون بها خارجاً من الملة، ولهذا قال: «أمتي» أي: أُمة الاستجابة.

وقوله: «كلها في النار» هذا وعيد، ووقوع هذا الوعيد على المعين متوقف على أمور جاء بيانها في كلام وكلام رسوله عليه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «كلها في النار إلا واحدة» قالوا: مَنْ هم؟ قال: «مَنْ كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

(ثم قال: فلزم الأُمة قاطبة معرفة ما كان عليه الصحابة ولم يكن الوصول إليه إلا من جهة التابعين لهم بإحسان المعروفين بنقْل الأخبار ممَّن لا يقبل المذاهب المحدَثَة) وهذا أيضاً تنبيه عظيم جداً في أن الاعتقاد إنما يُتلَقَّى عن هؤلاء الأئمة الثقات الذين نقلوا الدين غضاً طرياً من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وهم أهل عدالة وأمانة وثقة، فنقلوه كما سمعوه من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وأيضاً مَنْ اتبعهم بإحسان نقلوا من التابعين بأمانة ونُصح ودقة ووفاء، فهؤلاء الذين يُؤخَذ عنهم الاعتقاد.

قال: (فيتصل ذلك قرناً بعد قرن ممَّنْ عُرِفوا بالعدالة والأمانة الحافظين على الأُمّة ما لهم وما عليهم من إثبات السنة)..

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

إلى أن قال: فأول ما نبتدئ به ما أوردنا هذه المسألة من أجلها ذِكْر "أسماء الله ﷻ وصفاته" مما ذكر الله في كتابه، وما بيّن ﷺ من صفاته في سُنته، وما وصف به ﷻ نفسه مما سنذكر قول القائلين بذلك مما لا يجوز لنا في ذلك أن نردّه إلى أحكام عقولنا بطلب الكيفية بذلك، ومما قد أُمِرْنا بالاستسلام له - إلى أن قال: - ثم إن الله تعرّف إلينا بعد إثبات الوحدانية وإقرار الألوهية: أن ذكر تعالى في كتابه بعد التحقيق بما بدأ من أسمائه وصفاته وأكده-عليه السلام- بقوله، فقبلوا منه كقبولهم لأوائل التوحيد من ظاهر قوله لا إله إلا الله.

(إلى أن قال: فأول ما نبتدئ به ما أوردنا هذه المسألة من أجلها) أي: أَلّفْنا هذا الكتاب من أجله (ذِكْر "أسماء الله ﷻ وصفاته") ولهذا عنوان الكتاب- كما تقدّم- منصوص على هذا الباب الشريف الذي هو أسماء الله وصفاته سبحانه (مما ذكر الله في كتابه، وما بيّن ﷺ من صفاته في سُنته، وما وصف به ﷻ نفسه مما سنذكر قول القائلين بذلك مما لا يجوز لنا في ذلك أن نردّه إلى أحكام عقولنا بطلب الكيفية بذلك، ومما قد

أُمِرْنا بالاستسلام له-) وهذا فيه التنبيه منه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الجادة الصحيحة في هذا الباب أن يُتلقَّى الدين من الكتاب والسُّنة مما نَقَله الأئمة الثقات العدول، وأن لا نَرَدّ أحكامه إلى عقولنا- أي: لا نجعل عقولنا هي الحاكمة والقاضية- كما هي طريقة أهل البدع فيعرضون ما جاء في الكتاب والسُّنة على عقولهم، فما قبله العقل قبلوه، وما لم يقبله ردّوه.

قال: لا (نردّه إلى أحكام عقولنا بطلب الكيفية بذلك، ومما قد أُمِرْنا بالاستسلام له) أي: أن الواجب علينا تلقي جميع ما جاء في هذه النصوص بالاستسلام، فمن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم، ولا يجوز لمسلم أن يطلب الكيفية؛ لأن كيفية هذه الصفات مجهولة، والله ﷻ أخبرنا بصفاته وأخبرنا أيضاً نبيّه ﷺ بصفات الرب سبحانه ولم يخبرنا بكيفيتها.

(إلى أن قال: - ثم إن الله تعرّف إلينا بعد إثبات الوحدانية وإقرار الألوهية: أن ذكر تعالى في كتابه بعد التحقيق بما بدأ من أسمائه وصفاته وأكده-عليه السلام- بقوله ، فقبلوا منه كقبولهم لأوائل التوحيد من ظاهر قوله لا إله إلا الله)؛ يقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كما أن بُيّن في القرآن بياناً شافياً وافياً بتوحيد الربوبية الذي أشار إليه بقوله: (إثبات الوحدانية)، وتوحيد الألوهية الذي أشار إليه بقوله: (وإقرار الألوهية) أيضاً هذا النوع من التوحيد- وهو توحيد الله ﷻ- في أسمائه وصفاته جاء مُبيَّناً في كتاب الله ﷻ، وهذه إشارة منه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أقسام التوحيد الثلاثة، أو ذِكْر لأقسام التوحيد الثلاثة.

وكانت وفاته سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، وهذا فيه- مع أيضاً ما جاء عن غير واحد من العلماء المتقدمين لذِكْر هذه الأقسام الثلاثة للتوحيد- رَدّ على مَنْ يقول: إنما نشأت هذه الأقسام زمن ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويدّعون أنه هو الذي أنشأ هذه الأقسام الثلاثة للتوحيد، وأنه لم يذكرها أحد قبل شيخ الإسلام، ومَنْ يُطالِع كتب السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى يجد النقول الكثيرة عنهم في ذلك، وقد أوردتُ جملة كبيرة من النقول عن عدد من الأئمة المتقدمين قبل شيخ الإسلام نصّوا على الأقسام الثلاثة في رسالة مطبوعة بعنوان «المختصر المفيد في دلائل أقسام التوحيد».

إلى أن قال بإثبات نفسه بالتفصيل من المجمل، فقال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [طه]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]، ولصحة ذلك واستقراره ناجاه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة:١١٦].

وأكد عَلَيْهِ السَّلَامُ صحة إثبات ذلك في سُنته فقال: «يقول الله ﷻ: مَنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»، وقال ﷺ: «كتب كتاباً بيده على نفسه: إن رحمتي سبقت غضبي»، وقال: «سبحان الله رضا نفسه»، وقال في محاجة آدم لموسى: «أنت الذي اصطفاك الله واصطنعك لنفسه»، فقد صَحَّ بظاهر قوله: أنه أثبت لنفسه نفساً وأثبت له الرسول ذلك، فعلى مَنْ صَدَّق الله ورسوله اعتقاد ما أخبر الله به عن نفسه ويكون ذلك مبنياً على ظاهر قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١].

ثم بدأ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد تقرير المعتقد- معتقد أهل السُّنة والجماعة- إجمالاً بدأ بتوضيحه على وجه التفصيل، (قال بإثبات نفسه بالتفصيل من المجمل) فأورد آيات فيها ذِكْر النفس، قال: (﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [طه]، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]، ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة:١١٦]) وساق أيضاً جملة من الأحاديث.

ثم استخرج من هذه الآيات والأحاديث ما قرره بقوله: (صَحَّ بظاهر قوله: أنه أثبت لنفسه نفساً وأثبت له) رسوله ﷺ، وهذا فيه أن ابن خفيف يرى أن النفس صفة من الصفات التي تُضاف إلى الله مثلما يُضاف إليه السمع والبصر أيضاً يضاف إليه صفة يقال لها: النفس، وسيأتي في كلامه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى تقرير ذلك.

وسبق التنبيه إلى أن النفس التي أُضيفت إلى الله ﷻ ليست صفة للذات أو ليست جملة من الصفات- صفات الله- التي أضافها الله ﷻ لنفسه، وإنما المراد بها: الذات نفسها المتصفة بالصفات، نفسه: أي الله ﷻ بصفاته، لا أن النفس صفة مثل السمع والبصر والعلم والرحمة، وإنما النفس المراد بها- (نفسي) الوارد في الآيات والأحاديث- أي: هو ﷻ بأسمائه وصفاته.

وسبق أن نقلت عن شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قوله: (ليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة للذات)، وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات كما يظن طائفة أنها الذات المجردة عن الصفات، وكلا القولين خطأ، والمراد بالنفس: أي هو ﷻ، الله نفسه ذاته المتصفة ﷻ بالصفات.

وقوله: (فعلى مَنْ صَدَّق الله ورسوله اعتقاد ما أخبر به عن نفسه ويكون ذلك) منه (على ظاهر قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١])؛ وهذا ردٌّ منه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ لجميع الصفات المنقولة في الكتاب والسُّنة إلى هذا الأصل الجامع ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، هو يدل على وجوب إثبات الصفات بلا تمثيل وتنزيه الله عن مشابهة المخلوقات بلا تعطيل.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثم قال: "فعلى المؤمنين خاصتهم وعامتهم قبول كل ما وَرَدَ عنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بنقل العدل عن العدل حتى يتصل به عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأن مما قصَّ الله علينا في كتابه ووصف به نفسه ووردت السُّنة بصحة ذلك أن قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]، ثم قال عقيب ذلك: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور:٣٥]، وبذلك دعاه ﷺ: «أنت نور السموات والأرض»، ثم ذكر حديث أبي موسى: «حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»؛ وقال: سبحات وجهه: جلاله ونوره، نقله عن الخليل وأبي عبيد، وقال: قال عبد الله بن مسعود: نور السموات من نور وجهه.

وهذا فيه إثبات النور اسماً لله ﷻ، وصفةً له ﷻ، وأنه جل وعلا نور، ونوره يليق بجلاله وعظمته وجماله ﷻ، وقد دلَّ على ذلك جملة من الأدلة أورد بعضها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كتاب الله سبحانه وسُنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كقوله تعالى: (﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥])، وقول النبي ﷺ في مناجاته لله كل ليلة في استفتاحه لصلاة الليل: «اللهم لك الحمد، أنت قيّم السموات والأرض ومَنْ فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومَنْ فيهن، ولك الحمد، أنت ملك السموات والأرض ومَنْ فيهن، ولك الحمد، أنت الحق ووعْدُك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وبهذه المناجاة الجامعة العظيمة يُختَم هذا المجلس.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وآله وصحبه.

الدرس الحادي والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

ثم قال: ومما ورد به النص أنه حي وذكر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، والحديث: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»، قال: ومما تعرّف الله إلى عباده أن وصف نفسه أن له وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام، فأثبت لنفسه وجهاً - وذكر الآيات.

ثم ذكر حديث أبي موسى المتقدم فقال في هذا الحديث من أوصاف الله ﷻ: لا ينام؛ موافق لظاهر الكتاب: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وأن له وجهاً موصوفاً بالأنوار، وأن له بصراً كما أعلمنا في كتابه أنه سميع بصير.

ثم ذكر الأحاديث في إثبات الوجه، وفي إثبات السمع والبصر والآيات الدالة على ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، اللهم علمنا ما ينفعنا وزدنا علماً، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد..

لا يزال الكلام في النقل الذي نقله شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن أبي عبد الله بن خفيف، وهو نقْل مُطوّل، نقَله شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُختصِراً في النقل، ولهذا يتكرر قوله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم قال) مُشيراً إلى أنه يختصر من الكتاب.

قال: (ثم قال) أي: ابن خفيف أبو عبد الله (ومما ورد به النص أنه حي وذكر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، والحديث: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث») وهذا الاسم العظيم من أسماء الله تبارك وتعالى فيه إثبات الحياة الكاملة لله ﷻ حياةً ليست مسبوقة بعدم، ولا يلحقها فناء، ولا

يعتريها نقْص، حياة كاملة، وما سوى الله ﷻ فحياته مسبوقة بعدم، ويلحقها الموت، ويعتريها النقص، وكل حي سيموت إلا الحي القيوم الذي لا يموت ﷻ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

ومَنْ سوى الله ﷻ إما حي سيموت، أو حي قد مات، أو جماد لا حياة له، لا يخرجون عن هذه الأقسام الثلاثة، ورب العالمين جل في علاه هو الحي الذي لا يموت.

والعبادة لا تكون إلا لِمَنْ كان كذلك- للحي الذي لا يموت-، أما الحي الذي يموت أو الحي الذي قد مات أو الجماد الذي لا حياة له؛ فكل من هؤلاء لا يستحق من العبادة أي شيء، قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، أما الحي الذي يموت، أو الحي الذي قد مات، أو الجماد الذي لا حياة له؛ فهؤلاء لا يُتوكَّل عليهم، ولا يُصرَف لهم شيء من العبادة، فإنما العبادة إنما هي حق للحي الذي لا يموت.

وآية الكرسي-وقد ذكرها -رَحِمَهُ اللَّهُ، وهي أعظم آية في القرآن- صُدِّرَت بالتوحيد: (﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:٢٥٥])، ثم ذُكِرَت براهين التوحيد، ومن أعظم هذه البراهين: ما صُدِّرَت به هذه البراهين وهو قوله: (الحي)؛ فهذا برهان من براهين وجوب توحيده وإخلاص الدين له ﷻ، فالذي لا إله إلا هو هو الحي القيوم، الذي لا تأخذه سِنة ولا نوم.

(قال: ومما تعرّف الله إلى عباده أن وصف نفسه أن له وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام) ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن]، فله ﷻ وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام، وهذا الوجه وجه يليق بالله ﷻ، والوجه إذا أُضيف إلى شيء فهو بحسب ما أُضيف إليه، إذا قلت مثلاً: وجه النهار، أو قلت: وجه المسألة، أو قلت: وجه الإنسان، فهو بحسب ما أُضيف إليه، الوجه: هو ما يُستقبَل من الشيء، وهو بحسب ما أُضيف إليه، وإذا أُضيف الوجه إلى مَنْ ليس كمثله شيء فإن هذا الوجه وجه ليس كمثله وجه، وجه يليق بجلالة وعظمة مَنْ أُضيف إليه ﷻ، ولهذا أهل السُّنة يثبتون لله وجهاً كما أثبت ﷻ ذلك لنفسه، وكما أثبته له رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وجهاً يليق بجلال الرب، وكما أن ربنا جل في علاه له ذات لا تشبه الذوات فله ﷻ وجه لا يُشبه الوجوه.

قال: (ثم ذكر حديث أبي موسى المتقدم) حديث أبي موسى فيه قول النبي ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلْقه»، وسُبحات الوجه: بهاؤه، وجلاله، ونوره، «لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

وهذا الحديث: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام..» إلى آخره.. اشتمل على جملة من الصفات لله ﷻ.

ولهذا قال ابن خفيف (في هذا الحديث من أوصاف الله ﷻ: لا ينام؛ موافق لظاهر الكتاب: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وأن له وجهاً موصوفاً بالأنوار) لأنه قال في الحديث: «لأحرقت سبحات وجهه» وسبحات الوجه: أنوار الوجه وضياء الوجه، ولهذا قال: (موصوفاً بالأنوار).

(وأن له بصراً) كما قال: «لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خَلْقه»، قال: (وأن له بصراً كما أعلمنا في كتابه أنه سميع بصير).

(ثم ذكر الأحاديث في إثبات الوجه، وفي إثبات السمع والبصر والآيات الدالة على ذلك).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثم قال: ثم إن الله تعرَّف إلى عباده المؤمنين، وأنه قال: له يدان قد بسطهما بالرحمة، وذكر الأحاديث في ذلك، ثم ذكر شعر أمية بن أبي الصلت.

ثم ذكر حديث: «يُلقَى في النار وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها رجله»، وهي رواية البخاري وفي رواية أخرى: «يضع عليها قدمه».

ثم ما رواه مسلم البَطِين عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الكرسي موضع القدمين وأن العرش لا يقدر قدره إلا الله.

وذكر قول مسلم البَطِين نفسه، وقول السدي، وقول وهب بن مُنبه، وأبي مالك، وبعضهم يقول: موضع قدميه، وبعضهم يقول: واضع رجليه عليه.

ثم قال: "فهذه الروايات قد رُويت عن هؤلاء من صدر هذه الأمة موافقة لقول النبي ﷺ مُتداولاً في الأقوال، ومحفوظا في الصدر، لا يُنكِر خَلَف عن السلف، ولا يُنكِر عليهم أحد من نظرائهم نقلتها الخاصة والعامة، مدونة في كتبهم إلى أن حدث في آخر الأمة مَنْ قَلَّل الله عددهم ممَّنْ حذّرنا رسول الله ﷺ عن مجالستهم ومكالمتهم، وأَمَرَنا أن لا نعود مرضاهم، ولا نُشَيِّع جنائزهم، فقصد هؤلاء إلى هذه الروايات، فضربوها بالتشبيه، وعمدوا إلى الأخبار فعملوا في دفْعِها على أحكام المقاييس، وكَفَّرُوا المتقدمين، وأنكروا على الصحابة، ورَدُّوا على الأئمة الراشدين فَضَلُّوا وأَضَلوا عن سواء السبيل.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم قال) أي: ابن خفيف (ثم إن الله تعرَّف إلى عباده المؤمنين) ومعنى (تعرَّف إلى عباده المؤمنين) أي: عرَّف عباده ﷻ بنفسه بذِكْره سبحانه أسماؤه وصفاته، وذِكْره ﷻ آياته وأفعاله الدالة على عظمته وجلاله وكماله ﷻ.

(تعرَّف إلى عباده المؤمنين)؛ وهذا التعرُّف للعباد مطلوب من العباد المؤمنين أن تعظم عنايتهم به لأنه مقصد من مقاصد الخلق، فإن الله ﷻ خلق الخلق ليعبدوه وليعرفوه.

وفي القرآن قال الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق].

وفي الحديث: «تَعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

قال: (وأنه قال: له يدان قد بسطهما بالرحمة) له يدان: أي تليقان بجلاله، مبسوطتان بالرحمة: أي كما قال الله جل في علاه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] مبسوطتان: أي بالرحمة، والمَنّ والعطاء والفضل.

(وذكر الأحاديث في ذلك) أي: في إثبات اليدين.

(ثم ذكر شعر أمية بن أبي الصلت) وقد تقدم في موضع عند المصنف، وهو قوله:

مجدوا الله فهو للمجد أهل

مرَّ معنا.

قال: (ثم ذكر حديث: «يُلقَى في النار وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها رجله»»، وهي رواية البخاري وفي رواية أخرى: «يضع عليها قدمه»)؛ وهذا فيه إثبات الرجل والقدم- وهما بمعنى واحد- لله ﷻ صفة تليق بجلاله وكماله ﷻ، وقاعدة أهل السُّنة في هذا الباب معروفة في جميع الصفات الذاتية والفعلية إمرارها كما جاءت، والإيمان بها كما وردت دون خوض فيها بتحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل، فإن كل ذلك من الانحراف عن سواء السبيل.

قال: (ثم ما رواه مسلم البَطِين عن ابن عباس: أن الكرسي موضع القدمين وأن العرش لا يقدر قدره إلا الله) أي: لا يُدرِك عظمته إلا مَنْ خلقه ﷻ، والعرش: هو سقف المخلوقات، والله ﷻ وصفه في القرآن: بالعظيم، والكريم، والمجيد، وكل هذه الأوصاف الثلاثة دالة على سعة العرش، وعظمته، وكِبَره، والعرش هو أكبر المخلوقات وسقفها.

وفي الحديث: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى، فإنه أعلى الجنة، ووسط الجنة، وفوقه عرش الرحمن» فالعرش هو سقف المخلوقات، أعلى شيء في المخلوقات هو العرش.

والله ﷻ العلي جل في علاه، الأعلى المتعالى مستوٍ على عرشه بائن من خَلْقه.

قال: (الكرسي موضع القدمين وأن العرش لا يقدر قدره إلا الله) هذا الذي وَرَد عن ابن عباس، قال: (أن الكرسي موضع القدمين) وأما (العرش لا يقدر قدره إلا الله)، وهذا فيه تنبيه من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن نسبة الكرسي إلى العرش نسبة ضئيلة؛ لأن النبي ﷺ قال- كما في المسند وغيره-: «ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة أُلقيت في فلاة، وفضل العرش على الكرسي مثل ذلك» وهذا الذي نبّه عليه ابن عباس بقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (والعرش لا يقدر قدره إلا الله) أي: لا يدرك عظمته وكِبَرَه وسعته، لأن الله وصفه بالعرش المجيد، والمجد: هو السعة، المجد في لغة العرب معناه: السعة، فالمجيد: الواسع؛ فالعرش هو أكبر المخلوقات وأوسعها (ولا يقدر قدره إلا الله).

(وذكر قول مسلم البَطِين نفسه) ومسلم البطين قوله مثلما روى عن ابن عباس، يعني أن ابن خفيف ذكر أولاً ما رواه مسلم البطين عن ابن عباس، وذكر أيضاً قول مسلم البطين نفسه نظير ما روى عن ابن عباس.

ومسلم البطين قال: (الكرسي موضع القدمين) مثلما روى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وذكر أيضاً (قول السدي) والسدي قوله جاء عند تفسير الآية الكريمة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، قال: فإن السموات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش وهو موضع القدمين، وقد رواه ابن جرير -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في تفسيره لآية الكرسي.

(وقول وهب بن مُنبه، وأبي مالك) أبو مالك اشتُهِر بهذه الكُنية وهو اسمه غزوان الغفاري، وأيضاً وهب بن مُنبه نُقِل عنه مثل ما نُقِل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في ذِكْر الكرسي، وأنه موضع القدمين.

قال: (وبعضهم يقول: موضع قدميه، وبعضهم يقول: واضع رجليه عليه) لفظ ابن عباس: موضع القدمين، وبعضهم- أي بعض السلف- عبارته في ذلك: (واضع رجليه عليه).

(ثم قال: "فهذه الروايات قد رُويت عن هؤلاء من صدر هذه الأمة موافقاً لقول النبي ﷺ مُتداولاً في الأقوال) أي: أقوال النَّقَلة- نَقَلَة العلم، ثقة عن ثقة، عدلاً عن عدل-.

(ومحفوظاً في الصـــدر).. (مُتداولاً في الأقوال) أي: ينقله عدل عن مثله، ثقة عن ثقة، (ومحفوظاً في الصدر) أي: يحفظه أهل العلم.

(لا يُنكِر خَلَف عن السـلف، ولا يُنكِر عليهم أحد من نظرائهم)؛ (لا يُنكِر خَلَف عن السـلف) الكل من أئمة أهل العلم والفضـــل تلقوا ذلك بالقبول، لا يُنكر خلف عن ســلف، وإنما ينقل منه بتَلَقٍّ وقبول لذلك دون إنكار.

قال: (ولا يُنكِر عليهم أحد من نظرائهم) ما مراده بقوله: (من نظرائهم)؟

أي: ممَّنْ هو على الجادة- طريقة أهل السُّـــنة-، أما مَنْ ليس على الجادة يُنكِر ما خالف هواه، ولا عِبرة بإنكاره، لأن إنكاره مبني على الهوى.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (نقلتها الخاصـة والعامة) أي: هذه النقول المتداولة قام بنقْلها الخاصـة والعامة (مدونة في كتبهم إلى أن) قال: (حدث في آخر الأمة مَنْ قَلَّل الله عددهم ممَّنْ حذّرنا رســول الله ﷺ عن مجالســتهم ومكالمتهم، وأَمَرَنا أن لا نعود مرضــاهم، ولا نُشَـيِّع جنائزهم) وهؤلاء المراد بهم دعاة الفتنة، ودعاة البدع والضـــلال ممَّنْ يتجرءون على نفْي ما أثبته الله، ونفْي ما أثبته رســوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كنُفاة القدر، وكنُفاة أسماء الله وصفاته ﷻ.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فقصد هؤلاء إلى هذه الروايات) أي: التي تثبت لله ﷻ الأسماء والصفات (فضربوها بالتشـبيه، وعمدوا إلى الأخبار فعملوا في دفْعِها على أحكام المقاييس)؛ ضربوها بالتشـبيه: ادّعوا أن ظاهرها يفيد التشبيه، مثلاً: الآيات والأحاديث التي فيها إثبات الوجه صفة لله، أو إثبات اليدين صفة لله، أو إثبات الرجل صـفة لله، أو غير ذلك من الصـفات ضربوها بالتشـبيه، بمعنى: أنهم ادّعوا أن هذه الآيات ظاهرها التشبيه، أن ظاهرها هو التشبيه.

ثم زعموا أنهم يريـدون تنزيه الله عن هـذا الظاهر الـذي هم يظنونـه ظاهراً للنصـــوص فعمـدوا إلى التأويل- الذي هو تحريف الكلم عن مواضـــعه-؛ ولهذا أســـاس الآفة عند هؤلاء: التشـــبيه؛ لأنهم قرءوا النصوص فلم يفهموا منها إلا التشبيه فأرادوا الفرار من هذا التشبيه الذي هم فهموه من النصوص فلجئوا إلى التأويل الذي هو تحريف الكلم عن مواضعه.

ولهذا قـال: (وعمـدوا إلى الأخبـار فعملوا في دفْعِهـا) أي: رَدِّهـا وعـدم قبولهـا (فعملوا في دفْعِها على أحكام المقاييس) أي: المقاييس العقلية؛ ولهذا طريقتهم في رَدّ النصـــوص يقولون: لو أثبتنا كذا للزم منه أن

يكون كذا وكذا، ومن طريقتهم في ذلك: يقولون: إذا قال لك المُشَبِّه- يقصدون: أهل السُّنة- ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] فقل: ثم يذكرون اللوازم العقلية التي بها يردون هذا الذي أثبته الله ﷻ لنفسه في كتابه، وأثبته له رسوله ﷺ في سُنته.

(وأنكروا على الصحابة، ورَدُّوا على الأئمة الراشدين فَضَلُّوا وأَضَلوا عن سواء السبيل).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثم ذكر المأثور عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، وجوابه لنجدة الحروري؛ ثم ذكر حديث "الصـــورة"، وذكر أنه صنَّف فيه كتاباً مفرداً واختلاف الناس في تأويله.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (ثم ذكر المأثور عن ابن عباس وجوابه لنجدة الحروري) نجدة الحروري هذا من رؤوس الخوارج، نجدة الحروري من رؤوس الخوارج، والحرورية هم: الخوارج، والخوارج يقال لهم: الحرورية؛ لأنهم قنطوا وسكنوا حروراء، ولهذا يقال لهم: الحرورية.

ويُعرَف هؤلاء الحرورية بالجرأة على رَدّ النصوص، وعدم التلقي لها بالقبول لامتلاء قلوبهم بالأهواء؛ ولهذا يتجرءون في ردِّ النصوص الثابتة عن الرسول الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وهذا نجدة أحد رؤوس الخوارج ونُقِل أن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا ناظره، وأورد ذلك الهروي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وإيراد المصنف للمنقول عن ابن عباس لأنه تقدم في قوله: (وعمدوا إلى الأخبار فعملوا في دفْعِها على أحكام المقاييس) وهذه الطريقة موجودة عند عامة أهل البدع في رَدِّ كل ما لا يوافق أهواءهم من النصوص، يعمدون إلى المقاييس العقلية فيردون بها كلام الله أو كلام رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ولهذا فإن ابن عباس في هذه الرواية أو المناظرة بينه وبين نجدة الحروري: لَمّا قال نجدة لابن عباس: كيف معرفتك بربك؟.. لما قال لابن عباس: كيف معرفتك بربك؟ لأن مَنْ قِبلنا اختلفوا علينا، فقال ابن عباس: **إن مَنْ ينصب دينه للقياس لا يزال الدهر في التباس**؛ وهذا كلام جميل، هذا الكلام جميل ومتين جداً في وصْف حال أهل المقاييس: مَنْ نصب دينه للقياس؛ مَنْ نصب دينه: أي جعل دينه منصوباً للقياس: أي للمقاييس العقلية، يقيس الدين بالعقل، معنى نصب دينه للقياس: أي يقيس الدين بالعقل، ويعرض الدين وما جاء في الكتاب والسُّنة على عقله، فما قَبِله عقله قَبِله، وما لم يقبله عقله ردَّه؛ مَنْ كان بهذه الصفة (لا يزال الدهر) أي: حياته كلها في التباس، ومعنى (في التباس): أي في شك وريب، لا يستقيم له دين.

ولهذا أصحاب الآراء والعقول-الذين قدّموا آراءهم وعقولهم على الكتاب والسُّنة- يسميهم السلف (الشُّكَّاك) لماذا؟ لأن مَنْ كان كذلك لا يزال الدهر في التباس، لا يثبت على شيء، كثير التلون والتنقل من رأي إلى رأي، من مذهب إلى مذهب، لا يزال في حيرة واضطراب، مَنْ جعل.. أو نصب دينه للمقاييس أو للقياس لم يزل الدهر في التباس؛ يبقى حياته كلها مُلتبِس، لا يستقيم له دين، لا يثبت على شيء، كثير التنقل.

ولهذا قال بعض السلف: مَنْ جعل دينه عُرضة للخصومات أكثر التنقل؛ يعني لا يستقيم على دين، تجده الصباح في دين والمساء في دين آخر، وكلما التقى بشيخ أكثر- مثلاً:- فلسفة من الأول انتقل إلى دينه، وكلما عرضت له شُبْهة أخرى غير الأولى انتقل إلى دين آخر.

ولهذا من اللطائف: يذكرون أن أحد هؤلاء جاء إلى الإمام مالك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقال: أريد أن أتناظر معك، فقال له مالك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن غلبتك؟ قال: أتّبعك، قال: فإن غلبتني؟ قال: تتبعني، قال: فإن جاء شخص ثالث وغلبنا؟ قال: نتبعه، قال: يا هذا! ليس الدين لِمَنْ غلب،... ما هي قضية أن كل واحد يعرض عقله على الآخر، ويكون الدين لِمَنْ غلب، الدين: قال الله، قال رسوله، هذا هو الدين، الدين: قال الله، قال رسوله، ليس الدين فلسفة وعقول، أو على طريقة فَتْل العضلات، الدين: قال الله، قال رسوله؛ هذا هو الدين.

قال: (ثم ذكر المأثور عن ابن عباس، وجوابه لنجدة الحروري؛ ثم ذكر حديث "الصورة")؛ حديث الصورة يريد به قول النبي ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»، والضمير في قوله: «على صورته» أي: صورة الرحمن جل وعلا، صورته: أي صورة الرحمن، وجاء هذا مُصَرَّحاً به في بعض الروايات: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن» ولا يجوز تأويل ذلك بأن مَرَدّ الضمير على المضروب أو على آدم، هذه كلها تأويلات، وإنما المراد بقوله: (على صورته) أي: على صورة الرحمن، والمعنى (على صورته): أي أنه خلق آدم له وجهاً، وسمْعاً وبصراً، ولا يلزم من ذلك أن الوجه كالوجه، والسمع كالسمع، والبصر كالبصر، فالله ﷻ خلق آدم على صورته- أي: له وجه، وله سمْع، وله بَصَر، ولا يلزم من ذلك أن الوجه كالوجه، والسمع كالسمع، والبصر كالبصر، والله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١].

ومما يوضح لك ذلك ويزيل الإشكال الذي يعرض لبعض الناس في هذا الحديث أن النبي ﷺ ذكر أهل الجنة، وقال: إنهم يدخلون الجنة على صورة البدر- على صورة القمر-، يدخلون الجنة على صورة القمر، ما الذي تفهم من ذلك؟ هل تفهم من ذلك أن مَنْ يدخل الجنة يكون مثل القمر في- مثلاً- استدارته، وفي المادة التي خُلق منها القمر.. إلى غير ذلك؟

ما أحد يفهم هذا، على صورته: أي في الضياء، والجمال، والحُسن، ونحو ذلك، هذا المراد، ولا يلزم من ذلك المثلية والمماثلة.

فقوله: (إن الله خلق آدم على صورته) أي: خلقه له وجه، وله سمْع، وله بصر، لكن ليس الوجه كالوجه، ولا السمع كالسمع، ولا البصر كالبصر.

قال: (وذكر أنه صنَّف فيه كتاباً مفرداً واختلاف الناس في تأويله) وشيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كتب في هذا الحديث ما يقرب من مائة صفحة، في كتابه «نقْض التأسيس»، وقد قال شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والكلام على ذلك أن يقال: هذا الحديث لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاعاً في أن الضمير عائد إلى الله، فإنه مستفيض من طرق متعددة عن عدد من الصحابة، وسياق الأحاديث كلها تدل على ذلك. ثم ذكر كلاماً -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رَدّ التأويلات التي تأولها بعضهم في هذا الحديث.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثم قال: وسنذكر أصول السُّنة، وما ورد من الاختلاف فيما نعتقده فيما خالفنا فيه أهل الزيغ، وما وافقنا فيه أصحاب الحديث من المثبتة - إن شاء الله -.

قال: (ثم قال: وسنذكر أصول السُّنة، وما ورد من الاختلاف فيما نعتقده فيما خالفنا فيه أهل الزيغ، وما وافقنا فيه أصحاب الحديث من المثبتة - إن شاء الله -) أي: أنه لمّا أنهى -رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتعلق بالصفات- صفات الله-، وبيّن الجادة والطريقة فيها، تحدث عن ذلك أولاً إجمالاً، ثم تحدث عن ذلك تفصيلاً، لما أنهى ذلك انتقل إلى المسائل الأخرى غير مسائل الصفات مما ورد فيه اختلاف بين أهل السُّنة وغيرهم، وقال: سنبين في ذلك المعتقد الحق في ضوء ما عليه أهل الحديث من المثبتة.

ثم ذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مسائل عديدة في الإمامة وخلْق أفعال العباد، ومرتكب الكبيرة، وما يتعلق بالإيمان وزيادته ونقصانه، ومسائل عديدة ذكرها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، يؤجل الحديث عنها بإذن الله ﷻ إلى لقاء الغد.

نســأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصـلِح لنا شـأننا كله، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأســماعنا وأبصــارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرـنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصـيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا، ولا تُسَـلِّط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد، وآله وصحبه.

الدرس الثاني والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

ثم قال: وسنذكر أصول السُّنة، وما ورد من الاختلاف فيما نعتقده فيما خالفنا فيه أهل الزيغ، وما وافقنا فيه أصحاب الحديث من المثبتة - إن شاء الله -.

ثم ذكر الخلاف في الإمامة واحتج عليها وذكر اتفاق المهاجرين والأنصار على تقديم "الصديق" رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأنه أفضل الأمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

لا يزال النقل عن ابن خفيف أبو عبد الله، ولمّا أنهى شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ما لخّصه من نقولات عنه فيما يتعلق في باب الأسماء والصفات انتقل إلى أيضاً تلخيص لبقية أمور الاعتقاد، فذكر أولاً: قوله في الإمامة، وذِكْره للخلاف، واحتجاجه في هذا الباب على مَنْ خالَف بالحجج البيّنة، وذِكْره لاتفاق المهاجرين والأنصار على تقديم الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأنه أفضل الأمة- أُمة محمد ﷺ-، والذين خالفوا في ذلك هم الشيعة.

وهذا الفصل عقَده ابن خفيف للرد على هؤلاء، وبيان أن ترتيب الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في الفضل كترتيبهم في الخلافة، وأن أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هو الخليفة الأول الراشد لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وهو أَمْر اتفق عليه أصحاب النبي ﷺ ولا خلاف بينهم في ذلك، وإنما لما نشأ أهل التشيُّع بعد جحدوا ذلك وزعموا أن الخلافة ليست لأبي بكر وإنما هي لعلي! وهذا كلام قائم على الباطل، ومخالفة النصوص، ومخالفة ما أجمع عليه سلف الأُمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

فذكر ابن خفيف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتفاق المهاجرين والأنصار على تقديم الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أي: في الخلافة، وأنه الأحق بها، وأنه أفضل الأُمة؛ لأن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هو أفضل أُمة محمد عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؛ بل ليس هذا فقط، أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أفضل أُمم جميع الأنبياء، أفضل الناس بعد النبيين في جميع الأمم، ليس في أُمة محمد عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بل أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في جميع الأمم أفضل الناس بعد النبيين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه، ومكانته عظيمة جداً ومنزلته عليّة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه.

قد قال نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «أبو بكر وعمر سيداً كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين عدا النبيين» فهذا يدل على أن أبو بكر أفضل الناس بعد النبيين في جميع الأمم.

وقد قال الله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]؛ وهذا فيه أن أُمة محمد عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ خير الأمم، وأبو بكر خير أُمة محمد عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وهذا يدل أيضاً على أنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه خير الناس بعد النبيين.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثم قال: وكان الاختلاف في "خلْق الأفعال" هل هي مقدرة أم لا؟ قال: وقولنا فيها أن أفعال العباد مقدرة معلومة وذكر إثبات القدر.

قال: (ثم قال: وكان الاختلاف في "خلْق الأفعال" هل هي مقدرة أم لا؟) المراد بـــ(الأفعال): أي أفعال العباد من طاعات أو معاصي، من كفر أو إيمان، من صلاح أو فساد، هل هذه الأفعال مُقدَّرة أو ليست مُقدّرة؟.. ونشأ الخلاف- وإن شئت فقل:- وهو أدق- المخالفة- لأهل الحق بنشأة القدرية، وقد جاء وصْفهم بـ(مجوس هذه الأُمة)، والمراد بالقدرية: النفاة- نفاة القدر-، وأن الأمر أُنُف ولا قَدَر.

وزعم هؤلاء القدرية أن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، وإنما هي مخلوقة للعبد نفسه؛ ولهذا سُموا مجوساً لأنهم زعموا وجود خالق مع الله وهو الإنسان يخلق فِعْل نفسه، فاستحقوا هذا الوصف (مجوس هذه الأُمة).

فيقول: لمّا أشار -رَحِمَهُ ٱللَّهُ ابن خفيف إلى ذلك (هل هي مقدرة أم لا؟ قال: وقولنا فيها أن أفعال العباد مقدرة معلومة) مقدرة: أي قَدَّرها الله، داخلة في جملة ما قدّره الله ﷻ وقضاه، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر:٦٢].

فأفعال العباد مُقدَّرة، أي قدّرها الله ﷻ، وقد جاء في الحديث عن نبينا ﷺ أنه قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أول ما خلق الله القلم قال له: أُكتُب! قال: وما أكتب؟ قال: أُكتُب ما هو كائن إلى يوم القيامة».

فيقول: أن (قولنا فيها أن أفعال العباد مقدرة): أي: قدَّرها الله سبحانه.

و(معلومة): أي أحاط بها علمه في الأزل؛ فإنه ﷻ عَلِم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ففي هذا العلم يجري القضاء والتصريف والتدبير فيما علمه ﷻ وأحاط به علمه جل في علاه.

فيقول: (قولنا فيها أن أفعال العباد مقدرة معلومة وذكر إثبات القدر)؛ وإثبات القدر أصل من أصول الإيمان، وركن من أركان الدين.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثم ذكر الخلاف في أهل "الكبائر"، ومسألة "الأسماء والأحكام" وقال: قولنا فيها إنهم مؤمنون على الإطلاق، وأمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم.

قال: (ثم ذكر الخلاف في أهل "الكبائر"، ومسألة "الأسماء والأحكام")؛

مسألة (الأسماء): مثل المؤمن، الكافر، الفاجر، الفاسق؛ هذه يقال لها: الأسماء.

(والأحكام): أي الأحكام المترتبة على هذه الأسماء من دخولٍ للجنة، ونجاةٍ من النار، ووعد ووعيد، وغير ذلك.

قال: و(قولنا فيها أنهم مؤمنون على الإطلاق، وأمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم)؛

(قولنا) أي: في أهل الكبائر.

(أنهم مؤمنون على الإطلاق): يقصد بقوله: (مؤمنون على الإطلاق) أي: هؤلاء أهل الكبائر لا يُخرَجون بهذه الكبائر من الإيمان؛ بل لهم مُطلَق الإيمان، هذا مراده بقوله: (مؤمنون على الإطلاق) أي: لهم مُطلَق الإيمان، لا الإيمان المطلق الذي هو التام الكامل؛ ولهذا لا يوصفون بالإيمان على الإطلاق- كما توهمه عبارة المصنف، وإن كان ليس يقصد ذلك كما يوضح ذلك بقية كلامه- وإنما يوصفون بمُطلَق الإيمان لا الإيمان المُطلَق، ويكون وصْفهم بالإيمان مُقيَّداً مثل ما هي عبارة السلف: (مؤمن بإيمانه، مؤمن فاسق، مؤمن ناقص الإيمان) لا يوصفون بالإيمان على الإطلاق.

وعبارة المصنف: (مؤمنون على الإطلاق) أراد أنهم لا يُخرَجون من الإيمان، أراد ذلك: لا يُخرَجون من الإيمان فيوصفون بالإيمان، لكن هذا الإيمان الذي يوصفون به ليس هو الإيمان المطلق- أي: الكامل-، وإنما الإيمان الذي يوصفون به هو مطلَق الإيمان، ولهذا ينبغي أن يكون وصْفهم به مُقيَّداً، كأن يقول: مؤمن فاسق، أو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، أو نحو ذلكم من العبارات.

قال: (وأمْرهم إلى الله) وأمْرهم إلى الله تعالى: أي في هذه الكبائر والعقوبة عليها (أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم)، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨]، ومن قوله ﷻ: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨] أخذ هنا عندما قال: (إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم)؛ فأمْرهم إلى الله ﷻ إن شاء عذّبهم وإن شاء عفا عنهم، وإن عذّبهم- أي: بكبائرهم التي هي دون الكفر والشرك- فإنهم لا يُخَلَّدون في النار، لأنه لا يُخلَّد في النار إلا المشرك.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وقال: أصل "الإيمان" موهبة يتولد منها أفعال العباد، فيكون أصله التصديق والإقرار والأعمال، وذكر الخلاف في زيادة الإيمان ونقصانه؛ وقال: قولنا: إنه يزيد وينقص.

قال: (وقال) أي ابن خفيف (أصل "الإيمان" موهبة) المراد بـ(موهبة) أي: مِنَّة إلهية، وهِبة ربانية يمُنّ بهذا الإيمان على مَنْ شاء من عباده ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر:٢٢] فهو مِنّة إلهية.

قال الله ﷻ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات].

وقال جل وعلا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾ [الحجرات].

قال جل وعلا: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ [النور:٢١].. والنصوص في هذا المعنى كثيرة.

فيقول: (أصل "الإيمان" موهبة)؛ (أصل "الإيمان") أي: وجود هذا الإيمان في العبد موهبة- أي: هبة ومِنّة إلهية- يتفضل الرب ﷻ ويَمُنُّ بها على مَنْ شاء.

(يتولد منها أفعال العباد) (يتولد منها) أي: هذه الموهبة التي يهبها الله ﷻ- وهي شرْح الصدر للإيمان- (يتولد منها أفعال العباد).

(فيكون أصله التصديق والإقرار) والعمل.. وهذا فيه أن الإيمان يقوم على هذه الأركان الثلاثة: التصديق، والإقرار، والعمل.. تصديق وإقرار وعمل يقوم على ذلك، فليس الإيمان تصديق مُجرد بل هو تصديق وإقرار وعمل؛ وهذا عقيدة أهل السُّنة والجماعة في الإيمان.

والعمل من الأركان التي يقوم عليها الإيمان، الإيمان يقوم على التصديق الذي في القلب، والنطق الذي في اللسان، والعمل الذي في الجوارح، يقوم على ذلك، وكما أن الإيمان يقوم على ذلك فإن الكفر يحصل أيضاً بذلك؛ الكفر يكون بالقول، ويكون بالاعتقاد، ويكون بالعمل.

(وذكر الخلاف في زيادة الإيمان ونقصانه؛ وقال: قولنا: إنه يزيد وينقص) أي: عقيدتنا في الإيمان أن الإيمان يزيد وينقص، ويقوى ويضعف، وأهله ليسوا فيه سواء، بل أمْرهم كما قال الله سبحانه: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢]؛ فهُم ليسوا فيه على درجة واحدة بل بينهم تفاوت وتمايز.

وقد دلت الدلائل الكثيرة في الكتاب والسُّنة على أن الإيمان يزيد وينقص، ويقوى ويضعف..

كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

قال: ثم كان الاختلاف في القرآن مخلوقٌ أو غير مخلوق؛ فقولنا وقول أئمتنا: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وإنه صفة منه بدأ قولاً وإليه يعود حُكماً.

قال: ثم ذكر (الاختلاف في القرآن مخلوقٌ أو غير مخلوق؛ فقولنا وقول أئمتنا) أي من أهل السُّنة الصحابة ومَنْ اتبعهم بإحسان (أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأنه صفة لله منه بدأ قولاً وإليه يعود حُكماً)، وهذه كلمة أهل السُّنة: القرآن كلام الله، منه بدأ وإليه يعود.

(منه بدأ) أي: هو جل وعلا تكلَّم به، كما في آيات كثيرة يقول الله ﷻ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة]، ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة] أي: منه بدأ، هو الذي تكلم به.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

فهُو من الله- أي: هو الذي تكلم به-، وسمعه جبريل من الله ﷻ، ونزل به على نبيّنا الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه؛ فقولنا يقول في القرآن: (أن القرآن كلام الله) أي: الله ﷻ جل في علاه هو للذي تكلم بالقرآن.

وقوله: (غير مخلوق) هذه الكلمة اتفق أئمة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ على إيرادها جزءاً من المعتقد في هذا الباب رداً على مقالة الجهمية ومَنْ سار مسارهم في ادّعاء أن القرآن مخلوق من جملة المخلوقات، فأصبح جزء من المعتقد في القرآن أنه غير مخلوق، جزء من المعتقد أن القرآن غير مخلوق، بالتعبير بهذا اللفظ الذي لا يتمحص المعتقد إلا به، فلا يكفي في تقرير المعتقد أن يقول: القرآن كلام الله، بل لا بد من إضافة هذه اللفظة التي يتمحص بها المعتقد، لأن بعضهم أصبح يقول: بإضافة الكلام إلى الله، لكن يقول: الإضافة هنا إضافة خلْق، مثل: بيت الله، عبد الله، أَمة الله، ناقة الله، كلام الله، يقول: كلام الله من هذا القبيل فالإضافة إضافة خلْق.

فلا يتمحص المعتقد إلا بهذه الكلمة (غير مخلوق)، (غير مخلوق) هذه التي يتمحص بها مقالة الرجل أهو من أهل السُّنة أو من أهل الضلال والباطل.

(وأنه صفة لله) أي: الكلام صفة لله مثل سائر صفاته سبحانه، والقول في هذه الصفة كالقول في سائر الصفات.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثم ذكر الخلاف في الرؤية وقال: قولنا وقول أئمتنا فيها نعتقد أن الله يُرى في يوم القيامة، وذكر الحجة.

قال: (ثم ذكر الخلاف في الرؤية وقال: قولنا وقول أئمتنا فيها نعتقد أن الله يُرى في يوم القيامة، وذكر الحجة) أي: الحُجة على ذلك من القرآن: كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]، ومن السُّنة كقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة».

فيقول: (قولنا وقول أئمتنا فيها نعتقد: أن الله يُرى في يوم القيامة) وهذه الرؤية هي أكمل نعيم يناله أهل الجنة، وفي الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يقول الله تبارك وتعالى: هل تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُدخلنا الجنة؟ ألم تنجنا من النار؟ ألم تُبيّض وجوهنا؟» قال: «فيُكشَف الحجاب فينظرون إليه، فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى الله ﷻ».

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثم قال: واعلم رحمك الله أني ذكرتُ أحكام الاختلاف على ما ورد من ترتيب المحدثين في كل الأزمنة، وقد بدأتُ أن أذكر أحكام الجُمَل من العقود. فنقول: ونعتقد: أن الله ﷻ له عرش، وهو على عرشه فوق سبع سماوات بكمال أسمائه وصفاته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، و﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ ﴾ [السجدة:٥]، ولا نقول: إنه في الأرض كما هو في السماء على عرشه؛ لأنه عالم بما يجري على عباده.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم قال) أي: ابن خفيف (واعلم رحمك الله أني ذكرتُ أحكام الاختلاف على ما ورد من ترتيب المحدثين في كل الأزمنة) يقول: سرت في هذا الكتاب وأنا أذكر الاختلاف وأُبيِّن القول الحق على ترتيب المُحَدِّثين في كل الأزمنة، (وقد بدأتُ أن أذكر أحكام الجُمَل من العقود) أي: أنه بعد أن ذكر الاختلاف سيُلخص جُمَل المعتقد-أي: العقيدة إجمالاً- يقرر الاعتقاد بحيث يذكر جُمل الاعتقاد على طريقة السلف وجادتهم، وكل ما يذكره من جُمل الاعتقاد يسوق عليه الدليل والدليلين من كلام الله ﷻ، أو حديث رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: (فنقول: ونعتقد: أن الله ﷻ له عرش، وهو على عرشه فوق سبع سماوات) من جُمل الاعتقاد التي نعتقدها: أن الله له عرش، وهذا العرش هو أعلى المخلوقات وسقف المخلوقات، وأنه ﷻ (وهو على عرشه فوق سبع سماوات) العرش أعلى المخلوقات فوق السماوات السبع، والله ﷻ مستوٍ عليه استواء يليق بجلاله وعظمته سبحانه، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه].

وهو جل وعلا عَلِيٌّ على عرشه يدبر أمر المخلوقات جل وعلا، كما في الآية الأخرى التي ساق (﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [السجدة:٥]) فهو ﷻ فوق عرشه المجيد، وهو يدبر أمر مخلوقاته من السماء إلى الأرض.

(ولا نقول) أي: كما تقول الجهمية ومَنْ اتبعهم (إنه في الأرض كما هو في السماء على) العرش (لأنه عالم بما يجري على عباده) أي: الذي نعتقده أنه مستو على عرشه جل وعلا، بائن من خلقه، ولا نقول: إنه في الأرض كما أنه على العرش، بل نقول: على العرش بائن من الخلق، وفي الوقت نفسه نعتقد أنه مع خلْقه بعلمه واطلاعه، وأنه ﷻ لا تخفى عليه خافية.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

إلى أن قال: ونعتقد أن الله خلق الجنة والنار، وإنهما مخلوقتان للبقاء لا للفناء.

قال: (ونعتقد أن الله خلق الجنة والنار) وهذا فيه العقيدة في الجنة والنار، ومن جملة العقيدة في الجنة والنار: أن نعتقد أنهما مخلوقتان، موجودتان الآن، هذا من جملة الاعتقاد في الجنة والنار، كما قال الله ﷻ عن النار: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وقال عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤]، فالنار مخلوقة: ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ [الفتح:١٣] فهي مُعَدَّة، أعدّ الله النار للكافرين، وأعدَّ الجنة للمؤمنين، فهي موجودة ومخلوقة، هذا جزء من المعتقد في النار.

قال: (أنهما مخلوقتان للبقاء لا للفناء)؛ فهذان أمران من المعتقد في الجنة والنار: أنهما مخلوقتان موجودتان الآن- هذا واحد-، والأمر الثاني: أنه جل وعلا خلقهما للبقاء لا للفناء، فالجنة والنار لا تفنيان باقيتان أبد الآباد، وأهل الجنة الذين هم أهلها خالدين فيها أبداً، وأهل النار الذين هم أهلها خالدين فيها أبداً.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

إلى أن قال: ونعتقد أن النبي ﷺ عرج بنفسه إلى سدرة المنتهى.

(إلى أن قال: ونعتقد أن النبي ﷺ عُرج بنفسه إلى سدرة المنتهى) والمراد (بنفسه) أي: به هو صلوات الله وسلامه وبركاته عليه عُرِج به (إلى سدرة المنتهى) أي: فوق السماء السابعة، وفي ذلك العروج سمع صلوات الله وسلامه عليه كلام الله من الله بلا واسطة، سمع كلام الله من الله؛ ولهذا فهُو عليه الصلاة والسلام كليم الله، كما أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كليم الله.

قال الله تعالى في شأن موسى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء:١٦٤]، وأيضاً نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كلّمه الله تكليماً فسمع كلام الله جل وعلا من الله.

فمن جملة المعتقد: الإيمان بعروج-العروج بالنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- إلى سدرة المنتهى.

وهذا العروج كان في ليلة واحدة، ومرّ معنا في الأثر: أن بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء الدنيا والأرض مسيرة خمسمائة عام، هذه المسافات الشاسعة المتباعدة كلها قطعها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذهاباً وإياباً في ليلة واحدة، وهذا فيه من الدلالة على كمال قدرة الله جل وعلا، وأن الله ﷻ على كل شيء

قدير جل في علاه، وأيضاً فيه من الدلالة: إثبات العلو؛ لأن النبي ﷺ عُرِج به إلى السماء إلى العلو، وفي ذلك العلو فوق السماء السابعة سمع كلام الله من الله ﷻ، وفُرِضَت عليه الصلوات الخمس.

وأيضاً من الفوائد: أهمية الصلوات الخمس، وأنها تختلف عن بقية الفرائض شأناً ومكانة، ومن مكانة هذه الصلوات أن فريضتها لم ينزل بها المَلَك كبقية الفرائض على النبي ﷺ في الأرض، بل عُرِج بالنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى ما فوق السماء السابعة وفُرِضت هناك عليه الصلوات الخمس؛ فهذا يدل على مكانة هذه الصلوات الخمس التي افترضها الله ﷻ على عباده.

وأيضاً مما يستفاد من هذا المقام: أن هذا المعراج- ليلة المعراج وإن كان لا يُعلَم تعيينها أي ليلة هي-، لكن لو عُلم تعيينها لم يَرِد في السُّنة عبودية تختص بليلة المعراج، أو احتفال يختص بليلة المعراج، أو أعمال معينة تختص بليلة المعراج، هذا لا يوجد في السُّنة، وتجد بعض الناس الذين مالت نفوسهم إلى الأهواء أكثر من الفرائض والسُّنن والواجبات يحتفل بليلة الإسراء والمعراج، يقيم لها احتفال، ولا يحتفي ويعتني بفريضة الصلاة! حتى إن بعضهم لا يُفوِّت الاحتفال- احتفال ليلة الإسراء- وتلك الليلة لا يصلي الفجر مع الجماعة، وتجده مُفرِّط في الصلوات الخمس، فهل عرف لماذا عُرِج به؟ وهل عرف مكانة المعراج؟ وهل عرف هذه المعاني العظيمة؟ فلم يكن له حظ من ما يتعلق بالإسراء والمعراج إلا أن يتحفل تلك الليلة، وأين في شرع الله، وهدْي النبي ﷺ وطريقة الصحابة وجادتهم، أين في ذلك مثل هذه الاحتفالات البدعية التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان؟!

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

إلى أن قال: ونعتقد أن الله قبض قبضتين فقال: هؤلاء إلى الجنة وهؤلاء إلى النار.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونعتقد أن الله) ﷻ (قبض قبضتين) وقال: (هؤلاء إلى الجنة وهؤلاء إلى النار)، وهذا ورد فيه حديث ثابت عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه، ويُعرَف بحديث القبضتين: «قبض قبضة وقال: هؤلاء إلى الجنة، وهؤلاء إلى النار»، فمن جملة ما نعتقد: أن أهل الجنة وأهل النار لمّا خلقهم الله ﷻ وأوجدهم قبض قبضتين قال: (هؤلاء إلى الجنة وهؤلاء إلى النار) وهذا فيه أن الله ﷷ قدَّر كل ما هو كائن بما في ذلك أهل الجنة وأهل النار، قدَّر ما هو كائن.

وهنا يأتي السؤال- الذي كما يقال- يطرح نفسه في هذا المقام، إذا كان قُدِّر وقبض الله ﷻ قبضتين قال: هؤلاء أهل الجنة وهؤلاء أهل النار ففيمَ العمل؟! الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ سألوا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذا

السؤال، قالوا: ففيمَ العمل؟ ما دام أن الأمر قُدِّر وقُضِي، وقبض الله قبضة وقال: هؤلاء الجنة، وقبض وقال: هؤلاء إلى النار؛ ففيمَ العمل؟، الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سألوا النبي ﷺ هذا السؤال، فأجاب بكلمتين فيهما الجواب الشافي الكافي، قال: «اعملوا فكُلٌّ مُيَسر لما خُلِق له» إن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل أهل السعادة، وإن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة، ولهذا مطلوب من العبد في هذا الباب مطلوب منه أمران:

الأول: أن يعمل، يجاهد نفسه على العمل، والله يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت].

والأمر الثاني: يستعين بالله، يا رب. يا رب، يطلب منه الهداية، يطلب منه التوفيق، يطلب منه المعونة، أن يجعل كل قضاء قضاه له خيراً، وأن تجعل – في الدعاء المأثور – وأن تجعل كل قضاء قضيته لي خيراً، فيدعو الله ويُلِح عليه، ويسأل الله ﷻ التيسير لليسرى، ويُجنِّبه العسرى، وأن يهديه إلى صراطه المستقيم، وأن يجعله من أهل الجنة، أن لا يجعله من أهل النار، يُلِحّ على الله ﷻ.

وهذا الذي قُدِّر وقُضِي، وأن الله قبض قبضة وقال: هؤلاء من أهل الجنة، وهؤلاء من أهل النار؛ هذا العبد الذي يعيش الآن لا يدري هو من أي القبضتين فعليه أن يلجأ إلى الله ﷻ وأن يُلِحّ عليه، ويسأله ويجاهد نفسه على طاعته كما أمره ربه بذلك، وكما أمره بذلك رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيعيش بين الرجاء والخوف والإلحاح على الله ﷻ، وصِدْق الإقبال على الله، ومجاهدة النفس على فِعْل الطاعات وتجنب المعاصي والخطيئات.

قال – رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

ونعتقد أن للرسول ﷺ حوضاً، ونعتقد أنه أول شافع وأول مشفع، وذكر الصراط، والميزان، و الموت، وأن المقتول قُتل بأجله واستوفى رزقه.

إلى أن قال: ومما نعتقد أن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الآخر؛ فيبسط يده فيقول: «ألا هل من سائل».. الحديث.

وليلة النصف، وعشية عرفة، وذكر الحديث في ذلك.

قال: ونعتقد أن الله كلم موسى تكليماً، واتخذ إبراهيم خليلاً، وأن الخلة غير الفقر؛ لا كما قال أهل البدع.

ونعتقد أن الله تعالى خص محمداً ﷺ بالرؤية، واتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً.

يؤجل الكلام على هذا إلى لقاء الغد بإذن الله ﷻ، نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا أجمعين ولوالدينا، وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليها ومولاها.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد، وآله وصحبه.

الدرس الثالث والعشرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

فيما نقله عن ابن خفيف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: ونعتقد أن للرسول ﷺ حوضاً، ونعتقد أنه أول شافع وأول مُشفع، وذكر الصراط، والميزان، و الموت، وأن المقتول قُتل بأجله واستوفى رزقه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

لا نزال مع هذا النقل الذي أورده شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في فتواه الحموية عن ابن خفيف- أبو عبد الله محمد بن خفيف- وهو نقْل مطوّل من كتاب له، واختصر- شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى من هذا الكتاب اختصارات أودعها في هذه الفتوى.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونعتقد أن للرسول ﷺ حوضاً) أي: الحوض المورود الذي أعدَّه الله ﷻ لنبيّنا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولأُمته، وجاءت صفة هذا الحوض في السُّنة بأنه «أحلى من العسل، وأن رائحته أطيب من رائحة المسك، وأن كيزانه عدد نجوم السماء، وأن مَنْ شرِب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً» إلى غير ذلك من الصفات.

فمن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالحوض، ومن الإيمان بالحوض: الإيمان بكل صفاته الثابتة في سُنة النبي صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ومن آثار هذا الإيمان: أن يعمل العمل الذي يُهيئه بإذن الله ﷻ لأن يشرب من هذا الحوض شربة لا يظمأ بعدها أبداً- مَنَّ الله علينا أجمعين بذلك-.

قال: (ونعتقد أنه أول شافع وأول مشفع) وهذا أيضاً من جملة أمور الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بشفاعة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والإيمان أيضاً بِعظَم شفاعته، عِظَم شأن شفاعته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهو أوّل شافع، وأَوَّل مُشَفَّع، وخير شافع وخير مُشَفَّع صلوات الله وسلامه عليه.

ومعنى الشافع: أي للناس، وللمؤمنين عند الله تبارك وتعالى؛ أما للناس عموماً: فبالشفاعة العظمى، وأما للمؤمنين فهي أنواع من الشفاعات ثبتت له صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، منها: ما خُصَّ بها ﷺ، ومنها: مَنْ يشاركه غيره فيها من الملائكة والأنبياء وعباد الله الصالحين وأوليائه المقربين.

ومعنى (مشفع): أي شفاعته مقبولة عند الله ﷻ، شفاعته ﷺ مقبولة عند الله، فهو شافع ومُشَفَّع.

ومن معاني قوله (مشفع) ما دل عليه الحديث: «ارفع رأسك، وسل تُعطه، واشفع تُشَفَّع».

قال: (وذكر الصراط) أي: الذي يُنصَب على متن جهنم، قد قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم]- جعلنا الله وإياكم من المتقين الناجين.

وقد جاء تفسير الورود في السُّنة: بالعبور على هذا الصراط الذي يُنصَب على متن جهنم وهو أحدُّ من الشعرة، وأدق من السيف، ويكون مرور الناس على هذا الصراط على قدر أعمالهم؛ فمنهم مَنْ يمر كالبرق، ومنهم مَنْ يمر كالريح، ومنهم مَنْ يمر كركاب الإبل، ومنهم مَنْ يمر جرياً، ومنهم مَنْ يمر مشياً، ومنهم مَنْ يمر زحفاً، هذا كله بحسب الأعمال، كما أنهم تفاوتوا في الأعمال والطاعات في هذه الحياة الدنيا فإنهم يتفاوتون في العبور على الصراط يوم القيامة.

وهذا الصراط الذي يُنصَب على متن جهنم هو تبع للصراط المستقيم الذي نصبه الله طريقاً لعباده في هذه الحياة الدنيا، كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال في الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة] وهذه الهداية للصراط المستقيم التي نسألها الله جل وعلا في سورة الفاتحة تتناول هداية الصراط في هذه الحياة الدنيا لزوماً له، هدايةً إليه، وهدايةً فيه؛ وهما هدايتان.

والهداية على الصراط الذي يُنصَب على متن جهنم بالتوفيق لعبوره والنجاة من السقوط في نار جهنم، والله يقول: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

(والميزان) الذي يضعه الله ﷻ لوزن أعمال الخلائق، كما قال الله ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء:٤٧]، والجمع في قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ ليس باعتبار تعدد الموازين، فهو ميزان واحد يضعه الله ﷻ يوم القيامة، وإنما هذا التعدد باعتبار الموزون فيه من أعمال العباد وأنواع أعمال العباد، فبهذا الاعتبار جُمِع، لا باعتبار تعدد الميزان، فهو ميزان واحد حقيقي يضعه الله ﷻ يوم القيامة، له كفتان: كفة للحسنات، وكفة للسيئات..

قال الله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون].

وقال جل وعلا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

قال: (والموت) أي: ومن جُملة المعتقد وأمور الإيمان - الإيمان باليوم الآخر -: الإيمان بالموت.

والموت هو أول منازل الآخرة، ومَنْ مات قامت قيامته وبدأت آخرته وانتهت دنياه، فالموت فاصل وفيصل بين الدنيا والآخرة.

وساعة الإنسان مَنِيَّته، والساعة ساعتان؛ ساعة تخص كل امرئ بعينه وهي موته فمَنْ مات بدأت ساعته، والساعة التي هي الكبرى، التي يُنفَخ في الصور فيصعق مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض.

فالموت حق، ومن الإيمان بالموت: الإيمان بكل ما يتعلق بالموت صفةً له، وتفاصيل تتعلق به كقبض الروح، وصفة قبْض الروح، وكيفية انتزاع الروح، والملائكة الذين وَكَل الله ﷻ ذلك: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة:١١]، من الإيمان بالموت: الإيمان بأن ملك وَكَل الله ﷻ له ذلك، قبْض الأرواح..، إلى أن يصل الأمر بالموت إلى أن يُذبَح نفسه الموت بين الجنة وبين النار، يُذْبَح بين الجنة والنار، فكل هذه التفاصيل نؤمن بها مما يتعلق بالموت.

أن لكل أيضاً عبد أجل يموت فيه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨]، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل:٦١]، فكل هذه التفاصيل التي جاءت في الكتاب أو السُّنة فالإيمان بها داخل في الإيمان بالموت، والإيمان بالموت داخل في الإيمان باليوم الآخر.

قال: (وأن المقتول قُتل بأجله واستوفى رزقه) أي: خلافاً للمعتزلة ومَنْ نحا نحوهم: أن المقتول لم يستوفِ أجله، ولم يستتم رزقه. ويقولون: إن قاتل المقتول قطع عليه الأجل! وأن أجله ليس هذا، الذي

أجَّلَه الله له، وكتبه الله له ليس هذا، وإنما القاتل قطع عليه الأجل! فالله أَجَّلَ أجلاً وجعل له أجلاً لا يستقدم عنه، أخبر الله أنه لا يستقدم عن هذا الأجل ولا يستأخر، والمعتزلة يقولون: قطع عليه هذا الأجل! سبحان الله!.. يقولون: القاتل قطع عليه هذا الأجل، أَجَّل الله له أجلاً جعل له أجلاً، وأخبر سبحانه أنه لا يستقدم عن هذا الأجل ولا يستأخر وأن لكل أجل كتاب وموعد لا يتعداه ولا يتأخره، وهؤلاء يقولون: إن القاتل قطع عليه الأجل، ويقولون: إن الرزق الذي له لم يستوفِه بقتْل هذا القاتل له!!؛ وهذا من جُملة ضلالات هؤلاء المبنية على عقولهم الفاسدة، وبُعدهم عن النصوص.

وهكذا كل مَنْ يبعد عن كتاب الله وسُنة نبيّه ﷺ يضل عن سواء السبيل، يضل في نفسه ويُضِل غيره عن سواء السبيل.

قال: (وأن المقتول قُتل بأجله واستوفى رزقه) أي: أن أجَلَه الله الذي كتبه له هو هذا، أنه يموت في هذا الوقت قتْلاً، منهم مَنْ يموت على فراشه، ومنهم مَنْ يموت قتْلاً، هذا القتل الذي حصل له هو أجَلَه، مثلما أن الذي مات أيضاً على فراشه هذا أجله الذي كتبه الله ﷻ وقَدَّرَه وهو داخل – هذا الأجل – داخل تحت عموم قول النبي ﷺ: «إن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة».

وفي الحديث: «أن الجنين في بطن أُمه عندما يبلغ مائة وعشرين يُرسَل إليه الملك فيُؤمَر بكَتْب أربع كلمات؛ بكتْب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي هو أو سعيد»؛ كتْب رزقه وأجله.

وهؤلاء المعتزلة الضُّلال يقولون: إن القاتل قطع عليه الرزق وقطع عليه الأجل!!

وكأنهم يرون بهذه الضلالة وهذا القول الباطل أن فِعْل العبد الذي هو القاتل أقوى، وهذا من لوازم هذا القول الفاسد الباطل المصادم للحق والهدى، ولكتاب الله وسُنة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه.

قال – رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

إلى أن قال: ومما نعتقد أن الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر؛ فيبسط يده فيقول: «ألا هل من سائل».. الحديث.

وليلة النصف، وعشية عرفة، وذكر الحديث في ذلك.

قال: (إلى أن قال) أي: ابن خفيف (ومما نعتقد أن الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا) السماء الدنيا سُميت بهذا الاسم لأنها هي التي تلي الأرض، فهي سبع سموات والتي تلي الأرض من هذه السموات الأرض هي السماء الدنيا، وما بعدها أعلى منها وأرفع.

قال: (في ثلث الليل الآخر؛ فيبسط يده فيقول: «ألا هل من سائل».. الحديث) «ألا هل من سائل فأعطيه، ومن مستغفر فأغفر له، ومن داعٍ فأجيب دعاءه»، وهذا الحديث- حديث النزول- حديث تواتر عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ورواه عنه من صحابته الكرام ما يقرب من ثلاثين صحابياً ذكرهم ابن القيم، وذكر رواياتهم معزوة إلى مصادرها في كتابه «الصواعق المُرسَلة»، ونص غير واحد من أهل العلم على تواتر هذا الحديث، وجميع هؤلاء الصحابة- الذين تبلغ عِدتهم الثلاثين- كلهم سمعوا النبي ﷺ يقول: «ينزل ربنا»، في كل ذلك يضيف هذا النزول إلى الله، وهو أعلم خلْق الله بالله، وأنصح خلْق الله لعباد الله صلوات الله وسلامه عليه، ولا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]..

فسمع الصحابة منه سماعاً متكرراً «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا»، فالنزول حق، يؤمَن به كما ورد، ويُثبَت كما جاء، ويقال كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ينزل ربنا، فمَنْ قال: (الذي ينزل أَمْره، أو ملكه، أو رحمته)، فهذا كله من التأويل الذي ما أنزل الله به من سلطان.

ولو كان الذي ينزل الأمر لقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ينزل أمْر ربنا، أو رحمة ربنا، أو ملك ربنا، وقد أُوتِي البيان والنُّصْح صلوات الله وسلامه عليه، في كل المرات قال: «ينزل ربنا»، حتى ما قال مرة واحدة من هذه المرات: (ينزل أمْر ربنا، أو رحمة ربنا، أو ملك ربنا) حتى يُقال: يُحمَل المُطلَق على المُقيَّد، في كل ذلك يقول: «ينزل ربنا»؛ فأضاف النزول إلى الله.

فعقيدة أهل السُّنة في ذلك: إثبات النزول الإلهي، والبُعد عن طريقة أهل الضلال الذين يُدخلون عقولهم القاصرة في هذا الباب العظيم الخطير ثم يعترض، يعترض على كلام الرسول فيما يُخبِر به عن ربِّه ﷻ بعقله القاصر، ولهذا ترى مَنْ يُقحِم عقله القاصر يبدأ يقول: كيف ينزل، والأمر كيت وكيت إلى آخر ما يقولون..

فالواجب على المسلم أن يتلقى هذه النصوص بالتسليم والتعظيم والإيمان كما كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

وقد كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يعلمون أن ثلث الليل يختلف من بلد إلى بلد، وأن الشمس تطلع على قوم وتغيب عنهم، وتطلع على آخرين وتغيب عنهم، إلى أن تطلع على القوم الذين طلعت عليهم أولاً، يعلمون ذلك، ولما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ينزل ربنا» سمعوا الحديث وحفظوا الحديث وآمنوا بما دلّ عليه الحديث وبلّغوه كما سمعوه، ولم يُسمَع عنهم اعتراض أو انتقاد، أو لماذا، أو كيف... هذا كله كانوا في عافية منه.

ومَنْ لم يسعه ما وسعهم لا وسّع الله عليه؛ هذا هو الحق الذي كان عليه الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وكل ما جاء من اعتراضات أو غير ذلك هذا كله من الضلال الذي ما أنزل الله تبارك وتعالى به من سلطان.

وكانوا أقدر لأنهم أحدَّ ذكاءً وأحسن عقولاً، كانوا أقدر من غيرهم على الجدل وهذه الأمور، لكنهم كفّوا عن هذه الأشياء عن بصيرة وعن ديانة وعن إذعان وتسليم لأمر الله تبارك وتعالى، فكانوا أعلم وأسلم وأحكم فيما كانوا عليه من طريق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم.

أما مَنْ خاضوا في هذه العلوم الباطلة فلا علم ولا سلامة ولا حكمة، وإنما العلم والسلامة والحكمة فيما كان عليه أصحاب النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وقد قال نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في ذلك قولاً جامعاً، قال: لما سُئل عن الجماعة، قال: «مَنْ كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»، هذا هو الحق، فلا دين إلا ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم.

وفي هذا الحديث أنه جل وعلا يقول: «كل ليلة مَنْ يسألني، مَنْ يدعوني، مَنْ يستغفرني»، وهذا يدل على فضل هذا الوقت، في الثلث الأخير من الليل، فضل هذا الوقت وعِظَم شأنه، وأنه وقت إجابة الدعوات، ومن أحرى الأوقات إجابةً للدعاء.

ولهذا ينبغي أن تكون عقيدة مصحوبة بالعمل، مُثمرة للعمل، فإذا قرأ العبد مثل هذا الحديث ووعاه وفهمه لا يحرم نفسه من هذا الفضل، ولا يكن حظه منه مجرد السماع، بل ينبغي أن يكون له نصيب من هذا الوقت المبارك الشريف الفاضل، يناجي ربه ﷻ، ويسأله ويدعوه ويستغفر..

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[آل عمران:١٧]

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾[الذاريات]..

والعقيدة إذا صحت وقويت ورسخت أثمرت العمل بإذن الله ﷻ.

قال: (وليلة النصف) أي: من شعبان، وهذه ورد فيها حديث عن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أن الله ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، وأنه يغفر لكل إنسان إلا مَنْ في قلبه شحناء أو مَنْ كان عنده شِرْك، جاء بذلك الحديث عن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، واختلف العلماء- كما ذكر الحافظ بن رجب -رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه «لطائف المعارف»- اختلف العلماء فيه، وفي الأحاديث التي جاءت في فضل النصف من شعبان، قال: فضعَّفها الأكثرون، وصحح ابن حبان بعضها.

قال: (وعشية عرفة)، والحديث في (عشية عرفة) جاء في صحيح مسلم «ما من يوم أكثر من أن يُعتِق الله فيه عبداً من النار، وإنه ليدنو فيباهي ملائكته، يقول: ما أراد هؤلاء؟» (وذكر الحديث في ذلك).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

قال: ونعتقد أن الله كلم موسى تكليماً، واتخذ إبراهيم خليلاً، وأن الخلة غير الفقر؛ لا كما قال أهل البدع.

(قال: ونعتقد أن الله كلم موسى تكليماً) كلّم الله سبحانه وتعالى موسى، وهو من أولي العزم من الرسل وعددهم خمسة، كلمه تكليماً: أي بكلام سمعه موسى من الله بلا واسطة، ولهذا يقال عنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: كليم الله، لأنه سمع كلام الله من الله، وهذا أمْر فضّل الله ﷻ به موسى عليه السلام، فهو موسى الكليم؛ لأنه سمع كلام الله من الله تبارك وتعالى، سمع: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه] سمع هذا من الله ﷻ بدون واسطة ملك.

قال: (ونعتقد أن الله كلم موسى تكليماً، واتخذ إبراهيم خليلاً) وهذا أيضاً أمر أكرم الله ﷻ به إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ﷺ، فكل الأنبياء الذين جاءوا من بعده من ذريته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولهذا يقال له: أبو الأنبياء، فأكرمه الله بالخُلة، اتخذه خليلاً، والخلة أعلى درجات المحبة، أعلى درجات المحبة: الخلة، والله ﷻ لم يجعل في هذه الدرجة التي هي أعلى درجات المحبة إلا خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد قال نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً».

فالذي دلّت عليه النصوص أن الله ﷻ اتخذ من عباده خليلاً إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليه، وما تفرّق من فضائل في الأنبياء جمعها الله ﷻ لنبيّنا، فهو خليل الرحمن وهو كليم الرحمن، لأنه سمع كلام الله من الله بلا واسطة لما عُرِج به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى السماء، فما تفرق من فضائل في الأنبياء جمعها الله ﷻ لنبينا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، فهو خليل الرحمن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، خليل الرحمن.

والاقتصار في وصْفه بـ(حبيب الله) أو (الحبيب) أو نحو ذلك؛ هذا أقل من الأمر الذي أعطاه الله إياه، كل عباد الله يحبهم الله، يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الصادقين، يحب المتقين، يحب أولياءه ويحبونه، لكن الخُلة خصّ بها نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: «اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»، وبعضهم ربما يظن أنه إذا أراد أن يبالغ في الوصف- وصْف النبي ﷺ- قال: حبيب الله، أو الحبيب المصطفى، أو

نحو ذلك، مقامه في هذا الباب أعلى من المحبة التي هي لعموم عباد الله، له الخلة التي هي أعلى درجات المحبة، خُصَّ بها صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، فاتخذه الله خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً.

قال: (الخلة غير الفقر؛ لا كما قال أهل البدع) يشير بذلك إلى أن بعض أهل البدع تأولوا معنى الخلة: الفقر، وأن خليل.. أن معنى خليل الله: أي الفقير إلى الله، أو الذي تحقق فيه معنى الافتقار إلى الله، وكمّل معنى الافتقار إلى الله ﷻ، الخلة ليست هذه، الافتقار إلى الله ﷻ مقام مطلوب من العبد، افتقاره يترتب عليه خضوعه وتذلله وانكساره بين يدي الله تبارك وتعالى، لكن الخلة هي فضل من الله ﷻ خص به نبيّه إبراهيم، ونبيّه محمد ﷺ، وهي أعلى درجات المحبة، وأرفعها.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ونعتقد أن الله تعالى خص محمداً ﷺ بالرؤية، واتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً.

قال: (ونعتقد أن الله تعالى خص محمداً ﷺ بالرؤية، واتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً)؛

أما اتخاذه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خليلاً فقد ثبت به الحديث عنه صلوات الله وسلامه عليه قال: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً».

أما أنه خُصَّ بالرؤية- ومراد المصنف بذلك: أن النبي ﷺ رأى ربه ببصره يوم عُرِج به إلى السماء- فهذا لم يثبت به دليل؛ بل الأدلة جاءت على خلاف ذلك، فلم يثبت دليل أن النبي ﷺ رأى ربّه، ولما سُئل عن ذلك عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «نور أنّى أراه»، وقال عن عموم الناس: «اعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»؛ فالرؤية ليست في الدنيا، الرؤية يوم القيامة «إنكم سترون ربكم يوم القيامة»، فالرؤية يوم القيامة وهي أعظم نعيم يناله أهل الإيمان في تلك الدار، فلم يثبت دليل عن النبي ﷺ أنه رأى ربه.

وقد جاء عن بعض الصحابة مثل ابن عباس ألفاظ مُطلقة فُهِم منها أنه يُثبِت الرؤية- أي: البصرية-، وجاءت عنه ألفاظ مُقيّدة، ويُحمَل مُطلَق ما جاء عنه على مُقيّد ما جاء عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ وأرضاه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مُطلقة أو مُقيَّدة بالفؤاد، تارةً يقول: رأى محمد ربَّه، وتارةً يقول: رآه محمد، ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح بأنه رآه بعينه.

وكذلك الإمام أحمد: تارةً يُطلِق الرؤية، وتارةً يقول: رآه بفؤاده.

إلى أن قال: وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسُّنة ما يدل على ذلك.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ونعتقد أن الله تعالى اختص بمفاتح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان:٣٤] الآية.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (ونعتقد أن الله ﷻ اختص بمفاتح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله ﷻ) كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ ﴾ [لقمان:٣٤]، فهذه خمس علمها عند الله ﷻ لا يعلمها إلا هو، وهي مفاتيح الغيب، وهي خمس لا يعلمها إلا الله جل وعلا جُمعت في هذه الآية الكريمة من سورة لقمان.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ونعتقد المسح على الخفين: ثلاثاً للمسافر، ويوماً وليلة للمقيم.

(ونعتقد المسح على الخفين: ثلاثاً للمسافر، ويوماً وليلة للمقيم)؛ وهذه المسألة- كما لا يخفى- من مسائل الفروع والأحكام، ولكن ذِكْر أهل العلم لها في كتب العقيدة ولهذا نظائر من مسائل الأحكام تُذْكَر في كتب العقيدة، لما وُجِد فيها مخالفة مُعلنة، وإنكار مُعلَن من أهل البدع، فلأجل ذلك أُثبِتت في الاعتقاد، فمثلاً: المسح على الخفين هذا يُنكره الرافضة، ولا يؤمنون به، فلما وُجِد إنكار من أهل البدع لذلك وعدم إيمان بهذا الحُكم أُثبت في كتب العقيدة، وإلا هذه المسألة محلها كتب الأحكام وليس كتب العقائد، لكن لمّا وُجِد المخالفة أُثبت في هذا الكتاب أو في كتب الاعتقاد المسح على الخفين، وغيرها أيضاً من المسائل التي تتعلق بالأحكام، لكن لمّا وُجِد من أهل البدع مَنْ أنكر وأعلن الإنكار وعدم الإيمان بها أثبت أئمة السلف ذلك في كتب المعتقد.

وهذا فيه أيضاً تنبيه: إلى أن مسائل الأحكام كلها قائمة على الإيمان، فأنت عندما تصلي أو تصوم أو تتوضأ.. إلى غير ذلك، أنت تؤمن بأن الله شرع ذلك وافترضه وتعبدك بهذه العبادات، وتؤمن بأن لها ثواب، ولها أجر.. إلى غير ذلك.

ولهذا مثلاً جاء في الحديث: «مَنْ صام رمضان إيماناً واحتساباً»، «مَنْ قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً» وكل عبادة لا بد فيها من الإيمان، ولا تكون العبادة مقبولة إلا إذا قامت على الإيمان بالله ﷻ، والإيمان بفرضية الله لهذا العمل، أو أن الله ﷻ شرع لعباده هذا العمل، أو أمرهم ﷻ بهذا العمل.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ونعتقد الصبر على السلطان من قريش؛ ما كان من جور أو عدل، ما أقام الصلاة من الجُمع والأعياد، والجهاد معهم ماض إلى يوم القيامة.

والصلاة في الجماعة حيث يُنادَى لها واجب؛ إذا لم يكن عذر أو مانع.

والتراويح سُنة.

ونشهد أن مَنْ ترك الصلاة عمداً فهو كافر، والشهادة والبراءة بدعة، والصلاة على مَنْ مات من أهل القبلة سُنة؛ ولا نُنزل أحداً جنة ولا ناراً حتى يكون الله ينزلهم.

والمراء والجدال في الدين بدعة.

هذا يكون الحديث عنه بإذن الله ﷻ في لقاء الغد، نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بها علمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا، وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليها ومولاها.

اللهم إنّا نسألك الهُدى والتقى والعفة والغنى.

اللهم أَصلِح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلِح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأَصلِح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر.

اللهم يا ربنا نسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول أو عمل، ونعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول أو عمل.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد، وآله وصحبه.

برنامج
دراسة متون
العقيدة
(المستوى الثالث)
@mton_aqeda3

شرح الفتوى الحموية الكبرى
لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

لفضيلة الشيخ
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله

من الدرس (٢٤) إلى الدرس (٢٧)

الشيخ لم يراجع التفريغ

الدرس الرابع والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»: نقلاً عن ابن خفيف:

ونعتقد الصبر على السلطان من قريش؛ ما كان من جور أو عدل، ما أقام الصلاة من الجُمع والأعياد، والجهاد معهم ماض إلى يوم القيامة، والصلاة في الجماعة حيث يُنادَى لها واجب؛ إذا لم يكن عذر مانع، والتراويح سُنة.

ونشهد أن مَنْ ترك الصلاة عمداً فهو كافر، والشهادة والبراءة بدعة، والصلاة على مَنْ مات من أهل القبلة سُنة؛ ولا نُنزل أحداً جنة ولا ناراً حتى يكون الله ينزلهم.

والمراء والجدال في الدين بدعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم إنّا نسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً.

أما بعد..

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فيما نقله عن أبي عبد الله محمد بن خفيف في ذِكْر المعتقد، قال: (ونعتقد الصبر على السلطان من قريش؛ ما كان من جور أو عدل، ما أقام الصلاة من الجُمع والأعياد) هذا اعتبره أئمة السلف وعلماء السُّنة من أمور المعتقد؛ لأن أمره عظيم، وصلاح شأن الناس وانتظام مصالحهم لا يتحقق إلا به، ولهذا جاءت الشريعة بالتأكيد على هذا الأمر وإيجابه، والتحذير من إهماله والتفريط فيه، وذِكْر ما يترتب على العناية بهذا الأمر من المصالح العظيمة التي تعود على الأُمة وعلى جماعة المسلمين، وأيضاً ما يترتب على الإخلال به من الفساد العريض والشر العظيم وإراقة الدماء، واختلال الأمن، وفساد أمور الناس وأحوالهم.

فالشريعة جاءت بهذا الأمر الذي هو السمع والطاعة والصبر في هذا المقام، وأنه يكون هذا السمع والطاعة في المنشط والمَكْره، والعُسر واليُسر، وإن كان هناك أَثَرة أو شيء من الظلم، أو نحو ذلك لأن هذا السمع والطاعة أمر غاية في الأهمية في انتظام مصالح المسلمين.

وذلك أنه لا تنتظم مصالح المسلمين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمْع وطاعة، فهي أمور منتظمة، ولا تتحقق المصلحة إلا بها، ومن هنا جاءت الشريعة بالتأكيد على ذلك.

وعامة مَنْ كتب من أئمة السلف في المعتقد يُورِد هذا الأصل في جملة أمور المعتقد لما له من أهمية عظيمة ومكانة عَلِيَّة، ولما يترتب عليه من المصالح، ودرء الشرور والمفاسد.

قال: (ونعتقد الصبر على السلطان) المراد بـ(السلطان): مَنْ وَلِيَ أمر المسلمين.

قال: (ونعتقد الصبر على السلطان من قريش) قوله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من قريش) أخذاً من الحديث، وعدَّه بعض أهل العلم متواتراً عن النبي ﷺ «الأئمة من قريش»، ولكن كما بيّن أهل العلم هذا إنما هو عندما تكون الولاية بالاختيار، أما إذا حصلت ولاية بالغلبة فإنه يُسمَع ويُطاع لولي الأمر وإن لم يكن منهم، كما يدل لذلك قول النبي ﷺ: «وإن تأمَّر عليكم عبد حبشي».

وقوله: (ما كان من جور أو عدل) هذا فيه ردٌّ على الخوارج ومَنْ نحا نحوهم في أن السمع والطاعة لا يكون إلا لأئمة العدل دون الجور والظلم، وقولهم: (هذا باطل) مخالف للنصوص الثابتة عن رسول الله ﷺ؛ فالسمع والطاعة يكون لأئمة العدل وأئمة الجور، والنبي ﷺ نصَّ على هذا المعنى في غير ما حديث عنه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، حتى إنه صَحَّ عنه أنه قال: «وإن أخذ مالك، وضرب ظهرك»، ونَصَّ على أن السمع والطاعة يكون «وإن كان هناك أَثَرة»- أي: بالمال-، وغير ذلك جاء عنه في هذا المعنى أحاديث كثيرة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: (ما كان من جور أو عدل) أي أن السمع والطاعة يكون لأئمة العدل وأئمة الجور.

والعبد مأمور في هذا المقام بالصبر، يصبر حتى يستريح بر، أو يُستراح من فاجر.

قال: (ما أقام الصلاة من الجُمع والأعياد) وهذا أمر مهم فيما يتعلق بمهمة ولي الأمر، من أعظم ما ينبغي أن يوليه عنايته واهتمامه: العناية بالجماعة، وإقام الصلوات التي افترضها الله ﷻ على عباده، فيقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما أقام الصلاة من الجُمع والأعياد).

(والجهاد معهم ماض إلى يوم القيامة) أي مع الأئمة، سـواء كانوا أئمة جور أو أئمة عدل، قد صـحَّ في الحديث عن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «إنما الإمام جُنة، يُقاتَل من ورائه، ويُتَّقى به».

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (والصـلاة في الجماعة حيث يُنادَى لها واجب؛ إذا لم يكن عذر مانع) وهذا فيه التحذير من طرائق بعض أهل البدع، ولاسيما مَنْ نحا منحى الخوارج، فإنهم إذا كان الإمام جور أو فيما يظن هو أنه إمام جور يتخلف عن الجماعة ولا يرى صـحة إتيان الجماعة ما دام أن الذي يلي الأمر- أمر المسـلمين- إمام الجور، ولهذا يتخلف عن الجماعة وينفصـل عن جماعة المسـلمين، فلا يشـهد الجُمع ولا الأعياد، ولا يشـهد بعضـهم حتى الصـلوات الخمس مع جماعة المسـلمين، ينفصـل عن الجماعة، وهذا هو الخروج عن جماعة المسلمين، قال: (حيث يُنادَى لها واجب؛ إذا لم يكن عذر).

وإتيان الجماعة والمواظبة على الصـلوات الخمس في جماعة المسـلمين شـأنه- كما قال المصـنف.. كما قال ابن خفيف- واجب، ويأثم مَنْ لم يفعله؛ لأن الدلائل والشــواهد في الكتاب والسُّـنة على وجوب ذلك كثيرة، وصَحَّ عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «مَنْ سمع النداء فلم يُجِب فلا صلاة له إلا من عذر».

ومن أهل العلم مَنْ ذهب إلى أن مَنْ كان قادراً على الصـلاة مع الجماعة وتركها تفريطاً وصـلى في رحله أو في بيته أن صلاته لا تصح، ذهب إلى هذا بعض أهل العلم أخذاً من هذا الحديث، فلا صلاة له.

ومنهم مَنْ قال: أن النفي يدل على الإثم في ترْكه لصــلاة الجماعة؛ لأن الله ﷻ أوجب عليه أن يؤدي هذه الصلوات الخمس مع جماعة المسلمين مع الرجال ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ ﴾ [النور]، وتأمل هذا الوصـف لهؤلاء الذين يشـهدون الصـلاة مع الجماعة، قال: رجال..

وتجد بعض الناس عندما يُنادَى الرجال للصلاة- في بيوت الله التي أذِن الله ﷻ أن تُرفَع لذلك- يُنادَى للصلاة وهو في عافية وصحة من بدنة ولا يجيب!

ولهذا يقال في شـأن هؤلاء: أين الرجولة التي ذكرها الله وصْـفاً لهؤلاء؟ أين الرجولة؟ إذا كان الحديث عن الرجولة والمراجل، أين الرجولة، وهو لا يكون مع هؤلاء الذين قال الله عنهم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [النور:٣٧]، فتجد الصــلاة يُنادَى لها في بيوت الله ويصــلي مع أخته وأمه وزوجته في البيت ولا يأتي مع الرجال، هذا إن صلى..

وبعضهم ربما أيضاً يُنادَى للصلاة ولا يصلي- والعياذ بالله-.

فالجماعة واجبة حيث يُنادَى لها.

وقد قال عبد الله بن مسعود كما في صحيح مسلم: إن الله شرع لنبيكم سُنن الهدى، وإن من سُنن الهدى هؤلاء الصلوات الخمس حيث يُنادَى بهن- أي: في المساجد بيوت الله تبارك وتعالى-.

قال: (إذا لم يكن عذر مانع) كأن يكون الإنسان مريضاً، لا يستطيع أن يذهب إلى المسجد ليؤدي الصلاة مع جماعة المسلمين.

قال: (والتراويح سُنة) أي: أداؤها جماعةً في ليالي شهر رمضان المبارك سُنة مأثورة عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وأثبت هذه السُّنة -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الموضع، والموضع ذِكْر لأمور المعتقد، أورد هذه السُّنة لوجود طائفة من أهل البدع أنكرت هذه السُّنة وأعلنت إنكارها وادّعت أنها بدعة، فلهذا أثبت ذلك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أثبت -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذه السُّنة في جملة أمور المعتقد- أي: ردّاً على هذه الطائفة من أهل الضلال والانحراف والباطل في دعواهم أن صلاة التراويح ليست بسُنة وإنما هي بدعة، والذين ذهبوا إلى ذلك هم الرافضة، وقالوا: إن الذي أحدث صلاة التراويح عمر بن الخطاب، وأنه لا وجود لها قبله، وهم عندما يقولون ذلك يقولونه عن جهل كامل بدين الله ﷻ، وجهل تام بالمأثور عن الرسول ﷺ إضافة إلى ما عُرف به القوم من الكذب حتى إن الشافعي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قال: (ما رأيت أشهد بالزور- أي: بالكذب- من الرافضة).

ولهذا رووا في هذا الباب حديثاً كذبوه على الرسول صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، قالوا في زعمهم أنه قال: إن الصلاة بالليل في شهر رمضان من النافلة جماعةً بدعة، هذا يزعمون أنه حديث، وأن النبي ﷺ قال ذلك، وهذا من الشواهد والدلائل على جرأة القوم على الكذب ونقْل الكذب عن الرسول ﷺ، وقد صحَّ عن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه صلى بالناس التراويح ليلة وليلتين وثلاث، ثم توقف خشية أن تُفرَض عليهم، فالتراويح سُنة ثابتة عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: (ونشهد أن مَنْ ترك الصلاة عمداً فهو كافر)؛ وهذا دلّت عليه دلائل وشواهد في الكتاب والسُّنة، والمأثور عن الصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، قد قال نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمَنْ تركها فقد كفر»، وذُكِرَت عنده الصلاة يوماً فقال: «مَنْ حافظ عليها كانت له

نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة، ومَنْ لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة وحُشِر مع قارون وفرعون وهامان وأُمِيّة بن خلف».

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (والشهادة والبراءة بدعة) هذا اللفظ يُروَى عن جماعة من السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى أنهم قالوا: (الشهادة بدعة والبراءة بدعة)، الشهادة: أي لمعين تزكيةً له بأنه من أهل الجنة، هذا بدعة ما لم يأتِ بذلك شيء عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

وكذلك الشهادة بالنار لمعين ما لم يشهد بذلك رسول الله ﷺ، ما لم تكن هذه الشهادة قائمة على الدليل والبيّنة الواضحة من كلام الرسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وقوله: (والبراءة بدعة) يظهر- والله أعلم- أنهم أرادوا بذلك الرد على الرافضة في براءتهم من أصحاب النبي، أو يكون الأمر أعمّ من ذلك: البراءة أي من أهل الحق والهدى والاستقامة والديانة، فيبرأ منهم ويشهد لمعينين بأنهم مثلاً من أهل الجنة، ويبرأ مثلاً من غيرهم، وهذا يحصل عندما يقع الإنسان في الغلو ربما يرى أن مَنْ يُزَكِّيهم أو يرى صحة ديانتهم أفراد يُعدُّون على أصابع يده الواحدة أو الاثنتين ومَنْ سواهم يبرأ منهم، فأياً كانت الطريقة في الشهادة والبراءة التي هي من مسالك أهل الباطل وطرائق أهل البدع، فكل ذلك بدعة، ليست من دين الله تبارك وتعالى، وإنما مما أحدثه أهل الضلال والأهواء والباطل.

قال: (والصلاة على مَنْ مات من أهل القبلة سُنة) ويريد من أهل القبلة- أي: مَنْ كان من عصاة أهل القبلة، وإلا مَنْ كان أهل الاستقامة فالأمر واضح لا إشكال فيه، لكن مَنْ كان من العصاة وأهل الذنوب- أهل الكبائر- مَنْ مات منهم الصلاة عليه سُنة، لكن لولي الأمر مثلاً أو ذوي الشأن أن لا يصلي عليه من باب الزجر والردع، لا أن تُترَك الصلاة عليه كُليةً، يصلي عليه الناس لكن إن ترك مثلاً ولي الأمر أو مثلاً بعض ذوي الشأن الصلاة عليه من باب الزجر والردع عن الذنب الذي كان يرتكبه، أما أن تُترَك كُلية فهذا ليس من السُّنة.

(ولا نُنزل أحداً جنة ولا ناراً حتى يكون الله ينزلهم)؛ (لا نُنزل أحداً) أي: من الناس (جنة ولا ناراً حتى يكون الله يُنزلهم) أي أن أمر ذلك لله رب العالمين، فما جاءت الدلائل والشواهد عن الله وعن المُبلِّغ عنه رسوله ﷺ فإنه يُشهَد له بما دلَّ عليه الدليل، وجاءت عليه الشواهد من الكتاب والسُّنة.

قال: (والمراء والجدال في الدين بدعة) قد قال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨] فالمراء في الدين بدعة، أي: مما أحدثه أهل الأهواء، لأن الدين ليس مراء ولا مماراة، وإنما الدين اتّباع ولزوم لما جاء عن الله وعن رسوله صلوات الله وسلامه عليه وعمل بذلك، ومَنْ ترك العمل بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ ابتُلي بالجدل وأصبح ديدنه هو الجدل والخصومة، والأصل أن المسلم يستمع لكلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليعمل به، فإن أعرض عن العمل الذي هو مقصود العلم ابتُلي بالجدل، قال: (والمراء والجدال في الدين بدعة).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ونعتقد أن ما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ أَمْرُهم إلى الله، ونترحم على عائشة ونترضى عليها.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (ونعتقد أن ما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ أَمْرُهم إلى الله)؛ (ونعتقد أن ما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ أَمْرُهم) أي: في هذا الذي شجر بينهم (إلى الله) ﷺ، كما أنّا نشهد بخيريتهم وفضلهم، وأن ما وقع من خصومة وما شجر بينهم جاء عن اجتهاد، وقع عن اجتهاد، وقد صحَّ في الحديث عن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد وذنبه مغفور» على أن كثيراً مما يُنقَل في كتب الأخبار والتاريخ والسِّيَر فيما شجر بين الصحابة كثير منه كذب كما نصَّ على ذلك أهل العلم، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتاب «منهاج السُّنة» كثير من ذلك كذب، ولا يجوز للإنسان أن يخوض فيما شجر بينهم، بين أصحاب النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ولا يجوز أن يبحث في تلك الروايات بحثاً يترتب عليه وجود شيئاً من الغل في نفسه على بعض أصحاب النبي صلوات الله وسلامه عليه، وقد دأب في القديم والحديث كثير من أهل البدع إلى إبراز شيء من هذه الأمور التي شجرت بين الصحابة من أجل إيجاد الغل في نفوس الناس على أصحاب النبي الكريم ﷺ، أو تحريك الناس لسب الصحابة أو الوقيعة في الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

فالواجب في هذا الباب: الكف عن ما شجر بين الصحابة، هذا هو الواجب: الكف، كف النفس عن الخوض فيما شجر بين أصحاب النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ويقال قولاً مُجملاً، هم مجتهدون في هذه الأمور- إن صحت- ، مَنْ أصاب منهم فله أجران؛ أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، ومَنْ أخطأ منهم فله أجر واحد على اجتهاده وحرصه، وذنبه وخطؤه مغفور؛ لأنه وقع عن حرص واجتهاد ونُصح ولكنه لم

يُصب، أما مَنْ جاءه بعدهم فما شأنه... ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة]، أحد السلف سُئل عن ذلك فقال: تلك فتنة طهَّر الله منها سيوفنا، فلنطهر ألسنتنا، لا نخوض في ذلك، ولا يُستثنى في هذا الخوض، في هذا الباب إلا أمر واحد لأكابر العلماء، أكابر العلماء يدخلون في هذا الباب للرد فقط على المبطلة، مثلما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما خاض فيهم أهل الباطل بالباطل لزم أهل الحق أن يخوضوا فيهم بالحق- أي: رداً لباطل هؤلاء، وتكذيباً لهم في افترائهم أو تَقَوُّلِهم، أو انتقاصهم، أو وقيعتهم في صحابة النبي الكريم ﷺ ذَبّاً عن الصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، وتبياناً لمكانتهم العَلِيّة ومنزلتهم الرفيعة.

قال: (ونعتقد أن ما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ أمْرُهم إلى الله) هذه خلاصة وافية، أمرهم إلى الله جل وعلا، أما نحن لا نخوض في ذلك، هذا معنى قوله (أمْرُهم إلى الله): لا نخوض في ذلك، نترك أمرهم إلى الله ﷻ، وهم فيما صحَّ من ذلك بين مجتهد مصيب له أجران، ومجتهد مُخطئ له أجر واحد وذنبه مغفور.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (ونترحم على عائشة ونترضى عليها) خصَّها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا من بين الصحابة ذِكْراً بالترحم والترضي ربما لأنها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وأرضاها من أكثر الصحابة مَمْنْ تم التطاول على مقامها الرفيع ومكانتها العلية من أهل الضلال وخصوصاً الروافض، فإن كلامهم في الوقيعة في أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وأرضاها عائشة وطَعْنهم فيها وسَبِّهم لها، وشتْمهم لها من أكثر ما كان منهم وقيعة في أصحاب النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فلعله لأجل ذلك خصَّها، وإلا فإن هذا الترحم وهذا الترضي مطلوب تجاه أصحاب النبي ﷺ كلهم، لكن خصَّها بذلك لعله لهذا السبب، من أكثر مَنْ نِيلَ منه ومن مقامها الرفيع عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وأرضاها.

وقد ذُكِرَ لها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قوماً ينالون من بعض أصحاب النبي ﷺ، فقالت كلمة عظيمة وعجيبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ولها نصيب وافي من المعنى الذي أشارت إليه، قالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: إن الله ﷻ لما انقطع عنهم- أي: الصحابة- العمل- هذا معنى كلامها- ما أحب أن ينقطع عنهم الأجر، لما انقطع عنهم العمل ما أحب أن ينقطع عنهم الأجر، تشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا إلى أن هؤلاء السبابة للصحابة لا يضر الصحابة، أو لا ينال الصحابة من سَبِّهم شيء، ويؤخَذ من حسناتهم، وهذا معنى قولها: ما أحب أن ينقطع عنهم الأجر، يؤخَذ من حسناتهم للصحابة كما دلَّ على ذلك الحديث؛ حيث قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أتدرون مَنْ المفلس» قالوا: المفلس فينا مَنْ لا درهم له ولا متاع، قال: «إن المفلس من أمتي مَنْ يأتي يوم القيام بصلاة وصيام وصدقة ويأتي وقد شتم هذا، وضرب

هذا، وقذف هذا، وسفك دم هذا، فيؤخَذ من حسناته فيُعطون» إلى هذا المعنى تشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقولها: إنه لما انقطع عنهم العمل ما أحب الله أن ينقطع عنهم الأجر.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

والقول في اللفظ والملفوظ؛ وكذلك في الاسم والمسمى، والقول في أن الإيمان مخلوق أو غير مخلوق بدعة.

ويؤجل هذا إلى اللقاء القادم بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نسأل الله الكريم، رب العرش العظيم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا، وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللهم إنّا نسألك الهُدى والتقى والعِفَّة والغنى.

اللهم أَصلِح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تُبَلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تُسَلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد، وآله وصحبه.

الدرس الخامس والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»: نقلاً عن ابن خفيف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والقول في اللفظ والملفوظ؛ وكذلك في الاسم والمسمى بدعة؛ والقول في أن الإيمان مخلوق أو غير مخلوق بدعة.

واعلم أني ذكرت اعتقاد أهل السُّنة على ظاهر ما ورد عن الصحابة والتابعين مجملاً من غير استقصاء؛ إذ تقدم القول عن مشايخنا المعروفين من أهل الإمامة والديانة إلا أني أحببت أن أذكر عقود أصحابنا المتصوفة فيما أحدثه طائفة انتسبوا إليهم مما قد تخرصوا من القول مما نزّه الله المذهب وأهله من ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

قال ابن خفيف فيما نقلَه عنه شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فتواه «الحموية» قال: (والقول في اللفظ والملفوظ؛ وكذلك في الاسم والمسمى بدعة) اللفظ والملفوظ هذه مسألة تتعلق بكلام الله تبارك وتعالى، وهل ألفاظ الناس بالقرآن مخلوقة أو غير مخلوقة؟ مثلها: القراءة، والتلاوة؛ تلاوة الناس للقرآن مخلوقة أو ليست مخلوقة، قراءتهم للقرآن مخلوقة أو ليست مخلوقة؟

وهذه المسائل أوّل مَنْ أحدثها الجهمية، وأنشأوا هذه المقالة تشكيكاً للناس في عقيدتهم وإيمانهم بأن القرآن كلام الله ﷻ غير مخلوق، فأوّل مَنْ أنشأ ذلك هم الجهمية، فأنشأوا مقالة: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة)، ومن المعلوم أن الألفاظ تتناول- عند الإطلاق، عندما يقال: ألفاظنا أو تلاوتنا أو قراءتنا- تتناول المتلو المقروء- وهو كلام الله ﷻ غير مخلوق- لأن القرآن أينما توجّه فهو كلام الله، سواءً حُفِظَ في الصدور، أو تُلِي

بالألسن، أو قُرِئ أو نُظِر إليه في المصاحف، أو كُتِب في السطور، أو سُمِع بالآذان، أينما توجه فهو كلام الله، والكلام يُضاف إلى مَنْ قاله ابتداءً لا لِمَنْ نَقَله اداءاً.

فأَوَّل مَنْ أحدث ذلك الجهمية، قالوا: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) أرادوا بذلك التوصل إلى أن القرآن نفسه مخلوق- كما هي عقيدتهم- وهذه عقيدة باطلة أبطلها أئمة السلف، وقالوا: (مَنْ قال: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة فهو جهمي- أي: على عقيدة الجهمية-).

أراد قوم الرد على الجهمية فقالوا: (ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة) وهذا أيضاً قول مبتدع؛ لأن- كما تقدم- اللفظ أو المتلو يشمل حركة اللسان، وصوت القارئ، ويشمل المتلو المقروء نفسه الذي هو كلام الله ﷻ، ولهذا لا يقال: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) وهذا من عقيدة الجهمية كما تقدم، ولا يقال: (غير مخلوقة) وهذا قول مُحدَث؛ لأن كلاً منهما يتضمن باطلاً.

والمسألة من أصلها مما أحدثه أهل التجهم، والأصل في ذلك: عدم الخوض في هذا الأمر.

وإذا طُرِح من قِبَل أهل الضلال توضع الأمور مواضعها، ويُفَصَّل في الأمر، فإذا قال قائل: (هل ألفاظنا بالقرآن مخلوقة أو غير مخلوقة؟) يقال: (ماذا تريد باللفظ؟ إن كنت تريد صوت القارئ وحركة لسانه هذا شيء مخلوق، وإن كنت تريد المتلو المقروء هذا كلام الله ﷻ غير مخلوق).

شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مثل هذا يقول: (وبالتفصيل يستبين السبيل).

و(الاسم والمسمى) أيضاً هذه المسألة من محدثات الجهمية؛ أنشئوا هذه المقالة أيضاً للتوصل إلى القول بأن أسماء الله- تعالى الله عمّا يقولون- مخلوقة، فَهُم أَوَّل مَنْ قال: الاسم غير المسمى.

ومن المعلوم أن هذه الكلمة- (الاسم) وهل هو للمسمى أو غير مسمى- مبنية على معرفة ماذا يُراد بهذه الكلمة (الاسم)؛

فتارة يُراد بها: اللفظ نفسه (لفظ الاسم) مثل أن يقال: الرحمن كلمة عربية، لفظة عربية، هنا أُطلِق الاسم وأُريد نفسه، أُريد ألفاظه (الكلمات) أو الكلمة نفسها.

وتارةً يُراد: المسمى بالاسم.

فتارة يُطلَق ويراد الاسم نفسه، وتارةً يُطلَق ويراد المسمى به.

فإذا قيل: (هل الاسم هو المسمى أو غيره؟) لا بد من التفصيل.

والجهمية أَوَّل مَنْ أحدث أن الاسم غير المسمى أرادوا بذلك التوصل إلى أن أسماء الله تبارك وتعالى مخلوقة، وأيضاً من خلال ذلك التوصل إلى أن كلام الله ﷻ مخلوق.

والحق في ذلك: أن يقال كما جاء في القرآن؛

الله ﷻ قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤].

وقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه].

هذه أربعة مواضع في القرآن.

فالحق أن يقال: الاسم للمسمى كما هو في كلام الله ﷻ، لا يقال غيره، ولا يقال: الاسم هو المسمى، وإنما يُفصّل في الأمر، أو يقال كما في الآية الكريمة، أو الآيات الكريمات الاسم للمسمى.

قال: (والقول في أن الإيمان مخلوق أو غير مخلوق بدعة) وهذه أيضاً من مُحدثات الجهمية وعائدة لما سبق، أَوَّل مَنْ قال: (الإيمان مخلوق) هم الجهمية وأرادوا التوصل من خلاله إلى أن أسماء الله تبارك وتعالى وكلامه جل في علاه مخلوق، مثل: (لا إله إلا الله، سبحان الله) وغير ذلك مما جاء في كلامه سبحانه، ومثلما دلَّ عليه اسمه (المؤمن) جل في علاه، فأرادوا بقولهم: (الإيمان مخلوق) التوصل إلى ذلك.

ومن المعلوم أن الإيمان يتضمن فِعْل العبد وحركاته، ويتضمن ما يتعلق بكلمات الله ﷻ التي تعبد الله ﷻ عباده بتلاوتها، فاحتاج المقام- كما سبق- إلى التفصيل، وبالتفصيل يستبين السبيل.

فهذه ثلاث مسائل ذكرها، والواجب في كل هذه المسائل التفصيل، لا يجاب إجابة مُجملة، وإنما يُفصَّل في كل مسألة، ويُنظَر المراد باللفظ، ثم يكون الجواب في ضوء ذلك.

قال: (واعلم أني ذكرت اعتقاد أهل السُّنة على ظاهر ما ورد عن الصحابة والتابعين مجملاً من غير استقصاء) أي: فيما سبق (إذ تقدم القول عن مشايخنا المعروفين من أهل الإمامة والديانة) يقول: سبق أنني ذكرت ما يعتقده أئمة أهل السُّنة بدءاً من الصحابة فمَنْ اتبعهم بإحسان، لكن يقول: (أحببت أن أذكر عقود أصحابنا المتصوفة فيما أحدثه طائفة انتسبوا إليهم)، يقول: إن ثمة أشخاص انتسبوا إلى التصوف وأدخلوا في الدين من العظائم والأباطيل الشيء الكثير، يقول ذلك وهو في القرن الرابع، فكيف لو كان في

هذا القرن؟! ماذا يرى مما أحدثه ضُلَّال المتصوفة من الأمور الباطلة التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان، وأدخلوها واعتبروها أنها من الدين.

فإذا كان يقول ذلك وهو من المنتسبين أو المنسوبين للتصوف مثلما قال: (أصحابنا المتصوفة)، ثم يذكر أنه في ذلك الوقت يوجد من المتسبين للتصوف مَنْ أدخلوا في الدين من الأباطيل ما ليس منه، وسيذكر أمثلة كثيرة، إذا كان يقول ذلك في ذلك الوقت ماذا يقول في مثل هذا الزمان وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه، وفي كل عام تُرذلون».

قال: (فيما أحدثه طائفة انتسبوا إليهم مما قد تخرصوا من القول بما نزّه الله المذهب وأهله من ذلك).

إلى أن قال: وقرأتُ لمحمد بن جرير الطبري في كتاب سماه «التبصير» كتب بذلك إلى أهل طبرستان في اختلافٍ عندهم؛ وسألوه أن يُصَنِّف لهم ما يعتقده ويذهب إليه؛ فذكر في كتابه اختلاف القائلين برؤية الله تعالى؛ فذكر عن طائفة إثبات الرؤية في الدنيا والآخرة. ونسب هذه المقالة إلى الصوفية قاطبة لم يخص طائفة دون طائفة، فتبين أن ذلك على جهالة منه بأقوال المحصِّلين منهم؛ وكان ممّنْ نَسب إليه ذلك القول - بعد أن ادّعى على الطائفة – وكان ممّنْ نَسب إليه ذلك القول - بعد أن ادّعى على الطائفة – ابنَ أخت عبد الواحد بن زيد؛ والله أعلم بمحله عند المحصِّلين؛ فكيف بابن أخته.

وليس إذا أحدث الزائغ في نحلته قولاً نُسِب إلى الجملة؛ كذلك في الفقهاء والمُحدِّثين ليس من أحدث قولاً في الفقه؛ أو لبّس فيها حديثاً يُنسَب ذلك إلى جملة الفقهاء والمحدثين.

يقول: أنه سيذكر ما يتعلق بما أحدثه بعض المتصوفة وأدخلوه في الدين مما ليس فيه، وبيّن أن من المتصوفة أناس مُحصِّلين- أي: في علوم الشريعة- وأنهم على جادة أهل السُّنة، وأن هذه العقائد الباطلة ليسوا من أهلها، وأنه لا يصح أن تُنسَب هذه العقائد الباطلة لكل مَنْ انتسب إلى التصوف، بل فيهم مَنْ هو مُحصِّل وعلى عقيدة أهل السُّنة والجماعة.

وينتقد ابن جرير الطبري الإمام المفسر-رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الذي ألّفه بعنوان «التبصير» وهو مطبوع، ينتقد ابن جرير الطبري أنه نسب إلى الطائفة كلهم القول بأن الله يُرَى في الدنيا والآخرة، وهذا قول المتصوفة، أن الله يُرى في الدنيا والآخرة.

فينتقده أنه نسب ذلك إلى الطائفة كلهم، يقول: مع أن في الطائفة أناس مُحصِّلين وعلى قدر من الفهم والدراية بالسُّنة ولا يقولون بهذا القول، فلا يصح أن يُنسَب ذلك إلى الطائفة كلهم.

وقد يوجد أقوال في بعض الأفراد، فلا يصح أن يُنسَب ما وقع من بعضهم إليهم كلهم، مثلما عبّر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (ليس إذا أحدث الزائغ في نحلته قولاً نُسِب إلى الجملة) وإنما يُنسَب إلى الزائغ نفسه، لا إلى الطائفة كلهم.

وقال ذلك لأنه كان في الأوائل- أوائل المتنسبين إلى التصوف- مَنْ هم على الجادة في أمور الاعتقاد، لكن فيما بعد- لمّا تباعدت القرون والأزمنة عن السُّنة- الذي غلب على الطائفة وعلى المنتسب للتصوف هو الخرافة والضلال، هذا الذي غلب عليه، الذي انتسب إليها الغالب عليه الخرافة والضلال والبُعد عن سُنة النبي الكريم، وهدْيه القويم، والمعتقد الحق المستمد من كتاب الله وسُنة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه.

وهو عندما يتحدث هذا الحديث يتحدث عن عهد له قُرب في الزمن الأول- زمن الصحابة والتابعين- ففي مَنْ انتسب إلى التصوف في ذلك الوقت مَنْ عنده سلامة في المعتقد ولو في الجملة- مثلما سبق التنبيه لذلك- لكن فيما بعد لما امتد الزمان وبعُد العهد بسُنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ غلب على هؤلاء المتصوفة غلب عليهم الضلال، وأصبح هناك قواسم مشتركة، في الغالب لا ينتسب شخص إلى التصوف إلا ويكون عنده حظ ونصيب منها، مثل الحلول، ومثل الاستغاثة بغير الله ﷻ، ومثل الأذكار الشركية والبدعية، هذه قواسم مشتركة في الغالب مَنْ ينتسب إلى التصوف لا ينفك عن هذه الأشياء.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

واعلم أن ألفاظ الصوفية وعلومهم تختلف؛ فيُطلقون ألفاظهم على موضوعات لهم، ومرموزات وإشارات تجري فيما بينهم، فمَنْ لم يداخلهم على التحقيق ونازَل ما هم عليه رجع عنهم خاسئاً وهو وحسير.

هذه الرموز هي من الأمور التي تسبّبت في نشأة كثير من الضلال والباطل، والدين ليس قائماً على رموز، الدين قائم على وضوح، وكتاب الله كتاب مبين، وهدْي نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هدْي بيّن قويم.

وهذه الرموز هي من الأشياء التي ترتب عليها نشأة كثير من الضلال، والدين ليس قائم على الرموز، ومثل هذه الإشارات لألفاظ يحدثونها تحتمل حق وباطل، وتحتمل هُدى وضلال.

ومُتقدموهم يقولون: إنما قصدنا بها الحق، ومتأخروهم لم يفهموا منها إلا الباطل، فكانت وراء نشأة كثير من الباطل.

فالدين ليس قائم على إشارات ولا على رموز، وإنما هو قائم على الوضوح والبيان.

ثم ذكر إطلاقهم لفظ "الرؤية" بالتقييد، فقال: كثير ما يقولون: (رأيت الله).

وذكر عن جعفر بن محمد قوله لما سُئل: هل رأيت الله حين عبدته؟ قال: رأيت الله ثم عبدته، فقال السائل: كيف رأيته؟ فقال: لم تره العيون بتحديد العيان؛ ولكن رأته القلوب بتحقيق الإيقان.

ثم قال: يُرى في الآخرة كما أخبر في كتابه وذكره رسوله ﷺ، فهذا قولنا وقول أئمتنا دون الجهال من أهل الغباوة فينا.

يقول: إن العقيدة التي عند أئمتنا أن الله يُرى في الآخرة، أما الدنيا: فالرؤية- رؤيته- غير ممكنة، وإنما يُرى في الآخرة.

قال: تأتي عبارات عند بعض علمائنا، يقول: رأيت الله، ويقصد الرؤية القلبية، أو رآه بفؤاده، ومعنى ذلك: أن يشهد بقلبه أسماء الله ﷻ وصفاته وعظمته، فيمتلئ قلبه تعظيماً وإجلالاً لله ﷻ بما هيّأ الله له من سعة معرفة بأسماء الله وصفاته، لكن هذه لا يُطلَق عليها رؤية، فلمّا أُطلقت عليها ثم جاء فيها بعد مَنْ سمع هذا الكلام فجعله قولاً لهم، وعلى كُلِّ مثل هذه الإطلاقات لا شك أنها يترتب عليها وجود هذه الإشكالات، ومَنْ ينسب إليهم نَسَبه إليهم من ظاهر قولهم، والمفترض: أن يكون القول المطلَق يأتي منه ما يزيل الإشكال، مثل: ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ جاء عنه التقييد قال: رآه بفؤاده، أو رآه بقلبه.

فما ينبغي الإطلاق ولاسيما فيما يتعلق بأمور العقائد، ولاسيما أيضاً ممَّنْ هو قدوة للناس، ويأخذون عنه، ويتلقون منه.

ثم وصف أناساً بأنهم (أهل الغباوة فينا) يعني يطلقون إطلاقات باطلة وهم ما يقصدون ما تضمنته من ضلال أو باطل.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وإن مما نعتقده أن الله حرم على المؤمنين دماءهم وأموالهم وأعراضهم وذكر ذلك في حجة الوداع، فَمَن زعم أنه يبلغ مع الله درجة يبيح الحق له ما حظر على المؤمنين - إلا المضطر على حال يلزمه إحياء النفس وإن بلغ العبد ما بلغ من العلم والعبادة - فذلك كفر بالله، والقائل بذلك قائل بالإلحاد وهم المنسلخون من الديانة.

هنا بدأ يذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن كثير من هؤلاء ممَّنْ غلوا في الضلال والباطل وزعموا أن التصوف تَرَقِّي في درجات التعبد والزهد، تَرَقِّي في هذه الدرجات إلى أن يبلغ في هذا الطريق إلى درجة تسقط عنه

فيها التكاليف! ولا تكون الأمور التي حُظِرَت على غيره محظورة عليه، فإذا وصل تلك الدرجة لا يكون مأموراً بالفرائض ولا يكون منهياً عن المحرمات، ويعتبرونه واصلاً- أي: إلى درجة تسقط عنه فيها التكاليف-!

فيقول ابن خفيف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وهو من المتصوفة- يقول: مَنْ زعم ذلك فهو منسلخ من الدين وكافر، مَنْ زعم ذلك فهو منسلخ من دين الله تبارك وتعالى وكافر، (مَن زعم أنه يبلغ مع الله إلى درجة يبيح الحق) أي: الله (له ما حُظِر على المؤمنين) أي: من المحرمات مثل شرب الخمور، والزنا وغير ذلك- مَنْ زعم أنه يبلغ مع الله إلى درجة أن هذه الأمور تسقط عنه ولا تكون محظورة عليه كغيره من الناس فهذا كافر منسلخ من دين الله تبارك وتعالى.

يقول: لا يُستثنى في الحظر- رفْع حظر هذه الأشياء- (إلا المضطر على حال يلزمه إحياء النفس) يعني لا يكون هذا مباحاً إلا للضرورة مثل شخص اشتد به الجوع، خشي على نفسه أن يهلك فلم يجد إلا ميتة يأكلها، فيباح له أكْل الميتة لأن هذا إحياء نفس، والأمر بلغ مبلغ الضرورة.

فيقول: لا تباح المحظورة إلا عند الضرورة.

أما الدعوى بأنه يبلغ درجة تسقط عنه هذه المحظورات فهذا انسلاخ من دين الله تبارك وتعالى.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وأن مما نعتقده ترْك إطلاق العشق على الله، وبيّن أن ذلك لا يجوز لاشتقاقه، ولعدم ورود الشرع به. وقال: أدنى ما فيه أنه بدعة وضلالة، وفيما نَصَّ الله من ذِكْر المحبة كفاية.

هذا كلام جميل لأن هذه اللفظة -لفظة العشق- حتى بعضهم أصبح- من المتأثرين بالتصوف- أصبح يُسمي بذلك؛ يعني تجد في بعض الأعاجم مَنْ اسمه (عاشق إلهي)، أو (عاشق الرحمن) هذا كله من تراكمات التصوف، وأهل الخرافة، فمثل هذه الألفاظ الواجب تَجَنُّبها، وكما قال: أدنى ما فيها أنها بدعة وضلالة.

(وفيما نَصَّ الله من ذِكْر المحبة كفاية) قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ثلاث مَنْ كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

فكلمة العشــق لفظة لا تليق إطلاقاً في أن تُطلَق على الحب- حُب المؤمنين لله ﷻ- فلا يقال عن هذا الحب إنه عشــق، هذه كلمة إطلاقاً لا تليق أن تُجعَل عبارة، أو يُعبَّر بها بالحب الذي هو من درجات الإيمان العالية ومنازله الرفيعة.

ومثلما قال المصنف: (فيما نَصَّ الله من ذِكْر المحبة كفاية) أي: عن هذه الألفاظ المحدثة التي ما أنزل الله بها من سلطان.

ولفظة العشق- كما قدمت- لا تليق في هذا المقام إطلاقاً لأن العشق ليس مجرد المحبة، الله قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، العشــق ليس مجرد المحبة، العشــق.. مع المحبة ثمة معاني أخرى لا تليق أصــلاً أن تُطلَق في هذا المقام؛ لأن العشــق فيه محبة ومعها شــهوة، معها تعلُّق.. أو التذاذ أو شيء من هذا القبيل، فهذا اللفظ إطلاقاً لا يصح، ولهذا قال: أدنى ما في ذلك أنه بدعة وضلالة.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وأن مما نعتقده: أن الله لا يحُل في المرئيات وأنه المتفرد بكمال أسمائه وصفاته، بائن من خلقه، مستوٍ على عرشه، وأن القرآن كلامه غير مخلوق- حيث ما تُلي وحُفظ ودُرِس-

---

قال: (وأن مما نعتقده: أن الله لا يحُل في المرئيات وأنه المتفرد بكمال أســمائه وصــفاته، بائن من خلقه، مســتوٍ على عرشــه، وأن القرآن كلامه غير مخلوق- حيث ما تُلي وحُفظ ودُرِس-)؛ قوله في تمام هذا الكلام أن: (أن القرآن كلامه غير مخلوق- حيث ما تُلي وحُفظ ودُرِس-) أي: أينما توجّه القرآن فهو غير مخلوق، سواء حُفِظ في الصدور، أو كُتب في السطور، أو تُلي بالألسن، أو سُمع بالآذان، أينما توجّه فهو كلام الله غير مخلوق.

وأن الله ﷻ (لا يحل في المرئيات) أي المخلوقات، وهذا فيه إبطال لعقيدة الحلولية من غلاة الجهمية والروافض وغيرهم، بل الله ﷻ مستوٍ على عرشه، بائن من خلْقه استواءً يليق بجلاله وكماله وعظمته ﷻ.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ونعتقد أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، واتخذ نبينا محمداً ﷺ خليلاً وحبيباً، والخلة لهما منه على خلاف ما قاله المعتزلة: أن الخلة الفقر والحاجة.

وهذا سبق الكلام عليه، ولم يتخذ الله ﷻ من عباده خليلاً إلا إبراهيم ومحمد عليهما صلوات الله وسلامه.

والقول بأن الخلة هي: الفقر أو الحاجة؛ هذا من تحريف الكلم عن مواضعه، وهو من مقالة أهل الاعتزال.

إلى أن قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: والخلة والمحبة صفتان لله هو موصوف بهما، ولا تدخل أوصافه تحت التكييف والتشبيه، وصفات الخلق من المحبة والخلة جائز عليهم الكيف؛ وأما صفات الله تعالى فمعلومة في العلم، وموجودة في التعريف، قد انتفى عنهما التشبيه، فالإيمان به واجب وحسم الكيفية عن ذلك ساقط.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (الخلة والمحبة صفتان) أي: من صفات الله تبارك وتعالى الفعلية، والقول فيهما كالقول في كل الصفات: إمرارها كما جاءت، والإيمان بها كما وردت، دون خوض في التكييف لأن صفات الله ﷻ لا علم لنا بكيفيتها، قد مرَّ معنا قول الإمام مالك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والكيف غير معقول)، ومرّ معنا قول السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: (أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف) فلهذا فإن الخوض، وإقحام العقول في معرفة كيفية صفات الله ﷻ هذا باطل ومن البدع، وقد قال الإمام مالك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والسؤال عنه- أي: عن الكيف- بدعة).

وقرر هنا -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن صفات الله ﷻ يُنفى عنها التشبيه كما قال الله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وكما قال الله تعال: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]، وكما قال: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص].

وأيضاً يُنفى عنها التكييف، (الإيمان به واجب وحسم الكيفية عن ذلك ساقط) أي: لا يجوز أن يُخاض فيها بتكييف، والتكييف: قول على الله بلا علم، وقُفُوّ من المرء لما ليس به علم، وهذا من أعظم المحرمات، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩]، وكما قال جل في علاه: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء].

ونسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا، وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تُبَلّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تُسَلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد، وآله وصحبه.

الدرس السادس والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»: نقلاً عن ابن خفيف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ومما نعتقده أن الله أباح المكاسب والتجارات والصناعات، وإنما حرم الله الغش والظلم، وأن مَنْ قال بتحريم المكاسب فهو ضال مضل مبتدع؛ إذ ليس الفساد والظلم والغش من التجارات والصناعات في شيء، وإنما حرّم الله ورسوله الفساد لا الكسب والتجارة؛ فإن ذلك على أصل الكتاب والسُّنة جائز إلى يوم القيامة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

لا يزال النقل عن ابن خفيف أبو عبد الله فيما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في فتواه الحموية.

وقوله هنا: (ومما نعتقده أن الله أباح المكاسب والتجارات والصناعات، وإنما حرم الله الغش والظلم) أراد بذِكْر ذلك وعَدِّه جزءاً من المعتقد الرد على المتصوفة ولاسيما غلاتهم ممَّنْ يرون أن الاكتساب يتنافى مع التوكل، ويعتقدون أن تمام التوكل إنما يكون بترْك الكسب وعدم الاكتساب، ولاشك أن هذا خلاف هُدى الله جلَّ وعلا، وخلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ القائل: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله»، فأمر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع الاستعانة بالله ببذل الأسباب.

وجعل هؤلاء التوكل نوعاً من التواكل والخمول والكسل، ولاشك أن هذا ليس من دين الله تبارك وتعالى، ولهذا ذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ذلك ردّاً على مَنْ حرَّم الاكتساب وجعل ذلك من تمام التوكل.

وقال: إن المُحرَّم إنما هو (الغش والظلم) والكذب والخداع ونحو ذلك مما جاءت الشريعة بتحريمه، أما طلب الإنسان للرزق وسعيه في اكتساب الرزق؛ فهذا مما أَمَر الله به، قال الله ﷻ: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ [الملك:١٥].

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وأن مما نعتقده أن الله لا يأمر بأكل الحلال ثم يُعدمهم الوصول إليه من جميع الجهات؛ لأن ما طالبهم به موجود إلى يوم القيامة، والمعتقِد أن الأرض تخلو من الحلال والناس يتقلبون في الحرام فهو مبتدع ضال إلا أنه يقل في موضع ويكثر في موضع، لا أنه مفقود من الأرض.

وهذا أيضاً ذكره -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى جزءاً من المعتقد رداً على مَنْ يُقَنِّط الناس في بعض الأزمان من وجود الرزق الحلال، بحيث يقول: عمَّ الشر، وعمَّ الفساد، وعمَّ مثلاً الربا، وغير ذلك، فيُيئسهم ويُقنِّطهم من وجود الحلال، وأنه لا يمكن أن يُحصِّل أحد شيئاً حلالاً، يقول: فسد الزمان أو هلك الناس، الآن لا يوجد شيء من الرزق الحلال أو الطعام الطيب، فمثل هذا التقنيط والتيئيس هذا ليس من الحق، ولا من الهدى في شيء.

وانظر إلى قول المصنف- وهو كلام جميل- يقول: (إن الله لا يأمر بأكل الحلال ثم) يُعدم (الوصول إليه) أي: يجعل الوصول إليه متعذراً، ويأمر بأكل الحلال والحلال غير موجود، لا يجده الناس، يقول: الله ﷻ لا يفعل ذلك، فالحلال موجود، ومَنْ بحث عنه وجده، ومَنْ سعى في تحصيله حصَّله، ومَنْ استعان بالله أعانه.

ولهذا الآن تجد بعض الناس يتعامل بالربا، ويقول عندما يُسأل عن ذلك- وربما بعضهم يحلف- يقول: والله ما وجدت إلا هذا الطريق، يا سبحان الله!، يقول: والله ما وجدت إلا هذا الطريق، بحثت لم أجد إلا هذا الطريق، يقال له: لا يأمر الله بالحلال وسد الطرق إليه، الطريق موجود- طريق الحلال-.

وكم هم من الخلق في زماننا هذا وبنوا بيوتات وسكنوا فيها وملكوا أشياء وما دخلوا في هذا الذي دخلت فيه من الربا!!

فبعضهم يقول: والله ما وجدت، ما وجدت طريقاً إلا الربا؛ هذا غير صحيح، لم يأمرك الله بترْك الربا، ولم يأمرك بالحلال وجعل الطريق مسدوداً، الطريق موجود لكن ابحث واجتهد واسع في طلب الرزق الذي أباحه الله ﷻ.

لو لم يكن من الإنسان في طلبه للرزق إلا أن يأخذ حبلاً ويحتطب، أو يدخل السوق ويبيع ويشتري- وهو باب مُهيأ إلى زماننا هذا-..

فالشاهد: أن هذا القول مخالف لهُدى الله ﷻ، ولهذا أورده -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى جزءاً من المعتقد، قال: إن الله لا يأمر بأكل الحلال ثم يُعدِم الوصول إليه من جميع الجهات، نعم قد يُغلَق من جهة، لكن مفتوح من جهة أخرى، يُعدَم من جهة، يكون الطريق مسدود إلى تحصيله من جهة، لكن تجده مفتوح من جهات أخرى كثيرة، فلا يجعل الإنسان نصب عينيه هذا الطريق ويُغفِل الجهات الكثيرة التي هيأها الله ﷻ له.

قال: (لأن ما طالبهم به موجود إلى يوم القيامة) ما طالبهم به: الحلال؛ موجود إلى يوم القيامة.

(والمعتقِد أن الأرض تخلو من الحلال) وأن (الناس يتقلبون في الحرام) (مبتدع ضال إلا أنه يقل في موضع ويكثر في موضع، لا أنه مفقود من الأرض)، وهذا الجزء الذي ذكره -رَحِمَهُ اللَّهُ يحتاج الناس إليه في هذا الزمان حاجة شديدة؛ لأن كثير من الناس لُوِّثَت أفكارهم وأُفهِموا أو فهموا أن طرق الحلال مسدودة، وأنه لا يوجد طريق حلال، الذي يريد أن يبني بيتاً يقيم فيه ويسكن مع أولاد لا يوجد- يقولون- إلا هذه الطرق الربوية، أو الاتجار، وأن يكون عنده رأس مال ليتاجر، ويعتقدون أن لا سبيل لتحصيل الرزق إلا بذلك، هذا كله كلام باطل.

فهذا الجزء حقيقة من الأشياء التي تحتاج الناس إلى هذه الإيقاظة من المؤلف أو المنقول عنه -رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

ومما نعتقده أنّا إذا رأينا مَنْ ظاهره جميل لا نتّهِمُه في مكسبه وماله وطعامه، جائز أن يُؤكَل طعامه والمعاملة في تجارته؛ فليس علينا الكشف عن ماله. فإن سأل سائل على سبيل الاحتياط جاز، إلا مَنْ داخل الظلمة، ومَنْ لا ينزع عن الظلم وأخذ الأموال بالباطل ومعه غير ذلك: فالسؤال والتوقي؛ كما سأل الصديق غلامه؛ فإن كان معه من المال سوى ذلك مما هو خارج عن تلك الأموال فاختلطا فلا يُطلَق عليه اسم الحلال ولا الحرام إلا أنه مشتبه؛ فمَنْ سأل استبرأ لدينه كما فعل الصديق، وأجاز ابن مسعود وسلمان قال: كُل منه وعليه التبعة، والناس طبقات، والدين الحنيفية السمحة.

وأيضاً هذا ذكره -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى جزءاً من المعتقد، ومبني أيضاً على ما قبله من تيئيس وتقنيط من وجود الخير في بعض الأزمنة، فتجد بعض الناس يبني على ذلك أنه يشك في أموال جميع الناس، يشك في أموالهم، ومَنْ رآه يملك مالاً شكَّ في ماله، لأنه قد تقرر عنده أن اكتساب الرزق المباح في هذا الزمان مثلاً

متعذِّر، وأنه لا يمكن أن يحصِّل الإنسان أموالاً كثيرة إلا بهذه الطرق فتجده يشك في أموال الناس، ويظن أنها دخلت عليهم من وجوه غير صحيحة أو غير مشروعة.

فذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى جزءاً من المعتقد: (أنّا إذا رأينا مَنْ ظاهره جميل لا نتَّهِمُه في مكسبه) مَنْ ظاهره جميل: عنده أموال، عنده بيوت، عنده مزارع، عنده أملاك واسعة مثلاً (لا نتَّهِمُه في مكسبه وماله وطعامه) أي: لا نظن أو نتهم ذلك الشخص بأن هذه الأموال مثلاً من الربا أو من الغش أو من غير ذلك، قال: (لا نتَّهِمُه في مكسبه وماله وطعامه)، (جائز أن يُؤكَل طعامه والمعاملة في تجارته) إذا جاء الشخص يشتري منه ليس له قبل أن يشتري منه يحقق معه، يقول: أنت الآن أنا أريد أشتري منك، ولكن هذه التجارة من وين جبتها؟ أنت سرقتها ولا أنت بالربا حصَّلتها، ولا أنت كنت تغش الناس.. إلى آخره، ما يجوز هذا، هذا لا يجوز، الأصل أنه يتعامل مع الناس ولنا ظاهره، ولا يفتش الإنسان في أمواله، وليس من الصحيح أن الإنسان كلما وقف عند بائع سأله واستحلفه، الأصل: أن الإنسان له ما ظهر من الناس فيتعامل معهم، لا يُتهم في مكسبه ولا يُتهم في ماله، ولا يُتهم في طعامه.

والمصنف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كل هذا جاء به ردود على المتصوفة، كله جاء به ردود على المتصوفة الذين خرجوا عن الجادة، توغلوا في التصوف وخرجوا عن الجادة بمثل هذه المغالاة والتنطع في دين الله ﷻ، فهو يرد على أشياء موجودة من أناس دخلوا في هذه الأمور كنوع من التصوف وضرب من ضروبه.

قال: (فليس علينا الكشف عن ماله) الكشف عن مال: أي بالسؤال والتحري، يريد أن يشتري فيكشف عن المال، يذهب إلى المحلات التي بجواره، يقول: أنا أريد أشتري من فلان، عنده كذا، هل هو من كذا؟ هل هو.. ليس له ذلك، الأصل أن الإنسان لا يُتَّهم في ماله.

(جائز أن يُؤكَل طعامه والمعاملة في تجارته؛ فليس علينا الكشف عن ماله. فإن سأل سائل على سبيل الاحتياط جاز، إلا مَنْ داخل الظلمة) ولم ينزع (عن الظلم) يعني مَنْ كان بهذه الصفة وعُرف بالظلم ولا ينزع عنه، واشتُهر بالظلم هذا باب آخر.

(فالسؤال والتوقي؛ كما سأل الصديق غلامه) وقصة الصديق مع غلامه وهي في صحيح الإمام البخاري رحمه الله، عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: كان لأبي بكر غلام يُخرِج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لأناس في الجاهلية، وما أُحسن الكهانة إلا أني خدعته فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه،

فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه، ولاحظ أيضاً أن أبا بكر لم يسأل غلامه ابتداءً، وإنما الغلام أخبره، فما كان من عادته كلما جاء له بشيء من الخراج سأله قال: من أين جئت بهذا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، وإنما الغلام أخبره، بعد أن أَكَل أخبره بأن هذه المال حصَّله من هذا الطريق فقاءه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: (فإن كان معه من المال سوى ذلك مما هو خارج عن تلك الأموال فاختلطا فلا يُطلَق عليه اسم الحلال ولا الحرام) يعني الشخص الذي عنده مال من حِلّ، وأيضاً مال من ربا مثلاً أو غيره، فهذا لا يُسمى ماله حلال كله، ولا يُسمى أيضاً حرام، وإنما يكون هذا المال المختلط مُشتبه، فيه حلال وفيه حرام.

قال: (إلا أنه مشتبه).

(فمَنْ سأل استبرأ لدينه كما فعل الصديق) وعرفنا أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يسأل، وإنما الذي جاء في الخبر أن الغلام قال له: أتدري ما هذا؟

(وأجاز ابن مسعود وسلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كُل منه وعليه التبعة) إذا اشتبه المال.. كان مُشتبهاً فيه الحِل وفيه غيره، قال: (كُل منه وعليه التبعة)، أما المال الذي تُيقّن حُرمته من سرقة أو من ربا أو نحو ذلك؛ هذا مال خبيث، لا يجوز للإنسان أن يأكل منه، ولا يقال فيه: (كُل منه وعليه التبعة).

قال: (والناس طبقات، والدين الحنيفية السمحة)؛ الحنيفية في باب العقائد، والسمحة في باب الأوامر والتكاليف، كما جاء في الحديث عن نبينا ﷺ أنه قال: «إنما بُعثتُ بالحنيفية السمحة».

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

وأن مما نعتقده: أن العبد ما دام أحكام الدار جارية عليه فلا يسقط عنه الخوف والرجاء، فكل من ادّعى الأمن فهو جاهل بالله وبما أخبر به عن نفسه: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، وقد أفردت كشف عوار كل مَنْ قال بذلك.

وهذا أيضاً ساقه -رَحِمَهُ اللَّهُ جزءاً من المعتقد ردّاً على المتصوفة الذين يُعطِّلون باب الرجاء والخوف، ويقولون: نحن نعبد الله ليس رجاءً لثوابه، ولا خوفاً من عقابه، وإنما نعبده حباً فيه فقط، لا نرجو ثواباً ولا نخاف عقاباً؛ وهذه عقيدة فاسدة مُصادِمة للكتاب والسُّنة، ومُصادِمة لعقيدة الأنبياء كلهم.

وأورد ذلك -رَحِمَهُ اللَّهُ ردّاً عليهم وتبياناً أن هذا ليس من دين الله، دين الله قائم على الرجاء والخوف والحب.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقـال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ ﴾ [الإسراء:٥٧].

والأحكام كلها في الكتاب والسُّـنة قائمة على الترغيب والترهيب، ترغيب فيها وترهيب من تَرْكها، الأوامر كلها قائمة على ذلك ترغيب وترهيب.

والنبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما قال له ذلك الرجل: أما إني لا أُحسِـن دندنتك، ولا دندنة معاذ، قال: «ماذا تقول؟» قال: أقول: اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، قال النبي ﷺ: «ونحن حولها ندندن» يعني حول الجنة والنار، رغبة في الجنة ورهبة من النار.

فمَنْ يقول: إن عبـادته بـالحب فقط، لا رجاءً للثواب ولا خوفاً من العقاب؛ هذا ليس من دين الله، وليس من دين الأنبياء عليهم صـلوات الله وسـلامه وبركاته أجمعين، فدين الأنبياء أجمعين قائم على الرجاء والخوف والحب، قائم على هذه الأركان الثلاثة، وهذه يسـميها أهل العلم: (أركان التعبد القلبية)، بمعنى: أن كل عبادة يقوم بها يجب أن تكون قائمة على هذه الأركان الثلاثة.

فهذا ذكره -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ردّاً على مَنْ يُهمِل جانبي الرجاء والخوف، ويدّعي أنه يعبد الله حباً فيه فقط، لا رجاءً لثوابه ولا خوفاً من عقابه.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ونعتقـد: أن العبودية لا تسـقط عن العبـد مـا عقـل وعلم مـا لـه ومـا عليـه فيبقى على أحكـام القوة والاسـتطاعة؛ إذ لم يسـقط ذلك عن الأنبياء والصـديقين والشـهداء والصـالحين، ومَنْ زعم أنه قد خرج من رق العبودية إلى فضــاء الحرية بإسـقاط العبودية والخروج إلى أحكام الأحدية المبدئية بعلائق الآخرية: فهو كافر لا محالة؛ إلا مَنْ اعتراه عِلة أو رأفة فصـار معتوهاً أو مجنوناً أو مبرسـماً، وقد اختلط عقله أو لحقه غشية ارتفع عنه أحكام العقل وذهب عنه التمييز والمعرفة؛ فذلك خارج عن الملة مفارق للشريعة.

وأيضاً هذا ساقه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ ردّاً على المتصوفة في دعواهم أن المرء قد يتدرج في المنازل، والعبودية إلى أن يصل إلى درجة تسقط عنه فيها التكاليف بزعمهم، وربما استدل بعضهم بالآية الكريمة: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩ ﴾ [الحجر] ويقولون: اليقين درجة إذا وصـل إليها الإنسـان سـقطت عنه التكاليف، بينما المراد باليقين في الآية (الموت)؛ أي: داوِم على عبـادة الله إلى أن يتوفـاك الله، كما قـال الله في الآية الأخرى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢] أي: داوموا على عبـادة الله حتى الموت، كما في الحديث: «قل آمنت بالله ثم استقم» أي: استقم على دين الله إلى أن يتوفاك الله ﷻ.

فذكر ذلك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ردّاً على هؤلاء، وهم يدّعون أن المرء إذا دخل في المراتب والمنازل- منازل العبودية- قد يصل به الأمر إلى درجة تكون التكاليف ساقطة عنه، ليس مأموراً بالصلاة ولا بالصيام ولا بالصدقة، وليس منهياً عن الحرام، لا عن الزنا، ولا عن السرقة، ولا عن الربا، ولا غير ذلك!! وهذا لا شك أنه مُصادِم للعقيدة، واعتقاد ذلك وفِعْله كُفْر ناقل من الملة.

ولهذا أورده -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى جزءاً من المعتقد، قال: (ونعتقد: أن العبودية لا تسقط عن العبد ما عقل وعلم ما له وما عليه) مميز (على أحكام القوة والاستطاعة)

(فيبقى على أحكام القوة والاستطاعة إذ لم يسقط ذلك عن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين) يقول: هذا الذي يدّعونه أنه يسقط عن مَنْ يسمونه (بالواصل) هذا لم يسقط عن الأنبياء وهم أكمل الناس عبودية، ولم يسقط عن الصديقين وهم الذين رتبتهم تلي رتبة الأنبياء في الفضل، ولم يسقط عن الشهداء ولا الصالحين، فكيف يدّعي هؤلاء الأفّاكون أن التكاليف تسقط عن الشخص إذا وصل بزعمهم إلى هذه الدرجة التي يزعمون؟!

قال: (ومَنْ زعم أنه قد خرج من رق العبودية إلى فضاء الحرية) أي: أنه حر، ليس مأموراً بفرائض ولا منهياً عن محرمات (بإسقاط العبودية والخروج إلى أحكام الأحدية المبدئية) (الخروج إلى أحكام الأحدية)أي: وحدة الوجود (المبدئية) يقصدون بـــ (المبدئية) أي: الأول الذي ليس قبله شيء ﷻ (بعلائق الآخرية: فهو كافر لا محالة) الذي يعتقد أنه ساقط، ويعتقد أنه بهذا الترقي بالعبادة ومنازل التعبد امتزج بالإله واتحد بالإله- تعالى الله عمّا يقولون- حتى يقول قائلهم: العبد رب، والرب عبد، ألا ليت شعري من المكلف.. ونحو ذلك، مثلما يقول أحدهم: (ما في الجبة إلا الله)، وضلالات في هذا الباب لا حدّ لها ولا عدّ، يقول: هذا كله كُفر ناقل من الملة، وليس من دين الله تبارك وتعالى.

يقول: (إلا مَنْ اعتراه عِلة أو رأفة فصار معتوهاً أو مجنوناً أو مبرسماً، وقد اختلط عقله أو لحقه غشية ارتفع عنه أحكام العقل وذهب عنه التمييز والمعرفة؛ فذلك خارج عن الملة مفارق) للإسلام.. يعني إذا لم يكن مصاب بخلل في عقله وإلا هذا كُفْر خارج من الملة، لكن لو كان الإنسان مجنون، فاقد للعقل بسبب الجنون وصدر منه مثل هذا الكلام الذي يقوله هؤلاء فإنه لا يُكفَّر لكونه مجنون، ليس له عقل، فاقد للعقل، أما ما دام عنده عقل ويقول هذا الكلام فهذا كُفْر ناقل من ملة الإسلام.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ومَنْ زعم الإشراف على الخلق حتى يعلم مقاماتهم ومقدارهم عند الله - بغير الوحي المنزّل من قول رسول ﷺ- فهو خارج عن الملة، ومَنْ ادّعى أنه يعرف ما قال رسول الله ﷺ فقد باء بغضب من الله، ومَنْ ادّعى أنه يعرف مآل الخلق ومنقلبهم وأنهم على ماذا يموتون عليه ويُختم لهم - بغير الوحي من قول الله وقول رسوله ﷺ - فقد باء بغضب من الله.

أيضاً هذا ساقه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ ردّاً على غلاة المتصوفة فيما يدّعون في كبرائهم وأشياخهم أنه يصل إلى درجة يُصبِح مشرفاً على الخلق، ومعنى (مشرفاً على الخلق): أي مُطّلعاً على ما في نفوسهم، مُطّلعاً على مآلاتهم، يعلم ما في قلوبهم، فيدّعون هذه الدعوة في الأشياخ والأولياء المزعومين أنه يصل إلى درجة يكون مشرفاً على الخلق، يعلم مقاماتهم ومقدار ما لهم عند الله، ويطّلع على الأمور والأحوال، بماذا يُختَم للناس.. إلى غير ذلك؛ يقول: هذا كله كُفْر، ومَنْ ادّعى ذلك فقد باء بغضب من الله.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

والفراسة حق على أصول ذكرناها، وليس ذلك مما سميناه في شيء.

قال: (والفراسة حق على أصول ذكرناها، وليس ذلك مما سميناه في شيء) أي: مما سميناه في الكلام الذي قبله ذاماً له ومُحذِّراً له، يقول: الفراسة ليست من هذا الذي ذُمَّ في شيء، وإنما الفراسة شيء من الفهْم والمعرفة يقذفه الله ﷻ في قلب عبده المؤمن، خلاف ما يدّعي أولئك أن الشخص يصل إلى مرتبة يكون مشرفاً على الخلق، مُطّلعاً على القلوب، عالماً بالمآلات، يعرف أحوال الناس ومنقلباتهم، فهذا لا شك أنها دعوى كاذبة، ومَنْ قال ذلك فقد باء بغضب من الله.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ومَنْ زعم أن صفاته قائمة بصفاته - ويشير في ذلك إلى غير الأيد، والعصمة، والتوفيق، والهداية - وأشار إلى صفاته ﷻ القديمة: فهو حلولي، قائل باللاهوتية والالتحام وذلك كُفْر لا محالة.

وهذا أيضاً رَدّ على الصوفية منه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى للذين يزعمون ذلك، وبيّن أن هذا كُفْر، قال: (مَنْ زعم أن صفاته) أي: الله (قائمة بصفاته) أي: المخلوق (ويشير في ذلك إلى غير الأيد، والعصمة، والتوفيق، والهداية) الأيد: القوة ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذاريات:٤٧] أي: قوة، ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [المائدة:١١٠] قوّيْتُك.

فيقول: (ويشير في ذلك إلى غير الأيد، والعصمة، والتوفيق، والهداية) أي: تقوية الله لعبده، وتثبيته على الإيمان، وحِفْظه من الضلال، إذا كان يشير إلى غير ذلك، وأنه يقصد أن صفات الله قائمة بالعبد، وحالّة في العبد، أو ممتزجة بصفات العبد أو نحو ذلك (فهو حلولي) أي من أهل عقيدة الحلول، وهذا كُفْر ناقل من الملة (قائل باللاهوتية والالتحام) والالتحام: أي التحام الناسوت باللاهوت، وهذا كُفْر ناقل من الملة.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ونعتقد أن الأرواح كلها مخلوقة، ومَنْ قال إنها غير مخلوقة فقد ضاهى قول النصارى - النسطورية - في المسيح وذلك كُفْر بالله العظيم.

وقال: (نعتقد أن الأرواح كلها مخلوقة) وهذا أيضاً فيه ردّ على المتصوفة الذين يقولون بالحلول، ويُشَبّهون عقيدة الحلول- بما يفهمونه من عقيدة النصارى- وبما أخذوه من عقيدة النصارى (أن الله حلّ في عيسى)، ويفهمون أن الروح التي جعلها الله ﷻ في عيسى ووصفها بأنها روح منه ﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء:١٧١] أي: أن هذه الروح صفة لله حلّت في عيسى، والحق: أن هذه روح من جملة الأرواح التي خلقها الله، أضافها لنفسه تشريفاً مثل: إضافة البيت، والناقة، والعبد، والأمة إلى الله ﷻ.

فيقول: (ونعتقد أن الأرواح كلها مخلوقة. ومَنْ قال إنها غير مخلوقة فقد ضاهى قول النصارى) ضاهى: أي شابه وماثل قول النصارى (- النسطورية - في المسيح) والنسطورية: يعتقدون أن روح الله ﷻ حلّت في المسيح، قال: (وذلك كُفر بالله العظيم).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ومَنْ قال: إن شيئاً من صفات الله ﷻ حالّ في العبد؛ وقال بالتبعيض على الله فقد كَفَر؛ والقرآن كلام الله ليس بمخلوق ولا حال في مخلوق، وأنه كيفما تُلي وقُرئ وحُفظ: فهو صفة الله ﷻ، وليس الدرس من المدروس، ولا التلاوة من المتلو؛ لأنه ﷻ بجميع صفاته وأسمائه غير مخلوق، ومَنْ قال بغير ذلك فهو كافر.

قال: (ومَنْ قال: إن شيئاً من صفات الله ﷻ حالّ في العبد) يعني هذا تعميم بعد تخصيص، بعد أن ذكر الروح في الذي قبله ودعوى المتصوفة فيها وبيّن أن الروح هي من جملة الأرواح المخلوقة، الروح التي جعلها الله ﷻ في عيسى هي من جملة الأرواح المخلوقة التي خلقها الله ﷻ.

فيقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مَنْ قال: إن شيئاً من صفات الله ﷻ حالّ في العبد) فهذا كفر ناقل من الملة.

(والقرآن كلام الله ليس بمخلوق) أي: أينما توجّه، سواء حُفظ، أو كُتب، أو تُلي، أو سُمع، القرآن أينما توجّه كلام الله ﷻ، وكلامه صفة من صفاته، والكلام يضاف إلى مَنْ قاله ابتداءً لا لِمَنْ نَقَلَه أداءً، ومَنْ قال: إن كلام الله ﷻ مخلوق فهو كافر وهذا بإجماع السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى.

ولا يزال لكلامه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تتمة، ونسأل الله الكريم أن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علماً وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزَكِّها أنت خير مَنْ زَكَّاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللهم إنّا نسألك الهدى، والتقى، والعفة، والغنى.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

الدرس السابع والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»: نقلاً عن ابن خفيف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ونعتقد أن القراءة الملحنة بدعة وضلالة، وأن القصائد بدعة، ومجراها على قسمين: فالحسن من ذلك من ذِكْر آلاء الله ونعمائه وإظهار نعت الصالحين وصفة المتقين فذلك جائز، وترْكه والاشتغال بذِكْر الله والقرآن والعلم أوْلى به، وما جرى على وصْف المرئيات ونعت المخلوقات فاستماع ذلك على الله كُفر، واستماع الغناء والرباعيات على الله كُفْر، والرقص بالإيقاع ونعت الرقاصين على أحكام الدين فسق، وعلى أحكام التواجد والنغام لهو ولعب.

وحرام على كل مَنْ سمع القصائد والرباعيات الملحنة - الجاري بين أهل الأطباع - على أحكام الذِّكْر إلا لِمَنْ تقدم له العلم بأحكام التوحيد ومعرفة أسمائه وصفاته وما يضاف إلى الله تعالى من ذلك مما لا يليق به ﷻ مما هو منزه عنه فيكون استماعه كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٨].

وكل مَنْ جهِل ذلك وقصد استماعه على الله على غير تفصيله فهو كُفْر لا محالة، فكُل مَنْ جمَعَ القول وأصغى بالإضافة إلى الله فغير جائز إلا لمنْ عرف ما وصفْتُ من ذِكْر الله ونعمائه، وما هو موصوف به ﷻ ما ليس للمخلوق فيه نعت ولا وصف؛ بل ترْك ذلك أوْلى وأحوط، والأصل في ذلك أنها بدعة والفتنة بها غير مأمونة، إلى أن قال: واتخاذ المجالس على الاستماع والغناء والرقص بالربعيات بدعة.

وذلك مما أنكره المطَّلبي، ومالك، والثوري، ويزيد بن هارون، وأحمد بن حنبل، وإسحاق، والاقتداء بهم أوْلى من الاقتداء بمَنْ لا يُعرَفون في الدين، ولا لهم قدم عند المخلصين.

وبلغني أنه قيل لبِشر بن الحارث: إن أصحابك قد أحدثوا شيئاً يقال له القصائد. قال مثل أيش؟ قال مثل قوله: اصبري يا نفس حتى تسكني دار الجليل، فقال: حسن، وأين يكون هؤلاء الذين يستمعون ذلك؟ قال: قلت: ببغداد، فقال: كذبوا - والذي لا إله غيره - لا يسكن ببغداد مَنْ يسمع ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم لا علم لنا إلا ما علّمتنا، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً، وأصلِح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد..

قال ابن خفيف فيما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قال: (ونعتقد أن القراءة الملحنة بدعة وضلالة) القراءة المُلَحَّنة أي: لكتاب الله جل وعلا، والأصل: أن تكون القراءة بلا تكلُّف في الصوت يخرج بالإنسان عن حد الاعتدال إلى التنطع، وهذا مما ذكر ونصَّ أهل العلم على أنه من المحدثات، كالإمام أحمد، والشافعي، ومالك، وغيرهم، وإنما يُزيّن المرء القرآن بصوته ويُحسِّن صوته بالقرآن دون أن يخرج به ذلك إلى حد التكلُّف، أو محاكاة أهل الغنى في التمطيط ونحو ذلك،بل يقرأ قراءة معتدلة مع تزيين صوته وتجميله وتحسينه في قراءته للقرآن الكريم.

قال أبو بكر الأثرم: سألت أبا عبد الله- أي: أحمد بن حنبل -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- عن القراءة بالألحان؟، فقال: كل شيء مُحدَث لا يعجبني، إلا أن يكون صوت الرجل لا يتكلفه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: قراءة القرآن بصفة التلحين الذي يُشبه تلحين الغناء مكروه مبتدع كما نصَّ على ذلك مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من الأئمة.

وللإمام ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بحث نافع جداً حول هذا الموضوع وذِكْر الأقوال فيه مع المناقشة في كتابه «زاد المعاد» في فصل خصصه لذلك، فصل في قراءة النبي ﷺ للقرآن واستماعه له.

وقال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في خاتمة هذا الفصل: وكل مَنْ له علم بأحوال السلف يعلم قطعاً أنهم براء من القراءة بالألحان الموسيقية المتكلفة، ألحان الموسيقى المتكلفة التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقى لله من أن يقرؤوا بها ويسوِّغوها.

ويراجع بحثه هذا -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، فإنه جمَع واستوفى -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ما قيل في ذلك مع المناقشة مع بيان الحق في ذلك.

قال: (ونعتقد أن القراءة الملحنة بدعة وضلالة، وأن القصائد بدعة، ومجراها على قسمين: فالحسن من ذلك من ذِكْر آلاء الله ونعمائه وإظهار نعت الصالحين وصفة المتقين فذلك جائز، وترْكه والاشتغال بذِكْر الله والقرآن والعلم أوْلى به) ذكر هنا -رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتعلق بالقصائد.

وقوله: إنها (بدعة) أي: ما جُعِل من ذلك على وجه التدين والتقرب إلى الله ﷻ، والتعبد، وأن يُدرَج ذلك في باب القربات، وباب التعبد لله ﷻ، والانشغال بها وبإنشادها عن العلم وطلبه، والعبادة والعناية بها، والخير والاهتمام به.

وأما الشعر من حيثه هو فكما أشار -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ينقسم إلى قسمين، وشأن الشعر كشأن سائر الكلام: حسنه حسن، وقبيحه قبيح، والشعر فيه شعر حسن طيب مثلما ذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، شعر قائم على (ذِكْر آلاء الله) ونِعَمه وعدّ أفضاله ومِننه على عباده ﷻ و(نعت الصالحين) وصفات المتقين، فمن الشعر ما هو قائم على ذلك، وذِكْر الآداب الفاضلة والأخلاق الكاملة.

والنوع الآخر من الشعر ما كان بخلاف ذلك، أما هذا الذي ذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو جائز.

لكن الاشتغال- يقول:- (بذِكْر الله والقرآن والعلم أوْلى) بالمرء.

قال: (وما جرى على وصْف المرئيات ونعت المخلوقات فاستماع ذلك على الله كُفْر) هنا لعله- والله تعالى أعلم- يشير إلى ما عند المتصوفة، والحديث كله عند المصنف في هذا السياق ردٌّ على المتصوفة في مغالاتهم، ومن ذلكم: ما يقع في شعرهم من ذِكْر لأوصاف الرب ﷻ وقياس للخالق بالمخلوق جل في عُلاه، وتشبيه للخالق بالمخلوق، وأيضاً عكس ذلك: تشبيه المخلوق بالخالق، وهذا يكثر عن غلاة المتصوفة، ويكثر في أشعارهم، فيقول: إن ذلك كُفر.

وإن كان بعض هؤلاء الغلاة يقول: إن الشعر لا دخل له بالعقائد كمبرر لهم فيما يكون في شعرهم من مغالاة وضلال وباطل، يقولون: الشعر لا دخْل له في العقائد، كأن الشعر ليس من كلام المرء، وليس معدوداً في عمله، فمثل هذه القصائد والأبيات التي قائمة على مثل هذه المعاني في الأوصاف والمرئيات من قياس للخالق بالمخلوق، أو عكس ذلك: قياس للمخلوق بالخالق؛ فهذا كله كُفْر، والله ﷻ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، يقول جل في علاه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥].

قال: (واستماع الغناء والرباعيات) الرباعيات: هي القصائد التي تتكون أبياتها من أربعة أشطر، عادة القصيدة أبياتها من شطرين (الأول والثاني)، والرباعيات لها أربعة أشطر.

(واستماع الغناء والرباعيات على الله كُفْر) وأيضاً.. هذا متعلق بما قبله، يعني مثل هذه القصائد التي مرَّ الإشارة إليها، وما تشتمل عليه، سواء شُطِّرت رباعيات أو من شطرين، فما قام فيها من تلك المعاني الفاسدة، وأيضاً ما كان من هؤلاء من اتخاذٍ لهذه القصائد في باب القُرَب لله ﷻ، ولعل هذا يشير إليه بقوله: استماع ذلك على الله، أي: أنه يجعل ذلك باب قُربة لله مع ما في ذلك الشعر من ضلال وباطل- أو أنه أيضاً يريد بقوله: (استماع ذلك على الله) أي: الزعم أن الله ﷻ يسمع ذلك منهم ويرضاه عنهم ويقبله، وأنه لا يُسخِطه ﷻ، وهذا افتراء على الله، فتكون قصائدهم اشتملت على الضلال والباطل، والزعم أن الله ﷻ يسمع ذلك ويرضاه، ولا يُسخطه ﷻ، وهذا القول على الله ﷻ كُفر، أن يُقِر جل في علاه أو أن يرضى جل في علاه ضلال هؤلاء، وباطلهم الذي تنطوي عليه تلك القصائد التي أشار إليها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: (والرقص بالإيقاع ونعت الراقصين على أحكام الدين فسق، وعلى أحكام التواجد والنغام لهو ولعب) أو الأنغام لهو ولعب..؛ هذا الذي ذكره -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كله أشياء وُجدت عند أهل التصوف، ولاسيما غلاتهم، واتخذوا هذه الأمور ديانة، وباباً من أبواب التقرب إلى الله ﷻ، ولهذا يجتمعون- حتى أحياناً في المساجد وفي بعض المنتديات- يجتمعون على الرقص، وربما أضافوا إلى ذلك القصائد الملحنة والدفوف، ويعتبرون أن ذلك نوعاً من التقرب إلى الله ﷻ، ولا ريب أن هذا ضلال ليس من دين الله، ولكن من تسويل الشيطان لهؤلاء.

فاتخاذ ذلك من باب القُرب ليس من دين الله، سواء الرقص أو القصائد الملحنة التي يأتون بها مع ما فيها من المغالاة والضلال، وما يضاف أيضاً إلى ذلك من آلات لهو من دف ونحوه، ثم يعتبرون ذلك باب قُربة لله ﷻ، بل إن بعضهم يزعم أن هذا أنفع للقلوب من القرآن، ونصوا على ذلك في بعض كتبهم- تعالى الله عمّا يقولون-.

وهذا يُعرَف عند المتصوفة بالسماع، وله كتبه الخاصة عندهم، وأيضاً له آدابه الخاصة، حتى إن الرقص الذي هو ليس من دين الله، ويعدّونه قُربة، ذكروا له آداباً في كتبهم- أي: المجالس التي يسمونها مجالس السماع، أو مجالس الذِّكْر، وما يكون فيها من رقص.. إلى آخره- ذكروا آداباً، ومما ذُكِر أو ذكروه في ذلك: أن مجلس الرقص.. لو أن الشيخ وهو يرقص سقطت عمامته، قالوا: من الأدب- أدب الحاضرين- كل واحد

يخلع عمامته، قالوا: لو أن الشيخ من شدة تفاعله مع مجلس الرقص مزّق ثوبه، وقطّع ثوبه من شدة تفاعله وتواجده، قالوا: من الأدب أن يخلع كل الحاضرين ثيابهم.. وأشياء من هذا القبيل، وتُعدّ هذه الأمور من الدين! وأنها من باب القُرب، وموجودة حتى في كتب مشهورة مثل: «إحياء علوم الدين» وغيرها من الكتب فيها مثل هذه الضلالات والباطل الذي ما أنزل الله بها من سلطان، وتُعتبر من دين الله!، كيف تُعد هذه من إحياء الدين؟! وهي من إحياء الضلال وإحياء البدع التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان، أي دين هذا؟!

وهذا ابن خفيف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من المتصوفة لكن يَرُدّ هذا الباطل، ويُبطل هذا الضلال، ويرى أن دخول هؤلاء المتصوفة في هذه الأمور هذا دخول في أمرليس من دين الله، وإنما من البدع والضلال التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان.

وبقية كلامه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كله حول هذه القصائد وما في طرائق هؤلاء في هذه القصائد من ضلال وباطل، ولعله نكتفي من ذلك بما تقدم.

وما نقله عن بشر بن الحارث، ما نقله أنه سُئل.. قال.. قيل له: (إن أصحابك قد أحدثوا شيئاً يقال له القصائد. قال مثل أيش؟) يعني: مثل ماذا؟ (قال مثل قوله: اصبري يا نفس حتى تسكني دار الجليل) دار الجليل: أي الجنة، يعني يلحنونها ويأتون بها مُلحنة، فقال: هذا حسن، يعني المعنى هذا حسن جيد، الألفاظ، المعاني التي في هذه الكلمة جيدة، قال: (وأين يكون هؤلاء الذين يستمعون ذلك؟ قال: قلت: ببغداد، فقال: كذبوا - والذي لا إله غيره -) هو يلمح هنا إلى أن بعض الناس أخذوا هذه القصائد نوع من المتعة واللهو فقط، ولهذا يعيشون حياة الترف والبُعد عن التعبد والتدين والعناية بالتقرب إلى الله، وإنما يأتون بهذه نوع من المتعة، يجتمعون يوم في الأسبوع مثلاً يُمتعون أنفسهم ويُطَرِّبون أنفسهم بهذا السماع.. فـ (اصبري يا نفس حتى تسكني دار الجليل) هذا معنى جميل، أن الإنسان يصبر على الطاعة وعلى العبادة، لكن هؤلاء حظهم منها أبيات جميلة وأصوات جميلة دون عناية منهم بأصل الصبر على العبادة والطاعة إلى أن يبلغ العبد دار الجليل، وإنما أبيات، ولهذا حظ هؤلاء من هذه الأبيات جمال الصوت وطريقة الأداء فقط، أما الصبر والتعبد والتدين والأمور هذه ليس لهم فيها شأن ولا اهتمام، يجتمعون عليها في مجالس تُعيَّن في الأسبوع أو في الشهر أو في نحو ذلك يتذوقون فقط الأصوات وطريقة الأداء، ولا علاقة لهم بالصبر والتدين والتعبد والتقرب إلى الله، ولهذا سأل عن المكان، وقال: بغداد، وكانت في ذلك الوقت بلد ترف

وترفّه ولهو ومُتَع الدنيا، فمن مكانهم عرف أن هذا المعنى إنما يقولونه فقط تذوقاً للحن، وما كان من هذا القبيل، لا عن عناية بالصبر نفسه أو التقرب إلى الله ﷻ.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

قال أبو عبد الله: ومما نقول - وهو قول أئمتنا - أن الفقير إذا احتاج وصبر لم يتكلف إلى وقت يفتح الله له كان أعلى، فمَنْ عجز عن الصبر كان السؤال أوْلى به على قوله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله» الحديث.

(قال أبو عبد الله) أي: ابن خفيف (ومما نقول - وهو قول أئمتنا - أن الفقير إذا احتاج وصبر ولم يتكلف إلى وقت يفتح الله له كان أعلى) لعله- والله أعلم- يشير بالصبر، يعني مع فقره لا يمد يده للناس، وإنما يصبر على حاجته وفقره، لكن كونه لا يعمل وينقطع عن العمل هذا خلاف الهدي، خلاف هدْي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولهذا أشار في الحديث («لأن يأخذ أحدكم حبله») فالنبي ﷺ حثّ على العمل، ورغّب فيه، ودعا إلى ذلك، وكان أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كذلك يعملون، ويكتسبون.

فالفقر الذي يُعدُّ عملاً من أعمال المتصوفة بمعنى أن الإنسان ينقطع عن العمل وعن جلْب الرزق لأولاده، ويعدّون ذلك مرتبة- مرتبة الفقر- بحيث أنه لا يعمل، يبقى فقيراً.

وهؤلاء على قسمين: قسم يبقى فقيراً ولكن يسأل الناس، ويعرض فقره للناس وحاجته للناس، ومنهم مَنْ يصبر على الشظف والشدة والحاجة، ولكن الذي جاء به الهدي عن النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو بذْل الأسباب، وأشار إلى ذلك بقوله.. بإيراده لقول النبي ﷺ: («لأن يأخذ أحدكم حبله»)، والله جل وعلا يقول: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥].

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ونقول: إن ترْك المكاسب غير جائز إلا بشرائط مرسومة من التعفف، والاستغناء عمّا في أيدي الناس، ومَنْ جعل السؤال حرفة - وهو صحيح - فهو مذموم في الحقيقة خارج.

قال: (ونقول: إن ترْك المكاسب غير جائز) إن ترْك المكاسب: أي انقطاع الإنسان عن العمل، وعدم عنايته باكتساب الرزق، وعدّ ذلك- كما هو عند بعض أو كثير من أهل التصوف- أن هذا من التوكل على الله ﷻ، فهذا ليس من التوكل على الله وإنما من التواكل.

والتوكل الحق: أن يبذل المرء الأسـباب، ولا يعتمد على السـبب وإنما يتوكل على الرب العظيم جل وعلا.

والله يقول وقد مرّ معنا أيضاً كلام المصنف في ذلك: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[البقرة:١٩٧].

فـ(ترْك المكاسب غير جائز إلا بشرائط مرسومة من التعفف، والاستغناء عمّا في أيدي الناس) لكن الإنسان لا غِنى له عن طعام، ولا شراب، ولا مسكن، ولا ملبس، وأيضاً نفقة على الأولاد وغير ذلك، وهذه أمور تحتاج إلى أن الإنسان يكتسب ما يكفُّ به يده عن السؤال، وأيضاً يغني به بإذن الله ﷻ أهله وولده، ويكفهم عن السؤال، وفي الحديث: «أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس».

(ومَنْ جعل السؤال حرفة - وهو صحيح - فهو مذموم في الحقيقة خارج) أي: عن الطريقة التي عليها المؤلف ومَنْ أشار إليه من أئمتهم المتصوفة، يقول: خارج عن الطريقة، وهو يشير إلى أن بعض المتصوفة لما اتخذوا الفقر ديانة ثم اشتدت بهم الحاجة فصاروا يتعرضون للسؤال ثم صار السؤال حرفة لهم، ثم صار السؤال- سؤال الناس- حرفة لهم، فأولاً اعتبر الفقر ديانة، وأنه يتدين بالفقر والانقطاع عن الدنيا، ولا يعمل ولا كذا.. إلى آخره، ثم اشتدت به الحاجة فصار يسأل، ثم تحوّل هذا السؤال إلى حرفة؛ فهذا يقول: خارج عن الطريقة.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

ونقول: إن المستمع إلى الغناء والملاهي فإن ذلك كما قال ﷺ: «الغناء ينبت النفاق في القلب»، وإن لم يكفر فهو فسق لا محالة.

قال: (إن المستمع إلى الغناء والملاهي فإن ذلك كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الغناء ينبت النفاق في القلب») وهذا يُروَى مرفوعاً موقوفاً، والموقوف أصح على ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الغناء ينبت النفاق في القلب» ومعنى يُنبت: أي يُولِّد ويُنشأ ويُحدِث النفاق في القلب.

(وإن لم يكفر فهو فسق لا محالة) يعني الاشتغال بالغناء مع ما فيه من أمراض يُولِّدها في القلب منها النفاق، وأيضاً أن الغناء بريد للزنا كما قال أئمة السلف، يُولِّد النفاق ويُولِّد أيضاً حُب الفواحش والرذيلة، فهو إن لم يكفر المشتغل به إلا أنه فسق لا محالة.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

والذي نختار: قول أئمتنا: ترْك المراء في الدين، والكلام في الإيمان مخلوق أو غير مخلوق، ومَنْ زعم أن الرسول ﷺ واسط يؤدي، وأن المرسَل إليهم أفضل: فهو كافر بالله، ومَنْ قال بإسقاط الوسائط على الجملة فقد كفر.

قال: (والذي نختار: قول أئمتنا: ترْك المراء في الدين) وهذا أيضاً سبق الكلام عنه، والمراء في الدين: أي الاشتغال بالجدل والخصومات عن العمل خروج عن المقصود من دين الله، لأن المقصود من الدين فهْمه والعمل به، أما إذا اشتغل الإنسان بالجدل وأعرض عن العمل ليس هذا هو المقصود من هذا الدين أو هذه الشريعة أو هذا الوحي الذي أُنزِل على النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: (والكلام في الإيمان مخلوق أو غير مخلوق) وغير ذلك من الأمور التي أنشأها أهل البدع والاشتغال بها، هذا كله مُحدَث أحدثه أهل البدع وصرفوا به الناس عن لُب الدين وحقيقته وروحه في جانبيه: الجانب العلمي والعملي، فشغلوهم بمثل هذه البدع، لكن يلزم أهل الحق في هذا المقام عند شيوع هذه الألفاظ الباطلة وخشية تأثُّر الناس بها أن يُبينوا ما فيها من فساد، وأن يُبينوا ما فيها من ضلال وباطل، وأن القول بكذا بدعة، والقول بكذا كُفْر، هذا كله من باب النُّصح للدين، وكشْف باطل أهل الضلال حتى لا يروج على العوام والجُهّال ونحوهم.

(ومَنْ زعم أن الرسول ﷺ واسط يؤدي، وأن المرسَل إليهم أفضل: فهو كافر بالله) وهذا أيضاً يشير إلى أمر موجود عند المتصوفة، أن الرسول واسط يؤدي: أي مُبَلِّغ، يؤدي ما أُمِر بإبلاغه، لكن لا يلزم- يقولون- من كونه رسول ويؤدي أن يكون هو الأفضل، بل في الأولياء مَنْ هم أفضل من الرسول! هكذا يقولون: بل في الأولياء مَنْ هم أفضل من الرسول، هو واسط يؤدي، يؤدي ويبلغ، وبلّغ، لكن هذا البلاغ لا يلزم منه تفضيله، وأنه أفضل عباد الله، بل في أولياء الله مَنْ هم ليسوا برسل لكن هم أفضل من الرسول!

مثلما قال قائلهم:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

فويق الرسول، مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي، يعني الولي عندهم أعلى من الرسول ومن النبي؛ هذا معنى كلامه، وابن خفيف يرُدّ على مَنْ يعتقدون هذه العقيدة.

وهذا كله ينشأ من الغلو في شيوخ الضلال وأئمة الباطل، المغالاة فيهم ليس إلى هذا الحد، بل وُجِد من المغالاة فيهم مَنْ جعل يعطيهم من خصائص الرب ﷻ، وأوصاف الرب ﷻ، وهذا موجود كثير في طرق الضلال وطرق التصوف.

قال: (ومَنْ قال بإسقاط الوسائط على الجملة فقد كفر) وهذا أيضاً موجود عند غلاة المتصوفة، يقولون: نحن نأخذ من المشكاة التي أخذ منها جبريل، من اللوح المحفوظ، من اللوح المحفوظ مباشرة، يُكشَف لأحدنا عن اللوح ويأخذ، ونأخذ من الله مباشرة!! ويقولون: أنتم تقولون: حدّثنا فلان عن فلان عن فلان، ميت عن ميت عن ميت، ونحن يقول قائلنا: حدّثني قلبي عن ربي!

فيقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومَنْ قال بإسقاط الوسائط) الذين هم الرسل، الرسل وسائط بين الله وبين الخلق في إبلاغ الدين، فمَنْ قال: (إن الدين يأتيه بلا واسطة الرسل) فهذا كُفْر، خروج عن دين الله ﷻ، لأن الدين هو ما جاءت به رسل الله، فمَنْ زعم أن ديناً يأتيه من غير واسطة الرسل فهذا كافر، وهذا موجود أيضاً عند المتصوفة لأن خرافاتهم المتراكمة الكثيرة لما سُئلوا من أين جئتم بها؟.. اخترعوا مثل هذا الكذب، وهذا الافتراء وأنهم يأخذون عن الله مباشرة، وأنهم يُكاشَفون وأنهم يُهاتَفون، وأشياء من هذا القبيل، فهذا لا شك أنه مثلما أشار المصنف كُفر، لأن مَنْ لم يكن واسطته في معرفة دين الله الرسول فواسطته فيما عنده من أمور الشيطان والأهواء، وهذا لا شك أنه خروج عن الدين، لأنه لا دين إلا ما جاء به الرسول.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كثيراً ما يقول: مَنْ فارق الدليل ضلّ السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول ﷺ، فالدين هو ما جاء به رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

إلى هنا انتهى ما نقَلَه شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن ابن خفيف، وهو نقْل مُطوَّل، والشيخ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختصر مواضع عديدة من كتاب ابن خفيف هذا، لكنه تضمّن أشياء مهمة جداً في الرد على المتصوفة.

وابن خفيف هو من المتصوفة، لكن عنده شيء من الاعتدال وردّ هذه الضلالات الكثيرة التي انتشرت عند المتصوفة، وبيّن بطلان هذه الأمور وفسادها ومخالفتها لدين الله ولما جاء عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه. ثم أتبع ذلك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بنقْل عن أحد متأخري المتصوفة، يعني النقل الأول عن ابن خفيف، نقْل عن أحد متقدمي المتصوفة، وأتبع ذلك بنقْل عن أحد متأخري المتصوفة وهو عبد القادر الجيلي، ويقال له الجيلاني، وتُنسَب إليه الطريقة- طريقة صوفية مشهورة- يقال لها: الطريقة الجيلانية.

وسنقف على نقْله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في لقاء الغد بإذن الله ﷻ.

ونسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علَّمنا، وأن يزيدنا عِلماً وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبُلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ عِلمنا، ولا تُسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

برنامج
دراسة متون
العقيدة
(المستوى الثالث)
@mton_aqeda3

شرح الفتوى الحموية الكبرى
لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

لفضيلة الشيخ
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله

من الدرس (٢٨) إلى الدرس (٣١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

الدرس الثامن والعشرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

ومن متأخريهم الشيخ الإمام أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي قال في كتاب «الغُنية»: أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهو أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد.

إلى أن قال: وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش، محتوٍ على الملك، محيط علمه بالأشياء ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥﴾ [السجدة].

ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان؛ بل يقال: إنه في السماء على العرش كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه].

وذكر آيات وأحاديث إلى أن قال: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وأنه استواء الذات على العرش، قال: وكونه على العرش مذكور في كل كتاب أُنزل على كل نبي أُرسل بلا كيف، وذكر كلاماً طويلاً لا يحتمله هذا الموضع، وذكر في سائر الصفات نحو هذا.

ولو ذكرتُ ما قال العلماء في ذلك لطال الكتاب جداً.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأصلِح لنا شأننا كله يا ذا الجلال والإكرام.

أما بعد..

هذا نقل عن عبد القادر الجيلي، ويقال: الجيلاني، وهو الذي تُنسَب إليه الطريقة الجيلانية، ويقال: الطريقة القادرية.

وكان عبد القادر هذا فيه زُهد كثير وانقطاع للعبادة والعمل، وكان في الجملة في المعتقد في الصفات والقدر على عقيدة أهل السُّنة والجماعة، وربما يتضح لنا شيء من ذلك من خلال هذا النقل الذي نقَلَه شيخ الإسلام عنه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كتابه «الغنية»- «غُنية الطالبين».

وابتُلي بأتباع غلو فيه، وكتب فيه أحد الأشخاص ثلاث مجلدات ممنْ جاء بعده، جُلّها في المغالاة فيه، ففُتِن فيه خلْق إلى أن عُبِد من دون الله ﷻ، وأصبح قبره وثن من الأوثان التي تُعبَد، وتُقصَد عن قُرب ومن بُعد، وساقوا في ذلك من أخبار ما لبَّسوا فيه على كثير من عوام وجُهّال الناس إلى زماننا هذا، ولا يزال في بعض الأمكنة مَنْ يُقَرِّب القرابين وينذر النذور للجيلاني، ويتجه إليه في طلب الحاجات، وكشْف الكُربات، والشفاء من الأمراض، ويدّعون في ذلك دعاوى كاذبة باطلة مما كان له الأثر على نفوس كثير من العوام والجُهّال، فأصبحوا يعتقدون فيه اعتقادات باطلة في شفاء الأمراض، في كشْف الهموم، في تفريج الكُربات، في أمور كثيرة جداً يعتقدونها في هذا الرجل.

وقد ذكر مَنْ ترجم له من أهل السُّنة كالذهبي وابن رجب، وابن كثير، وغيرهم.. ذكروا من حال هذا الرجل، وأن مثل هذه الأمور إنما وُجدت بعد غُلواً فيه، إنما وُجدت هذه الأشياء بعدُ غُلواً فيه.

فعلى سبيل المثال يقول ابن كثير المؤرخ في كتابه «البداية والنهاية» لما ترجم له قال: وكان فيه زهد كثير، وله أحوال صالحة.

إلى أن قال: ولأتباعه وأصحابه فيه مقالاتٌ ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات أكثرها مغالاة، وقد كان صالحاً وَرِعاً.

ولما ترجم له الذهبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، قال في خاتمة الترجمة: وفي الجملة: الشيخ عبد القادر كبير الشأن، وعليه مآخذ في بعض أقاويله ودعاويه والله الموعد، وبعض ذلك مكذوب عليه.

وقال ابن رجب -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وللشيخ عبد القادر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام حسن في التوحيد والصفات والقدر، وفي علوم المعرفة موافق للسُّنة.

ومن جميل ما نُقِل في ذلك ما ذكره شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه «الاستقامة»، قال: إن عبد القادر الجيلاني سُئل: هل كان لله ولي على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟ فقال: لا كان ولا يكون، وعندما يقال: اعتقاد أحمد بن حنبل؛ هذه النسبة- نسبة الاعتقاد إليه- باعتبار نُصرته لهذا الاعتقاد وذَبّه عنه، وعمله العظيم على نشْره، وإلا فالمراد: معتقد أهل السُّنة، فيقال: (معتقد أحمد) باعتبار أن هذه عقيدة أحمد

-رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي يدين الله بها، وباعتبار أنه نصر هذه العقيدة وذَبَّ عنها، وصبر على الأذى فيها والسجن والضرب والتعذيب نُصْرةً لهذه العقيدة.

فالشاهد: أن عبد القادر الجيلاني كان هذا شأنه، وكتابه «الغُنية» الذي نقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذا النقل فيه موافقة أهل السُّنة، وفيه إثبات الصفات لله ﷻ، قد لا تخلو أقاويله- مثلما أشار الذهبي- من بعض الأخطاء، لكن في الجملة عقيدته عقيدة أهل السُّنة، ويقول: لا يكون من أولياء الله إلا مَنْ هو على عقيدة الإمام أحمد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- أي: عقيدة أهل السُّنة والجماعة-.

لكن حصل من أتباعه، ومن المعلوم أن- وهذا أمْر تكرر عبر التاريخ- الرجل الذي يكون له مكانة في النفوس، ومحبة في القلوب يحصل من أتباعه مغالاة فيه، وغُلو في مدحه وإطرائه والثناء عليه، وربما بلغ في بعض الناس في مغالاته في متبوعه أن يعطيه من الخصائص والصفات ما لا يليق إلا برب الأرض والسموات ﷻ، وهذا حصل كثيراً، ومثل هذا حصل مع عبد القادر، ووُصِف بصفات وأُضيف إليه أقوال، ما يُظَن بمثله أن يقولها، ما يُظَن بمثله.. رجل عُرِف في زمانه بالزهد والعبادة فينسبون إليه أقوالاً ما يُظَن بمثله أن يقول مثلها.

وهذا النقل الذي أورده ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الموضع هو نقْل عن كتابه «الغُنية»، يُعرَف بـ «الغُنية»، ويُعرَف بـ «غُنية الطالبين»، قال فيه: (أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهو أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد، إلى أن قال: وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش)، وقوله: (بجهة العلو) الجهة: هذه كما نبّه شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم من الألفاظ المُجمَلة.

وعند إطلاق هذا اللفظ لا بد أن يتضمن ما يزيل الإجمال، لأن عندما يقال: هل الله في جهة؟ يُنظَر في مراد السائل بـ (الجهة) لأن الجهة لفظ مُجمَل؛ فإذا أراد بالجهة بجهة العُلو- كما هنا- قال: (جهة العلو) فهذا حق؛ لأن الله ﷻ في جهة العلو أي: عَلِيٌّ على خلْقه، بائن من خلقه، فوق سماواته، مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله.

وأما إذا أُريد بالجهة معنى آخر: كأن يُراد بها جهة تحيطه أو تحويه أو نحو ذلك.. فهذا باطل، لا ريب في بُطلانه.

قال: (وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش) أي: كما أخبر سبحانه في مواضع من كتابه، (محتوٍ على الملك) ومعنى (محتوٍ على الملك) أي: مالك لكل شيء، مستوٍ على عرشه والملك كله بيده، والخلق جميعهم طوع تدبيره وتسخيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(محيط علمه بالأشياء) أي: أنه مع الخلق بالعلم..

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨]

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن:٢٨]

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ [سبأ:٣]

(﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]) الصعود إلى أعلى، وهذا دليل على عُلو الله، يصعد إليه، والصعود إلى أعلى فهذا من أدلة عُلوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن أدلة العلو: (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ [السجدة: ٥]) والعروج إنما يكون إلى أعلى (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥]).

قال: (ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان) أي: كما يقول ذلك الجهمية، وكما يقول ذلك المتصوفة، قال: لا يجوز أن يقال.. أن يوصف بأنه في كل مكان..

(بل يقال: إنه في السماء على العرش كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه]): (وذكر آيات وأحاديث إلى أن قال: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل) وهذا فيه ردّ على مَنْ قال: إن الاستواء يراد به الاستيلاء، استوى على العرش أي استولى عليه! وهذا تأويل باطل، فيه تعطيل لهذه الصفة، وفيه تحريف لآيات الاستواء عن مدلولها، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه.

قال: (وأنه استواء الذات على العرش) أي أنه مستوٍ بذاته جل وعلا فوق عرشه المجيد.

(قال: وكونه على العرش مذكور في كل كتاب أُنزل على كل نبي أُرسل بلا كيف)؛ وهذا إشارة منه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى إلى اتفاق الكتب المُنَزَّلة على أمور الاعتقاد، أمور الاعتقاد هذه أصول ثابتة متقررة لدى جميع الأنبياء، ما من نبي بعثه الله عَزَّ وَجَلَّ إلا وأخبر قومه بذلك، بعُلو الله وفوقيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعُلوه على عباده.

ولهذا لما أخبر موسى عليه السلام فرعون وقومه بذلك رام فرعون بناء الصرح من أجل أن يُكذِّب موسى بزعمه في دعواه أن الله في السماء ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ

إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴿٣٧﴾﴾ [غافر] لأن موسى قال له: إن الله في السماء، عَلِيٌّ على عرشه، فرام بناء هذا الصرح بزعمه ليكذب موسى في دعواه.

ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: مَنْ يثبت عُلو الله على العرش فهو موسوي، أي: على عقيدة موسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء، ومَنْ يُنكر عُلو الله فعقيدته فرعوني لأن فرعون مَنْ أنكر ذلك، وكذَّب موسى عليه صلوات الله وسلامه وعلى جميع النبيين.

فعبد القادر هنا يشير إلى أن إثبات العلو واستواء الله على العرش عقيدة متفق عليها لدى جميع النبيين، لأن أمور الاعتقاد لدى جميع الأنبياء واحدة، والخلاف إنما هو في التكاليف والشرائع، كما قال الله سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، أما أمور الاعتقاد فواحدة كما قال نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «نحن الأنبياء أبناء علات، ديننا واحد» أي عقيدتنا واحدة، «وأمهاتنا شتى» أي: الشرائع تختلف من نبي إلى آخر.

قال: (وذكر كلاماً طويلاً لا يحتمله هذا الموضع، وذكر في سائر الصفات نحو هذا) أي: نحو ما ذكره في الاستواء من إثبات الله، وإمرار له كما جاء، فقوله: (في سائر الصفات) كقوله في الاستواء، وذلك أن باب الصفات واحد.

قال: (ولو ذكرتُ ما قال العلماء في ذلك لطال الكتاب جداً).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وقال أبو عمر بن عبد البر: رُوِّينا عن مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والأوزاعي، ومعمر بن راشد في أحاديث الصفات: أنهم كلهم قالوا: أَمِرُّوها كما جاءت.

قال أبو عمر: ما جاء عن النبي ﷺ من نقْل الثقات، أو جاء عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فهو علم يُدان به، وما حدث بعدهم ولم يكن له أصل فيما جاء عنهم فهو بدعة وضلالة.

هذا نقْل عن الإمام بن عبد البر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى صاحب «التمهيد» وغيره من الكتب النافعة المفيدة، وهو من علماء المالكية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

ذكر في هذا النقل عن الإمام مالك وغيره من أئمة السلف: أن قولهم في أحاديث الصفات: إمرارها كما جاءت.

وإمرار الصفات كما جاءت بأن تُثبَت لله ﷻ على الوجه اللائق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه لأنها جاءت مُحمّلة بالمعاني، فلا يكون الإمرار لها كما جاءت إلا بإثبات معانيها ودلالاتها، فقول السلف: (أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف) أي: أَثبِتوها لله كما أثبتها الله لنفسه، وكما أثبتها لها رسوله ﷺ، (بلا كيف): أي دون خوض في تكييفها، لأن الكيف غير معقول.

(قال أبو عمر: ما جاء عن النبي ﷺ من نقْل الثقات، أو جاء عن أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فهو علم يُدان به) يُدان به: أي يُؤمَن به، ويُجعَل ديناً، (وما حدث بعدهم ولم يكن له أصل فيما جاء عنهم فهو بدعة وضلالة) وهذا إشارة إلى ما قاله مالك -رَحِمَهُٱللَّهُ: (ما لم يكن ديناً زمن محمد ﷺ وأصحابه فلن يكون ديناً إلى قيام الساعة).

قال -رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى:

وقال في «شرح الموطأ» لما تكلم على حديث النزول قال:

هذا حديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد، لا يختلف أهل الحديث في صحته، وهو منقول من طرق - سوى هذه - من أخبار العدول عن النبي ﷺ وفيه دليل على أن الله في السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة، وهو من حُجتهم على المعتزلة في قولهم: إن الله في كل مكان.

ذكر -رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى في شرح الموطأ- موطأ الإمام مالك- عند كلامه (على حديث النزول) ثبوت هذا الحديث، وصحة إسناده، وأنه رُوي عن النبي ﷺ من طرق كثيرة من أخبار العدول، ونصَّ -رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى في كتاب «التمهيد» على أنه من الأحاديث المتواترة عن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وقد نصَّ على ذلك جمْع من أئمة أهل العلم وأهل الدراية والمعرفة بحديثه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وقد بلغ عِدة مَنْ رووا هذا الحديث عن النبي ﷺ من الصحابة ثمان وعشرين صحابياً، ذكرهم ابن القيم وذكر أحاديثهم في كتابه «الصواعق».

فحديث النزول حديث تواتر عن نبينا الكريم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

قال -رَحِمَهُٱللَّهُ: (وفيه دليل على أن الله في السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة) يقصد بالجماعة أهل السُّنة والجماعة (أئمة السلف).

وحديث النزول معدود في جملة أدلة العلو؛ لأن أدلة العلو- علو الله على خلْقه- جاءت متنوعة في الدلالة على العلو، من ضمن هذه الأدلة حديث النزول، لأن النزول إنما يكون من أعلى، فقوله: (ينزل)

هذا دليل على علو الله، ونزوله ﷻ إلى السماء الدنيا الذي أخبر به النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو نزول يليق بجلال الرب وكماله، لا نعلم كيفيته.

قال: (وهو من حُجتهم على المعتزلة في قولهم: إن الله في كل مكان)؛ مَنْ لا يُثبت عُلو الله ليس له مع إنكاره للعُلو إلا إحدى عقيدتين: إما أن يقول: الله في كل مكان، أو يقول: الله لا فوق ولا تحت.. إلى آخره، ليس له إلا إحدى هاتين العقيدتين، إما تشبيه الله بالعدم- تعالى الله عمّا يقولون- لا فوق ولا تحت ولا داخل العالم ولا خارجه.. إلى آخره.

أو القول: بأنه في كل مكان، وهذه عقيدة باطلة، فاسدة، يُنزَّه الرب ﷻ عن ذلك ويُقدَّس تعالى الله عمّا يصفون، فليس له إلا إحدى هاتين العقيدتين.

وحديث النزول ردّ على هؤلاء وعلى هؤلاء، ينزل ربنا، مَنْ يقول: (لا فوق، ولا تحت.. إلى آخره)، أو يقول: (الله في كل مكان) ماذا يكون عنده قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة»؟ وما معنى ينزل إذا كان الأمر كما يعتقد (الله في كل مكان) تعالى الله عمّا يقولون، سبحان الله عمّا يصفون؟!

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وقال: والدليل على صحة قول أهل الحق قول الله - وذكر بعض الآيات - إلى أن قال: وهذا أشهر وأعرف عند العامة والخاصة من أن يُحتاج إلى أكثر من حكايته، لأنه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد، ولا أنكره عليهم مسلم.

يقول: إن الأدلة على العلو والآيات والأحاديث التي جاءت في إثبات علو الله ﷻ كثيرة جداً، ومشهورة بين العامة والخاصة، وهي أشهر من أن يُحتاج إلى حكاية هذا القول لوضوح أدلته، مثلما قال ابن القيم:

(والله يا قومنا.. والله إن لقولنا ألفاً تدل عليه، بل ألفان)

الأدلة كثيرة على العلو- إثبات علو الله ﷻ وتعالى على عرشه المجيد-.

لكن انظر إلى ذِكْره لدلالة الفطرة على العلو!

يقول: (لأنه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد، ولا أنكره عليهم مسلم).. (اضطرار لم يوقفهم عليه أحد) كل أحد يجد في قلبه اضطراراً.. أنه عندما يسأل، عندما تشتد به الحاجة يجد قلبه متجه إلى العلو دون أن

يوقفه أحد على ذلك، وإنما يجد أن قلبه متجه إلى العلو، ويفزع إلى جهة العلو، هذا أَمْر فَطَر الله ﷻ القلوب عليه، فَطَر القلوب ﷻ عليه.

أذكر مرة من القصص العجيبة- يعني بهذه المناسبة- في إحدى الدول، وكنّا في مجلس نقابل الطلاب من أجل الالتحاق بدورة كانت مقامة في تلك الدولة، فلما انتهينا من مقابلة الطلاب كان السائق مخصص للدورة، رجل كبير في السن جالساً، فانتهى الطلاب، من باب المداعبة قلت: الآن اختبار الشيخ، والتفت إليه وسألته: قلت له: أين الله؟ قال لي: الله في الأرض وفي السماء وفي كل مكان، هكذا قال: الله في الأرض وفي السماء وفي كل مكان.

فقلت للإخوان الحاضرين: قلت: انظروا! أصبعه على الفطرة، ولسانه أُفسِد بعلم الكلام وعقائد أهل الباطل، أشار بإصبعه قال: الله في الأرض، قالها بلهجته، وأحفظها بلهجته كما سمعتها منه، قال: (خدا دار أرز دار سما دار همش مكان)، في الأرض، وفي السماء وفي كل مكان، وأصبعه يشير إلى السماء.

الأصبع على الفطرة واللسان خُرِّب بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام.

فالله ﷻ فطر العباد على الإيمان بعُلوه ﷻ.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وقال أبو عمر بن عبد البر أيضاً: أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حُمِل عنهم التأويل قالوا في تأويل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧] هو على العرش، وعِلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك مَنْ يُحتج بقوله.

قال: (وقال أبو عمر بن عبد البر أيضاً: أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حُمِل عنهم التأويل) المراد بـ(التأويل): أي التفسير، وبيان معاني النصوص.

(قالوا في تأويل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]) يقول: أجمعوا على أنه (على العرش، وعِلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك مَنْ يُحتج بقوله) أي: أن المراد بقوله: (﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧]) أي: بعلمه، بإجماع السلف، بإجماع الصحابة والتابعين كما حكى إجماعهم على ذلك ابن عبد البر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وحاكاه أيضاً غيره من أئمة أهل العلم.

أجمع السلف من الصحابة والتابعين أن قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] (﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]) أي: بعلمه، والدليل على ذلك: السياق، لأن بدأ الآية وختمها بالعلم، بدأها وختمها بالعلم، مثلما قال الإمام أحمد- وسبق أن مرَّ معنا- بدأ الخبر بالعلم وختمه بالعلم، فقوله: ((﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]) (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]) أي: بعلمه ﷻ.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وقال أبو عمر أيضاً: أهل السُّنة مُجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسُّنة، والإيمان بها وحمْلها على الحقيقة لا على المجاز، إلا إنهم لا يُكيِّفون شيئاً من ذلك، ولا يحدُّون فيه صفة محصورة.

وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج: فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة، ويزعم أن مَنْ أقرَّ بها مُشبِّه، وهم عند مَنْ أقرَّ بها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون: بما نطق به كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، وهم أئمة الجماعة.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أهل السُّنة مُجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسُّنة، والإيمان بها وحمْلها على الحقيقة لا على المجاز، إلا إنهم لا يُكيِّفون شيئاً من ذلك، ولا يحدُّون فيه صفة محصورة) لا يحدّون فيه صفة محصورة: أي لا يُكيفونه بكيفية محصورة في أذهانهم، في فِكْرهم، عقولهم، وكل ما يخطر ببال الإنسان يظنه كيفيةً أو حدّاً لصفة الله فالله أعظم من ذلك وأجَلّ ﷻ، والتكييف باطل.

قال: (وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج: فكلهم ينكرها) أي: الصفات، كلهم ينكرها: أي صفات الله ﷻ.

والخوارج تأثروا في أمور المعتقد -ولاسيما فيما بعد- بالمعتزلة، فصارت أصولهم في المعتقد أصول المعتزلة.

قال: (فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة) أي: يتأوّلونها إلى معاني بعيدة، لا يؤمنون بها كما وردت، ولا يُمرِّونها كما جاءت،بل يُحرِّفونها إلى معاني بعيدة، وهذا معنى قوله: (ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة).

(ويزعم أن مَنْ أقَرَّ بها مُشَبّه) يزعم: أي هؤلاء، (أن مَنْ أقَرَّ بها مُشَبّه) أن مَنْ أقرّ بها: أي صفات الله (مُشَبّه)؛ هذه دعوى أهل الباطل عموماً من نُفاة الصفات، يدّعون أن أهل السُّنة الذين يثبتون الصفات مُشَبّهة.

والحق: أن أهل السُّنة أكرمهم الله ﷻ بالسلامة من التشبيه ومن التعطيل؛ لأن طريقتهم إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، فسلّمهم الله من هذين الباطلين، وقولهم حق وهُدى بين ضلالتين: ضلالة التشبيه، وضلالة التعطيل، فهُم يثبتون بلا تمثيل، ويُنزِّهون بلا تعطيل.

قال: (وهُم) أي: الجهمية والمعتزلة ومَنْ سار مسارهم (عند مَنْ أقرَّ بها نافون للمعبود)؛

(وهم) أي: الجهمية ومَنْ كان على عقيدتهم.

(عند مَنْ أقرَّ بها) أي: أقرَّ بالصفات الذين هم أهل السُّنة (نافون للمعبود) لأنهم عطّلوا الرب ﷻ عن صفاته، عطلوه عن صفاته، فترتب على ذلك التعطيل وصْف الله بالعدم، ولهذا قال السلف قديماً: والمعطِّل يعبد عدماً، لأن هذا التعطيل لازمه تشبيه الله بالعدم لأن إذا قال قائلهم: الله لا فوق، ولا تحت، ولا عن يمين العالم، ولا داخله، ولا خارجه.. إلى آخر ما يقولون؛ هذا وصْف لله بالعدم، بل لو أن أحداً أراد أن يصف العدم بصفة بليغة لن يجد أبلغ مما وصف به الجهمية ربهم.

وقد ضرب أحد علماء السلف مثالاً يوضح به ذلك، قال: مَثَل الجهمية مَثَل رجل قال: في دارنا نخلة، قيل: لها جذع؟ قال: لا، قيل: لها عروق في الأرض؟ قال: لا، قيل: لها قنو؟ فيها قنو قال: لا، عددوا له صفات النخلة وكل شيء يقول لا، فقيل له: ما في داركم نخلة، قال: هذا مَثَل للجهمية، يقول: لنا رب، ثم كل الصفات نفوها، فهذا تشبيه للرب بالعدم، وهذا معنى قول ابن عبد البر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: (وهم عند مَنْ أقرَّ بها نافون للمعبود).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والحق فيما قاله القائلون: بما نطق به كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، وهم أئمة الجماعة) وهذا فيه أن طريقة أهل السُّنة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وجادتهم في صفات الله ﷻ إثباتها والإيمان بها والنطق بما نطق به كتاب الله، وبما نطقت به السُّنة لا يتجاوزون القرآن والحديث، كما قال الإمام أحمد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نَصِف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والحديث.

وكما قال الأوزاعي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ندور مع السُّنة حيث دارت؛ أي: نفياً وإثباتاً، فما أُثبت في الكتاب والسُّنة أثبتناه، وما نُفي في الكتاب والسُّنة نفيناه.

ونسأل الله الكريم أن يُفقهنا في الدين، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزَكِّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللهم إنّا نسألك الهدى والتقى والعفة والغِنى.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبُلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ عِلمنا، ولا تُسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

الدرس التاسع والعشرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وفي عصره الحافظ أبو بكر البيهقي مع توليه للمتكلمين من أصحاب أبي الحسن الأشعري وذبّه عنهم قال: في كتابه «الأسماء والصفات»:

باب ما جاء في إثبات اليدين صفتين - لا من حيث الجارحة - لورود خبر الصادق به..

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]

وقال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤].

وذكر الأحاديث الصحاح في هذا الباب مثل قوله في غير حديث في حديث الشفاعة: «يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه»، ومثل قوله في الحديث المتفق عليه: «أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك الألواح بيده»، وفي لفظ: «وكتب لك التوراة بيده».

ومثل ما في صحيح مسلم: «وغرس كرامة أوليائه في جنة عدن بيده»، ومثل قوله ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر؛ نزلاً لأهل الجنة».

وذكر أحاديث مثل قوله: «بيدي الأمر»، «والخير في يديك»، «والذي نفس محمد بيده »و «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»، وقوله: «المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين»، وقوله: «يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»، وقوله: «يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه، وعرشه على الماء وبيده الأخرى القبض يخفض ويرفع»، وكل هذه الأحاديث في الصحيح.

وذكر أيضاً قوله: «إن الله لما خلق آدم قال له: ويداه مقبوضتان اختر أيهما شئت، قال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة»، وحديث: «إن الله لما خلق آدم مسح على ظهره» إلى أحاديث أُخَر ذكرها من هذا النوع.

ثم قال البيهقي: أما المتقدمون من هذه الأمة فإنهم لم يفسروا ما كتبنا من الآيات والأخبار في هذا الباب؛ وكذلك قال في الاستواء على العرش وسائر الصفات الخبرية؛ مع أنه يحكي قول بعض المتأخرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأصلِح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

هذا نقْل أورده شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في فتواه الحموية عن البيهقي في جملة ما أورده من نقولات عديدة، يبين فيها أن الأمر في باب الصفات وما كان عليه السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى من إمرار للنصوص كما جاءت، وإيمان بها كما وردت دون خوض فيها بتأويل، أو تحريف، أو تعطيل، أو تكييف، أو تمثيل، فكل ذلكم من الطرائق الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان، والواجب في نصوص الصفات: أن تُمَرَّ كما جاءت، وأن يُؤمَن بها كما وردت.

ولما نقَل -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذا النقْل عن البيهقي نبّه بقوله: (مع توليه للمتكلمين) لأن البيهقي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مع اشتغاله الواسع بالحديث وعنايته الكبيرة به، وتشهد له بذلك مصنفاته الحافلة التي تُعدّ مرجعاً هاماً مثل السُّنن الكبرى وشُعب الإيمان، وغيره من الموسوعات الكبيرة التي كتبها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في خدمة حديث رسول الله ﷺ، فكان ذا عناية كبيرة جداً بالحديث، لكنه تأثّر بعلم الكلام، وأخذ عن بعض الأشياخ المشتغلين بعلم الكلام فأثّر فيه.

وكتابه «الأسماء والصفات» الذي نقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كتاب حافل بالنقول العظيمة، وإيراد النصوص وسوقها بأسانيدها، لكنه مع ذلك بسبب تأثُّره بمدرسة علم الكلام خاض في بعض التأويل، في كتابه هذا وغيره من كتبه.

وأصبح عنده شيء من الاضطراب، يعني في بعض المواضع يثبت ويُعظّم طريقة السلف مثل ما نقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا، وفي بعض المواضع يتأوّل النصوص على طريقة المتكلمين.

وفي الجملة يذكر طريقة السلف ويُعظّم طريقتهم، وأن جادتهم في هذا الباب إمرار النصوص كما جاءت، وعدم الخوض في تفسيرها- أي: تفسيرات الجهمية التي هي تأويل وتحريف للنصوص-.

أورد هنا -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذا النقل عن البيهقي من كتابه «الأسماء والصفات» يتعلق بإثبات اليدين صفةً لله، وبوّب لذلك بقوله: (باب ما جاء في إثبات اليدين صفتين - لا من حيث الجارحة -) هذه الكلمة (لا من حيث الجارحة) هي مما دخل على البيهقي من علم الكلام، ومثل هذه الألفاظ المُجملة لا وجود لها عند السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، وإنما جاءت هذه الألفاظ من أهل الكلام، وبناءً عليها عطّلوا الصفات ونفوها عن الله ﷻ، والسلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى لما أثبتوا لله صفاته جَلّ في علاه أثبتوها دون ذِكْر لهذه الألفاظ التي لا أصل لها في كتاب الله ولا في سُنة رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا في ألفاظ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، ولا في ألفاظ التابعين، وهم على الدين أحرص، وشأنهم في تعظيم الله أعظم وأجَلّ ممَّنْ جاء بعدهم، ولا وجود لهذه الألفاظ، فمثل هذه الألفاظ نشأت عن المتأخرين، وكثير منهم بنى عليها تعطيل الصفات ونفيْها.

والأصل إثبات الصفات كما جاءت، وإمرارها كما أتت عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

فقوله: (لا من حيث الجارحة) مثل هذه الألفاظ ينبغي ألا تُذكر، وليست هي من جادة السلف وطريقتهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى.

ومَنْ أثبت الصفات- وهم أئمة السلف- أثبتوها على وجه يليق بالله ﷻ، وما منهم أحد أثبتها على الوجه الذي هو في المخلوق، أو على الصفة التي هي في المخلوق، بل أثبتوها وهم مؤمنين بقول الله ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وقوله جلَّ في عُلاه: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥].

والجارحة شأنها هذه اللفظة كشأن الألفاظ المُجملة الكثيرة التي أحدثها علماء الكلام، ويقال: إن قُصِد بالجارحة ما يُعلَم من وصْف المخلوق فهذا باطل، الله ﷻ مُنَزَّه عنه، وإن قُصِد ثبوت الصفات لله على الوجه اللائق بجلاله وكماله فصفات الله ﷻ ثابتة، وأما هذه الألفاظ فإن السلف لا يُطلقونها على الله ﷻ لا نفْياً ولا إثباتاً لأنهم يدورون مع الكتاب والسُّنة حيث دارا في النفي والإثبات.

ثم ساق الآيات والأحاديث، وأطال في ذِكْر الآيات والأحاديث وهذه جادة السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وطريقتهم، فساق آيات كثيرة من كتاب الله ﷻ وأحاديث عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه في إثبات اليدين صفةً لله.

ثم ختم ذلك بقوله: (أما المتقدمون من هذه الأمة) يقصد: الصحابة ومَنْ اتبعهم بإحسان، (فإنهم لم يفسروا ما كتبنا من الآيات والأخبار في هذا الباب) ما معنى قوله: (لم يفسروا) أي: لم يخوضوا في التأويل الذي وُجِد عند المتكلمين، لم يخوضوا في التأويلات التي وُجدت عند المتكلمين، هذا معنى (لم يفسروا) أي: لم يفسروها تفسيرات المتكلمين التي هي في الحقيقة تحريف للكلم عن مواضعه، وإنما كانت طريقتهم إمرار هذه النصوص كما جاءت، والإيمان بها كما وردت، وإثباتها لله ﷻ على الوجه اللائق بجلاله وكماله.

قال: (وكذلك قال في الاستواء على العرش وسائر الصفات الخبرية؛ مع أنه يحكي قول بعض المتأخرين) (مع أنه) أي: في كتابه «الأسماء والصفات» (قول بعض المتأخرين) الذي هو تأويل للصفات وصرْف لها عن مدلولها.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

وقال القاضي أبو يعلى في كتاب «إبطال التأويل»:

لا يجوز رَدُّ هذه الأخبار ولا التشاغل بتأويلها، والواجب حَمْلها على ظاهرها، وأنها صفات الله لا تُشَبَّه بسائر الموصوفين بها من الخلق، ولا نعتقد التشبيه فيها، لكن على ما رُوي عن الإمام أحمد وسائر الأئمة.

وذكر بعض كلام الزهري، ومكحول، ومالك، والثوري، والأوزاعي، والليث، وحمّاد بن زيد، وحمّاد بن سلمة، وابن عيينة، والفضيل بن عياض، ووكيع، وعبد الرحمن بن مهدي، وأسود بن سالم، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد، ومحمد بن جرير الطبري، وغيرهم في هذا الباب، وفي حكاية ألفاظهم طول.

إلى أن قال: ويدل على إبطال التأويل: أن الصحابة ومَنْ بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها؛ ولم يتعرضوا لتأويلها ولا صرْفها عن ظاهرها؛ فلو كان التأويل سائغاً لكانوا إليه أسبق؛ لما فيه من إزالة التشبيه ورفْع الشبهة.

ثم ساق -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى هذا النقل عن القاضي أبو يعلى الحنبلي في كتابه «إبطال التأويل».

وكتاب «إبطال التأويل» أي: لأخبار الصفات، وهو كتاب مطبوع، وكتاب نافع جداً في بابه، لولا أنه انتُقِد في هذا الكتاب بسوقه لبعض الروايات الواهية والضعيفة والتي لا تثبت عن رسول الله ﷺ، وأجاد

كثيراً وأفاد في الرد على المتكلمين في تأويلهم لصفات الله ﷻ، والذي لأجله ألَّف هذا الكتاب، سمى كتابه «إبطال التأويل لأخبار الصفات» وهو في الأصل ردٌّ على ابن فورك، ابن فورك من كبار علماء الأشاعرة المتكلمين، فهو في الأصل ألَّفه ردّاً عليه.

يقول في هذه الخلاصة التي ساقها وأوردها شيخ الإسلام: (لا يجوز رَدُّ هذه الأخبار) أي: أخبار الصفات، (ولا التشاغل بتأويلها) أي: على طريقة المتكلمين، (والواجب حَمْلها على ظاهرها) وظاهرها هو اللائق بالله، ظاهر الصفات.. إذا قيل: ظاهر الصفات مراد أو ليس مراد؟ فإن ظاهر الصفات مراد على الوجه اللائق بالله، وليس مراداً على الوجه الذي ينقدح في أذهان المتكلمين، وبناءً عليه نفوا صفات الله ﷻ، لأن للذي ينقدح في أذهان المتكلمين هو التشبيه وهذا ليس مُراداً، وإنما ظاهر النصوص مراد على الوجه اللائق بالله، وجلاله وكماله وعظمته ﷻ.

(وأنها صفات الله) أي: وصف الله ﷻ بها نفسه، ووصفه بها رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، (لا تُشَبَّه بسائر الموصوفين بها من الخلق) وُصِف جلّ وعلا بالسمع والبصر وصف نفسه بالسمع والبصر، وأنه سميع بصير، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، ووصف بعض عباده بذلك ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾[الإنسان:٢] أي: الإنسان، وصفه بذلك، لكن ليس السمع كالسمع، وليس البصر كالبصر.

(لا تُشَبَّه بسائر الموصوفين بها من الخلق) وثمّة قاعدة عظيمة في هذا الباب: أن الصفات بحسب مَنْ أُضيفت إليه، فإذا أُضيفت إلى ذي الجلال والكمال والعظمة ﷻ فهي صفات تليق بعظمته وجلاله وكماله.

وإذا أُضيفت إلى المخلوق الضعيف الناقص فهي تليق بضعفه ونقْصه، وما يلزم من الصفات باعتبار إضافتها إلى الله ﷻ لا يكون لازماً للصفة باعتبار إضافتها للمخلوق، وأيضاً العكس: ما يلزم الصفة باعتبار إضافتها للمخلوق لا يكون لازماً للصفة باعتبار إضافتها إلى الخالق.

ومن القواعد المفيدة أيضاً في هذا الباب: أن الإضافة تقتضي التخصيص، بمعنى: أن ما يُضاف إلى الله ﷻ يخصه ويليق بجلاله وكماله وعظمته، وما يُضاف إلى المخلوق يخصه ويليق بضعفه ونقْصه وكونه مخلوقاً.

فإذا قال قائل: يلزم من إثبات اليد لله حقيقة أن تكون كيد المخلوق، يقال: هذا لازم في عقلك القاصر، أما في حقيقة الأمر: ليس بلازم؛ لأن اليد التي أُضيفت إلى الله ﷻ تخص الله، وتليق بجلاله وكماله، وكما أنه سبحانه له ذات لا كالذوات فله صفات لا كالصفات.

وما يلزم الصفة باعتبار إضافتها إلى المخلوق ليس لازماً للصفة باعتبار إضافتها إلى الخالق ﷻ.

قال: (لا تُشَبَّه بسائر الموصوفين بها من الخلق، ولا نعتقد التشبيه فيها) لأن الذي أثبت الصفات جلَّ في عُلاه نفَى التشبيه، أثبت لنفسه الصفات، وفي مواضع كثيرة نفى التشبيه، فتُثبت الصفات بلا تشبيه على حد قول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

قال: (لكن على ما رُوي عن الإمام أحمد وسائر الأئمة) الإمام أحمد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عبارته التي يشير إليها أبو يعلى، وقد نقلها في كتابه «إبطال التأويلات» عن الإمام أحمد، وهي قوله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (نَصِف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والحديث).

قال: (وذكر بعض كلام الزهري، ومكحول، ومالك) وعدد من أئمة السلف، وذكر ألفاظاً في هذا الباب- باب إثبات الصفات-، ومراعاةً للاختصار يقول شيخ الإسلام: (وفي حكاية ألفاظهم طول).

(إلى أن قال: ويدل على إبطال التأويل: أن الصحابة ومَنْ بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها) إذا قرأت المروي عن الصحابة لا تجد إطلاقاً تأويل لشيء من الصفات، ولا صفة واحدة حتى إن ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في مناظرته مع المتكلمين قال: أُمهلكم ثلاث سنوات، ابحثوا في كتب السلف كلها، وأعطوني بنقْل واحد فقط عن الصحابة وعلماء التابعين أنهم أَوّلوا صفة واحدة، وأُمهلكم ثلاث سنوات، هذه كتبهم موجودة، ودواوين السُّنة منشورة ابحثوا فيها، وأعطوني نقْلاً واحداً عن واحد من أئمة السلف من الصحابة والتابعين أنه أَوَّل صفة واحدة، هذا لا يوجد.

ويقول رحمة الله عليه: قرأتُ مائة كتاب في التفسير أو أكثر وما رأيت في شيء منها تأويل لصفات الله، من كتب أئمة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، قرأتُ مائة تفسير، يعني كامل، وانظر سعة الاطلاع على دواوين السُّنة، وكتب السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، يقول: ما رأيت في شيء منها تأويل، لشيء من الصفات.

فيقول القاضي أبو يعلى: (الصحابة ومَنْ بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها؛ ولم يتعرضوا لتأويلها ولا صرْفها عن ظاهرها)، حتى المتكلمين يعرفون أن السلف ما خاضوا في التأويل، وبناءً على هذه المعرفة بأن السلف ما خاضوا في التأويل قالوا كلمتهم السيئة التي انتقدها الأئمة، قالوا: مذهب السلف أسلم؛ لأن مذهب السلف ما فيه تأويل، يقرؤونها ويثبتونها، قالوا: ومذهب الخلف أعلم وأحكم..

مذهب الخلف أعلم وأحكم من مذهب مَنْ؟ حتى تكون واضحة أكثر، من مذهب أبي بكر، وعمر، عثمان، وعلي، وسائر الصحابة، الخلف مذهبهم أعلم من مذهب أبي بكر، وأحكم من مذهب أبي بكر.. !

يكفي في استهجان وقُبح مثل هذا الكلام مجرد النظر فيه، الفرجة فيه تكفي في معرفة قُبحه دون نقْد له، مَنْ يقول إن مذهب الخلف أعلم من مذهب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي؟!! وهم صدْر السلف وأئمة السلف، والنبي ﷺ قال: «عليكم بسُنتي، وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ».

وهؤلاء يقولون في أصل الدين الذي هو الاعتقاد: إن مذهب الخلف أعلم من مذهب السلف، وأحكم من مذهب السلف!! وهل يقول ذلك مَنْ عرف قدْر السلف، وعرف مكانتهم في العلم، وعرف إمامتهم في الدين وفضْلهم؟!

فالمتكلمون أنفسهم يعرفون أن هذه التأويلات التي عندهم ليست موجودة عند السلف إطلاقاً، لا وجود لها عند السلف، وبناءً على معرفتهم هذه قالوا هذه الكلمة: أن مذهب الخلف أعلم وأحكم، ومذهب السلف أسلم.

قال: (فلو كان التأويل) انظر هذه الكلمة ما أجملها!

(فلو كان التأويل سائغاً لكانوا إليه) أي السلف (أسبق) (فلو كان التأويل سائغاً لكانوا إليه أسبق؛ لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة) أي: التي يزعمها ويدّعيها علماء الكلام والتي بنوا عليها تأويل الصفات، فلو كان هذا الذي نهجه علماء الكلام حق لكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أسبق إليه، لأنهم السباقون في كل خير، والله وصفهم بذلك قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾[التوبة:١٠٠] هم السباقون لكل خير، السباقون إلى كل فضيلة، في أمور الاعتقاد وأمور الديانة عموماً.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتكلم صاحب الطريقة المنسوبة إليه في الكلام في كتابه الذي صنَّفه في اختلاف المصلين ومقالات الإسلاميين، وذكر فِرَق الروافض والخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، وغيرهم، ثم قال مقالة أهل السُّنة وأصحاب الحديث جملة، قول أصحاب الحديث وأهل السُّنة: الإقرار بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وبما جاء عن الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا يردون شيئاً من ذلك.

وأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور، وأن الله على عرشه كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وأن له يدين بلا كيف كما قال تعالى: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]، وكما قال تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤].

وأن له عينين بلا كيف كما قال تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وأن له وجهاً كما قال تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن].

هذا نقْل عن أبي حسن الأشعري، وهو مَنْ تُنسَب إليه الطريقة الأشعرية.

والأشعري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى تقلّب في حياته في ثلاث مراحل، انتهت بهذه المرحلة في هذا النقل الذي نقَله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وربما الحديث عن ذلك يحتاج شيء من الوقت، فيؤجل إلى اللقاء القادم بإذن الله ﷻ.

وأُنبّه أن يوم الأحد القادم لا يكون درس، وإنما الدرس يكون الاثنين، لا أتمكن يوم الأحد من المجيء.

أسأل الله ﷻ أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبُلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ عِلمنا، ولا تُسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

الدرس الثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتكلم صاحب الطريقة المنسوبة إليه في الكلام في كتابه الذي صنَّفه في اختلاف المصلين ومقالات الإسلاميين، وذكر فِرَق الروافض والخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، وغيرهم، ثم قال مقالة أهل السُّنة وأصحاب الحديث جملة قول أصحاب الحديث وأهل السُّنة: الإقرار بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وبما جاء عن الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا يردُّون شيئاً من ذلك.

وأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور..

وأن الله على عرشه كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]..

وأن له يدين بلا كيف كما قال تعالى: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]، وكما قال تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤].

وأن له عينين بلا كيف كما قال تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]..

وأن له وجهاً كما قال تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن].

وأن أسماء الله تعالى لا يقال: إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج.

وأقروا أن لله علماً كما قال الله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ [النساء:١٦٦].

وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ [فاطر:١١].

وأثبتوا السمع والبصر، ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة، وأثبتوا لله القوة كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ [فصلت:١٥].

وذكر مذهبهم في القدر إلى أن قال: ويقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق، والكلام في اللفظ والوقف، مَنْ قال باللفظ وبالوقف فهو مبتدع عندهم، لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق، ولا يقال غير مخلوق.

ويُقِرُّون أن الله يُرى بالأبصار يوم القيامة كما يُرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون لا يراه الكافرون؛ لأنهم عن الله محجوبون كما قال ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين].

وذكر قولهم في الإسلام، والإيمان، والحوض، والشفاعة، وأشياء إلى أن قال: ويُقِرّون بأن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ولا يقولون مخلوق، ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار.

إلى أن قال: ويُنكرون الجدل والمراء في الدين، والخصومة فيه، والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل، ويتنازعون فيه من دينهم، ويُسلِّمون للروايات الصحيحة، ولما جاءت بها الآثار التي جاءت بها الثقات عدلاً عن عدلٍ، حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله ﷺ؛ لا يقولون: كيف ولا لِمَ؛ لأن ذلك بدعة.

إلى أن قال: ويُقِرّون أن الله يجيء يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر].

وأن الله يقرُب من خلْقه كيف يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

إلى أن قال: ويرون مجانبة كل داع إلى بدعة والتشاغل بقراءة القرآن وكتابة الآثار، والنظر في الفقه مع الاستكانة والتواضع، وحُسْن الخلق مع بذل المعروف، وكف الأذى وترك الغيبة والنميمة والسعاية، وتَفَقُّد المآكل والمشارب؛ قال: فهذه جملة ما يأمرون به ويستسلمون إليه ويرونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب؛ وما توفيقنا إلا بالله وهو المستعان.

وقال الأشعري أيضا في اختلاف أهل القبلة في العرش:

قال أهل السُّنة وأصحاب الحديث: ليس بجسم، ولا يُشبِهِ الأشياء، وأنه استوى على العرش؛ كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه]، ولا نتقدم بين يدي الله ورسوله في القول؛ بل نقول: استوى بلا كيف، وأن له وجهاً كما قال تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧﴾ [الرحمن].

وأن له يدين كما قال تعالى: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥].

وأن له عينين كما قال: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١٤].

وأنه يجيء يوم القيامة هو وملائكته كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر].

وأنه ينزل إلى السماء الدنيا كما جاء في الحديث، ولم يقولوا شيئاً إلا ما وجدوه في الكتاب وجاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ.

وقالت المعتزلة: إن الله استوى على العرش بمعنى استولى، وذكر مقالات أخرى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

فهذا نقْل آخر من جملة النقول التي ساقها شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وقد عرفنا أنه نوّع في النقل بعد نقْله أولاً عن أئمة السلف وعلماء أهل السُّنة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى.

ومن غرضه في ذلك التنويع: بيان أن هذا المنهج الحق الذي عليه أهل السُّنة والجماعة هو الذي عليه المُعوَّل، وأن كثيراً ممَّنْ دخل في شيء من المخالفة في أبواب الدين، كشيء من التصوف، أو شيء من علم الكلام، كثير منهم يرجع إلى عقيدة السلف الصالح؛ إذ لم يجد في تلك الطرائق والعقائد ما يشفي العليل ويُروي الغليل؛ إذ لا شفاء ولا غَناء إلا بالحق والهُدى الذي جاء في كتاب الله ﷻ وسُنة نبيّه ﷺ.

ومَنْ نقَل عنه شيخ الإسلام هنا- وهو أبو الحسن الأشعري- عرَّفه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بقوله: (المتكلم صاحب الطريقة المنسوبة إليه في الكلام) قوله: (المتكلم) ذكر ذلك صفةً لأبي الحسن الأشعري لأن اشتغاله بعلم الكلام كان منذ النشأة ومنذ الصِّغَر لأنه نشأ منذ صِغره على عقيدة المعتزلة- وهي عقيدة كلامية بحتة- تلقاها عن خاله أبي علي الجُبّائي، واستمر على هذه العقيدة- عقيدة الاعتزال- ما يزيد على الأربعين سنة.

ثم إنه بعد هذه المدة المديدة في الاعتزال تبيّن له فساد هذه العقيدة، وبُطلانها، ويُذْكر أنه دخله أولاً شيء من الشك في هذه العقيدة فانقطع عن الناس خمس عشرة يوماً، لا يخالط أحداً، وينظر، ويراجع، ويبحث، ثم خرج على الناس وأعلن أمام الملأ خروجه من تلك العقيدة، حتى إنه ذُكِر أنه في كلمته التي خرج فيها من عقيدة الاعتزال: أنه خلع ثوبه ورماه وقال: أخرج من هذه العقيدة كما أخرج من هذا الثوب، ذاكراً لهم مثالاً يوضح لهم فيه انفصاله وخروجه عن تلك العقيدة.

ولّما خرج من عقيدة علم الكلام دخل في عقيدة ابن كُلّاب، وهي عقيدة نشأت- بزعم مَنْ أنشأها- للتوسط بين أهل السُّنة وأهل الاعتزال، فدخلوا في شيء من الباطل والمفارقة لأهل السُّنة والجماعة.

وفي هذه المرحلة ألَّف كتابه «اللُّمَع» وهو موافق لما عليه ابن كُلّاب.

....

ثم انتقل بعد ذلك إلى مرحلة ثالثة، وهي التي ينقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذه النقول في تلك المرحلة، وهي رجوعه إلى عقيدة أهل السُّنة والجماعة، وألَّف في ذلك كُتباً منها هذا الكتاب «مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين»، وكتاب «الإبانة»، وكتاب «رسالة إلى أهل الثغر»؛ فهذه الكتب الثلاثة ألَّفها في مرحلته الأخيرة.

والذين ينتسبون إليه- ويقال عنهم: الأشاعرة- ينتسبون إليه في المرحلة الثانية التي تاب منها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ينتسبون إليه في المرحلة الثانية، لأنه تاب مرتين: مرة من عقيدة الاعتزال، ومرة من عقيدة ابن كُلّاب، وانتهى به المطاف إلى عقيدة أهل السُّنة والجماعة وألَّف فيها هذه الكتب الثلاثة: (الإبانة، ومقالات الإسلاميين، ورسالة إلى أهل الثغر)، حتى إنه صرّح في بعض هذه الرسائل الثلاث- كما سيأتي- لمّا ذكر عقيدة أهل السُّنة (أهل الحديث)، وعقيدة الإمام أحمد بن حنبل -رَحِمَهُ ٱللَّهُ قالها واضحةً صريحة.. قال: وبكل ما يقول به الإمام أحمد بن حنبل نقول، وذكر أنه إنما يرتضي عقيدة السلف التي عليها الإمام أحمد، وعليها أئمة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى.

وكتبه الثلاثة التي ألَّفها في مرحلته الأخيرة- وهي: (رسالة إلى أهل الثغر، والإبانة عن أصول الديانة، ومقالات الإسلاميين)- ذكر فيها عقيدة أهل السُّنة والجماعة، وذكر أنه يقول بها ويعتقدها.

وقد يوجد في هذه الرسائل بعض الألفاظ التي هي ليست من ألفاظ السلف، ولا من عباراتهم، وهذا ليس بغريب؛ لأن الرجل أمضى عمراً طويلاً في علم الكلام، لم ينشأ من أصله على مدرسة أهل السُّنة (أهل الحديث)، فَمَعَ التوبة قد تبقى كلمات هي من الرواسب- رواسب ما سبق في حياته الطويلة-، مثل الآن لو أن شخصاً نشأ حياته كلها على التصوف، ثم تاب بعد أربعين.. خمسين سنة، تجده أنه إذا تحدّث لا بد أن تأتي بعض العبارات التي مضى عليها هذا العمر الطويل من حياته، لكن أصوله رجع فيها إلى أصول وعقيدة أهل السُّنة والجماعة.

وتَنَقُّل أبي الحسن الأشعري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذه المراحل الثلاث ذكره غير واحد من أهل العلم، منهم: الحافظ بن كثير -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «طبقات الشافعية»، عندما ترجم لأبي الحسن الأشعري ذكر تَقَلُّبه في هذه المراحل الثلاث، بدءاً بالاعتزال وانتهاءً بعقيدة أهل السُّنة والجماعة.

وكتاب «مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين» كتاب في الفِرَق والمقالات، يذكر فيه مقالات الفِرَق مثل ما أشار شيخ الإسلام ذكر (الروافض والخوارج، والمرجئة، والمعتزلة) وكل فِرقة من هذه الفِرَق يوضح

ماذا يعتقدون، وما هو قولهم (ثم قال مقالة أهل السُّـنة وأصـحاب الحديث جملة) وذكر معتقد أهل السُّـنة والجماعة، بـدأ ذلك بإيمانهم بـأصــول الإيمان ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وذكر إيمانهم بصـفات الله ﷻ، وتفرده وأنه المعبود بحق، ولا معبود بحق ســواه، وتنزهه جلّ وعلا عمّا لا يليق به، وما يتنافى مع كماله، كما قال: (لم يتخذ صاحبة ولا ولداً).

وذكر ما يتعلق بالإيمان بمحمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، إنه عبد الله ورسـوله (وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها).

ثم ذكر ما يتعلق بصــفات الله ﷻ، وإثباتها لله ﷻ فذكر اليدين، والعينين، والوجه، وأنها تُثبَت لله ﷻ بلا كيف، أي: بلا كيف نعلمه، فقوله: (بلا كيف) نظير قول السلف –وقد تقدم معنا–: (أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف).

وضَمَّن –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى إثباته للصفات: الإنكار على مَنْ لم يُثبت صفات الله ﷻ.

وذكر العقيـدة في القرآن، وأنـه كلام الله ﷻ وأنـه غير مخلوق، وحـذَّر من طريقـة اللفظيـة والواقفـة؛ واللفظيـة: مَنْ يقولون: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، والواقفة: مَنْ يتوقفون في ذلك، يقول: (لا نقول مخلوق، ولا نقول غير مخلوق).

والواقفة– كما قال الإمام أحمد –رَحِمَهُ ٱللَّهُ– جهمية؛ لأنه لا يتوقف عن القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق إلا مَنْ تأثّر بعقيدة الجهمية، القائلين بخلْق القرآن.

وقال –رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا–أعني أبا الحســن– قال: (مَنْ قال باللفظ وبالوقف فهو مبتدع عندهم) أي: عند أهل الحديث، (لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق، ولا يقال غير مخلوق).

وذكر –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عقيدتهم في الرؤية، وأن المؤمنين يرون الله ﷻ حقيقة كما يرون القمر ليلة البدر، قال: (يراه المؤمنون) ولا يراه الكفار (لأنهم عن الله محجوبون)

قال الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين])، وكما قال السـلف: إذا كان حَجَب.. إذا كان ﷻ أخبر عن حَجْبه الكفار لسَـخَطه عليهم فمفهومه: إنعامه على المؤمنين برؤيته لهم، وإلا لاسـتوى الكفار والمؤمنون في الحجـب، لكن ذِكْره ﷻ أنه حجب الكفـار عن رؤيته عقوبـةَ لهم، ســخطاً منه عليهم فهـذا مفهومه أن أهل الإيمان يُنعِم عليهم ﷻ برؤيته يوم القيامة.

وذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بقية أمور المعتقد، وحذَّر من الجدل والمراء في الدين، والذي عليه علماء الكلام، قال: (ويُسلِّمون للروايات الصحيحة) كل ما ثبت وصحَّ عن رسول الله ﷺ فإنهم يتلقونه بالقبول والتسليم، لا بالجدل والاعتراض والانتقاد؛ ولهذا قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا يقولون: كيف ولا لِمَ؛ لأن ذلك بدعة)، لا يقال: (كيف) هذا في باب الصفات، ولا يقال: (لِمَ) هذا في باب الأفعال، ففي الصفات لا يقال: (كيف)، لا يقال: (كيف استوى)، ولا يقال: (كيف ينزل)، ولا يقال: (كيف يداه)، ولا غير ذلك من الصفات، فالكيف غير معقول، والله ﷻ أخبرنا بصفاته ولم يخبرنا بكيفيتها، فنؤمن بما أخبرنا به، ونكُفّ عمّا لم يخبرنا به، والله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، ويقول: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩].

و(لِمَ) هذه في الأفعال، كما قال الله ﷻ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء:٢٣]، لا يقال: لِمَ أمَر الله بكذا، ولِمَ لَمْ يأمر بكذا.

وأهل هذه السؤالات يُسميهم السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: اللِّمِّيَّة، كما أنهم يُسمون الأولين: المُكيِّفة، كل من الأمرين باطل؛ لا يقال في صفات الله: كيف، ولا يقال أيضاً في أفعاله جلَّ في عُلاه: لِمَ، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء]، ولهذا قيل: لا تقُل: لِمَ أمَرَ الله، ولكن قل: بِمَ أَمَر الله؛ لأنك عبد لله، والمطلوب منك أن تبحث عن الذي أمرك الله به لتفعله، لا أن يقول القائل: (لِمَ أمَر الله) مُعترضاً على أوامر الله ﷻ.

وذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى إثباتهم للمجيء- مجيء الله ﷻ- يوم القيامة للفصل بين الخلائق- كما قال ﷻ: (﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر] وأن الله ﷻ يقرُب من خلْقه كيف شاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]) والصحيح في معنى هذه الآية- كما نبّه شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- أن القُرب- قُرب الملائكة- لدلالة السياق على ذلك، قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [ق].

وما يكون من ملائكته بأمْره يضيفه جلَّ وعلا إلى نفسه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة] أي: قرأه عليك جبريل، ولهذا نظائر كثيرة في القرآن.

وذكر من جملة ما عليه أهل السُّنة (أهل الحديث) (مجانبة كل داع إلى بدعة والتشاغل بقراءة القرآن وكتابة الآثار، والنظر في الفقه مع الاستكانة والتواضع) أي: لله ﷻ (وحُسْن الخلق) أي: في التعامل مع

عباد الله (مع بذل المعروف، وكف الأذى وترك الغيبة والنميمة والسعاية) السعاية: يراد بها السعاية في الناس بالفتنة والشر- وإيقاع الخصومة بينهم (وتَفَقُّد المآكل والمشارب) كما قال بعض السلف: من فقه الرجل مأكله ومشربه وممشاه.

قال: (فهذه جملة ما يأمرون به ويستسلمون إليه ويرونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب؛ وما توفيقنا إلا بالله)انتبه لهذه الكلمة التي يُعلِم فيها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقيدته وهي المرحلة الأخيرة- المرحلة الثالثة- مرحلة انتقاله إلى عقيدة أهل الحديث، قال: (وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب؛ وما توفيقنا إلا بالله).

وإلى ساعتنا هذه، وثمة مَنْ ينتسب إليه إذا قيل له: ما عقيدتك؟ قال: أشعري، ينتسب إلى أبي الحسن الأشعري في عقيدة تاب منها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتركها ورجع إلى عقيدة أهل السُّنة والجماعة، ولهذا حاول بعض علماء الكلام المنتسبين إليه أن يُشككوا في نسبة هذه الكتب إلى أبي الحسن الأشعري، أو يُشككوا أيضاً فيما ذُكِر في هذه الكتب من تقرير لعقيدة أهل السُّنة والجماعة.

وكان الأحرى بهم بدل ذلك أن ينتقلوا إلى عقيدة أهل السُّنة كما انتقل إمامهم أبو الحسن الأشعري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

وذكر فيما يتعلق بالعرش واستواء الله جلَّ وعلا عليه: (قال أهل السُّنة وأصحاب الحديث: ليس بجسم، ولا يُشبِه الأشياء) أي: الله ﷻ، وهذه الكلمة (ليس بجسم) هي من الرواسب، هذه من الرواسب- رواسب علم الكلام-، أما أهل السُّنة لا تجد عندهم مثل هذه العبارات، وأوّل مَنْ أحدث هذه العبارات الجهمية ليجعلوها مُتكأً في جحْد صفات الله ﷻ وعدم إثباتها، مثل الجسم، والعرض، وألفاظ من هذا القبيل.

وأهل السُّنة والجماعة ليس عندهم هذه الألفاظ، لا في النفي ولا في الإثبات، لكن يسألون مَنْ يقول (هل الله بجسم أو ليس بجسم) يسألونه: ماذا تريد بذلك؟ إن كنت تريد أن لله يد وسمْع وبصر ووجه تليق بجلاله وكماله وعظمته فهذه ثابتة لله ولا نسميها جسماً، وإن كنت تريد بذلك- أي: بهذه اللفظة- أي هذه الأجسام المخلوقة فالله ليس كمثله شيء، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ [مريم:٦٥].

فذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا إثباتهم عُلو الله على العرش، (وأنه استوى على العرش؛ كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه]، ولا نتقدم بين يدي الله ورسوله في القول؛ بل نقول: استوى بلا كيف) وهذا

تحذير من الطريقة التي عليها علماء الكلام، وهي الطريقة التي كان عليها هو أولاً بأن يقال: استوى بمعنى استولى، وهذا من التقدم الذي يقول عنه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا نتقدم بين يدي الله ورسوله).

وقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ [الحجرات:١]، ومعنى (﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾) أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر، بمعنى: أن تكونوا في العقائد والأعمال سائرين وفْق ما جاء عن الله وعن رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فلا يقول في المعتقد شيئاً لم يأتِ عن الله ولا عن رسوله ﷺ، ولا يفعل أيضاً في باب العبادات والتقرب شيئاً لم يأتِ عن الله ولا عن رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وانظر كلامه الجميل في وصْفه لعقيدة أهل السُّنة حيث يقول: (ولم يقولوا شيئاً إلا ما وجدوه في الكتاب وجاءت به الرواية)، (ولم يقولوا شيئاً) هذا كلام عظيم في وصْفه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ لعقيدة أهل الحديث التي قال قبل قليل: أنه بكل ما يقولون يقول.

قال: (ولم يقولوا شيئاً) شيئاً: نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي شيء.

في أمور الدين (لم يقولوا شيئاً إلا ما وجدوه في الكتاب وجاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ) مثلما تقدم معنا قول الإمام أحمد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نَصِف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والحديث.

قال: (وقالت المعتزلة: إن الله استوى على العرش بمعنى استولى) ذكر ذلك ذامّاً لهذه العقيدة، ومَنْ ينتسبون إليه عقيدتهم في الاستواء هي هذه التي ذمّها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ونسبها لأهل الاعتزال.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وقال أيضاً أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي سماه «الإبانة في أصول الديانة»، وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنّفه، وعليه يعتمدون في الذَّبِّ عنه عند مَنْ يطعن عليه - فقال: -

فصل

في إبانة قول أهل الحق والسُّنة

فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة، والقدرية، والجهمية، والحرورية، والرافضة، والمرجئة؛ فعرِّفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون، قيل له: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكلام ربنا، وسُنة نبينا، وما رُوي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون،

وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن حنبل - نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته - قائلون، ولما خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلالة، وأوضح به المنهاج، وقمع به بِدَع المبتدعين، وزَيْغ الزائغين، وشك الشاكين؛ فرحمة الله عليه من إمام مُقدم، وجليل مُعظّم، وكبير مُفهَّم.

وجملة قولنا: أنّا نُقِرُّ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وبما جاءوا به من عند الله، وبما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا نَرُدُّ من ذلك شيئاً، وأن الله واحد لا إله إلا هو، فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور.

وأن الله مستو على عرشه كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه].

وأن له وجهاً كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن].

وأن له يدين بلا كيف كما قال تعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، وكما قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤].

وأن له عينين بلا كيف كما قال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤].

وأن مَنْ زعم أن أسماء الله غيره كان ضالاً، وذكر نحواً مما ذكر في الفِرَق، إلى أن قال: ونقول إن الإسلام أوسع من الإيمان، وليس كل إسلام إيماناً، وندين بأن الله يقلب القلوب بين إصبعين من أصابع الله ﷻ، وأنه ﷻ يضع السموات على أصبع، والأرضين على أصبع كما جاءت الرواية عن رسول الله ﷺ.

إلى أن قال: والإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ونُسلِّم الروايات الصحيحة عن رسول الله ﷺ التي رواها الثقات عدلاً عن عدل حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ.

إلى أن قال: ونُصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا، وأن الرب ﷻ يقول: «هل من سائل؟ هل من مستغفر؟»، وسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافاً لما قال أهل الزيغ والتضليل.

ونُعوِّل فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسُنة نبينا وإجماع المسلمين وما كان في معناه، ولا نبتدع في دين الله ما لم يُؤذَن لنا به، ولا نقول على الله ما لا نعلم، ونقول: إن الله يجيء يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر]، وأن الله يقرب من عباده كيف شاء كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، وكما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم].

إلى أن قال: وسنحتج لما ذكرناه من قولنا وما بقي مما لم نذكره باباً باباً.

ثم تكلم على أن الله يُرى واستدل على ذلك، ثم تكلم على أن القرآن غير مخلوق واستدل على ذلك، ثم تكلم على مَنْ وقف في القرآن وقال لا أقول: إنه مخلوق ولا غير مخلوق ورد عليه.

ثم قال: باب في ذكر الاستواء على العرش، فقال: إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: إن الله مستو على عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وقد قال الله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر:١٠]، وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء:١٥٨]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة:٥].

وقال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ ۝٣٧﴾ [غافر] كذّب موسى في قوله إن الله فوق السموات.

وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك:١٦]، فالسموات فوقها العرش فلما كان العرش فوق السموات قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] لأنه مستو على العرش الذي فوق السموات، فكل ما علا فهو سماء، فالعرش أعلى السموات وليس إذا قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] يعني جميع السماء، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السموات، ألا ترى أن الله ﷻ ذكر السموات فقال: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ [نوح:١٦] فلم يُرد أن القمر يملؤهن، وأنه فيهن جميعاً.

ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء: لأن الله على العرش الذي فوق السموات فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض.

ثم قال:

فصل

وقد قال قائلون من المعتزلة، والجهمية، والحرورية: إن معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] أنه استولى، وملك وقهر، وأن الله ﷻ في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله على عرشه كما قال أهل الحق وذهبوا في الاستواء إلى القدرة، فلو كان كما ذكروه كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة؛ لأن الله قادر على كل شيء.

هذا الذي يذكره -رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا هو ما كان عليه قبل، وإليه ينتسب فيه الأشـاعرة، وكل ذلك تركه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، ورَدّ عليه بهذه الردود القوية المتنوعة من دلالة الكتاب، ودلالة السُّـنة، ودلالة الفطرة، ودلالة العقل.

لأن الله قادر على كل شيء، والأرض فالله قادر عليها، وعلى الحشـوش، وعلى كل ما في العالم، فلو كان مسـتوياً على العرش بمعنى الاسـتيلاء - وهو ﷻ مسـتول على الأشـياء كلها - لكان مسـتوياً على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الحشوش والأقذار؛ لأنه قادر على الأشياء، مستولٍ عليها، وإذا كان قادراً على الأشـياء كلها، ولم يجز عند أحد من المسـلمين أن يقول: إن الله مستوٍ على الحشـوش والأخلية لم يجز أن يكون الاسـتواء على العرش بمعنى الاسـتيلاء الذي هو عام في الأشـياء كلها، ووجب أن يكون معنى الاستواء يخص العرش دون الأشياء كلها، وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل.

ثم قال:

باب الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين وذكر الآيات في ذلك، ورَدَّ على المتأولين بكلام طويل، لا يتسع هذا الموضع لحكايته، مثل قوله: فإن سُئلنا أتقولون لله يدان؟ قيل: نقول ذلك، وقد دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله مسـح ظهر آدم بيده، فاسـتخرج منه ذريته»، وقد جاء في الخبر المأثور عن النبي ﷺ: «إن الله خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس شـجرة طوبى بيده»، وليس يجوز في لسـان العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل: عملت كذا بيدي ويريد به النعمة، وإذا كان الله إنما خاطب العرب بلُغتها، وما يجري مفهوماً من كلامها، ومعقولاً في خطابها، وكان لا يجوز في خطاب أهل اللسان أن يقول القائل: فعلتُ بيدي ويعني به النعمة، بطل أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿بِيَدَيَّ﴾ النعمة، وذكر كلاماً طويلاً في تقرير هذا ونحوه.

وهذا نَقْل مُطوّل نقلَه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن كتاب أبي الحسن الأشعري «الإبانة في أصول الديانة» (وقد ذكر أصـحابه أنه آخر كتاب صـنّفه)، فهذا فيه أن هذا الكتاب مشـتمل على المرحلة الأخيرة، وهي المرحلة الثالثة في تقلبات أبي الحسن الأشعري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

ولما ذكر عقائد الفِرَق (الجهمية، والحرورية، والروافض، والمرجئة، وغيرهم) قال: فإن قيل: (عرِّفونا بقولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون) يعني بعد عرض هذه المقالات والأقوال للفِرَق فما هي

عقيدتكم؟، فقال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكلام ربنا، وسُنة نبينا ﷺ، وما رُوي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن حنبل - نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته - قائلون، ولما خالف قوله مخالفون).

ثم أثنى عليه وبالغ في الثناء، يعني حتى إن قوله مثلاً: (الرئيس الكامل) يعني مثل هذا فيه مبالغة في الثناء، لكنه أثنى عليه وبيّن المكانة لهذا الإمام- إمام أهل السُّنة- حتى إن العقيدة التي عليها أهل السُّنة إذا أُريد أن يُعرَّف بها يقال: عقيدة الإمام أحمد؛ لأن الله ﷻ أظهر بهذا الإمام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذه العقيدة، ونصر به هذه العقيدة، وذبَّ به عن هذه العقيدة، وأُوذي في ذلك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أذى عظيماً، فيقال: عقيدة الإمام أحمد، أي: عقيدة أهل السُّنة؛ لأنه أظهرها، ونصرها، وذبَّ عنها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

حتى إن موقفه في الذَّبِّ عن هذه العقيدة شُبِّه بموقف صدِّيق الأُمة في محاربة أهل الردة، فشبَّهوا موقفه في التصدي لعقائد أهل الاعتزال وأهل الباطل عموماً بتصدي صدِّيق الأُمة أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ للمرتدين من حيث الوقوف والصمود.

ثم ذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى تفاصيل للمعتقد، وذكر أنه بكل ذلك يقول، وأنكر على مَنْ خالف هذه العقيدة من علماء الكلام، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختصر من كتابه ما يحصل به الغرض والمقصود من هذا الكتاب.

ومقصود النقل- كما عرفنا- إظهار وبيان أن عقيدة السلف التي هي إمرار النصوص كما جاءت، والإتيان بها كما وردت هو الحق وعليه المُعوَّل، وكثير ممَّنْ دخل في عقائد أخرى من عقائد المتكلمين انتهى به المطاف إلى الرجوع إلى هذه العقيدة التي عليها أئمة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى.

وما زال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستطرد في إيراد النقول، وأيضاً لو وقفنا مع هذه العبارات التي ساقها ربما يطول المقام، وليس هو من غرض أيضاً هذا الكتاب، وإنما الغرض من هذه النقول: أن يُعرَف جُملةً أن المعتقد الذي عليه أهل السُّنة من إمرار النصوص كما جاءت، وإثباتها كما وردت هو الحق، وهو الذي عليه المُعوَّل، لا ما عليه علماء أهل الكلام الباطل.

ونسأل الله الكريم لنا أجمعين التوفيق لكل خير، والمعونة على طاعته، وأن يَمُنّ علينا بالعلم النافع، والعمل الصالح، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين،

وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

الدرس الحادي والثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وقال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتكلم - وهو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري؛ ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده - قال في «كتاب الإبانة» تصنيفه:

فإن قال: فما الدليل على أن لله وجهاً ويداً؟ قيل له قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]، وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، فأثبت لنفسه وجهاً ويداً.

فإن قال: فما أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة إذا كنتم لا تعقلون وجهاً ويداً إلا جارحة؟

قلنا: لا يجب هذا كما لا يجب إذا لم نعقل حياً عالماً قادراً إلا جسماً أن نقضي ـ نحن وأنتم بذلك على الله سبحانه.

وكما لا يجب في كل شيء كان قائماً بذاته أن يكون جوهراً؛ لأنّا لا نجد قائماً بنفسه في شاهدنا إلا كذلك، وكذلك الجواب لهم.

إن قالوا: فيجب أن يكون علمه وحياته وكلامه وسمعه وبصره وسائر صفاته عرضاً واعتلوا بالوجود.

قال: فإن قال: تقولون إنه في كل مكان؟

قيل له: معاذ الله! بل هو مستو على العرش كما أخبر في كتابه فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وقال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك].

قال: ولو كان في كل مكان لكان في بطن الإنسان، وفمه، والحشوش، والمواضع التي يُرغَب عن ذِكْرها، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة إذا خلق منها ما لم يكن، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان، ولصحَّ أن يُرْغَب إليه إلى نحو الأرض، وإلى خلفنا، وإلى يميننا، وإلى شمالنا، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله.

وقال أيضاً في هذا الكتاب: صفات ذاته التي لم يزل ولا يزال موصوفاً بها: وهي الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة والبقاء والوجه والعينان واليدان والغضب والرضا.

وقال في «كتاب التمهيد» كلاماً أكثر من هذا، وكلامه وكلام غيره من المتكلمين في هذا الباب مثل هذا كثير لِمَنْ يطلبه، وإن كنّا مستغنين بالكتاب والسُّنة، وآثار السلف عن كل الكلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأصلِح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد..

هذا نقْل آخر، وهو عن مَنْ هم مشتغلين بعلم الكلام، نقله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن (القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني) ووصفه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بـ (المتكلم) (وهو أفضل) (المنتسبين إلى الأشعري)، قال: (ليس فيهم) أي: الأشاعرة (مثله لا قبله ولا بعده).

والباقلاني هذا نظراً لمكانته عند الأشاعرة وقوة تنظيره للمذهب يُعدّ المؤسس الثاني للأشعرية، ولهذا ذكره -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وذكر هذا النقل عنه عقب النقل الذي تقدم عن أبي الحسن الأشعري.

ذكر الباقلاني في هذا النقل إثبات الصـفات لله ﷻ، ذكر إثبات الوجه، وإثبات اليد، وإثبات العلم، وإثبات القدرة، والغرض من هذا النقل أن شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يبين أن الباقلاني- مع أنه عُرِف بعلم الكلام إلا أنه يتبين من خلال هذا النقل أنه يثبت الصفات الخبرية، خلافاً للأشاعرة الذين لا يثبتون إلا الصفات العقلية، فهذا النقل فيه إثباته للصفات الخبرية، والصفات الخبرية هي التي لا مجال إلى العلم بها إلا من خلال الخبر، وأيضاً ذِكْره للصفات الذاتية وتعريفه لها.. الصفات الفعلية وتعريفه لها، وذِكْره لبعض الأمثلة على ذلك.

وفي كلامه مما يُنبّه عليه، وسبق أيضاً التنبيه عليه ما يوجد عند هؤلاء من عبارات لا أصل لها في الشرع، لا إثباتاً ولا نفياً مثل الجارحة، فهذه من الألفاظ المبتدعة التي لا أصل لها في الشرع، فلا تُثبَت ولا تُنفى ولكن يُنظَر في مراد القائل بها، إذا كان يريد معنى باطلاً فالله ﷻ مُنزَّه عن ذلك، وإذا كان يريد بهذه اللفظة صفات الله اللائقة بجلاله وكماله فصفاته ثابتة له ﷻ ولا يُعبّر عنها بمثل هذه الألفاظ المُحدَثة التي لا أصل لها في كتاب الله ولا سُنة نبيّه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا أيضاً في عبارات السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى.

مما يُنبّه عليه أيضاً: عدُّه لصفتي الغضب والرضا في جملة الصفات الذاتية، مع أن الغضب والرضا من صفات الأفعال، لكن جعلهما من الصفات الذاتية طرداً لمذهبه في تأويله لهذه الصفات بالإرادة، ولهذا في الأصل المنقول عنه قال: (واليدان والغضب والرضا) وهما الإرادة على ما وصفنا، فلما اعتبر الرضا والغضب الإرادة عدّهما من صفات الله الذاتية، وهذا خطأ؛ لأن الغضب والرضا من صفات الأفعال، وتأويلهما بالإرادة تأويل باطل.

والكلام الذي ذكره عن العرش وطرْحه لهذا السؤال: (هل تقولون الله في كل مكان؟)

قال: (معاذ الله!) ثم أخذ يسوق الأدلة النقلية والعقلية على عُلو الله ﷻ على عرشه، ويذكر ردوداً قوية على مَنْ يقول: إن الله في كل مكان.

وهذا النقل، هو في كتابه «الإبانة»، وأيضاً في كتابه «التمهيد»، ولما في هذا النقل من قوة في الرد على هؤلاء بعض مَنْ طبع الكتاب من الأشاعرة المتأخرين حذف هذا النقل منه، حذف هذا النقل وطبعه بدون هذا النقل لما فيه من قوة في الرد عليهم فيما يتعلق بإثبات عُلو الله ﷻ على عرشه، والرد على مَنْ يقول: إن الله في كل مكان- تعالى الله ﷻ عمّا يقولون- وانظر إلى قوة كلامه في إبطال ذلك بعد أن ساق الأدلة النقلية،

قال: (ولو كان في كل مكان لكان في بطن الإنســان، وفمه..) إلى آخر كلامه، فهذا كله من الردود العقلية على مَنْ يقول هذا القول.

والأشاعرة الذي ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري قولهم في ذلك هو هذا، ومتقدموهم ومَنْ ينتسبون إليهم لا يقولون بذلك، ولهذا انظر إلى ما سيأتي من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وما فيه من تنبيه مهم للغاية.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ومِلاك الأمر: أن يهب الله للعبد حكمة وإيماناً بحيث يكون له عقل ودين حتى يفهم ويدين، ثم نور الكتاب والسُّــنة يُغنيه عن كل شيء، ولكن كثير من الناس قد صــار منتســباً إلى بعض طوائف المتكلمين، ومُحســناً للظن بهم دون غيرهم، ومتوهماً أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم؛ فلو أُتِي بكل آية ما تبعها حتى يُؤتى بشيء من كلامهم.

ثم هُمْ مع هذا مخالفون لأســلافهم غير متبعين لهم، فلو أنهم أخذوا بالهُدى الذي يجدونه في كلام أسلافهم لرُجي لهم مع الصدق في طلب الحق أن يزدادوا هُدى، ومَنْ كان لا يقبل الحق إلا من طائفة معينة، ثم لا يستمسك بما جاءت به من الحق ففيه شبه من اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة]، فإن اليهود قالوا لا نؤمن إلا بما أنزل الله علينا.

قال الله تعالى لهم: فلم قتلتم الأنبياء من قبل إن كنتم مؤمنين بما أُنزل عليكم، يقول ســبحانه: لا ما جاءتكم به أنبياؤكم تتبعون ولا لما جاءتكم به ســائر الأنبياء تتبعون، ولكن إنما تتبعون أهواءكم، فهذا حال مَنْ لم يتبع الحق لا من طائفته ولا من غيرهم مع كونه يتعصــب لطائفة دون طائفة بلا برهان من الله ولا بيان.

لما نقل -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مثل هذه النقول عن أبي الحسن، وعن الباقلاني، وأيضاً عن غيرهم مما تقدم قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإن كنّا مستغنين بالكتاب والسُّنة وآثار السلف عن كل كلام).

ثم بيّن سبب نقْله لهذا الكلام، يقول: هو الأصل أن ملاك الأمر أن يُقبِل العبد على كتاب الله وسُنة نبيّه ﷺ ويستمد منهما الهدى والحق والخير، ويستغني بكتاب الله وسُنة نبيّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

يقول: (لكن كثير من الناس قد صار منتسباً إلى بعض طوائف المتكلمين) هكذا نشأ في دراسته، في تعلُّمه، في نشأته، نشأ منتسباً إلى بعض طوائف المتكلمين، (ومُحسناً للظن بهم دون غيرهم)، ولأجل ذلك نقل ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذه النقول، (ومتوهماً أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم؛ فلو أُتِي بكل آية ما تبعها حتى يُؤتى بشيء من كلامهم)، هذا أمر.

أمر آخر: يقول: (ثم هُمْ مع هذا مخالفون لأسلافهم)، (ثم هُمْ) يعني مع انتسابهم لهؤلاء الأشياخ هم مخالفون لهم، وأنت لو رأيت الآن هذه النقول التي ساقها عن أبي الحسن، وعن الباقلاني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونظرت في متأخري الأشاعرة تجدهم على غير هذه العقيدة التي عليها مَنْ ينتسبون إليه، ومَنْ يعظمونه؛ قال: (ثم هُمْ مع هذا مخالفون لأسلافهم غير متبعين لهم).

(فلو أنهم أخذوا بالهُدى الذي يجدونه في كلام أسلافهم لرُجي لهم مع الصدق في طلب الحق أن يزدادوا هُدى) يقول: هذا التعظيم الذي عندهم لأشياخهم لم يستفيدوا منه إلا التعصب للباطل، لكن لو أنهم لجئوا إلى الله، وصدقوا مع الله في تحصيل الهدى، واستفادوا من هذه الكلمات التي عن أشياخهم في تقرير الحق وما عليه أهل السُّنة لحصل لهم الهدى وازدادوا هدى.

(ومَنْ كان لا يقبل الحق إلا من طائفة معينة، ثم لا يستمسك بما جاءت به من الحق ففيه شبه من اليهود) وهذه فائدة أيضاً مهمة، يقول: مَنْ لا يقبل الحق إلا من طائفة معينة، ينتسب لطائفة معينة ولا يقبل الحق إلا من جهتها ثم إذا جاءه الحق من جهتها لا يقبله، إذا جاءه الحق من جهتها يقال له: الآن أنت تنتسب لأبي الحسن الأشعري، وتقول: الله في كل مكان، وتنتسب إلى الباقلاني وهو من متقدمي وكبار الأشاعرة، وتقول أيضاً: الله في كل مكان، وها هم يُنكرون ذلك إنكاراً قوياً وبشدة، فلماذا تَرُدّ ذلك، ولماذا يتجرأ بعض المنتسبين إلى هذه الطائفة بحذف هذا الكلام وإنكاره، وجحْده، لولا ما قام في نفوسهم من إنكار للحق وعدم قبول له.

فيقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (ومَنْ كان لا يقبل الحق إلا من طائفة معينة، ثم لا يستمسك بما جاءت به من الحق ففيه شبه من اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾[البقرة: ٩١]) قالوا: نؤمن بما أُنزل علينا، ويكفرون بما وراءه، انظر قولهم: (نؤمن بما أُنزل علينا)، وأولئك يقولون: (نؤمن بما عليه طائفتنا التي ننتسب إليها)، فإذا جيء من قول طائفتهم بما هو حق وعلى الهدى لا يقبلونه!.

فيقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَنْ كذلك ففيه شبه من اليهود؛ (﴿قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة]) إن كنتم تدّعون أنكم تؤمنون بما أُنزِل عليكم وتكفرون بما وراءه لِمَ تقتلون الأنبياء؟! أين فيما أُنزِل عليكم مشروعية وجواز قتْل الأنبياء؟! إذا كنتم تدّعون أنكم تؤمنون بما أُنزِل عليكم وتفكرون بما وراءه، فأين فيما أُنزِل عليكم جواز ومشروعية قتْل أنبياء الله، (﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١]).

وهذه مصيبة في بعض الخلق؛ تجده مثلاً يدّعي الانتساب لطائفة أو إمام معين، لكن إذا جيء له عن هذا الذي ينتسب إليه، هذا الإمام الذي ينتسب إليه، أو الطائفة التي ينتسب إليها، إذا جيء له بحق قاله لا يقبله، ويبادر إلى ردّه، فأين حقيقة هذا الانتساب؟!

قال: (فإن اليهود قالوا لا نؤمن إلا بما أنزل الله علينا، قال الله تعالى لهم: فلم قتلتم الأنبياء من قبل إن كنتم مؤمنين بما أُنزل عليكم) أي: أين فيما أُنزِل عليكم مشروعية قتْل الأنبياء؟ وصور المسألة حتى يظهر مراد شيخ الإسلام، يقال لهؤلاء: أنتم تقولون: نحن ننتسب إلى أبي الحسن، وها هو الآن أبو الحسن ومن كبار.. آخرين من كبار الطائفة ينكرون هذا الذي تعتقدونه أن الله في كل مكان، وإنكاركم لصفات الله ﷻ الخبرية ولا تؤمنون إلا بسبع صفات تسمونها العقلية، ومَنْ تنتسبون إليه ليس على ذلك، فأين حقيقة هذا الانتساب لأبي الحسن -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى؟!

على أنه سبق البيان أن أبا الحسن تقلّب في ثلاث مراحل، وانتهى به الأمر إلى المرحلة الأخيرة التي هي اتباعه للسلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، ومرّت معنا عبارته حيث يقول بكل ما يقول به الإمام المبجّل أحمد بن حنبل -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى نقول.

وإذا كان الانتساب إليه انتساب صحيح، فالجدير بالمنتسب إليه أن ينتسب إليه فيما تاب إليه، لا فيما تاب منه وتركه.

يقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يقول سبحانه: لا لما جاءتكم به أنبياؤكم تتبعون ولا لما جاءتكم به سائر الأنبياء تتبعون) يعني يقال لهؤلاء أيضاً: لا تتبعون الحق الذي جاء عن السلف الصالح، ولا أيضاً مَنْ تدّعون أنكم تنتسبون إليه تتبعون الحق الذي يقوله، (لا ما جاءتكم به أنبياؤكم تتبعون ولا لما جاءتكم به سائر الأنبياء

تتبعون، ولكن إنما تتبعون أهواءكم، فهذا حال مَنْ لم يتبع الحق لا من طائفته ولا من غيرهم مع كونه يتعصب لطائفة دون طائفة بلا برهان من الله ولا بيان).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وكذلك قال أبو المعالي الجويني في كتابه «الرسالة النظامية»:

اختلفت مسالك العلماء في هذه الظواهر؛ فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السُّنن، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب، قال: والذي نرتضيه رأياً، وندين الله به عقداً: اتباع سلف الأمة، والدليل السمعي القاطع في ذلك: أن إجماع الأمة حُجة متبعة، وهو مستند معظِّم الشريعة.

وقد درج صحب رسول الله ﷺ على ترْك التعرض لمعانيها، ودرْك ما فيها، وهم صفوة الإسلام والمستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع، فحق على ذي الدين أن يعتقد تنزيه الله عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناه إلى الرب، فليُجرِ آية الاستواء والمجيء، وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وما صح من أخبار الرسول ﷺ كخبر النزول وغيره على ما ذكرناه.

وهذا نقْل آخر، وبه ختم النقول التي أراد إيرادها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، نَقَله عن أبي المعالي الجويني.

وأبو المعالي الجويني من كبار المتكلمين، ومن علماء الأشاعرة، وجاء في ترجمته أنه في آخر حياته رجع عن طريقة المتكلمين، ولم يجد فيها ما يشفي العليل ويروي الغليل، وتركها، وأعلن رجوعه.

ومما ذُكِر في ترجمته وتقدم نقْل شيء من ذلك في أوّل هذه الرسالة الحموية لشيخ الإسلام في رجوعه، مما نُقِل في رجوعه قوله: (اشهدوا عليّ أني قد رجعتُ عن كل مقالة تخالف السُّنة، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور) عجائز نيسابور: نساء على الفطرة، لم تتبدل فطرتهن.

وأما علم الكلام فإنه يبدل الفطرة، وإذا تبدلت الفطرة دخل الإنسان في الحيرة والشكوك؛ ولهذا ينتهي أساطين علماء الكلام إلى الحيرة والشك.

وعدد منهم يرجع في آخر الأمر إلى ذلك، ولهذا أحدهم يقول: الفائز مَنْ مات على دين العجائز، بعد الدراسة الطويلة والخوض العميق في علم الكلام يُعلِن مثل هذا الإعلان الذي يدل على أنه لم يُحصِّل منه شيئاً.

وأحد هؤلاء الذين تعمقوا في علم الكلام يقول عن هذا العلم: أن الحق والهدى من طريقه مسدود، ويقول: هذا الكلام لو سمعته من مُحدِّث لقلت: الناس أعداء لما جهلوا، لكن خذ هذا الكلام من شخص بلغ في علم الكلام إلى منتهاه، يقول: الطريق إلى الحق من خلال هذا العلم مسدود، مغلق، لا يمكن أن تصل إلى الحق من طريق علم الكلام، يقول: هذا الكلام لو سمعته من شخص مُحدِّث مشتغِل بعلم الحديث ربما تقول: لأنه يجهل علم الكلام، والناس أعداء ما جهلوا فقال في الكلام هذا القول.

لكن خذه من رجل سَبَرَ علم الكلام، ودخل في غوره وعمقه.

ولهذا كثير من هؤلاء الأساطين-أساطين علم الكلام- رجعوا، ممَّنْ رجع هذا الجويني، وأعلن رجوعه وتوبته، وأنه كل مقالة تخالف عقيدة أهل السُّنة فإنه تائب منها.

مما يُروى عنه أنه قال: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما اشتغلت بالكلام، يعني ضياع اشتغاله بالكلام في العمر الطويل يعتبره ضياعاً، ويتمنى أنه ما دخل في شيء من ذلك.

وهذه المواقف تُعد عبرة لطالب العلم، ولاسيما الذي في بداية الطلب، بداية التحصيل، فهؤلاء يعلمونه أنهم لم يستفيدوا شيئاً بل تضرروا ووصلوا إلى الحيرة والشك والاضطراب.

وهذا النقل الذي ذكره -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن أبي المعالي الجويني، ذكر فيه الجويني اختلاف مسالك العلماء في هذه الظواهر- أي: ظواهر نصوص الصفات- (فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السُّنن) وهذه الطريقة التي هي طريقة التأويل هي طريقة علماء الكلام.

(وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب) تفويض معانيها إلى الرب: هذه الكلمة في الغالب أن المراد بها: ما يظهر منها وهو تفويض المعنى، وهذا ليس من طريقة السلف في شيء، فالسلف لا يفوضون المعنى وإنما يفوضون الكيف.

وقد يطلق البعض ذلك ويريد الكيف، ويُفهَم ذلك من السياق، يعني لا معنى من المعاني التي هي تكييف للصفة، ومحاولة لمعرفة كيفيتها، فقد يُطلَق مثل هذا اللفظ ويراد به ذلك، لكن الغالب- والله تعالى

أعلم- أنه أراد بذلك التفويض الذي هو عدم الإيمان بما دلّت عليه الصفة، أو النصوص من ثبوت الصفة لله ﷻ، وتفويض المعنى لله ﷻ.

وينبغي أن يُعلَم أن هؤلاء المفوضة هم من المؤوِّلة، لكن تأويلهم مُجمَل لأن الظاهر عندهم ليس مُراداً، وإنما هو مُؤوَّل ومصروف عن الظاهر إلى معنى يوكل إلى الله ﷻ، لكن الظاهر ليس مُراداً.

قال: وإجراؤها على ظواهرها (على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب).

(قال: والذي نرتضيه رأياً، وندين الله به عقداً: اتباع سلف الأمة، والدليل السمعي القاطع في ذلك: أن إجماع الأمة حُجة متبعة، وهو مستند معظّم الشريعة، وقد درج صحب رسول الله ﷺ على ترْك التعرض لمعانيها) إن كان أراد بأنهم تركوا التعرض لمعانيها، أي: أنهم قرءوا النصوص ولم يفهموا منها معنى فهذا باطل، وتجهيل للسلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، ورمْي لهم بالجهل، وقوْل عليهم بلا علم، لأن السلف قرءوا نصوص الصفات وفهموا معانيها.

وأما إن كان مُراده بقوله: (ترْك التعرض لمعانيها) أي: المعاني الباطلة أو التكييف، فالسلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ لم يخوضوا في تلك المعاني الباطلة، ولم يكن منهم تكييف لصفات الله تبارك وتعالى.

ثم ذمّ التأويل بشدة، وقال: (إذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل) وهذه فائدة جداً مهمة، وسبق أن أشرت إلى أن ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحدّى هؤلاء المتكلمين، وقال: أُمهلكم ثلاث سنوات أن تخرجوا لي حرفاً واحداً عن علماء السلف من الصحابة والتابعين أنهم أوَّلوا شيئاً من صفات الله.

وهذا الآن واحد ممَّنْ اشتغل بعلم الكلام يشهد بهذه الشهادة، يقول: (وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل) لا يوجد عندهم تأويل لصفات الله تبارك وتعالى (كان ذلك هو الوجه المتبع، فحق على ذي الدين أن يعتقد تنزيه الله عن صفات المُحدَثين) أي: المخلوقين (ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويَكل معناه إلى الرب) وهذا يقال فيه ما قيل فيما سبق، قال: (فليُجرِ آية الاستواء والمجيء، وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، وقوله﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وما صح من أخبار الرسول ﷺ كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا) أي: بالبعد عن تأويلها.

فالشاهد من نقْل هذا النقل عن أحد كبار علماء الأشاعرة: ما فيه من ذَمّ التأويل الذي عليه هؤلاء، هذا هو الغرض من هذا النقل، ذم التأويل الذي عليه هؤلاء، وإبطاله لهذه التأويلات، وأن زمن الصحابة

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ومَنْ اتبعهم بإحسان انصرم ولا يوجد عندهم تأويل، ولا يمكن أن يقال إن الحق في هذا الباب العظيم- الذي هو الأسماء والصفات- حصّله هؤلاء، ولم يُحصِّله الصحابة.

وإذا كان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وسعهم لزوم الكتابة والسُّنة، وترْك التأويل، فمَنْ لم يسعه ما وسع الصحابة لا وسّع الله عليه، كما قال ذلك أهل العلم رَحِمَهُمُٱللَّهُ تعالى.

ونسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنه تبارك وتعالى غفور رحيم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

شرح الفتوى الحموية الكبرى

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله

من الدرس (٣٢) إلى الدرس (٣٥)

الشيخ لم يراجع التفريغ

الدرس الثاني الثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

قلت: وليعلم السائل أن الغرض من هذا الجواب ذِكْر ألفاظ بعض الأئمة الذين نقلوا مذهب السلف في هذا الباب؛ وليس كل مَنْ ذكرنا شيئاً من قوله - من المتكلمين وغيرهم - يقول بجميع ما نقوله في هذا الباب وغيره؛ ولكن الحق يُقبَل من كل مَنْ تكلم به، كان معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول في كلامه المشهور عنه الذي رواه أبو داود في سُننه: اقبلوا الحق من كل مَنْ جاء به؛ وإن كان كافراً - أو قال فاجراً - واحذروا زيغة الحكيم. قالوا: كيف نعلم أن الكافر يقول الحق؟ قال: إن على الحق نوراً، أو كلاماً هذا معناه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، اللهم علمنا ما ينفعنا وزدنا علماً، وأصلِح لنا شأننا كله، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

قال الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في فتواه الحموية بعد أن نقَل نقولات عديدة عن أهل السُّنة وعن بعض المتكلمين وبعض المتصوفة في ما يتعلق بالطريقة التي كان عليها السلف في باب أسماء الله جل وعلا وصفاته، وأن طريقتهم معروفة وواضحة، وهي أنهم يُمِرُّونها كما جاءت، ويؤمنون بها كما وردت دون خوض فيها بتكييف أو تمثيل أو تأويل أو تعطيل؛ على هذا مضت طريقتهم وجادتهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ورحمهم.

لمّا أنهى إيراد النقول قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (قلت) في بعض النُّسخ (فصل)، (وليعلم السائل أن الغرض من هذا الجواب ذِكْر ألفاظ بعض الأئمة الذين نقلوا مذهب السلف في هذا الباب) قوله: (الغرض من هذا الجواب) أي: في هذه الرسالة؛ لأن الرسالة جواب لسؤال مَرَّ معنا في أول الرسالة قال فيه السائل: (قَوْلُكُمْ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾

[فصلت:١١]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ اَلْآيَاتِ وَأَحَادِيثِ اَلصِّفَاتِ) فالسؤال عن القول في آيات الصفات وأحاديث الصفات، وما الجادة التي كان عليها أئمة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى فيها؟

فيقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (أن الغرض من هذا الجواب ذِكْر ألفاظ بعض الأئمة الذين نقلوا مذهب السلف في هذا الباب).

وعرفنا أن مَنْ نقَل أقوالهم منهم مَنْ هم من أئمة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، ومنهم مَنْ عنده شيء من التصوف، وشيء من علم الكلام.

فيقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُنبِّهاً: (وليس كل مَنْ ذكرنا شيئاً من قوله - من المتكلمين وغيرهم) أي: المتصوفة (يقول بجميع ما نقوله في هذا الباب) أي: باب الصفات (وغيره) أي: من أمور ومسائل الاعتقاد.

إذاً ما الغرض من نَقْل أقوالهم؟

قال: (ولكن الحق يُقبَل من كل مَنْ تكلم به) هذا من جهة، ومن جهة أخرى- سبق أن نبّه عليها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- أن ذِكْره لهذه النقول لعلها تكون سبباً لهداية مَنْ هو متعصِّب لهؤلاء، أو مُنتسِب إليهم أن يقف على أقوال هؤلاء الذين يتعصب لهم وينتسب إليهم في بيان أن الحق هو ما كان عليه السلف، وفي ذمِّ التأويل الذي إنما وُجِد عند الخلف ولم يوجد عند السلف منه أي شيء.

قال: (لكن الحق يُقبَل من كل مَنْ تكلم به، كان معاذ بن جبل يقول في كلامه المشهور عنه الذي رواه أبو داود في سُننه: اقبلوا الحق من كل مَنْ جاء به؛ وإن كان كافراً - أو قال فاجراً - واحذروا زيغة الحكيم. قالوا: كيف نعلم أن الكافر يقول الحق؟ قال: إن على الحق نوراً، أو كلاماً هذا معناه)؛

قال شيخ الإسلام: (أو كلاماً هذا معناه) أي: أنه أورد هذا الأثر الذي هو في سُنن أبي داود عن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أورده بالمعنى من حفظه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

ونَصُّ هذا الأثر- كما في سُنن أبي داود في كتاب السُّنة من سُننه-: عن يزيد بن عُميرة-وكان من أصحاب معاذ بن جبل- أنه أخبره قال: أن معاذاً كان لا يجلس مجلساً للذِّكْر حين يجلس إلا قال: الله حكم قسط (أي: عدل)، هلك المرتابون (أي الشاكون)، فقال معاذ بن جبل يوماً: إن من ورائكم فِتَناً يكثر فيها المال، ويُفتَح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر (أي: يكثُر إقراء القرآن، وحِفْظه، وإتقان تلاوته) فيوشك قائل أن يقول: مال الناس لا يتبعوني وقد قرأتُ القرآن (حفظتُ القرآن حِفْظاً متقناً، وقراءتي له جيدة، ولكن ليس لي أتباع، الناس لا يتبعوني) يبحث عن أمر يكثُر

به الأتباع، وهذا من ضـعْف الديانة ورِقّة الإيمان ووهاء الإخلاص؛ لأن المخلِص لله ﷻ ليس همّه أن يكثُر الأتباع، وإنما همّه انتشار الدين ونُصْرة دين الله ﷻ مثلما قال الشافعي: (وددتُ لو أن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً ولو قُرِّض جسمي بالمقاريض) ما كانت تعنيهم أنفسهم، وإنما الذي يعنيهم دين الله ونُصْرة دينه تبارك وتعالى.

قال: فيوشـك قائل أن يقول: مال الناس لا يتبعوني وقد قرأتُ القرآن؟ ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره؛ لا يمكن أن يكون لي أتباع بالقرآن وحده، لا بد أن أُحدِث لهم بدعة، أخترِع لهم شـيئاً، أبتكر أمراً حينئذٍ سيكون لي أتباع، وهذه والله تكشف نشأة كثير وكثير من البدع أو الطوائف الضالة، وتكشف حقيقة رؤوس أئمة الطرق الضالة، وأن من وراء نشأة تلك الطرق هذ المقصد السيء، وهو أن يُوجِد لنفسه أتباعاً وأنصاراً ومريدين بأي طريقة كانت، ولو أنه يُعرِض عن كتاب الله ﷻ.

وقد حدّثني أحد الأخيار أنه التقى مرة بالطائرة مع شخص من كبار شيوخ الطرق- طرق التصوف- قال: وكان إلى المقعد الذي جواري، فأخذت أتحدث معه، وقلت له: أنت لا تعرفني وأنا لا أعرف مَنْ أنت، وإذا نزلنا من الطائرة أنت في طريق وأنا في طريق، لا أعرفك ولا تعرفني، لكن عندي سؤال أُريد أن تجيبني عليه بصراحة، هذه الأمور التي تفعلونها هل تعتقد فعلاً أنك فيها على حق؟ وأن هذا هو دين الله ﷻ الذي لا يرضى ولا يقبل ديناً سواه؟ أنا إذا انتهت الرحلة أنا في طريق وأنت في طريق، لا أدري مَنْ أنت ولا تدري مَنْ أنا، لكن أريد أن تَصْدُقني هل أنت تعتقد أن هذا دين الله الذي لا يقبل ديناً سواه ولا يرضى ديناً سواه؟ هل تعتقد ذلك؟

قال: لا. لا أعتقد ذلك.

قلت: وإذاً لماذا تبقى على هذا الأمر؟

قال: إذا تركته ذهب المال وذهب الأتباع، إذا تركتُ هذا الطريق ذهب المال وذهب الأتباع، لا يبقى لي هذه الأموال، ولا يبقى لي هؤلاء الأتباع!

فابن مسعود يقول: فيوشك قائل أن يقول: مال الناس لا يتبعوني وقد قرأتُ القرآن؟!. ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإن ما ابتدع ضلالة.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: وأُحِّذركم (زيغة الحكيم) زيغة الحكيم: أي زلّته، الحكيم: الذي عُرف بالعلم، بالحكمة، وليس بالمعصوم، قد يقع منه هفوة، قد يأتي على لسانه كلمة خاطئة، أو حُكماً خاطئاً، زَلّة العالم.

فيقول رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أُحذركم (زيغة الحكيم) فإن الشـيطان قد يقول كلمة الضـلالة على لسـان الحكيم، بمعنى: أن الشـيطان قد يتسـلط على الحكيم بشيـء من الوسـاوس، فيقول كلمة يكون للذي دفعه إليها الشيطان، والذي أوقعه فيها الشيطان، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق، المنافق عُرف بضعف الدين قد يقول في موقف ما، أو في وقت ما، أو في مناسبة ما.. قد يقول كلمة الحق.

قال: قلت لمعاذ: ما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضـلالة وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟

قال: بلى. اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات، وتُروى الْمُشَبِّهات.

اجتنب من كلام الحكيم المشـتهرات؛ سـبحان الله! حتى في زماننا هذا الكلمة إذا كانت فيها شيء من الخطأ، أو توافق شيء من الأهواء- أهواء الناس- لِمَنْ عُرِف بالعلم أو بالدعوة تُنشَر، وتشـتهر في سـاعة، خاصـة في زماننا الآن ووسـائل الاتصـال، ونقل المعلومات، فالكلمة التي تكون زَلّة تُنقَل مباشرة وتشـتهر بسرعة ويتناقلها الناس سريعاً، بخلاف الكلمة التي فيها دعوة إلى حق، أو دعوة إلى سُـنّة، أو دعوة إلى هُدى، ما ينشط كثير من الناس إلى نَشْرِها، لكن إذا قال عالم كلمة فيها زَلّة مثلاً أو فيها حُكم خاطئ أو نحو ذلك تجد الناس يتنافسون في نقْلها ونَشْرها ويتسارعون إلى ذلك، وتشتهر بسرعة.

فالمراد بالمشـتهرات: أي المشـتهرات بالبطلان بالباطل، المشـتهرات أي بالبطلان بالباطل كما يوضـحه المشبهات، يعني الكلام المبني على الشُّبَه، ليس مبني على الهدى ولا على الحق ولا على العلم.

قال: اجتنب من كلام الحكيم المشـتهرات التي يقال لها: ما هذه؟، يُنقَل فيقال: سـبحان الله! فلان هو الذي قال ذلك؟! عجيب.. هذا أمر غريب، ما هذا؟!.. لو كان غيره الذي قال ذلك.. فلان بنفسه؟!

فالكلام الذي يكون بهذه الصفة، يكون على هذه الحال يُجتَنَب، بعض الناس لكونه عنده هوى، لكونه عنده شيء من الهوى تجده يتتبع مثل هذه الأشـيـاء، ويتتبع مثل هذه الزلّات، وقد قيل قديماً: مَنْ تتبع الرخص تزندق، بعضهم يتتبع مثل هذه الأشياء، ويجعلها هي الدين، وتجد بعضهم لا يرتضي قول عالم من العلماء في أمور الدين كلها، ويأتي إلى قوله في باب معين ويأخذ به.

مثل بعض النسـاء الآن تقول: أنا مذهبي في الحجاب مذهب الألباني، بعض النسـاء تقول ذلك، فتجدها لا تعرف عنه شيء، ولا عن علمه، ولكن سمعت أنه يرى كشف الوجه مثلاً وهي ترغب أن تكشف وجهها،

هذا مثال من الأمثلة، مع أن الشيخ الألباني حتى في هذه المسألة يرى أن المرأة الشابة الجميلة الحسنة أنه ينبغي أن تغطي وجهها، لكن لا يلتفتون إلى مثل ذلك، وإنما كله تتبع لما تهواه الأنفس.

فهذا فيالحقيقة من المصائب والآفات الموجودة لدى الناس في مثل هذا الباب، أو في مثل هذا المقام.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: ولا يثنيك ذلك عنه، وتُروى: ولا يُنئيك (أي: يُبعدِك) ذلك عنه؛ أي: إذا زَلّ العالِم، إذا وقع في زَلّة وعُرِفت أصوله بالسُّنة والاتباع ونُصرة الحق والدعوة إليه، ولكنه زَلّ في مسألة، أخطأ فيها، فيقول: لا يُنئيك ذلك عنه (لا يُبعِدك ذلك عنه)، اترك زلّته وتجنب هذا الخطأ الذي وقع فيه لكن لا يُنئيك ذلك عنه، من أن يُستفاد من علومه العظيمة وعنايته بالسُّنة ونُصرته لدين الله تبارك وتعالى، فإنه لعله أن يرجع، أيضاً هذه الزّلة التي وقع فيها لعله أن يرجع.

قال: وتلقَّ الحق إذا سمعته فإن على الحق نوراً؛ أي: جعل الله ﷻ على الحق نوراً يُميز به، ولكن هذا النور الذي على الحق لا يراه مَنْ على بصره غشاوة البدعة والهوى.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

فأما تقرير ذلك بالدليل، وإماطة ما يعرض من الشُّبه، وتحقيق الأمر على وجه يخلص إلى القلب ما يبرد به من اليقين، ويقف على مواقف آراء العباد في هذه المهامه فما تتسع له هذه الفتوى، وقد كتبت شيئاً من ذلك قبل هذا، وخاطبت ببعض ذلك بعض مَنْ يُجالسنا، وربما أكتب - إن شاء الله - في ذلك ما يحصل المقصود به.

يقول رحمة الله عليه: (فأما تقرير ذلك بالدليل) يقصد بـ (تقرير ذلك): أي بسْط القول فيه والتوسع في جمْع الأدلة، ومناقشة أقوال المخالفين، ورَدّ الشُّبه مثلما قال: (وإماطة ما يعرض من الشُّبه) وانتبه! إلى التعبير بالإماطة (وإماطة ما يعرض من الشُّبه)، وقد قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: (لا إله إلا الله)، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق»، وإذا كان إماطة الأذى الحسي- الذي هو القذر من شوك أو أوساخ أو نحو ذلك من طريق المسلمين لئلا يؤذيهم يُعدّ شعبة من شُعَب الإيمان، وخصلة من خصاله العِظام، فلأن يكون إماطة الأذى المعنوي الذي هو شبهات أهل الباطل التي تؤثر على الناس في عقائدهم وأديانهم وعبادتهم من الإيمان من باب أَوْلى؛ لأن أثر هذه الشُّبَه على الناس في عقائدهم أَضَرّ من أثر تلك القاذورات على الناس عندما تكون في طريقهم، فإماطة هذا النوع من الأذى من أعظم القُرب، ومن أجَلِّ شُعب الإيمان، ومن أعظم ما يُتقرَّب به إلى الرحمن ﷻ، وهذا مما يبين لنا المكانة العَلية

لأئمة الدين وعلماء السلف أهل السُّنة في إزالتهم لهذه الشبهات التي يوردها أهل الباطل لحرْف الناس في عقائدهم.

اقرأ على سبيل المثال: الكتاب المبارك الموسوم بكشف الشبهات للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمة الله عليه، ما أعظم أثره! وما أكبر فائدته! وكم أصلح الله ﷻ به من عقائد، وأزال به من مفاسد وشرور، لأنه أماط -رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الكتاب أذى عظيما أن يحرف الناس في عقائدهم، وإخلاصهم، وتوحيدهم لرب العالمين.

قال: (فأما تقرير ذلك بالدليل، وإماطة ما يعرض من الشُّبه، وتحقيق الأمر على وجه يخلص إلى القلب ما يبرد به من اليقين) يقصد بذلك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: التوسع والبسط وجمْع النقول والأدلة والتوسع في نقْد ما يورده هؤلاء من شبهات.

(ويقف على مواقف آراء العباد في هذه المهامه) أي: المفاوز والمهالك (فما تتسع له هذه الفتوى) وهذا فيه تنبيه إلى أنه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قصد بهذه الفتوى الاختصار وعدم الإطالة، وله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذا الباب كُتُباً توسّع فيها، ولهذا قال: (وقد كتبت شيئاً من ذلك قبل هذا، وخاطبت ببعض ذلك بعض مَنْ يُجالسنا، وربما أكتب - إن شاء الله - في ذلك ما يحصل المقصود به).

ومن كُتبه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى النافعة في هذا الباب «نقْض التأسيس»، وكتابه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى درء التعارض «درء تعارض العقل والنقل»؛ فإن هذين الكتابين من أوسع الكتب في هذا الباب.

وأيضاً ما كتبه ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه «الصواعق المرسلة»، وكثير منه استفاده من شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مع إضافات كثيرة مهمة للغاية ضَمّنها كتابه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزَكِّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبُلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ عِلمنا، ولا تُسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

الدرس الثالث الثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وجماع الأمر في ذلك: أن الكتاب والسُّنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لِمَنْ تدبر كتاب الله وسُنة نبيّه وقصد اتباع الحق وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في أسماء الله وآياته.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

ذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيخ الإسلام في هذا الموضع خلاصةً جامعة ونافعة للغاية، فيها- كما ذكر- (جماع الأمر) في هذا الباب- باب توحيد الأسماء والصفات.

ومعنى (جماع الأمر) أي: أمر العبد بما يتحقق به صلاحه وسعادته وفلاحه في دنياه وأُخراه.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (وجماع الأمر في ذلك: أن الكتاب والسُّـنة يحصـل منهما كمال الهدى والنور) أي: أن اهتداء العبد واستضاءته بنور الإيمان لا يتحقق إلا من خلال هذين المنبعين العظيمين (كتاب الله ﷻ وسُنة نبيّه ﷺ).

أما الاهتداء: فيقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

وأما الضيـاء والنور: فيقول الله جَلّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

ثم نبّه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا الاهتداء والنور بالكتاب والسُّنة لا يُنال إلا بشروط ثلاثة:

الأول: **حُسـن التدبر** لكتاب الله جلَّ وعلا، قال: (لِمَنْ تدبر كتاب الله وسُـنة نبيّه) ﷺ؛ ولهذا ليس كل مَنْ قرأ القرآن يهتدي بهُدى القرآن، وإنما الذي يُوفَّق بإذن الله ﷻ للاهتداء بهُدى القرآن مَنْ يعقل عن الله مُراده بتدبّر كلامه جلّ وعلا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد:٢٤]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص:٢٩].

والشرط الثاني: **حُسْن القصد وسلامته**: بأن يقرأ قاصداً تحصيل الحق والوقوف عليه من كتاب الله ﷻ وسُـنة نبيّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ إذ إن من الناس مَنْ يقرأ القرآن وليس قصـده تحصـيل الحق الذي في القرآن، وإنما يقرأ القرآن ليستخرج من القرآن أشياء ولو بليّها عن مُرادها ومقصودها لتكون موافقة لهواه، فيدخل وهو مُشرَب بالهوى ويتتبع في القرآن أشياء يحاول أن يُطوّعها وأن يجعلها دليلاً له، فلا يكون مَنْ كان كذلك عندما قرأ القرآن قصْده تحصيل القرآن من الحق، فهذا الشرط الثاني: أن يقصد اتباع الحق، يحمل في قلبه قصْداً سليماً أن يتبع الحق الذي جاء في كتاب الله ﷻ وإن خالف هواه، إن خالف ما نشأ عليه، إن خالف ما تعلمه من بعض أشياخه، إن خالف أي شيء لا يبالي، يقصد اتباع الحق الذي في القرآن كتاب الله وفي سُنة نبيّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وعدد من الناس لا يتوفر فيه ذلك؛ ولهذا يسمع الآية ويتضح له دلالتها فلا يقبلها لكونها تخالف هواه أو ما نشأ عليه، يسمع الحديث عن رسول الله ﷺ فلا يتقبله نفسه ولا يُقبِل عليه لأنه يخالف هواه، فهذا لم يحصل له سلامة القصد بتحصيل الحق من كتاب الله وسُنة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه، فهذا الشرط الثاني لتحصيل الهدى والنور الذي في الكتاب والسُّنة.

الشرط الثالث: الإعراض عن تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في أسماء الله وآياته، والمراد بالإعراض عن ذلك: أي البُعد عن ذلك ومجانبته، وأن يحذر المرء من هذا المسلك أشد الحذر، وقد ذكره الله ﷻ وصْفاً لليهود ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦] فيحذر من ذلك.

والذي يفعل هذا التحريف أهل الأهواء الذين أُشربت قلوبهم بالأهواء والبدع هم مَنْ يحرفون الكلم، لأن أهواءهم تُملي عليهم ذلك، ولهذا لا ينال الهدى والنور الذي في كتاب الله وسُنة نبيّه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلا بالإعراض عن هذا التحريف والبُعد عنه والسلامة من الوقوع فيه.

قال: (وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في أسماء الله وآياته) أي: والإعراض عن الإلحاد في أسماء الله وآياته، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ [فصلت:٤٠].

فيكون على حذر من ذلك.

فإذا اجتمعت هذه الشروط الثلاثة: (حُسْن التدبر، وسلامة المقصد، والبعد عن التحريف) نال العبد بإذن الله ﷻ كمال الاهتداء والنور بكتاب الله ﷻ وسُنة نبيّه ﷺ، وهي فائدة ثمينة جداً نبّه عليها رحمة الله عليه.

قال –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ولا يحسب الحاسب أن شيئاً من ذلك يناقض بعضه بعضاً البتة؛ مثل أن يقول القائل: ما في الكتاب والسُّنة من أن الله فوق العرش يخالفه في الظاهر قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد:٤]، وقوله ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قِبَل وجهه» ونحو ذلك فإن هذا غلط.

هذا تنبيه من شيخ الإسلام رحمة الله عليه إلى موطن تَزل فيه بعض الأقدام، حيث يظن أن بعض النصوص يناقض بعضها بعضاً، ويعارض بعضها بعضاً، والله جلّ وعلا قال في القرآن الكريم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء]، أما وهو من عند الله ﷻ فلا اختلاف فيه ولا في حرف واحد ولا في كلمة واحدة.

ولهذا وصف الله القرآن بأنه كتاب متشابه، ومعنى متشابه: أي يؤيد بعضه بعضاً، ولا يعارض بعضه بعضاً، ووصفه بأنه كتاب مُحكَم فلا يتطرق إليه شيء من التناقض أو التعارض أو الاضطراب لكمال

إحكامه وتمام إتقانه، فإذا ظهر للإنسان شيء من التناقض فهذا في فهْمه لا في كتاب ربه، إذا ظهر له شيء من التناقض فهذا في فهْم الإنسان لا في كتاب الله، كتاب الله لا تناقض فيه إطلاقاً.

ولهذا عبّر شيخ الإسلام بهذه العبارة (ولا يحسب الحاسب أن شيئاً من ذلك يناقض بعضه بعضاً البتة) إطلاقاً لا يوجد.

ثم ضرب مثالين- مما يُظَن أو يَظُن بعض الناس أن فيه تناقض- وأجاب عن كل من هذين المثالين إجابة مستقلة، الأول من القرآن، والثاني من السُّنة، والغرض من ذِكْر المثالين: أن ما سواهما يقاس عليهما، أجاب عن كل منهما جواباً مستقلاً.

المثال الأول: ما جاء في قول الله ﷻ: (﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد:٤]) بعضهم يظن أن ظاهر قوله: (﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد:٤]) يخالف ظاهر قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ [الحديد:٤] يظن ذلك، ويحسب أن ثمة تعارض أو تناقض.. (﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد:٤]) يظن أن ظاهر هذه الآية يخالف ظاهر قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ [الحديد:٤]، وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] وغيرها من النصوص الكثيرة الدالة على عُلو الله ﷻ على عرشه. وسيجيب -رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ذلك إجابة مُفصلة.

أيضاً قد يظن ظان أن قول النبي ﷺ: («إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قِبَل وجهه»)، يظن أنها تعارض قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، ولهذا تجد بعضهم يقول: كيف قِبَل وجهه وفي الآيات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]؟

وقوله ذلك مبني على إساءة في الفهم، ولهذا- كما نبّهت- إذا وُجد شيء من التعارض فهذا التعارض في فهْم الإنسان، لا في كلام الرحمن ﷻ.

والآن يذكر رحمة الله عليه إجابة مفصلة بعض الشيء عن هذين المثالين، فبدأ أولاً بما يتعلق بقوله: (﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد:٤]).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وذلك أن الله معنا حقيقة وهو فوق العرش حقيقة، كما جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد]، فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء وهو معنا أينما كنا كما قال النبي ﷺ في حديث الأوعال: «والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه».

هذان الأمران اللذان يُظَن أن فيهما تعارض، ألا وهما: إخبار الله أنه اســتوى على العرش، وإخباره أنه مع العباد أينما كانوا، هذان الأمران اللذان يُظن أن فيهما تعارض جُمِع بينهما في آية واحدة في ســورة الحديد، وهي قول الله ﷻ: (﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾ [الحديد: ٤]) هذا ذِكْر لاستواء الرب على العرش، والاستواء هو العلو والارتفاع، استوى على العرش: أي علا وارتفع عليه عُلواً وارتفاعاً يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه، (﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾ [الحديد: ٤]).

ثم ذكر أمراً آخراً، قال: (﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد]) هذه أيضــاً حقيقة أخرى لا تخالف الحقيقة الأولى التي ذُكِرت في صـدْر الآية، في صـدْر الآية ذُكر الاسـتواء- اسـتواء الله على العرش- ثم في أثناء الآية ذُكرت حقيقة أخرى وهي: أن الله مع العباد أينما كانوا، أنه ســبحانه مع العباد أينما كانوا، قال جلّ وعلا: (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ [الحديد: ٤]).

وإذا نظر الناظر إلى هذا الســياق الذي ذُكرت فيه هذه المعية يجد أن الســياق كله بيان للعلم المحيط، العلم الواســع الذي أحاط بكل شيء، فبدأ قبل هذه بالعلم وختم بالعلم، فأفاد ذلك أن هذه المعية بالعلم، أما الرب جلّ في علاه فهو فوق عرشــه، مثل ما قال الإمام مالك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (الله فوق العرش، أو الله في السماء وهو مع خلْقه في كل مكان بعلمه) أو كلمة هذا معناها، فهو ﷻ مع العباد بعلمه.

ولهذا لما احتج الجهمية بقوله: (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ [الحديد: ٤]) على أن الله في كل مكان.. قال الإمام أحمد: (الله بدأ الخبر بالعلم وختمه بالعلم) بدأ الخبر بالعلم وختمه بالعلم، و(مع) كما ســيأتي عند شـيخ الإسـلام تفيد مُطلَق المصــاحبة وهي في كل موضــع بحسبه، فالسـياق هنا دل على أن حقيقة المعية: العلم.

ولهذا أجمع السلف وحكى إجماعهم غير واحد- ومر معنا ذِكْر لبعض هذه الإجماعات- أن قوله: (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]) أي بعلمه لدلالة السياق على ذلك، ومثلها قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]، ولهذا يقول شيخ الإسلام: (أخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء وهو معنا أينما كنا كما قال النبي ﷺ في حديث الأوعال: «والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه») (وهو يعلم ما أنتم عليه) هذا معنى قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]، (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أُطلقت فليس في ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين وشمال، فإذا قُيّدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى.

فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو النجم معنا.

ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك، وإن كان فوق رأسك.

فالله مع خلْقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة.

مَنْ يستدل بقوله: (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]) يفهم أو يظن أو يحسب أن (مع) في كل مواردها تفيد المخالطة والممازجة، مثل ما يقال: الحليب مع الماء، أو السكر مع الماء، أو نحو ذلك، فيفهم أن (مع) في كل مواردها تفيد المخالطة والامتزاج، وهذا فهْم خاطئ، تردّه اللغة، ويردّه مدلول هذه الكلمة.

فـ (مع) هذه الكلمة تفيد مطلق المصاحبة لكنها في كل موضع بحسبه أو كما عبّر شيخ الإسلام: تفيد (المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة)، خذ على ذلك أمثلة، عندما يقول المسافر: (سافرتُ، أو سافرنا والقمر معنا) هل تفيد امتزاج واختلاط؟ القمر في السماء وهو يمشي على دابته، أو على قدميه، أو على مركوبه في الأرض، ويقول: (القمر معنا) وقوله هذا صحيح.

الرجل يُسأل عن أهله فيقول: (أهلي معي) يقصد: في عصمتي، ويكون هو في بلد وأهله في بلد آخر، لكنهم معه: أي في عصمته، لم يفارقهم بطلاق.

ولهذا تجد أن (مع) في مواردها تفيد مُطلق المصاحبة، وهي كل موضع بحسبه.

إذاً حتى تفهم (مع) في مدلولها في كل سياق لا بد من فهْم السياق الذي وردت فيه، إن أُخذت مجردة عن السياق الذي وردت فيه يُخطئ الإنسان في الفهم، ولهذا قال الأئمة في الرد على الجهمية، قالوا: انتزعوا

قوله: (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]) وجرّدوه عن ما قبله وعن ما بعده وفهموا منه هذا الفهم الخاطئ.

بينما (مع) لا بد لأجل أن تُفهَم فهماً صحيحاً أن يُنظَر في السياق.

مثالنا الأول- أُعيده لأُنبِّه على فهْم المعنى- الآن لما يقال: فلان مع زوجته، هذه الكلمة بحد ذاتها هل يمكن يُفهَم مراد قائلها مجرداً عن السياق؟ هل يمكن؟ ممكن أن يكون مثلاً مع زوجته- أي: مسافراً معها- مع زوجته: هي معه في بيته، مع زوجته: هو في بلد، وهي في بلد، وهي في عصمته، فإذاً لا بد أن يُفهَم السياق أو السؤال الذي طُرِح عليه مثلاً، فـ(مع) لا بد أن يُنظَر في السياق، إن جُرِّدت عن سياقها لم تُفهَم فهماً صحيحاً.

فهؤلاء جرّدوا (مع) عن السياق، قالوا: (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]) وجرّدوها عن ما قبلها وعن ما بعدها، وفهموا هذا الفهم الخاطئ.

فإذا نظرت ما قبله وما بعده تجد أن السياق كله في العلم، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤] فأفادك السياق أن المعية: العلم.

مثلها تماماً: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧] فبدأ بالعلم وختم بالعلم، بدأ الخبر بالعلم وختمه بالعلم.

فإذا المعينة هنا حقيقتها: أن الله ﷻ مع العباد بعلمه، فهل يكون هذا معارضاً لقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤]؟.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد؛ فلما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] دل ظاهر الخطاب على أن حُكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم، شهيد عليكم، ومهيمن عالم بكم، وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته.

(وهذا معنى قول السلف) أي بإجماعهم (إنه معهم بعلمه) أجمع على ذلك السلف: أن معنى قوله: (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]) ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧] أي: بعلمه، لدلالة السياق على ذلك.

وكذلك في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧] إلى قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧].

هذه نظير التي قبلها في الدلالة على هذه المعية العامة، لأن معية الله ﷻ لخلْقه نوعان: معية عامة ومعية خاصة؛

العامة: ذكر لها مثالين (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤])، (﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]) وهي معية بالعلم والاطلاع.

ونوع آخر وهو المعية الخاصة التي خصَّ بها أصفياءه جلَّ وعلا وأولياءه.

ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] كان هذا أيضاً حقاً على ظاهره، ودلّت الحال على أن حُكم المعية هنا مع الاطلاع النصر والتأييد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل].

وكذلك قوله لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

هنا المعية على ظاهرها، وحُكمها في هذه المواطن النصر والتأييد.

هذه ثلاث أمثلة للمعية الخاصة: (﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]) فهذه خَصَّ بها أصفياءه وأولياءه، وهي إضافة إلى الاطلاع: النُّصرة والتأييد، والحفظ والتوفيق، والمعونة والتسديد، فهذه معية خاصة.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وقد يدخل على صبي مَنْ يُخيفه فيبكي فيُشرف عليه أبوه من فوق السقف ويقول: لا تخف؛ أنا معك أو أنا حاضر ونحو ذلك.

يُنبهه على المعية الموجبة بحُكم الحال دفع المكروه؛ ففرْق بين معنى المعية وبين مقتضاها، وربما صار مقتضاها من معناها، فتختلف باختلاف المواضع.

يعني هذا مثال ضربه-رَحِمَهُ ٱللَّهُ لتوضيح ذلك؛ عندما يقول الوالد لابنه الخائف: (اذهب أنا معك) يعني متابع لك، أراقب، أسأل عنك، فهذه المعية يُفهَم منها عندما تُطلَق: المراد دفْع المكروه، ولهذا يبقى الوالد في البيت ويذهب الابن إلى مثلاً مدرسته أو نحو ذلك، والذي فُهِم من قول والده له (أنا معك): دفْع المكروه، يعني مُتابِع لك إن أحد اعتدى عليك أو نحو ذلك، فأنا معك: أي بالمتابعة، فهذه معية خاصة تُسمى، وهذا مثال فقط، هذا مثال.. وإلا في باب التربية للأبناء لا يحسن ذلك، وإنما يذكر ذلك كمثال فقط لتوضيح المعنى، وإلا في باب التربية للأبناء لا يحسن ذلك، ودائماً ينبغي على الأب أن يعلق الابن برب العالمين، في الخوف، في المراقبة، لأن بعض الآباء عندما يربي ابنه يعلقه بشخصه، يقول: أنا متابع لك، إن فعلت أفعل، وإن كان.. ويُهدد.. إلى آخره، بينما الأصل في التربية مثلما قال لقمان الحكيم: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان١٦] فيعلق الابن بخشية الله، والخوف من الله، ومراقبة الله ﷻ، وأيضاً طلب المعونة من الله.

ففي مثل هذا المقام يقول له: اذهب والله معك، والجأ إلى الله، والله يحفظك.

لكن شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر ذلك فقط مثال لتوضيح المعنى المراد هنا.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

فلفظ المعية قد استُعمل في الكتاب والسُّنة في مواضع يقتضي- في كل موضع أموراً لا يقتضيها في الموضع الآخر.

وهذا مبني على ما سبق؛ أن المعية تختلف معانيها بحسب مواردها.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها - وإن امتاز كل موضع بخاصية - فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب مختلطة بالخلق حتى يقال قد صُرفت عن ظاهرها.

اختلاف (مع) في الاستعمال بحسب الموارد وبناءً على ذلك اختلاف المعنى بحسب الموارد يُنبّه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع أو تدل على قدر مشترك) لأجله عُبِّرَ في جميع المواضع بكلمة (مع).

ويمتاز كل موضع عن الآخر بشيء، يقول: سواء قيل هذا أو قيل هذا فإنها لا تقتضي في قوله تعالى: (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]) الاختلاط بالخلق (حتى يقال قد صُرفت عن ظاهرها)؛ لا تقتضي في قوله تعالى: (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]) الاختلاط بالخلق؛ لأن الآن بعضهم إذا قيل: (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]) بعلمه قالوا: هذا تأويل وأنتم تمنعون التأويل.

والحق: أن هذا هو مدلول الآية، وهذا ظاهر مدلولها نظراً إلى السياق كما مر معنا توضيح ذلك.

ثم يضرب مثالاً -رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوضح به هذا الأمر.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ونظيرها من بعض الوجوه: الربوبية والعبودية، فإنها وإن اشتركت في أصل الربوبية والتعبيد فلما قال: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٧]، ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف] كانت ربوبية موسى وهارون لها اختصاص زائد على الربوبية العامة للخلق؛ فإن مَنْ أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطى غيره فَقَدْ رَبَّهُ ورباه، وربوبيته وتربيته أكمل من غيره.

وكذلك قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]؛

فإن العبد تارة يُعنَى به المعبّد فيعمّ الخلق كما في قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم].

وتارةً يُعنَى به العباد فيُخَصّ ثم يختلفون، فمَنْ كان أعبد علماً وحالاً كانت عبوديته أكمل؛ فكانت الإضافة في حقه أكمل مع أنها حقيقة في جميع المواضع.

ومثل هذه الألفاظ يسميها بعض الناس (مشكِّكة)؛ لتشكيك المستمع فيها هل هي من قِبَل الأسماء المتواطئة أو من قِبَل المشتركة في اللفظ فقط؟ والمحققون يعلمون أنها ليست خارجة عن جنس المتواطئة؛ إذ واضع اللغة إنما وضع اللفظ بإزاء القدر المشترك، وإن كانت نوعاً مختصاً من المتواطئة فلا بأس بتخصيصها بلفظ.

هذان مثالان هما نظير ما سبق من المعية وأن المعية تختلف بحسب مواردها، يختلف مدلولها بحسب مواردها، والمعية التي أُضيفت في النصوص- معية الله لخلقه- مر معنا أنها على نوعين: معية عامة ومعية خاصة، وهذه لها معنى وهذه لها معنى.

فيقول: نظير ذلك (الربوبية والعبودية)؛ ربوبية الله لخلقه نوعان، مثل ما أن معيته لخلقه نوعان عامة وخاصة أيضاً ربوبيته لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

الربوبية العامة: دلّ عليها قوله: (﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٧]) هذه عامة.

والخاصة: دل عليه مثل قوله: (﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف]) هذه خاصة.

فربوبية الله ﷻ لخلقه نوعان: ربوبية عامة وربوبية خاصة.

الربوبية العامة: (﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٧]) بالخَلق والرَّزق والإنعام والإحياء والتدبير.. إلى غير ذلك، هذا ربوبية عامة.

والربوبية الخاصة: في مثل قوله: (﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف])، مثل قول النبي ﷺ في مناجاته لربه: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل» هذه ربوبية خاصة، وفيها قدر زائد عن الربوبية العامة، إضافةً إلى المعنى الذي في الربوبية العامة فيها قدر زائد، ومثل أيضاً ما مرّ معنا إضافةً لما في المعية الخاصة من القدر الذي هو في المعية العامة الذي هو الاطلاع فيها النصرة والتأييد، هنا إضافة إلى الربوبية العامة ثمة معنى خاص وهو التربية، والمعونة، والتسديد، والتوفيق، والهداية، فهذه ربوبية خاصة.

ولهذا يقول بعض أهل العلم لأجل هذا الملحظ كانت أكثر دعوات الأنبياء (ربي، ربنا) ملاحظةً للتربية الخاصة التي مَنَّ الله ﷻ عليهم بها.

قال: (كانت ربوبية موسى وهارون لها اختصاص) ربوبية الله ﷻ لموسى وهارون (لها اختصاص زائد على الربوبية العامة للخلق؛ فإن مَنْ أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطى غيره فقد ربه ورباه، وربوبيته وتربيته أكمل من غيره).

مثل ذلك أيضاً العبودية؛ العبودية عامة وخاصة:

العامة: عبودية الخلق: (﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم]).

والخاصة: مَنْ وفقهم الله ﷻ لطاعته كما قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [الجن:١٩]، (﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]؛) هذه عبودية خاصة.

فكما أنه يُفرّق بين العبوديتين بحسب دلالة السياق ينبغي أن يُفرَّق وتُفهَم المعية أيضاً بحسب دلالة السياق وهذا غرض شيخ الإسلام.

قال: (ومثل هذه الألفاظ يسميها بعض الناس (مشكِّكة)) لماذا؟ قال: (لتشكيك المستمع فيها) يسميها (مشككة) لتشكيك المستمع فيها، عُرِّفت الألفاظ المشككة بأنها ما يتفاضل معناها في مواردها، الألفاظ المشككة: ما يتفاضل معناها في مواردها؛

مثلاً: يقولون: الأبيض هذا من الألفاظ المشككة؛ لأنك تطلق هذه الكلمة على أشياء كثيرة، تقول: الثلج أبيض، والثوب أبيض، و... أشياء كثيرة تطلق عليها هذا الوصف، تقول مثلاً: الثلج أبيض، الماء، الحليب أبيض، أشياء كثيرة، لكنها تجدها بحسب مواردها تختلف، تتفاضل من حيث قوة البياض وضعفه.

فمثل هذا يسمونه الألفاظ المشككة.

قال: (فهل هي من قِبَل الأسماء المتواطئة) والأسماء المتواطئة هي الأسماء العامة التي تُسمى أسماء الأجناس.

(أو من قبل المشتركة في اللفظ) المشتركة في اللفظ: يكون اللفظ واحد، تشترك في اللفظ لكن المعاني مختلفة، مثل: العين، العين يُطلَق ويراد الباصرة، ويراد بالعين: الماء، عين الماء، ويراد بالعين: الجاسوس، يقال له: عين لأن عمله كله بعينه، فلهذا يقال له: عين؛ فتسمى هذه الألفاظ: الألفاظ المشتركة؛ تشترك في اللفظ وتختلف في المعنى.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ومَنْ عَلِم أن المعية تُضاف إلى كل نوع من أنواع المخلوقات - كإضافة الربوبية مثلاً - وأن الاستواء على الشيء ليس إلا للعرش، وأن الله يوصف بالعلو والفوقية الحقيقية ولا يوصف بالسفول ولا بالتحتية قط لا حقيقة ولا مجازاً: علم أن القرآن على ما هو عليه من غير تحريف.

هذا كلام مهم جداً، فيه خلاصة دقيقة تتعلق بما سبق، والتنبيه على دفْع توّهم التعارض بين: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]) فيقول: (ومَنْ عَلِم أن المعية تُضاف إلى كل نوع

من أنواع المخلوقات) المعية العامة تُضاف إلى كل نوع من أنواع المخلوقات، ما معنى ذلك؟ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] تضاف إلى كل نوع، كل نوع من المخلوقات الله معهم، بماذا؟

باطلاعه ورؤيته سبحانه، وأنه لا يخفى عليه خافية.

يقول: (مَنْ عَلِم أن المعية تُضاف إلى كل نوع من أنواع المخلوقات - كإضافة الربوبية مثلاً) كإضافة الربوبية العامة، ربوبية الله ﷻ العامة للخلق أجمعين، تتناول البر والفاجر، وتتناول الأحياء والأموات، تتناول الحيوانات والجمادات، تتناول كل شيء، رب العالمين: أي هو المتصرف في العالم كله، خلْقاً ورزقاً، وإحياءً وإماتةً، وتصَرُّفاً وتدبيراً.

(وأن الاستواء على الشيء ليس إلا للعرش) لاحظ الآن! حتى يُنبّه خطأ هؤلاء، المعية يقال مع كل الخلق، لكن هل (استوى على العرش).. هل يقال: استوى على كل شيء؟ هذا يبين لك الآن، هل يقال استوى على كل شيء؟ استوى على العرش.

يقول: (وأن الاستواء على الشيء ليس إلا للعرش) لم يأتِ في القرآن استوى على السماء، أو استوى على الأرض، فقط استوى على العرش، فرْق بين المعية وبين... فلا يُخلَط بين الأمور، المعية بالعلم مع الجميع، أما الاستواء خصّه بالعرش، استوى على العرش: أي علا وارتفع عليه عُلواً يليق بجلاله.

قال: (وأن الله يوصف بالعلو والفوقية الحقيقية ولا يوصف بالسفول ولا بالتحتية قط) تعالى الله عمّا يصفون، وسبحان الله عمّا يقولون، (لا حقيقة ولا مجازاً) على مَنْ يقول بذلك (عُلم أن القرآن على ما هو عليه من غير تحريف) على ما هو عليه في دلالة ظاهر قوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] على العلو والارتفاع، ودلالة قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] على الإحاطة والاطلاع.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثم مَنْ توهَّم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب - إن نقله عن غيره - وضال - إن اعتقده في ربه - وما سمعنا أحداً يفهمه من اللفظ، ولا رأينا أحداً نقله عن أحد.

ولو سُئل سائر المسلمين: هل تفهمون من قول الله تعالى ورسوله: (أن الله في السماء) (أن السماء تحويه)؟ لبَادر كل أحد منهم إلى أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا.

يقول هنا: (ثم مَنْ توهَّم أن كون الله في السماء) كما في الآية الكريمة: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، «ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء»، يقول: مَنْ توهم أن المعنى: أن السماء تحيط به

أو تحويه فهو كاذب على الله، (إن نقله عن غيره، وضـال - إن اعتقده في ربه) إن نقله عن غيره فهو كاذب على الله، وإن اعتقد ذلك فهو ضال في اعتقاده في ربه.

(وما سـمعنا أحداً) يفهم من هذا اللفظ (﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، «ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء») أن السماء تحويه أو تحيط به، الله أعظم وأجلّ، وهو مستوٍ على عرشه ﷻ المجيد.

فيقول: ما سمعنا أحداً قال بذلك، أو فَهِم بذلك، (ولا رأينا أحداً نقله عن أحد).

(ولو سُئل سائر المسلمين: هل تفهمون من قول الله تعالى ورسوله: (أن الله في السماء) (أن السماء تحويه)؟ لبَادر كل أحد منهم إلى أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر) على بالنا.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وإذا كان الأمر هكذا: فمن التكلف أن يُجعَل ظاهر اللفظ شيئاً محالاً لا يفهمه الناس منه.

لماذا؟

لأن هؤلاء يقولون: هذا ظاهر قوله: (﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦])، فيقولون: (في) في اللغة تفيد الظرفية، لما نقول: الحليب في الكوب، هذا مدلول (في)، فمعنى في السماء معنى ذلك الظرفية، وأن السماء تحويه، يقول: هذا ظاهر النص.

فيقول رحمة الله عليه: (وإذا كان الأمر هكذا: فمن التكلف أن يُجعَل ظاهر اللفظ شيئاً محالاً لا يفهمه الناس منه) يقول: لا يوجد أحد أصلاً يفهم من قوله: (﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]) أن السماء تحويه، ولا أيضاً لفظة (في) تفيد هذا المعنى؛ لأن (في) إما أن تكون تفيد الظرفية، أو أنها بمعنى (على) وسيأتي أمثلة على ذلك يذكرها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إما أنها تكون تفيد الظرفية، أو بمعنى (على).

إذا كانت (في) بمعنى الظرفية، فالسماء هنا ليست المبنية، وإنما مُطلَق العلو؛ لأن السماء تارة تُطلَق ويراد بها: مطلق العلو، وتارة تُطلَق ويراد بها السماء المبنية.

مثلاً: قول الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة:٢٢] ما المراد بالسماء هنا: المبنية أو مطلق العلو؟

مطلق العلو؛ لأنك الآن إذا ركبت الطائرة تكون السماء المبنية فوقك والسحاب الذي ينزل منه المطر تحتك، فقوله: (﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٢]) المراد بالسماء مطلق العلو، ليس المراد السماء المبنية، فتارة السماء تُطلَق ويراد بها: مطلق العلو، وتارة تُطلَق السماء ويراد بها المبنية ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات].

إذاً قوله: (﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]) يحتمل أن السماء يراد بها المبنية، ويحتمل أن السماء يراد بها مطلق العلو؛ فإن أُرِيدَ بها مطلق العلو فـ(في) على بابه، (في السماء) أي: في العلو.

وأن أُرِيدَ بها المبنية، فـ(في) بمعنى (على)، وفي اللغة، وفي القرآن يأتي التعبير بـ(في) ويراد (على)، مثل قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٣٧].

أيضاً انظر في الحديث: «ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء»، (ارحموا مَنْ في الأرض) ماذا تفهم من (في) في أول الحديث؟ «ارحموا مَنْ في الأرض»..

لو قال قائل: أننا لا أفهم من (في) إلا الظرفية ومعنى ذلك الرحمة المطلوبة منّا في هذا الحديث على هذا الفهم أن الرحمة خاصة بمَنْ في بطن الأرض من الديدان، أما مَنْ يمشي على الأرض ما يشملهم الحديث؛ لأن (في) تفيد الظرفية!! هل يقول ذلك أحد؟! أو: هل يخطر ببال أحد وهو يقرأ الحديث «ارحموا مَنْ في الأرض» أي: مَنْ على الأرض، (في) بمعنى (على)، «ارحموا مَنْ في الأرض» أي: مَنْ يمشي على الأرض، «يرحمكم مَنْ في السماء» أي: مَنْ على السماء، أول الحديث يوضح لك آخره، «ارحموا مَنْ في الأرض» أي: مَنْ على الأرض، «يرحمكم مَنْ في السماء» أي: يرحمكم مَنْ على السماء.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وإذا كان الأمر هكذا: فمن التكلف أن يُجعَل ظاهر اللفظ شيئاً محالاً لا يفهمه الناس منه، ثم يريد أن يتأوله؛ بل عند المسلمين "أن الله في السماء" "وهو على العرش" واحد؛ إذ السماء إنما يراد به العلو فالمعنى أن الله في العلو لا في السفل، وقد علم المسلمون أن كرسيه سبحانه وسع السموات والأرض، وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن العرش خلْق من مخلوقات الله، لا نسبة له إلى قدرة الله وعظمته، فكيف يُتوهَّم بعد هذا أن خلْقاً يحصره ويحويه؟ وقد قال سبحانه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، وقال تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٣٧]، بمعنى (على) ونحو ذلك.

وهو كلام عربي حقيقة لا مجازاً، وهذا يعلمه مَنْ عرف حقائق معاني الحروف وأنها متواطئة في الغالب لا مشتركة.

يعني عرفنا الآن جواب شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن الفهم الخاطئ أو التوهم الخاطئ لكون الله في السماء كما دلَّ عليه القرآن في قوله: (﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦])، والسُّنة في مثل قوله: «يرحمكم مَنْ في السماء»، وأن (في)- مثل ما ذكرت- إن أُرِيدَ بها الظرفية فـ(في السماء) فالمراد بالسماء: أي

مطلق العلو، وأن أُرِيد بالسماء المبنية فإن (في) بمعنى (على)، فمعنى قوله: (﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]) أي: على السماء.

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يتبين لك أن (عند المسلمين "أن الله في السماء" "وهو على العرش") معناها واحد، (في السماء، وعلى العرش) كلها معناها واحد، وهذا لِمَنْ يفهم المعنى بعيداً عن تحريف أهل الباطل.

ثم ذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ المثال الآخر، لكن ما بقي معنا وقت.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

الدرس الرابع الثلاثون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وكذلك قول النبي ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قِبل وجهه فلا يبصق قِبل وجهه» الحديث حق على ظاهره؛ وهو أنه سبحانه فوق العرش، وهو قِبَل وجه المصلي؛ بل هذا الوصف يثبت للمخلوقات؛ فإن الإنسان لو أنه يناجي السماء ويناجي الشمس والقمر لكانت السماء والشمس والقمر فوقه وكانت أيضاً قِبل وجهه.

وقد ضرب النبي ﷺ المثل بذلك – ولله المثل الأعلى ولكن المقصود بالتمثيل بيان جواز هذا وإمكانه؛ لا تشبيه الخالق بالمخلوق– فقال النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيرى ربه مُخلياً به، فقال له أبو رزين العقيلي: كيف يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع؟ فقال النبي ﷺ: سأنبئك مثل ذلك في آلاء الله هذا القمر كلكم يراه مُخلياً به وهو آية من آيات الله؛ فالله أكبر» أو كما قال النبي ﷺ.

وقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر»؛ فشبَّه الرؤية بالرؤية، وإن لم يكن المرئي مشابهاً للمرئي، فالمؤمنون إذا رأوا ربهم يوم القيامة وناجوْه كل يراه فوقه قِبَل وجهه كما يرى الشمس والقمر ولا منافاة أصلاً.

ومَنْ كان له نصيب من المعرفة بالله والرسوخ في العلم بالله يكون إقراره بالكتاب والسُّنة على ما هما عليه أوكد.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، واجعل ما نتعلمه حُجة لنا لا علينا، وأصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد..

هذا المثال الثاني الذي يبين –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى من خلاله أن النصوص ليس فيها تناقض أو تعارض أو تضاد، ومَنْ ظنّ ذلك فإنما أُوتي من فهْمِه، وإلا فإن كلام الله ﷻ لا تعارض فيه ولا تناقض، وكذلك كلام النبي ﷺ الثابت عنه.

قد قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:٨٢].

وقد ذكر فيما سبق أدلة كثيرة في إثبات علو الله جل وعلا على خلقه، وذكر تَنوُّع الدلائل على عُلوه ﷻ على خلْقه، وأنه مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله.

ثم ذكر مثالين يظن بعض الناس أنهما يعارضان ما دلَّ عليه الكتاب والسُّنة من عُلو الله:

الأول: المعية: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد:٤]، ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة:٧]، وسبق جوابه –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى على ما يتعلق بهذا المثال.

وأما المثال الثاني فهو قول النبي ﷺ: («إذا قام أحدكم إلى الصــلاة فإن الله قِبل وجهه فلا يبصــق قِبل وجهه») مَنْ لا يُحسِــن الفهْم لهذا الحديث ربما ظن أن ظاهره.. أن الله ﷻ قِبَل وجهه: أي بينه وبين الحائط، أو مستقر في الحائط الذي أمامه، ربما ظن ذلك، فإذا وُجِد عنده هذا الظن رأى أن ذلك معارضاً الأدلة التي تثبت علو الله ﷻ، فيكون أُتِي من فهْمه، أُتِي من سوء فهْمه لكلام الرسول عَلَيۡهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ.

وأما قول النبي عَلَيۡهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ: (فإن الله قِبل وجهه)- أي: قِبَل وجه المصلي- لا يلزم منه هذا المعنى الذي فهمه هذا الإنسـان، لا يلزم منه ذلك؛ بل هو ﷻ قِبَل وجه المصـلي أينما توجه إلى الكعبة من أي مكان وهو ﷻ فوق عرشه المجيد، مستوٍ عليه استواءً يليق بجلاله وكماله.

وذكر -رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ تعالى مثالاً يوضــح ذلك قال: (لو أن الإنســان) وهذا مثال فقط للتوضــيح، لو أن الإنســان (يناجي الســماء) أو (يناجي الشــمس) أو يناجي (القمر) لكانت الســماء فوقه، والشــمس فوقه، والقمر فوقه، (وكانت أيضـاً قِبل وجهه)، والمسـافر يقول: (سرت والقمر قِبَل وجهي) وهو فوق؛ فلا تنافي بين الأمرين:

فقوله عَلَيۡهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ: (فإن الله قِبل وجهه) لا ينافي عُلو الله، بل علو الله ﷻ حق على حقيقته، وقوله: (قِبل وجهه) أيضاً معناه ظاهر.

قال: (وقد ضرب النبي عَلَيۡهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ المثل بذلك - ولله المثل الأعلى ولكن المقصـود بالتمثيل بيان جواز هذا وإمكانه؛ لا تشبيه الخالق بالمخلوق- فقال النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيرى ربه مُخلياً به، فقال له أبو رزين العقيلي: كيف يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع؟ فقال النبي ﷺ: سأنبئك مثل ذلك في آلاء الله هذا القمر كلكم يراه مُخلياً به وهو آية من آيات الله؛ فالله أكبر») أي: من ذلك..

وقوله هنـا: (فـالله أكبر) أي: أعظم وأجَلّ من ذلك ﷻ، وإنما هذا مثال أُرِيدَ به توضــيح هذا الأمر وجوازه، توضيح هذا الأمر وجواز هذا الأمر.

قال -رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ تعالى: وقال النبي ﷺ: («إنكم ســترون ربكم كما ترون الشــمس والقمر») وهذه الرؤية لله لا تتنافى مع العلو، وهذا الغرض من سوقه -رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ تعالى لهذا الحديث.

قال: (فشبَّه الرؤية بالرؤية، وإن لم يكن المرئي مشابهاً للمرئي) أن قوله: («إنكم سترون ربكم كما ترون الشــمس والقمر») التشــبيه هنا للرؤية بالرؤية لا للمرئي بالمرئي، ليس هذا تشــبيهاً لله بالقمر، وإنما تشــبيه لرؤية الإنسان لله برؤيته للقمر؛ بمعنى: أنها رؤية حقيقية.

(فالمؤمنون إذا رأوا ربهم يوم القيامة وناجوه كل يراه فوقه قِبَل وجهه كما يرى الشمس والقمر ولا منافاة أصلاً.

(ومَنْ كان له نصيب من المعرفة بالله والرسوخ في العلم بالله يكون إقراره بالكتاب والسُّنة على ما هما عليه أوكد).

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

واعلم أن من المتأخرين مَنْ يقول: مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد وهذا لفظ مجمل؛ فإن قوله: ظاهرها غير مراد يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدَثين؛ مثل أن يراد بكون «الله قِبَل وجه المصلي» أنه مستقر في الحائط الذي يصلي إليه، وأن «الله معنا» ظاهره أنه إلى جانبنا ونحو ذلك فلا شك أن هذا غير مراد.

ومَنْ قال: إن مذهب السلف أن هذا غير مراد فقد أصاب في المعنى لكن أخطأ في إطلاق القول بأن هذا هو ظاهر الآيات والأحاديث، فإن هذا المحال ليس هو الأظهر على ما قد بيناه في غير هذا الموضع.

اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس فيكون القائل لذلك مُصيباً بهذا الاعتبار، معذوراً في هذا الإطلاق.

فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس وهو من الأمور النسبية، وكان أحسن من هذا أن يبين لَمْنْ اعتقد أن هذا هو الظاهر أن هذا ليس هو الظاهر حتى يكون أعطى كلام الله وكلام رسوله حقه لفظاً ومعنى.

وإن كان الناقل عن السلف أراد بقوله: الظاهر غير مُراد عندهم أن المعاني التي ظهرت من هذه الآيات والأحاديث مما يليق بجلال الله وعظمته لا يختص بصفة المخلوقين بل هي واجبة لله أو جائزة عليه جوازاً ذهنياً أو جوازاً خارجياً غير مراد فقد أخطأ فيما نقله عن السلف أو تعمد الكذب؛ فما يمكن أحد قط أن ينقل عن واحد من السلف ما يدل - لا نصاً ولا ظاهراً - أنهم كانوا يعتقدون أن الله ليس فوق العرش، ولا أن الله ليس له سمع وبصر ويد حقيقة.

هنا ينبه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى على أمر وُجد عند المتأخرين وهو مبني عندهم على ما سبق من خطأ في الفهم لمراد الله ﷻ، فإن بعضهم يظهر له من معنى النص أمراً لا يليق بالله ﷻ، ويكون أُتِي من فهْمه، ثم يريد أن

يُنَزِّه الله ﷻ عن هذا المعنى الذي ظهر له، وظنّ أنه هو المراد من النص فيقول هذه الكلمة: إن ظاهر النص غير مراد، ماذا يقصد بقوله: إن ظاهر النص غير مراد؟

أي: هذا المعنى الذي هو فهمه من النص، لا المعنى الذي يدل عليه النص أصلاً، لأن النص القرآني أو النبوي لا يدل على باطل، لا يدل على تشبيه، فمَنْ فهِم منه التشبيه فهذا إنما أُتِي من سوء فهْمه.

ثم يبني على ذلك قوله: (إن ظاهر النص غير مراد) يقصد المعنى الذي ظهر له هو فيقول: إن ظاهر النص غير مراد، يريد أن يُنزِّه الله ﷻ عن المعنى الذي ظهر له.

فأصبحت هذه الكلمة (ظاهر النص هل هو مراد أو غير مراد) لفظة مجملة تحتاج إلى تفصيل، بمعنى: أن يُعرَف ماذا فهِم هذا الإنسان من ظاهر النص، مثل ما قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (وهذا لفظ مجمل)، عندما يقال: (هل الظاهر مراد أو غير مراد) لو سأل سائل قال: هل ظاهر النص مراد أو ليس مراداً؟.. هذا لفظ مُجمل، من أين أتى الإجمال إلى هذا اللفظ؟

من وجود فهوم خاطئة تظن في بعض النصوص معاني لا تليق بالله ﷻ، ويظنون أن هذا هو الذي يظهر من النص!!.

فإذا قال قائل: (هل ظاهر النص مراد أو ليس مراداً؟) لا بد أن يُزال أولاً الإجمال بالتفصيل؛ بمعنى: أن يُسأل: ماذا تريد؟، ماذا تفهم من الظاهر؟ إذا كان يفهم من الظاهر معنى لا يليق بالله يقال له: هذا المعنى الذي ذكرته ليس مراداً، وأيضاً ينبغي أن يُنبّه على أن هذا المعنى الذي ظهر له ليس هو الذي ظهر من النص مثل ما قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكان أحسن من هذا أن يبين لِمَنْ اعتقد أن هذا هو الظاهر أن هذا ليس هو الظاهر) أحسن من هذا.. يعني لا يُكتفى بأن يقال له: ليس هذا مراداً، لو قال قائل: إن ظاهر النص ليس مراداً، فقيل له: ماذا تفهم من الظاهر؟.. فذكر معنى لا يليق بالله، يقال له: إن هذا ليس مراداً، هذا المعنى ليس مراداً، ولا يُكتفَى بهذا، بل يقال له أيضاً: إن هذا المعنى الذي فهمته ليس هو ظاهر النص، لأنه لا يمكن أن يكون ظاهر نصوص الكتاب والسُّنة تشبيهاً، فمَنْ فَهِم منها معنى لا يليق بالله ﷻ فإنما أُتِي من فهْمه، قصور علمه، قِلّة بصيرته بكلام ربه وكلام رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وظاهر النص هو المعنى المتبادَر من النص اللائق بجلال الله، لأن ما أُضيف إلى الله ﷻ من النعوت والصفات فهو يخصّه جلّ وعلا، ويليق بجلاله وكماله وعظمته ﷻ.

أضْرِب مثالاً للتوضيح من غير ما ذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، لو أن قائلاً قال في قول الله ﷻ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، وقول الله ﷻ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] لو أن قائلاً قال: إن ظاهر هذا النص غير مراد، لو قال: إن ظاهر هذا النص غير مراد، ليس المراد إثبات يدين، قيل: لِمَ؟، قال: لأن الذي يظهر لي من هذا النص هو يدين تشبه ما عند المخلوق، ولا أفهم أنا إلا اليدين التي هي الجارحة التي هي صفة المخلوق، ولنا أُريد أُنزِّه الله ﷻ عن ذلك، فيقال له: هذا الذي فهمته من النص ليس مراداً، وليس هو أيضاً ظاهر النص؛ لأن اليدين في الآيتين الكريمتين أُضيفتا إلى الله جل في علاه، وما أضيف إلى الله جل وعلا فإنه يخصه ويليق بجلاله وكماله، فإن الصفة بحسب مَنْ أُضيفت إليه، فما أُضيف إلى الله جل وعلا فإنه يخصه جل وعلا، ويليق بجلاله وكماله.

فالصفة التي تضاف إليه ليست كالصفات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

فالشاهد: أن مَنْ فَهِم من نصوص الصفات معنى لا يليق بالله فإنما أُتِي من سوء فهْمه وقِلّة بصيرته بكلام ربّه، فإذا قال: إن هذا غير مراد- أي: المعنى الذي هو فهمه- يقال: المعنى الذي فهمته ليس مراداً، وليس هو أيضاً ظاهر النص.

والحاصل إذا قيل: هل ظاهر النص مرادا أو ليس مراد؟.. لا يُجاب هكذا ابتداءً بأن يقال: نعم. ظاهر النص مراد، أو ظاهر النص غير مراد.. حتى يُستفصل من السائل ويُنظَر ماذا فهِم من الظاهر؟

فإن فَهِم معنى حقاً ومعنى صحيحاً قيل: نعم. هذا هو الظاهر، وهو مراد، وإن فَهِم معنى لا يصح قيل: ليس هذا مراداً وليس هو ظاهر النص.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعال:

وقد رأيت هذا المعنى ينتحله بعض مَنْ يحكيه عن السلف ويقول: إن طريقة أهل التأويل هي في الحقيقة طريقة السلف- بمعنى: أن الفريقين اتفقوا على أن هذه الآيات والأحاديث لم تدل على صفات الله سبحانه- ولكن السلف أمسكوا عن تأويلها والمتأخرون رأوا المصلحة تأويلها لمسيس الحاجة إلى ذلك.

ويقول: الفرق أن هؤلاء يُعيّنون المراد بالتأويل، وأولئك لا يُعيِّنون لجواز أن يُراد غيره.

هنا يُنبّه رحمة الله عليه على أن مَنْ خاضوا في التأويل- تأويل نصوص الصفات- ثم نظروا إلى حال السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من الصحابة والتابعين فلم يجدوا عندهم شيئاً من التأويل إطلاقاً، كما هي الحال التي هم عليها، وهم أيضاً في الجملة يريدون انتحال والانتساب إلى السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، فماذا قالوا؟

يقولون: (إن طريقة أهل التأويل هي في الحقيقة طريقة السلف) مع أنهم يُقِرّون أن السلف لم يُنقَل عنهم شيء من التأويل إطلاقاً، فيقولون: إن طريقة التأويل هي طريقة السلف، كيف؟

قالوا: (بمعنى: أن الفريقين اتفقوا على أن هذه الآيات والأحاديث لم تدل على) الصفات؛ قالوا: (بمعنى: أن الفريقين) أي: السلف والخلف (اتفقوا على أن هذه الآيات والأحاديث لم تدل على) صفات، من أين هذا الاتفاق الذي يحكونه عن السلف والخلف؟ وأن السلف لا يرون أنها دالة على صفات الله ﷻ؟!

ومَنْ يتتبع نصوص السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى وأقاويلهم في هذا الباب يجد أنها واضحة وصريحة في إثباتهم المعنى، وإثباتهم الصفات لله ﷻ، وقد مرّ معنا على ذلك أمثلة عديدة.

قال: (ولكن السلف أمسكوا عن) التأويل (والمتأخرون رأوا المصلحة تأويلها)، السلف أمسكوا عن التأويل: بمعنى أن السلف- بزعم هؤلاء- ماذا؟

مُؤوِّلة.. لكن التأويل الذي عندهم تأويل مُجمَل، لم يفصلوا في التأويل مثل الخلف، اكتفوا بنفْيدلالة النص على الصفة، وتأوّلوها تأوّلاً مُجملاً لم يُعينوا تأويلاً، وإنما اعتقدوا أنها- بزعم هؤلاء- أنها مُؤوّلة، ولم يُعيِّنوا تأويلاً، أما الخلف رأوا من المصلحة تعيين التأويل (لمسيس الحاجة إلى ذلك).

وبناءً على ذلك قالوا مقالتهم التي ذكرها شيخ الإسلام في أوّل هذا الكتاب، وبيّن ما فيها من باطل، وهي قولهم: (مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم)، قالوا: مذهب الخلف أعلم وأحكم باعتبار أنهم فصّلوا في التأويل، وأما السلف فبزعمهم اكتفوا بالتأويل المُجمَل.

قال: (ويقول: الفرق أن هؤلاء يُعيّنون المراد بالتأويل) هؤلاء مَنْ؟ الخلف، (هؤلاء) أي: الخلف (يُعيّنون المراد بالتأويل، وأولئك لا يُعيِّنون لجواز أن يُراد غيره)، لو حذفت من هذا الموضع (طريقة السلف) هذه الكلمة وأبدلتها بـــ(طريقة المفوِّضة- مفوضة المعاني-) لكان الكلام صحيحاً، لو حذفت كلمة (طريقة السلف) وأثبت بدلها (طريقة المفوضة- مفوضة المعاني-) لكان الكلام صحيحاً ودقيق جداً في وصْف طريقة المفوضة مقارنةً لها بطريقة المؤولة، أما السلف فهُم براء من ذلك كله، لا من طريقة المفوضة- مفوضة المعاني-، ولا من طريقة أيضاً المؤولة، السلف براء من هذا ومن هذا.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى

وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف..

(وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف) السلف ليست هذه طريقتهم، الطريقتان اللتان مَرَّتا معنا: طريقة المؤولة وطريقة المفوضة- مفوضة المعاني-، أما السلف فهُم براء من ذلك.

وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف، أما في كثير من الصفات فقطعاً: مثل أن الله فوق العرش، فإن مَنْ تأمل كلام السلف المنقول عنهم- الذي لم يُحكَ هنا عُشْره- علم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العرش حقيقة، وأنهم ما اعتقدوا خلاف هذا قط، وكثير منهم قد صرّح في كثير من الصفات بمثل ذلك.

قال: (وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف) أي: مَنْ زعم أن السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى يقولون: إن الآيات والأحاديث لا تدل على صفات، وأنها مؤوَّلة، ولكنهم لم يُعيّنوا لها تأويلاً.. مَنْ قال ذلك فإنه كذب على السلف، والطريقة هذه التي يشار إليها إنما هي طريقة مفوِّضة المعاني من الخلف، أما السلف فليست هذه طريقتهم وحاشاهم أن يكون أحد منهم كذلك.

قال: (أما في كثير من الصفات فقطعاً: مثل أن الله فوق العرش، فإن مَنْ تأمل كلام السلف المنقول عنهم- الذي لم يُحكَ هنا عُشْره- علم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العرش حقيقة، وأنهم ما اعتقدوا خلاف هذا قط، وكثير منهم قد صرّح في كثير من الصفات بمثل ذلك)؛ مَنْ يُطالِع المنقول عن السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى من الصحابة والتابعين في هذا الباب يجد الأمر الذي قرره شيخ الإسلام هنا واضحاً في هدْي السلف وطريقتهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، وأن نصوص الصفات تلقوها بالقبول والإيمان والتسليم، وأثبتوا ما دلّت عليه من الصفات اللائقة بجلال الله وكماله وعظمته ﷻ، ولم يخوضوا فيها بتحريف أو تأويل، أو تكييف أو تمثيل؛ بل سلّمهم الله ﷻ من ذلك كله، وأثبتوا لله ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ، ونزَّهوه جلَّ وعلا عمّا نزّه عنه نفسه، ونزَّهه عنه رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولم يتجاوزوا في ذلك كتاب الله وسُنة نبيّه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

والله يعلم أني بعد البحث التام ومطالعة ما أمكن من كلام السلف ما رأيت كلام أحد منهم يدل - لا نصاً ولا ظاهراً ولا بالقرائن- على نفْي الصفات الخبرية في نفس الأمر؛ بل الذي رأيته أن كثيراً من كلامهم يدل- إما نصاً وإما ظاهراً - على تقرير جنس هذه الصفات، ولا أنقل عن كل واحد منهم إثبات كل صفة؛ بل للذي رأيته أنهم يثبتون جنسها في الجملة، وما رأيت أحداً منهم نفاها، وإنما ينفون التشبيه، وينكرون على المشبِّهة الذين يُشبِّهون الله بخلْقه مع إنكارهم على مَنْ نفى الصفات كقول نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: مَنْ شبَّه الله بخلقه فقد كَفَر، ومَنْ جَحَد ما وصف الله به نفسه فقد كَفَر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً.

نعم يؤجَّل هذا إلى اللقاء القادم، ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلِح لنا شأننا كله وأن يجعلنا هداة مُهتدين، غير ضالين ولا مُضلين، وأن يُزَيِّننا بزينة الإيمان، وأن يُصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يُصلِح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير والموت راحةً لنا من كل شر.

اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، زَكِّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللهم اقسِم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

الدرس الخامس الثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

والله يعلم أني بعد البحث التام ومطالعتي ما أمكن من كلام السلف ما رأيت كلام أحد منهم يدل -لا نصاً ولا ظاهراً ولا بالقرائن- على نفْي الصفات الخبرية في نفس الأمر؛ بل الذي رأيته أن كثيراً من كلامهم يدل- إما نصاً وإما ظاهراً- على تقرير جنس هذه الصفات، ولا أنقل عن كل واحد منهم إثبات كل صفة؛ بل الذي رأيته أنهم يثبتون جنسها في الجملة، وما رأيت أحداً منهم نفاها، وإنما ينفون التشبيه، وينكرون على المشبِّهة للذين يُشبِّهون الله بخلْقه مع إنكارهم على مَنْ نفى الصفات كقول نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: مَنْ شبَّه الله بخلقه فقد كَفَر، ومَنْ جَحَد ما وصف الله به نفسه فقد كَفَر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

يذكر هنا شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أنه بتتبعه لأقاويل السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وتقريراتهم في باب الأسماء والصفات، وأنه بعد البحث التام- أي: في دواوين أهل العلم المشتملة على نقْل المأثور عن السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى- أنه ما رأى في كلامهم ما يدل (على نفْي الصفات الخبرية) والصفات الخبرية يراد بها الصفات التي دلَّ عليها الخبر (كتاب الله وسُنة نبيّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) أي: أن جادة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى في هذه الصفات: إمرارها كما جاءت والإيمان بها كما وردت، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً لله تبارك وتعالى بلا تعطيل على حدِّ قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

وفي مثل هذا السياق في بعض كُتبه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قال: طالعت مائة كتاب في التفسير أو أكثر للسلف، فلم أرَ في شيء منها نفْياً للصفات أو تأويلاً لها.

وقال في مناظرته -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى لبعض خصومه من المتكلمين: أُمهلكم ثلاث سنوات أن تنظروا في كتب السلف، وتُخرِجوا نقْلاً واحداً عن واحد منهم أنه تأوّل شيئاً من صفات الله تبارك وتعالى، مُبيِّناً -رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن جادة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى في ذلك واضحة وظاهرة وبيّنة وهي: إمرار النصوص كما جاءت، والإيمان بها كما وردت.

قال: (الذي رأيته أن كثيراً من كلامهم يدل- إما نصاً وإما ظاهراً - على تقرير جنس هذه الصفات) أي: أن السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى تضمنت أقوالهم إثبات ما دلّت عليه هذه النصوص من صفاتٍ لله تبارك وتعالى، بل نُقِل عنهم- كما أشار -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بقوله-: (ولا أنقل عن كل واحد منهم إثبات كل صفة) لأن الإثبات إجمالاً وإمرار النصوص على ظاهرها كما جاءت كافٍ في تقرير منهجهم، لكن مع ذلك تجد في أفراد كلامهم والمأثور عنهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى التنصيص على إثبات صفات معينة مثل: العلو، أو الاستواء، أو الرضا، أو النزول، أو غير ذلك من صفات الله تبارك وتعالى التي وردت في كتاب الله ﷻ، وسُنة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإنما ينفون التشبيه، وينكرون على المشبِّهة الذين يُشبِّهون الله بخلْقه) أي: جاءت عنهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ نقولات في نفْي التشبيه كما قال الله ﷻ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥] أي: لا سَمي له ولا نظير، كما قال جلَّ وعلا: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فجاء عن السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى نقول في نفْي التشبيه عن الله، فهُم يثبتون الصفات لله ﷻ على وجه يليق بجلال الرب وكماله وعظمته سبحانه مع تنزيهه تبارك وتعالى عن مماثلة المخلوقات.

تنبه لقوله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ينكرون على المشبِّهة) (مع إنكارهم على مَنْ نفى الصفات) لأن كلاً من التشبيه ونفْي الصفات باطل، والحق هُدى بين هاتين الضلالتين، وحسنةً بين هاتين السيئتين: سيئة التشبيه، وسيئة التعطيل، والحق وسط، وهو إثبات للصفات بلا تمثيل، وتنزيه للرب تبارك وتعالى عن مشابهة المخلوقات بلا تعطيل، فمَنْ نفى الصفات فقد أبطل، ومَنْ شَبَّه الله تبارك وتعالى بالمخلوقات فقد أبطل- تعالى الله عمّا يقول هؤلاء وهؤلاء-، والحق قوام بين ذلك، الحق: إثبات الصفات لله تبارك وتعالى على الوجه اللائق بجلاله وكماله وعظمته مع تنزيهه جلّ في عُلاه عن مشابهة المخلوقات على حد قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فإن قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١] ردٌّ على المشبِّهة، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ردٌّ على المعطِّلة.

قال: (كقول نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: مَنْ شبَّه الله بخلقه فقد كَفَر، ومَنْ جَحَد ما وصف الله به نفسه فقد كَفَر) فالتشبيه والتعطيل كلٌّ منهما خطيئة، كلٌّ منهما كُفْر، تشبيه الله بالمخلوقات كُفْر، ونَفْي صفات الله ﷻ كُفْر، مَنْ ينفي أسماء الله أو صفاته فهذا كُفْر مثل ما قال الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد:٣٠]، عندما جحد المشركون هذا الاسم عناداً.

فجحْد أسماء الله وصفاته كُفْر، وتشبيه الله ﷻ بالمخلوقات كُفْر.

قال: (وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله ﷺ تشبيهاً) الذي وصف الله ﷻ به نفسه أضافه إلى نفسه، وما أضافه جلّ وعلا لنفسه فهو يخصه ويليق بجلاله وكماله وعظمته.

وما يلزم الصفة باعتبار إضافتها إلى المخلوق من نقْص لا يجوز بأي حال من الأحوال أن يُجعَل لازماً للصفة باعتبار إضافتها إلى الله؛ لأن الصفة إذا أُضيفت إلى الله تبارك وتعالى فإنها تخص الرب جلّ وعلا، وتليق بجلاله وكماله، إذا قرأت قول الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] من أعظم الإثم وأكبر الجرم أن يخطر ببالك أو تظن أنها مثل يد الإنسان- تعالى الله-، أو غير ذلك من صفاته، الاستواء مثلاً- استواء الرب جلّ وعلا- كل صفة سواء كانت فعلية أو ذاتية فهي تخص الرب وتليق بعظمة الرب وجلاله، وكما أنه سبحانه له ذات لا كالذوات فلَهُ صفات لا كالصفات تليق بجلاله وكماله وعظمته ﷻ.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وكانوا إذا رأوا الرجل قد أغرق في نفْي التشبيه من غير إثبات الصفات قالوا: جهمي مُعطِّل؛ وهذا كثير جداً في كلامهم، فإن الجهمية والمعتزلة إلى اليوم يُسمون مَنْ أثبت شيئاً من الصفات مُشَبِّهاً- كذباً منهم وافتراءً- حتى إن منهم مَنْ غلا ورمى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك، حتى قال ثمامة بن أشرس من رؤوس الجهمية: ثلاثة من الأنبياء مُشبِّهة؛ موسى حيث قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف:١٥٥]، وعيسى حيث قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦]، ومحمد حيث قال: «ينزل ربنا».

(وكانوا) أي: السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ (إذا رأوا الرجل قد أغرق في نفْي التشبيه من غير إثبات الصفات قالوا: جهمي مُعطِّل) إذا (أغرق في نفْي التشبيه من غير إثبات الصفات) أي: أصبح المعتقد عنده في باب الصفات مجرد النفي تنزيهاً لله تبارك وتعالى ولا يثبت شيئاً من الصفات لله ﷻ، فكانوا مَنْ يرونه كذلك يعدّونه جهمياً مُعطِّلاً.

قال: والجهمية والمعتزلة إلى يومنا هذا (يُســمون مَنْ أثبت شــيئاً من الصــفات مُشَــبِّهاً- كذباً منهم وافتراءً-) هنا سؤال: لماذا الجهمية والمعتزلة يسمون مَنْ أثبت شيئاً من الصفات مُشبِّهاً؟ ما السبب؟

لأن القوم لم يفهموا من النصوص إلا التشبيه، فَهُم شبَّهوا أولاً فعطّلوا ثانياً.

فهُم لم يفهموا من النصــوص إلا التشــبيه: فهُم شــبّهوا أولاً، ولهذا قال الســلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: كل مُعطِّل مُشَبِّه، لأنه لم يُعطِّل إلا بسبب التشبيه الذي قام في نفسه، ولأجل ذلك مَنْ يثبت الصفات عندهم مُشبِّهاً.. يعدُّونه مُشَبِّهاً.. لماذا؟

لأنهم هم أصـلاً لا يفهمون من هذه النصـوص وظاهرها إلا التشـبيه، ولأجل ذا عطّلوها، ونفوها عن الله ﷻ.

أما صـاحب السُّـنة، صـاحب الحق فبرّأه الله من كلا الباطلين- باطل التشـبيه وباطل التعطيل؛- فأثبت الصفة لله ﷻ على الوجه اللائق بجلاله ﷻ وكماله.

قـال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حتى إن منهم مَنْ غلا) أي: من هؤلاء الجهميـة والمعتزلـة (ورمى الأنبيـاء عليهم صلوات الله وسلامه بذلك) أي: بالتشبيه، (ورمى الأنبياء بذلك).

وذكر مثالاً لهذا عن ثمامة بن أشرس من رؤوس الجهمية، ويُنقَل أيضـاً نحو هذا عن ابن أبي دؤاد، أن (ثلاثة من الأنبياء) -يقول.. تعالى الله عمّا يقول، وبرّأ الله سـبحانه ونزَّه أنبياءه عن كل باطل هؤلاء- يقول: (ثلاثة من الأنبياء مُشـبِّهة؛ موسـى حيث قال: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ [الأعراف:١٥٥]، وعيسـى حيث قال: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة:١١٦]، ومحمـد حيث قال: «ينزل ربنا») وهـذا كله مبني على ما سـبق، اعتقاد هؤلاء أن هذه الظواهر تدل على التشـبيه، اعتقادهم أنها تدل على التشـبيه، وهذا الحقيقة أنه شيء قام في نفوسـهم التي زاغت وانحرفت عن سـواء الصراط، أما النَّص فإنه لا يدل على هذا المعنى الذي فهموه، وإنما يدل على معنى يليق بجلال الله وكماله وعظمته ﷻ.

فعندما قال نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ينزل ربنا» لم يُرِد بذلك كنزول المخلوقين، وما يلزم نزول المخلوق من نقْص فهذا لا يلزم في نزول الرب تبارك وتعالى لأن ما يضـاف إلى الله سبحانه من الصـفات يليق بجلال الرب وكماله وعظمته ﷻ.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وحتى إن جُلّ المعتزلة تُدخِل عامة الأئمة: مثل مالك وأصحابه، والثوري وأصحابه، والأوزاعي وأصحابه، والشافعي وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد وغيرهم في قسم المشبهة.

يعني لم يتوقف الرمي بالتشبيه عند حد؛ بل كل مَنْ عرفوا عنه أنه يثبت الصفات لله، ويُمِرّها كما جاءت ويؤمن بها كما وردت فإنهم يرمونه بالتشبيه، ولهذا رموا الإمام مالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب هؤلاء، وتلاميذهم، وجميع مَنْ كان من أهل السُّنة مُثبتاً لصفات الله تبارك وتعالى فإن الجهمية والمعتزلة وعموم المعطِّلة لصفات الله تبارك وتعالى يرمون هؤلاء بالتشبيه.

والسبب- بيّنته قبل قليل- وهو: أن هؤلاء لم يفهموا من نصوص الصفات إلا التشبيه فيعدّون كل مَنْ أثبت الصفات مُشَبِّهاً لأنهم يظنون أنه يثبتها على المعنى الذي هم فهموه من تلك النصوص.

والواقع: أن أهل السُّنة يثبتون الصفات لله على وجه يليق بجلال الله وكماله وعظمته ﷻ، فَهُم يثبتون ويُنَزِّهون، يثبتون الصفة لله على وجه يليق بجلاله، وفي الوقت نفسه يُنَزِّهون الله تبارك وتعالى عن مماثلة ومشابهة المخلوقات.

ومرَّ معنا من كلامهم أنهم يعدّون التعطيل كُفْراً، ويعدّون أيضاً التشبيه كُفْراً.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وقد صنَّف أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن درباس الشافعي جزءاً أسماه: تنزيه الشريعة عن الألقاب الشنيعة، وذَكَر فيه كلام السلف وغيرهم في معاني هذه الألقاب، وذَكَر أن أهل البدع كل صنف منهم يُلقِّب أهل السُّنة بلقب افتراه- يزعم أنه صحيح على رأيه الفاسد- كما أن المشركين كانوا يُلقبون النبي ﷺ بألقاب افتروها.

فالروافض تسميهم نواصب، والقدرية يسمونهم مُجبِرة، والمرجئة يسمونهم شُكَّاكاً، والجهمية تسميهم مُشَبّهة، وأهل الكلام يسمونهم: حشوية، ونوابت، وغثاء، وغثراً إلى أمثال ذلك.

كما كانت قريش تسمي النبي ﷺ تارة مجنوناً، وتارة شاعراً، وتارة كاهناً، وتارة مفترياً.

قال-رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد صنَّف أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن درباس الشافعي جزءاً أسماه: تنزيه الشريعة عن الألقاب الشنيعة) وذلك أن أهل الضلال والبدع-أياً كانوا- دأبوا على رمي أهل السُّنة بألقاب

بقصْد الشناعة عليهم وتنفير الناس منهم، وكل من أهل البدع يُلقِّب أهل السُّنة بألقاب شنيعة تتعلق بالجانب الذي ابتدع فيه هذا الملقِّب كما سيتضح بالأمثلة التي ذكرها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

وبيّن أن المشركين قبل هؤلاء كانوا يُلقِّبون النبي ﷺ بألقاب افتروها عليه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه- كما سيأتي في كلامه- كانت تسميه (تارة مجنوناً، وتارة شاعراً، وتارة كاهناً، وتارة مفترياً)، كل ذلك بقصْد التنفير عن دعوته، حتى يستوحش الناس من دعوته، ويقع عندهم نفور منها، ولكي لا يُقبل أحد على هذه الدعوة.

وقد دأب أهل الباطل على سلوك هذا المسلك للتنفير من أهل الحق، يُلقّبونهم بالألقاب الشنيعة من أجل أن تنفر العوام والجُهّال من دعوة الحق والهدى.

في مبعث النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان المشركون كلما رأوا شخصاً غريباً وصل إلى مكة أخذوا يتحدثون ويُسمعونه: (محمد مجنون)، وكلما مر الغريب في طريق قال: (محمد مجنون)، هذا الكلام يجعل في نفس كل مَنْ يدخل مكة نُفْرةً من سماع كلام النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، يجعل في نفسه نُفرة من سماعه، ونفسه لا تُقبِل على سماعه؛ وبهذه الطريقة صد هؤلاء كثير من الناس عن الحق والهدى.

أيضاً أهل الباطل سلكوا المسلك نفسه؛ جاءوا بألقاب وقصدوا بها الشناعة على أهل الحق تنفيراً للناس عن سماع كلامهم.

جاء في صحيح مسلم أن ضماد الأزدي وكان سيداً في قومه دخل مكة، وذكر أنه لما دخل مكة كلما مر في طريق يسمع (محمد مجنون، محمد مجنون) قال: فقلت في نفسي: إنني رجل راقي، أرقي مَنْ به جنون، وإن الله شفى على يدي مَنْ شاء من عباده، ولئن رأيت محمداً لأرقينه لعل الله يشفيه على يدي، فرغب أن يلقى محمداً عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذه النيّة- أن يقرأ عليه- لعله يُشفَى، بناءً على ما يسمع في طرقات مكة.

يقول: فلقيت محمداً ﷺ، وقلت له: إنني رجل راقي، وإن الله شفى على يدي ما شاء من عباده، فهل لك في ذلك؟، تحب أن أقرأ عليك؟ هل لك في ذلك؟.. يخاطب النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

استمع له ﷺ حتى انتهى من حديثه، وقال له: انتهيت؟ ثم قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مُضِل له، ومَنْ يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال: أعد عليّ كلامك هذا..المقاييس تغيرت.. أعد عليّ كلامك هذا.

فأعاده النبي ﷺ، قال: والله لقد سمعت كلام المجانين، ما هذا بكلامهم، وسمعت كلام الكُهّان ما هذا بكلامهم، وسمعت كلام الشعراء ما هذا بكلامهم، ولقد بلغت كلماتك هذه قاموس البحر، يعني دخلت- كما نُعبِّر- في الصميم (في العمق)، أعطني يديك أبايعك على الإسلام، وكان سيداً في قومه، قال: عنك وعن قومك؟، قال: عني وعن قومي، وبايع النبي ﷺ على الإسلام.

الشاهد من ذِكْر القصة: أن كان من طريقة أهل الشرك والباطل تنفير أهل الحق، التنفير عن أهل الحق بإطلاق الألقاب الشنيعة.

خذ أمثلة على ذلك مما ذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: (فالروافض تسميهم) أي: أهل السُّنة (نواصب)، ومعنى (نواصب) أي: نصبوا العداء لآل البيت، وأنهم يبغضون آل بيت النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا يحبونهم، وربما أيضاً قالوا: يشتمون آل بيت النبي، ويطعنون فيهم، ولا يحترمونهم، كثيراً ما يقولون ذلك.

وممَّنْ قيل في حقه هذا الكلام كثيراً: الإمام المصلِح المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كثيراً ما قال خصومه وأعداؤه أنه يبغض آل بيت النبي صلوات الله وسلامه عليه، مع أن مَنْ يُطالِع كتبه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجد حِفظه لمكانة آل البيت وحقهم أمراً ظاهراً في كتبه وثناءه عليهم، واعتباره لقدرهم ومكانتهم، وكان -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى شديد الحب لآل بيت النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، حتى إنه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ سمَّى عامة أبناءه بأسماء آل البيت -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أبناؤه هم: علي، والحسن، والحسين، وفاطمة، وعبد الله، وعبد العزيز، فقط عبد العزيز الذي هو ليس من أسماء البيت، وبقية أبنائه كلهم من أسماء آل البيت، هذا يُعبِّر عن ماذا؟ عن حب أو بُغض؟

أبناء الإنسان أحب ما يكون إليه هل يسميهم بأسماء مَنْ يبغضهم ويعاديهم؟

ولا يزال في أسرته هذه الأسماء باقية: الحسن، والحسين، هذه الأسماء كلها باقية إلى الآن في أسرة الشيخ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

فمن طريقة أهل الباطل تنفيراً عن أهل الحق والهدى رمْيهم بهذه الألقاب، لكن لك أن تسأل: لماذا سمّت الروافض أهل السُّنة نواصب؟ لماذا؟

لأن الروافض ليس عندهم حب صادق إيماني لأهل البيت، وإنما عندهم غلو في أهل البيت، ومن غُلوهم في أهل البيت أنهم يعبدونهم من دون الله، ويذبحون له وينذرون ويعطونهم من الأوصاف ما لا يليق إلا بالله ﷻ.

يقولون عن آل البيت: أنهم يعلمون ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، يَنُصُّون على ذلك في كُتبهم، وأهل السُّنة يقولون: هذا باطل، وينكرون هذا الباطل الذي يقوله هؤلاء.

فلما رأوا أهل السُّنة ينكرون هذا الباطل الذي يقوله هؤلاء في آل البيت لقبوهم بهذه الألقاب، والواقع: أن أهل السُّنة جمع لهم الله ﷻ المحبة الصادقة لآل البيت مع عدم الغلو في آل البيت، جمع لهم المحبة الصادقة لآل بيت النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع عدم الغلو، أما الروافض لا محبة صادقة وغلو في آل بيت النبي صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: (والقدرية يسمونهم مُجبِرة) القدرية يُراد بهم هنا: القدرية النفاة- نفاة القدر- الذي يقولون: لا قدر، وأن أفعال العباد ليست أموراً قدّرها الله وكتبها على العباد، وإنما هي أشياء فعلها العباد وهم الخالقون لها، وليس الله ﷻ الخالق لأفعال العباد.

فالقدرية يسمون أهل السُّنة مُجبِرة لإثباتهم القدر، ومعنى مُجبِرة: أي يقولون بالجبر، أن الإنسان مجبور على فِعْل نفسه، والواقع: أن هذه العقيدة- عقيدة الجبر- إنما هي عقيدة أهل التجهم- الجهمية- فَهُم الذين يقولون: بأن الإنسان مجبور على فِعْل نفسه، وليس له مشيئة، ويقولون: إنه كالورقة في مهب الريح.

أما أهل السُّنة فقد برَّأهم الله ﷻ من نفْي القدر، ومن الجبر الذي هو عقيدة الجهمية، وقولهم وسط بين هاتين الضلالتين- ضلالة القدرية وضلالة الجبرية-.

(والمرجئة يسمونهم شُكَّاكاً) المرجئة: الذين يُخرِجون العمل من مُسمَّى الإيمان، ويعتبرون الأعمال ليست داخلة في مُسمَّى الإيمان يسمون أهل السُّنة شُكّاكاً، لأن أهل السُّنة يعدُّون الأعمال من الإيمان، والإيمان- كما قال النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-: «بضع وسبعون شعبة أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شُعب الإيمان» ويقولون: بالاستثناء في الإيمان، إذا قيل: أمؤمن أنت؟ قال: إن شاء الله، أو قال: أرجو.. لأسباب؛ منها: أنه لا يدّعي لنفسه أنه كمّل أعمال الإيمان وتممها، ولا يدّعي لنفسه أن أعماله مُتقبَّلة، يعمل لكن يخاف أن يكون في عمله شيء من النقص الذي يستوجب الرد ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون]، ويستثنون لا عن شك في أصل الإيمان.

فلما كان المرجئة الذين يُخرِجون العمل من مُسمَّى الإيمان لا يُعون هذه الحقيقة ولا يفهمون أمور الدين هذا الفهم، لما وجدوا أهل السُّنة يقولون بالاستثناء في الإيمان رموهم بأنهم شُكَّاك، أي: أهل شك في

إيمانهم، وليس قول أهل السُّنة (أنا مؤمن إن شاء الله، أو: أنا مؤمن أرجو) عن شك في أصل الإيمان، وإنما عن شك في تكميل الإيمان، وتتميمه، وشك في قبول الأعمال كما في الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] أي: خائفة، أن لا تُقبَل منهم أعمالهم، كما يبين ذلك حديث النبي الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: (والجهمية تسميهم مُشَبّهة) والجهمية تسميهم- أي: أهل السُّنة- مُشَبِّهة، لماذا؟

لأن أولئك لا يفهمون من النصوص إلا التشبيه، ولما رأوا أهل السُّنة يثبتونها ظنوا أنهم يثبتونها على الوجه الذي هم يفهمونه- أعني: الجهمية-.

وعرفنا أن جادة أهل السُّنة: إثبات هذه النصوص- نصوص الصفات- على المعنى الذي يليق بجلال الله وكماله.

قال: (وأهل الكلام يسمونهم: حشوية) والحشو: حشو الكلام ما لا نفْع فيه ولا فائدة.

ويسمونهم (نوابت، وغثاء، وغثراً) كل هذه كلمات تعني أن أهل السُّنة ليس عندهم إلا رداءة القول، وكلام لا نفْع فيه وحشو من الكلام لا فائدة فيه، فيسمونهم بذلك.

وتسميتهم لذلك: لما رأوا من أهل السُّنة من عناية بالنصوص وجمْع لها، واهتمام بها، وعناية بإيرادها وضبْطها، فسموا ذلك حشواً، وغُثرا، وأموراً لا فائدة فيها، وإذا لم تكن الفائدة بالعناية في النصوص- نصوص الشرع- فأين تكون الفائدة؟، وإذا لم يكن العلم والهدى في العناية بالكتاب والسُّنة فأين يكون العلم والهدى؟!

قال: (إلى أمثال ذلك كما كانت قريش تسمي النبي ﷺ تارة مجنوناً، وتارة شاعراً، وتارة كاهناً، وتارة مفترياً) كل ذلك تنفيراً عن دعوته وعن الحق الذي جاء به عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

قالوا: وهذه علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامة، فإن السُّنة هي ما كان عليه رسول الله ﷺ اعتقاداً واقتصاداً، وقولاً وعملاً؛ فكما أن المنحرفين عنه يسمونه بأسماء مذمومة مكذوبة - وإن اعتقدوا صِدْقها بناءً على عقيدتهم الفاسدة - فكذلك التابعون له على بصيرة، الذين هم أولى الناس به في المحيا والممات، باطناً وظاهراً.

أما الذين وافقوه ببواطنهم وعجزوا عن إقامة الظواهر، والذين وافقوه بظواهرهم وعجزوا عن تحقيق البواطن، أو الذين وافقوه ظاهراً وباطناً بحسب الإمكان: لا بد للمنحرفين عن سُنته أن يعتقدوا فيها نقصاً يذمونهم به، ويسمونهم بأسماء مكذوبة - وإن اعتقدوا صِدْقها - كقول الرافضي: مَنْ لم يبغض أبا بكر وعمر فقد أبغض علياً؛ لأنه لا ولاية لعلي إلا بالبراءة منهما، ثم يجعل مَنْ أحب أبا بكر وعمر ناصبياً بناءً على هذه الملازمة الباطلة التي اعتقدوها صحيحة، أو عاندوا فيها وهو الغالب.

يؤجل هذا للقاء الغد بإذن الله ﷻ.

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبُلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ عِلمنا، ولا تُسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

شرح الفتوى الحموية الكبرى

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله

الدرس (٣٦) والدرس (٣٧)

الشيخ لم يراجع التفريغ

الدرس السادس والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

قالوا: وهذه علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامة، فإن السُّنة هي ما كان عليه رسول الله ﷺ اعتقاداً واقتصاداً، وقولاً وعملاً؛ فكما أن المنحرفين عنه يسمونه بأسماء مذمومة مكذوبة- وإن اعتقدوا صِدْقها بناءً على عقيدتهم الفاسدة- فكذلك التابعون له على بصيرة، الذين هم أولى الناس به في المحيا والممات، باطناً وظاهراً.

أما الذين وافقوه ببواطنهم وعجزوا عن إقامة الظواهر، والذين وافقوه بظواهرهم وعجزوا عن تحقيق البواطن، أو الذين وافقوه ظاهراً وباطناً بحسب الإمكان: لا بد للمنحرفين عن سُنته أن يعتقدوا فيها نقصاً يذمونهم به، ويسمونهم بأسماء مكذوبة- وإن اعتقدوا صِدْقها- كقول الرافضي: مَنْ لم يبغض أبا بكر وعمر فقد أبغض علياً؛ لأنه لا ولاية لعلي إلا بالبراءة منهما، ثم يجعلوا مَنْ أحب أبا بكر وعمر ناصبياً بناءً على هذه الملازمة الباطلة التي اعتقدوها صحيحة، أو عاندوا فيها وهو الغالب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأَصلِح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد..

بعد أن أشار -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى إلى أن من طريقة أهل الأهواء والبدع- بعموم أصنافهم- تلقيب أهل السُّنة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى بالألقاب الشنيعة بقصْد التنفير عنهم والصد عن الحق الذي يدعون إليه، وأن من قبل كان المشركون يُلقِّبون النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بألقاب يقصدون منها التنفير من دعوته، كقولهم: شاعر، أو مجنون، أو كاهن، أو غير ذلك.

لما ذكر ذلك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (قالوا) أي: أهل السُّنة (وهذه علامة الإرث الصحيح)؛ الإرث: أي إرث النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً»، فعلامة هذا الإرث- أي: أن الرجل فعلاً ورث عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-: أن يصيبه ما أصاب النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وما أصاب الأنبياء من قبله من التُّهم الجائرة التي تكون من أعداء الرسل وخصومهم، فإن مثله يكون لأهل السُّنة من أعداء الحق وخصوم الحق.

قال: (وهذه علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامة) أي: للنبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: (فإن السُّنة هي ما كان عليه رسول الله ﷺ اعتقاداً واقتصاداً، وقولاً وعملاً) هذا تبيان منه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى لِمَنْ يكون حقاً من أهل السُّنة، وأن السُّنة يكون الرجل من أهلها بالمظهر والمخبر، بالقول والعمل، بالعقيدة والشريعة، بهذا يكون صاحب سُنة، يكون متبعاً سُنة النبي ﷺ قلباً وقالباً، علماً وعملاً، عقيدةً وعبادة، يكون نهجه في ذلك كله نهْج النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: (واقتصاداً) الاقتصاد: هو الاعتدال والقوام والتوسط بين الغلو والجفاء، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [البقرة:١٤٣]، وفي الأثر: (اقتصاد في سُنة خير من اجتهاد في بدعة)، الاقتصاد: هو التوسط والاعتدال، ومنه: قول الله تعالى: ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ﴾ [لقمان:١٩] أي: توسط.

قال: (فكما أن المنحرفين عنه يسمونه بأسماء مذمومة مكذوبة) أي: مثل ما تقدم شاعر، وكاهن، ومجنون.. إلى آخره (وإن اعتقدوا صِدْقها بناءً على عقيدتهم الفاسدة- فكذلك التابعون له على بصيرة، الذين هم أولى الناس به في المحيا والمات، باطناً وظاهراً) أي: لا بد أن يصيبهم مثل ذلك.

وذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أن أحوال الناس مع السُّنة ينقسمون إلى أربعة أقسام، بيّنها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

الأول: وهم أهل السُّنة حقاً، وهم مَن كانوا على السُّنة اعتقاداً واقتصاداً، وقولاً وعملاً، قلباً وقالباً.

والقسم الثاني: مَنْ وافق بالباطن وعجز عن إقامة الظاهر.

والثالث: الذي وافق بالظاهر وعجز عن تحقيق الباطن.

والرابع: الذي وافق ظاهراً وباطناً بحسب الإمكان.

وصاحب السُّنة حقاً هو مَنْ وافق السّنة ظاهراً وباطناً، قولاً واعتقاداً، عقيدةً وعبادة، مكَمِّلاً ذلك، مُتمِّماً له، ومَنْ كان كذلك لا بد أن يصيبه من الأذى ما أصاب النبيين عليهم صلوات الله وسلامه.

وبيّن -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن الألقاب التي يُلقِّبون بها أهل السُّنة على وجه الشناعة عليهم كل صاحب بدعة ينبع تلقيبه لصاحب السُّنة من نوع بدعتهم، وضرب على ذلك أمثلةً عديدة.

قال ذاكراً المثال الأول: (كقول الرافضي: مَنْ لم يبغض أبا بكر وعمر فقد أبغض علياً) انظر التلازم! الذي نشأ ليس من حقيقة الأمر، لأن الذي بين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي من المحبة والأخوة والتآلف والتآزر والتعاون أشد ما يكون من معاني الأخوة، لم يكن بينهم شيء من البغضاء والعداوة؛ بل كان بينهم من أشد ما يكون من معاني المحبة والأخوة والتآلف، ألّف الله ﷻ بين قلوبهم، وجمع بين قلوبهم أُلفة ومحبةً عظيمة، أُخوة الإيمان، رابطة الدين التي هي أوثق الروابط وأعظمها على الإطلاق.

لكن لّما وُجِد عند هؤلاء الروافض الضلال العظيم والفساد العريض طعناً في أصحاب النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولاسيما في خيار الصحابة (أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا) وهما عند الروافض من شر الناس، هكذا عقيدتهم الباطلة، فلما كان هذا اعتقادهم بنوا عليه هذا القول: (مَنْ لم يبغض أبا بكر وعمر فقد أبغض علياً؛ لأنه) أي: عندهم (لا ولاية لعلي إلا بالبراءة منهما) ولا له أي محبة، (لا ولاية لعلي) أي: لا محبة لعلي (إلا بالبراءة منهما)؛ ولهذا مرَّ معنا أنهم يقولون: (لا ولاء إلا ببراء) لا ولاء لعلي إلا بالبراء من الشيخين أبي بكر وعمر.

(ثم يجعل)- أي الرافضي- (مَنْ أحب أبا بكر وعمر ناصبياً) ومعنى ناصبياً: أي أنه نصب العداء لآل البيت.. مع أنه لا يُعلَم مَنْ أحسن في المحبة لآل البيت والمعرفة بقدرهم العظيم ومكانتهم العَلِيّة ومنزلتهم الرفيعة مثل أهل السُّنة والجماعة، ولا يُعرَف أحد حفظ وصية النبي ﷺ في آل بيته في خطبته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندما أوصى بآل بيته ﷺ، وكرر الوصية بذلك، لا يُعرَف أحد حفظ وصية النبي ﷺ في آل بيته مثل أهل السُّنة والجماعة، وأتوا بها وافية بلا غُلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط، كما أوصى بذلك النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وأهل السُّنة والجماعة والَوْا جميع الصحابة، وأحبوا جميع الصحابة، وعرفوا مكانة جميع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يكن في قلبهم غل لأي من الصحابة، محققين قول الله جلّ في علاه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠]، سبقونا بالإيمان: يدخل الصحابة من المهاجرين والأنصار في هذا السبق دخولاً أولياً، كما قال الله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التوبة: ١٠٠]، الصحابة

يدخلون دخولاً أولياً، فأهل السُّنة قلوبهم سليمة تجاه الصحابة كلهم، وألسنتهم سليمة تجاه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلهم، ليس في قلوبهم غل، وليس أيضاً في ألسنتهم طعن أو وقيعة؛ بل عَمَر الله قلوبهم بالمحبة للصحابة، يحبون آل بيت النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ يحبون علي، ويحبون فاطمة، ويحبون الحسن، ويحبون الحسين، يحبون آل بيت النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ليس في قلوبهم غل، ولا عداء، وبُغْض لآل البيت، ويحبون الصحابة أيضاً؛ وهذا هو المنهج العدل، لا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء، فكانوا حقاً من أهل قول الله ﷻ ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠].

ولهذا يُؤثَر عن أحد السلف أنه رأى رجلاً يقع في أحد الصحابة فسأله، قال له: هل أنت من أهل قول الله ﷻ ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ [الحشر:٨] إلى تمام الآية؟ قال: لا، قال: هل أنت من الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الحشر:٩]؟ قال: لا، قال: إذاً أنت لست من قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠] لأنك لا تستغفر لهم، تطعن فيه، وتقع فيهم، وتَسُبّهم؛ فلست منهم.

فالواجب تجاه الصحابة: محبتهم أجمعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

وأما مَنْ يقول: (مَنْ لا يبغض لَبا بكر وعمر فقد أبغض عليا)، الحق يا إخوان- وقيّدوا هذه الكلمة-: أن مَنْ يُبغض أبا بكر وعمر فهو يبغض علي، الذي يبغض أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فهو مُبغض لعلي، ومبغض للصحابة أجمعين.

علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لا يبلغني أحد عن أحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري، فكيف بمَنْ يُبغض أبا بكر؟! ليس فقط يفضل علي على أبي بكر وعمر، يبغض أبي بكر وعمر..

فمَنْ يبغض أبا بكر وعمر هو في الحقيقة مبغض لعلي، ومُبغض للحسن، ومُبغض للحسين، ومُبغض لفاطمة، ومُبغض للصحابة أجمعين، الصحابة كلهم جمعهم الله ﷻ وألَّف قلوبهم على الإيمان والتقوى.

إذاً هذه القاعدة: (مَنْ لم يبغض أبا بكر وعمر فقد أبغض علياً) من أين نشأت؟ من أين نشأت القاعدة: (مَنْ لم يبغض أبا بكر وعمر فقد أبغض علياً)؟ من أين نشأت؟

نشأت من مرض القلب، نشأت هذه البدعة من مرض القلب بالأهواء الخبيثة المتراكمة، فتنشأ مثل هذه القواعد الفاسدة الباطلة (مَنْ لم يبغض أبا بكر وعمر فقد أبغض علياً)، لكن القاعدة لا تكون صحيحة إلا إذا قيل: مَنْ يبغض أبا بكر وعمر فقد أبغض علياً؛ لأن الصحابة كلهم على الائتلاف والمحبة والتآخي والتعاون.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وكقول القدري: مَنْ اعتقد أن الله أراد الكائنات وخلق أفعال العباد فقد سلب العباد القدرة والاختيار، وجعلهم مجبورين كالجمادات التي لا إرادة لها ولا قدرة.

(وكقول القدري) عندما يقال: (القدري) لا يراد به إلا مَنْ نفى القدر.

وفي الأثر- ويُروى مرفوعاً- (القدرية مجوس هذه الأُمة).

يراد بالقدرية: نُفاة القدر الذين يقولون: لا قدر، وأن أفعال العباد لم يُقَدِّرها الله.

وسُمي هؤلاء (مجوس هذه الأُمة)؛ لأن المجوس يقولون بخالقين، والقدرية مثلهم؛ يقولون: الله خالق للإنسان، والإنسان خالق لفِعْل نفسه، أي: أن فِعْله لم يُقدِّره الله وإنما هو الذي خلق فِعْل نفسه، دون أن يُقدِّر الله فِعْله.

هؤلاء يقال لهم: القدرية، ويقال لهم: القدرية؛ لأنهم نفاة للقدر، يقولون: لا قَدَر.

يقول هؤلاء القدرية: (مَنْ اعتقد أن الله أراد الكائنات وخلق أفعال العباد) أن الله أراد الكائنات: المراد بـ(أرادهم): أي كوناً وقدراً، الإرادة هنا: الإرادة الكونية القدرية، (أراد الكائنات) أي: قدَّرها، وشاء وجودها وخلقها، وخلق أفعال العباد، مثل ما قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات]، قال ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة].

وقال ﷻ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، فكل شيء يشمل الذوات والحركات، يشمل خلْق الإنسان، وخلْق أفعال الإنسان، فالإنسان مخلوق لله، وأفعاله مخلوقة لله ﷻ، والله ﷻ خالق كل شيء.

قال: يقولون (أي: القدرية النفاة) (مَنْ اعتقد أن الله أراد الكائنات وخلق أفعال العباد فقد سلب العباد القدرة والاختيار، وجعلهم مجبورين كالجمادات التي لا إرادة لها ولا قدرة) هذا القول مبني على فهْمهم الفاسد واعتقادهم الباطل، وهم لما قالوا ذلك ذكروا عقيدة الطرف النقيض لهم، وهم مَنْ يُسمون القدرية المجبرية، أما أهل السُّنة لم يقولوا هذا القول، ولم يقولوا أيضاً قول القدرية النفاة، وإنما قولهم وسط

بين هاتين الضلالتين (ضلالة القدرية المجبرة، وضلالة القدرية النفاة) فأثبتوا أن أفعال العباد مخلوقة، وأن الله ﷻ الخالق جل في علاه لكل شيء، وأثبتوا في الوقت نفسه مشيئة للعبد، لم يقولوا: إنه مجبور وأنه لا اختيار له، وأنه كالورقة في مهب الريح، لم يقولوا ذلك، وإنما قالوا: له مشيئة، ومشيئته تحت مشيئة الله، كما قال الله ﷻ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير] فأثبت للعبد مشيئة، قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ﴾ [التكوير:٢٨] فهذا يدل على أن العبد له مشيئة وله قدرة وله اختيار.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير] أي: أن مشيئة العبد تحت مشيئة الله ﷻ.

قال –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وكقول الجهمي: مَنْ قال: إن الله فوق العرش: فقد زعم أنه محصور، وأنه جسم مركب، وأنه مشابه لخلقه.

قال: (وكقول الجهمي) المراد بالجهمي: أي مَنْ ينفي الصفات– صفات الله ﷻ– (مَنْ قال: إن الله) يقول الجهمي: (مَنْ قال: إن الله فوق العرش: فقد زعم أنه محصور، وأنه جسم مركب، وأنه مشابه لخلقه)؛ هذا كله مبني على اعتقاد الجهمية الفاسد، والذي بنوا عليه جحْد صفات الله ﷻ وإنكار علوه ﷷ على خلْقه.

فهؤلاء لما فهموا هذا الفهْم الفاسد وبنوا عليه التعطيل ظنوا أن أهل السُّنة إنما فهموا من الصفات– أو نصوص الصفات– ما فهمه هؤلاء منها من معاني فاسدة، وظنوا أن الذي يثبته أهل السُّنة هو هذا، بينما أهل السُّنة براء من تعطيل الجهمية، وبراء في الوقت نفسه من تشبيه المُشَبِّهة، وقولهم قوام بين ذلك، ووسط بين هاتين الضلالتين (ضلالة المعطِّلة، وضلالة المُشَبِّهة)، وعقيدتهم في هذا الباب: إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، على حد قول الله جلّ وعلا: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

قال –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وكقول الجهمية والمعتزلة: مَنْ قال إن لله علماً وقُدرة فقد زعم أنه جسم مركب وهو مُشَبِّه؛ لأن هذه الصفات أعراض، والعرض لا يقوم إلا بجوهر متحيز، وكل متحيز فجسم مركب أو جوهر فرد، ومَنْ قال ذلك فهو مُشَبِّه لأن الأجسام متماثلة.

قال: (وكقول الجهمية والمعتزلة: مَنْ قال إن لله علماً وقُدرة فقد زعم أنه جسم..) إلى آخره، هذه الألفاظ التي سمعنا الآن (الجسم، والعرض، والجوهر..) إلى آخره، هذه الألفاظ لو فتشت في الكتاب والسُّنة وفي كلام السلف لا ترى لها وجود إطلاقاً، من أين جاءت؟ وكيف جاءت؟ ولماذا جاءت؟

هذه ألفاظ أحدثها هؤلاء المبتدعة، وأوجدها هؤلاء المبتدعة في هذا الباب من أجل أن يتكئوا عليها في تعطيل صفات الله، ولا ينخدع بهذه الألفاظ إلا جاهل بكتاب الله وسُنة نبيّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فجاءوا بهذه الألفاظ لتكون متكأً لهم في جحْد صفات الله ﷻ وتعطيلها، وعدم الإيمان بها.

وأهل السُّنة يثبتون لله ﷻ صفاته على الوجه اللائق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه، وكل ما يلزم الصفة باعتبار إضافتها للمخلوق لا يعدُّونه لازماً للصفة باعتبار إضافتها لله، لأن الصفة إذا أُضيفت إلى المخلوق يلزمها من النقص والضعف ما يلزمها، أما إذا أُضيفت الصفة للذي ليس كمثله شيء تكون الصفة ليس كمثلها صفة، على حد ما جاء في الآية الكريمة المتقدم ذِكْرها ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ومَنْ حكى عن الناس المقالات، وسماهم بهذه الأسماء المكذوبة- بناءً على عقيدتهم التي هم مخالفون له فيها- فهو وربه والله من ورائه بالمرصاد، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

لما ذكر عن هؤلاء أصحاب هذه المقالات وطريقتهم هذه في التسمية لِمَنْ خالف عقيدتهم بناءً على فهْمهم هم للعقيدة، لا بناءً على عقيدة مَنْ يتهمونه بهذه الألقاب، لننتبه بهذا، يعني أهل البدع عندما يُلَقِّبون أهل السُّنة والجماعة بالألقاب الشنيعة يلقبونهم بهذه الألقاب بناءً على ما فهموه هم من أن هذه عقيدة أهل السُّنة والجماعة، أما عقيدة أهل السُّنة شيء آخر وراء هذا الفهم الفاسد الذي قام في نفوس هؤلاء المبتدعة الضلال، وقد برَّأ الله ﷻ أهل السُّنة من ذلك كله.

وسبحان الله- انتبه لهذه اللطيفة!- النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان المشركون يقولون: مُذَمَّم ما يقولون: محمد، ثم يسبون مُذَمّماً ويشتمون مُذمماً، فيقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: انظروا كيف صرف الله عني سبّهم، يسَبُّون مذمماً وأنا محمد، يقول: أنظروا كيف صرف الله عني شتمهم، دائماً يقولون: مذمم مذمم، ويشتمون مذمماً، فسبُّهم الآن ينصرف إلى مذمم، قال: يشتمون مذمماً وأنا محمد..

وهؤلاء يشتمون الناصبة، ويشتمون المجسمة، ويشتمون المشَبِّهة، ويشتمون الجبرية المجبرة، وأهل السُّنة براء من ذلك كله، عقيدتهم بعيدة عن كل هذه الأباطيل، وبعيدة عن كل هذا الضلال، بعيدة عن ذلك كله.

إذاً هؤلاء بناءً على ما يفهمونه ويظنونه عقيدةً لأهل السُّنة، يلَقِّبون أهل السُّنة بألقاب بناءً على فهْمهم هم ثم يشتمون أصحاب تلك الألقاب، فصرف الله عن أهل السُّنة ذلك كله، وحماهم مثل ما حمى نبيّه الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ثم انتقل بعد ذلك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ذِكْر جماع الأمر بذِكْر الأقسام الممكنة، أقسام الناس الممكنة في آيات الصفات..

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وجماع الأمر: أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام؛ كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة؛ قسمان يقولان: تجري على ظواهرها، وقسمان يقولان: هي على خلاف ظاهرها، وقسمان يسكتون.

هذه الأقسام الستة ذكرها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم شرع في تفصيل ما يتعلق بكل قسم من هذه الأقسام، ويؤجل الكلام على هذه الأقسام إلى لقاء الغد بإذن الله ﷻ.

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللهم إنّا نسأل الهدى والتقى والعفة والغنى.

اللهم أصلِح ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلِح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلِح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبُلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ عِلمنا، ولا تُسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

الدرس السابع والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «الفتوى الحموية الكبرى»:

وجماع الأمر: أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام؛ كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة؛ قسمان يقولان: تجري على ظواهرها، وقسمان يقولان: هي على خلاف ظاهرها، وقسمان يسكتون.

أما الأولون فقسمان:

أحدهما: مَنْ يجريها على ظاهرها، ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين فهؤلاء المشبِّهة، ومذهبهم باطل أنكره السلف، وإليه توجه الرد بالحق.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

هذه خاتمة ختم بها -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فتواه الحموية، ذكر فيها الأقسام الممكنة في هذا الباب- باب الأسماء والصفات- وأن الناس في هذا الباب ينقسمون إلى ستة أقسام، كل هذه الأقسام انحرفت عن الحق الذي كان عليه الصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إلا قسم واحد من هذه الأقسام، وهو: مَنْ أَمَرَّ هذه النصوص كما جاءت، وآمن بها كما وردت، وأجراها على ظاهرها اللائق بجلال الله وكماله وعظمته ﷻ، وجانب ما عليه أهل الضلال من تحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل.

وبيّن باختصار ما يتعلق بكل قسم من هذه الأقسام الستة؛ فذكر من هذه الأقسام (مَنْ يجريها على ظاهرها، ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين)؛ يجريها على ظاهرها: أي أن نصوص الصفات عنده على ظاهرها، وظاهرها عنده هو مماثل لصفة المخلوق، فمثلاً: عندما يقرأ ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤] يقول: الآية على ظاهرها، وظاهرها: أنها يدان كَيَدَيّ المخلوق- تعالى الله عمّا يقول علواً كبيراً- وهذا كُفْر

بالله؛ لأن تشبيه الله ﷻ بالمخلوقات هذا باب من أبواب الكفر، وهو كفر أكبر، والله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ويقول جلّ وعلا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، ويقول: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]، ويقول: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، ويقول: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢] تنزّه وتقدّس وتعالى عن النظير والشبيه والمثيل.

(فهؤلاء) قال:هم (المشبِّهة، ومذهبهم باطل أنكره السلف، وإليه توجه الرد بالحق) ومعنى (توجه) أي: ظهر وبان، (الرد بالحق) أي: فيما جاء من النصوص وفي تقريرات أئمة السف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، في إنكار هذه الضلالة الباطلة- ضلالة المُشَبِّهة.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

الثاني: مَنْ يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله كما يُجري ظاهر اسم العليم، والقدير، والرب، والإله، والموجود، والذات ونحو ذلك على ظاهرها اللائق بجلال الله، فإن ظواهر هذه الصفات في حق المخلوقين إما جوهر مُحدَث وإما عرض قائم به.

فالعلم، والقدرة، والكلام، والمشيئة، والرحمة، والرضا، والغضب، ونحو ذلك في حق العبد أعراض، والوجه، واليد، والعين في حقه أجسام، فإذا كان الله موصوفاً عند عامة أهل الإثبات بأن له علماً وقدرة وكلاماً ومشيئة - وإن لم يكن ذلك عرضاً، يجوز عليه ما يجوز على صفات المخلوقين - جاز أن يكون وجه الله ويداه ليست أجساماً يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين.

وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره من السلف، وعليه يدل كلام جمهورهم وكلام الباقين لا يخالفه؛ وهو أمر واضح فإن الصفات كالذات، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات فصفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات.

فمَنْ قال: لا أعقل علماً ويداً إلا من جنس العلم واليد المعهودين قيل له: فكيف تعقل ذاتاً من غير جنس ذوات المخلوقين؟ ومن المعلوم أن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته؛ فمَنْ لم يفهم من صفات الرب - الذي ليس كمثله شيء - إلا ما يناسب المخلوق فقد ضل في عقله ودينه.

وما أحسن ما قال بعضهم: إذا قال لك الجهمي: كيف استوى؟ وكيف ينزل إلى السماء الدنيا؟ وكيف يداه ونحو ذلك؟ فقل له: كيف هو في نفسه؟ فإذا قال لك: لا يعلم ما هو إلا هو وكنه الباري غير معلوم

للبشر، فقل له: فالعلم بكيفية الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف؛ فكيف يمكن أن تعلم بكيفية صفة الموصوف ولم تعلم كيفيته، وإنما تُعلَم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي له، بل هذه المخلوقات في الجنة قد ثبت عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، وقد أخبر الله: أنه لا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين، وأخبر النبي ﷺ: «إن في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فإذا كان نعيم الجنة- وهو خلْق من مخلوقات الله- كذلك فما الظن بالخالق ﷻ؟!

وهذه الروح التي في بني آدم قد علم العاقل اضطراب الناس فيها، وإمساك النصوص عن بيان كيفيتها، أفلا يعتبر العاقل بها عن الكلام في كيفية الله تعالى؟ مع أنّا نقطع بأن الروح في البدن، وأنها تخرج منه وتعرج إلى السماء، وأنها تُسَلُّ منه وقت النزع كما نطقت بذلك النصوص الصحيحة، لا نغالي في تجريدها غلو المتفلسفة ومَنْ وافقهم، حيث نفوا عنها الصعود والنزول والاتصال بالبدن والانفصال عنه وتخبطوا فيها، حيث رأوها من غير جنس البدن وصفاته، فعدم مماثلتها للبدن لا ينفي أن تكون الصفات ثابتة لها بحسبها، إلا أن يفسروا كلامهم بما يوافق النصوص فيكونون قد أخطئوا في اللفظ وأنّى لهم بذلك.

هذا بيان للقسم الثاني من الأقسام الممكنة في باب الصفات، ذكر فيه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ما عليه أهل السُنة والجماعة، وهو إجراء النصوص- نصوص الصفات- على ظاهرها، والإيمان بها كما جاءت مع اعتقاد أن الظاهر المتبادر من هذه النصوص هو معنى يليق بالله ﷻ، لا يماثل ولا يشابه الوصف الذي في المخلوقين.

وإذا قال قائل: لا نعقل يداً إلا من جنس هذا الذي نراه في الشاهد، أو لا نعقل وجهاً إلا من جنس ما نراه في الشاهد، أو نحو ذلك؛ فهذا له جوابه- كما بيّن أهل العلم- بأن إضافة الصفة إلى موصوف معين فإن الصفة تليق بهذا الموصوف الذي أُضيفت إليه، وهذا أمر نعلمه في الشاهد، فالصفة باعتبار مَنْ أُضيفت إليه، فإذا أُضيفت الصفة إلى مَنْ ليس كمثله شيء كانت الصفة ليس كمثلها صفة، كما قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ويقال لهذا القائل: أنّا لا نعقل- في باب الصفات- إلا ما نراه في الشاهد، يقال له: ألست تثبت له ذاتاً لا كالذوات؟ فالقول في الصفات كالقول في الذات، كما أنك تثبت ذاتاً لا كالذوات فأثبِت له ﷻ صفات لا كالصفات، وهذا هو الواجب لأن صفات الله ﷻ تليق بعظمة الله وجلاله وكماله وهي ثابتة له جلّ وعلا،

وهو ﷻ مُنزّه عن صفات المخلوقين كما قال جلَّ في علاه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وإذا بحث إنسان عن الكيفية فإن كيفية صفات الله تبارك وتعالى ليست معلومة- كما قال أئمة السلف: أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف، كما قال الإمام مالك: والكيف غير معقول، وفي رواية: والكيف مجهول.

يقول شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وما أحسن ما قال بعضهم: إذا قال لك الجهمي: كيف استوى؟ وكيف ينزل إلى السماء الدنيا؟ وكيف يداه ونحو ذلك؟ فقل له: كيف هو في) نفس الأمر؟ يعني أخبرنا عن كيفية الذات، (فإذا قال لك: لا يعلم ما هو إلا هو وكنه الباري غير معلوم للبشر، فقل له: فالعلم بكيفية الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف) لأن القول في الصفات فرع عن القول في الذات (فكيف يمكن أن تعلم بكيفية صفة الموصوف ولم تعلم كيفيته) أي: كيفية ذاته، (وإنما تُعلَم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي) لك، بل هذا المخلوق (في الجنة قد ثبت عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: ليس في) الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء، وهذا مثال ذكره -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يبين ذلك، إذا كان ما يتعلق بنعيم الجنة- وقد ذُكِر في كتاب الله وسُنة النبي ﷺ، ذُكِر العنب، ذُكر الرمان، ذُكر العسل، ذُكرت الأنهار، ذُكرت الأشجار.

ويقول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء، عنب في الجنة لكن ليس كعنب الدنيا، وفي صلاة الكسوف تقدم النبي ﷺ ثم أخبر الصحابة أنه رأى الجنة وقال: مددت يدي لأقطف عنقوداً من عنبها، ولو قطفته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، عنقود واحد، لأكلتم منه- أي: جميع الناس- إلى نهاية الدنيا، فلا يُقارَن نعيم بنعيم، لا يقارَن عنب بعنب، فإذا كان هذا في المخلوقات، في الجنة عنب والدنيا عنب، وهو في الدنيا عنب حقيقي، وفي الجنة عنب حقيقي لكن ليس العنب كالعنب، هذا نعلمه من هذه المخلوقات، فكيف في الفرق بين الخالق والمخلوق ﷻ؟

لو قال قائل: يلزم من وجود عنب في الآخرة أن يكون مثل عنب الدنيا تماماً، لا نعلم عنباً إلا هذا الذي نراه، ماذا تقولون له؟

لو قال قائل: لو كان في الجنة عنب لا نعلم عنباً إلا هذا الذي نراه في الدنيا، يُقبَل كلامه؟ والله يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، النبي ﷺ يقول: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» فلا يلزم ذلك، إذا كان لا يلزم ذلك في الفرق بين مخلوق ومخلوق، فهل

يُقبَل قول القائل: لا نعلم يداً إلا كما نرى في الشـــاهد؟!! هذا كلام مَنْ لا يفهم ومَنْ لا يعقل، بل مَنْ لا يُعظِّم ربه ﷻ، ولا يقدر ربه حق قدره.

كيف يقول قائل: لا نعلم يداً إلا هذه التي نراها في الشــاهد، ورب العالمين يقول: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧]..

وذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مثالاً آخر يوضح هذا الأمر، هذه الروح التي في كل إنسان، ولها صفات عديدة جاء وصْـفها بها في الكتاب والسُّـنة، مثل: أنها تصـعد وتنزل وتُقبَض، وتنتشرـ في البدن.. إلى غير ذلك من الصفات، وهي روح حقيقية لها أوصاف، ولا نعلم كيفيتها.

فإذا كان كل إنســان عاجز عن معرفة كيفية هذه الروح التي بين جنبيه، فلأن يكون عاجزاً عن معرفة كيفية خالق المخلوقات من باب أَوْلى.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرها؛ أعني الذين يقولون: ليس لها في الباطن مدلول هو صفة الله تعالى قط وأن الله لا صفة له ثبوتية؛ بل صفاته إما سلبية وإما إضافية..

السلبية يراد بها النفي، والإضافية- مرَّ معنا ذِكْرها- يقصدون بها ماهيتين لا تُعقَل واحدة منهما إلا مع تَعَقُّل الأخرى، يُمثِّلون لها بالأبوة والبنوة، والمراد عندهم بالصفات الإضافية: رحيم يرحم بلا رحمة قائمة به، وهذا شيء لا يُتصوَّر.

وإما مركبة منهما أو يثبتون بعض الصفات السبعة أو الثمانية أو الخمسة عشرـ، أو يثبتون الأحوال دون الصفات، كما عُرف من مذاهب المتكلمين، فهؤلاء قسمان:

إثبات الأحوال هذه بدعة لفرقة من فِرَق المعتزلة يقال لها: البهشـية، يعني نسـبةً إلى أبي هشـام الجبائي أحد كبار المعتزلة، وكما ذكر العلماء هذه الأحوال- التي يعنيها ببدعته هذه- من الأمور التي لا تُعقَل.

فهؤلاء قسمان:

قســم يتأولونها ويُعيِّنون المراد مثل قولهم: اســتوى بمعنى اســتولى، أو بمعنى علو المكانة والقدر، أو بمعنى ظهور نوره للعرش، أو بمعنى انتهاء الخلق إليه، إلى غير ذلك من معاني المتكلفين.

وقسم يقولون: الله أعلم بما أراد بها؛ لكنّا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجية عما علمنا.

هذا ذِكْر للقسمين اللذان ينفيان الظاهر، ويقولون: نصوص الصفات ليست على ظاهرها، وذكر أن هؤلاء منهم مَنْ يقول: هي على ظاهرها ويتأولها بأنواع التأويلات يقول مثلاً: الاستواء: الاستيلاء، اليد: النعمة، الغضب: إرادة الانتقام، الرحمة: إرادة الإنعام.. وهكذا، ينفي ظاهرها ويتأوّل النص بإثبات معاني بعيدة، ليست هي المرادة من النص.

والقسم الثاني: مَنْ ينفي ظاهرها ويقول: هي مُؤوّلة، مصروفة عن ظاهرها لكن الله أعلم بتأويلها.

القسم الأول: هم المؤولة، والثاني: المفوضة.

وكل من المؤولة والمفوضة أهل تأويل، لكن المؤولة تأويلهم مُفصّل، والمفوضة تأويلهم مُجمَل.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

وأما القسمان الواقفان:

فقسم يقولون: يجوز أن يكون المراد ظاهرها الأليق بجلال الله، ويجوز أن لا يكون المراد صفة لله ونحو ذلك؛ وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم.

وقوم يمسكون عن هذا كله، ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث، مُعرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات.

هذان القسمان الأخيران وصفهما بالواقفين، القسمان الواقفان؛ فقسم مضطرب في هذا الباب يقول: يجوز أن تكون على ظاهرها، (ويجوز أن لا يكون المراد صفة لله ﷻ).

وقسم يُمسك عن هذا كله ولا يزيد على تلاوة القرآن.

وربما أنه يظن ذلك أنه من باب الورع، لكن الإيمان حقيقة لا يكون إلا بإثبات معاني هذه النصوص، لم تأتِ هذه النصوص لتُقرَأ قراءة مجردة دون أن تُفهَم، والله ﷻ قال: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، وأعظم ما في كتاب الله ﷻ ما يتعلق بالرب العظيم من ذِكْر لأسمائه وصفاته الدالة على عظمته.

أفيكون حظ المرء من هذا الباب العظيم من كتاب الله ﷻ ونصيبه منه مجرد القراءة دون فهْم؟!

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

فهذه الأقسام الستة لا يمكن الرجل أن يخرج عن قسم منها.

والصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها: القطع بالطريقة الثابتة كالآيات والأحاديث الدالة على أن الله سبحانه فوق عرشه، وتُعلَم طريقة الصواب في هذا وأمثاله بدلالة الكتاب والسُّنة والإجماع على ذلك دلالةً لا تحتمل النقيض، وفي بعضها قد يغلب على الظن ذلك مع احتمال النقيض، وتردد المؤمن في ذلك هو بحسب ما يؤتاه من العلم والإيمان، ومَنْ لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي مَنْ تشاء إلى صراط مستقيم»، في رواية لأبي داود: «كان يُكبّر في صلاته ثم يقول ذلك».

فإذا افتقر العبد إلى الله ودعاه وأدمن النظر في كلام الله وكلام رسوله وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين: انفتح له طريق الهدى.

هذه وصية عظيمة جداً يوصي بها شيخ الإسلام هنا، وكثيراً ما كان -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يوصي بهذه الوصية، وحقيقة جدير بكل مسلم أن يعتني بهذه الوصية العظيمة، وهي تتلخص في أمرين:

الأول: الدعاء، وصِدْق اللجوء إلى الله ﷻ الذي بيده أَزِمّة الأمور، والهداية بيد الله، وهي مِنّة الله ﷻ على مَنْ شاء من عباده.

فكثيراً ما كان يوصي شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بالعناية بهذه الدعوة، ولاسيما مَنْ اشتبهت عليه الأمور، والتبست عليه الطرق، واضطربت الأحوال، فيجد مثلاً أناساً يقولون كذا، وآخرون يقولون كذا، ولم يتبين له في ذلك الحق والهدى فليلجأ إلى الله وليضرع إليه بهذه الدعوة التي كان نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يستفتح بها صلاته من الليل، ولهذا جاء في رواية للحديث: (يُكبّر في صلاته) أي: من الليل (ثم يقول ذلك) أي: يستفتح بها صلاته من الليل..

(«اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي مَنْ تشاء إلى صراط مستقيم») فإذا صدق العبد مع الله وألَحّ عليه ﷻ لم يخيبه الله، فهو جلَّ وعلا لا يرُدّ عبدا دعاه، ولا

يخيب مؤمناً ناجاه، ولاسـيما إذا قام في الثلث الأخير من الليل، ومن أحرى أوقات الإجابة، ينزل ربنا إلى سـماء الدنيا في ثلث الليل الآخر فيقول: مَنْ يسـألني فأعطيه، مَنْ يدعوني فأستجيب له، مَنْ يستغفرني فأغفر له، فإذا قام من الليل وحافظ على هذه الدعوة مستفتحاً بها صلاته من الليل صـادقاً مع الله في لجوئه إليه جلّ وعلا هداه الله ﷻ إلى الصراط المستقيم.

الأمر الثاني: إدمان النظر (في كلام الله وكلام رسوله وكلام الصحابة والتابعين) لهم بإحسان، يُكثر من النظر في كتاب الله وفي السُّنة- سُنة النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-، وفي أقاويل السلف، وكتب أئمة السلف، يُكثِر النظر فيها والقراءة فيها.

فإذا جمع بين هذين الأمرين: اللجوء إلى الله، وبذْل هذه الأسباب النافعة انفتح له طريقة الهداية.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثم إن كان قد خبر نهايات إقدام المتفلسفة والمتكلمين في هذا الباب، وعرف غالب ما يزعمونه برهاناً وهو شُـبْهَة رأى أن غالب ما يعتمدونه يؤول إلى دعوى لا حقيقة لها، أو شُـبْهة مركبة من قياس فاسـد، أو قضـية كلية لا تصـح إلا جزئية، أو دعوى إجماع لا حقيقة له، أو التمسـك في المذهب والدليل بالألفاظ المشتركة.

ثم إن ذلك إذا رُكِّب بألفاظ كثيرة طويلة غريبة عمَّنْ لم يعرف اصـطلاحهم- أوهمت الغر ما يوهمه السراب للعطشان- ازداد إيماناً وعلماً بما جاء به الكتاب والسُّنة، فإن الضد يُظهِر حُسْن الضد، وكل مَنْ كان بالباطل أعلم كان للحق أشد تعظيماً وبقدره أعرف.

فأما المتوسط من المتكلمين فيُخاف عليه ما لا يُخاف على مَنْ لم يدخل فيه، وعلى مَنْ قد أنهاه نهايته، فإن مَنْ لم يدخل فيه هو في عافية، ومَنْ أنهاه قد عرف الغاية، فما بقي يخاف من شيء آخر، فإذا ظهر له الحق وهو عطشان إليه قبله، وأما المتوسط فمتوهم بما تلقاه من المقالات المأخوذة تقليداً لمعظَّمه وتهويلاً.

وقد قال الناس: أكثر ما يُفسد الدنيا نصف متكلم، ونصف متفقه، ونصف متطبب، ونصف نحوي؛ هذا يُفسد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان.

هنا يذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ما يتعلق بعلم الكلام وعلماء الكلام، وأن مَنْ دخل في علم الكلام لا يخلو إما أن يكون مبتدئ أو أن يكون متوسـط أو أن يكون منتهي، فبيّن أولاً ما يتعلق بمَنْ بلغوا في علم الكلام

نهايته، مَنْ يُطالِع سِيَر هؤلاء يجد أنهم أعلنوا في نهاية هذا المطاف الطويل والعمر الطويل في هذا العلم أنهم لم يصلوا إلا إلى طريق مغلقة لا توصل إلى الحق، ولا يتبين من خلالها هدى، بل لا تصل بصاحبها إلا إلى الشك والاضطراب، كما قال القائل:

نهاية إقدام العقول عقال وآخر سعْي العالمين ضلال،

لم نستفد من جمعنا طول عمرنا سوى أن جمعنا قيل وقالوا،

هذه نهاية مَنْ دخل في هذا العلم وبلغ منتهاه لا يصل إلا إلى الشك والحيرة والاضطراب، وسبق في أول.. أوائل هذا الكتاب أن نقَل رحمة الله عليه نقولات عديدة عن عدد من هؤلاء أعلنوا ذلك، أعلنوا حيرتهم واضطرابهم، وأنهم لم يحصلوا، أو لم يصلوا من خلال هذا العلم لم يصلوا إلى نتيجة.

وبعضهم كانت عبارته في هذا الباب: أن الطريق مسدود، أن الطريق يعني مسدود لبلوغ الحق من خلال هذا العلم- علم الكلام-، وأن نهاية مَنْ يدخل هذا الطريق لا يصل إلا إلى ضلال؛ ألفاظ كلها حول هذا المعنى.

فمَنْ رأى في سِيَر هؤلاء اعتبر واتعظ، يقول: إذا كان هؤلاء لم يصلوا إلا إلى طريق مسدود، فالسعيد مَنْ اتعظ بغيره.

أرأيتم لو أن شخصاً أراد السفر إلى وجهة معينة، إلى بلد ما، وسلك طريقاً، ووصل إلى نهايته وتعب في الطريق من حُفَر ومؤذيات وهوام، وغير ذلك.. إلى أن وصل في النهاية، وتبيّن أنه ليس هو الطريق، مغلق الطريق ورجع، وصل إليك وقد رجع منه، وسألته، أنت تريد نفس المكان، وقال لك: أنا مشيت وتعبت وحصل لي كذا.. إلى آخره، وجدته مغلق، هل العاقل يدخل طريقاً مثل ذلك؟! وقد شهد أساطينه وأكابره أنهم لم يُحصِّلوا إلا الحيرة والضلال، أنهم لم يحصلوا إلا الشك.

ففيما يتعلق بأساطين هؤلاء وكبار هؤلاء، في نهاية المطاف أعلنوها صريحة: أنهم لم يحصلوا إلا الخيبة، وأن الحق بلوغه من خلال هذا الطريق مغلق وموصد، وأنه لا يمكن أن يُحصَّل الحق والهدى من هذا الطريق (الفلسفة وعلم الكلام).

هذا فيما يتعلق بمَنْ بلغ في هذا العلم نهايته.

يقول: أما المتوسط فهذا يُخاف عليه، الذي دخل في هذا العلم وتوسط، لا يزال يظن أنه ماذا؟.. سيحصل علماً، سيُحصِّل نفعاً، ولا يزال يتمادى في هذا العلم، ومثل هذا النوع ضرره على الناس عظيم

جداً، أما أكابر أولئك- أساطينهم-فأعلنوها في النهاية، قالوا: أن هذا طريق لا نفْع فيه، وحذّروا الناس منه، ونهوهم عن دخوله، لكن المتوسط من هؤلاء هو الذي لا يزال في غرور علم الكلام، فهو خطر على نفسه، وأيضاً خطر على مَنْ حوله.

ولهذا يقول شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (قال الناس: أكثر ما يُفسد الدنيا نصف متكلم) نصف متكلم لا يزال معجب بعلم الكلام، ويرى صحته وسلامته وأن عليه قوام العلوم وصحة البراهين، يكون في نفسه ضالاً ويكون أيضاً لغيره مُضِلاً.

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ومَنْ علم أن المتكلمين من المتفلسفة وغيرهم هم في الغالب ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات] يعلم الذكي منهم والعاقل: أنه ليس هو فيما يقوله على بصيرة، وأن حجته ليست بيّنة، وإنما هي كما قيل فيها:حجج تهافت كالزجاج تخالها حقاً وكل كاسر مكسور، ويعلم العليم أنهم من وجه مستحقون ما قاله الشافعي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حيث قال: حُكمي في أهل الكلام أن يُضرّبوا بالجريد والنعال، ويُطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال: هذا جزاء مَنْ ترك الكتاب والسُّنة وأقبل على علم الكلام.

ومن وجه آخر إذا نظرت إليهم بعين القدر- والحيرة مستولية عليهم والشيطان مستحوذ عليهم- رحمتهم ورفقت عليهم، أُوتوا ذكاء وما أوتوا زكاء، وأُعطوا فهوماً، وما أُعطوا علوماً، وأُعطوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦]، ومَنْ كان علياً بهذه الأمور: تبين له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم حيث حذروا عن الكلام ونهوا عنه، وذموا أهله وعابوهم وعلم أن مَنْ ابتغى الهدى في غير الكتاب والسُّنة لم يزدد إلا بُعداً.

فنسأل الله العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم

صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين.

يقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فيما يتعلق بهؤلاء علم الكلام أن صاحب الحق إذا نظر إليهم لا يخلو نظره إليهم من حالتين؛ إما ينظر إليهم بعين الشرع، أو ينظر إليهم بعين القدر؛

فإن نظر إليهم بعين الشرع، يعني حُكمهم في شرع الله ﷻ أنهم ضُلّال يستحقون العقوبة، وأن مثل هؤلاء يعاقبون حتى يكفوا في أنفسهم عن هذا الانحراف، وأيضاً يسلم غيرهم من انحرافهم وضلالهم كما

قال الشـــافعي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حُكمي في أهل الكلام أن يُضرّبوا بالجريد والنعال، ويُطاف بهم في القبائل والعشـائر ويقال: هذا جزاء مَنْ ترك الكتاب والسُّـنة وأقبل على الكلام) هذا من حيث النظر إليهم بعين الشرع.

وإذا نظر الإنسـان إليهم بعين القدر- والحيرة مستولية عليه، والشـيطان مستحوذ عليهم- يرحمهم ويعطف عليهم، ويتمنى في نفسـه لو أنهم تابوا من هذا العلم، ويحرص على أن يقدم لهم من النصـيحة والبيان ما يكون سـبباً لهدايتهم، وقد فعل شـيخ الإسـلام مُصـنِّف هذا الكتاب مع هؤلاء أموراً عجب في مناصـحتهم، ودعوتهم، وبيان الحق لهم، والصـبر على الإجابة على شبهاتهم، ومناقشـتهم، والتأني بهم، بذل في ذلك جهوداً عجيبة للغاية يعلمها مَنْ يقرأ كتبه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، ومَنْ يقرأ سيرته -رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله هنا: (رحمتهم ورفقت عليهم) هكذا في النُّسـخة، في بعض النُّسـخ: (وترفّقت بهم) (رحمتهم وترفقت بهم)، والذي بين أيدينا هذا (رحمتهم) لعلها (ورققت عليهم) (رحمتهم) ورققت: أي كنت رقيقاً على هؤلاء، أو يكون كما في بعض النُّسـخ: وترفّقت بهم، رحمتهم وترفقت بهم، أو رحمتهم ورققت عليهم، ثم بيّن حالهم أن عندهم ذكاء لكن ليس عندهم زكاء، وعندهم علوم ولكنهم ليس عندهم فهوم، (أُعطوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦]).

قال: (ومَنْ كان عليماً بهذه الأمور) أي: أحوال هؤلاء، وتهافُت حججهم وفسـاد أقوالهم (تبين له بذلك حذق السلف) وأنهم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يكفوا عن علم الكلام إلا عن بصرٍ وبصيرة، وعلم ثاقب بأن هذا علم لا خير فيه، وإلا كانوا على هذه الأمور أقدر، وذكاؤهم أقوى، وفطرتهم أعظم، ولكنهم ببصـيرة نافذة كفّوا عن هذه الأمور ولزموا كتاب الله وسُنة نبيّه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فحازوا السعادة وفازوا بها.

قال: (تبين له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم حيث حذروا عن علم الكلام ونهوا عنه، وذموا أهله وعابوهم وعلم أن مَنْ ابتغى الهدى في غير الكتاب والسُّنة لم يزدد إلا بُعداً) وكان -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كثيراً ما يقول: مَنْ فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول ﷺ.

ثم ختم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بهذه الدعوة: سـؤال الله الهداية للصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

ونسـأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجزي شـيخ الإسـلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى خير الجزاء على هذه الفُتيا العظيمة النافعة، وأن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

وأُحب أن أُنبِّه الأخوة الكرام أن هذا الدرس- درس الفجر- يتوقف اعتباراً من هذا اليوم يتوقف لمدة أسبوعين، الأسبوع القادم، وأيضاً الأسبوع الذي يليه، وفي الأسبوع الثالث نعود إن شاء الله لهذا المجلس، وستكون القراءة بإذن الله تبارك وتعالى في كتاب «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه.